

الخليج هل هو عربي ام فارسي؟

الفتوحات العربية الكبرى على الخليج

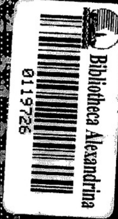
والفرس تحت رايات بني العباس

وتاسكو دوغاما

يدخلون الخليج تجار مسلحين

بين فكي روسيا وبريطانيا

في الحربين العالميتين



الخليج العربي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت - لبنان

ص . ب . ٨٣٧٥

هاتف: ٣٥٣٠٠٠ - ٣٥٠٧٢١ - ٣٥٠٧٢٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠

تلكس - ٢٢٦٦١

فاكس - ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

بناية الوهاد - شارع جان دارك - بيروت

الطبعة الثانية

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

تصميم الغلاف جمانة ابو شقرا

قدري قلعجي

الخليج العربي

الجزء الأول

ثغر العروبة وبحر الأساطير

- الخليج : هل هو عربي أم فارسي ؟
- جغرافية الخليج العربي
- الملاحة والحركات البحرية في الخليج

الخليج: هل هو عربي أم فارسي؟

الخليج الزمردي، بحر الأساطير، خزان البترول العـالمي، موطن الثروات ومسرح المغامرات، ملعب أحفاد ابن ماجد وأبناء السندباد، الذين زرعوا البحار أشرعة بيضاء، وأحالوا الصحاري واحات غناء... وهل من حاجة إلى التعريـف به ؟ سؤال لا بد للاجابة عليه من الوقوف على مـا تمخضت وتتمخض عنه المطابع كل يوم من مؤلفات وأبحاث تهتم جغرافياً أو تاريخيـاً أو بشرياً أو اقتصاديـاً أو سياسياً بهذه البقعة من العالم !..

والحق ان كثيراً من المؤرخين، حتى العرب منهم، كانوا إذا ما سمّوا الخليج قالوا: الخليج الفارسي أو خليج العجم، والمعنيان واحـد، ولكن كان كثير منهم، وهم الأبعد نظراً والأعمق معرفة بالواقع الجغرافي وحقائق التاريخ، ينكرون هذه التسمية. ونحن نرى ان الأمر لا يعدو نقطة انطلاق خاطئة أو مغرضة، قفّى على أثرها سياسيون مغرضون أو مقلدون جـاهلون. أما ما يقوله التاريخ، ومـا تقصه علينا الجغرافية الطبيعية والبشرية، فتلك رواية ثانية من بعض فصولها هـذا الكتاب.

كان الاسم الذي يُطلق على الخليج في العصور القديمـة، كما دلت النقوش الأكادية: البحر الأدنى أو المر Lower or Bitter Sea ويقابله فيها البحر الأعلى Upper Sea وهو البحر الأبيض المتوسط [1].

---

١ - العرب والملاحة في المحيط الهندي، تأليف جورج فاضلو حوراني ترجمة الدكتور يعقوب بكر، ص ٣٠٩

والراجح ان الاسكندر الأكبر الذي كان يطمح إلى أن يحمل لقب « ملك العالم » هو أول من سماه « الخليج الفارسي » ، فقد أرسل الامبراطور المقدوني أسطوله بقيادة أمــير البحر نياركوس إلى المحيط الهندي بحثاً عن الاكتشافات الجغرافية في منابع الشمس ، في مغامرة بحرية علمية من أروع المغامرات التي جرت في العصور القديمة . وقد عاد نياركوس من الهند إلى العراق سنة ٣٢٦ — ٣٢٥ ق. م. عن طريق الخليج لسبر غور مياهه واكتشاف مصب الفرات ، ثم تبع بأسطوله مجرى نهر قارون ليحط رحاله عند مدينة سوزة حيث كان الاسكندر في انتظاره .

وهكذا لم يتعرف الأميرال المقدوني في رحلته هذه إلا إلى الساحل الشرقي للخليج ، أي الساحل الفارسي ، وظل الساحل العربي مجهولاً لديه [١] . مما دعا الأمبراطور إلى أن يطلق على الخليج ذلــك الاسم ، وبقي متداولاً ، بطريق التواتر [٢] . وفي العصور الأخيرة أطلــق العثمانيون على الخليج اسم « خليج البصرة [٣] » ، أما سكان الاحساء فكانوا يسمونه «خليج القطيف [٤]» .

ومع ذلك ، فمنذ القرن الأول للميلاد نرى باحثاً شهيراً هو المؤلف والمؤرخ الروماني بليني Pliny الذي ولد سنة ٦٢ م وتوفي سنة ١١٣ م يسمي الخليج باسمه الصحيح، أي الخليج العربي ،وذلك في وصفه لمدينة خاراكس التي يُرجع الباحثون انها مدينة المحمرة [٥] . وننشر في ما يلي مــا قاله بليني حرفياً ، نقلاً عن كتاب «الخليج الفارسي» للسير ارنولد ويلسون ، ص ٤٩، مع ترجمته باللغة العربية :

---

١ J. J. Berreby : Le Golfe Persique. P, 190

٢ ـ الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة تاليف الدكتور سيد نوفل ، ص ٣٩ و ٤٥

٣ ـ دراسات عن الكويت والخليج العربي، تاليف عبد المجيد لطفي وعثمان فيظ الله ص ١٢

٤ ـ ساحل الذهب الاسود تاليف محمد سعيد المسلم ص ١٧

٥ ـ A. wilson : The Persian Gulf. P, 30 انظر ايضا : العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٤٤

« Charax is a city situate at the furthest extremity of the Arabian Gulf, at which begins the more prominent portion of Arabia Felix (Eudaemon): it is built on an artificial elevation, having the Tigris on the right, and the Eulaeus on the left, and lies on a piece of ground three miles in extent, just between the confluence of those streams. It was first founded by Alexander the Great. By his order it was to be called Alexandria... the city, however, was destroyed by inundations of the rivers Antiochus afterwards rebuilt the place and called it by his own name, and on its being again destroyed, Pasines, king of the neighbouring Arabians, restored it, and raised embankments for its protection, calling it after himself. These embankments extended in length a distance of nearly three miles, in breadth a little less. It stood at first a distance of ten stadia from the shore, and even had a harbour of its own. But according to Juba, it is fifty miles from the sea; and at the present day, the ambassadors from Arabia, and our own merchants who have visited the place, say that it stands at a distance of one hundred and twenty miles from the sea-shore. Indeed, in no part of the world have alluvial deposits been formed more rapidly by the rivers, and to a greater extent than here; and it is only a matter of surprise that the tides, which run to a considerable distance beyond this city, do not carry them back again. (1)

« خاراكس مدينة تقع في الطرف الأقصى من الخليج العربي ، حيث يبدأ الجزء الأشد بروزاً من العربية السعيدة (اودايون) وهي مبنية على مرتفع اصطناعي ، ونهر دجلة إلى يمينها ، ونهر اولاوس إلى يسارها ، والرقعة التي تقوم عليها ، والتي يبلغ طولها ثلاثة أميال ، بقع بين هذين النهرين ، وعلى مقربة منها يلتقيان . أنشأها بادىء ذي بدء الأسكندر الكبير ، وأمر أن يُطلق عليها اسم الاسكندرية ... إلا أن فيضان النهرين دمرها . فأعاد بناءها انطيوخوس وأطلق عليها اسمه ، وبما انها هدمت للمرة الثانية ، فقد أعاد بناءها «باسينس» ملك العرب المجاورين ، وأقام على ضفتي النهرين سدوداً لرد المياه عنها ، وأسماها باسمه . وكان طول هذه السدود ثلاثة أميال وعرضها أقل من ذلك بقليل . وكانت تبعد أول الأمر ما ينيف على الميل عن الضفة ، حتى انها كانت تملك ميناء خاصاً بها » .

من المعروف أن الخليج شطران : غربي وشرقي . والشطر الغربي هو جزء

(1) See : Arnold Wilson : The Persian Gulf. p, 49

لا يتجزأ من أرض الجزيرة العربية التي لم تعرف – كما يجمع المؤرخون على مختلف عصورهم ومتباين منابتهم – غير العرب سكاناً له ، وأية مكابرة للتشكيك في ذلك ، انما هي مكابرة لنقض البدهيات كفتنا حكمة المتنبي مؤونة الرد عليها :

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهارُ إلى دليل

وكان العرب يسمون الشاطىء الممتد من البصرة إلى عُمان بالخط[1] وهو يضاف أحياناً فيُسمى خط عبد القيس ، وهو يشمل الآن إمارتي الكويت وقطر ومدائن الاحساء الساحلية وهي القطيف والجبيل والدمام والخبر وميناءي رأس تنورة والعقير ومدينة الظهران وهي الآن المركز الرئيسي لشركة النفط العربية الأميركية ، ومشيخات أبو ظبي ودُبَيّ والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والفجيرة .

وقد كان العرب يضمون إلى هذا الخط بقية مدن هجر الداخلية وجزائر الخليج العربية ويطلقون على الجميع اسم «البحرين» ويعتبرونها منطقة مستقلة من مناطق الجزيرة العربية الخمس : الحجاز ونجد واليمن وعمان والبحرين . وما زالت هذه المنطقة متميزة منذ القديم بلهجاتها وعاداتها وتقاليدها[2] . وكانت مدينة القطيف عاصمة اقليم البحرين في أدوار مختلفة من التاريخ العربي ، ثم استقلت باسم البحرين في العصور الأخيرة جزيرة أوال وهي أرخبيل يضم خمس جزر عاصمتها « المنامة » وهي التي كانت تعرف باسم اوال[3] . وقال الشاعر الجاهلي حمل بن عبد المعنى العبدي :

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها   وما خيرُ نصح بعدُ لم يُتقبل
فقد كان في أهل القطيف فوارس   حماة إذا ما الحرب شدّت بيدبل

أما الشطر الشرقي من الخليج ، وهو الآن فارسي بحكم السياسة وحدها ، فان

١ – معجم البلدان ج ٣ ص ٤٤٩

٢ – عبدالله الرسول الحبشي ، من محاضرة نشرها عبد الرحمن العبيد في مطلع كتابه « الادب في الخليج العربي » ص ٩ ، انظر ايضا تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ج ١ ص ٢٢

٣ – ساحل الذهب الاسود ، ص ٢١ ، انظر ايضا معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٤

له مع التاريخ والجغرافية البشرية موقفاً آخر ..

وأول من انتبه إلى هذه الحقيقة الصارخـــة ، الرائد الدانياركي كارستن نيبور الذي جاب الجزيرة العربية عام ١٧٦٢ م (١١٧٦ هـ) وخرج على العالم عام ١٧٧٢ م (١١٨٦ هـ) بمؤلَّف ضخم هو أروع مغـامرة من قصص الريادة وأدب الرحلات ، طوال القرن الثامن عشر ، وسيبقى دائماً بضعةً حية من كبد الحقيقة . ولقد قال عن ذلك الساحل الشرقي في الصفحة الثامنة من كتابه : «رحلات في الجزيرة العربية وبلدان أخرى في الشرق » :

« لكنني لا أستطيـع أن أمر بصمت مماثل ، بالمستعمرات الأكثر أهمية ، والتي رغم كونها منشأة خـارج حدود الجزيرة العربية ، هي أقرب اليهـا . أعني العرب القاطنين الساحل الجنوبي من بلاد الفرس ، المتحالفين على الغـــالب مع الشيوخ المجـــاورين ، أو الخاضعين لهم . وتتفق ظروفٍ مختلفة لتدل على أن هذه القبائل استقرت على الخليج الفارسي قبل فتوحات الخلفـاء ، وقد حافظت دومـــاً على استقلالها ومن المضحك أن يصور جغرافيونا جزءاً من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس ، في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط من أن يكونوا أسياد ساحل البحر في بلادهم الخاصة ، لكنهم تحملوا ، صابرين على مضض ، أن يبقى هذا الساحل ملكاً للعرب » .

But I cannot pass, in equal silence, over the more cosiderable colonies, which, although they are also settled without the limits of Arabia are, however, nearer to it. I mean the Arabs on the Southern Coast of Persia, who are commonly in alliance with, and sometimes subjects to the neighboring Schiechs. A variety of circumstances concur to indicate, that these tribes were settled along the Persian Gulph, before the conquests of the Caliphs, and have ever preserved their independence. It is ridiculous in our geographers, to represent a part of Arabia, as subject to the kings of Persia ; when so far from this, the Persian monarchs have never been masters of the sea-coast of their own dominions but have patiently suffered it to remain in the possession of the Arabians (1)

---

(1) Karsten Niebuhr : Travels through Arabia and other constries in the East. p,8

وعاد نيبور إلى التأكيد على هذا الموضوع في مكان آخر من كتابه وبتفصيل أكثر ، فقال في الصفحتين ١٣٧ — ١٣٨ :

« لقد أخطأ جغرافيونا ، على ما أعتقد ، حين صوروا لنـــا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس ، لأن العرب هم الذين يتلكون ، خلافاً لذلك ، جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية من مصب الفرات إلى مصب الاندوس على وجه التقريب .

« صحيح ان المستعمرات الواقعـــة على السواحل الفارسية لا تخص الجزيرة العربية ذاتها ، ولكن بالنظر إلى انها مستقلة عن بلاد الفرس ، ولأن لأهلها لسان العرب وعاداتهم ، فقد عنيت بايراد نبذة موجزة عنهم .

« يستحيل تحديد الوقت الذي أنشأ فيه العرب هذه المستعمرات على الساحل ، وقد جاء في السير القديمة انهم أنشأوها منذ عصور سلفت . وإذا استعنا باللمحـــات القليلة التي وردت في التاريخ القديم ، أمكن التخمين بأن هذه المستعمرات العربية نشأت في عهد أول ملوك الفرس . فهناك تشابه بين عادات الايشتيوفاجيين القدماء وعادات هؤلاء العرب .

« وهم يتعشقون الحرية إلى درجة قصوى شأن اخوانهم في البـــادية . ويكاد يكون لكل بلدة شيخها ، وهو لا يتقاضى شيئاً من رعـــاياه . وإذا كان لا يملك ثروة ، توجب عليه أن يكسب رزقه بجده ، كما يفعل رعاياه ، إما بنقل البضائع أو بالصيد ، وإذا حدث ولم يرضَ القوم عن الشيخ الحاكم خلعوه وانتخبوا من أسرته من يحل محله .

أما مساكنهم فمتواضعة إلى درجة ان العدو لا يكترث بهدمها . وهكذا لا يملك هؤلاء القوم شيئاً يخسرونه على اليابسة ، فتراهم يلجأون إلى متون مراكبهم عند اقتراب العدو ، ويختبئون في بعض جزر الخليج حتى ينسحب ، وهم على يقين ان الفرس لا يمكن أن يفكروا في الاستقرار على الساحـــل المجدب ، والتعرض لغزوات العرب الذين يرتادون البحار المجاورة .

« وكان نادر شاه قد رسم خطة في أواخر أيامه تقضي بإلقاء القبض على هؤلاء العرب ، ونقلهم إلى سواحل بحر قزوين ، وإحلال الفرس محلهم ، ولكن مصرعه

الفاجع حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وحالت الاضطرابات المستمرة في بلاد الفرس منذئذ ، دون اعتدائهم على حرية هؤلاء العرب .

وطريقة الحكم عندهم ، ووضعهم السياسي ، يبدوان لي شديدي الشبه بما كانت عليه بلاد الأغريق القديمة . والاصطدامات الدامية والثورات الخطيرة ، لا تنفك تجري على سواحل الخليج ، ولكن العرب لا مؤرخين عندهم يذيعون شهرتهم في ما وراء حدودهم الضيقة . »

Our geographers are wrong, as I have elsewhere remarked, in presenting a part of Arabia as subject to the monarchs pf Persia. So far is it from being so, that, on the contrary, the Arabs possess all the sea-coast of the Persian Empire, from the mouths of the Euphrates, nearly to those of the Indus.

These settlements upon the coast of Persia belong not indeed, to Arabia properly so called. But, since they are independent of Persia, and use the same language, and exhibit the same manners, as the native inhabitants of Arabia, I shall here subjoin a brief account on them.

It is impossible to ascertain the period at which the Arabians formed their settlements upon this coast. Tradition affirms, that they have been established here for many centuries. From a variety of hints in ancient history, it may be presumed, that these Arabian colonies occupied their present situation in the time of the first kings of Persia. There is a striking analogy between the manners ascribed of the ancient Ichtyophagi, and those of these Arabs.

They prize liberty as highly as do their brethren in the desart. Almost every different town has its own Schiech, who receives hardly any revenue from his subjects, but, if he has no private fortune, must, like his subjects, support himself by his industry, either in carrying goods, or in fishing. If the principal inhabitants happen to be dissatisfied with the reigning Schiech, they depose him, and choose another out of the same family.

Their dwellings are so paultry, that an enemy would not take the pains to demolish them. And as, from this circumstance, these people have nothing to lose upon the continent, they always betake themselves to their boats at the approach of the enemy, and lie concealed in some isle in the Gulph till he have retreated. They are convinced that the Persians will never think of settling on a barren shore, where they would be infested by all the Arabs who frequent the adjacent seas.

Nadir-Shah attempted to subdue these Arabs In the prosecution of this object, the usurper had, at immense expence, equipped a fleet of twenty five large ships upon the Persian Gulph. But as he had no

Persian sailors, he was obliged to take Indians who massacred their officers, and carried off the ships. Towards the end of his life, Nadir-Shah was meditating to seize these Arabs, to transport them to the shores of the Caspian Sea, and to settle a colony of Persians in their room. His tragical death prevented the execution of this project ; and the disturbances in Persia have ever since prevented all incroachments from that quarter upon the liberty of these Arabs.

Their government and present political situation seem to me to bear a great resemblance to those of Ancient Greece. Hostile engagements are continually a sighting, and important revolutions happening upon the Persian Gulph ; but the Arabs have no historian to spread their fame beyond their own narrov confines. (1)

وإذا كنا قد استشهدنا بمؤرخ روماني من القرن الأول للميلاد (بليني) ومؤرخ دانمركي من القرن الثامن عشر (نيبور) فلا بد من أن نضيف اليها شهادة مؤرخ انكليزي من القرن العشرين هو رودريك اوين الذي زار الخليج العربي وأصدر عنه سنة ١٩٥٧ كتاباً بعنوان : « الفقاعة الذهبية – وثائق الخليج العربي » وقد روى فيه انه زار الخليج العربي وهو يعتقد بأنه خليج فارسي لأنه لم يرَ على الخرائط الجغرافية سوى هذا الاسم ، ولكنه ما كاد يتعرف اليه عن كثب حتى أيقن بأن الواقع والانصاف يقضيان بتسميته « الخليج العربي » ولهذا سمى كتابه بهذا الاسم ، وفي ذلك يقول :

« ما من خريطة انكليزية يظهر عليها الخليج العربي ، وهو أمر يشغل خواطر أولئك الذين يقيمون فيه . إن على المسافر أن يتجه ، كأنه ميمم شطر الخليج الفارسي ، وقد يتبادر إلى ذهنه انه في الخليج الفارسي حين يبلغ الكويت أو البحرين ، وإذا به يسمع أن هذا الخليج في مكان لم يبلغه بعد . الخليج الفارسي ؟ إن هذه المساحات الشاسعة من الرمال البنّية ، وتلك المياه الضحلة الزرقاء المترامية الاطراف – وكل ما فوقها ، ولا سيما كل مـا من تحتها ، هي ، وقد كانت ، وستظل ، أجزاء لا تتجزأ من الخليج العربي .

١- The fore - mentioned referen ce P : 137 - 138

«ولقد كان هذا الأمر أحد الأمور العديدة التي لم أكن أعرفها حتى ذهبت إلى تلك البلاد . وكان أول تعبير عن الرأي العربي سمعته ، وقد تكرر على فترات طوال سنة ونيف من التنقل ، حتى انني أجد الآن عناء في التفكير بأن هذا المكان خليج فارسي. وبما ان كتابي هذا تقرير عن رحلة سلكت فيها بعد الجهد الأولي ، مسلكاً بذلت فيه أقل ما يمكن من المقاومة ، وتعمدت أن أحرم فيها نفسي من القصد ، وأردت أن أجرد ذاتي من الارادة ، وأسلمت النتيجة إلى يد الله، فلسوف أشير إلى هذا الخليج اللاهب الرطب من العالم ، « كخليج فارسي » ما قبل وصولي ، « وكخليج عربي » ما بعد ذلك ، لأن هذا ما يفرضه التأدب ! »

No English map shows the Arabian Gulf; a matter of somme concern for those who live there. A traveller has to proceed as though bound for the Persian Gulf — will probably think that that's where he is when he reaches Kuwait or Bahrain, only to be told that that's where he isn't. Persian Gulf ? These dry expanses of brown sand, those blue expanses of shallow water — and everything above and especially everything below — are, have been, will be, integral parts of the Arabian Gulf.

This was one of the many things I did not know befcre going there. It was the first Arab statement of opinion I heard and it was repeated at intervals over a year of wandering until now it is an effort to think of such a place as a Persian Gulf. Since this is an account of a journey where after the initial effort I regularly took the line of least resistance, where I purposely deprived myself of purpose, willed myself to have no will and heaped the result on to the lap of Allah, I shall refer to this burning, humid gulf of the world as « Persian » before my arrival and as « Arabian » after, for that is only polite. (1)

ومن الطريف حقاً ان هولندا لما بسطت ظلها الاستعماري على الشطر الشرقي من الخليج ، الفارسي اسماً ، أذعن الشاه للأمر الواقع ، ولم يحرر تلك المنطقة إلا الربابنة والفرسان العرب في قصة تكاد تتصل بآفاق الخيال ، وكان الفضل في حفظها للرحالة نيبور أيضاً :

« كان الهولنديون يقومون بتجارة واسعة النطاق مع البصرة ، حيث كان يدير مركزهم التجاري البارون كنيفوس ، متمتعاً بقدر عظيم من الاجلال . وقد

(1) Roderic Owen : The Gollen Bubble Arabian Gulf Documentary. P, 13

القي هذا الرجل الالماني في السجن على أثر صراع نشب بينه وبين حاكم المدينة بسبب قضية تختص بأصول اللياقة ، وأوشك أن يجز عنقه لو لم يفتدِ نفسه بمبلغ طائل من المال . وقد حصل قبل ابحاره إلى باتافيا ، على شهادة من المركز التجاري في البصرة تبرر تصرفه ، فوافقت شركة الهند الشرقية الهولندية على كل ما صدر عنه من أعمال .

وكان السيد كنيفوس ، على أثر الخلاف الذي نشب بينه وبين حاكم البصرة ، قد اتفق مع نافر أمير « بندرجق » الذي كان يملك « خرج » ، على نقل المركز التجاري الهولندي إلى هذه الجزيرة مقابل جعالة سنوية يقبضها منه . فاستحسنت الحكومة في باتافيا هذه الخطة التي كانت ممتازة في الحقيقة ، وأرسلت البارون ومعه سفينتان كبيرتان لتنفيذها .

« ولم يكد يبلغ جزيرة « خرج » حتى استولى على بعض مراكب البصرة واحتجزها حتى يستعيد المبلغ الذي افتدى به نفسه . وأنشأ مستودعاً مربعاً على البر ، أقام على أركانه الأربعة تدرجاً أربعة أبراج زود كلاً منها بستة مدافع . ولكن الأمير نافر الذي ساءه إقدام الهولنديين على هذا العمل ، قام بمهاجمتهم ، فهاجموه بدورهم ، إلا أنهم لم يتمكنوا من ادراكه لسرعته ، بيد أن هذه الحرب الصغيرة كانت مزمعة أن تكلف الشركة شيئاً كثيراً .

« وبعد أن حكم البارون كنيفوس جزيرة «خرج» حكماً مطلقاً طوال خمس سنوات ، حل محله السيد فاند لهولست الذي كان قد خبر العرب لاشغاله فيما مضى وظيفةً في البصرة ، واعتقد أن من واجبه أن يواصل مع الأمير مهنا الحرب التي كانت قد اثيرت من والده . ولجأ الأمير مهنا إلى الحيلة ، فاستولى على مركبين هولنديين مسلحين ، وحاول عبثاً النزول إلى البر . عندئذ وسّع السيد فاندر لهولست تحصيناته ، ورسم مخططاً لمدينة لم تلبث أن اصبحت آهلة بالسكان الفرس والعرب .

من المحتمل أن هذه الجزيرة كانت كثيرة المرابح بالنسبة إلى المستخدمين فيها ، ولكن نفقات الحرب والحاميات استنفدت أرباح الشركة ، إلا أن توقع ازدهار التجارة في المستقبل أغرى الشركة على الاحتفاظ بها مدةً أطول . لذا فان السيد

بوخمن ، الحاكم الجديد، عقد صلحاً مع الأمير مهنا ، فلم يعد هناك ما يعرقل الحركة التجارية .

« إلا أن خلفه السيد فان هاوتنغ الذي كان يجهل عقليـــة العرب وأخلاقهم ، والذي لم يكن لديه موظفون ذوو خبرة ، لم يبرهن عن تبصر في تصرفه ، فلم يهتم بالمحافظة على الحياد في النزاع القائم ما بين أمير «أبي شير» والأمير مهنا . بل اتفق مع الأول فهاجم الثاني في جزيرة «خوزي» التي كان قد لجأ اليها . وقد ترك الأمير مهنا أعداءه يقتربون ، ولمـــا وجدهم آمنين انقضّ عليهم بخيالته وأنزل بالهولنديين وقوات «أبي شهر» هزيمة نكراء. وشجعه النصر فأنزل قواته في جـزيرة « خرج » وحاصر مـدينة خرج. وقد سمح السيد فان هاوتنغ لنفسه بالانقياد إلى نصيحة رجل فارسي ، فأذن للأمير مهنا وأتبـــاعه بدخول المدينة للتفاوض في شروط تسوية . عندئذ أسر العرب الهولنديين وأرسلوهم إلى باتافيا . وقد حدث ذلـك في أواخر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٧٦٥ [١]» .

ماذا بقي لفارس من الخليج بعد هذا البيان الذي جرى على لسان رجل علم ليس له أي غرض سياسي ؟

ماذا بقي لفارس من الخليج والعرب يسكنون منذ قديم الزمان ، شاطئيه الشرقي والغربي ، حتى وإن كان سكان الساحل الشرقي قد فقدوا استقلالهم في العهود الأخيرة بفعل العدوان المحلي والمؤامرات الدولية ؟ ..

وفي الواقع ان الفرس لم يكونوا يركبون البحر ، حتى في أوج عظمتهم ، وإذا ما أنشأوا في الخليج اسطولاً كان بحارته من غير الفرس .

يقول الدكتور صلاح العقاد عن الساحل ، الفارسي اسماً : « أمـــا الساحل الشمالي الشرقي الذي يكوّن الآن الساحل الايراني فيمتد على طوله نحـو ألفي كيلومتر ، سلسلة عالية من الجبال الصعبة المنـافذ إلى الداخل ، مما عزل سكان فارس والسلطة المركزية فيها عن حياة البحر . ولقد اشتهر الفرس منذ غابر الزمن

---

١ ــ اكتشاف جزيرة العرب تاليف جاكلين بيرين .ترجمة قدري قلعجي ص ١٦٢ ــ ١٦٣

بخوفهم من حياة البحار ، حتى قال بعض المؤرخين العرب : ليس من الخليج شيء فارسي إلا اسمه ، وعلى ذلك فان ذيوع اسم « الخليج العربي » الآن قد جاء موافقاً لحقيقة جغرافية ثابتة [1] »

وإذا كان قد قام بين الفرس والبحر ذلك الفاصل الجغرافي والنفساني ، فقد قامت بينه وبين العرب منذ القدم أوثق الصلات وأكثرها عطاء في ميادين الأدب والعلم . وفي الشعر الجاهلي اشارات إلى عناية أهل الخليج بالسفن كما ورد في معلقة طرفة بن العبد الذي عاش باليمامة وعرف البحرين ، فذكر في معلقته « عَدَوْلَى » إحدى قرى البحرين المشهورة بصنع السفن و « ابن يامن » وكان ملاحاً من أهل البحرين اشتهر قبل الاسلام [2] :

كأن حُدوجَ المالكية غدوةً ... خلايا سفينٍ بالنواصف من دَدِ [3]
عَدولية أو من سفين ابن يامنٍ ... يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدي
يشق حَبابَ الماء حيزومها بها ... كما قَسَمَ التُربَ المفايلُ باليدِ [4]

وقد وصف الدكتور حسين فوزي وصفاً بارعاً تلك العلاقات الوثيقة التي نشأت بين العرب والبحر منذ أقدم الأزمان وأعطت أطيب الثمار في كتابه « حديث السندباد القديم » الذي يقول فيه عن نشاط العرب البحري قبل الاسلام ، بعد أن يتحدث عن الفتوحات العظيمة التي بدأت في حياة النبي وبعد وفاته مباشرة ، فتغلب العرب فيها على الفرس منذ أواسط القرن السابع الميلادي، وواصلوا زحفهم في ناحية حتى وادي مهران في السند ، وفي ناحية أخرى حتى ضفاف سيحون

---

١ ـ الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص ١٦

٢ ـ مجلة العربي العدد ٦ ص ١١٢ ، انظر ايضا : العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢١ ـ ٢٢

٣ ـ الحدوج جمع حدج وهو مركب النساء ، والمالكية منسوبة الى مالك بن سعد بن ضبيعة ، والخلايا جمع خلية وهي السفينة الكبيرة ، والنواصف جمع ناصفة وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي ، ودد موضع.

٤ ـ المفايل هو اللاعب بالمفايلة وهي تراب يكومه الصبيان ويخبئون فيه شيئا ثم يقسمه احدهم الى قسمين ليسال الاخرين عما خباه اهو في هذا القسم ام ذاك .

وجيحون (نهر الأكسوس ونهر الياكسارات) :

« ويعنينا من أمر هذه الفتوحات أثرها في تقدم العلوم الجغرافية ، فقبل أن توجه الامبراطورية الاسلامية عنايتها إلى العلوم اليونانية والفارسية والهندية ، كانت معرفة البلدان لازمة من لوازم الفتح والتوسع ، وقد وجد الغزاة المسلمون سبيل التوسع ممهداً بفضل طلائع التجار والملاحين الذين تجشموا الصعاب في البحر والبر ، وأنشأوا مراكز للتجارة على شواطىء البحر الشرقي الكبير قبل ظهور الاسلام . بدأت المعارف الجغرافية تتجمع حول مغامرات أولئك الرجال ، فلما بدأ تكوين الامبراطورية الاسلامية ، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبُرُد ، وتعرّف طرق الملاحة ، وكان هذا وذلك أساساً من الأسس الهامة للجغرافية العربية اعتمد عليه أمثال ابن خرداذبة وابن قدامة . وعندما كان الجيهاني يُعنى بجمع المعلومات عن البلاد الاجنبية ، لم تكن عنايته خالصة لوجه العلم ، بل كان يتمم عمل أولئك الرحالين في إعداد سبل الفتوحات وتمهيد مسارحها ، فالجغرافية العربية ، كما قال فيفيان دي سان مارتان ، شبيهة بالجغرافية الرومانية في أن اصحابها لم يعرفوا الأرض عن طريق الفتح ، بل عن طريق الرحلات التجارية ، فهي جغرافية وصفية علمية ، قبل أن يُعنى المأمون بترجمة كتب بطليموس القلوذي ومارينوس الصوري ، أو بقياس الدرجة الفلكية في وادي سنجار [1] »

ويقول العالم الهندي نفيس احمد وكأنه يعقب على ما كتبه الدكتور حسين فوزي : « وأعقب ذلك في منتصف القرن السابع الميلادي بزوغ فجر عصر جديد للعرب ، منذ أن ظهر الاسلام بقوته العظيمة الروحية والاجتماعية والسياسية .

وفي خلال مائة عام من وفاة رسول الاسلام صار العرب يسوسون امبراطورية تفوق امبراطورية الرومان ، وامتدت سيطرتهم البحرية من حوضي المتوسط (الشرقي والغربي) حتى البحر الاحمر والمدى المعروف من المحيط الهندي ، وهنا يعرض التاريخ حقائق عجيبة هامة : ففي الغرب كان المسلمون يوجهون سياسة

---

١ ــ حديث السندباد القديم ، ص ٢٠ ــ ٢١

الأقاليم الشرقية من البحر المتوسط ويمتلكون الجزر المتعددة هناك ، بينما كان يصدق على البحر الاحمر أن يوصف ببحيرة عربية . أما سيطرة المسلمين السياسية المباشرة في المحيط الهندي ، فلم تكن تتجاوز الجهات الساحلية عند مجرى الإندس الأدنى على أية حال ، ومع هذا تطالعنا صورة عجيبة لكثير من المراكز العربية التي تمتع فيها العرب تماماً بتقاليدهم الدينية والاجتماعية في أنحاء كنكان ، وسواحل ملبار وكرومندل ، وجزائر منديف وسيلان . وامتد نشاط العرب التجاري حتى جزر أندامان ، وجزر نيكوبار ، وساحل أركان ، والملايو ، وسومطرة ، وجاوة . وقد وصل الاسلام إلى هذه الأقـــاليم دون أي عون سياسي من أي نوع ، وبقي راسخ الجذور طوال القرون ، بعيداً عن أية اضطرابات تلحقه من غزوات السلطان محمود في أراضي الهند أو صراع الصليب والهلال في عالم الغرب [1] »

ويضيف نفيس احمد قائلاً : « كان الطقس والريح على عهد الملاحة العربية ، عاملاً أكبر أهمية مما هو عليه في يومنا . وكانت الأعاصير المصـــاحبة للرياح خطراً يعظم مداه عما نراه الآن في عصر البحار الذي نعيش فيه . وكان إقـــلاع السفن يتأثر مباشرة بتغير الفصول ، فالرياح الموسمية تجلب معها الامطار بما فيها من زوابع عاتية وطقس رديء ، كما كانت هناك أعاصير متتالية تتبع اتجاه الرياح الموسمية ، ومن أجل ذلك كان ابحار السفن في مياه بحر العرب وما جاورها – سواء صوب الشمال أو الجنوب – يعتمد على اتجاه الرياح الموسمية . وتعددت العراقيل في وجه الملاحة البحرية حول جزيرة سيلان ، من تقلب الطقس إلى هبوب الأعاصير بسرعتها الهائلة ، خاصة إلى الشمال من خط الاستواء حيث يتراوح متوسط تلك السرعة ما بين خمسة وتسعة أميال في الساعة في المنطقة الممتدة من خط عرض ١١° شمالاً إلى خط عرض ٢٠° شمالاً ، حتى لم تكن مثل هذه الرحلة بالنسبة للأجيال المتتابعة من البحارة العرب الشجعان مجرد استجمام في نزهة بحرية . وقد كان لاختراعهم البوصلة

---

١ – جهود المسلمين في الجغرافيا ، تأليف نفيس احمد ، ترجمة فتحي عثمان ، ص ١٢٩ – ١٣٠

أهمية بالغة ، وظلت البوصلة دليل الملاحين الذين يقصدون سيلان أو جزر سوندا أو بحار الصين . واستخدم الاصطرلاب بعد تهذيبه في ركوب البحر أيضاً ، وعوضت الخبرة الطويلة التي تناقلتها الأجيال المتعاقبة بشأن الريح والطقس عن ذلك النقص القائم في الأجهزة الدقيقة الأخرى التي نملكها اليوم... وقد تكلم عن هذه الأمور كثير من كتاب العرب،وكان من تراث تلك المعرفة مجموعة كبيرة من المصطلحات الشائعة في علم ظواهر الجو تعود بنسبها إلى أصل عربي [1] . »

ويقول المؤرخ الهندي بانيكار : « ربما شاقنا أن نلحظ ان تزويد السفن بالشرُع المثلثة كان من المستحدثات التي نقلها عنهم البرتغاليون . ذلك ان العرب عندما نزلوا إلى البحر أدخلوا التعديل على الأشرعة التي كانت تستخدم قبل ذلك ، فخففوا من وزن العرق المستعرض وأطالوه ورفعوا قمــــة الشراع إلى أعلى كثيراً وشقوا قاعدته ، وسرعان ما حصلوا على ذلك الشراع المثلث الذي لعله سيظل حياً على حين تندثر كل آية أخرى من آيات طاقتهم المبكرة في ميادين الفتح [2] . »

ويقول جورج حوراني : « لولا الشراع المثلث (الذي أدخـــله العرب على الملاحة) لما كان المظنّين الأوربي في السفن التي تشتمل على ثلاثة صوار ، ولما تمت رحلات المحيط التي قام بها المكتشفون العظام [3] . »

وقد غدت العلوم البحرية كما يقول المسعودي تراثاً يتوارثه الملاحون ويسترشدون بأحكامه «فلكل من يركب هذه البحار من الناس أرياح يعرفونها في أوقات تكون فيها مهابها ، قد عُلم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ودلائل وعلامات ، يعلمون بها ابّان هيجانه وأحوال رسوبه وثورانه [4] » .

ولعل هناك من يتساءل : كيف يتفق هذا النشاط البحري المثمر المبدع ، قبل الاسلام وبعده ، مع ما قيل عن تخوف العرب من البحر ، وتلك الرسالة التي بعث

---

١ ــ المرجع نفسه ص ١٣١ ــ ١٣٤

٢ ــ اسيا والسيطرة الغربية ، تاليف ك. م. بانيكار ، ترجمة عبد العزيز جاويش ، ص ٣٩

٣ ــ العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٧٣

٤ ــ مروج الذهب ج١ ص ٥٣

بها عمر إلى معاوية ينهاه فيها عن ركوب البحر ويقول : « إنا سمعنا ان بحر الشام يشرف على أطول شيء على الأرض ، يستأذن الله لي كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمل الجنود في هذا الكافر المستصعب؟ وتالله لمسلم أحبّ إليّ مما حوت الروم . فإياك ان تعرّض لي وقد تقدمت اليك ، وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم اليه في مثل ذلك » .

والواقع ان سكان المناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية إن لم يكونوا قد عرفوا البحر أو تجرأوا عليه ، فان ذلك لا يمكن أن ينطبق بحال من الأحوال على سكان المناطق الساحلية في اليمن وعمان والبحرين وسائر بلاد الخليج ، فهم أبناء البحر نشأوا على شواطئه ، وداعبوا أمواجه ، وركبوا غواربه ، وصارعوه وصارعهم في جميع مراحل العمر . وفي رسالة عمر إلى معاوية نفسها جواب على ذلك السؤال الحائر ، إذ أشار إلى أن أبا العلاء الحضرمي عامله في البحرين قام بركوب البحر ومهاجمة المدن الفارسية على الساحل الشرقي من الخليج ، دون ان يستأذن الخليفة في ذلك ، لأنه أمر مألوف جـــداً بالنسبة لأبناء البحرين الذين روضوا البحر في أسفارهم وتجاراتهم وغزواتهم [١] .

ولعل من المفيد التنويه بأن مقاطعة خوزستان الايرانية ، كانت تسمى إلى سنوات خلت من قبل الفرس « عربستان » أي « بلاد العرب » ، وقد سكنها قبل الاسلام قبيلتا بني كلب وبني تمر ، وأهم قبائلها العربية اليوم آل كثير وبنو طرف وبنو سالة وبنو لام وبنو مالك وبنو خالد وآل خميس وزبيد وربيعة في الشمال ، وبنو كعب وبنو تميم في الجنوب [٢] . وقد عدل الفرس أخيراً عن تلك التسمية ليطلقوا على المقـــاطعة اسم « خوزستان » كما أطلقوا على قاعدتها « المحمرة » اسم «خرمشهر» وتغيير الاسم ، وان تلاعب على الواقع ، لا يمكن أن يطمس الحقائق ، وستظل عربستان بلاداً للعرب مـا دام هناك ذلك الشريان المائي الذي يحاذي تلك الربوع ويساهم في اروائها : شط العرب .

١ - للتوسع في موضوع العرب والملاحة قبل الاسلام ، انظر مادة « سفينة » في دائرة المعارف الاسلامية بقلم هـ. كندرمان .

٢ - تاريخ الكويت السياسي ، تاليف حسين خزعل ، الجزء الثالث ص ٨٧

ولسوف تبقى عربستان التي طوتها امبراطورية البترول ، خالدةً في أذهـــان العرب ، شأن كل قطر مغتصب ، حتى يتم تحريره ، تذكرهم دائماً ببطولات أبنائها الميامين وكرم آخر حكامها الشيخ خزعل الذي هو من شخصيات العرب البارزين في عصرنا الحـــاضر ، والذي كانت له مع الفيلسوف أمين الريحاني جلسة من أمتع الجلسات سجل فيها انطباعه عن ذلك الأسد الذي أقعدته الشيخوخة عن منـــازلة الايرانيين .

قال أمين الريحاني يصف هذا الانسان العربي الأصيل :

« انه غني حكيم كريم معاً .. فهو برمكي في كرمه ، وفي ذوقه ، وفي أدبه ، يحب اللهو والغناء حبه الأدب والشعراء ..

« هوذا الأمير العربي الذي كنت متردداً في زيارتـــه بالمحمرة ، وقد ترددت لسببين ، أولهما لأن المتأدبين يؤمون تلك السدة الشريفة وفي جيوبهم قصائد المديح الطنانة ، ولست لسوء الحظ ممن يحسنون النظم ولا المديح الرسمي ، وثانيهما انه حاكم بلاد أطلق عليها العرب في الماضي اسم الأهواز وهي اليوم عربستان من أعمال فارس . على أن رغبتي في الاجتماع بأمير عرفته من أخباره انه فيلسوف الامراء ، بل فيلسوف الحياة العملية ، كادت تتغلب على أسباب التردد كلها ، فوطنت النفس على أن أعرج على المحمرة في عودتي من البصرة [1] ... »

وقد يحلو لبعض المؤرخين الفرس أن يرجعوا بنا إلى مـا قبل تاريخ الاسلام ، وكيف انه أتى يوم على الجزيرة العربية سيطروا فيه على اليمن ، كما سطوا نفوذهم على منطقة الخليج ، وليس هذا بعجيب ، كما انه ليس من العسير الردّ عليه .

أجل ، لقد تمكن الفرس أيام الأكاسرة وامبراطوريتهم الساسانية أن يخضعوا بعض أطراف الخليج لنفوذهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على العرب ، بدليل انهم تركوا حكمهم لأبنـاء جلدتهم المناذرة اللخميين ، أي كانت لهم الهيمنة الاسمية فقط، شأنهم في ذلك شأن الأمبراطورية العثمانية التي كانت تعد الجـزيرة العربية من ممتلكاتها ، بينما كان العرب في الواقع حكام أنفسهم في ربوعهم المقدسة .

---

١ – ملوك العرب ، الجزء الثاني ، ص ١٩٧ – ٢٠٠

وقد ذكر هيرودتس [١] في صدد الكلام عن داريوس ما نصه : « ولقد اعترف بسلطانه جميع أقوام آسية الذين كان قد ذللهم كورش ثم قمبيز إلا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا البتة لسلطان فارس انما كانوا أحلافها ، ولقد مهدوا لقمبيز سبيل التوصل إلى مصر ، ولولاهم لما أمكنه القيام بهذه المهمة [٢] » .

وأكبر دليل على استقلال اللخميين انه لمـــا عقد « الصلح الأزلي » بين بيزنطة وفارس في عام ٥٣٢ م وجد الأمبراطور جوستنيان نفسه مضطراً لدفع التعويضات النقدية المباشرة إلى المنذر بالاضافة إلى ما دفعه إلى كسرى [٣] .

تلك هي «السيطرة» الفارسية المزعومة ، في فترة عـابرة من فترات التاريخ ، على بعض أطراف الجزيرة العربية ،على حين أن المدّ العربي الذي ثل ملك الأكاسرة قد أدخل على الدولة الفارسية تغييراً جذرياً ، ففرض عليها ديناً جديداً ، وصبغها بصبغة مغايرة تمامــاً — بمثلها واعتقاداتها وعاداتها وآدابها — بالنسبة إلى ما كانت عليـه قبل الاسلام ، ناهيك عن أن العرب ظلوا حكام الساحل الشرقي من منطقـة الخليج إلى أيام قريبة جداً ، ومـــا زالوا حتى الآن يؤلفون في تلك المنطقة أغلبية السكان [٤] .

ونحن لا نذكر ذلك اعتداداً وتفاخراً ، ففي تاريخ الشعوب مـدّ وجزر ، وإنما نريد ان نذكّر الجارة ايران بأن الحلم الذي يراودها باقامة امبراطورية عظمى يكون الخليج « بحرها الوسط » الخاص بها [٥] ، أمر لا ينسجم مع روح العصر الذي قضى على الامبراطوريات وهو في سبيل دكّ كل معقل من معاقل الاستعمار .

١ـ Bh. III, ch. 88

٢ ـ تاريخ العرب ، تاليف الدكتور فليب حتي ، ترجمـــة الدكتور جرجي والدكتور جبور ، الجزء الاول ، ص ٥٠

٣ ـ الفتوحات العربية الكبرى ، للجنرال غلوب ، تعريب خيري حماد ص ٣٣

٤ ـ انظر الموسوعة البريطانية ج١٧ ص ٥٩٦ وج١٥ ص ٦٥٤ وج١٣ ص ٣٦٧

٥ ـ انظر الكويت وجاراتها تاليف ويكسون ، الترجمة العربية ص ٧

جغرافية الخليج العربي

تمهيـــد

في جنوبي غربي آسية ، وفي نقطة يتوغل فيها المحيط الهندي في اليابسة فتنفرج مفسحة" المجال لليم" الذي يترك وراءه بحراً داخلياً يحتويه ذراعان جباران يُعد"ان من أجمل بقاع الدنيا وأكثرها جلالاً ، وهما متقاربان في اجزاء متباعدان في غيرها ، سعيدان بما يضمان ، وقد استقاما في أحضان الطبيعة خليجاً عرف الكثير من سخائها بما تناثر في جنباته قديماً من جزر اللؤلؤ والمرجان ، وبما يتفجر من شرايين تربتـــه اليوم من زيت هو عصب الحضارة وقوام الحياة .

ولقد شهد هذا الخليج مولد الكثير من الحضارات ، وعلى مقربة من ساحـــله الغربي ، بايغال إلى الداخل شرقاً ، وبنفوذ في الداخل غرباً ، عرفت البشرية مهدين أساسين لشريعتين سماويتين ما زالتا الضرعين الثرين اللذين يغذيان فكر الانسان ويرهفان مشاعره ، وأما شماله فكان مسرح أول محاولة انسانية لاقامة المجتمع على أساس من الشرائع الموضوعية .

ويزيد في أهمية الخليج جغرافياً وتاريخياً ، انه احدى نقاط الوصل ما بـــين الشرق والغرب ، وقد قامت على شواطئه المراكز العالمية للملاحة والتجارة ، وكان في حركة دائمة ونشاط لا يفتر ، يربط بين الطرق البحرية والسبل البرية ، لا تقل أهميته الستراتيجية عن أهمية حوض المتوسط ، بل لقد نافسه فترة غـــير يسيرة من

الزمن ، ولهذا كان على مدار التاريخ ، يستدر لعاب الفاتحين ، ويحرك شهوات الطامعين ، ويثير ما بين المستعمرين المنازعات والمنافسات ، في وقائع حربية ، ومغامرات سياسية ، كما كانت سواحله على موعد مع كل مغامر وفاتح ، وأفاق وسائح ، وداع إلى الحق ، ونازع إلى بدعة ، يستقبل هذا ليودع ذاك ، لكنه في استقباله ذاك ووداعه ذلك ، لم يحتفظ إلا بعنصر الخير ومادة الأصلح، مما ستكشفه صفحات هذا الكتاب .

الموقع والمساحة

على مسافة مغمورة بالمياه،تقدر بسبع وتسعين ألف ميل مربع[1] أي ما يعادل ٢٥٠ ألف كيلومتر مربع ، يمتد الخليج العربي على شكل ذراع بحري في جنوبي غربي آسية ، يحده من الشرق الساحل الايراني الذي تقطنه قبائل عربية وايرانية ، ومن الغرب شبه الجزيرة العربية حتى مضيق هرمز ، ثم ينفتح على خليج عُمان جنوباً ، وأما من الشمال فيحده سواد العراق أو منطقة بلاد الرافدين .

وتبلغ أبعاد الخليج ٨٠٠ كيلومتر طولاً ، ويراوح عرضه ما بين ٢٩٠ كيلومتراً في قسمه الجنوبي و ٤٧ كيلومتراً عند مضيق هرمز ، ومتوسط هذا العرض ١٥٠ كيلومتراً . وهو يقع مـا بين خطي طول ٤٨° و ٥٧° شرقاً ، وخطي عرض ٢٤° و ٣٠° شمالاً[2] .

من الجيولوجيا الى الجغرافية

تذهب الدراسة الموضوعية الجيولوجية لمنطقة الخليج ، إلى ان هذه المنطقة لم تكن على ما هي عليه الآن ، وإنما طرأت عليها عبر الأحقاب الجيولوجية المتناهية في القدم عوامل غيرت وبدلت من تركيب الخليج حتى أعطته شكله الراهن

١- هذا ما ذكره ارنولد ويلسون اما الاستاذ الدباغ فقد حدد مساحة الخليج بـ ٩٢،١٠٠ ميل مربع نقلا عن The Worl i Almanac 1960 New York p, 518

٢ – الجزيرة العربية تأليف مصطفى مراد الدباغ ، ج ٢. ص ٩٧

الذي نعرفه على المصورات الجغرافيــة ظاهراً ، كما بدّلت من طبيعته التكوينية باطناً . ولا يغرب عن البال ان نهري دجلة والفرات – شط العرب – ما زالا يؤثران فيه ويبدلان من أشكاله ، ازدياداً باليابسة وتقلصاً بالبحر ، بسبب عوامـل الجرف والطمي .

ومن العوامل الجيولوجية التي عملت على تكوينه – كما يقرر علماء الجيولوجيا – تلك الهزات الأرضية العنيفة في الطور الثالث من العصر الميوسيني ، والتي انبثقت بسببها سلاسل طوروس وزغروس ، وشهقت جبال هملايا ، ونهدت هضبة ايران [1].

ويُعرف من طبيعة القسم الغربي للخليج ، ان الهضبة الواقعة في شرقي شبـه الجزيرة لم تتأثر بالعوامل المذكورة آنفاً ، لما عرف من صلابة تكوينها وتماسك بنيتها ، وان الخليج قد تشكل بسبب تكوّن غور فسيح في تلك المنطقة بتأثـير عوامل شتى مرّت تباعاً ، وفعلت فعلها فيه من تبديل وتغيير .

ويقسم الخليج جغرافياً ثلاثة أقسام نعرض لكل منها بإيجاز ، لاعطاء القارىء فكرة عن تلك المنطقة الهامة من العالم التي كانت مثار التنافس والتنازع والتناحر والتغالب للاستيلاء عليها والاستئثار بخيراتها ، سواء أكان ذلك بين الدول المتصارعة المتغالبة ، أو بين الشركات المتزاحمة المتنافسة .

أ – المنطقة الشرقية

تتألف المنطقة الشرقية [2] من ساحل ضيق تليه سلاسل جبلية عالية نسبياً تابعـة لجبال زغروس ، وان كانت تبدو وكأنها امتداد لسلاسل جبال قفقاسية وأرمينية الموزعة في اتجاهـــات مختلفة . وتبدو هذه الجبــال في قسمها الشرقي على شكل متوازيات ، ثم تأخذ بالارتفاع كلما امتدت شمالاً ، وتراوح ارتفاعاتها ما بين ٣٠٠٠ و ٥٥٠٠ قدم ، إلى ان تبلغ أعلى ارتفاعها ، وهو ١٣ ألـــف قدم ، بمجموعة من

---

١ – كويت وكويتيون تأليف راسم رشدي ص ١٠

٢ – The Persion Gulf, By Sir Arnold Wilson.p, 2-3.

السلاسل البرية تحيط بالسلاسل البحرية . أما في منطقة جنوبي غربي القيرماني ، فان علو بعض القمم يبلغ ١٤ ألف قدم، وتتميز هذه الشواهق بكونها متوجة على مدار السنة بثلوج دائمة .

والسواحل في قسمها الشرقي أقل تعرجاً منها في قسمها الغربي الذي يشكل إحدى واجهات شبه الجزيرة العربية على المحيط ، وتظهر على امتدادها الخلجان والرؤوس الموزعة هنا وهناك ، والتي استصلحت منها الموانىء الملاحية ومن أهمها مرفأ بندر عباس وبندر كنجة، ويقعان إلى الجنوب من مضيق هرمز . وهنالك مرفأ ثالث يقع في الشمال ويدعى بندر شهر .

وتنتشر على طول الساحل الشرقي للخليج جزر شاطئية صغيرة، كما ان السهول المحصورة بين الشاطىء والسلاسل الجبلية تحتوي على مستنقعات فسيحة وسبخات مالحة ، أما المناطق المعشوشبة فتكثر في الأقسام السهلية حيث تتناثر المستنقعات ، وحيث يُعنى بتربية الماشية المتنقلة في بطاحها انتجاعاً للكلأ وطلباً للمرعى .

ب — المنطقة الغربية

هي المنطقة التي تحدها شبه الجزيرة العربية في قسمها الشرقي ، وتتوالى على شاطئها الامارات العربية الغنية ومنطقة الاحساء السعودية .

وتتميز هذه المنطقة [١] بما فيها من سلاسل جبلية قليلة الارتفاع إذا ما قيست بسلاسل جبال المنطقة الشرقية الواقعة في ايران . ومن هذه السلاسل جبال شمر الممتدة مسافة ٤٨٠ كيلومتراً ، وبنية حجارتها ذات طبيعة كلسية غرانيتية ، شأنها في ذلك شأن سلاسل المنطقة الشرقية ، إذ يعود تاريخها الجيولوجي إلى الحقبة نفسها وإلى ذات الأسباب التي أدت إلى نشوئها . وثمة سلسلة جبال أخرى في القسم الشرقي من ساحل عُمان يناهز ارتفاعها خمسة آلاف قدم ، ومن أشهرها الجبل الأخضر الذي يتميز بجماله وروعة مناظره. وعدا هاتين السلسلتين، تتناثر هنا وهناك

---

١ — المرجع السابق ص ٣ — ٤

تلال ذات ارتفاعات بسيطة .

أما الساحل فهو يتميز بكثرة تعرجه ، مشكلاً على طول امتداده عدة رؤوس وخلجان ، بيد أن معظمها لا يصلح لتكوين مرافىء تجارية بسبب ضحالة المياه .

وتنتشر في القرب من هذا الساحل عـــدة جزر أشهرها الجزر التابعة للبحرين والكويت التي تكثر في حوافيها الشعاب المرجانية ، وتنطوي على مصائد اللؤلؤ ، وتكثر فيها الأسماك المختلفة .

وتمتد السهول بالقرب من الساحل وفي اتجاه الداخل، ومعظمها رملية محصوصبة قليلة الارتفاع ، وترتسم على شكل تموجات في القسم الشمالي الشرقي منها .

أما القسم المتوسط فيشكل حزاماً ساحلياً متبسطاً ، وتكثر واحات النخيل النضرة البديعة في بعض البقاع الغنية بالمياه الجوفية التي تتفجر على شكل عيون عذبة ، وتكثر هذه الواحات في امارة البحرين ومنطقة الاحساء السعودية .

وهذه المنطقة من أغنى المناطق بالذهب الأسود ، إذ تنطوي حشاياا تربتها على معظم احتياطي العالم من الزيت .

ج – المنطقة الشمالية

هي منطقة سهوب بلاد الرافدين : جنوبي العراق وغربي بلاد عربستان ، وهي سهوب رسوبية حديثة التكوين غنية بالثروة المائية، تنتشر في جنوبها واحات النخيل كما تتشكل فيها المستنقعات الفسيحة والأهوار الناجمة عن فيضانات دجلة والفرات ، وهي منطقة خصبة تربى فيها قطعان الماشية لوفرة الكلأ والأعشاب فيها ، ولا سيما ضفاف شط العرب .

والسهول الساحلية في هذه المنطقة ضيقة نوعاً ما ، وتمتد من جنوبي العراق إلى جنوبي الأهواز المعروفة باسم « عربستان » .

أثر نهرَي دجلة والفرات وروافدهما في الخليج

ينبع نهر دجلة والفرات من هضبة ارمينية الواقعة في تركية ، ويمتاز الفرات

بسرعة جريانه ، على عكس دجلة الهادىء البطيء .

ويجرف النهران العظيمان في طريقها الحجارة والرمال ومواد صلصالية تتجمع في القسم الشمالي من الخليج على شكل طمي يغطي قسماً من مياهه ، وبذلك تتقدم اليابسة مع الأيام ، بينما يرتد الخليج متراجعاً من الشمال إلى الجنوب . كذلك تعمل الجداول والروافد النابعة من جبال زغروس ، بما تحمل من مواد ، في تبديل شكل الخليج ، وهي وان كانت ذات أثر بسيط إذا ما قيست بفترة زمنية قصيرة ، ولكن من الواضح ان تأثيرها سيكون كبيراً إذا ما قيست على أحقاب زمنية بعيدة ، وهي دائبة في عملها ، واليابسة تتقدم بفعل ذلك داخل الخليج بمعدل ٢٥ متراً في كل عام أي ما يناهز كيلومترين ونصف كيلومتر في القرن الواحد!..

يقول الدكتور أحمد فخري : « كان نهرا الدجلة والفرات يصبان في الخليج العربي في مكان بعيد إلى الشمال من الشاطىء الحالي . وأخذ الجزء الأعلى من ذلك الخليج يمتلىء بالطمي ويكوّن أرضاً ملأى بالمستنقعات والجزر كما حدث في دلتا النيل في مصر ، وأخذت تلك المناطق تتحول إلى أرض صلبة مع تقدم الأيام، وما زالت إلى اليوم تتقدم نحو الجنوب من عام إلى عام [١] » .

وقد أوضح الدكتور جاسم محمد الخلف تأثير الطمي في جغرافية الخليج ، في قسمه الشمالي ، عبر الأزمنة ، على هذا الشكل المذهل :

« المعتقد ان الخليج كان يمتد إلى شمال موقع بغداد بحوالى ٦٤ كيلومتراً حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م. وانه كان يمتد في زمن السومريين إلى موقع مدينة العمارة على دجلة وإلى موقع مدينة الناصرية على الفرات ، وان اور (المدينة التاريخية القديمة) والتي تقع بالقرب من مدينة الناصرية الآن كانت تقع على ساحل الخليج آنذاك . ومعنى هذا ان الخليج قد تراجع خلال الفترة الواقعة من سنة ٤٠٠٠ق.م. وبين زمن السومريين حوالي ٣٦٨ كيلومتراً ، ولا تزال هذه الرواسب تكسب من مياه الخليج مساحات كثيرة كل عام [٢] » .

---

١ ـ دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ص ١٥ .

٢ ـ محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ص ٢٦ ؛ انظر ايضاً : الجزيرة العربية لمصطفى الدباغ ج ٢ ص ١٠٢

ظواهر التيارات وحركتي المد والجزر

تتميز التيارات البحرية – على وجه الاجمال – بالفتور في الخليج العربي، وهي نادرة . بيد انه خلال فترات زمنية موسمية ، وهي محصورة بين شهري ايار وايلول (مايو وسبتمبر) تظهر بعض التيارات المندفعة من خليج عُمان داخـــل الخليج العربي . وهي تتأثر بالرياح الجنوبية والجنوبية الغربية الموسمية التي تنفذ من مضيق هرمز . أما ما تبقى من أيام السنة فلا تظهر هذه التيارات لندرة الرياح التي تضعف، على مـدار السنة ، خلال الفترة الواقعـة ما بين تشرين الأول ونيسان (اكتوبر وابريل) .

أما ظواهر المد والجزر فهي واضحة للعيان على شطآن الخليج العربي ، إذ ان المياه ترتفع في بعض الأحيان إلى ما يربو على ثلاثة أمتار عن مستوى الشاطىء في الحالات العادية ، وقد تتقدم مياه البحر متغلغلة إلى مسافة تنيف على ٦٤ كيلومتراً داخل أراضي شط العرب وسهول جنوبي العراق . ومن الناحية الاقتصادية تعود ظاهرة المد والجزر على تلك المنطقة بايرادات سنوية هامة لما تحمله معهـــا من مواد رسوبية غنية .

توزيع المياه في الخليج

إذا ما قيست أعماق المياه بالنسبة للمساحات الشاسعة المغمورة، والمقدّرة بمائتين وخمسين كيلومتراً مربعاً ، تتبين لنا ضحالة المياه في الخليج بشكل عام . ويعتبر القسم الشرقي المحاذي لايران أعمق منه في القسم الغربي المتاخم لشبه الجزيرة العربية. ويراوح عمقه الوسطي بين ٧٢ و ٩٠ متراً على وجه التقريب . وأعمق نقطة فيه هي الواقعة في مضيق هرمز من الطرف الشرقي المفتوحة على الخليج العماني بالقرب من ارموز وتبلغ ما يناهز ١٤٥ متراً ، أما مناطقه البالغة الضحالة فتقع في القسم الممتد من شط العرب حتى بوشير ، ويناهز عمقه خارج مسقط ١٩ متراً ونصف متر .

وقد حالت ضحالة المياه في القسم الغربي من الخليج دون انشاء الموانىء على

الخلجان العديدة فيه ، لصعوبة التنقل فيها وتعذر دخول البواخر الضخمة اليها قبل انشاء المرافىء الحديثة فيها. وهناك بعض المناطق التي لا يمكن الوصول إلى شواطئها إلا بالقوارب والزوارق البخارية الصغيرة . ومما يزيد في صعوبة التنقل أيضاً تعدد الجزر المنتشرة على مقربة من الساحل ، مما يعيق حتى توسيعه واصلاحه .

المنـــاخ

تتأثر الطبيعة المناخية في البيئة التي تكتنفها ، بما يهب عليها من رياح قاريّة، وما يحيط بها من سلاسل جبلية ، وعلى الأخص السلاسل الجبلية الشمالية التي تحول دون تقدم الرياح الشمالية ، كما ان نسبة الرطوبة ودرجة الحرارة شديدتا الاتصال بوضع الخليج الجغرافي ، ويمكن تحديد ذلك على الشكل التالي [1] :

١ - الرياح

يهب على الخليج نوعان من الرياح : رياح موسمية وغير موسمية . وتشتد الرياح الموسمية في الربيع والشطر الأخير من الصيف وهي كذلك على نوعين :

أ — الرياح الشمالية ، وهي جافة وصحية ، تهب أحياناً بصورة هادئة ، ولكنها قُلّب ، سرعان ما تبدل الطبيعة المناخية والأحوال الجوية .

ب — الرياح الشرقية ، وهي بصورة عامة رياح جنوبية شرقية ، ولكن يطلق عليها اسم الرياح الشرقية . وهذه الرياح تهب خلال فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة أيام ، وهي شديدة الرطوبة ، ولا سيما في أيام الصيف ، ولذا فهي غير صحية ، شديدة الوطأة على السكان وخاصة الأجانب منهم. وقد يصحب هبوبها هطول أمطار غزيرة ، وتثير البحر فيعبّ عبابه وترتفع أمواجه .

أما الرياح غير الموسمية ، فهي غير مرتبطة بموسم أو بفترة زمنية ، وإنما تهب فجأة ، ولها تأثير بارز في منطقة الخليج إذ تتأثر بها الأحوال المناخية ، وهي تراوح

---

١ - The Persian Gulf, p,6-7.

بين الضعف والشدة ، وتهب على مناطق دون أخرى في فترات معينة ، بيد انها قليلة الأهمية إذا ما قيست بتأثير الرياح الموسمية .

٢ – نسبة الرطوبة

يرتفع على الاجمال معدل الرطوبة في جميع المناطق التي تحيط بالخليج ، نتيجة لموقعه الجغرافي وما تحمله الرياح في طياتها من نسبة عالية للرطوبة ، وهذا ما يجعل المناخ غير صحي في فترات معينة ، ولا سيما الفترة الممتدة بين تشرين الثاني ونيسان (نوفمبر وابريل) ، وذلك لعدم هبوب الرياح القارية الجافة والباردة التي تهب على شمالي افريقية ، والمناخ من هذه الناحية رديء ذو تأثير سيء على الحياة الطبيعية ونشاط الانسان ، وقد تبلغ درجة الرطوبة ابّان اشتدادها في امارة البحرين ما يناهز ٩٨،٢ بالمئة .

٣ – المعدّل السنوي لسقوط الأمطار

دلت الدراسات التي أجريت على مناخ الخليج [١] ان أمطاره شتوية ، وهي قليلة نسبياً ، وترتفع نسبتها في مناطقه الشمالية أكثر من ارتفاعها في المناطق الجنوبية ، وتتأثر بالرياح الموسمية التي تهب على الخليج وتحمل في طياتها الأمطار الغزيرة . ومن البيّن ان الأمطار التي تهطل على الساحل الشرقي أكثر غزارة واستمراراً منها على الساحل الغربي . وهي في هذا القسم متقطعة لا تزيد فترة هطولها في بعض المناطق على أسبوعين ، وذلك بسبب المناخ الصحراوي الجاف المهيمن على تلك المنطقة . وإلى القارىء معدل سقوط الأمطار السنوي في بعض المدن الواقعة في منطقة الخليج :

البصرة	٦،٣	انشاً
البحرين	٢،٤٧	»

١ – The Persian Gulf. p,6.

الكويت	٥	انشاً
بوشير	١١٫٠٧	»
جاسك	٤٫١٧	»
مسقط	٣٫٩٤	»

٤ – درجة الحرارة

ان درجة الحرارة في الخليج ، شأنها في كافة المنـــاطق الصحراوية ، تختلف اختلافاً بيّناً من فصل إلى فصل ، كما تختلف في اليوم الواحد ما بين ليله ونهاره ، إذ ترتفع الحرارة في النهار خلال الصيف إلى درجـــة لا تطاق ، بينما يتلطف الجو ليلاً وتسري فيه برودة منعشة بعد هجير لاهب . أما في فصل الشتاء فتتميز الحرارة بالدفء نهاراً وهي قارصة البرودة في فترات الليل .

وتراوح درجات الحرارة الرئيسية حسب الجدول الآتي [١] :

المدينة	الحد الاقصى للحرارة	الحد الادنى للحرارة	المدى الحراري
البصرة	٤٨٫٨°م	٤°م	٤٤٫٨°م
البحرين	٤٠٫٧°م	١٤٫٥°م	٣٦٫٢°م
الكويت	٤٩°م	٣°م	٤٦°م
بوشير	٤٦°م	٠°م	٤٦°م

الثروة النباتية والحيوانية في الخليج

نباتات منطقة الخليج هي نباتات صحراوية تأقلمت وطبيعةَ المناخ ودرجـــات الحرارة والعوامل المنـــاخية الأخرى المؤثرة كالتربة الصحراوية ونسبة الرطوبة والأمطار الموسمية ، وهي بصورة عامة نباتات مقاومة للطبيعة القاسية في الخليج ،

١ – دراسات عن الكويت والخليج العربي ، ص ٣٤ .

وتميل لان تكون نباتات لحائية قشرية كتمية تقاوم الحرارة وتقلب درجــاتها ، وأهم تلك النباتات النخيل الذي تشتهر هذه المنطقـــة بجودته ، وتنتشر أشجاره في كافة أنحـاء الخليج ، كما تكثر فيهــا النباتات العشبية الجافة التي تستعمل علـفاً للدواب .

ولقد حبت الطبيعة بعض تلك المناطق ثروات مـــائية ، فتشكلت في بعض بقاع الخليج الواحات الجميلة الغناء التي تنساب فيها الميـــاه رقراقة عذبة ، حيث تكتسي الارض بحلة زاهية من اخضرار العشب والكلأ ، فتتنقل في جنباتها قطعان الأغنام ، وتمرح فيها الغزلان البرية .

أما ثروة الخليج الحيوانية فأهمها الثروة الحيوانية البحرية ، إذ ينشط فيه صيد الاسماك وتكثر مغاوص اللآلىء ، التي هي مورد هام لبعض مناطقه ، وقدّر بعض الباحثين عدد أنواع الاسماك التي تعيش في ميـاهه بما ينيف على الأربعمائة . أمـــا الحيوانات البرية فهي قليلة ، ومنها الثعالب والغزلان ، وضروب من الطير .

الملاحة والحركات البحرية في الخليج

الملاحة ودورها الحضاري

بعد أن ألمنا إلماماً خاطفاً بجغرافية الخليج ، متوخين بذلك أن نطلع القارىء على طبيعة الحياة في تلك المنطقة وانعكاسها على حياة أبنائها ، نرى من الضروري أن نمهد لبحثنا التاريخي بدراسة لجانب من الحياة الحضارية والاقتصادية ، تكون همزة وصل ما بين بحثنا الجغرافي السابق، وما يتبعه من أبحاث عن تاريخ المجتمعات في منطقة الخليج وتطورها ، ومـا طرأ عليها من أحداث وحركات عسكرية وفكرية واستعمارية وانتفاضات استقلالية ، منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر .

والواقع ان أول ما يسترعي نظر الباحث في منطقة الخليج ، ذلك الموقع الجغرافي المطل باليابسة على البحر ، مما يرتبط ارتباطاً عضوياً وعفوياً بمحاولة الانسان الاولى لركوب غوارب الماء ، وهي محاولة تعود ولا شك إلى أزمنة بعيدة مغرقة في القدم ، سعياً وراء كسب العيش باصطياد الاسماك ، أو بغية التنقل ما بين الجزر القريبة من المناطق الساحلية . ولا ريب في ان تلك المحاولة الساذجة البسيطة، قد تطورت وارتقت إلى أن أصبحت حركة ملاحية كبرى ، تبعاً لرقي وتطور سائر النواحي الحياتية ومرافقها الحضارية .

وقد كان للملاحة أثر كبير في تقريب الأمم بعضها من بعض ، بعد أن كانت كل منها تحيا في معزل عن الأخرى حياة بدائية في تقاليدها ونمط معيشتها ، وكانت

من بواعث رقي الانسان الاول وحضارته بما كانت تأخذه كل أمـــة من عادات الأمم الأخرى ومن تقاليدها ، أو بمـــا تقتبسه من إنتاج يدوي ونتـاج فكري يزيدان في مهارات اليد ويوسعان من آفاق الفكر ، مما يشكل ذلك الخط الحضاري الصاعد منذ فجر التاريخ حتى أيامنا الحاضرة وحتى العصور المقبلة من حياة الانسان على هذا الكوكب .

ويزيد في أهمية الملاحة ودورها الحضاري ، ان الأمم الملاحيـــة لم تكن تحمل لغيرها من الشعوب منتوجاتها فقط ، وآخر مـا توصلت اليه ابتكاراتهـا وحسب ، بل غالباً ما كانت تنشيء المستعمرات وتقيم المراكز في البلاد التي تتعامل معها ، وقد يعدو الأمر ذلك فتجلب معها المبشرين بمعتقداتها ودياناتها ، فيكون لهم الأثر الكبير في تغيير مجرى حياتهـــا وانماط تفكيرها . وحسبنا هنا أن نذكر مثلاً حضارياً واحداً كان له أكبر خطر وأعظم شأن في حياة الأمم جميعـــاً ومكانها في الركب الحضاري الصاعد ، ونعني بذلك اكتشاف الكتابة الذي كان للملاحين والتجار الأول دور أساسي في نشر شعاعه من مهد نشأته، ونقله إلى الأوطان المتنائية والأقطار المتباعدة ، وقد كان للفينيقيين القدح المعلّى في ذلك .

ومن يقارن بين المناطق المعزولة النائية ، وسبل حيـاتها وطرق معـــاشها ، والمناطق الملاحية التجارية المفتوحة على العالم ، يدرك حق الادراك ما للملاحة من يد بيضاء على الحياة في تطورها ، والمدنية في ارتقائها ، والحضارة في ازدهارها .

وقد احتل الخليج العربي في تاريخـــه الملاحي الطويل ، مكانة بارزة في ذلك المضمار ، وكان له تأثيره البالغ في تاريخ تلك المنطقة وحياتها الاقتصادية ، وشغل صفحات ذهبية في سجل الحضارة ووقائع الاحداث ، نظراً لانفتـــاحه على المحيط الهندي والتقائه بالحضارة الهندية من جهة ، واحتكاكه عن طريق الملاحة بالإغريق وخلفائهم من جهة أخرى .

المحاولات الملاحية الاولى على شواطىء الخليج

ومن المعروف – كما سيرد في الصفحات التـالية – ان منطقـة الخليج قد

احتضنت كثيراً من الشعوب وعديداً من الأمم التي عاصر بعضها بعضاً واكتسب بعضها عن بعض تقاليد ركوب البحار والاتجار مع البلاد البعيدة ، وان مياه الخليج قد شهدت منذ فجر التاريخ القوارب الصغيرة والمراكب الشراعية البدائية ، المتدرجة في التطور ، حتى غدت الأساطيل الحربية تجوب أوجاءه وتنطلق عن شواطئه ، تطوف حيناً بالقرب من الساحل ، وتوغل أحياناً في أعماق المحيط ، يحدوها ذلك الشوق الأبدي الذي يدفع الانسان إلى ارتياد المناطق النائية واكتشاف الأصقاع المجهولة .

والراجح ان المحاولة الملاحية الأولى على شواطىء الخليج ، تعود إلى تاريخ السومريين الذين قطنوا منطقة مصب الأنهر في القسم الشمالي منه ، هذه المنطقة التي ندعوها اليوم بلاد ما بين النهرين ، وانهم وضعوا اللبنات الأولى في تلك الحركة الملاحية .

ثم جاء خلفاء السومريين ، ونعني بهم الشعب البابلي الذي وفد من شبه الجزيرة العربية واستوطن إلى جوار الشعب السومري ، ثم طغى عليه وقلّص نفوذه . وقد استطاع البابليون الذين كانوا يعيشون طور البداوة أن يكتسبوا من السومريين مكاسب حضارية هامة ، فقفوا على آثارهم في ميدان الملاحة التجارية ، وعبروا الخليج ، وانطلقوا إلى ابعاد أنأى مما بلغه معلومهم . ومـا زالت الآثار البابلية إلى الآن شاهداً حياً على مـا بلغته حضارتهم وما كان للملاحة فيها من أثر واضح . وتدل النقوش التي عثر عليها في الحفريات الأثرية ، على أنه كان لهم أسطول بحري ومراكب نهرية ، وأنهم سيطروا على الخطوط التجارية البحرية التي كانت تصل البحر الاحمر بالخليج ، والخطوط البرية التي تتصل بآسية الغربية عبر بلاد الشام والهلال الخصيب .

وفي القرن السابع قبل الميلاد ، وهي الحقبة التي قويت فيها شوكة الآشوريين ، قامت في الخليج محاولة جريئة لانشاء أسطول بحري ، وقد انشىء هذا الأسطول فعلاً لما ارتفع إلى دست الحكم الامبراطور سنحاريب الذي استعان بالفينيقيين لهذا الغرض . وحين تم للامبراطور ما أراد توجه بأسطوله لمحاربة الكلدانيين الذين

التجأوا إلى أراضي عيلام ، وأعمل فيهم سيف البطش ، وألحق مُلْك الكلدانيين بامبراطوريته [١] .

البحر الاحمر والخليج

ولا بد هنا من الاشارة إلى الدور الخطير الذي مثله البحر الاحمر في الحركة الملاحية ، وأثره في الخليج ، وانعكاس نفوذ كل منهما على الآخر ، بتأثير متبادل وعلاقات متشابكة ، فكانا كفرسي رهان على الصعيد الملاحي ، إن طغت حركة مدّ من جانب قابلتها حركة جزر من الجانب الآخر ، وذلك لارتباطها بخطوط الملاحة الواحدة التي تصل الشرق بالغرب ، وتحمل منتوجات هذا إلى ذاك ، وخيرات ذاك إلى هذا ، ولتشابه موقعها الجغرافي ، إذ ان كلّا منهما ليس إلا امتداداً للمحيط الهندي ، احتضاناً لأراضي شبه الجزيرة العربية ، كما انهما نقطتا الوصل بين حوض البحر المتوسط والمحيط الهندي ، وقد سلطت عليهما الأنوار ، وظهرت أهميتها ، وتنافسهما على مركز الصدارة ، مع بدء العصر الهيليني ، إذ يُعدّ العهد الذي سبق تلك الحقبة التاريخية عهد انعزال كل منهما عن الآخر [٢] .

مع بزوغ فجر العصر الهيليني شهد الخليج مقدم أسطول الاسكندر الكبير الذي كان يطمح لأن يرتفع صولجانه على كافة الأمم ، وأن يجعل من بابل العاصمة الثانية لإمبراطوريته الكبرى ، نظراً لأهميتها ووقوعها على الفرات الذي يصب في شمالي الخليج ، ولهيمنتها على الخطوط التجارية البرية والبحرية . وكانت مصر آنذاك واقعة في قبضة الفاتح ، كما دانت له بعض المناطق المحيطة بالخليج ، مما جعل حركة الملاحة تنشط في هذا الحوض متصلةً بمرافىء الهند ، وترجح كفته على شريان التجارة المنافس له ، أي البحر الاحمر .

إلا أن البحر الاحمر ما لبث ان استعاد مكانته وارتفع شأوه في الميدان التجاري ، حين ظهرت على مسرح التاريخ الامبراطورية الرومانية وحلت محل

---

١ - The Persian Gulf. p, 9

٢ - العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٥٣ - ٥٤ .



مركب شراعي عربي في عرض المحيط

امبراطورية الاسكندر ، إذ أخذ مجرى الخط التجاري مسراه إلى منطقة العقبة التي انشىء عليها ميناء تجاري ضخم تنتقل منه البضائع إلى البحر الأحمر .

وبقيام الامبراطورية الساسانية الفارسية عام ٢٢٥ م. نشطت الحركة الملاحية على الساحل الشرقي من الخليج ، وازدهرت هذه الحركة بصورة خاصة حين أسس ازدشير عدداً من الموانىء البحرية لتأمين التبادل التجاري بين امبراطورية فارس وشرقي أفريقية ولا سيا مملكة اثيوبيا وبلاد الصومال .

إلا ان هذا النشاط البحري الفارسي كما رأينا في فصل سابق لم يستمر طويلًا ، وما لبثت التجارة العربية ان قامت بدورها الهام ، وانتزعت قصب السبق في الميدان الملاحي لاتصالها بالأقطار العديدة واتساع رقعة ممالكها التي امتدت من شمالي افريقية وجنوبي غربي أوروبة حتى تخوم الصين ، وكانت التجارة متصلة عبر تلك المساحة الشاسعة من الأرض .

العرب فرسان البحر

لقد كان الاسلام ، الى جانب قيمه الروحية والانسانية ، رائداً حضارياً حدا بالشعب العربي الى التطلع الى الآفاق البعيدة ، وولوج سائر ميادين الحضارة ،فكان التجاوب طبيعياً مـا بين ذلك المثل الكريم وحملته من نفوس طبعت على حب المغامرة والمخاطرة ، ولا سيا ابناء المناطق الساحلية كعرب البحرين وعمان والمناذرة اللخميين ، وبني كلب وبني نمر الذين كانوا يسكنون قبل الاسلام على الشاطىء الشرقي للخليج .

ان العمانيين وجيرانهم أهـالي البحرين ، قد اشتهروا من قديم الزمان بحبهم لركوب البحار والذهاب في بعيد الأسفار ،وذلك لأن العمانيين بحكم طبيعة أراضيهم الجبلية الناهضة من خلف المحيط ، شعب بحري دفعته ظروف حياته لخوض غوارب المياه ، واما البحرانيون ،صيادو اللؤلؤ ،فكانوا على شهرة واسعة في العالم الملاحي، وقد لعبوا في مختلف العصور دوراً كبيراً في ميدان التجارة العالمية الممتدة الشرايين ما بين الشرق والغرب ، وكانوا الى ذلك مرهوبي الجانب لا يترددون في الاغارة

على جيرانهم من فرس او بابليين .

وحين بدأت موجة الفتوحات الأولى ، اتجهت حركاتها أول مـــا اتجهت الى الحملات العسكرية البرية ، وذلك لافتقار العرب لوسائل النقل البحرية الكافية التي تتيح لهم الانطلاق بعيداً عبر البحار. ومع ذلك كان الخلفاء الأولون مدركين قيمة الثغور ، ولا سيا ما كان واقعاً منها على الخليج العربي ، كميناء الأبلّة القريب من البصرة — كما سنجـد في فصل الفتوحات العربية — وذلك لدرء الخطر الخارجي ، وما يمكن أن يقوم به العدو من هجوم مباغت ، ثم لوضع اليد على عصب الحيـــاة الكامنة في تلك المراكز التجارية ، لتكون قواعد بحرية ستراتيجية لهم . وفي خلافة عمر بن الخطاب ادى عرب البحرين قسطهم في الفتوح بحملات بحرية قام بهـا أميرهم العلاء الحضرمي على المناطق الفارسية في الساحل الشرقي .

ولم يكد ينقضي عهد عمر ويهلّ عهد عثمان بن عفان ، حتى كان للعرب اسطول حربي استطاع أن ينازل الأساطيل الرومانية وينتصر عليها في مواقع عدة كموقعة الصواري ، وان يفتتح عدداً من الجزر بحملات مظفرة . غير ان هـــذا الاسطول الذي تطور الى اسطول أموي لامتداد سلطة معاوية في الشام وانتقالها من امارة الى خلافة ، كان مجـــاله الحيوي الأول البحر الأبيض المتوسط والشواطىء المصرية والسورية كميناءي الاسكندرية وطرابلس ، قد مثل دوراً آخر في الخليج العربي في عهد ولاية الحجاج على العراق ، وقيام البطل محمد القاسم بفتح السند ، إذ كان التكاتف والتآزر تاماً في تلك الحملة ما بين القوات البرية والبحرية .

ولما انتقل مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد في العهـــد العباسي ، راجت في منطقة الخليج حركة ملاحية واسعة ، وذلك لوقوع حاضرة العروبة على مقربة من شمالي الخليج ، ولقيام تلك الحاضرة على نهر دجلة الذي كان خطاً تجارياً تنتقل عليه المراكب من الخليج واليه ، لتندفع بعدئذ في غمار المحيط الهندي.

وقد واكب عوامل حب المغامرة والاقدام على اقتحـــام المجهول ، التي فطر عليها البحارة العرب ، قيام حركة التأريخ والكشوف الجغرافية التي ساعدت على التعريف بالمناطق الواقعة ضمن حظيرة الاسلام ، والأقطار المجاورة التي وصل اليهـا

المسلمون ، وبينما كانت أوروبة تتيه في ظلمات القرون الوسطى كان الفكر العربي ينعم بالثمار الذهبية من كتب التاريخ والجغرافية ، كمؤلفات الطبري والمسعودي وابن خرداذبة وياقوت وغيرهم ، تلك المؤلفات التي لم توقف العربي القديم على واقعه تاريخياً وجغرافياً فحسب ، وإنما ظلت لنا تراثاً وذخراً نستشف من ورائها ما كان عليه الأجداد من نشاط حضاري عمراني ، وكيف يكون الفكر في خدمة الواقع ، ثم كيف يزدهر هذا الواقع بأينع الثمرات العقلية .

وإلى جانب المؤلفات الجغرافية البشرية ، وضعت في تلك الحقبة كتب جغرافية ملاحية لتكون دليلاً للمسافرين على متون المراكب الشراعية ، لاشباع روح المغامرة والتطلع التي سادت ذلك العصر ، ذلك لأن أبناء تلك الدولة المتسعة الرقعة على خارطة العالم ما كان يمكن أن يرضوا بالعيش في محدود الآفاق ، وإنما كان شأنهم شأن أبناء الشعوب العظيمة والدول الكبرى ، يذهبون بعيداً بحثاً عن معارف الأمم الأخرى أو سعياً وراء رغد العيش .

ومن الواضح ان العوامل الاقتصادية ، صناعية كانت أو زراعية ، قد ساعدت على ازدهار الملاحة والتجارة في العصر العباسي ، ومن يتقصّ أخبار ذلك العصر يقعْ سريعاً على أثر هذين العاملين — الزراعة والصناعة — وانعكاسها المباشر على التجارة العامل الاقتصادي الثالث .

الملاحة العربية في العهد العباسي

لقد ساعدت الدولة العباسية بخلفائها وحكامها ، على ازدهار الزراعة والصناعة ، فقامت المدارس التي ترفع من شأنهما وترسي دعائمهما على الأسس العلمية التي وصل اليها العصر ، وكان لزيادة الانتاج ، والاحتياج إلى المواد التي تفتقر اليها المناطق الاسلامية ، دورهما البارز في عمليتي الأخذ والعطاء والاستيراد والتصدير ، ولا سيما تجارة الرقيق التي كانت منتشرة في سائر بقاع المعمورة دون استثناء ، والتي حمل العرب بعض أوزارها ، وقد كانت من ضرورات الحياة الاقتصادية يومذاك ، وذلك لكسح الأراضي السبخية الملحية في منطقة شط العرب شمالي الخليج العربي ، ابتداءً

من البصرة وانتهاءً بواسط ، ثم لاحياء الأراضي الزراعية التي تغدو مواتاً بفعل المدّ الذي يطغي على أراضي جنوبي العراق ثم يرتد عنها ، مما ينبغي له أيد عاملة كثيرة وجدها العرب في الزنج الأرقاء الذين كانت تقلهم المراكب العربية من القارة السوداء عن طريق الخليج العربي .

ان اجتماع تلك العوامل الدينية والعلمية والنفسية والاقتصادية ، قد ساعد على تنشيط الحركة الملاحية العربية ، وانتزع للعرب -كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن - قصب الزعامة البحرية في الميدان الملاحي ، فكانوا سادة المحيط الهندي ، ومالكي زمام البحر الابيض المتوسط ، يجولون فيها ويصولون ، ناهيك عن انهم كما اشرنا في فصل سابق ذوو الفضل الاول في اكتشاف الرياح الموسمية وتسخيرها لخدمتهم . وقد أولت الخلافةالعباسية أمر الملاحة بالغ اهتمامها ، فأنشأت في الموانىء المنائر التي تشتعل فيها النيران ليلاً لتهتدي بها السفن ، كما عملت على حماية تلك الموانىء والمرافىء بإنشاء مراكز للحاميات فيها ، حفاظاً عليها من القراصنة وغارات اللصوص ومداهمات البدو ، كما كانت هناك قطع من الاسطول مهمتها ملاحقة القراصنة والقضاء عليهم [1] .

ولننظر بأية روح عملية ونظرة واقعية اختار ابو جعفر المنصور بغداد عاصمة له ، عملاً بنصيحة أحد عماله الذي قال له : « انك تصير بين اربعة طساسيج (جمع طسوج وهو الناحية) : طسوجان في الجانب الغربي ، وطسوجان في الجانب الشرقي. فاللذان في الغربي قطربل وبادريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلوازي ، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك الميرة من الغرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر ، وتُحمل اليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك ميرة أرمينية واذربيجان وما يتصل بها في تامرا ، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة . وأنت بين انهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعت الجسر او

---

١ - تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٢ ص ٢٧٢

القنطرة لم يصل اليك عدوك ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل [1] » .

وهكذا تحكمت بغداد تردفها البصرة في العراق ، والاسكندرية في مصر ، بحركة التجارة العالمية ، وذلك تأميناً لحاجات الخلفاء والأمراء وارباب الثراء، من النفائس الجميلة ، والأعلاق الرائعة ، والطرائف الفنية ، والتوابل والأفاوية ، من الهند والصين ومصر وفارس وسيلان وسرنديب ، والأرباح تدر الأرباح ، مما يزيد بنشاط الحركة الملاحية في الخليج العربي ، ويدفع البلاد الاسلامية أشواطاً واسعة في مضمار التطور بوصول الربابنة العرب الى الهند والصين وجزائر المحيط الهندي ، وربطها جميعاً بخطوط ملاحية واسعة تبقى فيها الحاضرة العربية قلب العالم ، وليس أدل على ذلك من قول المنصور حين تمّ له بناء عاصمته دار السلام على نهر دجلة الذي تمخره المراكب النهرية ويصب في الخليج قريباً من ميناء الأبلة : « هذه دجلة ، ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما في البحر ! .. [2] » .

وفي الواقع « كانت تربط الفرات بدجلة عدة قنوات صالحة للملاحة ، منها نهر عيسى وكان ينتهي إلى بغداد . وكانت العاصمة الجديدة في وسط السهول الخصبة التي كانت تزدان بها أرض الجزيرة ، وكانت أوفر حظاً بمياه الري وأكثر ازدحاماً بالسكان منها اليوم . وقد علا شأن بغداد سريعاً ، فأضحت بابل جديدة ، وصارت مركزاً فسيحاً يحفل بالناس والمال والترف ، وهكذا أصبحت المدينة التجارية الأولى في الشرق الأوسط . وكان هذا من شأنه تنشيط التجارة من موانىء الخليج إلى الشرق الأقصى . وكانت الأبلة وسيراف أهم موانىء السفن البحرية ، ولكن السفن النهرية كانت تستطيع نقل السلع إلى بغداد [3] » .

ان وحدة الامبراطورية العربية الاسلامية التي امتدت على رقعة واسعة من العالم شملت كثيراً من سالف الممالك والامبراطوريات التي انضوت تحت لوائها ،

---

١ – تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ج ١ ص ١ – ٢٣ .
٢ – كتاب البلدان لليعقوبي ، ص ٢٣٧
٣ – العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ١٩٦

واصطبغت بصبغتها الاسلامية، وانصهرت في وحدة سياسية متكاملة تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد السند شرقاً ، تربط بين أجزائها المترامية تلك الشبكة من الخطوط التجارية ، البرية والبحرية ، التي كانت أشبه بالشرايين في الجسد الواحد، وكان الخليج العربي فيها مركز الأعصاب الذي يوجه نشاط تلك الحركة الدائبة في الذهاب والاياب ، لأن موانئه هي نقاط التقاء القوافل البرية بالسبل البحرية .

وإذا كنا قد رأينا في مطلع هذا الفصل ، تنافس البحر الأحمر والخليج العربي في العصور القديمة على مركز الصدارة ، فان انتزاع التجارة العربية قصب السبق من أيدي الأمم الأخرى ، شاملةً تلك الرقعة العظيمة المتناهية الاتساع ، جعل ذينك الشريانين الملاحيين متناظرين متكاملين ، لأنهما يخدمان أهدافاً واحدة ، ويرميان إلى غاية بعينها ، ناشطين بالتجارة العربية ، مرتفعين بمقوماتها ، عائدين بالخير على الدولة الواحدة . ولكن مياه الخليج لم تلبث حتى رجحت كفتها ، وظلت كذلك لا ينازعها منازع على مركز الصدارة حتى دُهمت مدينة السلام بزحف المغول الذي دك حاضرة العروبة .

خطوط التجارة العالمية في العهد العباسي

وقد عدّ المؤرخون القرن الثالث الهجري ، أي التاسع الميلادي ، قمة نشاط الحركة التجارية ، براً وبحراً ، وعصر ازدهارها الذهبي ، وكانت تسلكها الخطوط العالمية التالية [١] :

كان الخط الأول يمتد من بروفنس الفرنسية ، فتبحر سفن التجارة مارةً بالثغور الأوروبية حتى تنتهي إلى انطاكية على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وهنا تبدأ الرحلة براً عبر الأراضي السورية حتى بغداد ، مروراً بنهر الفرات وروافده وأقنيته ، ثم تستأنف الرحلة باعتلاء مياه دجلة التي تمخرها المراكب حتى ميناء الأبلة لتتابع المسيرة التجارية رحلتها إلى موانىء عمان التي كانت تعد من أهم

---

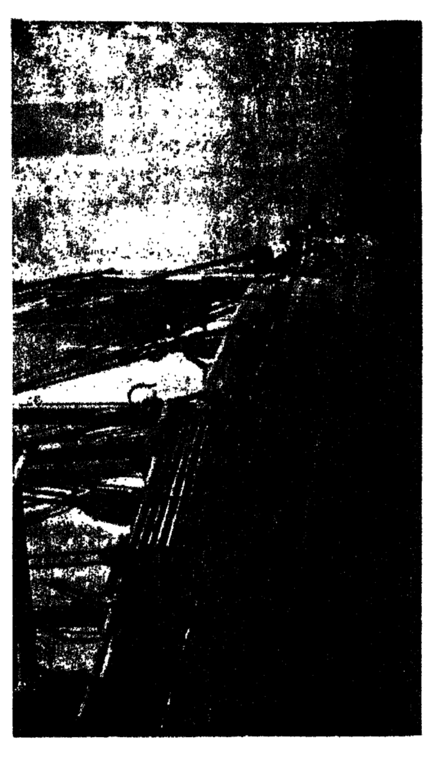
١ - المرجع السابق صفحة ٢٠٨ - ٢٢١ ؛ انظر ايضاً : العرب تأليف ادوار عطية ترجمة محمد قنديل البقلي ص ٥٥ - ٥٦

المراكز التجارية الملاحية ، لأنها الى جانب ارتباطها بهذا الخط ، نقطة الالتقاء التي تربط شرقي افريقية ببلاد الشرق الأقصى ، ومن عمان كان ذلك الخط التجاري يأخذ سمت الساحل الفارسي ليتوقف في عديد من الموانىء ، ثم يتابع امتداده حتى الهند وسيلان وينتهي بشواطىء الصين . والى جانب هذا الخط البحري الذي يمتدعلى دجلة الى الأبلة فعمان فالصين ، كان ثمة خط بري مواز له ، تسلكه القوافل التجارية من بغداد الى الصين .

أما الخط التجاري الثاني فكان يسيطر عليه البحر الأحمر ، ونشير اليه لأنــــه يكمل وحدة الشبكة التي كانت تربط مـــا بين البلاد الاسلامية في العصر الذهبي للملاحة العربية . ويبدأ هذا الخط أيضـــاً من أوربة ، بأطول مدى يربط الغرب بالشرق الأقصى،ويساير شواطىءالبحر الأبيض المتوسطحتى يتوقف فيالاسكندرية وهنا إما ان تتابع الرحلة براً سالكة الطريق التي تربط الفرما بمدينة القلزم (السويس حالياً) ، أو تركب غوارب النيل ناقلة بضائعها الى البحر الأحمر ، ثم تتابع سيرها في كلتا الحالتين على طول ساحل شبه الجزيرة العربية ، وتتوقف في عمان ، لتستأنف الرحلة عبر الخليج العربي أو تكمل الطريق حتى تبلغ الهند فالصين .

وأما الخط التجاري الثالث فهو بري يبدأ من روسيا ويتوقف في بغداد ، ليتفرع منها بعد ذلك ، سالكاً أحـــد الطريقين البري او البحري ، اللذين أشرنا اليهما في حديثنا عن الخط التجاري الأول ، لبلوغ الهند والصين .

يقول الدكتور حسين فوزي: « وقد تتحول طرق التجارة من الشمال الى الجنوب أو تتغلب التجارة البرية على البحرية أو بالعكس . ولكن ذلك لم يغير كثيراً من مركز القبـــائل المقيمة في جزيرة العرب . فهذا الخليج العربي من أقدم الأزمنة رأس الطريق الملاحي الى الشرق ، ورأس الطريق التجـــاري الى الغرب ، وهذا مجرى الدجلة والفرات تقام عليه المدائن فتتصل رأساً بالطريق البحري ، أو تقف وسطاً في طريق التجارة المارة بهضبة إيران . وهذه جزيرة العرب بقسميهـــا : التهامة والنجد أو السهل والجبل ، للتجارة فيها طرق معروفة ، من اليمن او العرب



جانب من مركب شراعي عربي كبير

السعيدة ، الى الحجاز ثم شمالاً الى الشام أو شمالاً بغرب الى الفرما فمصر [١] » .

ويتضح لنا مماذكرناهمن نشاط تلك الحركة العالمية التي لعبها العرب،ما يتمتع به من حيوية ومقدرة ذلك الشعب الذي استطاع في فترة قليلة ان ينتقل من حياة الصحراء المتقشفة الى حياة المدينة المتفتحة المتوهجة ، وأن يتفجر عن طاقات ومزايا رائعة ، وأن يبلغ في كل مرفق من مرافق الحياة أوج الرقي الحضاري والابداع الفكري والازدهار العلمي ، في شعب انطلق بعيداً في الآفاق ، طلباً للعلم ، أو جنياً للثروة ، أو اشباعاً لروح المغامرة التي تعصف في صدور أبنائه .

التجار والملاحون العرب رواد حضارة وسلام

ولقد استطاع البحارة العرب من ابناء الخليج ، لما عرف عنهم من حميد الخصال والاستقامة في المعاملة ، ولاتصافهم بالأمانة والعفة والصدق ، أن يظفروا بالرعاية والمحبة لدى أولي الأمر في البلدان التي يتعاملون معها ، فسهلوا لهم اقامة الجوامع وانشاء الجاليات العربية،كما أن قسماً غير قليلمن المواطنين اعتنق الدين الاسلامي، في كل من الصين ، وجزائر المحيط الهندي ، نتيجة اتصالهم بأولئك الرواد السابقين .

يقول المؤرخ الهندي بانيكار: « ولم يحدث قط ان شابت نشاط العرب التجاري أية شائبة سياسية . وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية بجميع الموانىء الهندية ، وينطلقون بسفنهم إلى المحيط الهادي ، بل يبلغون ساحل الصين . ويلوح انهم بعد القرن التاسع دخلوا حلبة منافسة فعالة الأثر مع التجار الجوجراتيين على تجارة الأفاويه المستجلبة من الجزر الأندونيسية ، وذلك ان البوكرك عندما وصل إلى ساحل الملايو، لاحظ ان التجار العرب والهنود والصينيين كانوا يتنافسون في أسواق تلك المنطقة تنافساً صريحاً لا لبس فيه [٢] » .

---

١ ـ الملاحة العربية في القرون الوسطى للدكتور حسين فوزي من محاضرات الموسم الثقافي بالكويت ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٢٧٨ .

٢ ـ آسيا والسيطرة الغربية تأليف ك. م. بانيكار ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٢

ويضيف بانيكار في مكان آخر : « وكان لتجار قاليقوط مستودعات لبضائعهم بالقاهرة والاسكندرية ، بل حتى بمدينة فاس في المغرب الأقصى . وكانت هناك محالفة وثيقة دامت أربعة قرون على الأقل بين الزامورينات (حكام قاليقوط) والمجتمعات التجارية التي كانت تتحكم في تجارة الأفاويه. ولما كانت البيوت الكبرى التي تهتم بتلك التجارة بيوتاً عربية ، فقد تمت علاقات خاصة جداً بين ذلك الحاكم الهندوسي والمسلمين الذين لم يكونوا يشكلون أي خطر على السلطات الهندوكية لأنهم لم تكن لهم أي سلطة سياسية بذلك الشطر من بلاد الهند ، كما لم تكن لهم أدنى علاقة بسلاطين الهنود شمالاً. وكانت العلاقات السياسية لتجار السواحل العرب هؤلاء مقصورة على مصر وبلاد العرب والمحيط الفارسي [1] » .

ويقول الأستاذ أمين سعيد : « كانت للبحارة العرب والتجار العرب ، مهمة أخرى غير التجارة وغير البيع والشراء ، وتبادل السلع والعروض ، وهذه المهمة روحانية سماوية ، تنحصر بالتبشير بالاسلام ونشره في جميع الثغور والأماكن التي يقفون فيها ، أو يمرون بها ، فكانوا يدعون سكانها إلى الاسلام ، ويحضونهم على الدخول فيه ، ذاكرين لهم ما أعدّ الله للمؤمنين. والمتفق عليه بين المؤرخين انه كان للبحارة والتجار العرب يدٌ كبرى في نشر الاسلام واذاعته في سواحل الهند وسيلان وبورما وشرقي أفريقية ، فقد دخل كثيرون من أبناء تلك البلاد على يدهم ، فكانوا النواة الأولى لانتشاره وذيوعه ، وعنها انبثقت هذه الكتلة الاسلامية الكبرى المنتشرة في آسية وأفريقية . ولم يقف هؤلاء البحارة والتجار البررة عند الحد الذي بلغوه بل اندفعوا في السير مع التيار حتى وصلوا إلى الصين فأنشأوا في بعض سواحلها وثغورها المراكز التجارية ، وشادوا المساجد إلى جانبها ورفعوا راية الاسلام في الأرض الصينية ، فأقبل الشعب عليهم واعتنق كثيرون الاسلام على أيديهم . وقد لا يخطىء من يزعم بأن في الصين اليوم طوائف اسلامية نامية ، لا يقل عددها عن ٦٠ مليوناً من النفوس ، وضعت بذورها على يد البحارة والتجار العرب

---

١ ـ المرجع نفسه ص ٣٧

الذين تدفقوا من قواعد الخليج وثغوره [1] » .

ولا ننسى فضل الدولة اليقظى أبداً على سلامة ملاحيها وتجارها، وحماية أساطيلها وقوافلها ، والضرب على أيدي كل من تسول له نفسه الاعتداء على أرواح رعاياها .

وقد بلغ من اهتمام رجال الدولة العربية بالتجارة وتيسير سبلها وتأمين مواصلاتها ، أن شغلت هرون الرشيد فكرة طالما أثارت اهتمام عمرو بن العاص من قبله ، وهي شق ترعة السويس ، وذلك لتكون الخطوط التجارية ممتدة الشريان ، ودون أي انقطاع ، من اسبانية إلى الصين ، لكنه عاد فأقلع عن تنفيذ تلك الفكرة حين تنبه للخطر الأجنبي ، وما يمكن أن تقوم به القوات البيزنطية أو غيرها من شن الهجوم على الديار المقدسة عن طريق الغزو البحري .

ولا يغرب عن بالنا ان فريضة الحج نفسها كانت باعثاً من بواعث الازدهار التجاري، إذ كانت المراكب في موسمه تعج في الخليج ، وفي نهري دجلة والفرات ، وكان الحجاج يجتمعون في بغداد قبل ان يتحركوا إلى مكة . وكانت هذه الفريضة فضلاً عن كونها من شعائر الدين وأركانه ، أحد العوامل المنشطة للعمل التجاري ، يتبادل المسلمون خلالها السلع والمنتوجات التي يأتون بها على مراكبهم الشراعية ، أو عن طريق القوافل البرية ، وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره المؤرخون من أن قائد ثورة الزنج قد استولى منذ بدء حركته على ألف وتسعمائة مركب تجاري كان معظمها يقلّ الحجاج المسلمين الذاهبين لإداء فريضة الحج .

المدن الملاحية الثلاث في العهد العباسي

وقد اشتهرت في تلك الحقبة التاريخية ثلاث مدن ملاحية ضخمة على الخليج العربي هي: البصرة والأبلة وسيراف . وكانت الأخيرة تعد آخر الثغور الاسلامية التي تربط الخليج بالصين تجارياً .

وسوف نرى في الفصول المقبلة ان البصرة [2] قد قامت أول ما قامت ابان

---

١ - الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، ص ١٣

٢ - انظر نشأة البصرة وتطورها في معجم البلدان ج ٢ صفحة ١٩٢ - ٢٠٧

الفتوحات العربية الأولى كقاعدة عسكرية، وهي مشيدة على نهر دجلة الذي هو بحد ذاته نهر ملاحي هام. وسرعان ما تطورت هذه المدينة تطوراً واسعاً، وازدهرت ازدهاراً رائعاً، وذلك لموقعها الذي خولها أن تكون خلال فترة قصيرة نقطة التقاء للسبل البحرية وطرق القوافل البرية، فطغت على شهرة ميناء الأبلة بالرغم من وقوع هذه على الخليج العربي، حتى أضحت من أضخم المراكز التجارية في الشرق بعد بغداد، وقد وصفها الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا وصفاً رائعاً في مقدمته لكتاب «التبصر بالتجارة» لأبي عثمان الجاحظ قال فيه :

«هي باب بغداد الكبير، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا، إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب، ومحط رجال الشرق والغرب، من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى، ولذلك استفحل بها العمران، وكثرت فيها المصانع والصنائع، وصارت واسطة العرب والعجم، وحق لها أن تتلقب بقبة الإسلام كما سماها عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1]».

أما ميناء الأبلة، الميناء التجاري الأول، فقد احتفظت برواج الحركة فيها، رغم منافسة البصرة لها، وذلك لكونها المركز التجاري ما بين الخليج العربي والخط الملاحي لنهر دجلة الذي يمتد إلى البصرة وبغداد. ويزيد في أهمية هذا الميناء ان البضائع كانت في أكثر الحالات تفرغ من المراكب الشراعية الضخمة – التي لا تستطيع ان تعبر دجلة – في مراكب نهرية تقلها إلى كل من البصرة وبغداد، وبذلك تكون الأبلة آخر مطاف المراكب البحرية. ومع هذا لم يكن الرسو في هذا الميناء سليم العاقبة دائماً، وذلك بسبب الانتقال من الخليج العربي إلى قناة دجلة المحفوفة بكثير من المخاطر، ومنها الدوامات، ناهيك عن المضاحل العديدة التي كانت سبباً في تحطيم عدد من السفن، الأمر الذي ساعد على نهوض سيراف الميناء الثالث.

---

١ - التبصر بالتجارة، ص٣

وتقع سيراف « على شاطىء حار مجدب ، شأنها شأن عدن ، وكانت تعيش على ما يرد إليها من مؤن عبر البحر ، وكان الفضل في وجودها كله لتجارتها البحرية ، ولكن بلغت هذه التجارة من الازدهار مبلغاً جعل من سيراف منافساً للبصرة في الغنى والثروة. ويصف الجغرافيون دُور الترف التي كان يقيم فيها تجارها وأصحاب سفنها ، وكانت مبنية من طوابق من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق افريقية . ويحدثنا صاحب أخبار الصين والهند وبأن الشحنات كانت تجلب عامة في سفن صغيرة من البصرة وغيرها من موانىء الخليج إلى سيراف حيث تنقل إلى السفن الكبيرة فتُقِلّها إلى الصين . وكانت الصادرات إلى الشرق الأقصى تتكون فيما يحتمل من منسوجات غالية من التيل أو القطن أو الصوف ، ومنها السجاجيد الصغيرة ، ومن المصنوعات المعدنية وخـام الحديد وسبائك الذهب أو الفضة [1] » .

ابعاد الرحلات الملاحية العربية

وكانت الرحلة الملاحية ما بين الخليج العربي والصين تستغرق ما يقارب الستة أشهر ، وكانت طرق الإياب التي يسلكها التجار العرب هي طرق الذهاب نفسها ، ولقد دلت على مبلغ قدرة الملاحين العرب وتفهمهم الرائع لمعطيات علم الفلك التي كان الملاحون يعتمدونهـا في البحار ، كما انهم استخدموا البوصلة بعد أن أخـذوا مبادئها عن الصينيين وطوروها في خدمة الملاحة ، وان كان هنالك من يـذهب إلى ان العرب هم الذين اخترعوا البوصلة كما رأينا في الفصل الأول .

وكان التبادل التجاري آنذاك يعتمد العملة الذهبية — الدينار — والفضيـة — الدرهم — ، وقد لاقت الدنانير الذهبية في التعـامل التجاري رواجـاً كبيراً في بلدان منطقة الخليج العربي كالعراق وفارس والبحرين وعمان ، وبلغ من تطور الحركة الملاحيـة بين العرب والصين ان كانت العملة الصينية متداولة في موانىء

---

١ - العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٢٠٧ ؛ انظر ايضاً :الاصطخري ص ٣٤ و١٢٧

الخليج ومدنه .

وكان يعتري الحركة الملاحية بين حين وآخر فترة من الركود ، في أيام النكبات والاضطرابات ، كثورة الزنج التي أنزلت الدمار بالحركة الملاحية طوال أربعة عشر عاماً ، أو الثورات الصينية التي توقفت خلالها الملاحة ما بين بلاد العرب والصين غير مرة .

وتؤكد كثير من المصادر الأوروبية ان الملاحين والتجار العرب قد تجاوزوا الهند والصين والهند الصينية ووصلوا إلى كوريا [1] ، وإلى جزائر الواقواق التي عرفت بأرض الذهب وسماها ماركوبولو تسيبانجو ثم عرفت في العصور الحديثة باسم يابان أي أرض الشمس المشرقة [2] . وإلى فنلندة وايسلندة وبريطانية [3] .

والواقع ان مغامرات الرحالة العرب ، براً وبحراً ، كانت أبعد مما يتصوره الخيال ، وقد أشار الشريف الأدريسي في موسوعته الجغرافية « نزهة العشاق » إلى محاولة عربية تدل على ان العرب قد اكتشفوا القارة الأميركية قبل كولمبس بمئات السنين . ويؤكد عالم الأجناس الأميركي « جيفريز » في أبحاثه عن أصل الشعوب الأميركية ، ان العرب كانوا على صلة بالشواطىء الأميركية قبل مجيء كولمبس بأربعة قرون [4] .

ويقول الاستاذ أمين سعيد ان هوي لين لي أستاذ العلوم الجغرافية في جامعة بنسلفانيا الأميركية ، وهو أميركي من أصل صيني ، نوه في المؤتمر الواحد والسبعين بعد المئة للجمعية الشرقية الأميركية التي تضم أساتذة الدراسات الجغرافية ، المعقود في شهر اذار (مارس) ١٩٦١ ، بأن البحارة العرب عبروا المحيط الأطلسي وبلغوا أميركا قبل كولمبس بعدة قرون : « ودلل الدكتور لي

---

١ - Heyd: Histoire du commerce. Vol. 1. p. 30-32

٢ - الملاحة العربية في القرون الوسطى للدكتور حسين فوزي ، من محاضرات الموسم الثقافي بالكويت ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٢٧٥

٣ - العرب تأليف ادوار عطية ترجمة محمد قنديل البقلي ص ٥٦

٤ - مجلة «العربي» ، العدد ٣٠ ، ص ١٥٢

على ذلك بوثيقتين حيتين هما : لنجواي باي وما وراء منطقة الجبل ، وهما من وثائق القرن الثاني عشر ، ووثيقة شوفان شي من وثائق القرن الثالث عشر ، فقد ورد في هذه الوثائق اسم مدينة « مولان لي » على الساحل الشمالي لأميركا الجنوبية ، وانه كان من المحاصيل التي تنتجها الذرة الهندية والقرع العسلي وثمار غريبة أخرى نعرفها حالياً باسم الجوافة والأناناس اليا ، والافواد ، وهذه كلها لم تكن معروفة قبل كولمبوس ولكن الوثائق أثبتت انها كانت معروفة للعرب الذين قاموا قبل سنة ١١٠٠ على الطرف الغربي للعالم الاسلامي ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد ، ورسوا في عدة مواضع على الساحل الأميركي . وأيّد هذه النظرية الدكتور لين شينج بانج أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ووصفها بأنها مثيرة للغاية ، كما أيّدها الدكتور ريتشارد رودولف رئيس المؤتمر الذي عقدته الجمعية الشرقية الأميركية فقال: « والآن على الأساتذة العرب أن يواصلوا دراسة تاريخهم ويبدأوا من هذه النقطة [1] » .

وصفوة القول ان العصر العباسي في القرن الثالث الهجري ، كان عصراً ذهبياً في تاريخ الملاحة العربية ، وقد تقدمت فيه أشواطاً بعيدة في مسايرة ركب الحضارة المتطور، وكانت موانىء الخليج تزدحم بالمراكب الذاهبة والآيبة، حاملة معها الخير والمتعة والعلم . ويقول جان جاك بيرّيبي ان تجارة العالم كانت تنقل من الشرق الأقصى إلى عواصم الدولة العباسية عبر الخليج العربي وتنقل منها إلى البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى سائر أنحاء أوروبة ، وبالعكس ، ولولا الخليج العربي لفقد البحر الأبيض المتوسط أهميته في تلك الفترة . ومن أجمل ما أشار إليه البحاثة الفرنسي تلك المودة التي كانت قائمة بين الملاحين العرب والملاحين الصينيين ، فمن الخليج العربي إلى بحر الصين « كانت القوارب الصينية تتلاقى دون انقطاع مع

---

١ - الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، ص ١٣ - ١٤ ، ويقول المؤلف في الهامش : « نقلنا هذه القطعة من مجلة نيوزويك الاميركية من عددها الصادر في شهر نيسان (ابريل) ١٩٦٠ ، ولئن لم تكن ذات صلة ببحارة الخليج الا ان فيها فضلاً كبيراً للبحارة العرب من حيث المجموع » .

المراكب العربية ، وعلى طول الشواطىء كان البحارة الصفر ذوو العيون المقطبة يمتزجون بإخاء بالبحارة السمر ذوي العيون السوداء ، متعرضين لأخطار متشابهة ولرياح واحدة ، تجذبهم ذات المغانم ويهددهم ذات القراصنة [١] » .

وقد ظل العرب محتفظين بقصب السبق في ميــدان الملاحة حتى طرأت على الامبراطورية العربية عوامل خارجية غيرت مجرى الأحداث وأنهت عهد السيادة العربية على المحيط الهندي ، وذلك مع بدء دخول الأساطيل البرتغالية إلى المنطقة ثم المنافسة الاستعمارية عليها .

ومما يؤسف له ان ملاحاً عربياً هو البطل أحمد بن ماجد ، قد ساهم على غير ارادة منه بتحطيم سيادة قومه على المحيط ، حين استعان فاسكو دي غاما قائد الأسطول البرتغالي بالربان العربي عام ١٤٩٨ م، لقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط الهندي ، كما سنرى في فصل مقبل .

---

١ ـ J. J. Berreby: Le Golfe Persique, p.193-194

الجزء الثاني
الخليج مُلتقى الأمم ومتزاحم الشعوب

- الخليج في مهب أحداث العالم القديم
- العرب قبل الإسلام ومركز الخليج
- ثلاثة أيام عربية خالدة على الخليج

الخليج العربي في مهب أحداث العالم القديم

انطوى تاريخ الخليج العربي في أحقابه القديمة على وقائع عظيمة الشأن ، بارزة الأثر في نشوء الأمم ورقيها وازدهارها ، وكانت وقائع هـامة في تغيير مجرى الأحداث .

غير ان ما وصلنا من أخبار القرون الغابرة المغرقة في القدم ، يشوبها عدم التسلسل في تواريخها والتتابع في حوادثها ، وهي ككل التواريخ القديمة يحيط بها الغموض ويكتنفها الشك ، لأن معظمها ينسب لأعمال الحفريات واكتشاف الآثار القديمة التي تطاولت عليها القرون وهي حبيسة في باطن الأرض ، وكثيراً ما تكون يد الطبيعة قد أتت على كثير من النقوش التاريخية المحفورة على الحجارة ، مما ينعدم معه وضوح التاريخ بشكل متسلسل مترابط .

بيد انه مما لا يطاله الشك أو يرقى إليه الريب ، ان الخليج قد عرف عديداً من الشعوب والأقوام القديمة المتميزة بطابعها ونهج حياتها ، كما انه كان مهداً لحضارات نشأت وارتقت وتوهجت مشعةً إلى خارج نطاقها المحلي ، إلى ما يحيط بها من شعوب وأمم ، نافذةً خلال الأقطار وعبر الأمصار ، وهي وان لم يبق منها إلا اليسير فقد ظلت واضحة السمات في غيرها من الحضارات ، لأن تاريخ الحضارة وقصة المدنية سلسلة مترابطة الوشائج وثيقة الترابط . وهل من خلاف في ان المدنية الحديثة هي نتاج تطور العقل البشري ورقيه منذ فجر الانسانية حتى عصرنا الراهن ،

رغم ما انتابه من مدٍ وجزر ، وأصابه من تقدم وتأخر ، وما أثر فيه من موجات الفتح الفكري آناً ، وموجات التدجيل والتضليل أحياناً، إلا ان هذه وان مثلت دورها السلبي في زمان ومكان معينين ، فان الخط البياني للحضارة خط صاعد سائر في طريق الرقي والتطور المستمرين .

ومن المؤرخين من يعتقد ان الخليج هو مهد الحضارة ، بل مهد الجنس البشري[1] . والثابت انه كان موطن شعوب عديدة وأقوام مختلفة، أهمها الساميون وعنهم تحدر العرب ، والعيلاميون ، والسومريون . وقد توزعت هذه الشعوب حول منطقة الخليج، ومنها تفرعت شعوب عديدة انتشرت في الأصقاع المختلفة وخالطت الأمم العديدة .

الساميون

لقد استوطن الساميون في الحقب التاريخية القديمة في الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة العربية وفي جنوبها . وعن هذا الشعب تفرعت شعوب عدة منها البابليون وكانت عاصمتهم في شمالي الخليج ، والآشوريون والآراميون وقد استوطنوا شمالي الجزيرة العربية في المنطقة التي تعرف باسم الهلال الخصيب،كما تفرع عنهم الفينيقيون الذين استقروا على الساحل السوري ، والاسرائيليون الذين أقاموا في فلسطين ، والعرب الذين قطنوا الجزيرة العربية وقسماً من ساحلها الغربي . وامتدت هذه الأمم ، وانتشرت في رقاع كبيرة من البسيطة ، حتى وصلت إلى بحر قزوين وبلاد فارس وشمالي افريقية ، كما داوت بينها الحروب والغارات ، تصارعاً في سبيل البقاء،وكسباً لخيرات الأرض،واستئثاراً بالمعمور،واستعباداً للشعوب الأخرى[2].

العيلاميون

وقد عاصر الساميين أبناء شعب آخر استوطنوا القسمين الشمالي والشرقي

---

١ ـ الجزيرة العربية تأليف مصطفى الدباغ ، ج ٢ ص ١٠٢

٢ ـ The Prsian Gulf, p. 25

للخليج ، وهم يدعون بالعيلاميين . ويعتقد المؤرخون بأن هذا الشعب من الأقوام الأكثر قدماً ، ويعود تاريخ نشوئه إلى ما قبل التاريخ ، وان مهد نشأته الأولى اواسط آسية ، ومنها انتشر في بلاد فارس وشمالي شبه الجزيرة العربية، ووصل إلى شمالي افريقية [1] .

السومـــريون

تدل الآثار المكتشفة على ان منشأ هذا الشعب واستيطانه منطقة الخليج، يعود إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، وانه من أوائل الشعوب التي حاولت اقتحام لجج البحار ، وقد اندمج فيما بعد بشعوب آسية الوسطى وأصبح جزءاً منها ، وقـــد ذكرت أساطير السومريين انهم جاءوا إلى العراق من الجنوب عن طريق البحر ،وفي رأي بعض الباحثين الحديثين ، وهو روتزني ، انهم جاءوا مهاجرين من آسية الصغرى في موجتين من موجات الهجرة ، ويرى آخرون انهم جاءوا من وادي السند ،بعضهم بطريق البر والبعض بطريق البحر ، وان جنة « تيلمون » التي ذكرت في أساطيرهم ليست إلا جزيرة البحرين في الخليج [2] .

تاريخ الخليج من خلال النقوش الآشورية والسومرية

دلت النقوش الآشورية والسومرية ، على ان الشعوب القديمة قد اتخذت الخليج وسيلة لرحلاتها البحرية وحملاتها العسكرية ، ومغامرات الفتوحـات التي قامت في تلك العصور ، ولكن تاريخ تلك الحقبة لم ينجل بصورة واضحة بسبب ما يعتور تأويل وتفسير ما ورد في الألواح والنقوش القديمة من غموض، وأكثر تلك التفاسير مرده التخمين والمقارنة ومحاولة ربط الأجزاء المفككة .

ومن بـــين النقوش الباقية ، نقش يصور إحدى الجـزر الآشورية وتدعى

١ ـ المرجع السابق ص ٢٦

٢ ـ دراسات في تاريخ الشرق القديم تأليف الدكتور احمد فخري ، ص ٢٨

« بندرك كي » ومن المحتمل أن تكون جزيرة البحرين . ومنها أيضاً لوحتان تاريخيتان تسجلان أحداث الفترة التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وتتحدث اللوحة الأولى عن مآثر سارغون ووصوله إلى الخليج وتأثيره في المناطق الأخرى في ميادين التجارة والملاحة ، أما اللوحة الثانيــــة فتمثل استمرار حملة سارغون العسكرية وفتوحاته وحملات خلفائه ممن جاءوا بعده ، كما تتحدث عن فتوحــات نارام سين وغزوة ملكي ابيراك وماغان [1] .

بلاد ماغان من خلال النقوش السومرية

تجمع الدلائل على ان ما كان يسمى قديماً بمملكة ماغان ، هو منطقة عمان والجبل الأخضر ، لأن تلك التسمية تعني في اللغة السومرية « جبل النحاس » وان الاسرة التي كانت تحكم ماغان يومذاك (٢٦٠٠ ق. م) كانت تدعى نيندولا التي تعني « ملكة قطعان الماعز » وقد كشفت الحفريات في المناطق الجبلية هناك عن وجود آثار للنحاس وقرون الماعز .

أما كلمة « ماغان » بالآشورية فهي مركبة من لفظي **Ma** و **Gan** وتعني هذه « الناس » والثانية « السفن » مما له دلالة واضحة على ان سكان عمان القدامى قد ركبوا البحر في الازمان الموغلة في القدم . ويؤكد هذا الرأي ما ورد في أحد النقوش عن بناء السفن للالهة « باو » وعن رحلات بحرية بين ماغان و « ميلوخا » مما يدل على ان سكان ماغان كانوا يقومون منذ تلك الأيام بأسفار بحرية طويلة على امتداد شواطىء الجزيرة العربية ، لأن كلمة ميلوخا تعني الحبشة ، وفي ذلــك برهان ساطع على ازدهار التجارة منذ تلك الأزمان ما بين منطقة الخليج والساحل الافريقي وبالتالي على الازدهار الحضاري لتلك المنطقة [2] .

---

١ ـ The Persian Gulf, p 26 - 27

٢ ـ العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٧ - ٢٨ ؛ انظر ايضاً : الجزيرة العربية للدباغ ج ٢ ص ١٣١ و The Persian Gulf, p 27 - 28

الفينيقيون وصلتهم بالخليج

أشهر صفة يمكن أن ينعت بها الشعب الفينيقي انه شعب تجارة ومغامرة ركب البحار وتعامل مع كثير من البلدان وعديد من الشعوب، وان هذا الشعب فرع من دوحة الشعب السامي الذي أتينا على ذكره . ويعتقد أكثر المؤرخين بأن الفينيقيين بعد هجرتهم الأولى من جنوبي الجزيرة العربية ، استقروا فترة من الزمن في شواطىء الخليج ، ثم انتقلوا إلى الساحل السوري ، وانهم سموا مدينة « صور » على شاطىء البحر المتوسط تيمناً باسم مدينتهم الأولى على شاطىء الخليج .

وتشير الكثير من الآثار التي كشف عنها حديثاً إلى تلك الصلة الوثقى ما بين آثار الفينيقيين المكتشفة في الساحل السوري وتلك التي كشف عنها في منطقة الخليج .

ويقول جان جاك بيرّيبي : « يرى عدد من الباحثين ان البحرين كانت الموطن الذي نشأ فيه أولئك الفينيقيون ملاحو وتجار البحر الأبيض المتوسط ، الذين غدوا نقلة الحضارات القديمة . ويوطد هذا الرأي ، ذلك التشابه المدهش بين العديد من القبور التي عثر عليها في الجزيرة الكبرى وبين النواويس الفينيقية . وقد درس تلك الآثار عدد من العلماء ولكنهم لم يصلوا بشأنها إلى تعليل نهائي مجمع عليه . ومع ذلك ، يبدو من الثابت تماماً ان الفينيقيين كانت لهم مستعمرات تجارية على الخليج قبل ان يستوطنوا على شواطىء البحر الأبيض المتوسط . وإذا كان ثمة من شك فانه يدور حول مواقع تلك المستعمرات [1] » .

وقد اهتم أمين الريحاني بموضوع علاقة الفينيقيين بالخليج وتشابك الدوحة العربية بالدوحة الفينيقية ، في كتابه « ملوك العرب » الذي كتبه نتيجة المشاهدة الذاتية والاستقراء التاريخي معاً ، وقد جاء فيه :

« قال بعض المؤرخين ان خليج العجم هو مهد الحضارة بل مهد الجنس البشري ، وان سكانه الأقدمين ، أي سكان الجزر فيه ، هم أول من رفعوا شراعاً

---

١ - J. J. Berreby : Le Golfe Persique, p. 157

في البحار ، واقتحموا أخطار الأسفار ، فمارسوا الملاحة واتقنوا علمها ، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب. وقال آخرون ان الفينيقيين هم من هذه الديار العربية ، فقد جاء في بعض كتابات المصريين القديمة ذكر البنط Pount وهو اسم الفينيقيين قبل أن يحتلوا بلاد الشام . « والظاهر انهم من أصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة انهم ظعنوا من الديار المجاورة لخليج فارس إلى سواحل البحر المتوسط[1] » .

ويعتمد الريحاني في استنتاجه هذا على ما كشفت عنه الحفريات من آثار في منطقة الخليج ، وما تواتر على ألسنة ائمة هذا العلم :

« ... ثم جاء في سنة ١٨٨٩ سائح انكليزي آخر هو تيودور بنت ، وأمعن في التحري والتنقيب ، فعثر على آثار صناعية بعث بشيء منها إلى المتحف البريطاني ، فدرستها لجنة المتحف وقالت انها فينيقية الأصل ، فأثبتت في ذلك رأي المؤرخ رولنسون الذي مرّ ذكره ، وأثبتت ضمناً ان هذه القبور قديمة جداً ، لأن هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة إلى البحر المتوسط هو منذ خمسة آلاف سنة كما يرتئي المؤرخ رولنسون . إن هناك دليلاً آخر على قدم هذه المدافن ، وهو ان لا أثر فيها ، على أهميتها ، للكتابة أو التصوير الرمزي[2] » .

وبعد أن يستعرض الريحاني عدة آراء وعدداً من الحودات التاريخية عن الوشائج التي تربط ما بين العرب والفينيقيين ، يخلص إلى هذا الرأي الذي ينم عن عمق نظرته الانسانية بل الشاعرية إلى الحياة والوجود :

« ولا فرق عندي في كل حال إذا كان العرب الأصل أو الفرع . فاذا كانوا الأصل فمرحباً بالفينيقيين أبنائهم ، وإذا كانوا الفرع فمرحباً بالمتحدرين من الفينيقيين . لست من الذين يتلذذون بتعليل النور ، وتحليل روائح البخور ، وإن ما أتيقن هو أن بين الشعبين العربي والفينيقي صلة جوهرية قد لا ترى ، ولكنها لا تنكر . بل هي ترى في سنة الوراثة وأدلة الحياة في الحال[3] » .

---

١ - ملوك العرب ، الجزء الثاني ، ص ٢٢١ وقد نقل الريحاني الفقرة الاخيرة عن كتاب لغة العرب الجزء الثاني .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥

٣ - المرجع السابق ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦

البابليون وتجارتهم في الخليج

عُرف البابليون بكونهم شعباً ذكياً نشيطاً متاجراً ، وزاد في أهمية بلادهم موقعها الجغرافي الممتاز ، وان عاصمتهم بابل تقع في مركز لا يضاهى ، وانها كانت ملتقى سبل التجارة ما بين بلاد اليونان من جهة ، وممالك الهند وحاضرات آسية من جهة ثانية ، فهي تعجّ دائماً بالحركة الدائبة النشيطة ، وتزخر بالسلع والمنتوجات الطبيعية ، وتزدان بالآيات الفنية .

وقد تصدرت هذه المملكة القوية ابّان مجدها ورفيع عظمتها ، المقام اللائق بروائع فنونها العمرانية ، وبديع آياتها الفنية ، كما اتصلت بغيرها من الشعوب لأنها كانت تملك اسطولاً بحرياً قوياً . وكانت بابل لحساسية موقعها من العالم القديم ، محط أنظار الغزاة المغيرين ومطرح أحلام الفاتحين ، وحسبها أهمية انها كانت فيما بعد بالنسبة للاسكندر المقدوني العاصمة الثانية لامبراطوريته .

وهكذا يمكن القول بأن البابليين قد عرفوا الملاحة وأتقنوا فنونها ، وكانوا شعباً متاجراً كأقرانهم الفينيقيين ، وقد اتصلوا بالهند وجزيرة سيلان ، وكانوا يصدّرون اليهما منتوجاتهم ونتاج أعمالهم التي لاتضاهى في ميدان الصناعات اليدوية ، كما انهم ارتبطوا بالمبادلات الملاحية مع الحبشة التي كانت لا تفتأ تعزز مكانتها التجارية .

ويقول السير أرنولد ويلسون واصفاً علاقة بابل بالخليج :

« إذا ما رجعنا إلى فترة العصر البابلي الحديث اتضح لنا طرق المواصلات عبر الخليج لأنها تحظى برعاية ملكية ، وقد رأى نبوخذنصر الثاني (٦٠٤-٥٦١ق.م) ان من الملائم انشاء ميناء في المستنقعات ، وهكذا بنى مدينة تيريدون التي تقع إلى الغرب من نهر الفرات ، وكان من أهدافه أن يحمي بلاده من غارات العرب . ويرى فنسات ان هذا الملك لما أقدم على تدمير مدينة صور قد هدف فيما هدف إلى توسيع التجارة مع الهند حتى الخليج وبابل ، ومن ثم عَبْر الامبراطورية التالية لهذا العاهل ، فإلى دمشق وربوع الشام » .

ويضيف أرنولد ويلسون إلى ذلك قول الكاتب اليوناني إيشلوس : « ان بابل التي ترقد على كنوز من الذهب كانت تبعث بضائعها على متون السفن » وقول كتّاب يونانيين آخرين : « ان بابل تتلقى بضائع الجنوب (شبه الجزيرة العربية والهند) عن طريق الخليج » وقد استطاع هؤلاء الكتّاب في بعض الأحيان أن يصفوا الطريق البحرية بكل دقائقها [1] .

الخليج في العصر الهيليني

يحتل العصر الهيليني في تاريخ الخليج القديم منزلة خاصة ، وتأثير تلك الفترة في تاريخ الملاحة والتجارة ما بين الخليج والمناطق التي تحيط به من جهة ، وأصقاع العالم المعروفة من جهة ثانية ، وذلك على أثر مقدم الفاتح الكبير الاسكندر المقدوني .

وقد كان من مطامح ذلك العاهل أن يوحّد العالم تحت راية واحدة ، وانشاء امبراطورية تجمع مشارق الارض إلى مغاربها . وتحقيقاً لذلك الحلم أعدّ الفاتح الكبير عدته وجهّز جيشه ، وبنى الأساطيل البحرية ، وخاض غمار المعارك ، محققاً الانتصار تلو الانتصار ، وقد عقد العزم على أن يجعل من بابل عاصمته الشرقية ، لأنها قلب العالم القديم والمركز التجاري الذي يربط الهند بسائر المعمورة .

جاء في « تاريخ العالم » لناشره بالانكليزية السير جون هامرتن :

« ان الاسكندر قد بلغ من السلطان حداً لم يعرفه أو يفكر فيه أحد من معاصريه ، ولكن ذلك لم يشبع مطامعه أو يوهن من قوته ، بل كان عند وفاته يضع الخطط لفتوح جديدة ، ولو عاش لحقق هذه المطامع من غير شك ، وهي فتح ما كان معروفاً من الارض المعمورة وقتئذ .

« أجل ، لو عاش الاسكندر لبلغ ذلك ، ولما قامت امبراطوريته على جيش لا يُغلب فحسب ، بل لقامت أيضاً على القوة البحرية وعلى التجارة ، وعلى نظام

---

١ ـ The Persian Gulf, p. 32 - 33

للحكم مكين ، وان ما أظهره من الاهتمام برحلة نيار كوس وتأسيه مدينـــة الاسكندرية في مصر لتكون مستودعـــاً عظيماً للتجارة ، ومـا أبدعه من الخطط لخلق فينيقية أخرى على الخليج الفـــارسي ، وما وضعه من نظـــام محكم لانشاء مستعمرات في أقصى فتوحه شرقاً ، كل هذا ينطق ببعد نظر ذلك العاهل العظيم ، باني الامبراطوريات وصاحب الفتوح الواسعة [1] » .

ولقد أثارت رحلة نيار كوس كتّاب الرحلات فرووا لنا قصة قيام تلك الحملة باكتشاف الساحل الشرقي للخليج ، وما كانت تتعرض له من هجمات السكان عندما كانت تتوقف لتتزود بالماء والغذاء ، ومرورها بمصب نهري دجلة والفرات ومتابعتها ، صعداً ، مجرى نهر قارون ، إلى أن وصلت مدينة سوس .

ويحدثنا التاريخ ان الاسكندر أرسل عدة حملات استكشافية غير حمـــلة نيار كوس للتعرف على طبيعة السواحل العربية ، ولكنها باءت بالاخفـاق بسبب قسوة الطبيعة وجفاف المنطقة . وان العاهل الكبير قد عمل في الفترة الأخيرة من حياته على تحسين الملاحة في نهر الفرات ، وخص بالغ اهتمامه بمدينة بابل عـــاصمته الثانية ، كما حفل ببناء السفن البحرية بعد أن استعان بالفينيقيين أساتذة العالم القديم في هذا المضمار .

وعلى الرغم من المحـاولات المتعددة المخفقة فقد ظلت الآمـــال تداعب مخيلة الفاتح الكبير باكتشاف الأراضي العربية ،وقرر اسناد تلك المهمة للقائد نيار كوس من جديد ، ولكن المنية حالت دون تحقيق حلمه واكتشافه مناطق شبـه الجزيرة العربية وتسلله اليها ، إذ توفي بمدينة بابل عام ٣٢٣ ق.م. وهو لم يتجاوز الثـــالثة والثلاثين من عمره .

وقد كانت الفتوحات المقدونية عميقة الأثر في الخليج العربي والبحر الاحمر ، وامتدت خطوط التجارة البحرية خلالها من بلاد اليونان إلى القارة الهندية .

---

١ - تاريخ العالم الجزء الاول ، الطبعة العربية ص ٤٢١

منطقة الخليج في عصر الامبراطورية الرومانية

قامت الامبراطورية الرومانية مع اضمحلال سابقتها الامبراطورية اليونانية الهلينية ، فبذلت جهدها بادىء ذي بدء لتقوية جيشها وتنظيمه وانشاء الاساطيل البحرية القوية ، ثم عكفت على الفتوحات العسكرية ، فأرسلت الحملات إلى البلدان المجاورة لها والبعيدة عنها ، واستطاعت أن تخضع عديداً من الشعوب والأمم تحت سلطانها . ومن البدهي أن تكون مناطق جنوبي غربي آسية وشمال شرقي افريقية من مطارح سلطانها، وأن تطمح إلى بسط نفوذها على الخليج العربي والبحر الاحمر ، وبذلك تكون قد مدت نفوذها إلى أعظم منطقتين ملاحيتين تقطنها شعوب متطورة اقتصادياً وحضارياً وناهيك ببلاد بابل وفارس وشمالي شبه الجزيرة العربية ، لا سيا وان الهلينيين أسلاف الرومان قد عملوا على تحسين منطقة الخليج من الناحية الملاحية نهرياً وبحرياً .

وفي الواقع ، لقد امتدت الامبراطورية الرومانية إلى تلك المنطقة وهيمنت عليها ، وعملت بدورها على تنظيم منشآتها ومرافئها ، ونظمت الخطوط الملاحية والطرق البحرية الموصلة بين مرافئها التجارية ومراكزها في بلاد الشرق ، وغدت سيدة البحار في عصرها . وكان الخليج العربي والبحر الاحمر في مقدمة المراكز التجارية الناشطة خلال تلك الحقبة ، وقد ارتبطا معاً بخط ملاحي دائم الحركة ، وارتبط الاثنان بمالك الامبراطورية الرومانية مباشرة .

وإلى جانب التجارة البحرية نظمت الامبراطورية الرومانية خطوطاً ومراكز تجارية برية هامة ، وكانت تدمر من أبرز هذه المراكز . وقد شغلت تدمر — درة البادية — أحداثاً جساماً في تاريخ تلك الامبراطورية ، وكانت مهد الانتفاضات العربية في سبيل الاستقلال بشؤون الحكم ، واستطاعت أن تنتزع استقلالها الذاتي وتصبح سيدة نفسها فترة غير قصيرة من الزمن .

وقد نشطت في هذا العهد الحركة التجارية ما بين منطقة الخليج وامبراطوريتي الصين والهند ، وكانت مواد الاتجار المنتوجات الزراعية والتمور والحلي

والجوهرات والتوابل والأفاويه ، كما كانت تجارة الرقيق منتشرة على نطاق واسع . وكان أشهر الموانىء والمدن في الخليج عهد ذاك خاراكس (المحمرة) وابولوجوس (الأبلة) وكانت الأولى تحت هيمنة العرب وسلطانهم، والثانية تحت سيطرة الفرس ونفوذهم ، وان كان من المعتقد بأن سكان هاتين المدينتين آنذاك هم خليط من الشعوب البحرية ، بيد ان العرب قد سيطروا على المنطقة ومن بعدهم الفرس في العصر الروماني نفسه .

وتأثرت العلاقات العربية الرومانية حين بدأ نجم الامبراطورية يجنح إلى الغروب ، وعلى الأصح حين أخذ الفساد يدب في بنيان تلك الامبراطورية التي انشطرت إلى دولتين اثنتين ، شرقية وغربية ، وقد أخذ العنصر العربي يلعب دوره يومذاك في كيان امبراطوريتين عظيمتين متعاديتين متخاصمتين على الدوام : الامبراطورية الساسانية الفارسية ، والامبراطورية الرومانية البيزنطية .

وحياة الدول والمجتمعات تابعة ، كحياة الافراد ، لذلك النظام الذي يكاد يبدو حتمياً ، فهي تأخذ في النشوء والتدرج ، ثم تشب قوية نشيطة مليئة بالعنفوان والحيوية ، وما ان تبلغ قمة مجدها حتى تشرع في الانحدار ، إذ يرتقي عروشها أباطرة لا همّ لهم إلا أن ينعموا بحصيلة أعمال أسلافهم ، فيعكفون على ملذاتهم تاركين شؤون الرعية وإدارة البلاد للأيدي الفاسدة المفسدة التي تنحدر بها إلى مهاوي التفسخ والانحلال ، على حين تتربص بها أمة فتية قوية ما تلبث ان تديلها عن دولتها وتحلّ محلها .. وهذا ما حدث لروما التي شهد القرن السادس الميلادي انحسار سلطانها عن كثير من المناطق العربية ومنها منطقة الخليج ، وحل محلها الفرس ، ولكن إلى حين ، لأن ساعد العرب كان قد قوي وعضدهم قد اشتد ، إذ التأم شملهم تحت راية الاسلام ، بما سنراه في الصفحات القادمة مروراً ببرزخ النفوذ الفارسي .

الخليج في العصر الفارسي

تقوم بلاد فارس ما وراء الضفة الشرقية للخليج ، وهناك ـ بامتداد إلى الشمال والشرق والغرب ـ انبسطت امبراطوريتها وما لبثت ان اشتدت شوكتها وأصبحت

سيدة المنطقة المحيطة بها . ولقد نشبت بينها وبين العرب حروب دامية اتسمت بالهول ، منها البرية ومنها البحرية ، وكانت على شكل حملات متتابعة تنطلق من الخليج العربي وتمتد حتى بلغت البحر الأحمر والقسم الشرقي من القارة الافريقية.

ولقد مرت الامبراطورية الفارسية في أول نشأتها بكثير من الحوادث الجسام، لكنها رغم العقبات التي اعترضتها، استطاعت أن تثبت قوة غلابة سامقة الحضارة. وقد اهتمت منذ بدء عهدها حتى عصرها الذهبي بالفتوحات لتدخل البلدان المجاورة لها تحت سلطانها وضمن حدود امبراطوريتها . وانطلاقاً من هذا الهدف سهلت التبادل التجاري ، والتفاعل مع الحضارات القائمة في البلدان التي غزتها ، وبذلك شقت لنفسها مجالات رحبة وآفاقاً واسعة للنهوض على دعائم تطورية في نواحي الحياة الاقتصادية والعسكرية والحضارية .

وقد قام الأمبراطور الفارسي دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق. م) بمشروع تجاري هدف منه إلى ربط الخليج بالبحر الأحمر ، كي تكون فارس قلب العالم التجاري ، وذلك بطريقين اثنين أحدهما بحري والآخر بري .. وتوسلاً لتحقيق هدفه هذا بعث حملة بحرية بامرة القائد سيكلوكس الكرنيدي طاف بشواطىء شبه الجزيرة العربية حتى بلغ مصر ، وهناك قام بشق ترعة في أحد فروع النيل ابتداء من الزقازيق وانتهاء بمنطقة السويس ، وبعد أن أنجز مهمته الاستكشافية هذه قفل راجعاً إلى فارس من البحر الأحمر ، وسار على محاذاة ساحل المحيط الهندي ، ونفذ امنه إلى الخليج .

ولم يتفتح نشاط الحركة الملاحية بكافة طاقاته ويبلغ أوج ذروته إلا بقيام الامبراطورية الساسانية عام ٢٢٥ م ، وتسنم دست الحكم أول ملوكها ازدشير ثاني . ولقد اتسم ذلك العصر بالأحداث البالغة الأهمية في تاريخ تلك المنطقة ، إذ رافق بزوغ نجم الامبراطورية الفارسية وجود منافس عنيد لها هو الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، بعد انشطار شرق الامبراطورية الرومانية عن غربها .

ولقد شجع الساسانيون الملاحة في الخليج ، وأسسوا عدة موانىء نهرية ، كما

سعوا لاقتناء المراكب وانشاء أسطول خاص بهم، بعد أن كانوا في الحقبة التاريخية التي سبقت عهد الاسكندر الكبير يعمدون إلى تعطيل الملاحة في نهر قارون، وذلك بإنشاء السدود والقناطر عليه، بغية صد الحملات العسكرية والمحاولات التي ترمي إلى الاغارة عليهم، ناهيك بنشاط القراصنة في الخليج، الذين دأبوا على مهاجمة المدن الساحلية ونهب خيراتها والفتك بسكانها. وقد عمد الاسكندر حين بسط نفوذه على المنطقة إلى إزالة تلك السدود وهاتيك الحواجز، لتسهيل الحركة الملاحية والانتقال عبر الأنهار إلى الخليج.

وكانت الحركة التجارية ما بين فارس وغيرها من الأمم المتاخمة لحدودها والبعيدة عنها، ترقى صعداً إبان حكم الأكاسرة الأقوياء الأشداء العاملين على النهوض بامبراطوريتهم تجارياً وعمرانياً، على حين يدبّ إليها عوامل الضعف والتفسخ إذا ما اعتلى دست الحكم أكاسرة لا يحفلون إلا بأشخاصهم فلا يعيرون المصلحة العامة اهتماماً. وكثيراً ما كان العرب يشنون الغارات على مدنهم ومراكبهم التجارية ويخضدون شوكة الامبراطورية العظيمة.

ويحدثنا التاريخ ان عرب البحرين والساحل الغربي للخليج قد عقدوا الخناصر فيما بينهم، وقاموا في أوائل القرن الرابع الميلادي بشن حملة بحرية على موانىء الساحل الشرقي، مستهدفين ثغور المدن الفارسية [1]، مما دفع سابور الثاني إلى تجريد حملة عسكرية انتقامية، فهاجم حوالى عام ٣١٠ م الساحل الغربي وكبد البحرين خسائر فادحة في الأرواح والمرافق المادية، ولم يكتف بذلك بل وضع على أهبة الاستعداد حامية فارسية مهمتها تتبع حركات العرب ومراقبة نشاطهم.

وهكذا نجد ان الخليج كان شرياناً حياً لنقل المراكب التجارية والأساطيل الحربية على السواء، وانه كان ميداناً لتبادل المنافع ومسرحاً لغارات الجيوش والقراصنة في آن واحد، وقد روى المؤرخ اللاتيني اميانوس ماركلينوس: «ان الخليج الفارسي كان يعجّ بالملاحة، وان السفن البحرية كانت تختتم رحلاتها في

---

١ - العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص ٩١

تيريدون عند مصب الفرات، ويوصفُ العرب المجاورون بأن لهم عدة موانىء محمية ومراسي ، وانهم قادرون على استغلال ثروات البر والبحر معاً [1] ... »

والواقع ان منطقة الخليج قد شهدت في القرن الرابع الميلادي حركة تجارية تطورية هامة، وكانت فارس تتاجر مع الصين والهند متخذة من جزيرة سيلان نقطة وصل بينها وبين المملكتين الكبيرتين ، كما ان أسطولها مخر عباب البحر الأحمر منافساً لمملكة الأحباش الاثيوبيين التي ازدهرت فيها الحركة التجارية أيضاً وأنشأت بدورها المراكب الملاحية وأسطولاً بحرياً قوياً .

ويحدثنا التاريخ باسهاب عن الصراع الذي دار بين فارس والحبشة حول الاستيلاء على جنوبي شبه الجزيرة العربية ،ودور العرب في التخلص من كلا الشرين الطامعين في أراضيهم وخيراتهم .

وفي مستهل القرن السادس الميلادي راجت الحركة الملاحية ، وازدهرت التجارة ازدهاراً آتى ثماره ، ومن العوامل التي كان لها أثر بيّن في علاقة الفرس بجيرانهم ، تلك الحركة التبشيرية النسطورية التي أخذت طريقها إلى البلدان التي تتعامل فارس معها تجارياً ، أو المرتبطة معها بشكل من أشكال التحالف . ويحدثنا الدكتور جورج حوراني عن أوضاع الفرس في ذلك العهد فيقول :

« وكان للفرس نشاط ملحوظ في الملاحة خلال القرن السادس . فكورفاس يتحدث عن سفن فارسية في ميناء سيلان ، وعن حركة تبشيرية نسطورية يبعث القائمون عليها بطارنة فرس إلى تلك الجزيرة . وكان الفرس هم الوسطاء في تجارة الحرير بين الصين والغرب سواء سلكت طريق آسية الوسطى صادرة عن السيريس Seres أو الطريق البحري صادرة عن سيناي Siné ،وكانوا يشترون الحرير الوارد بالبحر في أسواق سيلان ويصدرونه إلى فارس [2] » .

وهذا القول ينطبق كل الانطباق على رأي العلامة سير برسي سايكس الذي

---

١ – المرجع السابق، ص ٩٢
٢ – المرجع السابق، ص ٩٧

يتكلم عن الفرس الساسانيين ودورهم في تاريخ العالم ما قبل الإسلام ، فيقول :

« لم تكن الاسرة الساسانية مجرد قبيلة من البدو الرحّل كما كان البوت حتى آخر عهدهم ، ولكنها كانت ذات حضارة راقية ، واستطاعت فارس في عهدها الزاهر ان تمثل الشرق بجدارة في فنون السلم وفنون الحرب على السواء . والواقع ان على المؤرخين الأوروبيين أن يدركوا أثر فارس العظيم في تاريخ العالم ، وان يكفوا عن النظر إلى علاقاتها المبكرة بأوربا من خلال العصور الأغريقية ، وكذلك أثرت فارس في الهند وآسية الوسطى تأثيراً عميقاً [1] ... » .

غير ان هذا الخط البياني الصاعد ما لبث أن أخذ بالتدني في نهاية ذلك القرن ، نتيجة ضعف الاسرة الساسانية وتفسخ امبراطوريتها تبعاً لضعف بنيانها الداخلي . وقد حدث أن اعتلى عرشها عام ٥٩٠ م كسرى برويز الذي انصرف عن الادارة العامة إلى إدارة شؤون قصره الذي ضم ١٢ ألف جارية ، وكان لا يعيش إلا لنفسه وملذاته ، فثار عليه قائده بهرام وطرده من البلاد ، فالتجأ إلى الروم أعداء الأمة التقليديين يستنصرهم على شعبه وجيشه ، فرحب بـه الامبراطور فوكاس وزوجه ابنته وجيّش له جيشاً سار تحت إمرته منقضّاً به على الجيش الفارسي . ودارت بين الجيشين معارك كبرى أثخنت البلدين بالجراح ، وانتهت بظفر كسرى برويز واعتلائه العرش ثانية ..

ويبدو ان هذه الحرب المهلكة قد تركت أثرها في الروم فثاروا بامبراطورهم ، ولم يديلوه عن العرش فقط وإنما قضوا عليه واعتلى سدة العرش هـيرا الميوس .. فثارت ثائرة كسرى برويز على الامبراطور المغتصب ، وشن عليه حرباً شعواء ، وزحفت الجيوش الفارسية مغيرةً على أراضي الروم ، فاكتسحت الديار السورية ، وأحرقت كنيسة القيامة في فلسطين ودمرت فيها القبر المقدس ، كما احتلت مصر ودانت لها آسية الصغرى ... بيد ان الروم عادوا فكشفوا ظل الجيوش الفارسية

---

١ ـ تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، ص ٣٣

عن هذه المواطن ، واستعادوا تلك البلاد ، ولكن بعد أن أنهكت الحرب قوى الامبراطوريتين الكبيرتين اللتين لم يكن ليخطر لهما ببال ، ان القدر على موعد مع موجة من الفتوحات أبطالها ليوث الصحراء العرب الذين سيركزون رماحهم في حدود الصين شرقاً ومياه الأطلسي غرباً .

العرب قبل الاسلام ومركز الخليج

استوطن العرب منذ القدم جنوبي سبه الجزيرة العربية والساحل الغربي من الخليج العربي ومنطقة عمان ، وهم ساميو الأصل كأكثر الشعوب التي قطنت تلك البقعة من العالم .

وقد مثل العرب في شبه الجزيرة أدواراً هامة على مسرح الأحـــداث في تلك المنطقة ، وذلك لاحتكاكهم بمن جاورهم من أمم وشعوب ، أو بما تعرضوا له من غزوات الفاتحين ، وكان حصيلة ذلك أن تعرفوا على حضارات ، ووقفوا على معالم مدنيات .

الهجرات العربية الى الشام وما بين النهرين

وفي الأزمان القديمة التي تعود إلى ما قبل خمسة آلاف سنة ، كان يقطن شبه الجزيرة شعوب متعددة تربطها رابطة الجنس الواحد . ولكن قسماً من أبناء تلك المنطقة بشعوبها المتعددة قد هاجر جماعات جماعات إلى الشمال بسبب ما تعاقب على شبه الجزيرة من سنين عجفاء قاسيــة ، واستقرت تلك الجماعات في سهوب بـــلاد الرافدين وبلاد الشام .

وقد تحدث محمد محمود الزبيري الزعيم اليمني الشهيد،عما سماه«أبوة» اليمن للشعب

العربي في سائر أقطاره ، فقال ان اليمنيين يشعرون بأنهم هم القبائل التي هاجرت هنا وهناك أو تفرقت أيدي سبا ، خلافاً لشعور سواهم في بعض الأقطار العربية بأنهم هاجروا من الجزيرة العربية واستوطنوا اليمن . ويدعم الزبيري تلك الظاهرة النفسية باعتبارين اثنين [1] :

« الأول : هذه النقوش السبئية والمعينية التي عثر عليها علماء الآثار في أقطار عربية وغير عربية بعيدة كل البعد عن اليمن ، وهي لا تحتم أن يكون اليمنيون غزوا هذه الأقطار غزواً كما تدعي أساطير مؤرخيهم ، وإنما تحتم مقداراً متواضعاً من الحقيقة ، وهي ان اليمنيين كان لهم ، في عصر ما، وجود حقيقي طويل في هذه المناطق ، ولو كمهاجرين وهاربين من قسوة الظروف في بلادهم، استوطنوا المناطق الجديدة وامتد وجودهم العربي إليها .

« والثاني: نزعة اليمنيين إلى الهجرة وطبيعة بيئتهم الجغرافية الصعبة ومركزهم التجاري في العالم القديم ، والذي كان يحملهم على السفر الدائم ، فنزعتهم إلى الخروج من بلادهم فطرية أصيلة ، ولها أسباب من طبيعة الأرض اليمنية العصية الشموس ، التي لا يدر لها در ولا يخصب لها ثمر ، إلا بالحيلة والنضال والصبر والجهد الشاق ، فترى اليمنيين يمارسون عناء الحضارة ، ويصبرون ويصابرون، وقد دفعتهم الحاجة إلى السبق في خلق الحضارة والمدنية ، والحاجة كما يقولون أم الاختراع » .

ويصف المؤرخ الفرنسي بنوا ميشان تلك الهجرة المستمرة بقوله [2] :

« ان الصحراء ليست هامدة وخاوية إلا بالنسبة إلى الذين يجهلون أسرارها . فخلال هذا الإطار الجامد المتحجر ، حيث يبدو ان شيئاً ما لم يتحرك منذ بدء الخليقة ، كان سيل من البشر يمضي بطيئاً ، إنما دون انقطاع ، في هجرة تبدأ من اليمن ، في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية ، لينتهي في الشمال الشرقي ، في المناطق الأكثر خصوبة في سورية وما بين النهرين .

---

١ - مجلة العربي ، العدد ٢٤

٢ - عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ، تاليف بنوا ميشان ترجمة عبد الفتاح ياسين ص ١٦ - ١٧

كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة في المجتمعات المدنية المستوطنة حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما سهل على مدنها استيعاب الهجرة الريفية المحلية. ولم تكن ثمة حاجة بالقرويين المهاجرين هناك للبحث عن أوطان بعيدة أخرى لتأمين وسائل حياتهم ومعيشتهم . ولكن الوضع كان مختلفاً جداً في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية، في اليمن، حيث التربة أقل جفافاً والأمطار أكثر غزارة، مما أتاح للقوم أن يمارسوا الزراعة في عهد مبكر ، فتزايد لذلك عدد السكان سريعاً. ولما لم يكن بالإمكان زيادة مساحة الأراضي المزروعة ، ولم تكن هنالك مدن أو حرف تمتص المزيد من السكان ، فقد نجم عن ذلك تضخم لم يعد بوسع البلاد أن تتخلص منه إلا بترحيل الفائض من البشر إلى الخارج. ولم يكن في وسع المهاجرين عبور البحر الأحمر لتعمير افريقية . فالسودان الذي يواجه اليمن ، صحراء أشد جفافاً من الجزيرة العربية ، كما لم يكن في وسعهم سلوك طريق ساحل البحر الأحمر الذي تحتله شعوب غريبة مصممة على أن تقاوم بضراوة كل محاولة لعبور أراضيها. كانوا إذن مرغمين على التوغل في الرمال ، في زحفهم نحو الشمال الشرقي ، وليس أمامهم من مخرج غير الصحراء .

فائض من البشر متزايد في اليمن ، فرضت عليه الهجرة تحت ضغط كثافة عدد السكان ، فراح يدفع في طريقه القبائل الصغيرة الأضعف المقيمة عند أطراف الأراضي اليمنية المزروعة ويحملها على الهجرة بدورها والانحدار إلى الوديان المؤدية إلى أواسط شبه الجزيرة العربية ، ويرغمها على أن تتخلى على الدوام عن الينابيع الغزيرة والواحات الخصبة ، إلى مياه آبار شحيحة وواحات فقيرة ، فلا تجد هذه الجماعات بدأ من الانصراف إلى رعاية الماشية والجمال ، عندما تجد نفسها مبعدة إلى مناطق تستحيل فيها الحياة الزراعية . ولم يكتب مع ذلك لهذه القبائل التي تحولت إلى جماعات من الرعاة ، أن تستقر حيث أراد لها القدر في واحاتها البائسة ، بل اضطرت إلى ولوج الصحراء تحت ضغط الهجرة البشرية المتزايد من اليمن الذي كان يدفع بها دائماً إلى الأمام » .

ويستشهد بنواميشان بهذا المقطع الشعري من كتاب « أعمدة الحكمة السبعة »

للورنس : « ان بقايا هذه القبائل التائهة ، ما زالت موجودة حتى الآن ، متمثلة في بعض العشائر المعزولة ، والقبائل التي يمكن تتبع آثار هجرتها منذ الزمن الذي بدأ فيه اليمن يكتظ بالسكان . فالأودية بين مكة والطائف طافحة بذكريات خمسين قبيلة رحلت عنها وخلّفت آثاراً باقية حتى الآن : في نجد ، وجبل شمر ، حتى تخوم سورية وبلاد ما بين النهرين. من هنا يجدر التنقيب عن نقطة انطلاق الهجرات العربية ، عن مصنع البدو الرحل ، عن المنبع البشري الهائم في الصحراء.»

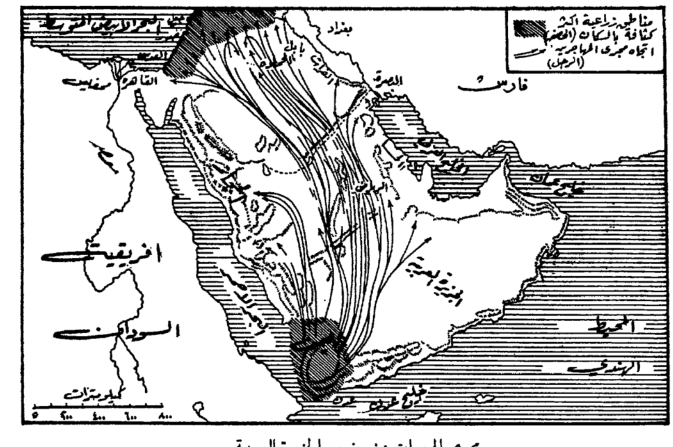
الحضارات العربية القديمة

أما العرب الذين ظلوا حيث هم من أراضي جنوبي الجزيرة ، فقد استطاعوا أن يؤسسوا منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد حضارة قامت على أسس راسخة ، فقد نظموا شؤون الزراعة بانشاء السدود المنيعة لتوزيع المياه على الأراضي وخزنها ، وشيدوا الأسوار لتحصين المدن ، وأخذوا بكثير من مظاهر الحياة الحضارية .

وكان لهم في مضمار التجارة حركة نشيطة واسعة مزدهرة ، حتى انهم شرعوا بتأسيس المستعمرات التجارية في الشمال ، وأنشأوا فيها المراكز التي كان أكثرها قائماً في غمار الصحاري وهي بمثابة محطات للقوافل المحملة بما تجلبه من بضائع من البلاد البعيدة . وكانت التجارة آنذاك تمر على الغالب في الطرق البرية لأن العرب لم يكونوا قد استلموا بعد زمام الحركة الملاحية في الخليج وعلى شواطىء المحيط الهندي .

والمعتقد ان العرب بحكم ما هم فيه من بيئة جغرافية ، قد ركبوا منذ القدم غوارب الماء ، وذلك لأطلالهم على البحر الاحمر غرباً ، والمحيط الهندي جنوباً ، وخليج عُمان والخليج العربي شرقاً ، فأرضهم محاطة بالمياه من كل جانب ، مما يحتم أن يكون لهم إلمام بشؤون الملاحة ، بدأ أولاً بصيد السمك والتنقل ما بين الجزر القريبة من الشواطىء على متون القوارب الخشبية المشدودة بالألياف أو المصنوعة من الجلود وسواها .

وانطلاقاً من هذا الحيز ومن التنقل على شطآن المحيط أو الخلجان طلباً للرزق ،



مجرى الهجرات من جنوب الجزيرة العربية

أخذ العرب سبيلهم إلى الملاحة البحرية وركوب مياه المحيط والتوغل فيها ، بعد أن كوّنوا لأنفسهم المراكب والسفن نتيجة احتكاكهم بالشعوب التي خبرت فنون الملاحة قبلهم ، ولا سيما المصريين الذين كانت لهم وشائج تعامل قديمة معهم ، ثم امتد نشاطهم من تخوم فارس إلى العقبة عبر المياه المغلقة في الخليج شرقاً والبحر الاحمر غرباً ، ونقلوا عن مصر وفارس بعض آثار حضارتيهما المتطورتين ، ونهلوا من ينابيع تلك البلاد الغنية ، ولاسيما سكان المناطق الساحلية الذين لم يكونوا بمعزل عن العالم . وتدل أعمال الحفريات وما انكشف عنها من نقوش ومنحوتات ، على قيام حضارة متطورة وملاحة بحرية واسعة كانت تمخر المياه العربية وتتوقف في سواحلها ، ونخص بالذكر تلك الآثار السومرية والأكادية ، وكان للعرب دورهم في تسهيل التبادل التجاري، وخاصة في المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية، أي منطقة الخليج العربي وامتدادها على خليج عُمان .

والراجح ان شبه الجزيرة العربية كانت ذات مناخ لطيف في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، وكانت البيئة أكثر ملاءمة لانتشار الزراعة نظراً لتوافر المياه التي أحسن أبناء الجزيرة استغلالها في ذلك الردح الزمني. وقد كثرت المنتجات الزراعية المستثمرة ، ونشطت الصناعات الخفيفة اليدوية ، كما عرف عرب القسم الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة صيد اللآلىء وتاجروا بها إلى جانب نشاطاتهم الملاحية .

وكان نظام الحياة قبلياً ، بيد ان حياتهم هذه لم تمنعهم من انشاء أنظمة اجتماعية متماسكة العرى ، وتأسيس ممالك وأسر حاكمة ، فشهدت الجزيرة قيام الأسرة المعينية القوية في الجنوب ، التي توطدت في ظلها الأسس التجارية والمدنية ، وشملت سائر المرافق الحياتية اجتماعية ً وسياسية ً واقتصادية ، إذ سنت الشرائع وأحكمت القوانين ، ونظمت شؤون الملكية العقارية الخاصة . وقد امتدت تجارة المعينيين إلى الشمال ، وتوسعت دائرة نفوذهم بما أنشأوا فيها من مراكز تجارية . ثم توالت بعدهم الأسر الحاكمة وهي عربية خالصة لا تشوبها أية نزعة أجنبية خارجية، وأهمها مملكة سبأ التي تتحدث الأساطير العربية القديمة عن غناها وبذخها وارتباطها مع البلدان الشمالية في بلاد الشام وما بين النهرين ، واتصالها بالبابليين والفلسطينيين

وعرب الخليج ، والتي كان لها في ميدان تطور تلك المنطقة أثر كبير ، انعكست عليه حضارتها وطرق حياتها الخاصة .

البحر الأحمر والخليج العربي

والواقع انه لا يمكن فصل عرب الخليج عن عرب جنوبي شبه الجزيرة ، لأنهما يشكلان وحدة تاريخية وحضارية تنعكس على حياة هذا الشعب ككل ، لأن عرب الخليج ليسوا إلا امتداداً لعرب الجنوب ، اشتراكاً في المنبت الواحد والتاريخ الواحد واللغة الواحدة، وتماثلاً مع طبيعة البلاد في وحدتها الجغرافية وفي رقيها وتطورها المدنيين .

غير ان العوامل العديدة المؤثرة في تاريخ الخليج لا يمكن ان تقتصر في العصور السحيقة التي سبقت الميلاد على العرب وحدهم ، وقد رأينا لتلك الشعوب أدواراً كان لكل منها شأن في مجرى أحداثه وحوادثه .

على ان من الملاحظ في تلك الحقبة ، ان السهم الأوفى في النشاط التجاري كان للبحر الأحمر، لأن مياه الخليج العربي لم تكن قد شهدت بعد الحركة التي ازدهرت إثر فتوح الاسكندر، ولم تجسد الأحداث دور العرب الملاحي واحتفاءهم بركوب غوارب الماء إلا بعد الفتوحات الهيلينية ، وتنظيم الاسكندر تلك المنطقة لتكون منطقة ملاحية . غير ان ما لعرب الخليج ، وناهيك بعرب الجنوب ، من يد طولى سابقة للعصر الهيليني بقرون عديدة ، في الملاحة البحرية والنشاط التجاري ، وان لم تكن في مستوى الملاحة المصرية في البحر الأحمر أو التجارة الفينيقية في حوض الأبيض المتوسط ، على الرغم من ان عصرهم الذهبي لم يكن قد حان بعد .

إن ما عُرف عن العرب في جاهليتهم الأولى وحياتهم القبلية، بما جبلوا عليه من حب للغزو والاغارة على القبائل الأخرى ، وكذلك مهاجمتهم للقوافل التجارية ، قد انعكس بشكل آخر على ثبج الماء ، والقرصنة في البحار هي الصورة الأخرى للغزو على اليابسة ، فكلاهما ينطلقان من شرعة واحدة ويرميان إلى هدف بعينه . ولم تقتصر تحركات العرب في اليم على التعرض للمراكب التجارية بل تعدت ذلك

إلى التعرض للمدن ، ولا سيما المدن الفارسية والبابلية ، مما حدا نبوخذنصر البابلي (٦٠٥ – ٥٦٢ ق.م) لأن يعطل الحياة الملاحية في كل من دجلة والفرات، بإقامة السدود عليهما وإنشاء القناطر وشق الترع ، خوفاً من غزوات العرب البحرية، على الرغم من امتلاك البابليين اسطولاً بحرياً قوياً ، وشهرتهم بمناعة حصونهم وقوة تحصيناتهم، وذلك لما عرف عن العرب من جرأة واقدام واقتحام للمخاطر والأهوال. أما سابور الفارسي ذو الاكتاف (٣١٠ – ٣٧٩ م) فقد قابل تلك الغزوات البحرية بحركة انتقامية رهيبة إذ انه جرد حملة لا مثيل لها لإخضاع العرب الذين كانوا يقيمون على سواحل فارس الجنوبية وسواحل بلاد العرب الشرقية ، فأفشى فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء سفكاً سالت به كسيل المطر .. ثم عطف على بلاد عبد القيس (البحرين) فأباد أهلها إلا من هرب منهم فلحق بالرمال ، ثم أتى اليمامة ففعل بها مثل ذلك ، ولم يمرّ بماء من مياه العرب إلا غوّره ولا بجب من جبابهم إلا طمه ، ثم عطف على بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة الفرس والروم بأرض الشام فقتل من وجده بها من العرب [١] . ثم أمر فحفر الخندق المعروف باسم (خندق سابور) الذي يمتد على طول بادية العراق ، من هيت على الفرات إلى كاظمة على الخليج (موقع الكويت اليوم) ، وشيد عليه القلاع والحصون ليحول دون تسلل العرب إلى العراق وفارس [٢] .

وفي عصر الاسكندر (٣٥٦ – ٣٢٤ ق. م. استطاع هذا الفاتح ان يتعرف على الساحل الشرقي للخليج ، بعد أن سيطر على جنوبي غربي آسية وأقسامها الوسطى ، وكان من أحلامه أن يجعل من البحر الأحمر والخليج العربي شرياناً ملاحياً واحداً ، ليضع يده على كافة الخطوط التجارية البحرية والبرية على السواء ، ولكن وفاته حالت دون تحقيق هذا الحلم ، كما ان خلفاءه انشغلوا عنه بأمور أخرى أهمها اقتسام ووراثة الامبراطورية التي امتدت إلى تلك المنطقة الحساسة من العالم .

---

١ ـ أمتنا العربية تأليف محمد فريد أبو حديد ص ٥٩ ـ ٦٠

٢ ـ تاريخ العرب العسكري تأليف محمود الدرة ص ٥٠

الصراع بين ايتيوبية وفارس في اليمن

وكانت تجارة السبئيين وأسلافهم المعينيين ذات صلة وثقى بمصر ، كما كانت على احتكاك بفارس وإنما على نطاق أضيق ، سالكةً في ذلك الطرق البحرية التي كانت السيادة فيها للعرب . وقد قامت العلاقات التجارية ما بين الهند والخليج العربي في فترة العصر الهيليني ، غير ان تلك العلاقة ما عتمت أن فصمت نتيجة ازدهار الحركة ما بين الهند والبحر الأحمر مباشرة ، وذلك في ابّان العصر الهيليني نفسه ، وفي زمن مملكة الحميريين العرب التي خلفت مملكة سبأ .

وفي الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها المملكة الحميرية بعد سقوط سبأ سنة ١١٥ ق. م. قامت مملكة قوية في شرقي افريقية هي مملكة ايتيوبية (الحبشة) وكانت معاديةً لفارس منافسةً لها. وكانت ايتيوبية تشغل مكانة مرموقة في الميدان الملاحي وتملك اسطولاً بحرياً قوياً وجيشاً منظماً ، وقد وجهت حملة عسكرية إلى جنوبي شبه الجزيرة العربية ، فانهارت دولة الحميريين أمام عدوان الحبشة «التي سبق لأسلاف الحميريين ان استعمروها في وقت من الأوقات[1]» . ثم اشتبكت قوات الايتيوبيين بقوات الفرس ، وكانت الأراضي العربيـــة بقسميها الجنوبي والشمالي الشرقي مسرحاً لتصارع هاتين الامبراطوريتين القويتين . بيد ان الأمر لم يستتب طويلاً للأحباش في تلك البقعة من بلاد العرب ، إذ هبّ السكان في وجوههم ، وقاموا بثورات عنيفة للتخلص من سيطرتهم . وقد ظل الايتيوبيون الأحباش يحكمون جنوبي الجزيرة زهاء أربعين عاماً ، إلى أن نهض بعبء المقاومة سيف بن ذي يزن الحميري الذي لم يتردد في طلب العون من الفرس أعداء العرب التقليديين ، ليظاهروه على الأحباش .

وبادر الفرس إلى ارسال حملة عسكرية تساند القوات الحميرية وتظاهرها على الايتيوبيين ، وقد استطاع سيف بن ذي يزن أن يكشف ظل الاستعمار الحبشي عن بلاده ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام هجماتهم المتكررة . وقد لاحظ كسرى

---

١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، لبروكلمان ترجمة فارس وبعلبكي ج ١ صفحة ١٤

أنو شروان أحد أكاسرة الفرس، ضعف كلا الخصمين: العرب والاحباش، فاهتبلها فرصة ذهبية ، وأنفذ حملة عسكرية قوية استطاع ان يجلي بها الأحباش نهائياً عن جنوبي الجزيرة ، وان يفرض نفوذه عليها ، حتى جاء الفتح الإسلامي فأقصى النفوذ الفارسي عن تلك الربوع .

الدول التخومية في الشمال

وخلال الحقبة الهيلينية وتاريخها في الشرق ، قامت في سورية دولة فتية هي دولة الانباط التي هيمنت على خطوط التجارة البرية وحركة القوافل الممتدة من البحر المتوسط إلى الخليج العربي، وذلك لوقوع عاصمتها « بترا » ما بين البحر والخليج . وقد استطاعت هذه الدولة ان تحتفظ باستقلالها أمام موجة الفتوحات الهيلينية ، وكوّنت لنفسها حضارة راقية ، وكانت مركزاً لشبكة خطوط القوافل ، وعلى اتصال وثيق مع شبه الجزيرة وعمان وموانىء الساحل الغربي للخليج العربي.

وقد دمر الامبراطور تراجان بترا سنة١٠٥م وأصبحت مملكة الانباط مقاطعة في الامبراطورية الرومانية باسم « المقاطعة العربية [١] » .

ان الهجرات العربية القديمة إلى البلاد المعروفة الآن بالأردن وسورية قد أسفرت عن قيام مملكة النبطيين بعاصمتهم بترا أو البتراء وقيام مملكة تدمر في بادية الشام.أما الهجرات المتأخرة فقد كوّنت الدول التخومية الأخرى وأهمها دولة الغساسنة في سورية ودولة المناذرة في العراق ، وكلاهما اعتنق المسيحية . وكانت الدول الكبرى التي أحاطت ببلاد العرب — مصر وفارس وروما والقسطنطينية — تدعي من حين لآخر سيادة اسمية موقتة على شبه الجزيرة ، ولكن لم يحصل ان وقع سوى مرة واحدة ان قامت بعثة عسكرية من الخارج وتحت قيادة قنصل روماني بالتغلغل في قلب الوطن العربي ، بينما استطاع عربي من التخوم ان يجلس على عرش الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث بعد الميلاد [٢] .

---

١ ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية تأليف الدكتور احمد شبلي ج ١ ص ٤٠

٢ ـ العرب تأليف ادوار عطية ترجمة محمد قنديل البقلي ، صفحة ١٢

والواقع ان العرب في شمال الجزيرة وعلى ضفاف الخليج العربي ، قد مثلوا في عصر الرومانيين الذين خلفوا اليونانيين وورثوا امبراطوريتهم ، دوراً هاماً في المنطقة ، وذلك لوضعهم الجغرافي بين الفرس والروم ، واستطاعوا ان يحرزوا مكاسب بالغة الأهمية نتيجة احتكاكهم بهاتين الامبراطوريتين ، وان يتسلموا زمام الملاحة والتجارة في المدن الساحلية والداخلية ، بقيادة القوافل براً وفي التنقل بحراً على صدور الموج ، ولا سيما بعد اكتشافهم الرياح الموسمية واستغلالها لخدمة الانسان ، وبذلك وضعت القوانين التي تسير السفن على هديها في رحلاتها عبر الخليج العربي والمحيط الهندي من جهة ، وباتصالها بين الهند شرقاً وشرقي افريقية غرباً .

غير ان الرومان في عصرهم الذهبي لم يولوا الخليج المكانة التي أحرزها في عهدهم البحر الأحمر ، ومع ذلك عرف سكان الخليج ان يعوّضوا ما انتابهم من خسارة ، باعتمادهم طرق التجارة البرية التي تصل ما بين البحر الأحمر وشواطئهم ، ومن على هذه الشواطىء كانوا يوقرون سفنهم بما حملته القوافل التجارية براً من بضائع ليحملوها بحراً إلى الهند وسيلان ويعودوا منها ببضائع أخرى .

أما في مضمار الحياة السياسية ، وما يرتبط بالسياسة من أمور فكرية وروحية، فقد تأثرت الجزيرة في سائر أقسامها بعدة عوامل داخلية وخارجية معاً. فالمعروف ان أكثر المناطق العربية في قسمها الجنوبي كانت تدين بالمسيحية ، وأما القبائل والعشائر البدوية فكانت على الوثنية .

ويشير بروكلمان إلى ان المسيحية استطاعت ان تثبت للخطوب التي تعرضت لها، وبخاصة في نجران ، حتى ظهور الاسلام [1] .

وقد ظل غرب الشمال ، ولا سيما من استوطن منهم منطقة بادية الشام وشمالي الخليج العربي ، على الرغم من احتكاكهم بجيرانهم الأجانب من فرس وروم ، محافظين على تقاليدهم ومكانهم في تاريخ التجارة البرية ، ومروا من الناحية السياسية

---

١ ـــ تاريخ الشعوب الاسلامية ، الجزء الاول ، ص ١٤

بمرحلتين هامتين : مرحلة القوة وقد رفع اذينة ملك تدمر ، خلالها، لواء الاستقلال، وخضد شوكة الفرس عام ٢٦٠ م ، وبسط سيادته على سورية كلها ، وانتزع من الامبراطور الروماني غلينيس لقب امبراطور الشرق . وقد شغلت تدمر في عهد أذينة مركزاً تجارياً هاماً لربطها ما بين الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط ، واستطاعت ان توطد مركزها السياسي وتعزز مكانتها الدولية بالتزامها جانب الحياد في الحروب التي نشبت ما بين الرومان والفرس . وعقد أذينة الاتفاقات مع الأقطار النائية مثل اسبانية وبلاد الغال (فرنسة) ، ولما توفي هذا العاهل الكبير عام ٢٦٨ قفّت زوجته زنوبيا على آثاره بتوطيد استقلال بلادها وتعزيز مكانة وطنها ، ولكنها خالفته في خطته فانقلبت على الروم وتحالفت مع الفرس ، ورأى فيها الرومان خطراً ماثلاً على الامبراطورية ، فعقدوا العزم على تحطيمها ، ولم ينقض عام ٢٧٣ حتى دخلت تدمر في مرحلة الضعف من تاريخها إذ هاجمها الامبراطور الروماني أوريليانوس (٢٧٠—٢٧٥) وقوّض تلك الدولة العربية الفتية بتدمير عاصمتها بعد معارك مريرة .

الغساسنة والمناذرة اللخميون

وبالقضاء على استقلال تلك الدولة الفتية القوية ، استطاعت الامبراطورية الرومانية أن تصطنع الغساسنة [١] وتقيمهم حماة على الحدود ، وتوليهم حكم سورية الجنوبية ، وكان مُلكهم حول دمشق وتدمر ويشمل نفوذهم لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران [٢] ، وكان حسان شاعر النبي يفد اليهم في دمشق وينشدهم قصائد مدحه .

وردّ الفرس على الروم بنفس صنيعهم ، فاصطنعوا المناذرة اللخميين [٣] ليكونوا

---

١ - انظر أخبار الغساسنة وملوكهم في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ج ٢ صفحة ١٢٤ - ١٥٩

٢ - تاريخ الاسلام السياسي ج ١ صفحة ٥٦

٣ - انظر اخبار اللخميين وملوكهم في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ صفحة ٨٠ - ١٢٠

دروء امبراطوريتهم من الجهة الغربية في وجه الروم أعدائهم التقليديين ، وكانت عاصمة اللخميين « الحيرة » على بعد عشرة أميال جنوبي بابل وثلاثة أميال من مكان الكوفة اليوم على ضفة الفرات الغربية [1] . ولكن النتيجة المؤلمة لذلك الوضع أن العداء التقليدي ما بين الامبراطوريتين القويتين ، انعكس على مصير الأشقاء العرب في عداء مستحكم ما بين الغساسنة والمناذرة اللخميين ، وقد استطاع المنذر الغساني عام ٥٧٥ م ، أن يدخل الحيرة منتصراً ويدمرها .

ومع ذلك ، لم يكن الفرس يطمئنون إلى المناذرة اللخميين كل الاطمئنان وفي جميع الأزمان ، وقد استدرج كسرى أبرويز (٥٩٠—٦٢٨) النعمان الثالث آخر ملوك اللخميين (٥٨٠—٦٠٢) إلى عاصمته المدائن وقضى عليه . ويرجع تاريخ إمارة الحيرة إلى القرن الثالث الميلادي وقد استمر إلى ظهور الاسلام [2] وذلك ان رهطاً من القحطانيين الذين نزلوا البحرين وهم قبائل قضاعة والأزد ومن التف حولهم من القبائل اليمانية من لخم وغيرهم ، انتهزوا فرصة النزاع بين الفرس والروم فتحالفوا على التنوخ (الاقامة) بزعامة مالك بن فهم وساروا إلى العراق فيما بين الحيرة والانبار وأسسوا مملكة عربية هناك [3] .

ولكن هل نام العرب على الضيم بعد مقتل النعمان الثالث ، وهل سلموا بالأمر الواقع .. أم ردّوا على التحدي الفارسي بتحدّ أشدّ وأعنف ، واستطاعوا أن يخضدوا شوكة فارس ويطامنوا من العنجهية الساسانية ؟.. هذا ما سيجده القارىء في صفحات الفصل التالي المكرس لثلاثة أيام مشهودة من أيام العرب ، ومسرح أحداث هذه الأيام الثلاثة هو منطقة الخليج العربي !..

---

١ - العرب قبل الاسلام تأليف جرجي زيدان صفحة ٢٢٣
٢ - تاريخ الاسلام السياسي ج ١ صفحة ٤٨
٣ - تاريخ العرب العسكري صفحة ٣٧

ثلاثة أيام عربية خالدة على الخليج

على الرغم من اتساع رقعة الامبراطورية الفارسية في عهد الساسانيين ، وامتداد نفوذها على عرب العراق والخليج واليمن ، فان الأيام بالنسبة لأبناء الأكاسرة لم تكن مفروشة بالرياحين ، كما ان العرب لم يكونوا مهيضي الجناح ، يسامون الذل أو يقبلون الهوان، وإنما كانوا يرون أنفسهم فوق الأكاسرة والقياصرة معاً. وحسبنا ما تركه لنا التاريخ الأدبي من مناظرة النعمان بن المنذر لكسرى أنو شروان الذي أراد ان ينتقص العرب ، وكيف رد عليه «عامله» الردّ الشافي بوصف قومه:

« ... لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر [1] ... »

والواقع ان أولئك الرجال الذين كانت حصونهم ظهور خيلهم وجنتهم السيوف حقاً — سواء أصحت الرواية السابقة أو لم تصح — كانوا كثيراً ما يقلقون الأكاسرة وعمالهم بغاراتهم الخاطفة وهجماتهم السريعة ثم بعودتهم سالمين غانمين إلى مأمنهم من الصحراء التي يتهيب أبناء ناعم الحضارة عن التوغل فيها، لا سيا وقد أتاهم نبأ مغامرة الامبراطور اوغسطوس التي لخصها المؤرخ الفرنسي بنوا ميشان بقوله :

« في العام الرابع والعشرين قبل الميلاد، صمم الامبراطور أوغسطس على تحري ما تنطوي عليه هذه الأساطير من حقائق ، فعهد إلى والي مصر ايليوس غالوس

---

١ - جواهر الادب ، تأليف احمد الهاشمي ، الجزء الاول ، صفحة ٢٢٦

باجتياح شبه الجزيرة التي كان الرواة يشيدون بثرائها ، فعبأ الوالي كتائبه ، وأمر جنوده ان يتدرعوا بدروعهم النحاسية الثقيلة ، وتوغل على رأسهم في قلب بـــلاد العرب ، فما لقي سوى أرض قاحلة ، فهلك معظم الجيش ظمأ أثناء الحملة ، وصرع القيظ والارهاق الفلول الباقية ، وتركت الأشلاء مكدسة بالمئات فريسة للجوارح. ومرّ بها عرب البادية بعد بضعة أسابيع فألفوها شبه مدفونة في الرمـال ، هياكل عظمية ما تزال أيديها قابضة على السيوف [1] ... »

على ان هذه الأيام التي سنعرضها ليست من قبيل الاغارة ثم الهرب بالغنيمة ، وإنما هي أخطر من ذلك بكثير ..

يوم قلهات في عُمان

وخبر اليوم الأول كما رواه لنا السالمي في الجزء الأول من كتابه «تحفة الاعيان في سيرة أهل عمان » [2] :

« لما خرج مالك بن فهم من السراة يريد عُمان ... فجعل لا يمر بقبيلة من قبائل العرب من معد وغيرهم إلا ساعده لمنعته و كثرة عساكره.

وبلغه ان بعمان الفرس . فعبأ أصحابه وعساكره وعرضهم ، فيقال انهم بلغوا زهاء ستة آلاف فارس وراجل .. ثم أعدّ واستعدّ وأقبل يريد عُمان . وقد جعل على مقدمته ابنه هناة بن مالك في ألفي فارس .. فوصل إلى قلهات ، ومنها سار إلى الصحراء ، وقامت حرب طاحنة بين الفريقين انتصر فيها مالك بن فهم ، وانهزم الفرس من عُمان . ثم تجددت الحرب بعد سنة وانتهت بطرد الفرس نهائياً. ولم يكتف مالك بكسرهم ، بل نقل الهاربين منهم على سفنه إلى الشواطىء المقابلة في أرض ايران ، مسهلاً لهم النزوح والهرب .. »

ويقدّر المؤرخون ان هذه الموقعة كانت في حدود سنة ٥٣٦ م .

---

١ ـ عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ، صفحة ١٥

٢ ـ انظر ايضاً كتاب « عمان قديماً وحديثاً » تاليف محمد علي الزرقا ، صفحة ٥٩ ـ ٦٠

يوم الصفقة في البحرين

ذلك هو اليوم الأول ، وأما اليوم الثاني فيسمى « يوم الصفقة » ، وملخص أحداثه ان كسرى أنو شروان أرسل إلى عامله في اليمن ، قافلة تقلّ معها أحمالاً من قسي الرماح ، ويحرس القافلة كتيبة من فرسانه وبعض من يعتمد عليهم من العرب وفيهم هوذة بن علي الحنفي .

وسارت القافلة حتى وصلت أحد وديان اليمامة ويدعى وادي نطاع ، وكان بنو تميم على علم بأمر القافلة وما تحمله من عدة القتال التي هم في أمسّ الحاجة اليها ، فاهتبلوها فرصة ذهبية وداهموا القافلة بغارة شعواء ، وقتلوا من فيها من فرسان الفرس ، وأما الدليل الذي يعمل لغير بني قومه هوذة الحنفي فقد أخلوا سبيله مقابل فدية .

وسار هوذة إلى كسرى في المدائن ، وفي نفسه ما فيها من الحقد على بني تميم ، وجالس ربُّ التاج والصولجان ذلك الاعرابي فرأى فيه دهاءً وذكاءً ، فأكرم مثواه وأغدق عليه الهدايا من ديباج منسوج بخيوط الذهب ومحلى باللآلىء ، وعقد من درّ زيّن به هامته ، ثم توجه اليه بالخطاب قائلاً :

« يا هوذة ، أرأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي (فرساني) وأخذوا مالي ؟ أبينك وبينهم صلح ؟ »

قال هوذة : « أيها الملك بيني وبينهم حَسَاءُ الموت ، وهم قتلوا أبي . »

فقال كسرى : « قد أدركت ثأرك ، فكيف لي بهم ؟ »

قال هوذة : « ان أرضهم لا تطيقها أساورتك ، وهم يمتنعون بها ، ولكن أحبس عنهم الميرة ، فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك ، فأقيم لهم السوق ، فانهم يأتونها ، فتصيد بهم عند ذلك خيلك [1] . »

وعمل كسرى بنصيحة ذلك الاعرابي الذي طلب النكبة لبني قومه بائعاً نفسه لأعدائهم مقابل عرَض حقير ...

---

١ - ايام العرب في الجاهلية ، تأليف محمد احمد جاد المولى وزميليه ، ص ٣ - ٤ .

ومرت سنة مجدبة عجفاء حبس فيها كسرى الميرة ، حتى إذا أحس بضائقة العرب ، أرسل إلى هوذة قائلا : « ايت هؤلاء فاشفني منهم واشتف .. »

وتمت خيوط المؤامرة حين أنفذ كسرى ألف فارس على رأسهم رجل يدعى المكعبر ، إلى حصن في البحرين يقال له المشقر .. ونادى منادي هوذة يدعو جموع العرب وفيهم بنو تميم : « إن كسرى بعث لكم الميرة فامتروا ... »

وتدفقت جموع العرب تطلب الحصن ، فكان ذلك الخبيث لا يدخلهم إلا واحداً واحداً وهم عزّل من السلاح ..

ولاحظ أحد بني تميم ويدعى عبيد بن وهب أن من يدخل الحصن لا يخرج منه ، وفطن إلى ان في الأمر مكيدة ، فانتضى حسامه وضرب به سلسلة بباب الحصن فتقطعت وانفتح الباب عن آثار الجريمة ، وتدفقت جموع العرب مقتحمة الحصن ، وخالطت الدماء الفارسية النجيع العربي .. وانطلق كاشف المؤامرة ينشد مفتخراً:

تذكرتُ هنداً لات حين تذكّرِ	تذكرتها ودونها سير أشهرِ
حجازية علوية حل أهلها	مصاب الخريف بين زور ومنور
ألاهل أتى قومي على النأي أنني	حميت ذماري يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربةً	تفرج منها كل باب مضبر

ويختلف المؤرخون حول تاريخ هذه الواقعة التي سميت بالصفقة لأن فيها ريح المكيدة، وقد جرت وراء باب مصفق ، كما قال البعض انها وقعت في زمن كسرى ابرويز وليس كسرى انو شروان .

يوم ذي قار في شمال الخليج

على ان أشهر يوم من أيام العرب في حروبهم الجاهلية هو « يوم ذي قار » الذي كان وما زال حتى اليوم تتردد أصداؤه في التأليف الأدبي والقصصي لأن العرب وقفوا فيه لأول مرة قبالة الفرس وجهاً لوجه ، ونازلوهم في معركة مكشوفة ، وقد ظهروا عليهم ، فكانت صفحة بيضاء من صفحات تاريخهم القومي والعسكري معاً.

وخلاصة الواقعة ان النعمان الثالث آخر ملوك أسرة المناذرة اللخمية قد ورث

العرش عن آبائه الذين كانوا حلفـــاء الفرس ، ولم يكن هؤلاء ليطمئنوا إليه كل الاطمئنان ، فكانوا يحصون عليه حركاته وسكناته ، وعَيّنْتُهم في ذلك عامـــل البريد عدي بن زيد الشاعر الذي كان مقرباً من كسرى وهو يتقن الفارسية اتقانه العربية .

وعرف النعمان في عدي جاسوساً تماماً مخلصاً للفرس أكثر من إخـــلاصه لبني قومه ، فلم يتردد في القائه في غياهب السجن .

وبلغ كسرى ذلك ، فبعث إلى النعمان يطلب منه اطلاق سراحـه ، ولكن النعمان عرف بقدم رسول كسرى فأوعز بقتل السجين قبـــل وصول الرسول . فازداد غضب العاهل الفارسي على الملك العربي ، وشكه في ولائه ، وان كان النعمان قد تدارك الأمر بأن عين زيدا بن عدي ابن الشاعر بوظيفة والده .

وبدهي أن يلبث زيد مقيماً على الضغينة في بلاط الحيرة ، ولذا كان ولاؤه شأنه في ذلك شأن والده — لكسرى أكثر من النعمان .

وفي إحدى غـدوات عامل البريد على البـلاط الساساني أشار على كسرى أن يطلب من النعمان ، امتحاناً له ، إرسال بعض النساء اللخميات ليصهر منهن ، وهو يعلم حق العلم ان العربي يأنف أن يزوج بناته من الأعاجم ولو كانوا من بيت مالك !

وعاد زيد مع رسول فارسي يبلغ النعمان حاجة كسرى ، فسأل الملك اللخمي عن صفات من يطلبهن ، فأجابه إلى ذلك ، فردّ عليه النعمان على مسمع من الرجل الفارسي : « أليس في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ .. »

وعندما طلب الرسول من زيد أن يترجم له معنى « المها والعين» تعمد الخبيث ان يترجمها ترجمة حرفية وهي « بقر الوحش » وليس على المجاز أي النساء الجميلات العيون كما قصد النعمان .

وعاد الرسول وزيد إلى البلاط الفارسي ، فسأله كسرى : « وأين الذي كنت خبرتني به ؟.. »

قال : « كنت خبرتك بضنهم بنسائهم على غـــيرهم ، وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشبع والرياش، وإيثارهم السموم والرياح على طيب

أرضك هذه ، حتى انهم ليسمونها السجن ، فسل هذا الرسول الذي كان معي عما قال ، فاني أكرمُ الملك عن مشافهته بما قال وأجاب به ! »

فقال للرسول : « ما قال ؟ .. »

فقال الرسول : « أيها الملك ، انه قال : أما في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ »

فعُرف الغضب في وجهه ، ووقع في قلبه ما وقع ، ولكنه لم يزد على أن قال : « رُبَّ عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ، ثم صار أمره إلى التباب [1] »

وأدرك النعمان مـــا حيك له في الخفاء ، كما لم تخفَ عليه نوايا كسرى ، فانسحب من عاصمته الحيرة ملتجئاً إلى قبيلة طيء التي تربطه بها أواصر المصاهرة ، ولكن لم يلق في القوم بارقة أمل في الدفاع عنه ، فانسحب الى الأبلة الواقعة على الخليج ، مستجيراً بهانىء بن مسعود الشيباني المشهور بشهـــامته ومروءته وحميته العربية ، بعد أن طاف بقبائل عدة وكلٌّ تنكبت له ، فـــأجاره الرجل ولكن قال له :

« قد لزمني ذِمامك ، وأنا مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وولدي منه ، ما بقي من عشيرتي الأدنين رجـــل ، وإنَّ ذلك غير نافعك ، لأنه مُهلكي ومهلكك ، وعندي رأيٌ لك ، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورتي ، ولكنه الصواب »

فقال : « هاته .. »

فقال : « ان كلَّ أمر يجمُلُ بالرجـــل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد المُلْك سُوقةً ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سُوقةً بعد المُلْك ، هذا إن بقيت ، فامضِ إلى صاحبك ، واحمل اليه هدايا ومالاً ، والقِ بنفسك بين يديه ، فإما أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإما أن أصابك فالموت خير من أن يتلعّب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها ،

---

١ ـــ ايام العرب في الجاهلية ، ص ٢٢

وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً أو تقتل مقهوراً . »
فقال : « كيف بحُرَمي ؟ »
قال : « هنّ في ذمتي لا يُخلص اليهن حتى يُخلص إلى بناتي . »
فقال : « هذا وأبيك الرأي الصحيح ولن أجاوزه . »

وترك النعمان أهله وأمواله وسلاحه لدى هانىء بن مسعود ثم سار قاصداً المدائن عاصمة كسرى وقد سبقته إليه هداياه ، ولكن لم يدخل الرجل القصر ، وإنما سيق مكبلاً إلى السجن ، ثم طرح تحت أرجل الفيلة ، وبموته أفل نجم دولة المناذرة ..

ورفع كسرى إلى سرير النعمان اياس بن قبيصة الطائي لأن قبيلة طيء رفضت أن تجير عدوه .. وجاء أمر كسرى بلسان اياس إلى هانىء بن مسعود يطلب منه تسليم وديعة النعمان ، فرفض سيد بني شيبان ذلك .

وأضمر كسرى الشر لقبيلة بني بكر ووجهها هـانىء ، وهمّ بمهاجمتها ، ولكن نصحه النعمان بن زرعة التغلبي الكاره للبكريين بالتريث ، لأن بني بكر ذاهبون بعيداً في الصحراء طلباً للكلأ ، ولن تقوى جيوش فارس على التوغل في البيـداء ، ومن الأفضل انتظارهم للصيـف إذ يعودون إلى ذي قـار وتكون تصفيـة الحساب معهم .

وجاء الصيف بلهيبه وأوار شواظه ، وجاء معه النعمان بن زرعة التغلبي يعرض على هانىء بن مسعود بلسان كسرى ثلاثاً يختار منها واحدة : تسليمه الوديعة ، أو الجلاء عن ذي قار ، وإلا فالحرب !

ويحدثنا صاحب « الأغاني » ان ابن زرعة قد خطب بني تغلب قائلاً لهم :

« انكم اخوالي وأحد طرفيّ ، وان الرائد لا يكذب أهله ، قد أتاكم ما لا قبَل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب ، والكتيبتان الشهباء والدوسر ، وان في هذا الشر خياراً ، ولأن يفتدي بعضكم بعضاً خير من أن تصطلموا ، فانظروا في هذه الحلقة [1] فادمغوها وادمغوا رهناً من أبنائكم إليه بما أحدث سفهاؤكم .. »

---

١ ـ يعني سلاح النعمان .

فقال القوم : « ننظر في أمرنا » وبعثوا من يليهم من بكر بن وائل [1] ...

وما زالت القبائل تفد إلى ذي قار ، ملبيةً نداء بني شيبان ، وهي متريثة ، حتى وَفَدَ حنظلة بن ثعلبة العجلي ، وكانوا يتيمنون بـه ، فأبلغوه مشورة ابن زرعـة ، فرد قائلاً : « قبّح الله رأياً هذا ، لا تجرّ أحرار فارس أرجلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع الصوت !.. »

ثم أمر بقبته فضربت بوادي ذي قار ، ونزل ونزل الناس فأطافوا به ، ثم قـال لهانىء بن مسعود : « يا أبا أمامة ، ان ذمتكم ذمتنا عامة ، وانه لن يوصل اليـك حتى تفنى أرواحنا ، فأخرج هذه الحلقة ففرقها بـين قومك ، فان نظفر فستردّ عليك ، وإن نهلك فأهون مفقود . »

فأمر بها فأخرجت ، ففرقها بينهم ، ثم قال حنظلة للنعمان : « لولا انك رسول لما أبتَ إلى قومك سالماً » فرجع النعمان إلى أصحابه فأخبرهم بما رد عليـه القوم ، فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال ، وباتت بكر بن وائل يتأهبون للحرب [2] .

ولما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم يسيرون على تعبية ، ومعهم الجنود والأفيال عليها الأساورة .. فلما تقارب الزحفان قام حنظلة بن ثعلبة فقال : « ان النشّاب الذي مع الأعاجم يفرّقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدأوهم بالشدة » ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ، ثم تتبع الظعن يقطع وُضُنهن ، فسقطن على الأرض ، فقال : « ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته » ثم ضرب قبـة على نفسه ببطحاء ذي قار ، وآلى لا يفرّ حتى تفرّ القبة . وقطع سبعمائة رجل من بني شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبها لتخفّ أيديهم لضرب السيوف .وقام هانىء بن مسعود فقال : « يا قوم مَهْلك مقدور خير من نجاء معرور ، وان الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر ، يا قوم جدوا فما مـن

---

١ ـ الاغاني ، الجزء ٢٣ صفحة ٢٢٨

٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٣٠ - ٢٣١

الموت بدٌّ ، فتحٌ لو كان له رجال ، أسمع صوتــاً ولا أرى قوماً ، ويا آل بكر شدّوا واستعدوا ، وإلا تَشِدّوا تُرَدّوا . »

وقام شريك بن عمرو بن شراحيل فقال : « يا قوم ، إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم ، وكذلك أنتم في أعينهم ، فعليكم بالصبر ، فان الأسنّة تُردي الأعنّة ، يا آل بكر ، قُدْماً قُدْماً [1] ! »

وقد مثلت المرأة دورها الايجابي في هذه المعركة ، وكانت امرأة من عجــل ترجز منتشرةً النخوة :

ان تَهزموا نعانقْ ونفــرش النمارق
أو تُهزموا نفارق فراق غــير وامق

وفي هذه الاثناء كان بنو اياد المنضوون تحت رايـة الفرس يراسلون بني بكر سراً ، ويخبرونهم بأنهم سيخذلون حلفاءهم .. فعبأ حنظلة العرب ، وكانوا ثلاثـة آلاف [1]، قبالة خمسة آلاف من الفرس ، بشكل يتلاءم وما اتفق عليه مع بني اياد ، ثم دارت رحى المعركة بين الفريقين على الشكل التالي :

« حملت مَيْسَرَة بكر وعليها حنظلة ، على ميمنة الجيش الفارسي ، وقد قُتِل الهامرز قائد ميمنة الفرس في أول اللقاء .

« حملت ميمنة بكر وعليها يزيد بن مُسْهِر ، على ميسرة الجيش الفارسي .

« ويذكر الطبري (٢ : ٢١٠) أن فريقاً من بني بكر (بن وائل) انهزموا لما بدأ اللقاء وخذلوا اخوانهم العرب .

« رأى بنو عِجْل هزيمة بني بكر فأقبلوا كأنهم طُنٌّ (حِزمة) فَصَبّ : صفاً واحداً مرصوصاً فتضعضع الفرس .

« بدأت الهزيمة في الجيش الفارسي ، ثم خــاف الفرس العطش فتراجعوا إلى الجبابات فتبعهم بنو بكر وبنو عجل . وأبلى بنو عجل في ذلك اليوم بلاء حسنــاً وصبروا في القتال صبراً عجيباً . ودام القتال في الجبابات يوماً .

---

١ ـ ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٠ ـ ٣١

« وزاد العطش على الفرس فمالوا متراجعين نحو بطحاء ذي قار .

« عندئذ خرج الكمين من جب ذي قار يقوده يزيد بن حمار ، وهاجم قلب الجيش الفارسي من الخلف (وكان على قلب الجيش الفارسي اياس بن قبيصة) .

« بنو اياد يخذلون الفرس وينهزمون ، كما كانوا قد وعدوا .

« ثم وقعت الهزيمة العامة في الفرس ، فتعقبهم العرب من بطحاء ذي قار حتى بلغوا الراحضة ، إلى أدم (موضع قريب من ماء ذي قار) . وهنالك قتل جلابزين قائد الميسرة في الجيش الفارسي ، قتله حنظلة بن ثعلبة أيضاً [١] . »

وهكذا كللت هذه المعركة بفوز العرب فوزاً ساحقاً على أعدائهم ، وكانت فاتحة خير ومجد ، ولما بلغت أنباؤها مسامع الرسول العربي قال وكان ذلك في أول عام من البعثة :

« هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبي نُصروا ... »

وصدقت نبوءة الرسول الكريم ، إذ كان العرب على موعد مع القدر ليسجل التاريخ للعروبة أنصع صفحات الفتح تحت راية القرآن .

---

١ - تاريخ الجاهلية ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، ص ١٤٤

الجزء الثالث

فجر الاسلام وانعكاسه على الخليج

- الرسالة والردة
- الفتوحات العربية الكبرى على الخليج
- من التذمر إلى التمرد

الرسالة والردّة

من أواسط شبه الجزيرة العربية برمالها اللاهبة وهجير بطاحها المتوهج،من ربوع مكة ويثرب ، انبثق إلى الوجود نور الدين الإسلامي متلألئاً ناصع البيان ، منطوياً على المفاهيم الخيّرة والقيم الانسانية الرفيعة ، ارساءً لأسس حياة كريمة تسامي في ظل التوحيد ودوحة الخير ، تشد الانسان إلى السماء برفيع القيم ، وتربطه بالدنيا فرداً ومجتمعاً، بخير تشريع للحياة الفضلى، تهذيباً من طباعه، وصقلاً لجوهر نفسه ، مزيلةً عن عينيه غشاوة الجاهلية والحياة القبلية ، آخذةً بيده إلى ما فيه المحبة والعدالة وبناء المجتمع الانساني .

ولم يغمض الرسول الأعظم عينيه ملتحقاً بالرفيق الأعلى إلا وقد استل ما في القلوب من أحقاد وعداوات وضغائن لم تكن تزيدها الأيام إلا شدة اتقاد وحدة التهاب ، ليس من ترجمة عملية لها غير اشتباك العشائر والقبائل في الغارات الدموية والهجمات العنيفة ، وحياتها في ظل التنابذ والتناحر والتخاصم ، واستنفاد طاقات الجميع أفراداً وجماعات، حتى غدا العرب وهم أشد ما يكونون على أنفسهم ،أضعف ما يستطاع في وجوه خصومهم ، يتفيأ بعضهم ظلال راية الروم ، ويقاتل آخرون تحت لواء الفرس .

رواسب الجاهلية والوثنية

وقد لاقت الدعوة الإسلامية في أول أمرها ، العنت والمقاومة والمكابرة ،

والاصطدام بالعقلية المتحجرة على الوثنية والعصبية، والتي تأبى التجديد والتطور في نهج حياتها وطرق تفكيرها وسبل معيشتها ، والاصرار على التخبط في متاهات الضلالة،وإن آمنت النفوس، فايمان لا يتجاوز أحياناً الشفاه ليخالط شغاف القلوب.

وعلى الرغم من ان الرسول الكريم قد استطاع الصمود في وجه تلك الزعازع ، ومجابهة السلبية بكل ما هو ايجابي ، استئصالاً لأسس الحياة القديمة ، وكسر شوكة الوثنية وتحطيم أصنامها ، والانفتاح على آفاق الحياة المتطورة ، والأخلاق الواعية لآداب الدين ومطالب الدنيا ، فقد ظلت في بعض النفوس رواسب لم يستطع نور الايمان الجديد أن يستأصلها من جذورها ، وذلك لعدة عوامل ولأكثر من باعث .

فمن الناحية الاجتماعية ، كانت الحياة في تلك الربوع تشملها منذ آماد طويلة دياجير مظلمة ، أسدلت عليها ستاراً صفيقاً من الجهالة ، فاصطبغت النفوس بالعقلية القبلية العشائرية بنزعتها ، الفردية بتطرفها ، البدوية بانكماشها وجمودها ، بعبادة للأوثان ، ووأد للنبات ، وسفك للدماء ، وشريعة لا شغار لها إلا البقاء للأقوى ، من بعض مظاهرها شن القبائل هجماتها المتلاحقة بعضها على بعض ، في غارات ومعارك لا يثبت فيها إلا الأقوى ساعداً والأمضى سيفاً، والويل كل الويل فيها للضعيف ، سفكاً للدماء ، وسلباً للأموال ، وسبياً للنساء .

وأما من الناحية السياسية فالخرق أوسع والبلاء أشد ، وذلك لوقوع الأقطار العربية على مسرح الصراع بين الامبراطوريات الكبرى ، وتنافس الفرس والروم على انتزاع مناطق نفوذ لهم في شمال الجزيرة وضفاف الخليج وسواد العراق . أما الجزيرة في أقسامها الداخلية فكانت لا تنقطع فيها غارات القبائل العربية بعضها على بعض حيناً ، وعلى مناطق نفوذ الامبراطوريتين الفارسية والرومانية حيناً آخر . ولم يكن لهاتين الامبراطوريتين مطمع في مواطن تلك القبائل ، وكان أقصى ما تطمعان فيه اتقاء خطرها، لعدم رغبتها في أن تتفرق جيوشها في متاهات الصحاري الرملية اللاهبة المترامية ، ولعدم قدرتها السيطرة على القبائل البدوية غير المستقرة في مكان معين ، فهي دائمة الانتقال دائبة الترحال ، انتجاعاً للكلأ وطلباً للمرعى ، ولذلك كانت تلك المناطق تعيش حياة مستقلة غير منفتحة على العالم .

وصحيح ان المسلمين قد استطاعوا تثبيت أقدامهم في ربوع الجزيرة ، ونشر لواء التوحيد فيها ، والسيطرة على مدن هامة ظللتها راية الايمان ، وان القلوب قد التفت حول شخصيـــة الرسول الكريم في جهاده الأسمى لانتشال العرب من جاهليتهم ،وتأسيس الحياة المدنية ،واقامة المجتمع على أسس العدالة والحق والمساواة، ولكنهم لم يصلوا إلى تلك الغاية سيراً على الورود والرياحين ، وإنما بعد العديد من المعارك والوقائع التي دارت رحاها ما بين التوحيـــد والشرك ، وصَبْرِ المؤمنين الأولين على الظلم والاضطهاد والخروج من الديار .

وقبيل وفاة الرسول الكريم ،كانت الدولة الاسلامية فتيّة قوية متحفزة متوثبة، متطلعة إلى خوض غمار الجهاد رفعاً لراية الاسلام ، وتأثيل الممالك طلباً للرفعـــة والمجد ، وقد وضع المسلمون نصب أعينهم خضد شوكة الروم ، ومدّ ظل الاسلام إلى ربوع الشام . وفي الواقع لم يغمض الرسول العربي عينيـه الكريمتين الاغماضة الأخيرة، حتى شرع خليفته أبو بكر بانفاذ الحلم ، وعدّته الجيش الذي عقد الرسول لواءه لأسامة بن زيد والذي كان لا يضم في صفوفه إلا كل بطل مغوار يبذل الحياة رخيصة في سبيل قومه وعقيدته ،فتوغل أسامة بهذا الجيش في أرض الروم حتى مؤتة حيث قتل أبوه في معركة سابقة . وإذا كانت هذه الحملة لم تؤت ثمارها خارجياً ، فقد كانت داخلياً أبعدَ صدى ، في وقت شاع فيه القلق وعم الاضطراب سائر أنحـــاء الدولة الاسلامية .

عاصفة الردة

لقد مرّ الاسلام بامتحان قاس أدخـــل البلبلة والجزع حتى في نفوس أجلّ الصحابة وأرفعهم قدراً ، لا نستثني منهم حتى عمر بن الخطاب الذي قال فيه محمد : « لو كان بعدي رسول لكان عمر » [1] ، وذلك على أثر وفاة الرسول التي تلقاهـا بعض المؤمنين بالوجوم والخوف ، وآخرون بالتردد والحيرة ، وقسم ثالث بالردّة

١ - انظر الطبري ج ٣ ص ١٩٧ – ١٩٩

وشق عصا الطاعة ، ولم تكن منطقة الخليج بنأى عن هذه الحركة الأخيرة .

ولا بدّ لدراسة حركة الردة التي جابهت الخليفة أبا بكر ، من الرجوع إلى عصر الرسول الذي عندما تناهت أنباء رسالته إلى بعض اللامعين من وجوه القبائل ، تطلعوا بدورهم للاضطلاع بدور النبوة ! ومن هؤلاء مسلمة أحد رجالات بني حنيفة ، وكانت هذه القبيلة مستقرة في اليمامة ما بين بطاح نجد والبحرين التي كانت تشغل قديماً أكثر منطقة الخليج . وقد دعا مسيلمة الرسول الكريم إلى قبوله مشاطرته شرف النبوة ، فردّ عليه الرد الذي يستحقه برسالة جاء في مطلعها : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب !.. »

وقبيلة بني حنيفة التي انضوت تحت راية الاسلام في عهد الرسول ، لم تلبث ان ارتدّت بعد وفاته وشقت عصا الطاعة على خليفته ، ثم شملت حركة الارتداد قبيلتي بني فزارة وغطفان المستقرتين في شرقي المدينة ، وقبيلة بني أسد المقيمة في منتصف الطريق ما بين نجد والحجاز ، وقبيلة بني تميم القاطنة في منطقة القصيم من بطاح نجد ، وقبيلة تغلب النازلة في شمالي الجزيرة . ولم تلبث نار حركة الارتداد أن تطاير شراراتها إلى منطقة الخليج من البحرين وعمان .

تلك هي بعض المصاعب التي واجهت الخليفة الأول ، والتي لا نستغرب ظهورها بتلك السرعة ، ذلك لأن البدوي فردي بطبيعته والاسلام دين اجتماعي ، وهو لا يتحمل أي عبء من واجبات والتزامات والاسلام دين كثير الفروض والواجبات ، وقد اعتاد على سلب ما في يد غيره إن آنس فيه ضعفاً والاسلام يحرّم السرقة ويفرض الزكاة ، وكان الرسول الكريم يعرف ذلك كله ، ويعلم علم اليقين ان الايمان لم يمس شغاف قلوب البدو إلا مساً رفيقاً بدليل الآية الكريمة : « قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

وهكذا رأت تلك القبائل متنفساً في موت الرسول ، وتحللاً من قيود الواجبات التي فرضها الاسلام ، وسرعان ما شق بعضها عصا الطاعة ، وبقي البعض الآخر متربصاً كقبائل ازد وجشعم وكنانة وبجيلة وأشعر وعك وحكم وعامر وهوازن

وجذيلة ، وكان على الخليفة أبي بكر ان يقرر المصير !

ولم يـــتردد أبو بكر وإنما مضى قدماً وواثقاً لمجابهـــة الواقع بكل الطاقات الإسلامية ، على حين ان قوات المرتدين رغم ما اتصفت به من كثافة العدد وقوة العدة كان ينقصها وحدة الكلمة ، بل لقد ظهرت الخلافات فيما بينها ، وكانت كل قبيلة أو منطقة عاصية تنتظر مبادرة غيرها وتظل هي مترددة مترقبة النتائج، ولو انها استطاعت توحيد كلمتها جميعاً تحت راية التمرد ، وهاجمت المدينة وجيش المسلمين منشغل في دار الحركات بحدود مؤتة ، فربما كانت صفحات التاريخ غير ما نقرأ اليوم، ولكن الله الذي كتب النصر لراية الاسلام قد قيّض لقيادة المسلمين في تلك الفترة الحرجة شخصية أبي بكر الصادقة العزم،الصابرة على المكاره،الشديدة الأسر، مع حسن تصرفٍ وثباتٍ في قلب الزعازع .

ولا خلاف في ان تمرد منطقة الخليج وعمان قد لعب دوره في فتنة الارتداد ، ولم يكن الوضع في تلك المنطقة بالذات انعكاساً للأحداث الراهنة فحسب ، وإنما لوقائع الأيام التالية كذلك .

حديقة الموت

قفل جيش أسامة راجعاً من مهمته الموكلة اليه ، وهي الحملة على حدود الدولة البيزنطية ، والوقوف عند مؤتة ، وذلك بهجوم خاطف وانسحاب سريع ، والتي كانت حملة موفقة إلى حد كبير ، ليس في دار حركاتها فقط ، وانما بانعكاسها أيضاً على حركات الارتداد ، وتأثيرها النفسي في المرتدين .

وقد عرف الخليفة أبو بكر كيف يعمل فكره ويسرع في تنفيذ خطته بالقضاء العاجل على حركة الارتداد الخطيرة ، التي أسند مهمة اخماد نار فتنتها وإعادتها إلى الحظيرة الاسلامية ، لأشهر شخصية عسكرية وأبرز قواد العرب : سيف الله خالد ابن الوليد .

لقد عُرف خالد القائد الفذ في تاريخي الجاهلية والاسلام معـــاً ، بقوة عزيمته واشتداد عنفوانه وصلابة شكيمته ، كما اشتهر بالمهارة العسكرية والخطط التعبوية،

وقد خضد شوكة الاسلام في موقعة أحـــد ، ورفع بعدها رايته مظفرة منتصره ، خفاقة غلابة ، ويكفيه فخراً دعاء الرسول الكريم له يوم مؤتة : « اللهم انه سيف من سيوفك ، فأنت تنصره ! »

وسار خالد لأداء الرسالة التي ندبه اليها خليفة رسول الله ، يحـــارب المرتدين بسلاحين اثنين : القوة المعنوية ، والتماع السيوف في أيدي رجال ندروا نفوسهم لله . وكانت أخطر مهمة لقيها ، وأعسر امتحان لحسامه ، الصمود أمـــام قوة بني حنيفة في اليمامة التي كان على رأسها مدّعي النبوة مسلمة بن حبيب (مسيلمة الكذاب)، وقد ثبتت لقوة المسلمين الصدامية ورجحت كفتها في مراحل القتال الأولى، وأخذ أفرادهـا يهزأون بالاسلام والمسلمين الذين تصلبت ارادتهم وثبتوا لبني حنيفة ثبـاتاً معجزاً ، فارتد هؤلاء يطلبون التحصن وراء جدار حديقة سميت فيما بعد « حديقة الموت » إذ انقض عليهم خالد ورجاله ورفعوا فوق رؤوسهم السيوف .. وكانت نهاية مسلمة وقومه محزنة مفجعة ، كما ان خسائر المسلمين لم تكن بالقليلة ، بل كان النصر باهظ الثمن ، وقد استشهد من أجله العدد الغفير من الأنصـــار والمهاجرين الأولين وحفظة القرآن الكريم .

إلا ان صدى الانتصارات الاسلامية كان مدوياً رائعاً في معقلين آخرين من معاقل الارتداد وهما : البحرين وعُمان .

الردة في البحرين

في العام الثامن للهجرة ، بعد ان قويت شوكة الاسلام ، وعلت راية التوحيد فوق الكثير من ربوع الجزيرة العربية ، أوفد الرسول الكريم الصحابي الجليل العلاء الحضرمي إلى البحرين يدعو أهلها إلى التفيؤ بظل الاسلام أو دفع الجزية .

وكان يسكن البحرين إلى جانب العرب أقليات من اليهود والنصارى والمجوس الذين يدينون بالزرادشتية، والكل بأمرة حاكم عربي هو المنذر بن ساوي التميمي، فلم يتردد المنذر في تلبية الدعوة لاعتقاده بأنها عامل قوة له يشد من عضده في صموده أمام العدوان الفارسي ، وأقبل الكثيرون من أبنـاء العرب ينضوون تحت راية

الاسلام ، في حين آثر اليهود والنصارى والمجوس دفع الجزية، وعاد العلاء الحضرمي إلى المدينة مثقلاً بأموال الجزية من جهة ، وحاملاً معه من جهة أخرى مفتاح اقليم يمتد من حدود الأبلة إلى شواطىء عُمان .

ولكن ما كاد الرسول ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى تطايرت شرارة الفتنة على الأفواه الساذجة : « لو كان نبياً لما مات ! .. » وكانت هنا أيضــاً حركة ارتداد حمل لواءها شريح بن ضبيعة الذي يمت بنسب إلى المناذرة وغذاها كثير من المشركين ، ولكن هذه الحركة لم تشمل القطر كله ، إذ ظل كثير من العرب على الاسلام متربصين .

ويقول بعض المؤرخين ان الرسول العربي كان قد أوعز للمنذر بن ساوي بأن يصالح من لا يدخل في الاسلام في مملكته على الجزية ففعل ، وقد اغتنموا فرصة وفاة النبي ثم وفاة المنذر بن ساوي فحركوا الفتنة وساعدوا على توسيعها [١] .

وتصدى لحركة الارتداد الجارود بن معلى فأما عبد القيس فردهم إلى الاسلام ، وأما بكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة فكان يجادلهم قائلاً : « تعلمون ان لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون انهم ماتوا ومحمد صلى الله عليه وسلم قد مات وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله » فأسلموا وثبتوا على إسلامهم [٢] .

وجاءت جيوش الخليفة أبي بكر يقودها العلاء الحضرمي ، وكان العلاء وهو في طريقه إلى البحرين ، تأتيه الأنباء بمن ثبت على إسلامه من بكر بن وائل، ومنهم عتيبة بن النهاس والمثنى بن حارثة وغيرهما ، فيبعث لهم بكتبه يشجعهم ويدعوهم إلى الثبات ، وإلى منع القبائل المرتدة من أن يجتمع بعضهـــا مع بعض [٣] . ولما شارفها بادر إلى منازلة المرتدين يشد من أزره المسلمون البحرانيون الذين ظلوا على الولاء لعقيدتهم ، ولكنه لم يستطع كسر شوكة الارتداد بالرغم مما أبداه من فنون الشجاعة والصبر على الاعداء ، بل كانت كفة المرتدين أرجح وسهمهم أنفذ ، حتى

---

١ ـ تاريخ الجنس العربي تأليف محمد عزة دروزة ج ٧ ص د ه

٢ ـ الفتوحات الاسلامية تأليف احمد بن زيني دحلان ج

٣ ـ خالد بن الوليد تأليف محمد صبيح ص د .

اضطر الصحابي للانسحاب إلى حصن يقع شمالي هجر ، وظل يناوش المرتدين بعد أن طير الخبر إلى الخليفة يعلمه بحراجة موقفه .

وكان خالد بن الوليد حديث العهد في الخروج من « حديقة الموت » سيراً على أشلاء بني حنيفة ، فخف بناء على أمر الخليفة لنجدة العلاء الحضرمي ومسلمي البحرين ، وما هي إلا جولة وأختها حتى نكست أعلام الارتداد ، واختفت شيئاً فشيئاً ، وقد مات عنها ابن ضبيعة وكثير من أتباعه ، وعادت السيادة للقوة الاسلامية ، واستقر الأمر في البحرين للعلاء الحضرمي . أما المجوس فقد أبدوا مقاومة أطول «وظل زعيمهم فيروز معتصماً بالرازة الواقعة على ساحل البحر (ولعلها القطيف اليوم) حتى أوائل خلافة عمر ، وعندئذ فقط استطاع عامل المنطقة ، العلاء ، أن يكرهه على الاستسلام بعد أن قطع عنه الماء [1]

الردة في عُمان

وكانت حركة الارتداد في عُمان ، امتداداً لحركة العصيان في البحرين . والمشهور عن تلك المنطقة، وكانت تُدعى الغبراء، انها دخلت في الاسلام مبايعة ، ودون أن يرى حكامها الرسول الكريم الذي ابتهل إلى الله بالدعاء لهم ولأرضهم : « رحم الله أهل غبراء آمنوا بي ولم يروني » [2]

وقد حدث أن قام أحد الزعماء المحليين، ويدعى لقيط ، وهو من وجوه الأزد، على أسرة بني جلندي الحاكمة التي تتمتع بشبه استقلال ذاتي . ولم يكتف لقيط بالعصيان ، بل ادعى هو الآخر النبوة بعد وفاة الرسول ، بالقرب من عمان وفي منطقة دُبّي الحالية . وتلقب بذي التاج [3] . وحاول الملك العماني أن يخمد نار الفتنة ، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، فاستنجد بالخليفة أبي بكر بعد أن تحصن

---

١ – تاريخ الشعوب الاسلاميه ، ج ١ ص ١٠٣

٢ – كان يطلق على عمان في عهد البعثة النبوية اسم الغبراء او الغبيراء ، ولكن هذا الاسم لم يدم طويلاً، وتغلب لفظ عمان على بقية الاسماء (انظر كتاب عمان قديماً وحديثاً للزرقا ص٦٠)

٣ – الطبري ج ٢ ص ٥٢٩ ـــ ٥٣٠

بالجبال ، فبادر الخليفة إلى مدّه بثلاثة جيوش ، وكان على رأس الأول عكرمة بن أبي جهل الذي أسهم في إخضاع قوات مسلمة بن حبيب المتنبىء ، وعلى رأس الثاني حذيفة بن محصن،أحد شيوخ قبائل المنطقة وقد اختاره الخليفة عاملاً له في عُمان[1] ، وعلى رأس الثالث عرفجة الذي عهد اليه بإخضاع حركة التمرد في اليمن .

واجتمعت الجيوش الثلاثة تحت أمرة عكرمـــة ، كما انضمت اليها فلول ابن الجلندي ، والتقت جميعاً بقوات لقيط ، فلم تستطع القوات الثائرة الصمود أمام قوى المسلمين ، ودارت عليها الدائرة بعد أن خلّفت في ميدان المعركة مـا يناهز العشرة آلاف قتيل ، ولم ينج المتنبىء من ذلك المصير الأسود[2] .

وبذلك عادت عُمـان إلى حظيرة الاسلام ، وتابعت جيوش المسلمين زحفهـا إلى منطقة جنوبي الجزيرة بقيادة عكرمة بن أبي جهـل . وبسقوط اليمن في أيدي المسلمين ، استطاعت الدولة الاسلامية أن تستأصل جذور الثورات وتخمدها جميعاً في زمن قصير جداً .

وتميزت هذه الحروب الاسلامية بسرعة حركتها ، وانقضـــاضاتها الصاعقة ، وحزمها في معاقبة الخارجين على الدولة .

وهكذا عاد العصاة إلى الحظيرة ، وارتفعت راية التوحيد على كافـــة بقاع الجزيرة العربية من خليجها إلى البحر الاحمر ، ومن جنوبها حتى حـــدود الدولة البيزنطية شمالاً ، وشعرت الدولة العربية الفتية ان فيها من الطاقة العارمـة والقوة الزاخرة ، ما يؤهلها لصدم الامبراطوريتين الكبيرتين معاً : فارس وبيزنطة !

وفتح التاريخ صفحة جديدة ، مدادها دماء شهداء الاسلام الذين أحبوا الموت حب أعدائهم للحياة ..

---

١ ـ الفتوحات العربية الكبرى تأليف جون غلوب ترجمة خيري حماد ص ٢٠٢

٢ ـ الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ص ٣١

الفتوحات العربية الكبرى حول الخليج

بعد أن أخمد العرب المسلمون نار الثورات التي شبت في أطراف الجـــزيرة ، وقمعوا فتنة الارتداد ، وقضوا على الحركات الانفصالية، وصهروا العصبيات القبلية في بوتقة العروبة ، كان لزاماً على أولي الشأن — وقد استتب لهم الأمر في الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، وتمت لأول مرة معجزة توحيد البلاد العربية المترامية — أن يدفعوا بالزخم العربي الاسلامي إلى الخارج ، وأن ينطلقوا في الأرض تجسيداً للآية القرآنية : « وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً [1] » وهنا كانت آية الفتوحات العربيـــة الكبرى التي قلّ نظيرهـــا في تاريخ البشرية ، وكانت الامبراطورية العربية التي ضارعت امبراطورية الاسكندر وخليفتها الامبراطورية الرومانية .

واتجهت مطامح العرب أول ما اتجهت، شطر الامبراطورية الفارسية المتداعية، وعدوتها الامبراطورية الرومانية التي فقدت سالف عظمتها وتالد قوتها . وقد مرّ معنا كيف أن هاتين الامبراطوريتين كانتا لا تنفكان تشتبكان في حروب مضنية مهلكة ، مما أضعف كيانيهما معاً ، وهدم من قواهما العسكرية والمعنوية .

وستكشف لنا الصفحات التالية ، أي دور خطير قد لعبته منطقة الخليج العربي في ميدان هذه الفتوحات ، وأية خدمة كبرى قد أسدتها للعروبة والاسلام .

---

١ ـ سورة سبأ ، آية ٢٨

لقد كان من البدهي أن يتطلع العرب أول ما تطلعوا ، إلى تحرير البطاح التي تشكل امتداداً طبيعياً لأراضي الجزيرة ، والتي يقطنها عرب مثلهم ، ونعني بذلك بلاد ما بين النهرين — دجلة والفرات — التي قـــامت عليها دولة الحيرة التي قوّضها الساسانيون ، والتي نجم عن انهيارها أول احتكاك جدّي ما بين العرب والفرس في موقعة ذي قار . حتى إذا تمّ للعرب ما أرادوا ، دفعوا لواء الفتح بعيداً بعيداً في الآفاق .

وحين أعدّ العرب للأمر أهبته ، وتلفت خليفة رسول الله حوله ، لم يجد أكفأ لتلك المهمة الضخمة من سيف الله خالد بن الوليد المخزومي الذي ما عرف للوائه إلا النصر ولسيفه غير المضاء . وهكذا جلجل نفير الجهـــاد ، حتى إذا اجتمع في دار الخلافة ما اجتمع من نفوس كلها تطلعٌ وتوثب وتحفز للانطلاق ، شطر الخليفـــة تلك الجيوش شطرين ، عقد لواء الامارة على الأول لخالد وعلى الثاني لعياض بن غنم ، وأمر فتقدم خالد صوب اليمامة ليتحرك منها مروراً بالساحل الغربي للخليج حتى جنوبي العراق ، ثم يتوغل هناك في أراضي السواد [1] ، حتى يبلغ الحيرة عـاصمة المناذرة اللخميين . وأما عياض فكانت الخطة تقضي بأن يزحف بجيشه شمـــالاً ، مروراً بالأراضي الخاضعة لامبراطورية الروم ، ويلتقي بخالد في الحيرة .

وفي الطبري [2] وفتوح البلدان للبلاذري [3] ان جماعة من بني شيبان بقيـــادة المثنى بن حارثة في ناحية من انحاء الحيرة ، وأخرى من بني عجل بقيادة مذعور بن عدي في ناحية أخرى ، وثالثة من بني ذهل بقيادة قطبة بن قتادة في ناحية ثغر الأبُلّة الواقع على فم الخليج ، وهذه القبائل متفرعة من قبيلة بكر بن وائل الكبرى التي كانت تنتشر في شمـالي الخليج وعلى ضفـــاف الفرات قبل الاسلام ، قد أرسلت وفودها إلى النبي وأسلمت بين يديه ، وكانت هذه الجماعات تتصاول مع عمال الفرس وحامياتهم ، وقد اتصل قادتها بالخليفة وطلبوا منه الاعتراف بقياداتهم المحلية فأجابهم

---

١ - معجم البلدان ج ٥ ص ٩ ٥ ١

٢ - ج ٢ ص ٥٥٣ - ٥٥٤

٣ - ص ٢٥٠

إلى طلبهم إلى أن جاء خالد إلى العراق فأمرهم بالانضمام اليه والعمل تحت قيادته[1].

وسار خالد لطيته ، بعد أن قوّى قوادمه بخوافي القبائل التي لم ترتد عن الاسلام ، كما ضمّ إلى جيشه محاربي المثنى الذي لم يكف عن مهاجمة الحاميات الفارسية بحملات وغارات موفقة في شمالي الخليج ، وناهزت قوات خالد ١٨٠٠٠ مقاتل تجمعت بكاملها في مدينة النباج الواقعة في الشمال الغربي من الخليج .

واستناداً إلى رأي أبناء السواد من العرب الذين يعرفون طبيعة أراضيهم حق المعرفة ، وعملاً بأوامر الخليفة الأول الذي أوصى بالاستيلاء على مدينة الأبُلّة ، لتكون قاعدة بحرية للعرب تقيهم الضربة الغادرة من الخلف ، وضع خالد بن الوليد مخطط زحفه العسكري وانطلق تواً الى التنفيذ ، جامعاً قدرة العمل إلى عبقري الخطة .

معركة كاظمة أو ذات السلاسل (١٢ هـ ٦٣٣ م)

وكاظمة مدينة تقوم على الساحل الغربي للخليج العربي ، في امارة الكويت اليوم ، وفيها وقعت أول معركة من حروب العرب والفرس بعد الاسلام، ويقول ياقوت [2] انها تقع « على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب ، وقد أكثر الشعراء في مدحها ، فمن ذلك :

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة   يسعى على قصرات المرخ والعشر »

ولما علمت فارس بتقدم الجيوش العربية الزاحفة صوب معاقلها ، وأدركت ان هذه الحملة العسكرية المنظمة تختلف كل الاختلاف عن غزوات البدو السابقة وغاراتهم على الثغور والحاميات الفارسية ، سارع هرمز ، وكان آنذاك صاحب الثغر في ميناء الأبلة ، إلى جمع جيشه ، كما بادر إلى طلب النجدة من العاصمة

---

١ ـ تاريخ الجنس العربي تأليف عزة دروزة ج ٧ ص ٦٨

٢ ـ معجم البلدان ج ٧ ص ٢٠٨

ـ المدائن ـ وبعد ان عبأ جيوشه وسار بها نحو كاظمة ، أدرك وهو في الطريق ، ان العرب قرروا منازلته في الحفير ، فسبقهم اليهـا واحتلها ، وعرف خـالد بذلك فعدّل خطته الأولى واتجه الى كاظمة .

لقد كانت كاظمة ، تلك البلدة العربية الساحلية ، مسرحاً لمعركة مصيرية التقت فيها قوى العرب المنطلقين من جزيرتهم بحدوهم الايمـــان وتتأجج في أعماقهم ثورة روحية لاهبة ، وقوى الفرس الذين استرخصوا الحياة ذوداً عن مكاسبهم ، وصونـاً لمصالحهم ، وحماية لإمبراطوريتهم من تدفق الزحف العربي .

وتقص الأخبار التي أرخت تلك الواقعة ، بأنها سميت « ذات السلاسل » لأن الفرس شدوا بعضهم الى بعـــض بالسلاسل ، ليكون القادة في مأمن من هرب جنودهم ، وعلى يقين من انهم ثابتون في أماكنهم حتى النهـــاية ، فاما الظفر أو الموت [1] !

والتحم الجيشان .. وكان خالد قد حارب أعداءه بسلاح الرهبة قبـــل انتضاء الحسام ، إذ كتب لهرمز كتاباً جاء فيه :

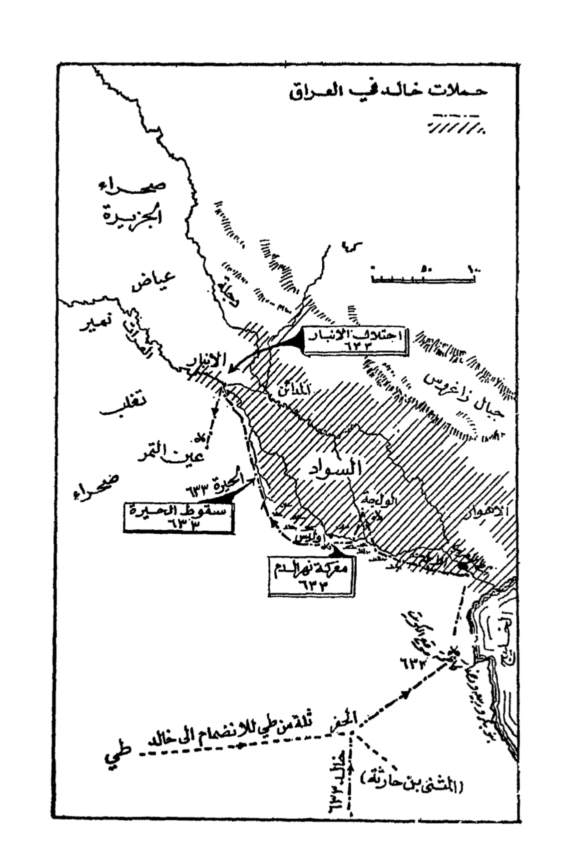
« أسلم تسلم ، واعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة !.. »

وكانت معركة حامية الوطيس ، شديدة على الفريقين المتحاربين والعـــدوين المتصارعين ، فالفرس يودون الحفاظ على مُلْكهم ، والعرب مصممون على الظفر يشترونه بغالي دمائهم ويبذلونها رخيصة ، والفارسي يعلم ان لا سبيل له الى الحيـاة ان ارتفع فوق رأسه الحسام العربي لأنه مقتول بسلسلته ، والعربي سبّـاق الى الموت يطلب المجد على الأرض أو الخلود في الدار الأخرى ..

ودامت المعركة على أشد ما تكون عنفاً وقسوة ومرارة،ثماني ساعات تضرجت خلالها الأرض بسيل من الدماء ، وأسفرت عن نصر حاسم للعرب ، وكان في عداد القتلى القائد الفارسي الذي صرع خلال مبارزة فردية نازل بها سيف الله. وارتفعت

---

١ ـ الطبري ج ٢ صفحة ٥٥٤ ـ ٥٥٦



حملات خالد في العراق
صحراء الجزيرة
عياض
دجلة
نمير
الفرات
الانبار
احتلال الانبار ٦٣٣
المدائن
جبال زاغروس
تغلب
عين التمر
السواد
الحيرة ٦٣٣
صحراء
سقوط الحيرة ٦٣٣
الولجة
الأهواز
أليس
معركة نهر الدم ٦٣٣
٦٣٣
الحفر
ثلة من طي للانضمام الى خالد
طي
خالد ٦٣٣
(المثنى بن حارثة)

على هامة خالد « خوذة هرمز الذهبية المرصعة بالحجارة الكريمة النادرة التي كانت فيما بعد حصته من غنائم واقعة كاظمة ، فكانت خير شعار ظفر يزين به رأسه لذكرى أول نصر في سبيل تحرير العراق [١] » .

وكان هرمز قد دعا خالداً للمبارزة ، وأضمر له غدرةً واطأ عليها أصحابه ، فمشى اليه خالد راجلاً فاحتضنه ، وحمل الفرس على خالد تنفيذاً لما اتفقوا عليه مع هرمزهم ، فلم يشغل ذلك خالداً عن شدة وطئه على هرمز ، بينما حمل القعقاع بن عمرو على أهل فارس حين رآهم يحملون على قائده خالد وهو مشغول بمبارزة قائد الفرس ، حتى كشفهم ومكّن خالداً من قتل القائد الفارسي ، وبدأت هزيمة الفرس ، وركب المسلمون أكتافهم ، وأخذوهم قتلاً وأسراً [٢] .

وكرجل عسكري فذ ، وقائد من كبار القادة في التاريخ البشري، لم يكتف خالد بن الوليد بهذا النصر المحلي ، وإنما سرعان ما بعث بكلٍ من المثنى بن حارثة الشيباني ومعقل المزني ، ليطهّر الأول ثغر الأبلة وما جاورها من الحامية الفارسية وفلول جيش الهزيمة في معركة ذات السلاسل ، وليتسلم الثاني ادارة المدينة ويعزز موقعها تحسباً لأي هجوم فارسي مباغت .

ويقول المؤرخون ان معركة « ذات السلاسل » قد قررت شخصية الخليج العربية .

إلا ان هذه المعركة لم تكن سوى السطر الأول من صفحة المعارك الضارية التي ستدور رحاها ما بين الفرس والعرب . وفي الواقع كانت جيوش الانقاذ الفارسية آخذةً سبيلها الى كاظمة ، ولكن هيهات ، فقد وصلت متأخرة ، وكانت الدائرة قد داوت على الفرس ومن دار في فلكهم من قبائل عربية ، منذ الصدام الأول . وكان لا بدّ من ان تتبع هذه المعركة معارك ، لأن الأكاسرة أخذوا يتبينون ان الخطر بات يهددهم في عقر دارهم !

---

١ ـ تاريخ العرب العسكري ، تأليف محمود الدرة ، ص ٣٠٩

٢ ـ خالد بن الوليد تأليف صادق ابراهيم عرجون ص ٢٠١

موقعة المذار (١٢ هـ ٦٣٣ م)

لما تجمعت الجيوش الفارسية التي عبئت في المدائن ، عقد لواء قيادتها لأحد قواد فارس الميامين ويدعى قارن ، فسار هادفاً القوات العربية التي تمركزت في الأبلة ، وخلال الطريق التقى قارن بفلول الجيش الفارسي التي كتب لها النجاة في معركة ذات السلاسل وكان يرأسها قائدان اثنان هما قباذ وأنو شجان . وتداوس القادة الثلاثة الموقف الراهن ، وقرروا ان تكون المذار خط دفاعهم لصد التقدم العربي ، بعد ان تواصوا بالثبات حتى النهاية والصمود حتى النفس الأخير . والمذار مدينة تقع في شمالي الخليج على ضفاف دجلة ، وفي نقطة الوسط ما بين بلدتي العمارة والقرنة ..

ولم يكن خالد بن الوليد بغافل عما يجري في المعسكر الفارسي، إذ كانت أنباء هذا المعسكر تصله تباعاً بوساطة عيون المثنى الذي كان ما يزال يتعقب القوى الفارة. ولما وافت خالد تلك الأنباء أسرع بمغادرة الأبلة قاصداً المذار مركز تجمع الجيوش الفارسية .

والتقى الجيشان في تلك البطاح من أرض السواد .. ولكن قبل ان يشتبك الجيشان بالمعركة ، طلب القائد الفارسي قارن إلى خالد بن الوليد مبارزته ، فنهد اليه سيف الله طالباً الشهادة أو اعلاء كلمة الله بالنصر .. وما هي إلا جولات معدودة حتى علا الصمصام العربي مفرق القائد الفارسي وتخبط بدمائه . ولم تكن هذه المبارزة الفردية هي الوحيدة ، وإنما نازل قباذ وأنو شجان بطلان من أبطال العرب هما عاصم وعدي، ولم يكن حظ القائدين الفارسيين أسعد من حظ قارن.. وهكذا غدا الجيش الفارسي وقد قتل قادته الثلاثة ، قائد القلب وقائدا الجناحين ، قبل ان يلتحم الجمعان بمعركة الجموع !..

وكانت النتيجة ان عملت سيوف العرب في رقاب الفرس ، ولما ضاقت بهؤلاء الأرض بما رحبت ، خفوا الى السفن وركبوا غوارب الماء هرباً ، وقد مات العدد الوافر منهم غرقاً . وقدّر من قتل من الفرس في هذه المعركة بما يربو على ثلاثين

ألف محارب [1] .

وكان لهاتين المعركتين اللتين كتب فيها النصر للعرب ، وقع بالغ في نفوس الفرس،وباتت امبراطوريتهم التي هزتها الأحداث الخارجية وقلقلتها الفتن الداخلية، موشكة على الانهيار ، ظاهرة فيها عوامل التفكك ، بادية آثار التفسخ ، على حين كانت القوى العربية التي تعيش فجر الإسلام وقد التأمت تحت رايتـــه جموعها ، تنتقل من ظفر الى ظفر ، وتكتب بدماء أبنائهـا النصر إثر النصر ، لا تخرج مـن معركة إلا لتخوض غمار غيرها ..

معركة الولجة (١٢ هـ ٦٣٣ م)

لا خلاف في ان الضربتين اللتين تلقتها الامبراطورية الفارسية في معركتي ذات السلاسل والمذار ، كانتا ضربتين قاسيتين ، ولكنها لم تكونا قاتلتين . وامبرطورية مثل فارس أمنع من ان تنهار نتيجة لمثل هاتين الصدمتين ، وإنما كانتا لها بمثابة المنبه لانسان سادر في غفلته مطمئن إلى مجده ، فسارعت الى ضمد جراحهـا ، وأخذت تلملم أذيال الخسران، جامعة على أهبة الاستعجال جيشاً كثيف العدد حسن العدة، وعقدت لواء إمارته لأحد أبطال الامبراطورية ويدعى « الاندر زغر » .. ومما يؤسف له حقاً ان عدداً من سواد العراق من بكر بن وائل من بطون بني عجـل وتيم اللاة وضبيعة قد انضووا تحت القيادة الفارسية لمحاربة أبناء جلدتهم الذين مـا قدموا إلا لتحريرهم ، لأنهم لم يكونوا قد أدركوا أهمية المسيرة العربية ومعناهـا القومي والانساني .

وقد وصلت أنباء تحركات الفرس الى مسامع خالد بن الوليد ، فنهد للعـــدو آخذاً للأمر أهبته ، وهدفه الولجة حيث كان يعسكر الجيش الفارسي .

وقسم خالد جيشه ثلاثة أقسام : القلب وقاده هو ، والجنـــاح الأيمن يقوده يسر بن أبي رهم ، والجناح الأيسر ويقوده سعيـــد العلجي . وتنفيذاً للخطة التي

---

١ - الطبري ج ٢ صفحة ٥٥٨ - ٥٥٩

رسمها ، كمن الجناحان ، على حين صدم بكوكبته الجيش الفارسي الذي صمد في أرض المعركة غير متزحزح عن مواقعه ، لكن على غير ما كان يتوقع الفرس، وفي الساعة الحرجة التي بدأ مغاوير العرب يشعرون فيها بوطأة أعدائهم ، انقض فرسان الجناحين الكامنين على العدو انقضاض الصواعق ، وقاموا بحركة التفافية تزعزع تحت ومضات سيوفها جناحا الفرس ولم تلبث روح الهزيمة أن سرت للقلب، وتعالت صيحات الذعر تصحبها انطلاقة الهزيمة ، واخذ الفرسان العرب يجـــدّون في اثر المنهزمين الذين لقي الكثيرون منهم حتفهم تحت سنابك الخيل ، وكان الاندرزغر احد قتلى حركة الانهزام، وهكذا غدا طريق الحيرة العربية عاصمة المناذرة اللخميين معبّداً امام جيوش الفتح .

فتح الحيرة (١٢هـ ٦٣٣ م)

لم يتوان خالد بعد ان هزم جيش الأندرزغر ، عن الزحف السريع نحو الحيرة مستغلاً رياح النصر المؤاتية التي تقولد أعصاب جنوده شيئاً فشيئاً ، في حين كانت المعنويات الفارسية أخذةً بالانهيار ، تفتّ انباء انكساراتهم من عضدهم وتوهن من قواهم .

على ان مبعث الخطر على المسيرة العربية ، كانوا طوائف من عرب الحيرة انفسهم الذين انضووا تحت لواء الفرس ، وقد انتقم منهم خالد شر انتقام حين واجههم في المعارك السابقة وعزم الاحياء منهم على الانتقام لقتلاهم ، فطفقوا يجمعون جموعهم ويلمون ما تمزق من شملهم، ويتحشدون في «الليس» الواقعة في شمالي الولجة..ولكن هل لعود غرس في الرمل ان يوقف هبوب العاصفة ? . . وهكذا لم يجتمع هؤلاء الحانقون الا ليتمزقوا شراذم ضاقت بهم الفجاج ناسية ما خلفت وراءها من رقاب عانية تحت سيف الانتقام ! . .

ووالت الجيوش العربية زحفها نحو الحيرة ، وقد اعتلى المشاة الذين تثقل عواتقهم امتعتهم واسلحتهم،قوارب نهر «فرات بادقلي» يحاذيهم الفرسان على صهوات جيادهم. وفي الطريق الى الحيرة ، لاقى خالد بعض العناء ، ولكنه احبط مخططات

الفرس الذين غيروا مجرى النهر، بما نجم عنه من جنوح القوارب الى القاع، على ان ذلك لم يطل أمام حسام خالد الذي سرعان ما استقام له الأمـــر، إذ تحكم بمركز توزيع المياه، وتابع الزحف الى عاصمة بني لخم، بعد أن بدّد تجمعات الفرس وتحشداتهم، وكان في عداد قتلاهم ابن حاكم الحيرة الذي قاد حركة مداورة خالد بغية عرقلة زحفه، ريثما يتسنى لابيه حشد جموع الفرس وتعبئة جيوشهم للدفاع عن المدينة.

وخلال هذه الأحداث مات العاهل الفارسي كسرى ازدشير، وغـدت فارس ممزقة الكلمة حول الرجل الذي يجب ان يرتقي العرش الساساني، فاضطرب حاكم الحيرة الفارسي ولم يعد قادراً على التحكم في أعصابه، لا سيما وقد فقد ابنـــه تحت ضربات سيوف مقبلة نحوه، فرأى ان من العبث البقاء في الحيرة التي انتشرت في دروبها ظلال الرعب، ووجد ان من السلامة الفرار إلى «المدائن» مع الحاميـــة الفارسية الموكلة بالدفاع عن الحيرة.

وأطبقت جيوش خالد على المدينة العربية وليس فيها سوى أهلهـا العرب وهم يصرون على الدفاع عنها، فأمر بتشديد الحصار عليها والتضييق على سكانهـا، حتى ضج زعماؤهم ورأوا ان من الحكمة مفاوضة خالد على تسليم المدينة، ودار بـــين القائد العربي والوفد المفاوض الحوار التالي [١]:

— ويحكم، ما أنتم؟ أعرب، فما تنقمون من العرب؟ أو عجم، فما تنقمون من العدل والانصاف؟

— بل عرب عاربة وأخرى متعربة.

— لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا!

— لندلك على ما نقول، انه ليس لنا لسان إلا العربية!

— صدقت! اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة،

---

١ - تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٦٣ - ٥٦٨

فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة !

– بل نعطيك الجزية !

– تباً لكم ، ويحكم ! ان الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها فلقيه فيها دليلان أحدهما عربي فلم يسمع له واتبع الدليل الأعجمي !

واتفقوا في النهاية على وثيقة تعهدوا فيها بتقديم الجزية مقابل الحماية والمنعة ، فان لم يمنعهم فلا شيء عليهم [١] .

وبتحرير الحيرة العربية من ربقة الفرس ، تم للعرب تحرير جنوبي العراق وشمالي الخليج ، واغتنمها خالد فرصة لتوطيد دعائم الحكم هناك ، ولإنقاذ جيش ابن غنم الذي حوصر في دومة الجندل، ولكي يبعث رعبه في قلوب قادة الفرس وحكامهم فقد أنذرهم بهذه الرسالة :

« من خالد بن الوليد إلى ملوك الفرس

« أما بعد ، فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرّق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة [٢] » .

وقد تتابعت هذه الأحداث كلها خلال سنة واحدة ، وكان خالد بن الوليد يقول لجنوده مستهيناً بما تعرض له وإياهم من أخطار :

– ما كان دون فتح فارس من شيء ، انها لسنة كأنها سنة نساء !..

معركة بابل (١٣ هـ ٦٣٤ م)

لم يكن العرب آنذاك يحاربون على جبهة واحدة وإنما على جبهات متعددة، ولم يكونوا ينازلون امبراطورية واحدة وإنما كانوا يناجزون امبراطوريتين كبيرتين

---

١ - تاريخ الجنس العربي ج ٧ ص ٧١

٢ - الطبري ، ج ٣ ص ٥٧١ - ٥٧٢

معاً : فارس والروم . وقد رأى الخليفة أبو بكر أن ينتدب خالد بن الوليد لمهمة فتح الشام وشدّ أزر الجيوش العربية المتجمعة على اليرموك ، فصدع بالأمر ملبياً نداء الخليفة ومعه حوالي عشرة آلاف فارس وهم نصف جيش الفتح في العراق ، بعد ان ترك على قيادة الجيوش المثنى بن حارثة الشيباني .

ولم يكن للمثنى ، على ما تحلى به من بطولة نادرة ومقدرة هـائلة ، دوي اسم خالد وأثره في نفوس العرب والأعداء على حدٍ سواء، ولذا تنفس الفرس الصعداء، وحسبوا ان الرياح مؤاتية لإعادة الكرة على العرب، واجلائهم عن جنوبي العراق، وردهم إلى الصحراء . وقد أسرعوا بتشكيل جيش كبير عهدوا بقيادته إلى هرمز ابن جاذويه أحد مشاهير قوادهم، وبادر هرمز إلى التحرك في اتجاه الحيرة ، ولكن خليفة خالد لم يكن أقل يقظة منه ، فسارع بدوره إلى ملاقاة الأعداء ، واختار بطاح بابل مسرحاً لعمليات الحرب .

وفي الواقع كان المثنى موفقاً في اختيار حلبة القتال ، لأنها تقع في مكان لا يؤخذ فيه على حين غرة ، ويستطيع الانسحاب منه بامان اذا أخفق في الصدام .

وبالتقاء الجيشين ارتفعت الراية العربية على الراية على الفارسية ، وعانى الفرس هزيمة شنعاء وجدّ العرب في اعقابهم على طريق المدائن .

على ان المثنى ، وهو القائد الكفء والسياسي البارع ، كان يدرك ما وراء الفرس من احتياط في العدد ، وما يمتلكون من طاقات لاقبل للعرب بها ، كما كان يعرف من ناحية ثانية واقع العرش الفارسي وما تهب عليه من عواصف «فقد مات الملك شهريار الساساني بعد شهرين فقط من حكمه ، واستمرت المزاحمة على العرش بشدة واشترك في النزاع عناصر جديدة ، فمن جهة واحدة كان آل ساسان يطالبون بالعرش ويرشحون احدى النساء من بيت الملك ، بينما نجد بين الزعماء من يزاحمهم على العرش . وفي فترة قصيرة تناوب على الملك زعيم من غير الاسرة المالكة فقتل غيلة بمؤامرة دبرها اعضاء البيت المالك، فاعتلت العرش «ازرمي دخت» ولم يدم لها الأمر طويلا لأن احـدى بنات الاكاسرة وتدعى بوران استطاعت بفضل قائد الفرس المشهور رستم اعتلاء العرش باسم الوصاية الى حين العثور على رجـل من

الاسرة الساسانية يرضى عليه الاشراف فينصب ملكا [1] » .

ولذلك رأى المثنى أن يشخص بنفسه الى المدينة ، فيشرح للخليفة حقيقة الوضع ويلتمس منه ان يسمح للمرتدين الذين عادوا الى حظيرة الاسلام بالاشتراك في تحرير اراضي السواد ، لا سيما وان الدولة الفارسية على مـــا ذكرنا من التفسخ والتضعضع .

ورغم ان ابا بكر كان على فراش النزع الاخير، فقد وعى الرسالة التي جاءه المثنى من اجلها واستدعى اليه خليفته عمر بن الخطاب والقى عليه تلك الكلمة الذهبية التي إن دلت على شيء فانما تدل على سريان نور العقيـدة في كل ذرة من كيان ذلك الرجل الكبير :

«اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به : اني لأرجو ان اموت من يومي هذا فان انا مت فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرتُ إلى الليل فـلا تصبحنّ حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا يشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله . والله لو أنني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً ! وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحـــاب خالد إلى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم [2] » .

وبالفعل ، كان أبو بكر في اليوم التالي ضجيع التراب برقدته الأبدية ، ومع ذلك كانت راية الجهاد تخفق متهادية فوق الخليفة والقائد ومن يفد من المتطوعين ، وقد وقف المثنى يخطب فيهم قائلاً :

« أيها النـاس ، لا يعظمنّ عليكم هذا الوجه ، فإنّــا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقيّ السواد وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها ان شاء الله ما بعدها » .

---

١ ـــ تاريخ العرب العسكري ، صفحة ٣٣٣

٢ ـــ الطبري ، جـ ٢ ، ص ٦٠٥ – ٦٠٧

وكان أول من انتضى حسامه وسط تلك الموجة العارمة من الحماسة والتوثب الوجداني الديني ، أبو عبيد بن مسعود الثقفي الذي عُقد له لواء الامارة العامة لجيوش الفتح في شمالي العراق ، وسار المثنى تحت رايته ، وحسبه اعتزازاً وفخاراً انه جندي من جنود الفتوح الكبرى .

معركة الجسر الحابطة (١٣ هـ ٦٣٤ م) ومولد القومية العربية

انتهز الفرس تلك الهدنة ما بين العدوين المتربصين المتحفزين ، لإعداد جيش لجب حسن التنظيم والادارة تحت اشراف رستم الذي أطلقت بوران يده على الصعيد العسكري يصنع ما يشاء ويفعل ما يريد ، فشكل جيشاً قوامه ثمانون ألف جندي دعمهم بعشرين فيلاً وعقد لواء قيادته لبهمن جاذويه لما له من خبرة سابقة في حرب العرب .

وسار الجيش العربي باتجاه الجيش الفارسي ، حتى كان أحدهما قبالة الآخر ، في قرية يقال لها « قس الناطف » ، يفصل بينها الشريط المائي الخالد — الفرات — ، إذ كان العرب على ضفته الغربية والفرس على الضفة الشرقية ، وثمة جسر يصل بين الضفتين .

ونادى منادي الفرس بالعرب : « اعبروا الينا أو دعونا نعبر ! » فنصح المثنى قائده أبا عبيد قائلاً له : « ليعبروا الينا ، ودعنا نحارب يحمي ظهورنا متسع الصحراء إن بئنا بالفشل ، وإلا زحمناهم بسيوفنا نرديهم قتلاً أو غرقاً .. » ولكن الثقفي المتحمس أبى أن يكون الفرس أجرأ على الموت من العرب ، وأمر الجند فعبروا النهر إلى الأعداء [1] .

وطلع فجر ذلك اليوم من أيام الخريف على تلك البطاح ، واشتبكت القوات العربية بالجموع الفارسية الحاشدة ، وأبو عبيد يتقدم بالراية فرسانه الصناديد ، وصبر الفريقان لثخين الجراح حتى قبيل الغروب ، وهو يضرب يميناً لينثني يساراً ، حتى

---

١ - الطبري جـ ٢ صفحة ٦٥٨ - ٦٦٠

جندله فيل من الفيلة العشرين ، وتقدم رديفه يحمي الراية ذل الانتكاس فلحق بأبي عبيد وتبعه ستة آخرون يتجندلون صرعى الحمية والاقدام . وكانت وطـأة الحملة شديدة على العرب ، ثقيلة على أبطال الصحراء .

ولما فقد الجيش العربي الآلاف من محاربيه ، لم يسع الباقون إلا طلب النجاة عبوراً على الجسر ، ولكن الهزيمة لم ترق لأحد بني ثقيف واسمه عبدالله بن مزيد ، فأطلقها صيحة مجلجلة : « موتوا على مـا مات به امراؤكم أو تظفروا » وأسرع فقطع الجسر .. فازداد الاضطراب والبلبلة .

وفي هذه اللحظة الحرجة تقدم المثنى وقـد تسلم لواء الامارة ، وحمـل الراية ، وهدّأ روع الناس ، وأعـاد نصب الجسر ، وحمى مؤخرة الجيش العربي بعملية انسحاب بارعة . وكان هذا البطل آخر من عبر الجسر ، ثم قطعه لمنع الفرس من تعقب العرب المنكسرين ، ولكن تحت وطأة جرح بعيد الغور نفذ إلى جنبه من خلال حلقات الدرع !

يقول الجنرال غلوب : « وجدير بنا هنا أن نذكر بأن بدوياً نصرانياً من قبيلة طيء يدعى أبا زبيد كان بين الشجعان القلائل الذين صمدوا إلى جـانب المثنى في تغطيته لحركة انسحاب المسلمين الذين سيطر عليهم الذعر ، ولا ريب في أن حافزه على هذا كان العصبية العربية إذ أن بني جلدته كانوا يحاربون الاجانب الفرس ، ولا ريب في ان الحماس الديني لم يكن هو حافز المثنى أيضاً ، وإنما كانت العصبية العربية ، إذ أن المثنى لم يكن قد اعتنق الاسلام إلا من نحو عام [1] » .

---

١ ـ الفتوحات العربية الكبرى ص ٢٨٦ ، ومما تجدر الاشارة اليه ان المثنى زعيم بني بكر كان يغير على الفرس بغية تحرير سواد العراق قبل الحملات الاسلامية ، وهو الذي طلب الى الخليفة ابي بكر مؤازرته في نضاله القومي . وكان الخليفة قد سمع خبره فقال : « من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » فقال قيس بن عاصم المنقري : « هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني . » ثم قـدم المثنى على ابي بكر فقال له : « يا خليفة رسول الله ، استعملني على من اسلم من قومي لأقاتل هؤلاء الاعاجم من اهل فارس » فكتب له ابو بكر في ذلك عهداً (انظر فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٥٠)

وكانت هذه هي المعركة الأولى التي يمنى فيها العرب بالخسران ، ومع ذلك لم يكن هذا الانكسار إلا حافزاً جديداً للمثنى القائد الشجاع الذي استطاع أن يرد الصاع صاعين للفرس ، بعد أن بعث الرسل إلى من يليه من العرب يستنجدهم على الفرس ، فتوافدوا اليه من كل صوب ، وكان فيمن لبّى نداء الاستغاثة قبيلتا تغلب ونمير اللتان وفد رجالهما في جمع عظيم وهم يقولون : « نقاتل مع قومنا ! »

يقول الجنرال غلوب في ذلك : « وجاءت نجدة جديدة كان لوصولها وقع حسن، من بني نمير وتغلب في شمالي بادية الشام . وكانت هذه القبائل من النصارى يقودها شيخها أنس بن هلال الذي يروى انه قال : ان عليه وعلى قومه ، وإن لم يكونوا من المسلمين ، أن يقاتلوا إلى جانب أبناء عمومتهم [1] »

ونستطيع القول ان القومية العربية إنما ولدت في ذلك اليوم التاريخي ، وان الهزيمة العسكرية في « قس الناطف » قد أدت إلى كسب معنوي عظيم ! ..

معركة البويب (١٤ هـ ٦٣٥ م)

كان الرد الطبيعي لمعركة «جسر الحابطة » معركة البويب وهي احدى ضواحي الكوفة الان ، التي قاد المثنى حركاتها وقد زاد ايمانه بالنصر لما كان يتلقى من نجدات تصله من اعماق الجزيرة ، ومنها قبيلة بجيلة التي اتته من اليمن ، حتى اذا استشعر بقوة العضد بما امتد تحت بصره من قوافل الجهاد ، وافواج العرب النصارى الذين أخذ عامل الجنس والعصبية القومية يتغلبان في اعماقهم على اي حافز آخر ، سار بجموعه هذه نحو الحيرة ، فنهد اليه الفرس بكثيف عددهم .

واراد الفرس تكرار لعبة معركة الجسر ، مخيرّين العرب بين عبور النهر اليهم وتكون المعركة على الضفة الشرقية ، او تركهم يعبرون وتكون المعركة على الضفة الغربية ، ولكن هيهات وكيف يقع المثنى في خطأ حذر أبا عبيد الثقفي مغبته وما زال جرحه ينز في جنبه ؟ . .

---

١ ـ الفتوحات العربية الكبرى ص ٢٨٧

ولم يجد الفرس مناصاً من عبور النهر.. « وقبل ان يبدأ العرب هجومهم استهل الفرس القتال بالتقدم في ثلاثة ارتال وضعوا فيلاً على رأس كل منها وحول الفيل ثلة من المشاة يتولون حمايته ، وكانت الفيلة والمشاة تعمل متعاونة تعاوناً تعبوياً رائعاً تماماً كما يفعل المشاة والدبابات في المعارك الأوربية الأخيرة. وكان من المقرر ان تخترق الفيلة صفوف المسلمين تحت حماية المشاة من قذفات الرماح وضربات السيوف ، وقد رافق تقدم الفرس صخب وضجيج وهتاف وقرع طبل وزمر [1] » .

واشتد أوار القتال ، ولا سيما في القلب حيث عقد نثار النقع كلّـــة سوداء حجبت سماء الحلبة حتى غابت اطراف الاجنحة عن القائد ، والفرس يشددون ضغطهم حيث يصول المثنى ويجول ، ولكن دون أن يستطيعوا زحزحة العرب قيد ذراع من الارض . وعلى حين غرة ، ومن حيث لم يحتسب الأعاجم ، انعطف المثنى بفرسانه على جناح الفرس الأيمن ، متقدماً القبائل العربية المسيحية التي عززت الصفة القومية للمعركة . وفي الوقت نفسه أخذ قائد ميمنة المثنى يضغط على نفس الجناح الفارسي الذي انكشف امام فرسان العرب . وحينئذ اشتد الهجوم العربي بكل ما فيه من طاقات متوهجة على قلب العدو . وما كان اشدها مفاجأة عندما تغلغل غلام تغلبي نصراني نافذاً الى مقر قيادة الفرس ، وعلا بحسامه مفرق قائدهم مهران ، ثم انثنى وهو يرفع عقيرته فخراً ببطولته وانتساباً لقبيلته: انا الغلام التغلبي انا قتلت المرزبان ! . .

وعلى أثر ذلك انهار الدفاع الفارسي انهيار جبل من الثلج ، وكرّ أبنـــاء الأكاسرة يبتغون الجسر طلبـــاً للنجاة ، ولكن المثنى كان أسرع منهم بقطع السبيل اليه ، فتمزقوا في البطاح ، وفرسان الصحراء يتعقبون آثارهم ويجدّون في طلبهم ، حتى بلغ بعضهم « ساباط » القرية من العاصمة المدائن ، وفي مسامعهم يتردد قول مسعود بن حارثة الشيباني شقيق قـــائدهم وهو يجود بروحه : « يا بني بكر .. ارفعوا رايتكم ولا تأسوا لموتي ! .. »

---

١ ـ الفتوحات العربية الكبرى ص ٢٨٨

وقد كانت لأبناء الخليج مشاركة فعالة في معركة « البويب » شأنهم في بقية المعارك التي دارت في هذه المنطقة ، ومنهم عروة بن زيد الذي قال فيها :

هاجت لعُروة دارُ الحي أحزانا — واستبدلَتْ بعد عبد القيس هَمْدَانا
وقد أرانا بهـا والشملُ مجتمعٌ — إذ بالنخيلة قتلى جندُ مِهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم — فقتّلَ القومَ من رجْلٍ ورُكبانا
سما لأجنادِ مهرانٍ وشيعته — حتى أبادهمُ مثنى ووُحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى — مثلَ المثنى الذي من آل شيبانا
إنّ المثنى الأميرُ القرمُ لا كذبٌ — في الحرب أشجعُ من ليث بخفّانا

وجلس المثنى على بساط من الشَعْر في الأرض العراء ، وتحلّق حوله وجوه القبائل يباسطهم الحديث ويعسل لهم القول :

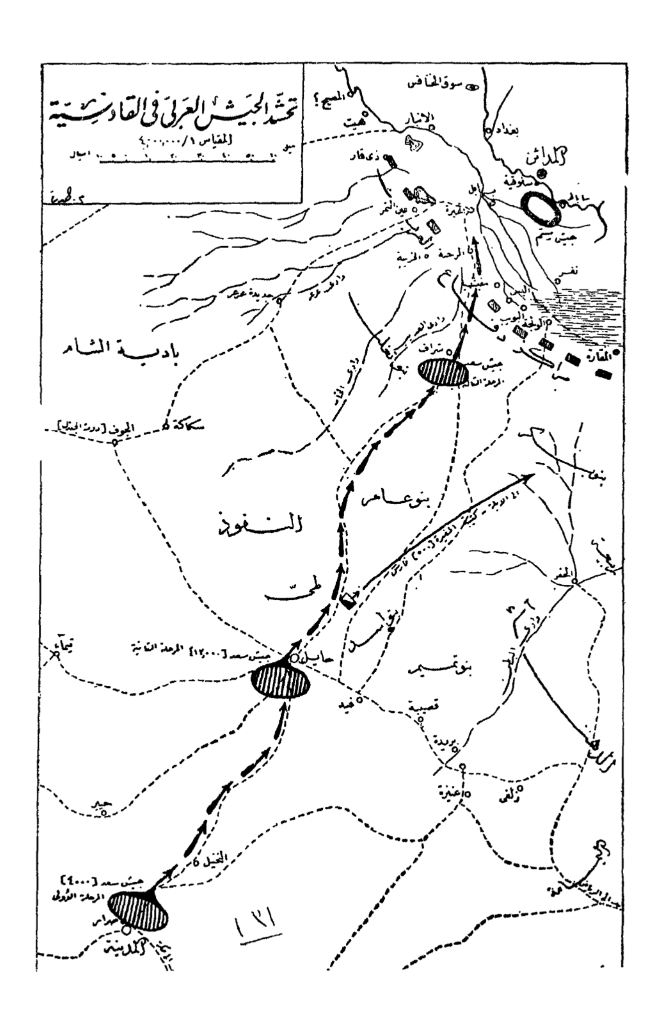
« تناجوا بالبر والتقوى ، ولا تناجوا بالإثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدّروها ثم تكلموا . انه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم . ان للغارات روعات ، تنتشر عليها يوماً إلى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم وأنتم على الجياد وهم على المقاريف البطاء (الخيل غير الأصيلة) ثم تنتهوا إلى معسكركم وجماعتكم . ولو أدركوكم لقاتلتم لاثنتين : التماس الأجر ، ورجاء النصر . فثقوا بالله واحسنوا به الظن ، فقد نصركم الله عليهم في مواطن كثيرة وهم أعدّ منكم .. »

وكانت الأيام حبالى بأحداث جسام ! ..

معركة القادسية (١٦ هـ ٦٣٧ م)

لم يبق الفرس على ما هم عليه من اختلاف وشقاق ، وانما استطاعوا أن يضمدوا نازف جراحهم الداخلية ، ويرفعوا إلى العرش كسرى يزدجرد الذي أبقى رستم قائداً للجيش ، وعهد اليه بتصفية العرب نهائياً في العراق .

وقبل أن يغمض المثنى أجفانه الاغماضة الاخيرة متأثراً بجراحه ، أبلغ دار الخلافة حراجة الموقف لتناقص عدد أفراد الجيش العربي وتزايد قوات الجيش



تحشد الجيش العربي في القادسية
سوق الخافس
بغداد
المدائن
الأنبار
هيت
ذي قار
الحيرة
عين التمر
بادية الشام
سكاكة
الجوف (دومة الجندل)
النفوذ
طيء
بنو عامر
بنو أسد
بنو تميم
شراف
حائل
فيد
قصيبة
بريدة
عنيزة
زلفى
تيماء
النخيل
المدينة
١٢١

الفارسي باستمرار ، طالباً النجدة والمدد .

وثارت الحمية العربية في نفس عمر بن الخطاب وهو يقرأ كتاب المثنى،وأرسلها صرخة مدوية : « والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب » ، وآلى على نفسه أن يقود بذاته معركة الحياة أو الموت مع الفرس،بعد ان يستخلف قاضيه ومستشاره علي بن أبي طالب على المسلمين ، ثم عاد فعدل عن ذلك تحت ضغط كبار الصحابة.

وجلجل النفير العام متردداً في أنحاء الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، في مجمع أجمعت فيه الكلمة على ان يتولى قيادة الجيش الزاحف لتحرير العراق: « الأسد في براثنه ، سعد بن أبي وقاص » .

ووقف عمر بن الخطاب موقف الناصح الرشيد من سعد وهو يشيعه بوداع فيه انفتاح بطاح الجزيرة العربية على عهد الامبراطورية العربية الكبرى :

« يا سعد ، لا يغرنك من الله إن قيل خال رسول الله[1] وصاحب رسول الله. فان الله عزّ وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحوه بالحسن. وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند الله بالطاعة . فانظر الأمر الذي رأيت النبي عليه منذ بُعث إلى ان فارقنا فالزمه فانه الأمر .

« اني قد وليتك حرب العراق ، وانك تَقدم على أمر شديد لا يخلص منه إلا الحق . فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، وعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك . واعلم ان خشية الله تجتمع في أمرين في طاعته واجتناب معصيته . وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامدُه وذامّهُ في الحق سواء ، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس فلا تزهد في التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم ، وان الله إذا أحب عبداً حبّبه وإذا أبغض عبداً بغّضه ، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس[2] » .

---

١ – سعد من بني زهرة وأم النبي من هذا البطن .

٢ – تاريخ الجنس العربي ، ج ٧ ، ص ١٥٥

ونهد سعد بن أبي وقاص للمهمة التي أسندت اليه قائماً باعبائها خير قيام ، وكان أول ما عمله انه قام بتطهير المنطقة من الحاميات الفارسية التي توزعت فيها ، وتأديب المنتقضين على الحكم العربي .

وانهمك كل من الخصمين في إعـــداد العدة لخوض غمار المعركة المصيرية ، ووقف التاريخ حابساً انفاسه في بطاح القادسية . .

وبناء على اوامر الخليفة ، وقبل الدخول في المعركة ، أرسل ابن أبي وقاص وفداً الى الملك الفارسي يزدجرد الثالث برئاسة الصحابي النعمان بن مقرن ليفاوضه على احد شروط ثلاثة : الدخول في الاسلام ، او دفع الجزية وإلا فالحرب ! وقد أخذت الملك الشاب العزّة ، لتجرؤ ذئاب الصحراء على ملكه ، ورد على المفاوضين العرب اسوأ رد :

لولا ان الرسل لم تقتل لقتلتكم . . لا شيء عندي . . ارجعوا الى صاحبـــكم فاعلموه اني مرسل اليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم اورده بلادكم حتى اشغلكم في انفسكم باشد مما نالكم من سابور »

وكان هذا الملك الشاب المتقد حماسة يستعجل كبير قواده ليضرب العرب الضربة القاصمة في القادسية ، ثم يزحف بجيشه الى الجزيرة العربية ويدفن الحـــلم الاسلامي في غمار الرمال ، في حين كان من رأي القائد الـــدهاء العرب وانهاكهم بالحروب الجانبية الصغيرة ، ثم جرّهم الى معركة مصيرية . وقد وصف رستم العرب بقوله : «صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت ! » فأجابه الملك بقـــوله : «ليس الامر ما تقول . انما مَثَلهُم ومَثَل أهل فارس كمَثَل عقاب أوفى على جبل يأوي اليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في اوكارها . فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها ، فان شذ منها شيء اختطفه فلو نهضت واحدة ردته . وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها لا واحداً منها ، وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت ، فهذا مَثَلهم ومثل الاعاجم ، فاعمل على قدر ذلك [1] »

---

١ – تاريخ العرب العسكري ، ص ٣٦٤

وقد عمل رستم على تأخير موعد المعركة ، فاتحاً هو بدوره باب المفاوضة مع سعد، في حين كانت كتائب العرب ما تفتأ تكر بالغزوة تلو الغزوة على الأراضي الفارسية ، يتخطفون الأرزاق والمواشي ويحققون الانتصارات السريعة ، مما أدخل الفزع والهلع في قلوب سكان الحدود .

ونفد صبر كسرى يزدجرد فكتب إلى رستم يستعجله لقـــاء العرب ، وقد أصبح تحت إمرته جيش عدته مائة وعشرون ألف محارب ما بين خيال وراجل ، تدعمهم فصيلة من الفيلة .

وتقدم الجيش الفارسي حتى صار قبالة سهل القادسية لا يفصله عن جيش العرب غير رافد الفرات : نهر العتيق . وحاول رستم أن يجر العرب إلى عبور النهر مؤملاً أن يجدد لهم مأساة معركة الجسر ، ولكن العرب المتعظين بالكارثة السابقة أبوا إلا ان تكون الصحراء وراء ظهورهم والنهر وراء ظهور الفرس ، ولم يرَ هؤلاء بدأ من عبور الماء للقاء العرب .

وألقى سعد نظرة على جموع الفرس الكثيفة التي غطت السهل ، فلم يطرف له جفن أو يخالطه ظل من شك في مغبة المعركة ، وإنما وقف يتلو الآية الكريمة :

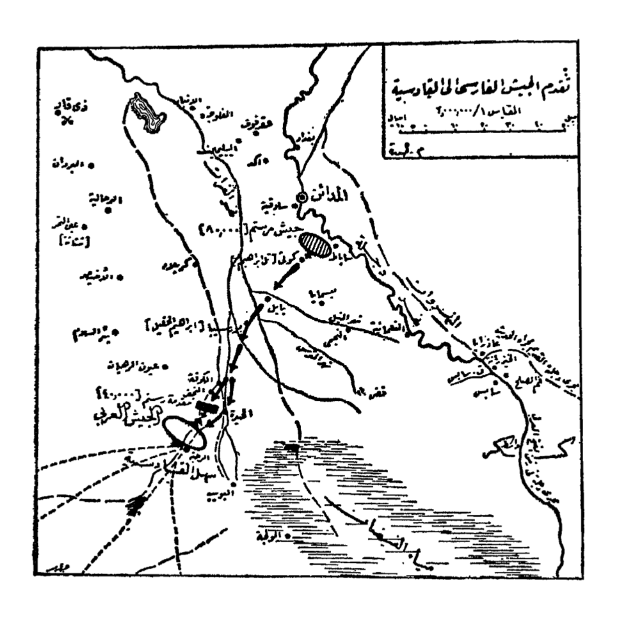
« يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفـــاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون [1] » .

ونهد الأبطال للأبطال بمبارزات فردية ، ثم كان الصدام العام ، وسعد بن أبي وقاص الذي أقعده المرض عن القتال، يدير المعركة من مقره الذي اتخذه في مكان مرتفع يستطيع أن يشرف منه على الميدان ، وأن يوجه حركات جيشه برقاع كان يرسلها إلى مساعديه من قادة الجيش [2]. وعلى الرغم من بروز الفيلة لأرض المعركة تهدر مزمجرةً ملوحة بخراطيمها ، والقـــادة الفرس يدفعونها إلى خطوط العرب الأمامية ، ونكوص الخيل عن لقائها ، فقد عرف أبطال الصحراء كيف يصبرون

---

١ – سورة الأنفال ، الآية ٦٥

٢ – الفتوحات العربية الكبرى ، ص ٣٣٧


تقدم الجيش الفارسي الى القادسية
المدائن
الجيش العربي

على البلاء ، وقام بنو أسد القبيلة المرتدة سابقاً بقسط وافر من لقاء الفيلة صامدين في أرض المعركة أمام تلك الجبال المتحركة، لا يرضون لأنفسهم النكوص وقد بلغ عدد قتلاهم خمسمائة شهيداً، إلى أن خف بنو تميم لرمي الفيلة بنافذ نبالهم ومواجهتها بشفرات سيوفهم ، فارتدت على أعقابها تزلزل الصفوف التي برزت منها . ومع ذلك غابت شمس ذلك اليوم ، ويدعى «يوم ارماث» ، عن رجحان كفة الفرس .

وهلّ اليوم الثاني مشرقة شمسه عن غرر الخيول العربية التي اطلت بنواصيها على بطحاء القادسية قادمة من ديار الشام ، يقودها البطل القعقاع بن عمرو ، وعدتها ستة آلاف مجاهد ، ولكن البطل المحنك استطاع بفطرته السليمة ونظرته العسكرية النافذة ، أن يقوم بمناورة يوهم بها العدو بأنه يقود جيشاً كثيفاً لكثرة ما أثار من نقع ، مقترباً من أرض المعركة وقد مدّ جنوده مداً مباعـــداً ما بين صفوفهم ، وبقدر ما أدخل ذلك من ذعر في قلوب الفرس شدّ من معنويات العرب . وعلى الرغم من ان هذا البطل قد وصل القادسية وهو في حـالة قريبة من الانهاك ، فقد روّى رمحه وأعمل سيفه بثلاثين كرّة متتالية على صفوف الفرس ، حتى لكأن الخليفة أبا بكر كان يقرأ ظهر الغيب حين قال فيه كلمته الشهيرة: «لا يُهزم جيش فيه مثل هذا !» ويكفي هذا الصنديد فخراً انه قتل في احدى كرّاته بطل الفرس في معركة الجسر : بهمن جاذويه .

وانبرى من صفوف العرب فارس من بني تميم ، يطلب الشهادة جاداً بطلبـــه رأس رستم مباشرة، وراح هذا المغوار يفري الصفوف فرياً بحد حسامه ، ولكنه استشهد دون هذه الغاية ، مسطّراً بدمه أروع مثل لمعنى الجندي المجهول .

وزادت وطأة العرب على الفرس حين دفعوا إلى أرض المعركة بثلة من الهجانة الذين اعتلوا جمالهم وقد جللوها وبرقعوها بشكل أدخـــل الفزع والهلع في نفوس فرسان الفرس فارتدوا ناكصين على أعقابهم ، تعمل في أقفيتهم السيوف العربية ، إلا ان كتائب الفرس المشاة ردّت المنهزمين إلى حلبة هذا الصراع العنيف الدائر على عجلة الموت الذي ظل يتخطف الأرواح حتى قبيل منتصف الليل ، وكفة العرب هي الراجحة . وسمي هذا اليوم «يوم أغواث»، ونام أبطال الصحراء على الأهازيج

والحداء .

وانبلج صباح اليوم الثالث وحمحمات الخيول العربية القادمة من الشام قد اكتملت عدتها في بطاح القادسية ، مما زاد الثقة يقيناً والعزيمة تصميماً في نفوس المجاهدين الصامدين الصابرين ، إلا ان بروز فصيلة الفيلة الفارسية من جديد إلى أرض المعركة ، أدخل البلبلة في الصفوف العربية ، ورأى سعد ذلك بعينه اليقظة الملمة بأطراف الميدان ، فأنفذ أمره إلى القعقاع وعاصم بن عمرو وغيرهما من جنود الموت ، فشدّوا على متقدم الفيلة يرمون عيونها بالنبال ويجدعون خراطيمها بالسيوف ، وأبلى مغاوير العرب خير بلاء بحملة مركزة على فيلة الطليعة فدارت على نفسها ثائرة مزمجرة تطأ من يعترض سبيلها طالبة نهر العقيق تتبعها سائر الفيلة ، وهي تدوس مشاة الفرس ، بينما تقدم مشاة العرب ليلعبوا دورهم الجدي في ادارة كؤوس الحمام يحمي الفرسان اجنحتهم ويدعمونهم بقتال عنيف . ورغم هبوط الليل ، فقد دفع القعقاع بكتيبته الى قلب الجيش الفارسي تتبعه بقية الجيش العربي ، ومثال الشجاعة لا بد ان يلقى التجاوب في قلوب الشجعان ، ورحمة القافية على نبي الشعر القتيل أبي الطيّب القائل :

ان السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهن اذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده مثل الجبان بكفّ كل جبان

وكانت ليلة اليوم الثالث من المعركة ، ويدعى «يوم غماس» من اشد ما عرف تاريخ الحروب هولاً ، إذ أفلت زمام الأمر من يدي سعد ورستم على السواء ، «والكل ينتظر الصبح بفارغ الصبر ليعرفوا نتيجة هذه المعركة الفاصلة في تاريخ الأمتين [1] » .

ويقول الاستاذ محمود الدرة: «ان الهجوم الليلي الذي قام به القعقاع كان الأول من نوعه ، ولم يعرف العرب حتى ولا الجيوش المتجاربة في ذلك الزمان ، مثل هذا النوع من الحروب ، ومن رأيي ان هذا الهجوم هو الذي بلور تقرير مصير المعركة [2]»

---

١ و ٢ - تاريخ العرب العسكري ص ٣٧٥

والى رأي هذه الشخصية العسكرية العربية ، نضيف رأي شخصية عسكرية غير عربية هو جون باجوت غلوب الذي قال : «نحن لا نشك في ان جيش كسرى كان أحسن تدريباً من جنود العرب . فالمعركة الليلية بالنسبة الى الجنود النظاميين الذين ألفوا القتال في صفوف منظمة متقاربة ، وعلى ضوء ما يتلقونه من أوامر مستمرة من قادتهم ، شيء دقيق متعب إذ ان الأفراد من الجنود، يفقدون الاتصال بزملائهم ، وتصبح الوحدات معزولة عن قياداتها ، ويصبح كل انسان مسؤولاً عن نفسه في مثل هذه الظروف . وتغدو جماعة من المتحمسين اللا منضبطين ، يصرخون ويضربون بسيوفهم ، ويندفعون برماحهم ، أقدر على القتال من رجال مترددين ينتظرون الأوامر من قادتهم [1] »

وأياً كان التعليل ، فنحن من رأي الاستاذ الدرة في ان هذا الهجوم هو الذي بلور تقرير مصير المعركة ، وقد سميت هذه الليلة الرهيبة «ليلة الهرير» .

واشرق اليوم الرابع على المعركة التي خضبتها دماء ثلاثين الف قتيل من الفرس ورغم ان الجنود العرب كانوا في حالة الاعياء ، فقد لبوا النداء الذي أطلقه القعقاع وصبروا على مواصلة القتال ، وأخذت تتألف الكتائب المبايعة على الموت ، وشدّوا على الفرس بحدوهم الأمل باجتناء ثمرات النصر الدانية القطوف . ووضع الفرسان العرب ثقلهم في الهجوم على القلب الفارسي المتزعزع المضطرب المتردي في حمأة الهلع والفزع بما لم يعرفوا من ضروب القتال ، وأسرعت كوكبة من أجرأ الفرسان العرب وأشجعهم ، مهتبلةّ فرصة تفكك الجيش الفارسي وتمزقه ،تطلب رأس رستم !

وما هي الا لحظات حتى اهتدى احد افراد البدو المغمورين المجهولين ويدعى هلال علفة ، الى قائد الجيوش الامبراطورية في زريبة للحيوانات . . ويجدّ البدوي في اثر القائد العظيم ، فيلقي هذا بنفسه في نهر العتيق ، ويتعقبه ابن الصحراء سباحة حتى اذا امسكه من رجله اعتلى هامته بالسيف ، وهو يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة ! . .

---

١ – الفتوحات العربية الكبرى ، ص ٣٤٣



معركة القادسية

وتهب عاصفة تلف بطياتها مقر قيادة الفرس العام . . وينطلق ابناء الأكاسرة وهم لا يعرفون ايّ سبيل يطلبون للنجاة يتعقبهم اسود البيداء مسجلين اليوم الحاسم من تاريخ انهيار الامبراطورية الساسانية .

ويقف عمر في ظاهر المدينة يترقب ، وقلبه رهن اشارة من قائد جيوش وأبطال القادسية ، حتى لاح له من بعد هجّان قادم من سواد العرق ، فسأله عن اخبـــار المعركة ، فرد عليه الرسول المجدّ بخببه بقوله : « هزم الله العـــدو » فيستزيده الخليفة أنباء وتفصيلاً ، والرجل مشغول عنه يعدو بناقته والخليفة يخب معه ، حتى اذا دخلا مدينة رسول الله ، بهت الرجل إذ رأى الناس يسلمّون على عمر بالخلافة ، فقال : «هلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين» فقال عمر : «لا عليك يا اخي » واستلم منه رسالة سعد وفيها يقول :

« أما بعد،فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدّة لم يرَ الرائون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبَهَمَوه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتـّبعهم المسلمون على الأنهار على طفوف الآجام وفي الفجاج . وأصيب من المسلمين ... ورجـــال من المسلمين لا نعلمهم ، الله أعلم بهم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دويّ النحل وهم آساد الناس لا تشبههم الأسود ، ولم يفضـل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب له ! [1] »

معركة المدائن (١٦ هـ ٦٣٧ م)

كانت معركة القادسية كما يقول الاستاذ محمود الدرة معركة مصيرية بين أمتين ، لأنها كانت نذير الشؤم للفرس بقرب انهيار امبراطوريتهم انهيـــاراً تاماً وإلحاقها بالامبراطورية العربية الكبرى .

أما جون باجوت غلوب فيقول : « كانت معركة القادسية مميتة بالنسبة للحكم

---

١ - تاريخ العرب العسكري ، ص ٣٨٠

الفارسي في العراق ، تماماً كما كانت معركة اليرموك مميتة للحكم البيزنطي في سوريا. وتمكن الجفاة من أبناء القبائل العربية ، الصلبو العود ، من تحطيم الجيش الفارسي الذي كان لعشر سنوات خلت يقرع أبواب القسطنطينية ، تحطيماً لن تقوم له قائمة بعـــده . وأدى مصرع رستم إلى زيادة اليأس والاضطراب . ولم يكن في مكنة الملك الشاب يزدجرد ، الذي كان قد بلغ الآن الحادية والعشرين من عمره، أن يدبر أمر مثل هذه الازمة الخطيرة وحيداً ، لافتقاره إلى التجربة ، يضاف إلى هذا ان البلاد كانت قد ألفت التطلع إلى رستم ، الديكتاتور العجوز والسياسي المختفي وراء العرش ، والنظر اليه على انه دعامة العرش . أما وقد أضحى الآن في عداد الموتى ، فلم يبق هناك رجل يحوز من الكفاية ما يمكّنه من السيطرة على العاصفة العاتية [1] »

وفي الواقع ، لم يكد ينجلي نقع معركة القادسية حتى تتالت هزائم الفرس وانتصارات العرب الذين تمكنوا دون عناء من استرجاع الحيرة ، ثم اخذوا بالزحف شطر المدائن عاصمة كسرى نفسها، وفي طريقهم الى تلك الغاية احتلوا مدينة «بابل» زعيمة مدن التاريخ القديم في تلك المنطقة ، « و كوثى » مهد ابوهيم الخليل ، و «ساباط» .

---

١ ـ الفتوحات العربية الكبرى ، ص ٣٤٦-٣٤٧ ، ولا يفوتنا ان نلاحظ ان رأي مؤلف « تاريخ العرب العسكري » مغاير كل المغايرة لرأي صاحب « الفتوحات العربية الكبرى » حول شخصية رستم ، فبينما يبدي الجنرال كلوب اعجابه الشديد بالقائد الفارسي ، يرى الاستاذ الدرة ان وجود هذه الشخصية كان من اسباب انهيار الامبراطورية فيقول : « والحقيقة ان رستم هذا الذي يبالغ مؤرخو الفرس في عظمته ودهائه ومقدرته على قيادة الجيوش، لم يكن مثلما يدعون ، وان لتصرفاته اثراً كبيراً في تقرير مصير جيشه ومصير الامبراطورية ذاتها » ويقول في موضع آخر : « والغريب من امر هذا القائد انه لم يحاول القيام بأي عمل عسكري تنفيذاً لما ابداه الملك من رأي صائب ، حتى ولا اشتبكت مقدمته السوقية في قتال عدوها مع انها تفوقه بالكم والكيف . ولعل لانشغال بال رستم بالهواجس النـــاشئة عن مفاوضاته مع وفود العرب ، ولكونه منجماً خصب الخيال كثير التفكير بتفسير احلامه المزعجة اثراً بارزاً في خوله الذي اعتراه الخ ... » ص ٣٦٩

وكانت العاصمة الفارسية شطرين ، أو على الأصح مدينتين : «بهر سير» ويدعوها العرب «المدائن الصغرى» وهي مدينة هيلينية مقدونية الاصل بناها أحد ورثة الاسكندر وتقع على الضفة الغربية لدجلة ، و«كتسيفون» ويدعوها العرب «المدائن القصوى» وتقوم على الضفة الشرقية من دجلة على مقربة من موقع بغداد اليوم [1] وقد اتخذها الملوك الأكاسرة عاصمة لهم وفيها اغلب مؤسساتهم الحكومية .

واستهدف سعد أول ما استهدف «المدائن الصغرى» وألقى عليها الحصار، وان كان طرفها الشرقي ظل في مأمن تحرسه مياه النهر ، وارتفع عدد من المجانيق تجاه الاسوار جاء بها نفر من الفرس الذين اعتنقوا الاسلام،فدعمت قوة الجيش المحاصر. وفي هذه الاثناء عرض يزدجرد الثالث على سعد اخلاء «بهر سير» على ان تكون الخط الفاصل ما بين مملكتي العرب والفرس ، فردّ سعد وقد استشعر ضعف الامبراطور الفارسي على ذلك الطلب بالرفض القاطع ، وشدد الجيش العربي الحصار على المدينة حتى اكل الناس فيها الهررة والكلاب .

وفي حركة انتحارية يائسة خرج الفرس ذات يوم من المدينة لمواجهة العرب ، فتلقوهم تلقي الواثق من النصر في معركة لم يطل امدها ، وارتد الفرس على اعقابهم مدحورين ، ولم يكن ذلك بغريب على العرب وقد اعتادوا النصر ، ولكن المفاجأة التي كانت تنتظرهم انهم نظروا الى الأسوار فلم يجدوا حامية فيها . .

وتدفق سيل الفتح على المدينة التي جمعت فخار اليونان إلى أمجاد الفرس ، وتطلع العرب منها إلى الضفة الشرقية حيث ما زال كسرى مقيماً على عرشه يحكم امبراطورية ما زالت تمتد حتى السند ، لكنها أوهى من أن تتلقى ضربة صادقة من ضربات العرب ، وها هو الامبراطور قد بدأ يفكر بمصيره الذاتي ومصير أسرته وكنوزه ، ولم يطل الأمر إلا أسابيع قليلة حتى كانت الاسرة الامبراطورية قد انتقلت إلى حلوان عند سفوح جبال زغروس ، ثم تبعها يزدجرد نفسه وقد ترك أمر الدفاع عن العاصمة لقائده مهران .

---

١ - تاريخ الجنس العربي ، ج ٧ ، ص ١٥٦

ولم يطل وقوف العرب وراء دجلة عند شطه الغربي ، وإنما أخذوا يرسمون الخطة لاجتيازه ، وانبرت سرية من الفدائيين لاقامة رأس جسر على النهر ، وتبعتها كوكبة من الفرسان عدتها ستمائة فارس متبايعين على الموت ، يقودهم عاصم بن عمرو ، وتبعت هؤلاء كتيبة بقيادة القعقاع بن عمرو ومن خلفهم بقية الجيش ، واقتحموا النهر جميعاً يجلجل في مسامعهم قول قائدهم الأعلى : « ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليهم معه ، وهم يخلصون اليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تأتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذواتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحركم الدنيا الا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم »

وقد حاول الفرس صد الهجوم برماحهم ، ولكن على غير طائل ، إذ ان النبال العربية كانت أسرع إلى مقاتل الفرس . وما هي إلا ساعات حتى زُحم الشاطىء الشرقي من دجلة بسواد الجيوش العربية ، ولم تستطع القوات الفارسية أن تبدي أية مقاومة فعلية لأنها أخذت على حين غرة ، وسارع السكان لاخلاء المدينة ناجين بأنفسهم أسوة بامبراطورهم الفار .

ودخلت الجيوش العربية عاصمة الامبراطورية عزيزة قوية ، ظافرة غانمة . وسرعان ما بدأت بتطهير بقية الديار العراقية ، وملاحقة فلول الجيوش الفارسية الهاربة ، والتحفز لمناجزة يزدجرد الذي فرّ إلى حلوان وأخذ يجيّش الجيوش استعداداً للانتقام .

وكانت أضرى المعارك التي خاضها الجيش العربي مع القوات الفارسية في سبيل تحرير العراق هي معركة جلولاء التي ضارعت في نتائجها معركة القادسية ، وكان عَلَم أعلامها من أبطال العرب القعقاع بن عمرو الذي لعب في هذه المعركة الدور الذي مثله في القادسية ، وبلغ قتلى الفرس حسب تقدير الطبري مائة الف قتيل،وسميت بجلولاء لما جلل ساحة المعركة من جثث،ولم ينقض عام ١٧هـ٦٣٨م إلا وكانت كافة أراضي بلاد الرافدين قد حررت وخفقت عليها رايات الاسلام ،

وأسست فيها المؤسسات الاسلامية تدير مرافق الحياة حسب شرعة الدين الحنيف من عدل ومساواة وخير يعود على العرب أجمعين .

معارك البصرة والاهواز

بينما كانت تدور رحى معركة المدائن في منطقة العراق الوسطى ومعارك تحرير شمالي العراق ، كان اهتمام العرب ـ لضمان خطوط مؤخرتهم بشكل كامل ـ منصرفاً إلى منطقة البصرة التي حاول الفرس أن يستعيدوا نفوذهم فيها لانشغال معظم الجيوش العربية في القتال في وسط العراق وشماله .

وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى هذه المنطقة عتبة بن غزوان المازني أحد صحابة الرسول ، وجعل في رأس مهامه إجلاء الفرس عن تلك الديار ، وإرجاعها إلى الحظيرة العربية ، ومشاغلة الفرس عن نجدة بني جلدتهم في المعارك الناشبة في مناطق الوسط والشمال ، كما يتبين من نصيحة الخليفة لقائده وهو يودعه :

« يا عتبة ! ان اخوانك من المسلمين قد غلـّبوا على الحيرة وما يليها ، وعبرت خيلهم الفرات حتى وطئت بابل ، وان خيلهم اليوم لتُغير حتى تشارف المدائن ، وقد بعثتك في هذا الجيش فاقصد قصد أهل الأهواز فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدوا أصحابهم بناحية السواد على اخوانكم الذين هناك وقاتلهم مما يلي الأبُلـّة [1] »

وقد استطاع القائد الصحابي أن ينفذ أوامر الخليفة وتعاليمه تنفيذاً مبدعاً كما نستدل على ذلك من رسالته التي بعث بها إلى دار الخلافة :

« أما بعد فان الله ، ولله الحمد ، فتح علينا الأبُلة وهي مرقى سفن البحر من عُمان والبحرين وفارس والهند والصين ، وأغنـَمنا ذهبهم وفضتهم وذراريهم ، وأنا كاتب اليك ببيان ذلك ان شاء الله [2] »

وهكذا استطاع عتبة انطلاقاً من مركزه في الأبـلة أن يقضي على النجدات الفارسية التي كانت تهم بالاشتراك في المعارك الحاسمة الناشبة في الوسط والشمال ،

---

١ و ٢ ـ الاخبار الطوال ص ١١٦ ـ ١١٧

وذلك باستدراجها وإرغامها على الدخول في معارك كان يكتب له النجاح فيها .

ولكن حدث بعد معركة بابل أن فرّ أحد قادة الفرس واسمه الهرمزان ، وجعل وجهته الأهواز حيث تقطن عشيرته ، واستطاع بما له من نفوذ هناك أن يشكل جيشاً جعل يغير به على منطقة البصرة ، ليضطلع بالنسبة إلى الفرس بدور عتبة ، أي التخفيف عن القوى الفارسية المحاربة في الشمال .

ولما شعر عتبة بوطأة الهرمزان عليه ، سارع بطلب النجدة من القائد العام في العراق : سعد بن أبي وقاص ، فأمدّه برتلين اثنين أحدهما بقيادة نعيم بن مسعود والآخر بقيادة نعيم بن مقرن . وقد استطاع هذان الرتلان مع رتل البصرة ، ومؤازرة القبائل العربية التي كانت تقطن منطقة الأهواز قبل الاسلام وعلى رأسها غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي ، دحر جيش الهرمزان فاضطر هذا للتراجع إلى سوق الأهواز التي اتخذ منها مركزاً لقواه العسكرية ، وشكّل على رقبة جسر قائم على نهر دجيل ، حاميةً تذود الجيوش العربية وتمنعها من العبور اليه .

ولما أخفق الهرمزان في الميدان العسكري ،أخذ يعمل على الصعيد الديبلوماسي ، ودارت ما بينه وبين عتبة مفاوضات أقرّ فيها بسيادة العرب على سوق الأهواز ومنطقتي مناذر ونهر تيري ، حيث أخذت القبائل العربية تنساح فيها بناء على أوامر الخليفة .

ولكن ما كاد القائد الفارسي يسترد أنفاسه حتى جعل يحرض الفلاحين على العرب ، ولما آنس في نفسه القدرة على منازلتهم نقض عهده وهاجم غدراً إحدى المناطق العربية ، فكاتب عتبة الخليفة عمر بن الخطاب فأمدّه بجيش على رأسه حرقوص بن زهير ، وأصدر أمره لقائده بضرورة كسر شوكة الهرمزان .

ودارت رحى معركة حاسمة ما بين الجيشين على جسر سوق الأهواز ، أسفرت عن اندحار الجيش الفارسي اندحاراً كاملاً ، وتقدم الجيش العربي المنتصر نصراً مؤزراً يتعقب الجيش المنهزم ، وقد فتح في طريقه مدينة « تستر » متابعاً اللحاق بالهرمزان الذي التجأ إلى مدينة هرمز وتحصن بها ، وأنشأ يفاوض العرب من جديد على الصلح ، فأقرّوه على ما بيده بناء على موافقة الخليفة .

وتداول على ولاية البصرة بعد عتبة كل مـــن المغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري ، فرأى الهرمزان الفرصة مؤاتية لنقض العهد مرة أخرى ورأى ابو موسى ان من واجبه تصفية حساب الهرمزان تصفية نهائية ، فطفق يصاول القائد الفارسي ويجاوله ، وخلال تعقبه له أطبق على مدينة «سوس» الستراتيجية محاصراً اياها ، فبعث يزدجرد أحد قواده ويدعى سياه الأسواري ليساعد على فك الحصار عن المدينة ولكن ما ان احتك هذا القائد بالقوات العربية حتى ادرك انه لاقبل للجيوش الفارسية بوقف المد العربي لما يحمل المحاربون المسلمون في اعماقهم من قوى روحية خارقة ، فداخلت مهابة الحق قلبَ الرجل وفاوض ابا موسى على اعتناق الاسلام والحرب تحت رايته ، وقبل أبو موسى طلب سياه ، وهكذا اصبـــح الفارسي يحارب الفارسي تحت الراية العربية ، ولم تصمد مدينة سوس فاستسلمت للجيش العربي ، وتابع هذا الجيش زحفه فافتتح مدينة «رام هرمز» ، وانطلقوا منها الى مدينة «تستر» التي تداولتها الأيدي غير مرة ، وقد جعل منهـــا الهرمزان حصناً له .

وضرب الجيش العربي الحصار على تستر وطلب في الوقت نفسه النجدة من دار الخلافة فأمدته بكتيبة من جيش سعد بن ابي وقاص بقيادة جرير بن عبدالله البجلي أحد أبطال القادسية والبويب . ولما ضاقت الحال بالفرس وراء اسوارهم لم يجـدوا مناصاً من الخروج لملاقاة العرب ، فدارت بـين الفريقين معركة شديدة الضراوة انكفأ الفرس على اثرها الى الخنادق والعرب يقتحمونها عليهم ويعلون هاماتهم بالسيوف .

وفي ليلة ضريرة النجم ، سار فارسي بمائتين وأربعين من مغاوير العرب الى قلب المدينة المحاصَرَة عبر طريق سري ولم يهل فجر اليوم التالي إلا وكانت صيـــحة «الله اكبر» تتعالى فوق اسوار المدينة .

اما الهرمزان المكافح العنيد والمقاتل اليائس ، فقد اعتصم بقلعة المدينة ، ثم بعث يفاوض ابا موسى على التسليم شرط ان ينظـــر الخليفة في أمره ، فاجيب

إلى طلبه وبعث به إلى المدينة ، حيث اشترى حياته بحيلة بارعة [1] .

عرب الخليج يركبون البحر ويقتحمون منطقة اصطخر

كان عمر بن الخطاب قد عزل في أول عهده الصحابي العلاء الحضرمي عن ولاية البحرين ثم أعاده اليها .

ولما تناهت للعلاء أنباء فتوح سعد بن أبي وقاص، وما أسدى للعرب والمسلمين من يد بيضاء ، نَفَسَ على سعد هـذه المكانة وطمح إلى أن يكون له دوره هو أيضاً في الفتوحات العربية في بلاد فارس .

وبمبادرة ذاتية ، ودون إذن الخليفة أو علمه ، ركب العلاء البحر وعبر بجنوده إلى مقاطعة اصطخر ، التي يسميها الغربيون بيرسوبوليس ، وكان عليها والٍ يدعى الهربذا وقد استطاع بما أوتي من حيلة ودهاء أن يضع يده على سائر قطع الاسطول العربي .

ولم يتردد العلاء أو يضطرب لخطورة الموقف ، وكان إلى جانبه خليد بن المنذر ابن ملك البحرين السابق الذي لبى دعوة الرسول إلى الاسلام ، وهو يتمتع بمنزلة عالية في نفوس البحرانيين ، وقد استطاع بموقفه الجريء أن يعدل الكفة لمصلحة العرب ، إذ وقف يخطب فيهم قائلاً :

« ان هؤلاء لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم ، وإنما جئتم لذلك ، والسفن والأرض لمن غلب ، واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين !.. »

---

١ ـ روى الطبري ان الهرمزان لما دخل مجلس عمر وأنشأ الخليفة يقرعه على نقضه العهد المرة بعد المرة ، طلب ماء فأتي به ، فقال : « اني خائف ان اقتل وانا اشرب الماء » فقال عمر : « لا بأس عليك فلا تقتل حتى تشرب » وحينئذ أراق الماء وقال : « انا اردت ان استأمن » فقال له عمر : « اني قاتلك » فقال : « لقد أمنتني » فقال : « كذبت » فقال انس بن مالك وكان حاضراً : « صدق يا امير المؤمنين » فاقبل على الهرمزان يقول له : « لقد خدعتني ، والله لا انخدع الا لمسلم » فأسلم .

ودبت الحمية في النفوس التي نذرت نفسها للجهاد ورفع راية التوحيد ، وصاول المجاهدون أعداءهم ولكنهم لم يستطيعوا إلى كسر شوكتهم سبيلاً ، فعسكروا بحيث يكونون في مأمن ، ريثما يأتيهم المدد من دار الخلافة ، ومدّ عمر بن الخطاب أولئك الجند الذين قُطعوا في أرض العـــدو ، بجيش على رأسه عتبة بن غزوان فنازل الهربذا وحطم عنفوانه .

وأما العلاء الذي نَفَّس على سعد بن أبي وقاص مجده ، فكان جزاؤه العزل والعمل تحت إمرة وقيادة سعد .

تصفية الامبراطورية الفارسية

لم يكن من أهداف عمر بن الخطاب تصفية الامبراطورية الفارسية ، تدل على ذلك موافقته المتكررة على طلب الصلح كلما تقدم به الهرمزان بعد نكول سابق . ولا ريب في ان العرب كانوا يعتقدون بأن بلاد الفرس إنما تقع إلى الشرق مـن جبال زاغروس ، أما ما وقع في غربها فهو مـن أراضي العرب الـتي يسعون إلى تحريرها بدليل ان معظم سكانها من العرب . وقد انتهى تحرير هذه الأراضي بفتح المدائن وجلولاء في الشمال ومنطقة الاهواز في الجنوب، ولكن الأحداث المتلاحقة فرضت على العرب ان يخوضوا مع الفرس حروبـــاً متواصلة حتى قضوا على امبراطوريتهم القضاء النهائي ، ذلك لأن الامبراطورية العجوز ، رغم الجراح العميقة التي أصيبت بها ، ورغم هزائم جيوشها المتلاحقة كلما نازلت القوى العربية الزاحفة قدماً، فتحاً وانتصاراً، أو المتأهبة بحالة الدفاع منعة واقتداراً، كانت ترفض بعناد وإصرار التسليم بهزيمتهـــا ، مستفيدة من ذلك النبع البشري الثر الذي يمد جيوشها بوقود المعارك .

ويبدو ان يزدجرد الشباب قد فولذت الاحداث أعصابه وصقلت شخصيته ، وكانت عصبيته الساسانية تصور له أن من الكبائر أن تخضع فارس ذات العظمة والأمجاد «لرعاة الابل» ، وقد ظلت هذه الفكرة تسري في دماء أهل فارس حتى بعد أن انضووا تحت الراية الاسلامية وآمنوا بالرسالة المحمدية وعبر عنها الادب

الشعوبي خير تعبير ابتداء من ابي نواس شاعر الرشيد وأحد امراء البيان العربي القائل «ليس الاعاريب عند الله من احد ! » الى الفردوسي صاحب «الشاهنامة» الفارسية الرافع عقيرته بالشكوى :

« بلغ الأمر بالعرب بعد شرب حليب النوق واكل الضباب ،
أن صاروا يتمنون تاج كسرى . .
ألا تبا لك ايها الفلك الدوار ! . . »

هذا في معرض الهجاء للعرب ، اما في معرض الفخار بفارس فحسبنا قول مهيار الديلمي في مديح قومه :

قوميَ استولوا على الدهر فتى   ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهمُ   وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى علا ايوانه   أين في الناس أب مثل ابي ؟

لكن رغم هذا المديح وذلك الهجاء ، كيف كانت تجري الاحداث ؟

لم يظل يزدجرد الذي التجأ الى ما وراء جبال زاغروس حيث هو ، وانما انتقل الى مرو عاصمة مقاطعة خراسان ، وطفق يبعث برسائله الشاهانية الى زعماء المقاطعات المجاورة يستحثهم على تدارك موقف الامبراطورية الموشك على الانهيار ، ومواجهة مدّ الفتح العربي .

وأخذت وفود المقاطعات الفارسية تترى الى مقر الملك الذي كان يبعث في روعهم العزيمة وفي نفوسهم الشجاعة ، فكانوا يزدادون التفافاً حول راية الامبراطورية مصممين على منازلة العرب ودحرهم ، كما أجمعوا على ان معركتهم المقبلة ستكون في نهاوند التي عرفت باسم اكباتانا في التاريخ القديم .

ولم يكن العرب بغافلين عن تحشدات الفرس ، وقد كتب سعد بن ابي وقاص الى الخليفة يشرح له الواقع ويستأذنه في مقارعة الفرس ومنازلتهم في عقر دارهم ، كما يطلب منه المدد ، وكان الخليفة يمانع من قبل في تقدم الجيوش العربية للتوغل في البلاد الايرانية ، لأنها بلاد شاسعة جداً وتمتاز بمناطق جبلية يصعب على العرب التنقل فيها لاعتيادهم على الحروب في المناطق السهلية المكشوفة .

وجلجل نفير الجهاد من جديد، وتدفقت جموع المتطوعين المجاهدين إلى المدينة ، فبعث بها الخليفة إلى العراق وانتدب لقيادتها النعمان بن مقرن الذي كان يقود رتلا من المقاتلين في الأهواز .

وكان النعمان عند حسن ظن الخليفة به من المهارة في القيادة والادارة ، فعمل على تعبئة العرب تعبئة بارعة ، وسار بجموعه لمواجهة الفرس في عقر دارهم ، وقد استطاع السيطرة في مدة وجيزة على المناطق الاستراتيجية، والاشراف على المسالك الجبلية المهمة ، والزحف من ثم إلى نهاوند حيث تتجمع القوات الفارسية .

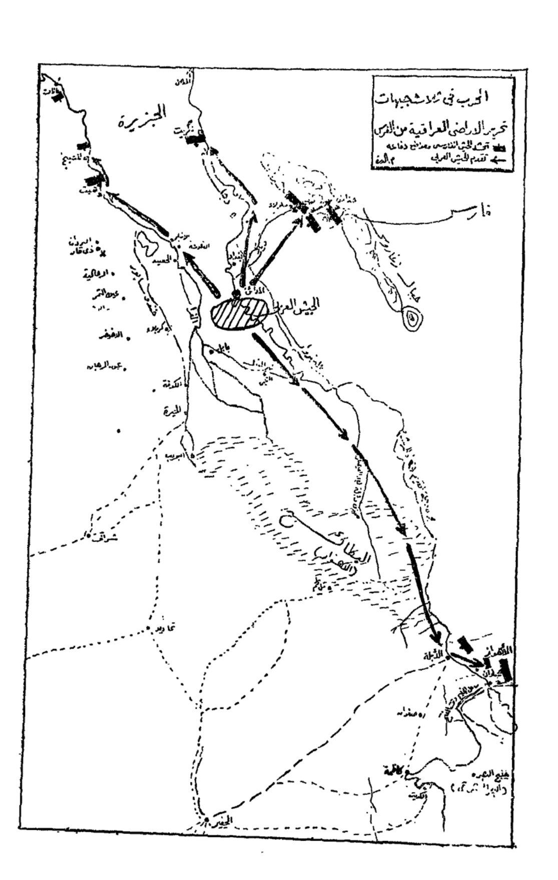
ولم يكن الفيرزان قائد الجبهة الفارسية بأقل براعة ومهارة ، لاسيما وانه خبر أساليب الحروب العربية وما تعتمد عليه من الهجوم الصاعق ، وقد عمل على إحباط الخطة العربية بأن زرع الطريق المؤدية إلى الخطوط الفارسية بالمسامير ، وهكذا يكون الفرس قد استعملوا للمرة الأولى حرب الألغام حسب تعبير الجنرال غلوب [1] .

واجتمع القادة العرب يتشاورون في المفاجأة التي لم يشهدوا لها مثيلاً من قبل ، وكان فيهم من ذوي الرأي الراجح طلحة الأسدي وأبو موسى الأشعري وعبد الله شيخ بني بجيلة، كما كان في عداد أبطالهم القعقاع بطل ليلة الهدير في معركة القادسية، وقرر الجميع المكر بالفرس وأخذهم بالحيلة .

وتقدم القعقاع بثلة من رجاله يصاول الفرس وينازلهم في معركة لم يطل أمدها إذ ما لبث ان انكفأ مع رجاله متظاهرين بالهزيمة . واستخف النصر الجموع الفارسية فأخذت تتدفق من مكامنها ومعاقلها ، لتطارد جيش العرب المندحر امامها ، وبالتالي لتنظيف واجهة الحلبة بما زرعت به من مسامير . ولكن لم تطل فرحة الفرس وتهليلهم للنصر المنتظر ، إذ فوجئوا بجموع العرب تبرز لهم من كل مكان ، وانعطف القعقاع من جديد ليجبه اولئك الذين اولاهم ظهره ، ورددت السهول وأطراف الجبال شعار « الله اكبر ! » وانقض النعمان متقدماً افراد جيشه فتلقاه الفرس بطعنة

---

١ – الفتوحات العربية الكبرى ، ص ٤٤٦



الحرب في ثلاث جبهات
تحرير الأراضي العراقية من الفرس
تحشد الجيش الفارسي ومواضع دفاعه
تقدم الجيش العربي
الجزيرة
تكريت
فارس
الجيش العربي
المدائن
بابل
الكوفة
الحيرة
البطائح
الأبلة
الأهواز

ومح نفذت في جنبه ، فتجندل عن صهوة جواده ، وتسلم منه الراية حذيفة بن اليمان حسب تعليمات الخليفة .

حمي وطيس المعركة بشكل رهيب ، وصبر الفرس لحارّ الدماء ، ولكن قائدهم ما لبث ان لوى عنان فرسه هارباً بالفعل لا عن خديعة ، ولكن لم يطل امد انطلاقه بالهزيمة إذ تولاّه من تخطف روحه .

واختلّت صفوف الفرس اختلالاً بيّناً ، حتى طلب بعضهم الهرب في دروب المسامير . وسمى العرب معركة نهاوند : فتح الفتوح ، لكثرة ما أوقعوا من ضحايا بالجيوش الفارسية ، ولأن الامبراطورية الفارسية أضحت على رحبها ، بعد هـــذه المعركة ، ملعب الجياد العربية .

وتقدمت الجيوش العربية تجني ثمرات النصر وهي تتعقب الفصائل المنهزمة ، ولما انعطفت على نهاوند فتحت المدينة أبوابها صلحاً دون إراقة نقطة من الدم . وكان ذلك في سنة ٢٢ هـ ٦٤٢ م.

وانساحت الجيوش العربية في نزهة تعقبها للجيش الفارسي ، حتى بلغت همذان فسلمها واليها خسرو شنوم دون قتال .

أما يزدجرد فقد لجأ إلى مدينة الري التي تقع قرب طهران الآن ، سالكاً حسب تقدير الجنرال غلوب ذات الطريق الذي سار عليه داريوس الثالث قبل ألـــف من السنين حين كان يتعقبه الاسكندر الكبير .

ولم يكن يزدجرد أسعد حظاً من داريوس ، إذ أخذت المدن الفارسية تتهاوى تباعاً أمام القوى العربية ، إمـا تحت ضربات القتال أو بصك أمان ، وقد كان للأنباء التي ذاعت عن عدل المسلمين وتسامحهم أثر بارز في تلك الحروب ، وتدفقت جموع الفرس للدخول في الاسلام أفواجاً ، وكان لها أثر لا ينكر في إتمام فتوح باقي الديار الفارسية .

لكن الامبراطور القابع في مدينة الري لم يلق سلاحه بعد ، وكان الأمل مـا يزال يراوده في الكرّ على العرب واستعـادة ملكه منهم ، بينما كان اسفنديار أخو رستم القائد السابق منصرفاً إلى تشكيل جيش كبير في شمـال فارس على شواطىء

بحر قزوين الجنوبية لمقاومة نعيم بن مقرن،في الوقت الذي كان أبو موسى الأشعري يتابع زحوفه في الجنوب ويتقدم ظافراً غانماً .

ولم تطل المصاولة ما بين ابن مقرن واسفنديار ، إذ تبدى للقائد الفارسي انه لا سبيل للتغلب على الجيوش العربية ، فانضم إليها وأخذ يقاتل إلى جانبها [١] .

وطار الامبراطور الفارسي المذهول عن واقعه إلى الجنوب ملتجئاً إلى مقاطعة اصفهان ، فنهدت إليه القوات العربيـــة التي كانت تزحف على شكل مروحة في الشمال والوسط والجنوب لا يصدّ مسيرتها شيء .

ولما شارفت القوى العربية اصفهان آثر أهلها السلامة والصلح مع العرب،وكان ذلك في عام ٢٣ هـ ٦٤٣ م ، وتركوا الملك الشاب لمصيره ، فالتجـــأ إلى اصطخر حيث تصدى له قائد المنطقة الجنوبية أبو موسى الأشعري ، فاستسلمت المدينـــة وهرب يزدجرد إلى خراسان ليقيم ضيفاً على مرزبانها ، بينما تابع العرب تغلغلهم في أعماق فارس وتابع الفرس بدورهم المقاومة .

يقول الجنرال غلوب : « ولكن على الرغم من ان المقاومة الفارسية المحلية ، قد قدر لها أن تستمر بضع سنوات أخرى ، إلا أن الشاه لم يستطع ثانية تجهيز جيش قوي لخوض القتال . واتخذت عمليات العرب في فارس بعد معركة نهاوند شكل عمليات ضغط بطيئة ومستمرة في عدة مناطق متفرقة واسعة ولكن دون أية معارك حاسمة أو حملات دراماتية من النوع الذي يستأثر باهتمام المؤرخ أو يلهب حماس الشاعر أو الانسان الوطني . وكان العرب يتقدمون في كل سنة عدة أميـال إلى الأمام وتسقط في أيديهم عدة مدن بعد حصارها أو بعد ثورتها . كما كان عدد من الزعماء المحليين يتحول إلى جانب العرب في كل عام [٢] » .

انتقام فارس

ولم يطبق عمر بن الخطاب عام ٢٤ هـ ٦٤٤ م عينيه الاطباقة الأخيرة ، وقـــد اغتيل بخنجر الغدر الفارسي ، إلا وقد تم فتح فارس .

---

١ – الفتوحات العربية الكبرى ، ص ٤٥٣

٢ –المرجع السابق ص ٤٥٤

وقد روي ان عبد الرحمن بن أبي بكر قال انه رأى عشية الصبح الذي طعن فيه عمر ، أبا لؤلؤة ومعه جهينة والهرمزان ، وهم نجيّ ، فلما رأوه ثاروا فسقط منهم خنجر له رأسان ونصابه في وسطه ، وهو وصف الخنجر الذي طعن به عمر . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة : « وكل هذا يسوّغ القول ان استشهاد عمر كان نتيجة لمؤامرة بيتها المذكورون حقداً عليه ، لما وقع في عهده من وقائع قوّضت مملكة الفرس ، وأخضعت العراق وفارس للسلطان العربي الاسلامي [1] » .

ومما رواه ابن الجوزي ان عمر قبل أن يعرف قاتله عصب جرحه وخرج فصلى، ثم قال : « يا أيها الناس أكان هذا على ملأ منكم ؟ » فقال له علي بن أبي طالب : « لا والله لا ندري من الطاعن من خلق الله ، أنفسنا تفدي نفسك ، ودماؤنا تفدي دمك» فالتفت إلى عبد الله بن عباس فقال: « اخرج فاسأل الناس ما بالهم واصدقني الحديث » فخرج ثم جاء فقال : « يا أمير المؤمنين ابشر بالجنة ، لا والله ما رأيت عيناً تطرف من خلق الله من ذكر أو أنثى إلا باكية عليك يفدونك بالآباء والأمهات . طعنك عبد المغيرة بن شعبة المجوسي ! » فقال : « الحمد لله الذي جعل قاتلي لا يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط » ثم أضاف :

« وما كانت العرب لتقتلني ! [2] »

مصير يزدجرد

أما المصير الشخصي ليزدجرد الذي تركناه مقيماً في خراسان بضيافة مرزبانها ، فقد كان مأساة مفجعة ، وكان تعصبه لدمه الامبراطوري من أسباب نهايته المؤلمة ، ذلك ان خاقان الترك نيزك طرخان وفد عليه حاملاً إليه الهدايا والهبات ، ثم تقدم يطلب يد ابنته ، وبدلاً من أن يتقوّى بمصاهرة الترك والخراسانيين ، أساء الرد على طلب الخاقان ، متعجباً كيف يجرؤ وهو « أحد عبيده » على طلب يد ابنته .. ولم

---

١ - تاريخ الجنس العربي ج ٧ ص ١٨٨
٢ - ابن الجوزي ص ٢٢٠ - ٢٢١

يكتف بذلك بل جعل يضايق المرزبان الخراساني ويحاسبه على أعماله ، فلم يرَ هذا بدأ من أن يسلّمه لمصيره ، فتركه وشراذم جيشه لجحافل الترك ، ففر أمامها ملتجئاً إلى مدينة « مرو » التي أغلقت أبوابها في وجهه ..

ويطيش حلم الرجل لا يعرف أنّى يتجه وأين يسير، وقد غدا وحيداً مشرداً، ولكنه ما يزال يعتمر التاج ويتختم بخاتم الملك !.. ويترجل عن مطيته مسايراً نهر المرغاب بجريانه الهادىء ، ثم ينعطف إلى دار طحان قائمة على ضفة النهر .. ويبهر بريق التاج رب الدار الفقير ، فيقضي عليه ويرمي بجثته في النهر ، وكان ذلك في خلافة عثمان عام ٣٢هـ ٦٥٢. وبمقتل آخر أباطرة الفرس، غدت كافة أراضي فارس اسلامية الدين ، يخفق عليها علم العروبة ، وغدا الخليج بحيرة عربيـــة ، وشارك أبناؤه في الفتوحات العربية الكبرى التي انتظمت الرقعة الممتدة من حـدود الصين إلى شواطىء بحر الأطلسي . ومـــا يزال التاريخ يذكر للبحارة العرب في الخليج إسهامهم الفعّال في فتح السند بحراً عام ٨٩ هـ ٧٠٧ م ، تحت قيادة محمد بن القاسم إذ سارت حملة القائد الشاب سالكةً الطريق الساحلي المحاذي للخليج العربي، مارةً بمكران ، حيث واصل الجيش العربي سيره براً بينما لحقت به من هنـــاك الأعتدة والأسلحة والقوات البحرية بطريق البحر[1] ، وبالقرب من مدينة كراتشي الحالية حاصر محمد بن القاسم مدينة الديبل واحتلها ورفع راية الإسلام التي ما تزال تخفق عليها حتى الآن .

---

١ — محمد بن القاسم بقلم احسان صدقي العمد ، مجلة حماة الوطن ، العدد ١٠

من التذمر الى التمرد

الديمقراطية نزعة أصيلة في نفس العربي ، عاشها وتنفسها في كل نسمة من حياته وكل مرحلة من تاريخه . وقد عزز الاسلام في نفسه تلك النزعة وقواها ، لأنه العقيدة التي تعتبر الناس سواسية كأسنان المشط . وكان لهذه الأخوة الصادقة ، أثر كبير في اقامة صرح الامبراطورية العربية ، إذ انها جعلت العرب يندفعون الى أشداق الموت وطلبِ الشهادة طلبَ اعدائهم البقاء والاخلاد الى راحة الدنيا .

وبعد أن أدت تلك النزعة الديمقراطية دورها المنشيء الايجابي ، اخذت – وقد انبسطت تحت أقدام العرب امبراطورية تضاوع امبراطورية الاسكندر – تبرز في أشكال تمردية تأبى الخضوع لأيّ ضابط. وكانت دوافع هذا التمرد في بعض الأحيان واقعية منطقية ، ولكنها كانت في اغلب الأحيان تتخطى الواقع وتتحدى المنطق وتحاول أن تغيّر مجرى التاريخ .

عمر وعثمان

لقد كان أفراد الجيش العربي في العراق والشام ، يعتبرون أنفسهم ذوي الفضل الأول في بناء صرح الامبراطورية ، ولكن ها هم يرون قائدهم في الكوفة ، سعد ابن ابي وقاص الذي أدار المعركة من شرفة تطل على الميدان ، قد ابتنى لنفسه الآن قصراً في مقر الولاية ، وأقام حوله سياجاً من قصب ، فلم تعد الجموع لتستطيع

الدخول عليه ساعة تشاء ، وكثرت الشكاوى عليه الى دار الخلافة !

وعلى الرغم من ان عيون عمر على أميره لم تثبت على سعد اية تهمة ماخلا «السياج القصبي » ، فقد أمر الخليفه بعزله ، وعيّن مكانـه عمار بن ياسر ، وهو شيخ فاني زينته تقاه وورعه وطيبته ولين جانبه وسهولة أخلاقه ، وأين هذه السجايا من خصال سعد رجل الادارة والقيادة والحنكة والنفوذ الى بواطن الأمور السياسية ، لذا كانت الشكاوى على الرجل الطيب أعنف منهـا على الرجل القوي ، وكثر الشغب على الانسان الورع مما لم يجد الخليفة معه بداً من عزله وهو يرفع عقيرته بالشكوى :

«مَنْ عذيري من أهل الكوفة؟ إن استعملت عليهم القوي فجّروه ، وان وليت عليهم الضعيف حقروه ! »

كل ذلك والخليفة عمر ، وهو من نعرف من صلابة الخلق والشدة في العـدل وعدم التساهل بأي حق من حقوق المسلمين ، فلابدع أن نجد التبرم الذي أخذ يذر بقرنه هنا وهناك في الامصار في عهد الخليفة الحـازم ، يتحول الى فتن وثورات في عهد خلفه اللين العريكة ، ولا سيما في منطقة الخليج العربي الذي أصبـح معقلاً للثائرين ومنطلقا للثورات المتعددة التي كانت تشب بين الفينة والأخرى ، حتى لكأن تاريخ هذه المنطقة خلال فجر الأسلام وضحاه وظهره ، انما هو سجل ثورات متلاحقة متتابعة ، إن انتصرت زادها النصر اشتعالاً ، وإن أخفقت انكفأت لا ليقبع الثائرون في عقر دارهم او ليتفيأوا في ظلال المساجد هائبين تائبين ، وانمـا ليشحذوا من هممهم ويضرموا من عزائمهم ، وليعيدوها كرة أخرى ، ثورة حمراء في غارة شعواء !

لقد استطاع الاسلام ، بما حمل من طاقات روحية ، أن يصهر في بوتقة مثالية ، النزعات العصبية والنزغات الفردية ، لاسيما وقد كان الرسول بسيرته الفضلى وتصرفه الأمثل ، القدوة الصالحة والمثال الذي يحتذى ، وقد قفى على آثاره كل من الخليفتين الراشدين ، فكانا بنهجهما العملي القدوة التي لا تضارع بعداً عن زخرف الدنيا ، وتمسكاً بأهداب التقى والفضيلة ، غير ان الأمر لم يكن كذلك في عهـد الخليفة الراشدي الثالث الذي جاء الى الحـكم نتيجة قرار مجلس الشورى الذي يشبه الى

حد ما اللعبة البرلمانية، وهي وإن كانت أفضل انظمة الحكم فكثيراً مايساء تطبيقها.

ويقول كارل بروكلمان في اختيار مجلس الشورى لعثمان بن عفان ، انه كان أقل أعضاء هذا المجلس شأناً « ولعل أصله الأرستقراطي هذا الذي عوّضه من قلة مقدرته الشخصية حتى في عينيّ النبي ، كان له أثره الحاسم في انتخابه . وليس من شك أيضاً في ان أعضاء المجلس آثروا اختياره رغبة منهم في أن يروا على رأس المسلمين رجلاً يستطيعون توجيهه والتعامل معه ، في سهولة ويسر ، ولكن الأيام ما لبثت أن خيبت رجاءهم هذا ، مع العلم بأن ذلك لم يكن ناشئاً عن قوة شخصية الخليفة نفسه، على التحقيق ، بقدر ماكان راجعاً الى عشيرته التي استسلم هو نفسه لسلطانها استسلاماً مطلقاً [1] .. »

والواقع ان عثمان لم يكد يستقر في كرسي الخلافة، حتى سلم ادارة الدولة الى أبناء عمه بني أمية ، فلم يرضِ ذلك جماعة من اهل المدينة فأخذوا يقاومون الخليفة وأهله . إلا أن أعنف مقاومة قامت في وجهه هي مقاومة الطبقات الشعبية التي شقيت في عهده وازداد فقرها نتيجة احتكار فريق من الولاة مرافق الحياة في الامبراطورية العربية، واتساع التفاوت بين طبقة الارستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة وطبقة المقاتلين وعامة الشعب . وقد ساعد عثمان على تكوين تلك الطبقة الارستقراطية ، إذ أباح لأعلام قريش أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات كالعراق ومصر والشام [2] .

قال الطبري: « وكان عمر بن الخطاب قد حظر على أعلام قريش من المهاجرين ، الخروج في البلدان إلا باذن وأجل ، فشكوا ذلك ، فقال : ألا اني قد سننت سن البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً ، ثم رباعياً ، ثم سدساً ، ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ؟ ألا فان الاسلام قد بزل ، ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فإما وابن الخطاب فلا ، اني قائم

---

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ١ ص ١٣٢ ؛ انظر تفصيل اختيار عثمان في الطبري ج ٣ ص ٢٩٢ – ٣٠٤ والامامة والسياسة ص ٢٢ – ٢٦

٢ - ابو ذر الغفاري ، تأليف قدري قلعجي . ص ٣٧

دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار ! فلما ولي عثمان الخلافة لم يأخذهم بالذي أخذهم به عمر ، فانساحوا في البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام فكان مغموماً في الناس ، وصاروا اوزاعاً اليهم ، واملوهم ، وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب اليهم ، فكان ذلك أول وهن على الاسلام وأول فتنة في العامة [1] »

ولم يمض عامل في زمن عمر موثوقاً به منه في كل أيامه الا القليلين . كان يرى ان الابقاء على واحد منهم يوماً واحداً بعد الريبة في أمره نقص في مروءته ودينه . وكان يسجل أموالهم اذا ولاّهم فان زادت أخذ نصفها لبيت المال .

ومن ذلك ما حدث له مع عمرو بن العاص والي مصر ،إذ بلغه انه قد صار له مال عظيم ، فكتب اليه: « قد ظهر من مالك ما لم يكن في رزقك ، ولا كان لك مالٌ قبل ان استعملك، فأنّى لك هذا؟ فوالله، لو لم يهمني في ذات الله إلا من اختان في مال الله لكثرَ همي وانتثر أمري ، ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك ، ولكني قلّدتك رجاء غنائك ، فاكتب اليّ من أين لك هذا المال ، وعجّل! » فأجابه عمرو: « ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلاً عما تحتاج اليه نفقتنا .. » فكتب اليه عمر : « اني خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك اليّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، فقد سُوْت بك ظناً ، وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطلعه طلْعه ، واخرج اليه ما يطالبك به ، واعفه من الغلظة عليك ، فانه قد برح الخفاء ! » فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل ، وقال : « هذه تقدمة الشر ، لو جئتني بطعام الضيف لأكلت ، فنحّ عني طعامك .. » ثم أحضر المال فأخذ نصفه ورده الى بيت المال [2] !

وولى أبا هريرة على البحرين ثم أحصى ثروته وقال له: استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثم بلغني انك ابتعت أفراساً بألف وستمائة دينار ! » فقال أبو

---

١ ـ الطبري ، الجزء ٥ ، ص ١٣٤

٢ ـ البلاذري ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧

هريرة : « كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت » فقال له عمر : « حسبت لك رزقك ومؤونتك ، وهذا فضل فأدّه » فقال أبو هريرة : « ليس لك ! » قال « بلى والله، أوجع ظهرك » ثم قام اليه بالدواة فضربه حتى أدماه، ثم قال له: « ائت بها » قال أبو هريرة ! « احتسبتها لله » فقال عمر : « ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً ، أجئت من أقصى حجر البحرين تجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين؟ماورجعت بك أميمة الا لرعية الحمير ! [1] »

ويقول المسعودي ان عثمان قد أقطع أبناء عشيرته القرى والأراضي ، وأعطى خيبر لمروان بن الحكم وكان النبي قد تركها فيئاً للمسلمين وظلت كذلك في عهد أبي بكر وعمر ، وأعطى مروان أيضاً خراج افريقية ، وترك لمعاوية خراج الشام فاحتجنه ولم يوزعه على المسلمين . وفي أيامه بلغ مـــال الزبير بن العوام خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف عبد والف أمة وعشرات الدور بالبصرة والكوفة والقاهرة والاسكندرية . وبلغت غلة طلحة بن عبيد الله التميمي من العراق كل يوم الف دينار (؟) ومن ناحية « سراة » اكثر من ذلك ، وبلغت ثروات عبـــد الرحمن الزهري وزيد بن ثابت والمقـــداد ويعلى بن أمية وكثيرين غيرهم مثل ذلك المبلغ . ويروي المسعودي فنونـــاً شتى من ترف أصحاب عثمان وأرقاماً ضخمة عن ثرواتهم الباذخة ، ثم يقول : « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الاموال في أيام عثمان ، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة [2] »

غير اننا نستطيع القول ان الطبري والمسعودي وغيرهمـا من المؤرخين الذين هالتهم مظاهر هذا الثراء، والساخطين الناقمين الذين أذهلتهم معالم المدنية والعمران، لم يستطيعوا جميعاً فهم حركة الانتقال التي كان يمر بهـا العرب من طور الحيـــاة البسيطة المتقشفة إلى طور الحياة الرخية المترفة، ومن مجتمع البداوة الذي لا يعرف الثبات والاستقرار إلى المجتمع الحضري الاقطاعي الذي يرتبط الناس فيه بالأرض

---

١ ـ اليعقوبي ، ج١ ص ١٣٥

٢ ـ مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٧

التي يزرعونها وبالأمير الذي يحميهم ، ومن حكومة أقرب إلى الدين منها إلى السياسة إلى حكومة أقرب إلى السياسة منها إلى الدين، ومن دولة مضطربة الدعائم تسيطر عليها الروح العشائرية والأنظمة الارتجالية إلى دولة وطيدة الأسس متماسكة البنيان لها أنظمتها الادارية ومؤسساتها العمرانية وسلطاتها المركزية ، دولة كانت مهداً للحضارة العربية الزاهرة التي وصلت ما انقطع من سير المدنية في العهد الذي سمي في أوربة بعهد الظلام [1] .

لقد كان العهد الجديد هو عهد الملكية العقارية في أراضي الامبراطورية المترامية التي هي في حاجة إلى استصلاح ، وضياعها الواسعة التي هي في حاجة إلى استثمار، ولا بدع أن تقع في مثل هذا العهد أخطاء لعلها من طبيعته ومستلزماته .

وفي مقدمة تلك الاخطاء ان عثمان كان يتصرف في أموال الدولة بمثل السخاء الذي كان يتصرف به في أمواله قبل أن يتولى سدة الخلافة [2] ، وان وجوه قريش قد أسرفوا في الاستئثار بالملك والتوسع فيه ، وقد كان من جراء ذلك ان نشأ الاضطراب المالي الذي عانت منه أكثر ما عانت تلك الفئة التي كانت تعيش عالةً على بيت المال معتمدةً على الاعطيات التي تمنح لها ، والتي بات وضعها يتنافر مع طبيعة العهد الجديد ، حتى اضطر عثمان إلى أن يخطب في الناس قائلاً : « من كان له زرع فليلحق بزرعه ، ومن كان له عمل فليكتسب من عمله ، فليس لأحد عندنا عطاء إلا أن يكون من الذين قاتلوا على هذا الفيء أو هؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله » .

انتقام آخر لفارس

ورغم ان الفتوحات العربية كانت تتوالى في الشرق والغرب ، إذ بلغت في عهد عثمان نهر السند (الاندوز) شاملة فارس والافغان ، كما تمّ فتح شطر كبير من شمال افريقية ، وغزت الجيوش العربية بلاد النوبة ، وفتحت قبرص،وكسرت شوكة الرومان بحراً ، فان الاستياء الداخلي كان أعنف من أن تضبطه شخصية

١ - ابو ذر الغفاري تأليف قدري قلعجي ص ٨٢ - ٨٣
٢ - الفتنة الكبرى « عثمان » تأليف الدكتور طه حسين ص ١٩٠ - ١٩١

الخليفة اللين العريكة الطيب القلب .

وشبت النار أخيراً حول الخليفة الشيخ ، حين تكاتب أعداء عثمان وأعداء بني أمية في البلاد ، وحرّض بعضهم بعضاً على خلع عثمان عن الخلافة وعزل عماله عن الامصار . وأحدق به أولئك الناقمون ، فحاصروه ورجموه وتسلقوا داره وبطشوا به ، في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ٣٦ هـ ٦٥٦ م ، وأكبت عليه زوجه نائلة لتقيه بيدها طعنة كانت موجهة اليه فبتر السيف أصابعها ! ...

ويجب أن لا يفوتنا ما كان للسبأيين وهم أنصار عبدالله بن سبأ الفاوسي [١] من أثر في هذه الفتنة ، وتعبير « السبأيين » الذي جرى به قلم الطبري نفسه [٢] دليل على ان تلك الجماعة كانت أشبه بحزب أو بحركة منظمة . ويذهب بعض المؤرخين إلى ان الفتنة إنما بدأت بدسائس المريبين والحاقدين في الأمصار ، وان وراءها ابن سبأ والجماعات التي أفسدها في الكوفة والبصرة ومصر ، وان السبأيين كانوا يزوّرون الكتب على لسان أصحاب الرسول ويبعثون بها إلى الأنصار لاثارة النقمة على عثمان ، وان معظم ما نسب إلى ذي النورين ورجال بني أمية من أقوال وأفعال إنما هو مصنوع لتشويه سيرتهم من قبل خصومهم ومن اندمج معهم من الشعوبيين [٣] !

وإذا صح ذلك ، كان عثمان بن عفان ثاني خليفة يذهب ضحية مؤامرة الفرس على العرب ، بعد أن هُزموا أمامهم في الميدان العسكري ، وأخفقوا في منازلتهم وجهاً لوجه ، فانتقلوا إلى الصراع الخفي والكفاح السري ، وهم في قلب الأمة العربية ، بعد أن اعتنقوا الاسلام ، وتغلغلوا في المجتمع الاسلامي ، وتبوأوا فيه شتى المراكز ، وأخذوا يوجهون اليه — من الداخل — الطعنات القاتلة واحدة بعد أخرى ..

---

١ ـ يعتقد بعض المؤرخين ان ابن سبأ كان قبل اعتناقه الاسلام يهودياً وليس مجوسياً (انظر التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج١ص٢٣٩وتاريخ العراق في ظل الحكم الامويص١٠٩)

٢ ـ الطبري ج ٣ ص ٣٨٣

٣ ـ تاريخ الجنس العربي ج ٧ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٨ ؛ انظر ايضاً الطبري ج ٣ ص ٣٧٠ ـ ٣٨٥ وسترى في رواياته من التناقض ما يدل على ان بعضها موضوع ومبالغ فيه .

ورُفع عليّ إلى سدة الخلافة عام ٣٦ هـ ٦٥٦ م، في ظروف كرهها كل الكره، ووسط نار مستعرة ملتهبة تحرق اليابس وتمدّ بشواظها لتلتهم الأخضر الطريّ العود.

وقد بدأ الإمام حكمه بعزل ولاة الامصار وتعيين ولاة آخرين من أقاربه وأنصاره، ومما رواه الطبري ان المغيرة بن شعبة جاء اليه قائلاً: «ان لك حق الطاعة والنصيحة، وان الرأي اليوم تحرز به ما في غد، والضياع اليوم تضيع به ما في غد. فاقرر معاوية على عمله، واقرر ابن عامر على عمله، واقرر العمال على أعمالهم، يبايعوا لك الناس ويهدئوا البلاد، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود، استبدلت أو تركت، أو فاقرر معاوية على الأقل، فإن له جرأة وهو في أهل الشام يُسمع منه، ولك حجة في اثباته لأن عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها» فقال له: «والله لا استعملهم أبداً ولا مثلهم يولى» وانه عاد اليه في اليوم التالي فقال له: «نظرت فرأيت انك على صواب» وان عبدالله بن عباس جاء اليه فسأله عما قاله له المغيرة في اليومين، فذكره له، فقال: «لقد نصحك في القول الأول» ونصحه بدوره باقرار العمال أو على الأقل معاوية وقال له: «أتح له أن يبايعك ثم اقلعه» فقال له: «لا والله لا أعطيه إلا السيف» فألحّ عليه فلم ينثن عن رأيه [1].

ولم يكد علي يستقر في سدة الخلافة حتى ثار طلحة والزبير وعائشة زوج الرسول الكريم وابنة الخليفة الأول مطالبين بدم عثمان ومعاقبة قتلته. وجاء طلحة والزبير في عدة من الصحابة إلى الخليفة الجديد وقالوا له: «انا قد اشترطنا إقامة حدود الله، وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم الرجل!» فقال لهم: «اني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! .. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما

---

١ - الطبري ج ٣ ص ٤٦٢ - ٤٦٣

ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً لقدرةٍ على شيء مما تريدون ؟ .. » ثم نصحهم بأن يهدأوا عنه إلى أن يهدأ الناس [١] .

وتطلع ابن أبي طالب حوله، ومعاوية يتحفز في الشام، فلم يرَ إلا النفر الثائر، فأنفذ ابنه الحسن إلى الكوفة ليؤلف من حوله قلوب جنودها الذين وجد فيهم التجاوب والرضا ، ثم سار إلى هذه المدينة وليس معه سوى مائة محارب . وكان قد سبقه إلى العراق كل من طلحة والزبير بعد ان انضم اليها عدد كبير من الناقمين المطالبين بالاقتصاص من قتلة عثمان ، ومن هؤلاء الناقمين عبدالله بن عامر والي البصرة نفسه ، وبلغ الخبر علياً فأدرك ان الحركة إنما تستهدفه هو ، وانه إذا لم يبادر بالسفر إلى العراق خرج العراق من حكمه .

الخليج يشهد أول حرب بين جيشين عربيين

وفيما كان علي في طريقه الى الكوفة ، كان الثلاثي المطالب بدم عثمان يزحف الى البصرة ليؤلب من حوله الجموع ،وبالتالي لينازل علياً اذا لم يدفع اليه بقتلة عثمان. وجدير بالذكر ان محمد بن ابي بكر شقيق عائشة كان يقف في صف عليّ ويحارب تحت رايته هو ربيبه وابن زوجته [٢] وكان احد المتهمين بالاشتراك في مقتل عثمان .

واجتمع حول عليّ — كما تقول الروايات — ١٢ الف مقاتل في بطاح ذي قار منهم قبائل عبد القيس التي غضبت لمقتل حكيم بن جبلة الذي تزعّم أهل البصرة في قتال طلحة والزبير [٣] فسار بهم إلى ملاقاة الثائرين به ،ويؤكد بعض المؤرخين ان الصلح كان وشيك الوقوع بين الفريقين ، اذ ان كلًا منهما أدرك خطورة الموقف وهتف به الايمان ومصلحة المسلمين بالصلح والوفاق ، ولكن الذين اثاروا الفتنة على عثمان

---

١ — المرجع السابق ج ٣ ص ٤٦٥
٢ — يقول بروكلمان ان محمداً هذا هو ابن حنيفة وينسب الى أبي بكر بالتبني وقد تزوج علي بأمه بعد وفاة أبي بكر (تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٣٥)
٣ — الطبري ج ٥ ص ١٧٩

هالهم ذلك وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها وبينهم عبدالله بن سبأ الذي كان يحرضهم على انشاب القتال ، ويخوّفهم من عاقبة الصلح ، ويقول لهم ان الصلح سيكون على رقابهم،وان عزهم في خلطة الناس «فعليكم ان تنقذوا أنفسكم غداً اذا التقيتم بانشاب القتال » فلما كان الغد نفذوا ما بيّتوه، إذ هاجم بعضهم كتائب المطالبين بدم عثمان فقابلتهم ، وظن كل من الفريقين — من غير السبأيين — ان الفريق الثاني مكر وغدر ، فاتسع الاشتباك حتى صار معركة طاحنة [١] .

وهكذا شهدت مياه الخليج على البصرة أول معركة بين جيشين عربيين مسلمين هي معركة الجمل ، يقود كل منها حبيب الى قلب الرسول اثير لديه . وقد انتهت هذه المعركة بمقتل طلحة والزبير ، وعقر الجمل الذي كانت تركبه عائشة بعد ان قتل دونه سبعون رجلاً من بني ضبة كانوا يتناولون خطامه واحداً بعد آخر . وقد احتمل محمد بن ابي بكر اخته حين وقعت عن الجمل ، الى فسطاط ثم سرحها علي الى مكة . ومما روي ان علياً تولاه الحزن والجزع لمقتل طلحة والزبير وقال : « الى الله اشكو عجري وبجري . شقيت نفسي وقتلت معشري . واني لأرجو أن اكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : ونزعنا ما في صدورهم من غل ، اخواناً على سرر متقابلين »

ودان الأمر لعلي بن أبي طالب ، واستتب له حكم الأمصار ، ودعا معاوية للبيعة فطالبه بتسليم قتلة عثمان . وكانت نائلة زوجة الخليفة الشهيد قد ارسلت الى معاوية قميص عثمان المخضب بالدماء وناشدته بطلب دمه وثأره فعلقه على المنبر مدة طويلة ، فأثار شجن أهل الشام وأبكاهم ، وجعل الألوف منهم يقسمون الا يغمض لهم جفن ولا يهدأ لهم بال ما لم يقتلوا قتلة عثمان ويقاتلوا من يحول دون ذلك . وينفرد ابن قتيبة دون غيره من المؤرخين بالقول بان أهل الشام بايعوا معاوية أميراً ثم خليفة على أن يكون طلب دم عثمان أولى مهامه [٢] .

---

١ — تاريخ الجنس العربي ج ٧ ص ٢٨٠ والطبري ج ٣ ص ٥١٨
٢ — الامامة والسياسة ج ١ ص ٧٤

ولم يكن هنالك بدٌّ من صدام الرجلين ، وبالتالي صدام القوى العراقية والقوى الشامية ، وقد خرج الأولون لا يتبينون من أمرهم شيئاً إلا افتتان بعضهم بشخصية علي الساحرة ، بينما خرج غيرهم للقتال كرهاً أو مترددين وهم ما يزالون يذكرون نصائح واليهم أبي موسى الأشعري بالقعود عن القتال لأنها في رأيه فتنة القاعد فيها خير من القائم[1] ، بينما كان جنود جيش معاوية يعرفون مواطىء أقدامهم ، وكان معاوية قد أخبرهم ان قتلة عثمان في جيش علي وأن علياً يأبى عقابهم[2] .

ومع ذلك فحين التقى الجيشان، ودارت المعركة بشكل صادق ما بين القوتين، بدت علائم الانهيار في جيش معاوية ولم يبق بين والي الشام والانكفاء إلا خطوة واحدة ، وإلا خطة الدهاء التي لجأ اليها عمرو بن العاص الذي أشار على جنود الشام برفع مصاحفهم على رؤوس رماحهم ، وقال قائلهم : « هذا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ » ورغب علي في مواصلة القتال ولكن دون طائل ، إذ وقع تحت ضغط الجند الذين طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال ، فأرسل اليه ، فقال الأشتر للرسول : « ليس هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلني فيها عن موضعي . قد رجوت أن يفتح لي فيها فلا تعجلني » فرجع الرسول بالخبر ، فما انتهى اليه حتى ارتفع الضجيج وعلت الأصوات بين جند علي . فقال له القوم : « والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل . إبعث اليه فليأتك ، وإلا والله اعتزلناك » وهددوه بقولهم: « والله لتجيبهم إلى ما دعوا اليه أو لندفعنك اليهم برمتك[3] أو نفعل كما فعلنا بابن عفان[4] » . فقال علي للرسول : « ويحك ! قل للأشتر أن يقبل فان الفتنة قد وقعت » فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة القتال[5] .

---

١ - ابن الاثير ج ٣ ص ١١٣
٢ - الاخبار الطوال ص ١٦٦
٣ - تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٩
٤ - الامامة والسياسة ج ١ ص ٨٩
٥ - تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٧٨

وبعث عليّ إلى معاوية ، الأشعث بن قيس يسأله رأيه في الأمر ، فأجاب معاوية : « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه ، تبعثون منكم رجلًا ترضونه ، ونبعث منا رجلًا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله .. »

ولما وافى موعد اختيار الرجلين كان عمرو بن العاص ممثل معاوية ، وأراد عليّ أن يكون ممثله عبدالله بن عباس ، ولكن الكوفيين رفضوا إلا أن يكون أبا موسى الأشعري الذي كان يخذّلهم عنه . وأية مرارة نحس بها تخالط نفس عليّ وهو يقول لأصحابه : « قد عصيتموني أول الأمر فلا تعصوني الآن ! »

وتحكيمٌ هذا نوعه معروف النتيجة ، إذ أراد أبو موسى خلع علي ومعاوية معاً ، واسناد الخلافة إلى عبدالله بن عمر أو تركها شورى للمسلمين ، في حين كان داهية العرب عمرو بن العاص يسعى بها إلى صاحبه . وودّ عليّ أن يحسم الأمر مع معاوية بالسيف ، ولكن فاته ذلك ، وانتقل الصراع ما بينه وبين الخوارج .

الامام علي والخوارج

عاد معاوية الى دمشق عودة المنتصر ، هو وجنده على كلمة واحدة ، وعاد عليّ الى الكوفة وجنده حزبان : حزبه الذي لا يخالفه برأي ، وحزب خارج عن طاعته وقد أظهر النقمة والتململ في حرب صفين ، وفرض على عليّ قبول التحكيم أولاً ، واختيار الحكم أبا موسى الأشعري ثانياً ، ثم ها هو يطلقها صرخة مدوية هادرة : « لا حكم الا الله ! » . وقد رفض أفراد هذه الفئة دخول الكوفة مع الامام ، وأخذوا طريقهم الى حروراء ، وكانت عدتهم اثنى عشر ألف مقاتل ، وصاح صائحهم :

« ان امير القتال شبث بن ربعي ، وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكري ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عزّ وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وعزّ على الأمام خروج تلك الفئة الباسلة عليه ، فاراد أخذهم باللين والحجة ، وبعث اليهم عبدالله بن عباس يحاورهم ويناظرهم ، فعاد كثير منهم عن موقفهم

ذاك وتصلب آخرون على هذا الموقف ، فلم يقنط ذلك علياً وخرج اليهم بنفسه مخاطباً اياهم بالكلمة الحسنة والحجة الدامغة :

قال : ما أخرجكم علينا ؟ قالوا : حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم الى كتاب الله ، قلت لكم اني اعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ،اني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً ، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ، فانما رفع القومُ هذه المصاحف خديعة وإدهاناً ومكيدة ، فرددتم عليّ رأيي ، وقلتم لا بل نقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولي لكم ومعصيتكم اياي،فلما أبيتم الا الكتاب ، اشترطت على الحكمين ان يحييا ما احيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فان حكما بحكم القرآن ، فليس لنا ان نخالف حكماً يحكم بما في القرآن ، وان أبيا فنحن من حكمهما براء . قالوا له : فخبّرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : انا لسنا حكّمنا الرجال ، إنما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط بين دفتين لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فخبرونا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه المدنة هذه الأمة [1] .

وحين صدر قرار التحكيم ، وقد قضى أبو موسى بخلع عليّ ومعاوية معاً ، وقضى عمرو بن العاص بتثبيت موكله ، عاد الخوارج يدلون بدلوهم في أصل التحكيم ، ومضوا إلى علي يطلبون اليه أن يقرّ بخطئه وبالتالي بكفره لقبوله مبدأ التحكيم ، وهم من جهتهم قد أقروا بكفرهم ثم تابوا ، ويريدون منه أن يفعل فعلهم ليسيروا تحت لوائه لحرب الشام ، ولكن هيهات ..

ورغم ذلك كله لم يشأ الإمام أن يمتشق الحسام في وجوه أولئك الفتية الذين كان يقرأ في نفوسهم صحة الايمان ، وهو على يقين بأنهم قد «طلبوا الحق فأخطأوه» ، ووضع نصب عينيه أن يصفي حسابه مع معاوية ، وأخذ يعد العدة لذلك ، وجمع

---

١ – الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٨ .

جيشاً قوامه سبعون ألف مقاتل ، ولكن قبل أن ينطلق إلى غايته حملت اليه أنباء البصرة ان الخوارج فيها قد قتلوا الصحابي عبدالله بن حباب وزوجته ، فبعث عليّ إلى هناك برسول ليقف على حقيقة الأمر فقتلوا رسوله أيضاً .

وحينئذ لم يرَ عليّ بداً من الخروج إلى تأديب تلك الجماعة وإرجاء حملته على الشام ، وسار يقصدهم حيث تجمعوا في النهروان وقد ولوا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي ، ولكنه قبل أن يباشرهم القتال رمى آخر سهم من كنانة حلمه ، فرفع راية الأمان بيد الصحابي أبي ايوب الأنصاري الذي رفع صوته بهذا النداء :

« من جاء هذه الراية منكم بمن لم يَقتُل ولم يسترق فهو آمن ، ومن انصرف منكم الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن !.. »

فقال أحد زعماء الخوارج ويدعى فروة بن نوفل : « والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً ، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتباعه .. »

وانصرف فروة الى الكوفة وتبعه خمسمائة من الفرسان ، واتجه آخرون شطر المدائن ، وانزل الأمام سيف بطشه فيمن بقي، فلم يثبتوا في وجهه غير يوم واحد، وقد مزقهم وفرقهم .

وبينما كان الامام علي منصرفاً الى معالجة فتنة الخوارج ، كان معاوية يوجه الحملات الى شتى الامصار ، ومن هذه الحملات تلك التي استولت على المدينة بقيادة بسر بن ارطاة، وكان أهمها حملة معاوية بن خديج الى مصر التي قتل فيها محمد بن ابي بكر واحرق في جوف حمار وبذلك دخلت مصر في طاعة معاوية وبايعه أهلها [1].

وقال الطبري بعد ذكر هذه الحملات: «وفي هذه السنة — سنة ٤٠ هـ ٦٦١م — جرت فيما ذكر بين علي ومعاوية المهادنة بعد مكاتبات يطول بذكرها الكتاب ، على وضع الحرب بينهم ، ويكون لعلي العراق ولمعاوية الشام ، فلا يدخل احدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو [2] » .

واذا صحت هذه الرواية التي تفرد بها الطبري ونقلها عنه ابن الاثير [3] ، كان

١ — حماة الاسلام ص ١١٤
٢ — الطبري ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨
٣ — ج ٣ ص ١٥٤

ذلك بادرة نبيلة من الامام عليّ بغية كف السيف عن الأمة الواحدة ، والضن بدماء العرب ان يهرقها العرب أنفسهم.. ولكن أنى لهذه الدماء أن تكرم وتحقن، وقد بليت الأمة العربية بتلك الفرق المتعددة التي مزقت وحدتها وهدّمت كيانها، وفي طليعتها اولئك الخوارج الذين اجتمعت في صفوفهم اخلاط عديدة من الناس، فهنالك عرب ساذجون قد تمسكوا ببعض الآيات القرانية دون ان يتعمقوا في فهم معانيها ودون أن يقدروا نتائج ما يقدمون عليه ، وهنالك طوائف من الفرس (الموالي) الذين كانوا يحقدون على العرب لأنهم اضاعوا استقلالهم ومجدهم القديم ، وثمة آخرون كانوا قد أسلموا مجبرين او تخلصاً من دفع الجزية فرأوها فرصة سانحة للكيد للدين الجديد ، كما انضم الى هذه الجماعات المختلفة لصوص غرضهم السلب والنهب [1] .

وكانت المعارك الأولى التي خاضها الخوارج مع ابن ابي طالب شديدة الوطأة عليهم ، قاسية كل القسوة ، ولكنها لم تكن قاصمة أو حاسمة ، وعوضاً عن أن تكون عاملاً على تثبيط الهمة لدى الناجين منهم ، اشعلت في نفوسهم الحماسة ، ووجدوا في تضحية اخوانهم مصداقاً لنعت أنفسهم بالشراة ، أي البائعين نفوسهم لله ، وأذكى ذلك نار الثورة في نفوس بقيــة الخوارج ممن لم يخوضوا المعركة ، واتفقت آراءهم على وضع خطة ترفع لواء الشورى في الاسلام على أيديهم ، وذلك بإزاحة كل من علي و معاوية وعمرو بن العاص ، عن طريق الاغتيال ، وذلك في ساعة واحدة من يوم واحد !

وفعلاً فقد اغتيل الإمام عليّ [2] في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ (٢٤ كانون الثاني من عام ٦٦١ م) بينما أفلت كلا الرجلين الآخرين . وهكذا قضى ذلك الرجل الفذ ضحية أحقاد تلك الفئة المؤمنة إيماناً ساذجاً والتي أرادت أن تفرض آراءها الطفولية على الدولة وأن توجه بها أقدار الرجال . ومع ذلك لم يحقد ابن أبي طالب على

---

١ — تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي تأليف الدكتور علي الخربوطلي ص ٦٩

٢ - انظر تفصيل ذلك في الطبري ج ٤ ص ١١٠ - ١١٥ والامامة والسياسة ص ١٤٧ — ١٤٩ والفخري في الاداب السلطانية ص ٧٢ — ٧٣

الخوارج » ، وأوصى اصحابه قبل موته بألا يحاربوهم بعد وفاته بكلمته المشهورة :
« لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » .

وبوفاة الإمام عليّ غدت الطريق ممهدة أمام معاوية ليرتقي دست الحكم ، لا ينازعه على الخلافة منازع . وبانطواء صفحة حياة علي انتهى العهد الراشدي في في الاسلام ، وتلفت معاوية فيمن حوله قائلاً :
« أنا أول الملوك !.. [1] »

---

١ - تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٦

الجزء الرابع

الخليج العربي في العهد الأموي

- معضلة الخوارج
- الشيعة وثورات أخرى
- الثورة العباسية وانهيار الحكم الأموي

معضلة الخوارج

لما سلّم الحسن بن عليّ على معاوية بالخلافة بعد أن اضطره الى ذلك بالقوة والسياسة والدهاء [1] ، غدت كافة المناطق التي امتد اليها لواء الاسلام تحت امرته ، فكان ذلك العام « عام الجماعة » .

لكن هل يسلّم الخوارج بذلك الواقع السياسي ويعترفون لمعاوية بالسمع والطاعة وقد كفرّوه ؟.. سؤال لم يجب الخوارج عليه إلا بلغة السيوف ، وسفك الدماء الذي يستعدي سفك دماء جديدة !

لقد اجتمعت كلمتهم بعد مقتل الامام ، على مقاومة السلطان الأموي ورأسه معاوية الذي نعت نفسه بأنه أول الملوك ، وظلوا شوكة في جنب هذه الدولة تستنزف دماءها الفينة بعد الفينة وفي قطر بعد آخر ، بسلسلة من الثورات المتعاقبة والانتفاضات المتتالية ، لا يخرجون من غبار معركة حتى يخوضوا غمار أخرى ، ولا يفرون الا ليكرّوا ، ولا يهدأون الا ليثبوا ،فكان تاريخهم سجلًا من الأحداث الدامية التي تذهل الفكر وتأخذ بمجامع النفس ، تساؤلاً عن سر البطولة في تلك العقيدة الديمقراطية في ظاهرها السطحية في جوهرها ،الساذجة في انفعالاتها ،المتطرفة

---

١ — راجع تفصيل ذلك في مقاتل الطالبيين للاصبهاني ص ٥٢ - ٥٦ والامامة والسياسة ج١ ص ١٦٥ - ١٦٦ والطبري ج٤ ص ١١٢ - ١٢٤

في تحركاتها ، قد عمر الايمان قلوب معتنقيها ، وشحذ النضـــال عزائمهم ، فدفعوا أرواحهم رخيصة في سبيل احقاقها ورفع لوائها !

الخوارج ومعاوية

لقد سبق ان رأينا قسماً من الخوارج لم يشتركوا في قتال الامام علي في معركة النهروان ، لاستبهام الأمر عليهم ، وتساؤلهم : أهم مخطئون أم مصيبون ، لذلك آثروا الانسحاب ، وكان على رأسهم فروة بن نوفل الأشجعي وعدة جماعته خمسمائة فارس .

ولما آل الأمر الى معاوية « إتحد الخوارج والشيعة على كراهية معاوية وبني امية رغم عداء هذين الحزبين بالأمس . أما الخوارج فقد كان بغضهم لمعاوية يفوق بغضهم لعلي ، فقد اعتبروه مغتصباً للخلافة لأن بيعته كانت تخالف تماماً نظريتهم في الخلافة . أما الشيعة فقد كرهوا معاوية الى أقصى حد يمكن لنا تصوره ، فقد اعتبروا عام الجماعة « عام فرقة وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكاً كسروياً والخلافة غصباً قيصرية [1] . »

وكانت أول جماعة من جماعات الخوارج نهدت لحرب معاوية ، جماعة فروة بن نوفل الذي هتف فيهم : « جاء الآن ما لا شك فيه ، فسيروا الى معاوية فجاهدوه». وهب الجماعة هبة الرجل الواحد منطلقين من شهروز وهدفهم الكوفة .

وبلغ معاوية نبأ زحفهم هذا ، فجرد لهم حملة من القوات الشامية نازلتهم في موقع يقال له « النخيلة » قريب من الكوفة ، ولكنها ما كادت تحتك بهـــم حتى اثخنتها الجراح ، واضطرت الى الفرار تحت سيوف لا تخطىء .

وأعمل معاوية فكره المطبوع على الدهاء وبُعد الغور ، ثم ندب للخوارج أهل الكوفة بعبارة تنطوي على التهديد وهي امتحان لإخلاصهم للدولة في آن واحـد :

---

١ – تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٧٨ والجملة الاخيرة للجاحظ .

« لا أمان لكم عندي حتى تكفّوا بوائقكم !.. »

وشعر أهل الكوفة بالحَرَج ، فان دم الإمام الشهيد لم يجف على ثراهم بعد ، وقد أوصاهم ألا يقاتلوا الخوارج بعده ، ولكن ماذا يفعلون وحسام السلطان مسلط فوق رؤوسهم .

وكأنما كان الخوارج يقرأون صحائف نفوس الكوفيين ، فامتنعوا بادىء الأمر عن قتالهم ، وغازلوا عواطفهم بهذه الكلمة الديبلوماسية رغم ضعف هذه الصفة في نفوسهم المطبوعة على الصراحة والخشونة : « ويلكم ما تبغون ? أليس معاوية عدونا وعدوكم ? دعونا نقاتله ، فان أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كُفيتمونا !.. »

ولكن أهل الكوفة لم يستمعوا إلى طلب الخوارج بل نازلوهم ، واشتد القتل في الفريقين معاً ، إلا ان القتال انتهى بكسر الخوارج وأسر رئيسهم . فلم يثنهم ذلك عن معاودة القتال وقد أمّروا عليهم حوثرة الأسدي ، واستطاعوا دحر الحملة التي سيّرها معاوية عليهم . وجدد معاوية الحملة ، فتجدد النصر لهم .

وليس أدل على شجاعتهم والروح التي كانوا بها يقاتلون ، من ذلك الحوار القصير المعبر الذي دار بين حوثرة الأسدي وأبيه ، لما عقدت له ولاية أمر الخوارج ، فقد أرسل إليه معاوية أباه علّه يثنيه عن عزمه ، فخرج لابنه حوثرة مناشداً إياه بقوله:

ــ ألا أجيئك بابنك فلعلك إذا رأيته كرهت فراقه ?

فقال : أنا إلى طعنة من يد كافر برمح القلب فيها ساعةً أشوق مني إلى ابني !..

الخوارج في الكوفة

ولي المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب الثلاثة ، ولاية الكوفة من قبل معاوية ابن أبي سفيان ، وفي عهده تسلل الخوارج إلى حاضرة العراق ، واتخذوا دار حيان ابن ظبيان السلمي مركز تجمع لهم . وكان حيان أحد الناجين القلائل من سيف الإمام عليّ في معركة النهروان ، وقد خرج منها جريحاً وانسحب مع عصبة من اخوانه الى مدينة الري ، ولما تناهى اليه نبأ مصرع عليّ عادت شعلة الحماسة الى الاتقاد في صدره ووقف في جماعته يخطب فيهم ويحثهم على الزحف على الكوفة :

«... فانصرفوا بنا رحمكم الله الى مصرنا فلنأت اخواننا ولندعهم الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والى جهاد الأحزاب ، فانه لا عذر لنا في القعود ، وولاتنا ظلمة وسنة الهدى متروكة ، وثأرنا الذين قتلوا اخواننا في المجالس آمنون[1] ! »

ومضى الجماعة الى الكوفة ، وأخذوا يحشدون أنصارهم ويعقدون الاجتماعات في دار حيان ، والوالي الداهية متغافل عنهم غير غافل عن أمرهم ، يحصي عليهم الحركات ، ويعدّ لهم العدة ، ويتربص بهم ساعة الغفلة ، حتى اذا ما دنت ورؤوس الجماعة مجتمعون في دار حيان ، اذا بالشرطة تدهمهم وتمسك بتلابيبهم وتسوقهم من دار الأمان الى دار الهوان ، وعلى رأسهم حيان ومعاذ بن جوين الطائي .

ولما بلغت أنباء هذه المداهمة أسماع الخوارج ، خرجوا لواذاً من الكوفة ، ولكن لا للتستر بظلال الجدران ، وانما ليسيروا الى الحيرة ويضعوا مخططاً جديداً ، وقد جعلوا في رأس أهدافهم ازاحة المغيرة من الوجود ، ملتفّين هذه المرة حول رجل يدعى المستورد .

وحينئذ انقلب الدهاء الثعلبي في المغيرة بن شعبة الى ضراوة الأسد الثائر ، فقام في أهل الكوفة خطيباً على مسمع من رؤوس القبائل وقد دعاهم لهذا الغرض : «لقد علمتم اني لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وخشيت ان يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم ، وقد خشيت من ان لانجد بداً من أن يؤخذ الحليم التقي بذنب الجاهل السفيه ، فكفوا عنا سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد بلغنا ان رجالاً يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والنفاق والخلاف ، وأيمّ الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب ، إلا أهلكتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم[2] ..»

وقد عرف هذا الداهية كيف يدغدغ عواطف الكوفيين ويمالىء الشيعة ، ويذكر لهم أنه لن ينقاد في سياسة العراق لأهواء معاوية : «لا أحب أن أبتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ، ولكنني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد مليحهم ، وواعظ سفيههم ، حتى يفرق الموت بيني وبينهم ،

١ - الطبري ج ٦ ص ٩٩
٢ - المرجع السابق ص ١٠١

وسيذكروني إذا ما جربوا غيري . »

وهكذا ، بخطتي الترهيب والترغيب ، والشدة حيناً والمصانعة أحياناً ،استطاع هذا الداهية – الذي يقول فيه العرب : « لو كان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها [1] » – أن يعبىء الشيعة ويقذف بهم في وجه الخوارج!

وانبرى لجماعة الخوارج وعدتهم هناك ثلاثمائة مقاتل ، ثلاثة آلاف شيعي بإمرة معقل بن قيس الرياحي ، وكانت حركة مطاردة ولقاء في ميادين مختلفة ، من المذار إلى بديلمايا ، فلم ينج في هذه المعارك غير المتكافئة ، خارجي واحد من قاتم المصير.

الخوارج في البصرة

كانت البصرة آنذاك آخذة في التقدم المضطرد والازدهار المستمر ، كمركز تجاري تضاءلت أمامه المراكز الأخرى كالأبلة التي كانت القاعدة البحرية للفتوحات الاسلامية وغيرها من الثغور ، حتى غدت المدخل الرئيسي لبوابة البحر على اليابسة تمتد من ورائها سهول العراقين .

ولقد شاء الخوارج أن يجعلوا من البصرة موئلاً من موائلهم ، ومركزاً يضارعون به الكوفة التي غدت قاعدة أساسية من قواعد الشيعة . لذا كانت هذه المدينة مسرحاً لأعمال الشدة والعنف ، والبطش والتنكيل ، للقضاء على حركتهم ، حتى لم يتورع الولاة عن التوسل بأقسى الوسائل والأساليب وصولاً إلى غاياتهم ، ولا سيما بمعاملة النساء الخارجيات من قتل وصلب وتمثيل .

ولم تقتصر مطاردة الخوارج في البصرة والتنكيل بهم ، على السلطات وحدها ، وإنما كان للأهالي اليد الطولى في هذا الميدان ، وذلك لأن حركة العصيان والتمرد كانت تشل حركة التجارة التي فاء خيرها على الأهلين . وفي ذلك يقول المبرد : « وقع العبء الأكبر في محاربتهم (الخوارج) على أهل البصرة الذين وجدوا أن حياتهم وتجارتهم مهددة بالخطر ، حتى اضطر قسم كبير منهم إلى الرحيل عنها والقسم

---

١ – تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ص ٤٠٢

الآخر كان يتهيأ إلى الرحيل [1] ، بعد أن سادتها الاضطرابات والفتن وكان القتل والسرقة في شوارعها أمراً عادياً [2] .

وقد عرف معاوية أهمية موقع هذه المدينة التي غزا منها علياً بجراً ، وخطورة وقوعها فريسة في أيدي الخوارج ، فسيّر لحكمها سنة ٤٥هـ ٦٦٥م أقسى ولاته وأقدرهم على العسف والبطش ، وطول اليد إلى الرقاب والأعناق : زياد بن أبيه الذي ألحقه بنسبه فصار يدعى زياد بن أبي سفيان ، وقد افتتح عهده ببرنامج بسطه بخطبته المعروفة بالبتراء لأنه خرج فيها على القواعد الخطابية التقليدية فقال ما يريد رأساً دون أن يوطىء له بحمد الله والثناء على رسوله . وإلى القارىء تلك الخطبة التي شبه بعض الكتاب ما جاء فيها بقوانين الاحكام العرفية :

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ، والغيّ الموفي بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا نبي الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تعلموا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول ! أتكونون كمن طرّفت عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدَث الذي لم تسبقوا اليه ، من ترككم الضعيفَ يُقهر ويؤخذ ماله ، هذه المواخيرَ المنصوبة ، والضعيفةَ المسلوبة في النهار المبصر ، والعددُ غيرُ قليل. ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلَج الليل وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ! تعتذرون بغير العذر ، وتُغضون على المختلس ، كلّ امرىء منكم يذبّ عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو مَعَاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترَون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً في مكانس الرّيب . حرامٌ

---

١ - الكامل في الادب . ج ٣ ص ١٩٥

٢ - تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٨٦

عليّ الطعامُ والشراب ، حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلُح به أوله ، لين في غير ضَعف ، وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يَلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول : « انجُ سعدُ فقد هلك سُعَيْد ! » أو تستقيم لي قناتكم الخ ... »[1]

ولما أنهى زياد خطبته ، قام أبو بلال مرداس بن أديّة وهو من رؤساء الخوارج فقال : «أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : وابرهيم الذي وفّى ، ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدبر ! » فقال زياد : « اسكت فوالله ما أجد الى ما أريد سبيلًا الا ان اخوض اليه الباطل خوضاً[2] » .

وفي الواقع ، لقد استطاع هذا الرجل أن يمسك بمقاليد الأمور بيد حديدية في تلك المنطقة التي كانت غارقة في خضم من الفوضى : من الخروج على السلطان ، وقطع الطرق، والاخلال بالأمن. وتمكن خلال مدة وجيزة من أن يعيد الأمن الى نصابه ، ويقطع دابر الفتنة ، وأن يشلّ بالتالي الحركة الخارجية ، فخمدت فتنتهم ولم يعودوا للظهور ، بعد أن قرن قوله بالعمل ، ولم يتردد في قتل خارجية تدعى البلجاء وطرحها في السوق عارية تماماً.

وقد كافأه معاوية على ذلك بأن ولاّه الى جانب البصرة عدة مناطق من الخليج كالأبلة والبحرين وعمان ، بالاضافة الى سجستان وخراسان[3] . ولما توفي المغيرة بن شعبة ، ضمّ اليه أيضاً ولاية الكوفة فخطب في مسجدها خطبة تتضح عن روح خطبته في البصرة وقد قال فيها : « أما بعد، فإنّا قد جرّبنا وجرّبنا، وسسنا وساسنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره الا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبّه سرّها بعلانيتها ، وغيبُ أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس

---

١ ـ البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٩

٢ ـ عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٢٤٢ – ٢٤٣

٣ ـ الفخري ص ٨١

لا يُصلحهم إلا لينٌ في غير ضعف ، وشدةٌ في غير عنف ، واني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهدُ عليهامن الله والناس أكبرُ من كذبة إمام على المنبر ! » ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرّظهم ، وذكر قَتَلَته ولعنهم . فحُصِب على المنبر ، فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوماً من خاصته ، وأمرهم ، فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : « ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقولنّ لا أدري من جليسي » ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعةً أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حصبك ، فمن حلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعزله ، حتى صار الى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين ، فقطع أيديهم على المكان [1] .

وكان زياد يراوح الاقامة ما بين البصرة والكوفة ، يقضي في هذه ستة أشهر من السنة وفي الثانية مثلها .

الخوارج وعبيد الله بن زياد

ولما توفيّ زياد بن أبيه اضطرب الحكم الأموي في العراق في عهد عدد من الولاة ثم عمد معاوية إلى اسناد مقاليد إمارة الكوفة والبصرة لعبيد الله بن زياد فسار سيرة أبيه بأخذ الناس بالقسوة والشدة والتنكيل بخصومه السياسيين ، ولكن كان ينقص الابن حزم أبيه وحنكته السياسية ، وشتان ما بين الحزم والقسوة . ومما يروى ان ابن زياد خرج في رهان له ، فلما جلس ينظر الخيل اجتمع النـاس وفيهم عروة ، فأقبل على ابن زياد وقال له : « خمسٌ كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا : أتبنون بكل ريع آيةً تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين [2] » فلما سمع ابن زياد ذلك ترك رهانه وأضمر لعروة الشر ، فهرب عروة . غير ان ابن زياد تمكن من القبض عليه وقتله [3] .

---

١ - جمهرة خطب العرب لاحمد زكي صفوت ، ج ٢ ص ٢٦٢
٢ - سورة الشعراء ١٢٨ - ١٣٠
٣ - الطبري ج ٦ ص ١٧٤

وكان لعروة هذا شقيق يدعى أبا بـــلال، وهو من كبار مجتهدي الخوارج وأعلامهم ، ولما رأى ما رأى من قسوة ابن زياد ، جمع رجاله وخطبهم قائلاً : « انه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا احكامهم ، مجانبين للعدل ، والله ان الصبر على هذا لعظيم ، وان تجريد السيف واخافة السبيل لعظيم ، ولكننا ننتبذ عنهم ، ولا نجرد سيفاً ، ولا نقاتل إلا من قاتلنا [1] »

ومضى الرجل بجماعته إلى الأهواز ، ولكن عبيد الله لم يدع أبا بلال وشأنه ، وإنما جرد عليهم حملة على رأسها ابن حصين التميمي ، وعلى الرغم من ان قوام الحملة كان ألفي فارس ، وعدّة رجال أبي بلال أربعون وحسب ، كانت الغلبـــة للفئة القليلة على تلك الجموع الكثيرة ، مما جعل أحد شعراء الخوارج ينشد مفاخراً [2] :

أألفا مؤمـن منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنـونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنصرونا

ولكن ذلك لم يقعد بابن زياد عن الخوارج ، فجرد عليهم حملة ثانيـــة قوامها أربعة آلاف محارب، بقيادة عباد بن علقمة الذي ودّ أبو بلال لو يصرفه عن القتال، ولكن هل يستمع من يامرته أربعة آلاف لرجل تنضوي تحت لوائه شرذمة من الرجال تُعدّ بالعشرات ؟ وجرّد ابن علقمة ورجاله سيوفهم في وجه أبي بلال وفرقته ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة عنيفة حتى حان وقت الصلاة ، فطلب الخوارج هدنة قصيرة يؤدون خلالها واجبهم الديني ، فأمنهم رجـــال أبي علقمة ، فطرح الخوارج أسلحتهم أرضاً وانصرفوا لإقامة الصلاة ، فاهتبلها رجال ابن علقمة فرصة ذهبية وباغتوا المصلين القائمين الراكعين فأفنوهم جميعاً .

ثورة الازارقة في الاهواز

الأزارقة إحـــدى فرق الخوارج العشرين وأشهرها على الاطلاق ، وذلك لما

---

١ ـ الكامل في الادب ج ٢ ص ١٨٤

٢ ـ الطبري ج ٦ ص ١٧٤

اتسمت به عقيدتهم من التطرف المفرط ، حتى انهم أحلوا دماء المسلمين الخارجين عن نطاق فكرتهم ، ولم يتورعوا عن قتل النسوة والاطفال الرضّع ، واقترفوا من الاعمال ما يجافي شرعة العقل والشعور الانساني ، وهي تهدف في اعتقـــادهم إلى مرضاة الله ، وإقامة شعائرهم كما ينبغي لها ، وكانوا يعللون قتلهم الاطفـــال بأنهم « إذا كبروا كانوا مثـــل آبائهم [1] » وبلغ بهم الأمر انهم كانوا يحرصون على الموت ، ويدفعون بأنفسهم في أتون الثورات وبين شقي رحى المعارك ، دون أن تضعضعهم النائبات أو تفت في عضدهم الحدثان والمصائب . وقد هيمنت هذه الفرقة على أكثر مناطق الخليج وشطر من العراق وفارس .

وينتسب الأزارقة إلى رئيسهم نافع بن الأزرق الذي رفعوه إلى سدة الرئاسة بعد وفاة يزيد بن معاوية عام ٦٢هـ٦٨١م ،وكان من قبل رهن سجن عبيدالله بن زياد في البصرة، ولم يكد يطلق سراحه حتى أثار الدنيا مقيماً مقعداً إيّاها، هو وجماعته، بأحاديثهم عن جور الولاة ، وتعنت الدولة ، وسوء إدارتها ، وخروجها عن جادة الحق والعدالة ، حتى اضطروا عبيدالله إلى الفرار من البصرة، فقوّى ذلك ساعدهم وأخـــذ بيدهم ، وراحوا يجهرون بالقول ، متخذين من سوق المربد منبراً لبث أفكارهم .

وخرج البصريون لمحاربة الأزارقة في جيش عدته عشرة الآف مقاتل على رأسهم مسلم بن عيسى بن كريز وكان معروفاً بالشجاعة والاقدام ، فلما صار في ظـاهر المدينة وقف يخطب في جنوده قائلًا : « أيهـا الناس اني ما خرجت لا متيار ذهب ولا فضة ، واني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم الا السيوف والرماح ، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .

وزحف مسلم بمن تبقى معه من البصريين ، والتقى بالخوارج فأنزل بهم ضربات قاصمة،وردهم على اعقابهم حتى الأهواز،ولكنهم لم يلبثوا حتى انكفأوا والتقوا مع البصريين ثانية في منطقة يقال لها دولاب ، حيث دارت بين الفريقين رحى حرب

---

١ ـ الاغاني ج ٥ ص ٣

طاحنة ، صبر فيها الأزارقة صبراً عجيباً ، وأوقعوا بالبصريين ضرباً وطعناً ، لكنها أسفرت عن مصرع القائدين معاً ، ثم ما لبثت كفة الخوارج ان مالت إلى الرجحان حين تولى الرئاسة فيهم عبدالله بن ماحوز الذي كرّ على البصريين كرّات موفقة،ولكنه سقط دون غايته قتيلا، فحل محله في القيادة أخوه عبيد الذي لم يصمد في وجوه البصريين فحسب ، وانما أنزل بهم الضربات المتلاحقة ، وكبدهم الخسائر الفادحة ، فلم يطل بهم الأمر حتى تشتتوا في كل درب،متقهقرين ، يطلبون الاحتماء وراء جدران البصرة .

وشعرت البصرة بالحرج،فأسرع وجوهها الى المهلب بن أبي صفرة ليتولى قيادتهم ويدفع عنهم خطر الخوارج ، وفرض المهلب عليهم شروطاً لاتخلو من قسوة فقبلوها جميعاً . وكان المهلب رجل قيادة وحنكة وخبرة بادارة الاعمال العسكرية،عبقري تخطيط ومثال شجاعة ، وقد استطاع خلال فترة وجيزة ان يعيد الأمن الى نصابه في البصرة ، وأن يسير بما عبأ من جند لمقاتلة الأزارقة النازلين على صفاف نهر التيري قرب الأهواز، وما هي غير جولة أو جولتين حتى استطاع أن يجليهم عن المنطقة ، ويضطرهم الى التقهقر عن سواد العراق، ثم تعقبهم في عقر دارهم، فأدرك الأزارقة ألا طاقة لهم على قتال البصريين في منطقة مكشوفة ، لا سيما وان جنود المهلب يعدون عشرين ألف مقاتل ، فتخلوا للمهلب عن المنطقة كلها ، وانطلقوا يحشدون جموعهم ، ثم عادوا لينازلوا المهلب من جديد ، فدارت بين الفريقين معركة عنيفة استطاع الأزارقة أن يحوزوا راية نصرها ويضطروا المهلب إلى الانسحاب إلى العاقول.

وانشأ المهلب يأسو جراحات تلك المرقعة الثقيلة عليه ، ويلمّ فلول جموعه المشتتة ، حتى إذا اجتمع حوله أربعة آلاف محارب ، وطّن العزم على السير بهم لمنازلة الأزارقة في معركة مصيرية ، ومضى المهلب بجنده لملاقاة أعدائه ، وفي عزمه ألا يلتحم بهم ويبدأهم القتال ، بل أن يجنح إلى التريث والتبصر وإحاطة نفسه بخطوط الدفاع ، مما دفع الخوارج إلى الحملة عليه بغارة شعواء اندفعوا فيها اندفاع الرجل الواحد نحو جنود المهلب ، فتضعضع هؤلاء تحت الضربات القاسية، وأخذوا يتلمسون أسباب الهرب . ولما غدا النصر قاب قوسين أو أدنى من أيدي الخوارج ، إذا بالمهلب يجنح إلى إحدى الروابي فيلحق به جنوده وقد أحيا إيمانهم بقائدهم أملهم

بالنصر ، وما لبث القائد الشجاع ان اندفع بهم اندفاع السيل بين الأزارقة وبغيته رأس زعيمهم ، وأسفرت المعركة فعلاً عن قتل عبيد الله ، وانسحاب الأزارقة من سواد العراق طالبين أرجان .

وفي هذه الفترة العصيبة التي كانت تمر بها العراق وبلاد فارس التي خرجت عن حكم بني أمية ولم تستقر كل الاستقرار لعبد الله بن الزبير ، أتى أمر ابن الزبير إلى المهلب بانتدابه لمحاربة المختار ، وعَقَدَ امارة البصرة لأخيه مصعب بن الزبير ، فلم يكن من هذا إلا ان رمى الخوارج بعمر بن عبيد بن معمر الذي كان خير خلف للمهلب ، وكان هذا يسميه فارس العرب وفتاها .

وسار ابن عبيد اليهم حاملاً عليهم حملة صادقة ، وكانوا قد ولوا أمرهم الزبير ابن علي الماحوز ، فأخذ هذا يستنهض هممهم لما أصابهم من الجزع لموت زعيمهم عبيد الله ، ثم مضى بهم للقاء خصومهم في نفوس موطدة على الصبر ليوم الكريهة،فناجزهم ابن عبيد مناجزة الأبطال ، واستطاع أن ينزل بهم الهزيمة وان يفلق جبين قطري ابن الفجاءة أحد صناديدهم دون أن يقضي عليه ، وان يتعقبهم حتى أوجان حيث بددهم في كل حدب وصوب .

ولكن العجيب في أمر هؤلاء المتمردين انهم سرعان ما تمكنوا من لمّ شعثهم من جديد ، والاتجاه شطر مدينة اصفهان ، والسير بعدها إلى الاهواز التي ما لبثوا ان سيطروا عليها مرة أخرى ، ومدّوا بظلهم حتى المدائن بعد أن قتلوا عاملها ، الأمر الذي اضطر الحارث بن أبي ربيعة والي الكوفة إلى ان ينهد اليهم ويرغمهم على النزوح عن سواد العراق ، فزحفوا إلى اصفهان وضربوا الحصار عليها ، فبرز لهم واليها عتاب بن ورقاء بألفين وسبعمائة فارس فقضى على زعيمهم الزبير بن ماحوز وأوقع بهم هزيمة منكرة .

وتولى قيادة الخوارج بعد الزبير قطري بن الفجاءة وزحف نحو الأهواز من جديد ، وفي كل قطر يمر به كانت ترفد جماعته حشود غفيرة من الفقراء ولا سيما العبيد والموالي الذين ارتاحت نفوسهم للمبدأ الخارجي ، لما يدعو اليه من ثورة وتمرد ، مما جعل حركة الخوارج تبدأ بالتحول من انتفاضة سياسية إلى تيار فكري اجتماعي ، ولكن هذا التيار ظلت تغلب عليه العفوية والسذاجة وعدم مقدرة

أصحابه على التكيف مع أوضاع الحياة الاجتماعيـــة التي انتقل بها العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومن السلطة العشائرية إلى سلطـة الدولة المركزية ، وكان أولئك المتمردون مستعدين للاستشهاد قبل أن يعترفوا بأي قانون من القوانين المدنية التي تفرضها طبيعة الحياة الجديدة وضرورات التطور الاجتماعي .

وبعد أن حطّ قطري وجماعته الرحال في الأهواز رنا بعين نهمة متطلعـــة إلى البصرة وكانت بإمرة والي العراق مصعب بن الزبير ، فاستنجد هـــدا بالمهلب كي ينهض لمحاربتهم بعد ان كان قد ولاه امارة الموصل .

وشدّ المهلب لحرب الخوارج فنازلهم في عدة معارك ، واستمرت الحرب بينه وبينهم ثمانية أشهر ولكنها ظلت سجالاً بين الفريقين ما من رابح ولا خاسر .

وفي هذه الفترة طرأ تبدل جذري على أحوال العراق ، إذ خرج من أيدي الزبيريين لينتظم من جديد في عقد الدولة الأموية ، وأدرك الأمويون خطر تلك الجماعـــة الثائرة فعزموا على منازلتها بكل طاقات العراق .

وأسندت ولاية العراق في هذه الفترة لجبار ثقيف الحجاج بن يوسف ، فبـادر إلى الاستعداد لمنازلة قطري بن الفجاءة ، ولكنه فوجيء قبـــل ان يكمل عدة النهوض له بثورة خارجية جديدة يتزعمها شبيب الخارجي ، فلم يتهيب الموقف ، وإنما سار بجيشه قدماً في خضم من المتاعب ، وفرض على العراقيين ما يمكن ان نسميه بالتجنيد الاجباري .

وكان المهلب ما يزال يقاتل الأزارقة ، وقد استطاع شيئاً فشيئاً أن يدفعهم أمامه شرقاً داخل بلاد فارس ، ولما رأى انه لا يبلغ أربه منهم في ميدان الحرب ، عمل على الإيقاع بهم عن طريق الخديعة والحيلة ، وتمكن بما تحلى به من دهاء أن يبذر في صفوفهم بذور الفرقة ، فانشقوا فريقين مختلفين ، فريقاً بقيادة قطري وفريقاً بقيادة عبد ربه ، ولم يكن هذا الانشقاق نظرياً وحسب وإنما شهر الأزارقة سيوفهم وتحاربوا مدة شهر كامل ، فيما كان المهلب يضمد جراحه ويريح جنده ، ثم رحـل قطري مع أتباعه قاصداً طبرستان ، واتجه المهلب إلى محاربة عبد ربه وجماعتـــه حرب النَّفَس الطويل والتعقب المستمر ، وقد لاقى الأهوال في تلك المعـارك

المتلاحقة التي كانت تشتد حيناً وتفتر حيناً آخر ، وهو يتصيدهم فرادى ، ويصرعهم جماعات ، ويضيق عليهم الخناق ، حتى قتل زعيمهم عبد ربه وتركهم بَدَداً .

ولكن إذا كان عبد ربه قد قتل فان قطري ما زال حياً ، وها هو في طريقه إلى طبرستان ، لينازل قوات الدولة هناك .. إنما كان الأهم من ذلك كله ، والأشد وطأة على قلب الدولة ، هو شبيب الخارجي الذي ظهر في سواد العراق !..

لقد كانت المعارك ، كما يقول الأستاذ عمر أبو النصر ، تدور بين المسلمين والخوارج أشبه بالثورات المحلية ، إذا ظفرت الدولة بهم في ناحية من أمصار الدولة ظهروا في ناحية أخرى ، وإن قضت على زعيم من زعمائهم قام مكانه زعيم جديد ، وإن أثخنت في جماعة منهم ارتدوا إلى مكان آخر ثم كرّوا عليها يحاربونها في الوقت الذي يشاؤون [1] .

شبيب الخارجي

وهكذا كان ، فحين اشتد الضغط على الأزارقة ظهر الصفراوية ، وكانوا في بادىء أمرهم بقيادة صالح بن مسرح ، وشبيب يحارب تحت لوائه ، وانطلقت شرارة هذه الثورة من مدينة الموصل ، وكان صالح من فقهاء الخوارج ، زلق اللسان قوي الحجة ، يعرف كيف يلعب بعواطف سامعيه ، وحسبنا هنا تلك الكلمة من كلماته بوصف مظالم عمال الدولة الأموية ، وتحريض جماعته على شق عصا الطاعة :

« ما أدري ماذا تنتظرون ، وحتى متى أنتم مقيمون على الجور وقد فشا ، وهذا العدل قد عفا ، ولا تزداد هذه الولاة على الناس إلا غلواً وعتواً ، وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب [2] » .

وجمع صالح أتباعه وفيهم شبيب الخارجي الذي كان قائداً من قواده ، وسار بهم يدعو الناس إلى اتباع عقيدتهم ، يخيّرهم بين اعتناق المذهب الخارجي أو تحكيم السيف !

---

١ - الخوارج في الاسلام ، ص ٨١

٢ - الطبري ج ٧ ص ٢٠٨

وشعر الأمويون بخطر هذه الحركة الجديدة ، فسارع لقتالهم محمد بن مروان أمير الجزيرة آنئذ ، وسيّر نحوهم جيشاً عدّته ألف فارس ، فمني هذا الجيش بالهزيمة ، فسيّر اليهم جيشاً ثانيـاً عدّته ثلاثة آلاف محارب ، ولكنه لم ينل من الخوارج وطره ، إلا انه اضطرهم إلى مغادرة الجزيرة ، والانطلاق نحو سواد العراق ، وما هي إلا أيام قليلة حتى باتوا يهددون الكوفة مقر الحجاج .

ولما بلغ الحجاج نبأ زحف الخوارج نحو الكوفة ، هبّ بما عرف عنه من عزيمة لتدارك الخطر المحدق بالدولة ، فجند ثلاثة آلاف مقاتل من أبناء الكوفة بقيادة الحارث بن عميرة ووجههم للقائهم ، ودارت بين الفريقين معركة شديدة سقط فيها زعيم الخوارج صالح بن مسرح قتيلاً ، فحقدوا لواء القيادة لشبيب بن زيد وهو من جمال عُمان ، فإذا بـه ينتزع لواء النصر من أيدي جيش الكوفة ويثأر لصالح بن مسرح بقتل الحارث بن عميرة ، وتشتت جيش الكوفة ، وتمزق تحت ضربات السيوف ، وولت فلوله تطلب المدائن .

كانت تلك المعركة أول انتصارات شبيب ، وقد واكبت انتخابه زعيماً على الخوارج ، فاشتدت عزائمهم به مضاءً ، وارادتهم تصلباً ، واندفعوا اندفاعاً جنونياً لخوض غمار المعارك ، والانزلاق في خضمّ التمرد ، مسترخصين الحياة ، مستطيبين الموت ، دفاعاً عن عقيدة هي أجنح للتطرف الأعمى والسذاجة المفرطة منهـا إلى مفاهيم النهج الثوري ودوافع النضال .

وسار شبيب بجماعته صوب الموصل عام ٧٦ هـ ٦٩٥ م ، وتمكن وهو في طريقه اليها من أن يدحر جيشين بعث بهما الحجاج ، فنازل الأول في خانقين وكان بقيادة سفيان بن أبي العالية ، والثاني في النهروان وكان بقيادة سورة بن أبجر التميمي . ولما شارف المدائن ، داخـل المدينة هول بالغ وفزع طاغ ، حتى بلـغ من أمرها أن هربت منها حاميتها العسكرية ، فتدارك الحجاج الأمر بأن أنفذ جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة عثمان بن سعيد الجزل ، لمنازلتهم والقضاء السريع عليهم ، غير ان الجزل لم يتبع تعليمات واليه ، بل رأى من الحكمة ، رغم ضآلة عدد أعدائه ، ألا ينازلهم إلا باحتراس وحذر بالغين ، وألا يبادرهم الهجوم إلا حينئذ

يرى الفرصة سانحة لتحركه ، وجعل يخندق حول نفسه ، فلم يرض الحجاج ذلك وأمده بجيش آخر بقيادة سعيد بن مجالد عدّته ألف محارب على أن تكون القيادة لسعد .

وكان ابن مجالد على طرفي نقيض من ابن الجزل ، فركب موكب التهور والمجازفة، وكان أن ظهر شبيب بجيشه البالغ مائة نفر (؟) على جيش عدّته خمسة آلاف محارب بعد قتل سعيد بن مجالد .

وعلى الرغم من تأكيد المؤرخين [1] هذا التفاوت الكبير في عدّة الجيشين ، فاننا نعتقد بأن ما عرف به الخوارج من حماسة عجيبة وجرأة مذهلة قد نسجت حول بطولتهم الخارقة كثيراً من الأساطير . إلا ان الأستاذ ثابت اسماعيل الراوي يعلل انتصار شبيب هذا بعدة عوامل ، فيقول : « لم تكن شجاعة شبيب وبسالة أصحابه هي وحدها سبب انتصاراته العديدة ، بل كانت أمور أخرى، هذه الأمور هي : أولاً : ان أهل الكوفة لم يكونوا مخلصين في قتالهم يفرون عند أول لقاء لما كانوا يلاقونه من فتك الخوارج . ثانياً : ان أهل الكوفة رأوا ان هذه الحروب ليست فيها مكاسب مادية تشجعهم على القتال . ثالثاً : انهم لم يكونوا راغبين في معاونة الحجاج لتثبيت سلطانه وسلطان الأمويين . رابعاً : ان هؤلاء الخوارج كانوا ينتمون إلى القبائل العراقية فكرهت عشائرهم ان تقاتلهم في سبيل الحجاج الذي استثقلوا ظله وقاسوا من شدته وبطشه ما يكفيهم ليس فقط إلى الاخلال بطاعته بل إلى الثورة والتمرد عليه [2] » .

وبذلك الانتصار الحاسم أصبح الطريق إلى الكوفة ممهداً أمام شبيب وجماعته الثائرة ، رغم ان الحجاج قد عمل المستحيل ليوقف زحفهم ، فقد كانوا يزيلون أية عقبة تعترض سبيلهم ، موطدين العزم على دخول الكوفة وقتل واليها كخطة أولى لمناهضة الحكم الأموي . وما لبثوا أن دخلوا الكوفة ، وضربوا الحصار على قصر الحجاج الذي وجد نفسه فجأة وقد وقع في مصيدتهم .

---

١ - الطبري ج ٧ ص ٢٤١

٢ - العراق في العصر الأموي ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

وهكذا غدت المدينة في قبضة ذلك الخارجي الثائر الذي أدى الصلاة في جامعها وأعمل سيفه برقاب جمع من وجوهها ، ولكنه رغم استيلائه على كافة أحياء المدينة لم تطل يده الحجاج ، وظل هذا صامداً في مأمنه يحرض الكوفيين على القتال ، كما أمر قائده عثمان بن قطن للنهوض اليهم بخمسة آلاف مقاتل ، فتحرك شبيب لمنازلة هذا الجيش وعدد أنصاره واحد وثمانون خارجياً (؟) ، وأوقع فيه حتى بلغ عدد قتلاه ألفاً وخمسمائة ، وكان من قتلاه عثمان بن قطن نفسه ، وقد جرت تلك المعركة في تخوم الموصل .

نهاية شبيب وقطري

ولمس الحجاج تثاقل العراقيين عن قتال هذه الشرذمة التي دوخت الجيوش العراقية ، فرأى من الحكمة ان يستنجد عليهم بالجيوش الشامية بعد ان عاثوا فساداً في سواد العراق ، وكسروا الخراج ، وقطعوا الطرق ، وأعملوا السيف برقاب من ناهضهم وعارضهم ، وبدأت نواتهم الأولى تتضخم في كثير من المناطق شمالي الخليج .

ولما بلغ الحجاج نبأ تسيير حملة أهل الشام ، وضع كل ثقله في تجنيد من استطاع من أهل العراق الذين أدركوا خطر الخوارج ، وجهز منهم جيشاً بقيادة عتاب بن الورقاء ، فبادر شبيب للقائه وكان معه حوالي ألف مقاتل تخلف منهم أربعمائة ، ومع ذلك فقد استطاع أن يدحر جيش الحجاج ، ويقتل قائده عتاب ، ويزحف مرة ثانية صوب الكوفة ، ويضرب الحصار عليها .

ولكن القوات الشامية ما لبثت ان قدمت إلى الكوفة بقيادة سفيان بن الأبرد ، وكانت قوات نظامية مدربة على أساليب القتال ، وقد استطاعت أن تجلي الخوارج عن المنطقة ، بعد ان قتل في المعركة مصاد أخو شبيب وزوجته غزالة وكانت على جانب كبير من الشجاعة والضراوة في القتال تحت راية زوجها .

وتعقبت القوات الشامية الخوارج بقيادة خالد بن عتاب ، فلجأوا إلى المدائن واعتصموا بأحد الأديرة ، ثم هبوا فجأة في وجه القوات التي حاصرتهم ، فتفرقت

وألقى بعض أفرادها بأنفسهم في مياه دجلة هرباً من صولة الخوارج وذريع فتكهم.

وأنفذ الحجاج لقتال الخوارج حملة أخرى بقيادة حبيب بن عبد الرحمن الحكمي على رأس ثلاثة آلاف محارب ، فجدّ في أثرهم وأخذ يتعقبهم ، ثم التقى بهم قرب الانبار فصمدوا له قليلاً ثم انسحبوا إلى الأهواز وفارس ، فواصل حبيب ملاحقتهم وأمده الحجاج بأربعة آلاف مقاتل بقيادة زياد بن عمر ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة على ضفة نهر دجيل بالأهواز استمرت نهاراً كاملاً ، ثم أمر شبيب جماعته بأن تعبر النهر إلى الضفة الأخرى ، وكان هو آخر من يعبر النهر منهم ، فنزا به جواده فسقط في النهر وهو مسربل بالحديد ، فكان ذلك نهاية الخارجي الذي قال فيه الشاعر :

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريح عاصفة والموج يلتطم

أما قطري بن الفجاءة ذلك الثائر المخيف الآخر فكان قد انسحب إلى طبرستان، فأرسل الحجاج جيشاً لجباً من أهل الشام بقيادة سفيان بن الأبرد لتعقبه ، وبعث إلى اسحق بن محمد الأشعث قائد جيش الكوفة في طبرستان أن يلتحق بالأبرد ، فجدّ سفيان في أثر قطري حتى أدركه في أحد الجبال ، فهاجمه هناك ، وبوغت الخوارج ، وتفرقوا حين رأوا زعيمهم يقع عن حصانه ويهوي متدحرجاً حتى أسفل الجبل .

شرارات محرقة في المشرق وضرام ملتهب في المغرب

وبنهاية قطري وشبيب قضي على أخطر حركتين من حركات الخوارج ، غير ان تاريخ تلك الجماعة لم يقف عند هذا الحد ، بل تبعته عدة ثورات محلية كانت جيوش الامبراطورية تتداركها سريعاً . ومن أهم تلك الثورات في العصر الأموي ثورة بسطام الخارجي الذي نهض ثائراً سنة ١٠٠هـ ٧١٨م في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أراد أن يحقن دماء المسلمين فأوفد إلى بسطام أن يرسل له رجلين يناظرهما، وقد

اقتنع أحد الرجلين بحجة الخليفة الورع وتردد الثاني . ولكن ما إن قضى الخليفة الزاهد حتى سارعت جيوش الدولة لإبادة جماعـــة بسطام ، كما ثار خارجي آخر يدعى البهلول بن بشر لما تولى ولاية العراق خالد القسري، وقد استغل سوء معاملة عمال الدولة لأبناء الرافدين وخاض عدة معارك ضد خالد ، ثم رأى البهلول ان خير ما يفعله هو مهاجمة مقر الخلافة في دمشق،وطلبُ رأس هشام بن عبد الملك بالذات، ولم يتردد في السير إلى الشام لتحقيق غرضه هـــذا ، غير ان جيوشاً ثلاثة أحاطت بجماعته ومزقتها .

وخلال ذلك كان الخوارج قد نفذوا في المغرب إلى قـلوب البربر الذين شقوا عصا الطاعة ، فسيّر لهم هشام جيشاً قوامه ثمانون ألف محارب (؟) فتغلبوا عليـه ، فأتبعه بجيش آخر كانت له الغلبة عليهم .

وبقيت للخوارج فلول وفرق تظهر وتختفيهنا أو هناك من أنحاء الوطن العربي، ومن فرقهم المعتدلة التي كانت لها قوة الاستمرار « الاباضية » التي تحدر عنهـــا ائمة عمان .

الشيعة وثورات أخرى

لم تكن ثورات الخوارج على دويها أخطر الثورات التي أطاحت بالدولة الأموية، رغم كل ما اتصفت به من العنف والاضطراب ، الفينة تلو الفينة ، وقطراً بعد قطر ، والتي استمرت يتعاقب عليها الاشتعال فالخمود ، والاضطرام والهمود، حتى عهد المتوكل العباسي . فقد شهد ذلك العصر ثورات دونها دوياً في الميدان العسكري ، ولكن أعمق منها في المجال السياسي، وأهمها ثورات الموالي،والثورات العلوية وما لازمها من ظروف وملابسات انفجرت عنها الثورة العباسية الكبرى التي أطاحت بالدولة الأموية والعرش المرواني . والجدير بالملاحظة ان جل تلك الحوادث والأحداث كان مسرحها شمالي الخليج أو شرقيه : العراق وفارس.

العلويون والامويون

منذ بدء الصراع ما بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، كان النزاع — رغم كل الظواهر التي كانت تدور حول مصرع الخليفة الراشدي الثالث — يخفي في طياته موضوع الحكم والاستئثار به . ولما قتل الإمام ودانت الخلافة الأمويين ، وعملوا على حصرها بأسرتهم ، نادى العلويون بدورهم بأحقيتهم بالخلافة ، على حين نادى المنشقون عن علي ، ونعني بهم الخوارج ، جهاراً وعلى رؤوس الأسنة، ان الحكم يجب ان يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، وان الحق للقدرة

والأهلية لا للحسب والنسب . ونشب الصراع على أشده ما بين هذه الأحزاب الثلاثة ، ثم ما تفرع عنها ، وتغلغل الفرس في بعض هذه الأحزاب ، هادفين إلى غرض سياسي من وراء شعار ديني ، ولم ينته طرف من ذلك الصراع إلا وقد نكست الراية الأموية وقهرت العروبة على دولتها ، وفقدت دمشق مركزها من قلب الخلافة .

لقد قام الحزب العلوي على فكرة دينية بحتة ، هي موضوع الإمامة وأحقيتها لعلي دون سواه ، باعتباره أقرب الناس إلى النبي ، ولكونه قد أوتي إدراكاً عميقاً وتفهماً دقيقاً لروح الشريعة ، إلى جانب ما تحلى به من شجاعة خارقة اشتهرت عنه. ولقد ظهرت هذه الفكرة أول ما نجمت ساذجة بسيطة صافية، وبانتقال الخلافة إلى الأمويين وحصرها في بيتهم دون سواه ، اصطبغت الفكرة العلوية بالصبغة التي أظهرت ان الأمويين ليسوا إلا مغتصبي السلطة من أصحابها الشرعيين .

ومن الجلي الغني عن البيان ان العلويين كانوا يضمرون الحقد للأمويين رغم مبايعتهم معاوية بالخلافة سنة ٤٠ هـ ٦٦٠ م ، ولا شك انهم قد بايعوه مكرهين ، واذعاناً للواقع،حين رأوا ان الأوضاع العامة تعاكسهم وتساير أعداءهم التقليديين، فاضطروا إلى كبت ما يضمرون ، وأن يبطنوا غير ما يظهرون ، باستثناء فئة جريئة قوية لم تكن تتردد في إلصاق تهمة الاغتصاب بالأمويين،وعلى رأسهم معاوية، شأن سعد بن مالك الذي خاطب معاوية حين مبايعته إياه قائلا : « السلام عليك يا أيها الملك ! » فغضب معاوية وقال : « ألا قلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال : « ذلك إن كنا أمّرناك [1] » .

والجدير بالذكر ان المذهب الشيعي كان مرتعاً خصباً لكثير من الحركات المستقلة التي تفيأت ظل التشيع وصولاً إلى غاياتها ، وهي الإطاحة بالحكم الأموي ، وهي لا تصدر إلا عن أهداف اقليمية أو عنصرية كحركة الموالي التي سارت في ركاب العلويين .

---

١ - اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٣

وقد اشتط بعض الغلاة في نظرتهم الدينية إلى علي وأحفاده،وغالوا في التطرف، إلى أن ألصقوا بعلي قبساً إلهياً حل فيه واتحد بذاته ، فكان في نظرهم عالماً بالغيب، مدركاً مخبآت الأيام ، ووصفوه بالعصمة ، وما زالوا يتجادلون بفكرتهم هذه حتى رفعه بعضهم إلى درجة الألوهية [١]

كان المذهب الشيعي يتفق وفكرة الخوارج في النظـــرة إلى الوضع السياسي القائم وإلى الخلافة الأموية ، بكونها خلافة مغتصبة بقوة السلاح، خلواً من أية صفة شرعية ، ولذا وجب مناهضتها والإطاحة بها، غير ان كلًا من الحزبين ذهب بمناهجه التطبيقي مذهباً مغايراً للآخر .

لقد رأينـــا فيما سبق ان حركات الخوارج اتسمت بالعنف والشدة والدعوة إلى عقيدتهم علانية ، والإفراط بالجهر والتحدي ، كما رأينـــا كيف ان بهلول الخارجي قد ذهب يطلب رأس هشام عبد الملك بشرذمة صغيرة من الناس ، امـا الشيعة فكانوا على نقيض هؤلاء الثائرين الدمويين ، وكانوا أقرب إلى الحذر ، وهم إن أمكنتهم الفرصة دعوا لعقيدتهم جهاراً، وان لم تؤاتهم الظروف لجأوا إلى السر، والتظاهر بغير ما يعتقدون ، وأقروا القول بالتقية [٢] ، ولم تكن حركاتهم فورية مرتجلة ، وإنما متئدة مدروسة ، تخطط لنفسها سبيل الظفر ورجحان الكفة .

وذر رأس النقمة أول ما ذر بسبب حراجة صدر معاوية رغم كل ما عرف عنه من الأناة والدهاء ، لما أمر واليه المغيرة بن شعبـة بأن يلعن على المنابر علياً وأهـل بيته وجماعته ،فأثارت هذه البادرة السيئة سخط الشيعة على الحكام والولاة الأمويين،

---

١ ـ راجع تفصيل ذلك في الشهرستاني ص ٢٤ وفي مختصر الفرق بـين الفرق للبغدادي ص ٢٢ و ١٣٣ و ١٤٢ وقد انكر الامام علي هذه الدعوى أشد الانكار وسفه اصحابهـا وجادلهم فلم يرجعوا عما ذهبوا اليه ، ويقول البغدادي ان عبد الله بن سبأ كان من اصحاب هذه الدعوى . ويقول احمد أمين ان الموالي كانوا اسرع الناس الى اعتناق مذهب ابن سبأ في تأليه علي حينما قدم الى البصرة والكوفة ، ووجد هذا المذهب قبولاً لديهم لتشابهه بالمذاهب الدينية الفارسية القديمة (فجر الاسلام ص ٢٠٥)

٢ ـ انظر فجر الاسلام ص ٢٧٤

وكان أول من ناهض ذلك حجر بن عدي الكندي ، وهو صحابي جليل لم يتردد في أن ينهض مقاطعاً المغيرة خلال خطبة له ، ويقول غير آبه للعواقب وما يمكن ان تجره عليه جرأته : « ان الله عز وجل يقول : كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ، واني أشهد ان من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل ، وان من تزكون وتطرون أولى بالذم[1] » ، فلم يزد المغيرة إلا ان قال محذراً : « ويحك يا حجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته ، فان غضب السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك» ودخل الوالي الداهية بيته ، فلحقه من ظن به الضعف وسألوه رأيه في موقف حجر ، فقال : « اني قد قتلته ، انه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترون ، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة ... » وهكذا كان .. ظل المغيرة حتى قضى ، يصبر على تحديات حجر ، ويشايعه في ذلك أكثر جموع المصلين ، وحجر يقابل صمت المغيرة بالتمادي في جرأته حتى مات المغيرة دون ان يلطخ يديه بالدم ، تاركاً للأيام تحقيق نبوءته ، في ثورة من ثورات تلك العاصفة التي تذكرنا بعهد الامارتين اللخمية والغسانية قبل الإسلام .

وفي عام ٥١ هـ ٦٧١ م كان زياد بن أبيه (سفيان) سيد العراق ، وعملاً بأوامر معاوية سار سيرة المغيرة بشتم آل البيت العلوي والترحم على عثمان ، فبلغه وهو في البصرة ان حجر قاطع خطبة واليه في الكوفة وحصبه مع أنصاره بالحجارة ، فسارع بالشخوص إلى الكوفة ، وجابه الكوفيين بالتهديد ، وأخذهم بالشدة ، وطلب منهم تسليم حجر ، ومما قاله لوجوههم : « أتشجعون بيد وتأسون بأخرى ، أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر الأحمق . هذا والله من رجسكم ، والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم » .

وآتى التهديد أكله ، وما لبثت الجموع التي كانت تسير وراء حجر وتظاهره ان أخذت بالارفضاض من حوله ، فلم يجد بداً من طلب الأمـان ، وتسليم نفسه الى زياد ، فأرسله مخفوراً الى دمشق مع اثنى عشر شخصاً آخرين وتوصية خـاصة فيها

---

١ - الطبري ج ٦ ص ١٤٢

تشديد على حجر والتماس العفو عن الآخرين . فقتله معاوية وستة من أصحابه، وعفا عمن تبرأ من علي [1] .

وكتم الشيعة غيظهم ، وسكتوا على مضض ، ورفعوا حجر الى مرتبة الشهداء، وأخذت النار تضطرم تحت الرماد . وقد ازدادوا كرهاً للأمويين ، كما ازداد هؤلاء بغضاً لاولئك وانقاصاً لأعطياتهم .

وانفجر الحقد الكظيم حين عقد معاوية ولاية العهد لابنه يزيد ، وترأس الحركة المعارضة ثلاثة من أبنـــاء وجوه الصحابة هم الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي لم يتردد في مواجهة معاوية بقوله : « مـــا الخيار أردتها لأمة محمد ، ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية ، كلما مـات هرقل قـــام هرقل [2] » .

ولكن على الرغم من هذه المعارضة ، فقد تمت البيعة ليزيد ، وأدرك معاوية ما سيلاقيه خلفه من مصـاعب ومتاعب في ادارة البلاد ، فأوصاه قبل وفاته سنة ٦٠ هـ ٦٧٩ م وصية منها :

« .. وانظر الى أهل العراق ، فان سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله ، فـان عزل عامل واحد أهون من سلّ مائة الف سيف لا تدري على من تكون الدائرة.. ولست أخـاف عليك الا من ثلاثـة : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله ابن عمر ، فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيكه الله فانه قتل أباه وخذل أخاه ، وأما الزبير فانه خبّ ضبّ فـان ظفرت به فقطعه ارباً ارباً ، وامـا ابن عمر فانه رجلٌ قرقره الورع فخلِّ بينه وبين آخرته يخلّ بينك وبين دنياك [2] » .

ثورة الحسين

ما كاد يزيد بن معاوية يرتقي العرش الأموي حتى جـــاءت الاحداث مصدقة

---

١ - الطبري، ج ٦ ص ١٤٣

٢ - ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٦

تنبؤ داهيـــة العرب ، فقد اخذت الايام تتمخض عن جلل الأمور ، ونشط أهل الكوفة لمراسلة الحسين وحثه على الخروج اليهم ليبـايعوه بالخلافة ، وكانوا قد دعوه من قبل الى نقض بيعته لمعاوية ورفعه لسدة الخلافة على اثر مقتل حجر بن عدي .

ولاقت الدعوة هذه المرة هوى في نفس الحسين، لا سيما وقد أكد له الكوفيون بأنهم متفقو الكلمة على بيعته ، وعلى أهبـــة الاستعداد للسير وراءه ، وامتشاق الحسام في وجوه بني أميـة ، ولكنه آثر الأخذ بالحيطة والحذر والتأكد من حقيقة اولئك القوم الذين لا ينصرون حتى يخذلوا ، ولا يهبّون الا ليعـاودوا الخلود الى السكينة ، قتلوا أباه غيظاً قبل ان يخضب دمه الزكي جامع الكوفة ، وبايعوا أخاه بالخلافة ثم نازعوه على بساط تحت قدميـه ، والتفوا حول حجر بن عدي ثم انفضوا عنه وتركوه لمصيره !..

لقد أرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل ليستجلي له واقع العراق وحقيقـــة العراقيين قبل ان يقدم على تلك الخطوة المصيرية في حيـاته وحيـاة الأمة العربية . وما كاد مسلم يبلغ الكوفة حتى جعلت الوفود تترى عليه، والجموع تلتف من حوله، والاصوات تتعالى بتأييد الحسين وشيعة الحسين ، ولكن دون ان يطردوا العامل الأموي ، أو يتعرضوا للأمويين بكلمة شر . وكان ابن عقيل من السذاجة السياسية بحيث بهرته تلك الكثرة من المؤيدين ، دون ان ينتبه لواقع السلطة بيد الأمويين ، فكتب الى الحسين يستعجله القدوم .

ولم تكن الأمور من السهولة واليسر اللذين صورهما ابن عقيل لابن عمه الحسين، اذ قدرت عيون يزيد ان تعرف مهمة مسلم الراميـــة الى التمهيد للحسين وزعزعة السلطة الاموية ، وتهاون الوالي الأموي النعمان بن بشير تجـاهه ، فبـادر يزيد الى تنحية النعمان عن منصبه وأسند ولاية العراق لعبيد الله بن زياد فنكل بالشيعة ، ولاحق زعماءهم ، وقضى على ابن عقيل بعد ان استطاع تفريق جماعته عنه وكان انصاره يبلغون ثلاثين الفـاً فتضاءلوا حتى اصبحوا ثلاثين رجلاً فقط [1] . وبمصرع

---

١ ـ مقاتل الطالبيين ص ١٠١

ابن عقيل خفتت الاصوات التي كانت مرتفعة ، وهدأت النفوس التي كانت تضطرم بالثورة ، وهكذا قضي على حركة ابن عقيل في مهدها ، إذ كان جل الشيعة مساقين بالعاطفة تنقصهم الارادة الحازمة ، والتصميم على التضحية ، والحماسة الفعلية لمذهبهم.

وترك الحسين المدينة ، ميمماً شطر الكوفة ، غير عالم عن الاوضاع الأخيرة ومقتل ابن عمه شيئاً ، وقد نصحه كثيرون من أهل المدينة ألا يقدم على هذه المغامرة ، وذكروه بماضي أهل الكوفة مع أبيه وأخيه ، ولكن يبدو أن وطأة الأحداث ، وكتاب ابن عقيل البريء الكلمة ، كانا أشد وقعاً في نفس الحسين من النصيحة والكلمة المخلصة .

ومضى الحسين قاصداً الكوفة ، حتى اذا قطع شطراً من الطريق لقيه الفرزدق فسأله الحسين : « كيف خلّفت الكوفة ؟ » فقال له تلك الكلمة الواقعية المخلصة : « خلّفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية عليك [1] » .

ومع ذلك ، ضرب الحسين بتلك النصيحة عرض الحائط ، واستأنف سيره متابعاً الطريق وهو على ما يقال في ثمانين شخصاً من أهله وأصدقائه ، ولما داني البلد الذي يقصد أتاه نبأ مقتل ابن عمه مسلم واستكانة أهل الكوفة أمام سيف السلطة ، فرأى العودة من حيث أتى أسلم عاقبة ، ولكن مرافقيه رأوا عكس ذلك ، وضرورة متابعة المسيرة ، وبالتالي الانتقام من قتلة ابن عقيل ، ولو نجم عن ذلك مصرعهم جميعاً .

وكان عبيد الله بن زياد قد أعدّ للأمر عدته للأمساك بالحسين وجماعته بعد أن خمدت الحركة في الكوفة ، وامتنع الشيعة عن مؤازرته . وهل يستطيع رهط قليل العدد قيل انه لا يزيد على تسعين نفساً ملاقاة جيش كامل قيل انه يبلغ عشرين الف مقاتلاً ؟.. لقد كانت النتيجة معروفة سلفاً ، وقد أسفرت عن مقتل سبط الرسول الكريم والأغلبية العظمى من مرافقيه [2] ، في مأساة دامية تبسط فيها المؤرخون والأدباء والشعراء بملاحم وآثار أدبية روائية وتاريخية لا تنقطع .

وكانت هذه الحادثة المفجعة ، من أعمق وأخطر ما تمخضت عنه الاحداث من

---

١ - ابن الاثير ج ٤ ص ١٨

٢ - الامامة والسياسة ج ٢ ص ٦ ومقاتل الطالبيين ص ١٢٠ والمسعودي ج٢ ص٨٦ - ٩١

تطورات ووقائع غيّرت وجه التاريخ العربي خاصة والاسلامي عامة ، وحفرت هوة لا يمكن اجتيازها بأي جسر سياسي أو قومي أو عصبي ، أو أية وسيلة من وسائل الحياة المشتركة ، ما بين الشيعة والبيت المالك الأموي ، إذ اضطرمت الأحقاد التي تفجرت عن الثورات العلوية المتتابعة ، وتوحدت كلمة الحزب العلوي، ونفخ فيه الدم المسفوح الحماسة والجرأة بعد أن كان يعوز معظم أفراده الحزم والعزم والعمل المخلص والتفاني في سبيل الفكرة التي يحمل . ويذهب فيليب حتي إلى القول بأن الحركة الشيعية انما بدأ ظهورها في العاشر من محرم [١] وانضمت إلى الشيعة في غضبهم جميع العناصر المناوئة للعرب وخاصة الموالي فوضعوا بذلك الحجر الأساسي في الحركة الشعوبية [٢] .

وتبلورت مفاهيم العقيدة التي يعتنقها الشيعة ، وانتقلت من العراق إلى فارس، وكان الدهاء الساساني قد ربط بأواصر الدم ووشائج القربى ما بين يزدجرد الثالث والحسين بن علي ، إذ حمل ساسة الفرس ابنة آخر ملوكهم زوجة لحفيد الرسول العربي الكريم ! .. ويعزو ارنولد اقبال الفرس على اعتناق الاسلام وعلى التشيع لآل النبي إلى هذا الزواج ، لأنهم رأوا في أولاد الحسين من ابنة يزدجرد وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية . ويضيف ارنولد أن هذا الشعور الوطني هو الذي يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلي [٣]. والواقع ان الموالي كانوا يتعلقون بكل ما يهدم الدولة العربية في الشام ، فقد بايعوا ابن الزبير بصفته ثائراً على الدولة ، والتفوا حول المختار حين قام في وجه الحكم الأموي ، ثم أيدوا ابن الأشعث ويزيد بن المهلب وهما من غير الشيعة ، بل انضموا إلى الخوارج وهم أعداء الشيعة الألداء ، ولكنهم جميعاً تجمعهم كراهية الحكم الأموي [٤] وأغرب من ذلك انهم رضوا عن خلافة يزيد بن عبد الملك الأموي لأن أمه فارسية [٥] !

---

١ ـ تاريخ العرب (المطول) ج ٢ ص ٢٥٣
٢ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٥٤
٣ ـ الدعوة الى الاسلام ترجمة ابرهيم وعابدين والنحراوي ص ١٨١
٤ ـ تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ١٦٣
٥ ـ المرجع السابق ص ١٨٤

وقد انتبه ابن حزم إلى ذلك حين رأى أن تشيع الموالي كان هدفه الأول الكيد للاسلام وقال : « ان الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم ، حتى انهم كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والابناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم إلى أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الناس عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة [1] . »

وقد أجمع المؤرخون على الأثر الخطير الذي تركته موقعة كربلاء في التاريخ العربي ، وفي تكتيل القوى المعارضة للحكم الأموي ومما قاله في ذلك السيد أمير علي : « لقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع في جميع البلاد الاسلامية ، كما أذكت في نفوس أهل بلاد الفرس ذلك الحماس الوطني الذي ساعد بني العباس على ثل عرش الأمويين وإسقاط دولتهم [2] » أما رينولد نيكلسون فيقول : « ان هذا اليوم وحّد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بثأر الحسين ، هذا النداء الذي دوى في كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من حكم العرب [3] »

وصفوة القول ، انه قد نجم عن مقتل الحسين الفاجع ، تألب القوى على البيت الأموي المالك ، ومنها القوى العربية المتشيعة للامام علي ، والقوى الفارسية التي وجدت في هذا التشيع — كما يقول سيد أمير علي — متنفساً لحماسها « الوطني » ، ورأت فيه — كما يقول نيكلسون — سبيلها إلى « الخلاص من حكم العرب » !

الحركة التوابية

هي حركة من صميم حركات الشيعة ، كان من بواعثها وتشكل نواتها ، تلك الآثار التي نجمت عن مصرع الحسين الفاجع ، والندم لخذلانه ساعة الوقيعة ، وتفرق

---

١ ـ الفصل في الملل ج ٢ ص ١١٥

٢ ـ A Short History of the Saracens P. 87

٣ ـ Literary History of the Arabs, P. 197 - 198

أتباعه الذين أدركوا الخطب الذي حلّ بساحتهم ، إذ قتل إمامهم وحفيد رسولهم في ديارهم وهم قاعدون عن الجهاد في سبيل العقيدة التي بها يؤمنون والمبدأ الذي له يعملون .

وعمل الشيعة من جديد على توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم ، لمحو العــار الذي سجلوه على أنفسهم ، وهبوا مطالبين بالثــأر لدم الشهيد الذي تحمل الدولة الأموية إصره. وقد سمى رجال الثورة الجدد أنفسهم بالتوابين، لندمهم على خذلان الحسين، والتوبة عما ارتكبوه من اثم في حقه ، إذ دعوه الى النصرة ثم تخلوا عنه ولم يؤازروه او ينصروه .

ونشطت الحركة التوابيــة في الكوفة وهدفهــا الأول تعقب قتلة الحسين والاقتصاص منهم ، ثم العمل للاطاحة بالدولة الأموية ، وتنصيب خليفة للمسلمين من البيت العلوي . والتف التوابون حول سليمان بن صرد الخزاعي ، ليقودهم الى المحجة التي ينشدون، وأمّروه عليهم عام ٦١ هـ ٦٨٠ م ، فخطب فيهم يوم بيعتهم له خطاباً حماسياً يستحثهم فيه على شحذ السيوف ، وشرع الأسنه ، والنهوض الى الجهاد لقتال أعداء الله :

« اني والله لخائف ألا يكون اخرنا الى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة وعظمت فيه الرزية ، لما هو خير ، انا كنا نمد أعناقنا الى قدوم آل نبينا ونعدهم نصرنا ، ونحثهم على المسير الينا ، فلما قدموا ونينا وعجزنا وداهنّا وتربصنا ، حتى قتل فينا ولدينا ، ولد نبينا وسلالته وبضعة من لحمه ، فاتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودريئة للرماح ، فلا ترجعوا الى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله مــا اظنه راضياً عنكم دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا ، ولا تهابوا الموت فوالله ما هابه أحد قط إلا ذلّ، وكونوا كتوابي بني اسرائيل إذ قال لهم نبيهم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم ، فما فعل القوم ؟ جثوا والله على الركب ، ومدوا الاعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا انه لا ينجيهم من عظم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم الى مثل

ما دعي القوم اليه ، اشحذوا السيوف وركبوا الأسنة وأعدّوا لعدوكم ما استطعتم من قوة [1] » .

وأخذت قوى الشيعة بالتجمع والتكتل واقفة رهن اشارة قائدها لاطلاق شرارة الجهاد الأولى ، لكن سليمان أراد إحكام الخطة واستكمال عدتها قبل اعلانها على الملأ ، وأخذ بمراسلة الشيعة في كل من البصرة والمدائن يستحثهم على جمع كلمتهم والسير للقائه كي ينطلق بهم لمنازلة البيت الأموي والأخذ بثارات الحسين .

ولكن قبل أن يقول سليمان كلمته الحاسمة ، نجمت في الافق السياسي شخصية المختار الثقفي الذي تلبس ثوب التشيع وادعى ان له وحده حق تمثيله بتفويض من محمد بن الحنفية شقيق الحسين ، وأخذ يعمل على تفريق أنصار سليمان ليضمهم الى حظيرته ، مجاهراً بالقول: «انما يريد سليمان أن يخرج بكم ليقتل نفسه ويقتل أنفسكم، لأنه ليس له بصر في الحرب ولا علم له بها [2] » .

وقد استطاع المختار أن يثبط همم اكثر التوابين ويقعد بهم عن الخروج مع سليمان ، وبعد ان كان هذا يعتقد بأن مناصريه يبلغون ١٦ الف مجاهد ، تلفت حوله فلم ير الا ثلاثة الاف نصير ، وعلى الرغم من ذلك فقد خرج سليمان بهؤلاء سنة ٦٤ هـ ٦٨٣ م ليلاقي بالنخيلة جيشاً أموياً لجباً بقيادة عبيد الله بن زياد .

وطلب التوابون من الجيش الأموي تسليمهم قائده عبيدالله ليقتلوه بدم الحسين وتصان دماء المسلمين ، فكان جواب الأمويين الهجوم على تلك الجماعة الثائرة التي تمزقتها السيوف وناشدتها الرماح ولم يبق منها إلا النفر القليل . وكان في عداد القتلى قائد التوابين سليمان وكبار معاونيه [3] . وهكذا نرانا وجهاً لوجه مع ثورة المختار الثقفي ، الذي حمل لواء التشيع ، والمطالبة بثارات الحسين ، بعد أن حرض عمه سعد بن مسعود سابقاً لالقاء القبض على الحسن بن علي وتقديم رأسه على طبق

---

١ - انساب الاشراف للبلاذري ج ٥ ص ٢٠٦

٢ - الطبري ج ٧ ص ٥٣

٣ - ابن الاثير ج ٤ ص ٧٣ - ٧٩ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٤

ذهبي لمعاوية بن أبي سفيان ! .. »[1]

المختار بن أبي عبيد الثقفي

لما ارتقى عبد الملك بن مروان العرش الأموي ، جوبه بعدد من المشكلات كانت كل واحدة منها كفيلة بأن تقف عقبة كؤوداً في وجه الدولة ، وتحول بينها وبين الاستقرار والاستمرار والتطور ، فكيف إذا اجتمعت ؟ وأهم تلك العقبات وعقدة العقد هي العراق الذي كان شغل الخليفة الشاغل ، إذ أعلن استقلاله التام عن التاج الأموي ، وانضوى تحت لواء ابن الزبير .

وفي خضم تلك الأحداث ، واحتدام الصراع مـا بين الأموية والزبيرية على مسرح بلاد الرافدين ، ظهرت قوة ثالثة في مدينة الكوفـة تعمل باسم التحزب للشيعة ، ممثلة بشخصية المختار الذي كان عليه أن يحارب على جبهتين .

والمختار هو ابن أبي عبيد/بطل معركة الجسر الحابطة الذي مرّ حديثه في فصل الفتوحات . والمتملي لشخصية هـذا الرجل يرى فيه الوصولية والانتهـازية [2] ، والجوع الدائم لاشباع أنانيته ، لا يطمح إلا لاستلام السلطة عن أي طريق جاءت، أراد أن يتقرب إلى الأمويين بتحريض عمـه سعود بن مسعود لتسليم الحسن إلى معاوية ، فلما لم يجد فسحة في صفوف حكام الشام اندس في صفوف الحزب الزبيري في الحجاز [3] ، ولما لم يظفر ببغيته وطلبته لدى ابن الزبير انخرط في صفوف التشيع وعمل تحت لواء ابن عقيل ، وحين قتل إبن عقيل واستشهد بعده الحسين كان أحد رؤوس التوابين ، ولكنه لم يتردد في تفريق النـاس عن أميرهم سليمان الخزاعي ليجمعهم حول نفسه بتفويض لفّقه على لسان محمد بن الحنفية ، ثم فرض شخصه على

---

١ - انساب الاشراف للبلاذري ج ٥ ص ٢٠٧ وابن الاثير ج ٤ ص ٧٢

٢ - العراق في العصر الاموي ، ص ٢١١ والتاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، ج ٢ ص ١٩٣

٣ - ابن الاثير ج ٤ ص ٧٢

ابن الحنفية نفسه ، واستطاع ببراعته وقوة شخصيته أن يجمع حوله كثيراً من الشيعة .

وبعد أن اطمأن هذا الداهية إلى استقطاب الشيعة حول شخصه ، عمل على جر الموالي للسير في ركابه ، ولا سيما بعد أن أغضبهم ابن الزبير لأنه كان شحيحاً عليهم في المال وكان ينصر العرب الاشراف عليهم [1] وكان المختار قد حفظ عن المغيرة ابن شعبة حديثاً كان له أثر كبير في نفسه ، وملخص هذا الحديث كما يرويه البلاذري : « ان المختار ركب يوماً مع المغيرة فمر بالسوق ، فقال المغيرة : أما والله اني لأعرف كلمة لودعا بها أريب لاستجاب له أقوام فصاروا له أنصاراً ولاسيما العجم الذين يقبلون ما يُلقى اليهم ! قال المختار : وما هي يا عم ؟ قال : يدعوهم إلى نصرة آل محمد والطلب بدمائهم ! .. فكانت في نفس المختار حتى دعا [2] » .

وكان حديث هذا الرجل محبباً إلى قلوب الموالي جميعاً ، إذ منّاهم بأنه إذا ما آزروه وانتصر ، ساواهم باخوانهم في الدين من العرب ، في الحقوق السياسية والاجتماعية ، وفي الفيء والأعطيات ، بما كانوا يتطلعون اليه . وقد عاب أحدهم عليه أنه لم يسمع كلمة عربية في معسكره ، فدافع ابرهيم بن الاشتر عنه بقوله : « والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم — الأمويين — بها ، فكيف وما أشد بصيرة في قتال أهل الشام من هؤلاء الذين تراهم معي ، وإنما هم اولاد الأساورة من أهل فارس والمرازبة [3] » ويعيب نيكلسون على المختار اعتماده على الموالي ، لانه يرى ان المختار باعتماده عليهم قد حوّل حركته إلى حركة معادية للعرب بدلاً من أن تكون معادية للأمويين [4]

---

١ — تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ١٤

٢ — انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٢٣

٣ — الاخبار الطوال ، ص ٣٠٢

٤ — A Literary History of the Arabs , P. 215

وابتدأ المختار حركته بأن عقد لواء القيادة على جيشه لابراهيم بن الأشتر ، وهو وجه من وجوه الكوفة المرموقين ، ثم طرد عـامل ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي الذي التجأ الى البصرة ، وشرع يتعقب كل من اشترك في مقتل الحسين ، فقبض عليهم وقتلهم ومثل بهم تمثيلاً وفيهم ابن اخته .

وازداد كعب الرجل علواً بعد أن بسط نفوذه على الجزيرة وشمـال العراق والري واصفهان وازربيجان، وزاد نجمه تألقاً عند منازلته للأمويين في معركة الخازر وقتله عبيد الله بن زياد ، وأصبح وجهـاً لوجه مع القوة العربية الثـالثة ومركزها الجزيرة العربيـة والممثلة في شخص عبد الله بن الزبير الذي مـا زال محتفظاً بالبصرة وعليها أخوه مصعب وقد التجأ اليه كثيرون من أهل الكوفة ولا سيا وجهاءها لأن المختار سوّى مواليهم بهم .

واهتبل ابن الزبير فرصة غضب وجوه الكوفـة على المختار ، هذا الخصم العنيد الذي برز فجأة واستخلص منه الكوفة ثم بسط ظله على الضفة الشرقية من الخليـج .. ولم يكن ثمة بد من اصطدام هذين الندين المجبولين من طينة واحدة !..

وأنفذ عبد الله أخاه مصعباً على رأس جيش نازل المختار وتمكن من استخلاص الكوفة منه ، ثم دارت بين الفريقين معركة رهيبة عـام ٦٧ هـ ٦٨٦ م رجحت فيهـا كفة مصعب وتمكن من عدوه ، وكان من ضحاياها سبعة آلاف شيعي [١] . وبذا قضي على ذلك الرجل ذي المطامح الكبيرة التي عاش من أجلهـا وقضى دونهـا ، والذي قال :

« اني رأيت عبد الملك بن مروان قد غلب على الشام ، وعبد الله بن الزبير قد غلب على الحجاز، ومصعب بن الزبير على البصرة، ونجدة الحروري على العروض[٢]، وعبد الله بن حازم على خراسان ، ولست بدون واحد منهم ، ولكن مـا كنت أقدر على ما أردت الا بالدعاء الى الطلب بثأر الحسين [٣] » .

وهكذا دانت منطقة العراق بكاملها لعبد الله بن الزبير !..

---

١ – الشهرستاني جـ ١ ص ١٣٢
٢ – كان العرب يسمون اقليم البحرين : العروض .
٣ – انساب الاشراف جـ ٥ ص ٢٦١

اعادة العراق الى الحظيرة الأموية

لقد رأينا فيما تقدم كيف ان ابن الزبير تمكن في غمرة الأحداث التي أحاطت بمقتل الحسين واضطرام نار الثورة على الحكم الأموي ، من ان يكسب لنفسه البيعة في الحجاز ، ويمدّ سلطانه على الجزيرة العربية والعراق ، ويجعل مركزه مكة. غير ان الأمر لم يستتبّ لابن الزبير في العراق كما منّى نفسه بل كان العراق سبباً أولياً من أسباب سقوطه ، إذ أوقع نفسه هناك بين نارين محرقتين : نار الخوارج ونار الشيعة .

وقد رأينا كيف ان صدام الخوارج الأوّل « يوم دولاب » كان ضد قوات ابن الزبير التي قادها ابن أبي صفرة ، وحرب الخوارج حرب مضنية طويلة . ثم ان ابن الزبير لم يظهر دعوته أو يَدْعُ لنفسه الا متستراً بالترحم على الحسين ، واستنكار مأساة كربلاء ، والتعريض بيزيد بن معاوية ، ومع ذلك كان عدد قتلى أخيه مصعب في منازلته المختار بن أبي عبيد الثقفي سبعة آلاف من التوابين الصائحين : يا لثارات الحسين !..

على ان الأمر لا يتضح تماماً اذا نظرنا اليه على اساس بُعدين سياسيين فقط ، ووقوع ابن الزبير بين فكّي ملزمة الخوارج والشيعة ، وانما يجب علينا قبل كل شيء النظر الى البُعد الثالث ، الى تلك القوة التي هي أعظم القوى وأخطرها ، ونعني بها القوة المتربصة في الديار الشامية المتحلية بكل صفات القيادة السياسية لتمرسها بالملك الأموي .

لقد تمسك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الخامس بحبل التريث ، وأخذ يرقب الأحداث التي تجري على أرض العراق برباطة جأش وقوة عصب ، حتى اذا أدرك ان الجيش الزبيري قد أنهكته الحروب والفتن الداخلية ، ولم يعد في طاقة رجاله الاستمرار على القتال ، دفع في عام ٧١ هـ ٦٩٠ م ، بكل ثقل جيشه الى العراق ، فسارع مصعب الى لقائه في موقع على الضفة الغربية من نهر دجلة هو من أرض بغداد اليوم .

ولعبت الدعاية دورها بين الصفوف ، وعمل عبد الملك بن مروان على اجتذاب القواد العراقيين الى صفه ، فراسلهم سراً ومناهم بالأماني الغراض . وعلى الرغم من ان مصعب قد أدرك ما يحاك ضده في الخفاء وفي صفوف جنده وقواده ، فقد غض الطرف ، ونظر الى هذا الموضوع الخطير نظرة اللامبالي ، حتى اذا آذنت الحرب بادارة رحاها ، لم يكن مع مصعب الا النفر القليل .

ومع ذلك لم يتخاذل مصعب ، وأراد أن يعوّض بالشجاعة ما فاته من الحزم . ولما التقى الجمعان حارب مصعب حرب الأبطال الأشداء ، وظل ثابتـــاً في أرض المعركة حتى سقط قتيلًا ، وقتل معه اكثر من ظلوا على الولاء له . وبذا قضي على الحركة الزبيرية في العراق ، ودخل عبد الملك بن مروان الكوفة دخول الظافرين فبايعه أهلها في أخريات سنة ٧١ هـ ٦٩٠ م [١] .

ثم أنفذ عبد الملك حملة الى الحجاز على رأسها جبـــار ثقيف الحجاج بن يوسف للقضـــاء على عبد الله بن الزبير ، فحاصره في مكة ، ولم يتردد في قصف الكعبة بالمنجنيق [٢] ، على حين كان ينفض عن ابن الزبير أنصـــاره ومنهم ولداه ، وقضى ابن الزبير وهو يقاتل قتال الأبطال متأثراً بوصية والدته أسماء الصديقة التي حثته على الصبر والجهاد وعدم الخوف من التمثيل به بعد قتله بتلك الجملة الخالدة : « يا بني ! ان الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله » .

وبسقوط الزبيريين ، وقد دام حكمهم تسع سنوات (٦٤ – ٧٣ هـ ٦٨٣ – ٦٩٢ م) عادت للامبراطورية العربية وحدتها وقوتها ، ولكن لتواجه متـــاعب جديدة ، في المنطقة الشمالية من الخليج .

---

١ – الطبري جـ ٧ ص ١٨٨

٢ – يرى الدكتور حسن ابراهيم حسن ان عبد الملك بن مروان لم يرد ان يحط من شأن الكعبة ، وانما اضطر الى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث عن غير قصد ، وذلك ان الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة ، اذ كان الامويون يعتبرون ذلك بدعاً في الدين (تاريخ الاسلام السياسي جـ ١ ص ٤٠٩)

الثورات الشيعية من جديد

الثورات الشيعية التي ظهرت بعد اعادة العراق الى الحظيرة الأموية ، كثيرة الوقائع والأسماء والأحداث ، مما يضيق عن ذكرها كتابنا هذا ، وهي ثورات تبعت خطها الأول ، فكانت أهدافها هي ذاتها ، وكثيراً ما كانت متشابهة الأبطال متماثلة النتائج ، غير ان الملاحظ انه قد دخلت الساح عناصر غريبة تسترت بستار التشيع الذي وجدت فيه مقصداً لآمالها ومنفذاً لتحقيق أهدافها، فقد اشترك الموالي الفرس في هذه الثورات تعبيراً عن سخطهم ، وطمعاً باسقاط الحكم الأموي الذي كان يعني التفرد العربي بالحكم .

وهكذا وجدت الدولة الأموية نفسها مضطرة الى جانب فتوحاتها المظفرة ، على خوض الحروب الداخلية المتتابعة، واخماد الفتن المتواصلة، ولا سيا في شمالي الخليج وشرقيه ، المسرح الرئيسي للانتفاضات الثورية ، وتحركات التمرد الدموية ، الآخذ بعضها برقاب بعض ، ما إن تقمع واحدة ويقضى عليها ، حتى تشب نيران أخرى، ولعل أهمها ثورة زيد بن علي بن الحسين (زين العابدين) الذي طالب بحق اسرته في الخلافة وكانت دعوته منصبة على تلك الشعارات النافذة الى صدور الموالي الفعالة في نفوسهم :

« انما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، ورد المظالم، والدفاع عن المستضعفين، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهل السواد ، وجهاد الظالمين، ونصرة أهل هذا البيت على من نصب لنا وجهل حقنا [1] » .

والى جانب ثورات الخوارج والشيعة ، قامت ثورات ذات طابع استقلالي اقليمي ، كان أخطرها تلك التي أعلنها عبد الرحمن بن الاشعث الذي انتزع اكثر بقاع العراق من يدي الحجاج وانتصر عليه في اكثر من معركة ، ثم ثورتا يزيد بن المهلب وعبيد الله بن الحر . بيد ان كافة تلك الثورات قد أخمدت دون تحقيق

---

١ - الطبري ج ٨ ص ٢٦٧

أهدافها ، وباتت الدولة تنظر الى منطقة الخليج العربي على انهـــا منطقة ثورات متلاحقة متواصلة ، فكانت على الدوام متأهبة للقضاء على الفتن في مهدها ، وأسندت ادارة تلك المنطقة الى ولاة أشداء متسلطين عمدوا الى ادارة المنطقة على شريعة ظبى السيوف وأسنة الرماح ، كالحجاج وغيره ممن كان يستنكر أعمالهم العديد من أفراد البيت المالك في الشام .

ولكن في الوقت الذي كانت الدولة تتعقب جماعات بعينهـــا وفئات بذاتها ، كانت هنالك جماعات أخر تحفر عميقاً تحت أقدام الحاكمين ، مما سيتزعزع له العرش الأموي وينهار !

الثورة العباسية وانهيار الحكم الأموي

آخر أيام بني أمية

كان الحكم الأموي، بكل مظاهره التي تدل على الثبات والاستقرار، وفتوحاته التي بلغت الشرق الأقصى شرقاً وحدود فرنسة والمحيط الأطلسي غرباً، مهدداً بالانهيار من داخله وكان سوس الدمار ينخر بهيكله الجبار الذي أطل على العالم طوال مائة عام بوجهه العربي المشرق الأصيل. وحسبه ما لقي من ثورات الخوارج، وانتفاضات الشيعة، وتمرد الموالي، مما كلف الحكم العربي في دمشق الكثير من الرجال والعتاد والأموال، حتى اضطر إلى ركوب المركب الخشن باستبداد بعض حكامه وولاته مما يزيد الخرق اتساعاً، وحسبنا في هذا الصدد ما دار بين عمر ابن عبد العزيز الخليفة الأموي السابع (٩٩ – ١٠١هـ ٧١٧ – ٧٢٠م) وواليه على خراسان، فقد كتب اليه الجراح بن عبد الله: «ان أهل خراسان قوم ساءت أخلاقهم وانه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن في ذلك فعل، ورأيه الموفق» فكتب اليه عمر: «أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر به ان أهل خراسان قد ساءت أخلاقهم، وانه لا يصلح لهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام [1]»

١ – حماة الاسلام، ص ١٦٩

ولما اطمأن الناس إلى تسامح عمر بن عبد العزيز،وفيهم المناوئون السياسيون للدولة،عمدوا إلى نشر دعوتهم متفيئين ظل الخليفة الرحيم، مستغلين كرم خلقه ونبل قلبه ، فكانت ثمرات التسامح الحنظل المرّ في أفواه ساسة بني أمية وخلفائهم ممن تولوا الأمر من بعده .

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ ٧٢٤ — ٧٤٣ م) خرج زيد ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي الذي تنسب اليه جماعة الزيدية من فرق الشيعة التي عرفت بالاعتدال [١] ، وكان عالماً زاهداً شجاعاً وقد حاربه يوسف بن عمر والي العراق وهو في نفر قليل فأصابه سهم في جنبه قضى عليه سنة ١٢٢ هـ ٧٣٩ م، ودفنه أصحابه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً من ان يُمثل به، وقد دل عليه يوسف بعض العبيد ، فنبش القبر وأخرج جثة زيد وصلبها ثم أحرقها وذر رمادها في الفرات . ولجأ ابنه يحيى بعد هذه المعركة متنكراً إلى خراسان فبلغ حيث أعلن الثورة من جديد ولكنه لاقى نصيب أبيه فقتل وحرق سنة ١٢٥ هـ ٧٤٣ م أيام خلافة الوليد بن يزيد [٢] .

ويقول الدكتور علي حسني الخربوطلي : « لم يكن زيد من أولئك الزعماء الضعفاء ، فلم يستسلم للفرس سياسياً ، ولم يرم بنفسه في أحضانهم ، بل سعى سعياً متواصلاً لأن يكون زعيماً حقاً يتمتع بكل نفوذ وسلطان ، وهذا ينافي الخطة التي درج عليها الفرس ، فتخلوا عنه في أحرج الأوقات وأشدها خطراً [٣] » .

وزاد في اضطراب حبل الأمن في أيدي بني أمية ، ان هذا البيت العريق ابتلي في أخريات أيامه بخلفاء غير جديرين بهذا المنصب كالوليد الثاني بن يزيد (١٢٥ هـ ٧٤٣ م) ، « الذي ورث عن أبيه موهبته الفنية ومزاجه المرح الطروب . وإذ كان عمه هشام يطمع في عزله من ولاية العهد فقد اضطر إلى أن ينفق أيام شبابه

١ — العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٦٦ ؛ انظر فيما يتعلق بالمذهب الزيدي: الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ وفجر الاسلام ص ٣٢٤ — ٣٢٥ والفاطميون في مصر ص ٤٣ — ٤٤

٢ — اليعقوبي جـ ٣ ص ٥٧ و ٦١ والطبري جـ ٥ ص ٥٣٦ — ٥٣٨

٣ — تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٢٠٩

بعيداً عن البلاط في قصر من قصور البادية في فلسطين . حتى إذا قضى هشام ، ودخل الوليد العاصمة رحب به الناس ، على العموم ، وهللوا له ، مبتهجين بانقضاء عهد سلفه القائم على سياسة الاقتصاد وابتزاز الأموال . ولكن الوليد ما لبث أن خيّب آمال القوم فيه ، فلم تمض فترة من الزمن حتى انقلب إلى قصره الذي في البادية—حاملاً لقب الخلافة هذه المرة—ليفرغ هناك للهو والخمر والشعر[1] .

وقد أراد الوليد أن يسند ولاية العهد لولدين اثنين له يلي أحدهما الآخر ، وكل منهما قاصر وابن لأمة ، الأمر الذي لم يحتمله أفراد البيت الأموي ، فثاروا به وقتلوه . واعتلى العرش من بعده رأس الثائرين عليه ، يزيد بن الوليد عبد الملك (١٢٦ – ١٢٧ هـ ٧٤٤ – ٧٤٥ م) ، الذي لم تطل مدة خلافته أكثر من خمسة أشهر ، في الوقت الذي زحف عامل الجزيرة مروان بن محمد أحد حفدة مروان بن الحكم بجيوشه على دمشق بحجة الثأر للوليد ، فنهد للقائه سليمان بن هشام الذي لم يتردد وهو يتراجع مقهوراً إلى دمشق في قتل ولدي الوليد بن يزيد .

ولما تولى مروان بن محمد (١٢٧ – ١٣٢ هـ ٧٤٤ – ٧٤٩ م) العرش الأموي ، ثار به سليمان بن هشام في الرصافة ثم استولى على قنسرين ، فنهد اليه مروان وهزمه هزيمة منكرة ، ففر ملتجئاً إلى حمص ، فلما استعصت عليه أعمل بها مروان حجارة مجانيقه ، ثم أتبع ذلك تجريد عدد من المدن الشامية من تحصيناتها وفي رأسها دمشق دار الخلافة بالذات ، بالإضافة إلى القدس وبعلبك ، واتخذ حرّان مقراً لملكه .

وشق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق عصا الطاعة وأعلن الامتناع عن البيعة ، فسيّر اليه مروان النضر بن سعيد الحرشي ، ولكن ما كاد ينازله حتى اشتعلت نيران ثورة خارجية في العراق يقودها الضحاك بن قيس الشيباني ، فبادر المتقاتلان إلى التصافي وتوحيد الصف لقتال هذا العدو الشرس . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وعادت الرايات الخارجية تخفق في المدينتين المقدستين مكة والمدينة بقيادة أبي حمزة الخارجي . ناهيك بثورة عبد الله بن معاوية أحد أعقاب جعفر بن أبي

---

١ — تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٩٣ — ١٩٤

طالب الذي تمكن « من ان يغلب على مياه الكوفة والبصرة وهمدان وقم والري وقومس واصبهان وفارس، وأقام في أصبهان فلما ثبت مركزه أقبل عليه بنو هاشم ومنهم السفاح والمنصور وعيسى بن علي ، ومن وجوه قريش ومن بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك فمن أراد منهم عملاً قلده ، وكاد أن ينجح في الوصول إلى الخلافة لولا ان موجة طاغية أتت من الشرق ترفع أعلامها السود ، داعية إلى نفس ما دعا اليه عبد الله بن معاوية ولكنها كانت ترمي إلى هدف آخر هو أن يكون للفرس نصيب في الحكم . هذه الموجة هي الموجة العباسية يقودها أبو مسلم الخراساني فقبض على عبد الله بن معاوية وسجنه ، ومات عبد الله في السجن ، وتقدمت جيوش أبي مسلم مكتسحة أمامها قوى الأمويين حتى قضت على الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ[١] » .

وهكذا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام تلك الحركة التي أنزلت الضربة القاصمة والنهائية بالدولة الأموية .

الثورة العباسية وأفول نجم بني أمية

كان البيت الأموي ، منذ قيام الدولة الأموية ، يرى في البيت العلوي المنافس الوحيد الذي يرى فيه حتفه ، وذلك لارتباط البيت العلوي الارتباط الوثيق باسرة النبي الكريم التي هي موضع عطف وتقدير كافة الأمصار الاسلامية ولا سيما في اجزاء من منطقة الخليج العربي : فارس والعراق .

وكان وجوه بني طالب يرون أحقيتهم المطلقة لهذا الأمر – الخلافة – الذي كثيراً ما كان سبب نكباتهم وتشريدهم وقتلهم وتمزيقهم كل ممزق .

وكان الناس ولا سيما في فارس ، كلما رأوا نكبة جديدة تحل بفرد من أهل البيت ، يزدادون حباً لهم وتعلقاً بهم . وقد لقب الموالي أحفاد ابن ابي طالب

---

١ ـ العراق في العصر الاموي ، ص ٢٢٠ ؛ انظر ايضاً « مقاتل الطالبيين » للاصفهاني ص ١٦٢ — ١٦٧

بالمهديين ، أي الهداة الى الطريق المستقيم ، واعتقدوا بأنه ليس من صلاح لهذه الامة إلا على يد أحد الائمة من آل البيت. وظلوا على عقيدتهم هذه حتى بعد تقويض الحكم الأموي وقيام الدولة الهاشمية العباسية التي ساهم الطالبيون مساهمة كبرى في قيامها.

وتفصيل ذلك ان هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وجـه في سنة ٩٨ هـ ٧١٦ م بطلب أبي هاشم بن محمد الحنفية، فلما حادثه شعر بما يمثله من خطر لما انطوى عليه من حكمة وبلاغة وشخصية فذة ، فدبر – على ما قيل – أمر الخلاص منه بأن بعث من دس له السم وهو في الطريق . ولما أحس أبو هاشم بسريان السم في جسده عرج على الحميمة حيث يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وأفضى اليه بأسرار الدعوة (؟) وتنازل له عن حقه بالامـامة (؟) وهكذا انتقلت « أحقية » المطـالبة بالخلافة من العلويين أحفاد الامام علي ، الى العباسيين أحفـاد العباس !.. على ان بعض المؤرخين لا يستبعدون أن يكون العباسيون قـد أسسوا حزبهم قبل هذا الوقت مستغلين لين عمر بن عبد العزيز وتسامحه ورحمته برعيته .

وهكذا بدأ دعـاة العباسيين ينشطون على المسرح السياسي ، ولا سيما في الضفة الشرقية من الخليج من أرض فارس ، لأن ذلك الأقليم هو المناخ الطبيعي لترعرع دعوة تناوىء البيت الأموي ، وتسعى لتقويضه ، ممـا يتبين من وصية محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس الذي أطلق على نفسه لقب «الامام »، لاتباعه وذلك في تمام العام المائة للهجرة (٧١٨ م) وهو الوقت الذي حدده له ابو هاشم لاعلان دعوته :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأمـا أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلَد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغـات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد ، فـاني أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج

الدنيا ومصباح الخلق [1] » .

خراسان منطلق الثورة

ومن خراسان طفق العباسيون بنشر دعوتهم والعمل على تمكينها في القلوب ، متسلحين بالكتمان ، متسترين في حلهم وترحالهم بزي التجار ، وبدأت هذه الدعوة تشكل تيارها الجارف ، وخطرها الكبير على الدولة حين ألقت بمقاليد ادارتهـــا وتوجيهها الى واحد من أفذاذ التاريخ حنكة ودراية وحسن سياسة وقوة عزيمـة ، هو ابو مسلم الخراساني ، يعاونه نخبة من الرجال الصادقي العزيمة أمثـال بكر ابن ماهان وعمار بن يزيد وسليمان بن كثير .

وفي سنة ١٢٧ هـ ٧٤٤ م وهي من السنين المتمخضة عن الانعطاف التـــاريخي الكبير ، قدم أبو مسلم وسليمان بن كثير على الامام ابرهيم بن محمد العبـاس الذي آلت اليه الامامة بعد ابيه في مكة ، فرأى هذا في شخص أبي مسلم القائد المرجو للنهوض بأعباء الدعوة ، فكتب الى شيعته يطلب منهم طاعته :

« أمـــا بعد فاني قد أمرّت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا . أمّرته على خراسان ، وما غلب عليه بعد ذلك [2] » .

فكبر على شيوخ الشيعة قبول امرتـــه لصغر سنه ، وخرج بعضهم الى مكة ليلاقوا الامام ، فاذا به مجمع على رأيه على أبي مسلم ، وألزمهم طاعته فأطاعوه . ثم كتب الى أبي مسلم :

« انك رجل منا آل البيت ، احفظ وصيتي : انظر إلى هـــذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم ، فان الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم ، واتّـهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ، وإن استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، ولا تخالف هذا الشيخ

---

١ ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ج ٣ ص ٢٩٣ – ٢٩٤

٢ ـ حياة الاسلام ص١٩٤

(يعني سليمان بن كثير) ولا تعص عليه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتب به مني [1] » .

وقد اختلف المؤرخون في نسب أبي مسلم فقيل انه كان يدعى ابرهيم بن عثمان وكان يكنى أبا اسحق ، وانه ينتسب إلى بزرجمهر ، وقد ولد بأصبهان ، ثم رحل إلى الكوفة وهو في السابعة من عمره . ولما اتصل بابرهيم الإمام أمره بتغيير اسمه وقال له : « لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته في الكتب ! » فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم ، وزوجه امرأة من طيء كانت تقيم مع أبيها بخراسان . وثمة روايات أخرى منها ادعاؤه انه من ولد سليط بن عبد الله بن العباس ، ومنها انه كان من الرقيق وقد اشتراه بكير بن ماهان داعي العباسيين وأدخله في الدعوة [2].

وأدرك والي خراسان نصر بن سيار ما يحيط به من محدق الخطر ، فبادر بالكتابة إلى دمشق يستحث الخليفة مروان بن محمد أن يمده بالرجال ليقضي على الفتنة قبل ان يندلع لهبها ، خاتماً رسالته بقوله :

أري بين الرماد وميضَ نار   وأخشى ان يكون لها ضرامُ
فان النار بالعودين تُذكى   وإن الحربَ أولها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري :   أأيقاظٌ أميةُ أم نيام

بيد ان الدولة الأموية لم تكن بالحالة التي تمكنها من تجهيز حملة عسكرية بالسرعة التي تقتضيها الظروف المتأزمة في فارس ، وكان جواب مروان جواب الراثي للدولة قبل مماتها : « يرى الشاهد ما لا يراه الغائب ، احفظ ناحيتك بجهدك [3] ! »

وألقى نصر آخر سهم من جعبته بأن التجأ إلى والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستحثه على العمل لاستنقاذ خراسان ، ولكن رد الوالي لم يكن خيراً من رد الخليفة ، فأسقط في يد ذلك البطل القابع شبه وحيد في الديار التي قال فيها المتنبي

---

١ ـ حماة الاسلام ص١٩٤
٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٤
٣ ـ المسعودي ج ٢ ص ١٤٥ — ١٤٦

بعد مئات قليلة من السنين :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

ولم يسعه إلا ان يقول : « لا غلبة إلا بالكثرة وليس عندي رجل[1] » .

لقد كانت الخلافات العربية ما بين القيسية واليمنية ، في قلب الحكم الأموي ، بالإضافة إلى ثورات الخوارج والشيعة والموالي ، قد ذهبت بريح العربية ،وأحالت قوتها وهناً،وقد استطاع أبو مسلم ان يجني ثمار تلك الفـُرقة لمصلحة الدعوة العباسية، وان يحول دون اتفاق كلمة العرب من جديد .

نصر بن سيار الأسد الحبيس

ولما قدّر أبو مسلم الخراساني انه يستطيع الانطلاق من مواقع القوة رفع الراية السوداء شعار العباسيين ، وعمد إلى المداد والقرطاس فكتب إلى والي خراسان :

« إلى نصر

« أما بعد ، فان الله تباركت أسماؤه عيّر أقواماً في القرآن فقال : وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكباراً في الأرض ومكرَ السيءِ ولا يحيق المكرُ السيءُ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا[2] » .

ولم يستطع نصر ، الأسد الحبيس الذي تنبض في عروقه الدماء العربية، إلا أن يقول : « هذا كتاب ما له جواب !.. »

واتبع أبو مسلم كتابه بامتشاق الحسام ، واحتلال مدينة مرو ، وانضمت اليه جماهير الفرس « من هراة ، وجو شنج ، ومرو الروذ ، والطالقان ، ومرو ، ونسا ، وابيورد ، وطوس ، وسرخس ، وبلخ ، والصاغنيان ، وطخارستان ،

---

١ ـ الفاطميون في مصر للدكتور حسن ابرهيم ص ٣٨ ـ ٤٣

٢ ـ سورة فاطر آية ٤١ ـ ٤٣

وختلان ، وكش ، ونسف ، فتوافوا جميعاً مسودي الثياب وقد سوّدوا أنصاف الخشب التي كانت معهم وسموها كافر كوبات ، وأقبلوا فرساناً وحمّارة يسوقون حميرهم ويزجرونها : هر مروان ! يسمونها لمروان بن محمد ، وكانوا زهاء مائة ألف رجل [1] » .

ثم أخذ الخراساني يعدّ العدة لملاقاة نصر ، ولكنه زيادة في المكر والدهاء لم يسر هو لقتال الجيوش العربية ، وإنما سيّر جنده تحت راية قائد عربي هو قحطبة ابن صالح الطائي. ولكن هذا العربي كان قد تنكر لعروبته وأضحى همه انتصار القضية التي يقاتل من أجلها أياً كان الطريق الذي يسلكه وأية كانت الذريعة التي يتوسل بها ، وليس أدل على ذلك من خطابه هذا في جنده وكلهم من الفرس : « يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة (!) كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم واستاقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويؤمنون بالعهد وينصرون المظلوم ، ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم بالثأر . وقد عُهد إلى الامام انكم تلقونهم في مثل هذه العدة فينصركم الله عز وجل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم [2] » .

وتحرك قحطبة لمنازلة نصر بن سيار ، فالتقى به في طوس وانتصر عليه ، ودارت الدائرة على الجنود الأمويين ، وأسفرت المعركة عن فرار نصر من نيسابور إلى جرجان،مما مهد الطريق لدخول أبي مسلم اليها دون مقاومة سنة ١٣١هـ٧٤٨م.

ومن جرجان بعث نصر يستنهض يزيد بن هبيرة والي العراق ان يهرع لنجدته، ولبى يزيد طلب نصر فأنفذ اليه جيشاً من جند الشام المرابطين في العراق ، ولكن

---

١ ـ الاخبار الطوال للدينوري ص ٣٦٠

٢ ـ الطبري ج ٩ ص ١٠٦

فحطبة كان له بالمرصاد ، وبادره بالهجوم ، وأنزل به هزيمة شنعاء .

وأما نصر فقد غدا الطريدة التي يلاحقها القانص ، وهو لا يطمئن في مكان حتى يخرج منه ، ثم مات في تلك السنة كمداً [1] وهو ينشد بمرارة :

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها	أن يغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم	كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكمُ	ممن تأشب لا دين دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم	ولا صميم الموالي إن همُ نُسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم	فان دينهمُ أن أن تُقتلَ العربُ

الحراب الفارسية تقوّض الحكم العربي في دمشق

ثم اجتمعت فلول الجيشين العربيين المحطمين ، والتقت بقحطبة في منازلة تسودها روح المغامرة ،ولكنها تقهقرت أمامه واعتصمت وراء أسوار نهاوند لتطبق عليها جيوش قحطبة .

وأمام هذا الخطر الداهم بالعنصر العربي الحاكم في فارس ، تحرك والي كرمان عامر المري لنجدة الجيش المحاصَر ، ولكن قحطبة كان أسرع منه ، إذ خف لملاقاته في أصبهان بعد ان ترك حامية من جنده مطبقة الحصار على نهاوند . والتقى قحطبة بعامر فهزمه هزيمة منكرة ، وأدرك الجيش المحاصر حينئذ ألا فائدة ترجى من المكابرة والمعاندة فاستسلم ، وبذلك وقعت البلاد الفارسية شرقي الخليج العربي في يد الثورة العباسية . « وأخذت الدعوة العباسية تسعى لجمع كل عناصر التذمر تحت لوائها وتسييرها لخدمتها ، فبعثت الوعي القومي عند الفرس ، وقوّت فيهم روح التوثب والسيادة ، بل روح احياء المجد القديم المفقود [2] » .

---

١ - مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٤

٢ - تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٨٨

يقول الدكتور حسن ابرهيم حسن: «ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم حتى وقع في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية خطاب من ابرهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان. فأدى هذا الحادث إلى القبض على الإمام وسجنه وقتله، فتولى أمر الدعوة أبو سلمة الخلال خليفة بكير بن ماهان وصهره [1]».

ويقول الدكتور الخربوطلي: «وقد لقيت حركة الموالي في خراسان تأييداً وقبولاً من موالي العراق لأن زعيمها أبو مسلم الخراساني كان مولى مثلهم [2]».

وما إن استتب الأمر للعباسيين في فارس، منطقة شرقي الخليج، حتى تحرك قحطبة قاصداً بلاد الرافدين، شمالي الخليج، وقصد الكوفة مباشرة، غير أن يزيد بن هبيرة لحق به بجيشه، والتقى به قرب الانبار، فدارت معركة حمي وطيسها بين الفريقين واضطر يزيد فيها إلى التراجع حتى مدينة واسط. وقد لاقى قحطبة حتفه في معركة الأنبار، فخلفه ابنه الحسين على قيادة الجيش، وزحف إلى الكوفة وتمكن من احتلالها.

وفي غمرة هذه الأحداث برز إلى المسرح السياسي أبو سلمة الخلال الذي كان يتولى الدعوة العباسية في العراق، وحاول ان ينحرف بالدعوة إلى العلويين [3]، وأن يبقي الحركة العباسية ضمن النطاق الذي صدرت عنه، أي فارس، غير ان التيار العباسي كان أقوى من أن يقاوم، وأسقط في يد أبي سلمة لما بويع أبو العباس خليفة وتمت له البيعة في مسجد الكوفة عام ١٣٢ هـ ٧٤٩ م وكان أخوه الإمام ابرهيم قد أوصى بالخلافة اليه قبل مقتله.

وهكذا هيمنت الحركة العباسية بقوة السلاح على شرقي بلاد الشام، وغدت حركة قوية جبارة عنيفة تهدد الحكم الأموي في عقر داره. وسارع مروان بن محمد

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٥٥٠؛ انظر ايضاً مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٤

٢ ـ تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ١٨٨

٣ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ٢٠٤

لدفع خطرها في محاولة يائسة ، والتقى الجيش الخراساني بجند الشام على الضفة اليسرى من الزاب الأكبر ، ودارت بينهما معركة مصيرية عنيفة شديدة استمرت تسعة أيام وأسفرت عن التجاء مروان الى الموصل مع فلول جيشه ، فتعقبه الجيش الخراساني ، فانهزم متقهقراً الى دمشق ، ومنها انكفأ الى فلسطين وظل يحاربه متقهقراً حتى دخل أرض النيل ، وكانت آخر معركة نازل فيها العباسيين قرب أبي صير حيث سقط قتيلا ، فاحتز رأسه وحمل الى السفاح في الكوفة . وبذلك انتهى حكم بني أمية العربي ، ليحل محله الحكم العباسي الذي قام على الحراب الفارسية . وكانت وفاة مروان عام ١٣٣ هـ ٧٥٠ م ، وبوفاته خفقت الرايات السود على دمشق !..

ماذا يمثل الحكم الاموي ؟

يقول بروكلمان : « وبسقوط الأمويين خسر العرب عموماً ، لا السوريون وحدهم ، السيادة المطلقة في الاسلام ... وإذ كان العباسيون مدينين بالنصر للشرق الايراني ، وإذ كان تنظيم الخراسانيين العسكري قد ضمن لهم نصيبهم من النصر ، فقد رجحت كفة الفرس في الاسلام ، بُعيد قيام الدولة الجديدة ، وإن لم يستطيعوا أن يقهروا نهائياً ، العنصر العربي الذي ظل افراده يشغلون مراكز رفيعة في الادارة والجيش ، ويجدون سناداً قوياً في السلالة الهاشمية الحاكمة ، على كل حال . ومن هنا احتفظت العربية ، في الامبراطورية الجديدة ، بسلطانها المطلق في المعاملات الرسمية ، وفي مجمل الحياة الفكرية ، وفي الدين فوق كل شيء [1] » .

وقد نوه الدكتور عبد العزيز الدوري بأهمية العهد الأموي في التاريخ العربي ونشوء القومية العربية ، إذ كان الامويون « يريدون تكوين مفاهيم الدولة في الظروف الجديدة ، ويريدونها دولة عربية في اسسها السياسية والادارية تستند الى العرب وحدهم . قد ادركوا ان القبائل بعيدة في تقاليدها ونظراتها عن مفهوم

---

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ٢٠٧

الدولة ، وانها لم تستوعب مفهوم الولاء الشامل الذي يتحدى القبيلة ، أو الحلف الى الدولة أو الأمة . ومن الخطأ ان نظن ان الأمويين شجعوا الاتجاهات القبلية ، بل انهم بذلوا جهوداً متصلة ليكبحوا جماحها وليحلوا محلها وجهة عربية وليجعلوا الولاء للدولة فوق كل ولاء قبلي أو غير قبلي ، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك إذ جابهوا تيارات اخرى وقفت في وجههم جنب التيـارات القبلية . فقد تصدت لهم التيارات الحزبية التي تدور حول مشكلة الخلافة ، وهذه أساسها اسلامية كالحزب العلوي ، أو قبلية كالخوارج . كما ان اتجاههم يتعارض لحد مـا مع تيارات سياسية أخرى ، اقليمية واسلامية كما عبرت عنها المعارضة التي استعانت بالموالي .

« ورغم هذا فان الفترة الأموية هيأت للعرب جواً ملائماً لجعل السلطان عربياً . فقد كانوا يشعرون ان هذه الدولة تكوّنت بجهادهم ، وانهم بجموعهم جيشها الذي تستند اليه ، وانهم أصحاب الشأن . ويبدو طبيعياً أن يشعروا بأنهم جماعة متميزة عن غيرهم ، وأن يشعروا برابطة العروبة تجـــاه الشعوب الأخرى ، ويروا بأنهم شعب يتفوق بأمكانياته وبدوره التاريخي ، وإذا كانت قد حصلت انقسامات أو تكوّنت أحزاب معارضة فهي انقسامات عربية وأحزاب عربية في سلطان عربي . وحين جروا الموالي إلى أحزابهم وثوراتهم فانما أدخلوهـــا قوة مساعدة تحت ألوية عربية ، وفي سبيل قضايا عربية واسلامية .

« ويسترعي انتباهنا ان العرب شعروا بتفوقهم في هذه الفترة لأكثر من سبب . فقد كوّن نجاحهم السريع ثقة لديهم واعتزازاً بكيانهم ، وأدركوا انهم اختيروا لأداء رسالة انسانية قبلتها شعوب أخرى مختارة دون إكراه . فهم لم يكتفوا إذن بالتمتع بالخيرات والسلطان ، بل قدموا خدمـــة كبرى للآخرين . ولكنك حين تفحص نظرتهم هذه تجدها وجهاً آخر للتأكيد على العرب ولاظهـار تفوقهم . فهم يرون انهم اختيروا لإداء الرسالة ، وان قبول هذه الرسالة يوجب احلال العرب في منزلة خاصة وقبول سيادتهم . ولم تكن هذه نظرة الأمويين وحـــدهم بل نظرة القبـائل العربية عامة [1] » .

---

١ – الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٢٥ – ٢٧

الجزء الخامس

الخليج العربي في العهد العباسي

- صراع العرب والفرس تحت رايات بني العباس
- ظهور العنصر التركي على مسرح الامبراطورية العربية
- ثورة الزنج
- دولة القرامطة في البحرين
- الدولة الصفارية
- الدولة السامانية
- البويهيون واستيلاؤهم على ايران والعراق
- السلاجقة ونهاية الخلافة العباسية

صراع العرب والفرس تحت رايات بني العباس

مادبة على الجماجم

قامت دولة بني العباس ، وقد قهرت الجيوش المروانية الأموية ، بقيام الخليفة العباسي الأول عبد الله أبي العباس على المنبر في مسجد الكوفة يخطب الناس قائلاً : « أنا السفاح المبيح والثائر المبير [1] » .

وقرن السفاح قول التهديد بالفعل المبيد ، إذ استدرج اليه بني أمية فجالسهم على الوسائد والنمارق ، ولم يلبث ــ بخطة قد أعدت سابقاً وبتحريض من شاعر مغمور ــ ان أمر بضرب رقابهم جميعاً . ولم يكتف بذلك وإنما طلب فأتي له ببساط غطيت به الجثث المختلجة ، ليتربع فوقه يأكل هنيئاً ويشرب مريئاً . وشنها بعد ذلك غارة على القبور الأموية ينبش عن العظام النخرة ليوسعها جلداً . ولم ينج من البيت الأموي سوى فرد واحد هو عبد الرحمن الداخل الذي استطاع أن يصل إلى الأندلس ، ويبني فيها مُلكاً فيه الكثير من سمات أمجاد دمشق التي أخذت أنوارها تخبو شيئاً فشيئاً تبعاً لضعف العنصر العربي الذي أخذ العباسيون يتعقبون قواده الأفذاذ ، ويقتلونهم واحداً إثر الآخر ، ولقوة العنصر الفارسي الذي برز على المسرح كدعامة أساسية للدولة العباسية .

---

١ – الطبري ج ٩ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وهكذا انتقل ثقل الدولة وسلطانها من ديار الشام إلى ربوع الرافدين وبـــلاد خراسان ، وبعبارة أخرى : إلى شمالي الخليج وشرقيـه ، حيث دار على مسرح تلك المنطقة جسيم الأحداث ، ودامي الوقائع ، وتشابك صليـــل السيف بصرير اليراع ، وكلمة التقى ببدعة الفجور ، ورنين كؤوس اللهو إلى ترتيل آيات الزهد ، واقتران الأدب بالفلسفة ، وظهور الفرق الـدينية والمذاهب السياسية ، ومقارعـة الموالي للعرب ، ومضارعة آل ساسان لبني عدنان وقحطان ، وبروز دور الوزير إلى جانب مهمة الأمير ، في مصالح متعارضة لا تلبث أن تنتقل من أروقة الدور وابهاء القصور إلى ميادين القتال وساحات النزال ، لينتصر خليفة ، أو يتثبت قدم وزير ، أو يتطاول مملوك إلى سدة الملك .

الصراع بين سيف الدولة العباسية وربانها

وذرت الأحداث بقرنها أول ما ذرت حينما رأى ابو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ان أبا مسلم الخراساني — وهو السيف الذي انتضاه العباسيون في وجوه الأمويين فجعلهم حصيداً — يكاد يرجع إلى نحورهم ، وان ما يعتمل في أعمـــاق الرجل أبعد غوراً من التشيع لبيت الرسول ، فهو يتطلع إلى الملك والاستقـلال بخراسان ، واعادة مجد الساسانيين .

وكان داهية بني العباس والمؤثل الحقيقي لملكهم ، قد أراد منذ أيام خـــلافة السفاح ، اتقاء خطر ذلك الصقر الخراساني ، وتدبير أمر اغتياله أو قتله ، ودارت بين الرجلين صولات وجولات عرف المنصور كيف يهتبل فرصتها فيحتال على أبي مسلم ويخرجه من دياره ، ويضرب به عمه عبدالله بن علي العباس الذي ثار عليه في جهات حلب والجزيرة .

ولما أحس ابو جعفر برجحان كفة ميزان القوى لمصلحته ، عمد إلى قطع الطريق عليه ، وكتب إلى وكيل أبي مسلم في خراسان يوليه محله ، فظاهره هذا على سيده ودعاه إلى طاعة أمير المؤمنين برسالة يقول فيها : « انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ، فلا تخالف إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » ثم رمى أبو جعفر آخر

سهم في جعبته فكتب إلى أبي مسلم : « قد وليتك مصر والشام ، فذلك خير لك من خراسان ، فوجّه إلى مصر من أحببت ، وأقم بالشام لتكون بقرب أمـــير المؤمنين فإن أحبّ لقاءك أتيته من قريب» وشعر أبو مسلم بما يُدبّر له فهتف ناقماً: « يوليني الشام وخراسان لي ! » وتحرك يريد بـلاده ، ولكن أبا جعفر تحرك هو كذلك من الانبار إلى المدائن ، وعاود الكتابة إلى الخراساني يستدعيه ، ووجه رسوله اليه يلاينه حيناً ويهدده أحياناً .

واستجمع ابن الدهاء الفارسي ذاكرته وما حفظ من دروس التاريخ الساساني، وكتب إلى أبي جعفر يقول : « انه لم يبق لأمير المؤمنين – أكرمه الله – عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان ، أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفـــاء بعهدك ما وفيت ، حريّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد ، حيث تقـــارنها السلامة ! فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيت إلا أن تعطي النفس إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي [1] »

وبسلاح الدهاء والقوة ، فلّ أبو جعفر من سلاح أبي مسلم الداهية الذي أفلتت خراسان منه ودعاه أميرها الى طـــاعة امير المؤمنين ، فكتب اليه : « قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة اولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانمــا راحتهم في انتشار نظام الجماعة . فلمَ سوّيت نفسك بهم ؟ فانت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بمـا حملت من أعباء هذا الأمر على مـا أنت به ، وليس مع الشريطة الأخرى التي أوجبت منك، سماع ولا طاعة . وحمل اليك رسول أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليهـا إن أصغيت اليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه ، من الباب الذي فتحه عليك [2] » .

١ - الطبري ج ٩ ص ١٦١

٢ - الطبري ج ٩ ص ١٦٦ - ١٦٧

ولم يستطع أبو مسلم بعد هذا الكتاب إلا أن يسير إلى لقاء الخليفة الذي ظل مثابراً على تمثيل دوره ، فأوعز إلى وجوه الهاشميين بالخروج لاستقبـــاله ، حتى إذا دخل عليه أحسن كذلك استقباله ودعاه إلى الراحة من عناء السفر ، ولمـا أصبح الصباح استدعى الخليفة حبيس قصره ليناقشه الحساب بمحاكمة كان الخليفة فيها الخصم والحكم في آن واحد ، ولم يطل الأمر حتى صفق المنصور واعتلت هامة أبي مسلم أربعة سيوف وانهالت عليه دفعة واحدة تنوش جسمه على انشاد أبي جعفر :

زعمتَ أن الدّين لا ينقضي فاستوفِ بالكيل أبا مجرمِ
سُقيتَ كأساً كنت تسقي بها أمـرّ في الحلق من العلقـمِ

وبذا غدا أبو مسلم صفحة من التاريخ ستليها صفحات وصفحات ، لأن الرجل لم يكن فرداً وإنما هو تيار سياسي ، وسلافة تاريخ ، ومعقد أمل أمة عرف عنها الدهاء ، والصبر على البلاء ، والقدرة على الثأر ! .. والجدير بالذكر ان « الشعوبية كما يقول الدكتور علي الخربوطلي – بدأت تنادي بمساواة الموالي بالعرب ، ثم تطورت في العصر العباسي فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب [1] »

ثورة سنباذ

لما تناهى إلى أهل خراسان مصرع زعيمهم وقائدهم ، رافع عماد الدولة العباسية ، تلقوا النبأ بالسخط والاستنكار والتحرك للانتقام ، وكان أول من شق عصا الطاعة على خلافة أبي جعفر ، ورفع راية العصيان في المنطقة الجبلية مـن خراسان ، أحد أصدقاء أبي مسلم والمقربين اليه ويدعى سنباذ .

وقد سار وراء هذا الثائر خلق كثير ، وأخذ نفوذه يمتد من منطقة إلى أخرى ، حتى استفحل أمره ، ولكن أبا جعفر أسرع إلى معـــالجة الموقف بقوة وحزم ، وسيّر لمصاولة الثائر ومنازلته جيشاً لجباً نفذ إلى المناطق الجبلية والمعاقل الوعرة ، وراح يتعقب سنباذ ويحول دون انتشار نار فتنته . وقد قتل سنباذ والكثيرون

---

١ - تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ١٦٢

من أتباعه ، بعد وقائع عنيفة دارت ما بين الفريقين . ويذهب صاحب الفخري [1] إلى أن عدد القتلى من الثائرين بلغ خمسين ألف رجل .

الحركة الراوندية

لم تكن ثورة سنباذ سوى الشرارة الاولى من مندلع اللهيب ، والصراع ما بين العنصرين العربي والفارسي ، وهو صراع ان خمد بقوة السلاح شهره الفرس بقوة الفكر والعقيدة ، تمدهم في ذلك ثقافتهم الدينية السالفة ذات المنابع الثرة التي استغلتها فئة من الناقمين على المنصور وحاربته بها.

وقصة هذه الحركة ان عصبة من أشياع أبي مسلم والمتحرقين شوقاً لسفك دم أبي جعفر بدمه ، وموطنهم مدينة راوند القريبة من اصفهان ، ادعوا بأن قبساً من النور الإلهي قد تجسد في علي بن أبي طالب ، ثم في الأئمة واحداً بعد واحد ، فهم آلهة ، وأبو جعفر المنصور إله ، وعبادته واجبة على المؤمنين ، فهو زعيمهم الروحي الذي تأتي على يديه المغانم والخيرات [2] .

وحزمت تلك العصبة أمرها ، وسارت إلى مدينة الهاشمية عاصمة الدولة آنذاك ، وطفقوا بالطواف حول قصر الخلافة ، مرددين عبارات تأليه الخليفة ، وهو أمر لم يسر له أبو جعفر لأن من شأنه أن يثير العرب عامة ، لكنه أراد تداركه بالسياسة والكياسة ، فنهاهم عن غيهم ، وحاول أن يردهم عن بدعتهم بالكلمة الطيبة ، إلا انهم ازدادوا إلحاحاً على دعواهم تلك ، فاضطر إلى الضرب على أيديهم ، وأمر بإلقاء القبض على مائتين من رؤوسهم وزجهم في غيابة السجن .

بيد أن ذلك قد زاد الموقف حرجاً والنار ضراماً والحركة غوغائية ، إذ أجمع الراونديون على مهاجمة السجن وإخلاء سبيل المحتجزين وراء جدرانه ، وذلك ما فعلوا .

---

١ – الفخري في الآداب السلطانية ص ١٢٨

٢ – الطبري ج ٩ ص ٣٠٧

ولما أطلق القوم سراح رؤسائهم ازدادوا شراسة ، وقصدوا الخليفة في قصره ، فخرج اليهم مغامراً بحياته ، فكادوا يفتكون به لولا ان تدارك الأمر معن بن زائدة الشيباني الذي كان قد نازل العباسيين بقيادة ابن هبيرة آخر وال للأمويين على الكوفة ، وقد اختفى منذ ذلك الحين ولكنه بادر إلى الخروج من مخبئه حين علم بالخطر المحدق بأبي جعفر ، ودافع عن الخليفة دفاع المستميت ، وأنقذه من براثن قوم يريدون قتله وهم ينادون بإلوهيته !

غير ان نار تلك الفتنة لم تخمد تماماً ، وإنما ظلت تعمل في الخفاء ، وقد تجددت أيام الهادي بن المنصور ، وقاد ثورتها المقنع الخراساني .

الثورة العلوية

يقول الدكتور خربوطلي : « لعب موالي العراق من الشيعة دوراً كبيراً في نجاح الدعوة العباسية ، فكانت رغبتهم في إحياء القومية الفارسية وحبهم للشيعة من العوامل التي دفعتهم إلى تأييد العباسيين[1] » . وقد خدع الموالي في الدعوة العباسية ، لأنها دعتهم إلى القضاء على الدولة الأموية ، ونقل الخلافة إلى آل البيت « فأقبلت الموالي على تأييد هـذه الدعوة دون أن يفكروا انهم ينصرون آل العباس الذي سيضطهدون العلويين ويلاحقونهم في كل صقع كما فعل الأمويون بهم من قبل[2] »

وظل العلويون يمنون النفس بالحكم ، بالرغم من أن أبناء عمومتهم العباسيين قد أغلقوا في وجوههم جميع السبل المؤدية لتحقيق غاياتهم والوصول إلى أهدافهم ، بعد أن حوّلوا مجرى الأحداث لمصلحتهم ، وأمسكوا بأزمّة الأمور . لكن ذلك لم يقنع العلويين بالهزيمة أو يحملهم على التسليم ، لعميق ايمانهم بأحقيتهم بالحكم أولاً ، ولراسخ اعتقادهم بأن الفرس — دعامة الدولة العباسية الأولى — أميل اليهم لما بينهم من أواصر القربى والمصاهرة التي تربط بين شهربانون ابنـة آخر ملوك الساسانيين

---

١ – تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٦٧

٢ – تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٢٢٧

يزدجرد الثالث وحفيد الرسول حسين بن علي .

وكان العباسيون يعلمون ذلك حق العلم ، ويرون في الشيعة على الدوام الخطر الماثل المهدد لكيانهم ، ولذلك جدّوا بالتضييق عليهم واضعاف شوكتهم ، بزجهم في السجون وابعادهم إلى المنافي ، يفعلون ذلك وعيونهم أبداً على عماد الدولة : الخراسانيين ، لأنهم يعرفون ميلهم اليهم وحبهم إياهم ، ولا أدلّ على ذلك من الخطبة التي القاها المنصور بالخراسانيين إثر إلقاء القبض على عبدالله بن الحسن العلوي:

« يا أهل خراسان ! أنتم أنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا . ان ولد أبي طالب تركناهم ، والذي لا إله إلا هو ، والخلافة ، فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب فما أفلح وحكّم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة ، ثم وثب شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه . ثم قام به بعده الحسن بن علي رضي الله عنه ، فوالله ما كان برجل . عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودس اليه معاوية اني اجعلك ولي عهدي ، فخلعه ، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه .. فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة .. فأسلموه حتى قتل . ثم قام بعده زيد بن علي ، فخدعه أهلَ الكوفة وغروه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه . وقد كان أبي محمد بن علي ناشده الله الخروج وقال له : لا تقبل أقاويل أهل الكوفة ، فإنا نجد في علمنا ان بعض اهل بيتنا يصلب بالكناسة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب . وناشده الله بذلك عمي داود وتحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل .. وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا ، فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالشراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم ، وأظهر لنا حقنا ، وأصار الينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقرّ الحق في قراره ، وأظهر الله مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين

ظلموا [1] » .

وكاد محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية ان يقع في الفخ نفسه ، لكنه أفلح في الافلات ، فطاف في كثير من المدن الاسلامية وعـاد ليستقر في المدينة متستراً .

وكان اكثر أهل المدينة من شيعة أبي طالب ،لذلك رماهم المنصور بأصلب وأفتك ولاته : رياح بن عثمان بن حيان ، الذي افتتح عهده بمخاطبة أهل المدينة قـائلاً : « يا أهل المدينة ! انا الأفعى ابن الأفعى ، عثمان بن حيان ، وابن عم سلمة بن عقبة ، المبيد خضراءكم ، المفني رجالكم ، والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب [2] » .

وردّ أهل المدينة على الأفعى ابن الأفعى أعنف ردّ وأقساه ، وحصبوه ، ومحمد متستر بين ظهرانيهم ، آمناً على نفسه ، إذ بايعوه بالخلافة ونقضوا بيعتهم لأبي جعفر استناداً الى فتوى أفتاهم بها أنس بن مالك الذي خاطبهم قائلاً : « انمـا بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين [3] » .

وأعمل داهية بني العباس فكره ، وهو أدرى الناس بأخلاق بني عمومته وطرق تفكيرهم ، مذ كان العلويون والعباسيون جبهة واحدة في وجه الأمويين . وتفتـق ذهن الداهية عن حيلة انطلت على رجل التقى والورع ، فأعلنهـا ثورة حمراء اعتماداً على رسائل القواد اليه ، وحثهم إياه على إظهار الدعوة للالتفاف حوله والانتقاض على العباسيين ، ولم يدر الرجل انه أخذ في مأمنه .. ولم يزد أمر تلك الثورة المجهضة على مهاجمة السجون ، وإطلاق محتبسيها ، وفرار عامل المـدينة . وظهرت كتائب المنصور عام ١٤٥ هـ ٧٦٢ م يقودها عيسى بن موسى ، والتقت بفئة قليـلة ملتفة حول محمد الذي كان يحسب ان تلك الجيوش لم تأت إلا لنصرته !..

ولم يطل القتال ما بين القوتين غير المتكافئتين ، ولقي محمد بن عبد الله مصرعـه في حالة لم تجد معها شجاعته فتيلاً ..

---

١ – مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ – ٢٤٢

٢ – اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥١

٣ – الطبري ج ٩ ص ٢٠٦

وفي تلك الأثناء ، وقبل مصرع محمد بن عبد الله، خرج أخوه ابرهيم من المدينة سراً يريد الكوفة موئل الشيعة الأولين من التوابين ، فاستشعر المنصور نذير الشؤم من خروجه ، وبث الجواسيس والأرصاد في كل ناحية يتسقطون أخباره ويتتبعون آثاره ، وكاد المنصور يفلح في مسعاه ، لولا ان ابرهيم قد مكر بالخليفة الداهية ، وانطلت على ذهن المنصور الوقاد تلك الحيلة التي رواها صاحب الفخري بقوله :

« كان ابرهيم في حالة تغيّبه يحضر إلى عسكر المنصور متخفياً ، وربما جلس مع المنصور على السماط . وقد نزل ابرهيم الكوفة ليقوم بدعوته فيها ، ولكنه وجد الكوفة مملوءة بالأرصاد والعيون ، فلم يجد بدأ من الحيلة لمغادرتها إلى البصرة ، فأرسل رجلًا من أتباعه يسمى سفيان بن زيد إلى المنصور فقال له: يا أمير المؤمنين، تؤمنني وأدلك على ابراهيم ؟ قال : أنت آمن ، أين هو ؟ قال : بالبصرة ، فوجّه معي برجل تثق به ، واحملني على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله على مكانه فيقبض عليه . فوجه معه أبا سويد ، وخرج سفيان بن زيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركبا مع أبي سويد على خيل البريد . فلما وصل البريد إلى البصرة ، قال سفيان لأبي سويد : انتظر حتى أتعرّف خبر الرجل . ومضى ولم يعد ، وكان الغلام الذي عليه الجبة الصوف هو ابرهيم بن عبد الله [1] » .

وهكذا تمكن ابرهيم بتلك الحيلة من الفرار إلى البصرة ، ولما بلغها لم يتردد في إعلان الدعوة ، لا سيما وان المنصور مشغول بقتال أخيه محمد النفس الزكية في المدينة ، فاستولى على دار الامارة ، وبسط نفوذه على منطقة الأهواز ومدينة واسط ، وانتصر على الجيش العباسي في عدة مواقع ، وقد بلغ أتباعه مائة ألف رجل ، وتوالت انتصاراته ، وامتد نفوذه حتى شمل فارس . وكان خطأ ابرهيم انه رفض المسير إلى الكوفة في الوقت الذي كانت فيه نخبة الجيش العباسي مشغولة بإخماد ثورة أخيه في المدينة ، ولم يكن في الكوفة مع المنصور غير جيش ضئيل

---

١ ـ الفخري في الاداب السلطانية ص ١٤٤

العدد .

وتدارك المنصور الموقف ، إذ طلب من الجيش الذي يقاتل في المدينة أن يهرع إلى ملاقاة ابرهيم حالما قضى على محمد . وتحرك ابرهيم لمواجهة عيسى بن موسى المسمى ولياً للعهد، والذي كان يدافع عن وجوده وكيانه ، ودارت رحى المعارك بين الفريقين ، وكانت البوادر الأولى تنبىء بنجاح الشيعة بعد ان هزم ابرهيم حميداً بن قحطبة أحد قادة الجيش العباسي ، غير ان كفة العباسيين ما لبثت أن رجحت ، وانفض عن ابرهيم أكثر أشياعه ، وثبت مع نخبة قليلة لم تجدِ فتيلاً فخر صريعاً وقد اخترق حلقه سهم ، وأبيد رجاله جميعاً ، وحمل رأس ابرهيم إلى المنصور .

وبذلك أخمدت أول ثورة علوية قبيل نهاية ذي القعدة سنة ١٤٦ﻫ (١٤ شباط – فبراير – ٧٦٣م)، ولكن لا ليهدأ العلويون بل ليتخذوا السيف والثورة سبيلاً لهم في وجه الحكم العباسي .

وبنى أبو جعفر المنصور بغداد التي غدت حاضرة الدولة الاسلامية اكثر من خمسة قرون ، لم تكد تخلو فترة من فتراتها ، من ثورة ، أو فتنة، أو حركة عصيان، والأحداث تدفع الأحداث .

خلافة المهدي

بعد ان استمر حكم المنصور من عام ١٣٦ الى عام ١٥٨ ﻫ (٧٥٣ – ٧٧٤ م) عاملاً على تثبيت دعائم الدولة على التفتح الذهني للعلم والحضارة، من جهة، واستخدام الذكاء والدهاء والخديعة والمكر ونقض العهد واسالة الدماء والتحلل من كل القيم الاخلاقية في سبيل الملك وتدعيمه ، من جهة ثانية ، ارتقى المهدي بن المنصور سدة الحكم بعد خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وقفّى على آثار والده في تطوير الامبراطورية عامة ومدينة بغداد خاصة التي أضحت « بفضل موقعها الممتاز مستودعاً رئيسياً للتجارة مع الهند [1] » .

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٥

والى جانب تطوير الدولة ، عمل المهدي على تطهيرها من العناصر التي لم تنفك تحاول العبث بمقدراتها ، وعلى الأخص الحركات المذهبية الهدامة التي كان لها فعل النار في الهشيم باضرام نار الثورات ، وتحريك الفتن ، وتهديد الامبراطورية بالتجزئة والتفسخ ، واشاعة روح الفوضى والبلبلة ، والمهدي يضرب هنا وهناك لاخماد الثورات ، وقمع حركات العصيان ، التي ظهرت على مسرح شرقي الخليج من المنطقة الفارسية ، ولا سيما العقيدتين الراوندية والمانوية الفارسيتين .

ثورة المقنع

وخلال حكم المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ ٧٧٤ — ٧٨٥ م) ادعى الالوهية رجل فارسي من مرو اسمه حكيم ، وكان أعور دميم الخلقة بشع الصورة ، ولاخفاء بشاعته كان يتقنع بقناع ذهبي « وكان يقول : ان الله خلق آدم ثم تحول في صورته ، ثم خلق نوحاً وتحول في صورته ، وهكذا الى أبي مسلم الخراساني [١] » .

واستطاع المقنع بكل أساليب الكذب والتضليل وباطل الادعاء ، أن يجمع حوله الجموع الكبيرة من الخراسانيين ، وقد استهدف من حركته تلك ، وهو من أصدقاء أبي مسلم ، الانتقام له ، والاستيلاء على السلطة ، وكانت فتنته هذه خليقة بأن تثير الانعكاسات الخطيرة على الحكم العباسي .

وتمكن هذا الثائر الذي اهتبل فرصة قيام ثورة لاهبة للخوارج في منطقة الجزيرة،فامتشق الحسام في وجه الخليفة الذي ألفى نفسه أمام خطرين داهمين يهددانه من شرقي الخليج العربي وشماله ، فأنفذ الحملة تلو الحملة لتأديب هذا الثائر المتأله ، لكن أكثرها تـُردّ مدحورة على أعقابها وقد تغلب عليها المقنع ، وأخيراً « أرسل اليه الخليفة سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم [٢] » واستطاع هذا القائد تحقيق الانتصارات المتتابعة على المقنع ، وتمكن أخيراً من تمزيق جماعته وتفريقهم عنه ،

---

١ ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٣ ص ١٩٢
٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٩٤

وقد طلب الأمان كثير من أعوانه ، وحاصره معاذ في قلعة سنام قرب كبش فيما وراء النهر ، وحين أدرك المقنع ان سبل النجاة قد سُدّت في وجهه ، وألا أمل له في الخلاص ، أضرم النار في قلعته مؤثراً أن يموت هو وخاصته ونساؤه طعاماً لضرامها ، على ان يلقى نهايته على يد عدوه .

الرشيد وأحداث شرقي الخليج

ارتقى هارون الرشيد عرش الخلافة (١٧٠ – ١٩٣ هـ ٧٨٦ – ٨٠٨ م) بعد وفاة أخيه موسى (الهادي) الذي مات في ظروف غامضة يشتم منها ريح مؤامرة أسهمت فيها أمه الخيزران [١] . وقد بذل الرشيد جهده ليرتفع بالدولة العباسية إلى أعلى المستويات ويرتقي بها أسمى الدرجات ، حتى « ضربت بمكارمها الامثال ، وشدت اليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ اكبادها ، ومنحتها أوفر اسعادها . فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة والغيوث ماطرة : أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم عامرة ، وابهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد [٢] » .

ولا خلاف في ان من يقرأ العبارة السابقة التي كتبها ابن طباطبا ، يلحظ ان يحيى وبنيه من الوزراء هم كل شيء في المملكة ، حتى كأن الخليفة العظيم يعيش على هامشهم فقط ، الأمر الذي يوضح مدى النفوذ الذي بلغه الفرس في عهد العباسين وخاصة البرامكة في عهد الرشيد .

من أجل ذلك ، ولأسباب شخصية اخرى أهمها قيام علاقة غرامية ما بين جعفر البرمكي واخت الرشيد العباسة ، اللذين كان يربط ما بينهما عقد زواج صوري أمر بابرامه الرشيد ليضمها معاً مجلسه الذي لا يروق الا بهما ، يضاف الى ذلك ما لعبته

---

١ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٧
٢ ـ الفخري في الاداب السلطانية ص ١٧٣

الدسائس من أدوار للوقيعة ما بين الخليفة ووزرائه ، قام الرشيد بقتل جعفر ورفع رأسه على الجسر المركزي في بغداد ، وبسجن يحيى وتشتيت شمل البرامكة واضطهادهم ، مما يشكل فصلاً جديداً من تلك الرواية الرهيبة التي كان فصلها الأول مصرع ابي مسلم الخراساني على يد ابي جعفر المنصور ، يزيد من متاعب الدولة وأعبائها الثقيلة .

الثورة الخراسانية

لقد كانت منطقة شرقي الخليج مصدر قلق دائم للخلفاء العباسيين ، إذ كان الفرس لا يفتأون يترقبون الفرص لاثارة القلاقل والفتن تملصاً من الحكم العباسي ، وتحقيقاً لاستقلالهم ، وبعث الدولة الساسانية من جديد .

وخلال حكم الرشيد ، كان على ولاية خراسان علي بن عيسى بن هامان ، ولم تكن سيرته بالسيرة المثلى ، فضج الخراسانيون من تصرف هذا الوالي الظالم الذي كان لا ينفك عن مداهنة الرشيد والتقرب اليه بالهدايا الثمينة .

وضاق زعماء خراسان به ذرعاً ، وكتبوا للرشيد يستنجدون به لانقاذهم من الوالي المستبد ، فغضب الرشيد من واليه، وقرر المسير اليه بنفسه ليخلعه عن الولاية بقوة السلاح ، وجهز جيشاً وسار على رأسه الى خراسان .

ولما ترددت أخبار مسيرة الرشيد ، سارع علي للقائه وقابله بمنطقة الري ، وطلب منه العفو ، وقدم له فروض الطاعة ، فقبل الرشيد اعتذاره ورده الى ولايته . غير ان علياً ما لبث ان عاد الى سابق سيرته ،مطبقاً اسلوبه القديم في التعسف والطغيان، وزاد فنكل بمن كتبوا الى الخليفة بأمره .

وخلال هذه الفترة التي اصطبغت بالأحقاد ، تفجر الوضع عن ثورة رافع ابن ليث عام ١٩٠هـ ٨٠٥ م الذي تبعه اكثر اهالي فارس انتقاماً من علي ابن عيسى .

ولم تكن ثورة رافع في أول أمرها مرتبطة بعامل السياسة ، بل هي ذات دوافع شخصية ، ونتيجة لغضب الرشيد عليه وطلبه من علي بن عيسى القاء القبض

عليه ، وذلك لأنه أغرى احدى النساء ، وهي زوجة يحيى بن الأشعث ، لترتد الى قديم دينها كي يفصم عقد زواجها ، ثم يقترن هو بها بعد ان تعود الى الاسلام [1] .

ولما هم علي بن عيسى بالقاء القبض على رافع بمساعدة عـامل سمرقند ، استجار رافع بأحد أبناء علي ، الا انه ما لبث أن أعلن الثورة في مدينة سمرقند وتمكن من قتل عاملهـا ، فانضم الى صفوفه عدد غفير من أهالي خراسان النـاقمين على الحكم ، ومـــا عتمت الثورة أن عمت أرجاء المنطقة كلها ، وبسط رافع سلطته على بلاد ما وراء النهر .

وحاول علي أن يقضي على الثورة ، وأرسل ابنه عيسى لقتال رافع ، لكن الغلبة كانت لهذا الثائر الخارج على الدولة ، وقد أوقع الهزيمة بعيسى وقضى عليه .

وحينئذ فكر الرشيد بأنه لا قضاء على الفتنة الا باستئصال بواعثها ، وان الحل الأمثل هو عزل الوالي الذي تسبب في اضرام لهيبها ، فأنفذ أحد كبار قواده واسمه هرثمة ، على رأس جيش لجب قبض على علي وأقاربه وصـــادر أموالهم ثم أرسلهم مكبلين الى بغداد .

وعلى الرغم من ان هذه البادرة قد لاقت ارتياحاً لدى الخراسانيين ، فقد ظل رافع حاملاً راية العصيان لتلاقي أهداف الثورة وأمـاني الخراسانيين في الانفصـال والاستقلال ، مما دفع الرشيد الى ان ينهض اليهم بنفسه ويقاتلهم بذاته ، فسار على رأس الجيش لاخمـاد لظى الفتنة التي استشرت وقوي أمر صاحبهـا . وكانت المنية أعجل ، إذ توفي الرشيد وهو في سبيله الى ملاقاة الثائر ، حينما بلغ مدينة طوس في خراسان . وظلت ثورة رافع مشتعلة اللهيب حتى تولى المـأمون ولاية خراسان ، ورأى الثائر حب الناس اياه ، فطلب منه الأمان ، فأمنه وهدأت الفتنة .

ثورة عُمان

يقول البلاذري : « لم تزل عُمان مستقيمة الأمر يؤدي أهلهـا صدقات أموالهـا

---

١ – انظر تفصيل ذلك في الطبري ج ١٠ ص ١٠٠ – ١٠٨

ويؤخذ ممن بهـا من الذمة جزية رؤوسهم ، حتى كانت خلافة الرشيد فولاها عيسى ابن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ، فخرج اليها بأهل البصرة فجعلوا يفجرون بالنساء ، ويظهرون المعازف ، فبلغ ذلك أهل عُمان وجلهم شراة،فحاربوه ومنعوه من دخولها ، ثم قدروا عليه فقتلوه وصلبوه ، وامتنعوا على السلطان فلم يعطوه طاعة وولوا أمرهم رجلاً منهم [١] » .

الأمين والمأمون

بعد وفاة الرشيد ارتقى عرش الخلافة ابنه الأمين رغم انه أصغر من المأمون ، ورغم ايثار الرشيد الأخير على الأول ، وكان ذلك بتأثير زوجة الرشيد الأثيرة لديه زبيدة حفيدة المنصور ، بينما كانت أم المأمون فارسية .

والواقع ان المأمون كما يجمع المؤرخون كان أرشد من الأمين ، وأرجح عقلاً ، وأوسع علماً ، وأكثر حلماً ، وأطول باعاً في حسن تصريف الأمور ، وكان يرافق الرشيد في أخريات أيامه خلال حملته لإخماد ثورة خراسان .

وكان الرشيد الذي أحس بالتنافس الشديد ما بين ابنيه الأمين والمأمون من جهة ، وما وراء الرجلين من قوى ، من جهة ثانية ، قد جعل ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : الأمين والمأمون والقاسم ، يرقون سدة الخلافة الواحد بعد الآخر ، واحتراساً من الاحتكاك ما بين الأمين والمأمون بشكل خاص ، وهما فرسا الرهان الأشدان ، عهد إلى المأمون بإمارة منطقة شرقي الخليج : خراسان وتوابعها ، كما عين للقاسم ولاية الجزيرة الفراتية، وأما باقي الامبراطورية فواقع تحت يد الأمين، وقد جاء في نص الوصية التي علقت في الكعبة ان أي اعتداء يقترفه الأمين بحق أخيه المأمون يُحل المؤمنين من بيعته .

ولم يُرض الأمين تقسيم الامبراطورية على هذا الشكل ، فعمد بادىء ذي بدء الى اضعاف نفوذ أخيه القاسم فقصر حكمه على قنسرين فقط ، وكان للأمين وزير

---

١ – فتوح البلدان ص ٨٤

يدعى الفضل بن الربيع وقد خدم بنفس المنصب دولة الرشيد ، فحرض الخليفة على نقض وصية ابيه وعزل المأمون من ولاية العهد ، فلم يجرؤ في بادىء الأمر على القيام بهذه الخطوة لأن العنصر الفارسي كان يشايع المأمون ويتألب حوله، ولكنه لم يلبث ان أقدم تحت تأثير وزيره العربي الفضل بن الربيع على خلع المأمون والقاسم معاً من ولاية العهد ، ومزق كتاب الرشيد المعلق بالكعبة ، وسمى ابنه موسى ولياً للعهد .

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الفعلة الطائشة ان ثار النزاع بشكل سافر ما بين العرب والفرس ، فانتصر العرب لأبن زبيدة حفيدة المنصور ، وانتصر الفرس لابن مراجل الفارسية ، وأخذ كل فريق يتأهب للقاء الآخر . وابتدر المأمون فأغلق مسالك الطريق ما بين فارس والعراق ، وشرع يعدّ العدة لتجهيز الجيوش ليكون على أهبة الاستعداد لأي طارىء . وزادت الأوضاع تأزماً حتى لم يعد غير السيف من حكم بين الأخوين ، حين جعل الأمين طاغية خراسان السابق علي بن موسى على رأس جيش للزحف على خراسان .

وعقد المأمون قيادة جيشه لطاهر بن الحسين يعاونه هرثمة بن أعين وزهير ابن المسيب ، وتحرك الجيشان كل منها نحو الآخر ، فالتقيا بظاهر الري ، ولم يدم الصراع بينهما طويلاً ، اذ تمكن طاهر بن الحسين من قتل علي بن عيسى وأنهزم جيش الأمين .

وبذا أصبحت الطريق الى بغداد مفتوحة فتقدمت جيوش المأمون لحصار المدينة الخالدة من جهات ثلاث ، ولكن جيوش الأمين انتصرت في المعارك الأولى على جيوش المأمون ، وكانت الغلبة للبغداديين على طاهر بن الحسين في موقعة « درب الحجارة » كما ان هرثمة لم يثبت أمام رجل من الصراة في موقعة « باب الشماسية » وكاد يقضي عليه لولا أن شدّ بعض أشياع هرثمة الخلص على الرجل وخلعوا يده . وعاد ميزان القوى الى الاعتدال فالى رجحان كفة جيوش المأمون،عندما عمت الفوضى بغداد وأخذ بعض تجارها ينفضون من حول ابن زبيدة وعلى رأسهم صاحب شرطته محمد بن عيسى .

وشدد طاهر بن الحسين الحصار على المدينة التي أخذت تميد تحت قدمي الأمين، اذ «هدم(طاهر)دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة الى الصراة،وأرحاء أبي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة، وجعل يبايت أصحاب محمد (الامين) ويداجهم ، ويحوي في كل يوم ناحية من بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة . وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون ، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون ، فتقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد ، ويكونون أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً [١] » .

وطالب جند الأمين بأرزاقهم فأمر ببيع ما بقي من التحف في خزائنه ، وشعر بحرج مركزه ، وفقد ثقته حتى بأقرب المقربين اليه وقال : « ما منهم الا عدو بمن معنا وبمن علينا ، أما هؤلاء فيريدون مالي ، واما اولئك فيريدون نفسي [٢] » .

ومع كل هذا ، ظلت فئة من وجوه القوم إلى جانب الأمين ، وقد نصحوه بالفرار إلى دمشق موئل القوى العربية حيث يلقى من يذود عنه ويدفع عن حياضه، ولكن هذه الخطة بلغت مسامع طاهر بن الحسين فكتب يتهدد هؤلاء : « والله لئن لم تقروه وتردوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها ، ولا تكون لي همة إلا أنفسكم » فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا : « لقد بلغنا الذي عزمت عليه ، فنحن نذكرك الله في نفسك : ان هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب . وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم وعلى أموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها . ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت في أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك،فيتقربوا بك ، ويجعلوك سبب أمانهم،وضربوا له فيه الامثال[٣] » وحينئذ أسقط في يد الأمين ، ولكنه أطلق آخر سهم من كنانته وكتب إلى

١ – الطبري ج ١٠ ص ١٨٤
٢ – تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٦٠
٣ – انظر تفصيل ذلك في الطبري ج ١٠ ص ١٩٠ – ١٩٦

هرثمة يوسطه ما بينه وبين المأمون على أن يتنازل له عن الخلافة ، وجاءه رد القائد يترجح بين الأمل والقنوط : « قد كان ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الأمر ، أما الآن فقد جاوز السيل الزبى ، وشغل الحي أهله أن يعار . ومع ذلك .. فإني لا آلو جهداً في كل ما عاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين »

وتحت أستار الظلام ، وأملاً في السلامة ، ركب الأمين حراقته لابساً ثياب الملك ، قاصداً معسكر هرثمة ، لكن عين طاهر كانت يقظة متعقبة سائر حركات الأمين ، ولم تلبث السهام ان انصبت على الحراقة، فألقى الخليفة بنفسه في غمار دجلة ليبلغ الشاطىء ، حيث تعقبه جند طاهر فأجهزوا عليه ، وحملوا رأسه إلى قائدهم الذي أرسل به إلى المأمون مع القضيب والبردة والسيف سنة ١٩٨ هـ ٨١٣ م

المأمون وثورة بغداد

وهكذا اعتلى المأمون عرش الخلافة بقتل أخيه الأمين ، نتيجة ذلك الصراع الدموي ما بين فرعين من دوحة واحدة، وهو في الحقيقة امتداد للصراع القديم ما بين العنصرين العربي والفارسي .

بيد ان المأمون لم ينتقل إلى بغداد وآثر البقاء في كنف أخواله بخراسان ، مما أثار عليه العرب قاطبة ، لألمهم أولاً من مقتل الأمين الممثل للعنصر العربي بظبى السيوف الفارسية ، ولنقله مركز الخلافة إلى خراسان ثانياً . وهكذا فقد دعيت الأهواء المتباينة والاتجاهات المختلفة في غربي دجـلة لتعبر عن حفائظها في ثورات محلية ضيقة ، منها العباسية ومنها القومية ومنها الانتهازية ، مما اضطر المأمون إلى العودة إلى بغـداد ، محاولاً تسوية الأمور ، غير ان انتقاله من شرقي الخليج (خراسان) إلى شماليه (العراق) أثار عليه حفيظة الفرس ، فقامت في أراضيهم أخطر ثورة فارسية وهي ثورة بابك الخرمي .

لقد كان المأمون في الفترة الأولى من خلافته ، وهو متخـذ خراسان مقراً له ، أطلق يد أحد وزرائه : الفضل بن سهل ، يتصرف كما يشاء ويعمل ما يريد، لما أنس فيه من إخلاص له وتفان في خدمته ، ولكن ما إن أزيح الأمين من الطريـق ،

وغدت أزمّة الأمور بيديه ، حتى شرع يعمل على هواه وما تمليه عليه رغباته الخاصة ومطامعه الذاتية ، وكان أجرأ خطوة خطاها هذا الداهية ، وهو الفارسي الموالي للعلويين ، انه حسّن للمأمون عقد ولاية العهد من بعده لعلي بن موسى الرضا أتقى وجوه الشيعة وأفضلهم ، ففعل المأمون ذلك لإيمانه بصلاح هذا الرجل للنهوض بأمر الأمة من بعده على أفضل وجه . ولكن أهداف الفضل بن سهل كانت أبعد غوراً من ذلك ، إذ كان يحيك خيوط رواية لم تنطل على نعيم بن حازم أحد ساسة ذلك العصر ، فجابه الفضل قائلاً له : « انك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ، ثم تحتال عليهم فتصيّر الملك كسروياً [1] » .

إلا ان ابن سهل تابع تنفيذ مخططه بروية وأناة ، فعمل أول ما عمل على تعيين أخيه الحسن بن سهل والياً على بغداد موئل العباسيين ، ثم خطا خطوة ثانية فأبعد من بغداد كلًا من طاهر وهرثمة القائدين اللذين تم على يديهما النصر للمأمون ، فخلا الجو بذلك لأخيه ، وبالتالي له ، حتى انه استطاع ان يكتم عن الخليفة ان بغداد قد ثارت عليه سنة ٢٠٢ هـ ٨١٧ م وان العباسيين قد خلعوا المأمون وبايعوا بالخلافة ابرهيم بن المهدي الذي دان له قسم كبير من منطقة شمالي الخليج الواقعة ما بين النهرين ، كما أقرت بخلافته كل من الكوفة والمدائن ، وانبسط ظل حكمه على سواد العراق !

وكانت ثورة بغداد في الواقع ، ردة فعل طبيعية لحركات التمرد الفارسية وما تخفي وراءها من مؤامرة واسعة النطاق على العرب وعلى الدين الاسلامي الذي كان الدعامة التي يرتكز عليها الحكم العربي . وموقف بغداد الجماعي إنما يشبه إلى حد كبير الموقف الفردي الذيوقفه أبو جعفر المنصور من أبي مسلم الخراساني وهارون الرشيد من البرامكة .

ولم يجرؤ أحد على مفاتحة المأمون بما حدث في العراق غير ولي عهده علي بن موسى الرضا ، فلما علم بذلك نهض للأمر بكل طاقاته ، وابتدأ رحلته من خراسان

---

١ - الجهشياري ص ٣١٣

إلى بغداد مع وزيره الفضل الذي قتل غيلة في الطريق بدم القائد هرثمة ، وكان الفضل قد قتله لأنه سار لمكاشفة المأمون بحقيقة وزيره ، وكان كبش الفداء في هذه العاصفة رجل التقى والورع علي بن موسى إذ مات مسموماً في الطريق كذلك ، وكتب المأمون إلى البغداديين يسترضيهم ، لاسيا وان الفضل وعليا بن موسى قد زالا من الطريق ، فقبلوا طلب خليفتهم وثاروا بابرهيم بن المهدي الذي توارى طالباً السلامة ، وخمدت نيران الثورة العراقية بدخول المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ٨١٩م، ولكن ما إن رضي الثائرون العرب حتى ثار أهل خراسان وكان رأس الثورة ومدير رحاها بابك الخرمي .

الثورة الخرمية

لقد تميز حكم المأمون بقيام عدد من الثورات التي شب ضرامها في شرقي الخليج وشماله وغربه طوال فترة حكمه . ومن أخطر تلك الثورات ثورة بابك الخرمي التي تكمل سلسلة الثورات الفارسية التي حفل بها الحكم العباسي ابتداء من ثورة سنباذ .

ولم يكن غريباً ان تنشب تلك الثورات الاقليمية العنصرية التي استهدفت الإطاحة بالحكم العباسي الذي قام على سيوف الفرس،بعد ان رأى هؤلاء ان الخلفاء العباسيين العرب قد انتبهوا لخطرهم ، ووقفوا في وجه أهدافهم البعيدة الرامية إلى نقل الخلافة إلى العلويين كخطوة أولى في سبيل استيلائهم على الحكم .

وكان للمذاهب الفكرية والعقائدية دورها الفعال في إثارة البدع وإشعال نيران الثورات ، فان الفرس رغم اعتناقهم الدين الاسلامي لم يأخذوه صرفاً بل صبغوه بهذا الشكل أو غيره ، بعقائدهم الأولى ومذاهبهم الدينية السالفة . وإلى جانب العوامل المذهبية والرواسب الدينية التي كان لها الأثر الكبير في خلق الحركة الخرمية ، كانت هنالك الاحوال السياسية والاوضاع الاجتماعية التي ساعدت باضطرابها وعدم استقرارها ، على استشراء تلك العقيدة الاشتراكية المتطرفة ، إذ كان الاستياء عاماً في ولايات الامبراطورية العربية من اهمال الخلفاء لها وترك

امورها للولاة يتصرفون في شؤونها بحسب أهوائهم ، كما صنع المأمون لما تزوج من ابنة الحسن بن سهل «فأطلق له حرية التصرف في خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة كاملة [1] ! .. »

. وكانت الثورة الخرمية تهدف فيما تهدف اليه ، إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية السائدة في فارس ، والحد من سلطة الدهاقين (الاقطاعيين) والرفع من مستوى الفلاحين الذين كانت لأسيادهم السيطرة التامة على حياتهم . وقد تشبعت العقيدة الخرمية بالمذهب المزدكي الاشتراكي ، غير انها اصطبغت جزئياً بصبغة الاسلام ، وبذا تكون من العقائد الاصطفائية .

ولقد لاقت هذه المبادىء قبولاً حسناً لدى الفرس وبعض الاكراد والأرمن والأتراك الذين كانوا يعيشون في سلطان الامبراطورية العباسية، فدخلوا في شرعة بابك أفواجاً أفواجاً ، وذلك ، على ما يرى بندلي جوزي ، لعوامل جلها اجتماعية واقتصادية غير انها مصطبغة بالصبغة السياسية [2] .

لقد شرع بابك بالدعوة لمذهبه سنة ٢٠١ هـ ٨١٦ م ، والمأمون يوجه اهتمامه إلى اخماد الفتن في خراسان والعراق واليمن ومصر ، غير ان هذه الثورة العقائدية سرعان ما انتشرت انتشاراً واسعاً في ايران القديمة شاملة رقاعاً شاسعة من الأرض، وكان عدد من انضم تحت لوائها « ثلثمائة الف مقاتل من اذربيجان والديلم فقط [3] »

ولم تكتف العقيدة الخرمية بالدعوة الى الاشتراكية في المال ، بل دعت كما يقول نظام الملك في كتابه « سياسة نامه » الى اباحة المحرمات والاشتراكية في النساء . ويضيف نظام الملك ان اتباع هذه العقيدة كانوا يبذلون كل جهد للقضاء على الاسلام قضاء مبرماً ، وان الخرمية والباطنية سواء [4]. وآمنت هذه العقيدة بما بشّر به أبو مسلم الخراساني والراوندية، واعتنقت الفكرة القائلة بتناسخ الأرواح

---

١ ـ انظر تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٦٤

٢ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٠٨

٣ ـ الفرق بين الفرق ص ٢٦٨

٤ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٩٧

وتجسد الروح الالهية ، ولا يستبعد ان يكون بابك قد ادعى هو أيضاً بتجسد الذات الالهية في شخصه .

ولكن الأهداف الاساسية البعيدة للثورة الخرمية ، كانت نقل السلطة من العرب الى الفرس على كافة أجزاء الامبراطورية الاسلامية . وقد اشار البلخي الى ذلك بقوله : « فان الخرمية احتالوا في ازالة الملك الى العجم ، فموهوا هذه النحلة ، وزينوها للجهال ، ودعوا اليها في السر [1] » .

وما كادت العواصف تهدأ من حول المأمون، حتى وجه اهتمامه للقضاء على ثورة بابك ، فارسل في عام ٢٠٤ هـ ٨١٩ م عدداً من الحملات العسكرية برئاسة مشاهير قواده ، ولكن جميع هذه الحملات باءت بالاخفاق ، وظلت الثورة قائمة حتى أيام المعتصم خليفة المأمون .

وكان المأمون في أخريات أيامه قد أوصى بالخلافة الى أخيه المعتصم (القاسم) لما يتمتع به من قوة الشخصية والقدرة العسكرية ، وقد كان لثورة بابك اثر كبير في اختياره هذا ، اذ أثارت بثباتها واتساعها قلقه وخوفه على مصير الإمبراطورية .

وتوفي هذا الرجل الكبير – الذي بذل جهده لرأب الصدع في كيان الامبراطورية بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل ، والذي كان اكبر موئل للعلم والعلماء والفلاسفة والحكماء – سنة ٢١٨ هـ ٨٣٣ م في احدى غزواته للدولة البيزنطية التي كانت تظاهر الثورة الخرمية وتمدها بعناصر القوة والبقاء .

المعتصم والتركة الثقيلة التي آلت اليه

تولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ٨٣٣ م بعد أن بايعه ابن أخيه العباس راضياً تنفيذاً لوصية أبيه ، رغم ان الجيش كان قد سمى العباس خليفة بعد وفاة المأمون. لكن التركة التي واجهها المعتصم كانت ثقيلة جداً ، فثورة بابك ما زالت مندلعة النار متأججة الضرام، والزط قد شقوا عصا الطاعة على السواحل الشمالية من الخليج، والدولة البيزنطية ما زالت خطراً ماثلاً يهدد كيان الدولة .

---

١ – البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٤

وقد نهد المعتصم للأمر ، وبادر إلى تنفيذ وصية أخيه المأمون ولاسيا المتعلقة ببابك الخرمي والتي قال فيها : « والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة ، واكنفهم بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدماً النية فيه، راجيـــاً ثواب الله عليه [1] »

ولم يكن المعتصم يثق كل الثقة بالجيوش الخراسانية ، ولا سيا بعد أن عملت على خلعه ومبايعة العباس ابن المأمون . ونظراً لأن أم هذا الخليفة كانت تركية ، فقد عمل على تأليف جيش جديد دعامته الأتراك والبربر ، وأسند قيـــادته للقائد الفارسي الأصل خيذر الأفشين بعد أن استدعاه من افريقية .

إلا ان المعتصم لم ينتظر وصول الأفشين ، وإنما سير جيشاً بقيـــادة اسحق بن ابرهيم أحد قواده الأشداء ، ليشاغل بابك ريثما تصل القوى الرئيسية التي يقودهـــا الأفشين . وقد استطاع اسحق ان ينزل الهزيمة ببابك، وأن يمزق جنوده شر ممزق، فهاموا في جهات الأرض ، حتى اضطر قسم كبير من فلولهم للالتجاء إلى امبراطور الروم والدخول في خدمته [2] .

غير ان الأفشين ادرك انه بالرغم من الانتصـــار الساحق الذي حققه اسحق ، فالثورة لم يقض عليها القضاء الأخير ، ما دام بابك ما يزال على قيد الحياة ، ولأن قسماً كبيراً من جنده ما زال معسكراً في آران التي اتخذهـــا مركزاً لتحركاته الحربية [3] ، فأخذ يستعد لتسديد الضربة القاضية له قبل ان يتمكن من استعادة قواه المشتتة ، ثم زحف اليـــه بجيشه وبمن انضم اليه من المتطوعين العرب ، وقد رأى أن يبني لنفسه مدينة برزند قبالة المدينة التي جعل بابك منها عاصمة له ، ليرصد عليه حركاته ، بينما هو ينازله في حروب صغيرة أراد منهـــا التعرف على مواطن الضعف والقوة في صفوفه .

---

١ ـ الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤
٢ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١١١
٣ ـ المرجع السابق ص ١١٢

واستمر هذا الوضع زهاء سنتين لم يشتبك فيها الأفشين مع بابك بقتال جدي، حتى إذا كانت سنة ٢٢٢ هـ ٨٣٦ م اضطره إلى الخروج بعد أن ضيق عليه السبل ، واستدرجه إلى معركة دعيت بمعركة أرشاق كبده فيها الهزائم المتتالية حتى كادت تدور عليه الدائرة ، لكنه استطاع أن يفلت مؤثراً الانسحاب إلى صحراء مدغان، حيث لملم شعثه واستعاد بعض قواه ، ثم انكفأ ليكرّ على الجيوش العباسية ، وصدم مقدمتها التي يرأسها بغا الكبير ، وألحق بها هزيمة منكرة ، وشتت شملها ، واضطرها إلى الفرار .

وحينئذ قرر الأفشين الالتقاء ببابك بنفسه ، ودارت بينهما معركة رهيبة أسفرت عن هزيمة الخرمي الذي تراجع أمام الانتصارات التي حققها الجيش العباسي، غير ان الأفشين لم ينم على ذلك الظفر المحلي ، وانما عقد العزم على استثمار النصر ومتابعة تعقب عدوه ، وقد قتل على التوالي قائدي ميمنته وميسرته طراخان وأذينة ، وأنزل بجنودهما الخسائر الفادحة في الأرواح .

وأمام هذا الاخفاق المتتابع والانكسارات المتوالية التي نزلت بساحة بابك ، آثر التوقف عن القتال ، والتجأ إلى قلعة بزين ، فضرب عليه الأفشين الحصار مدةً طويلة ، حتى إذا نفدت لديه الميرة ، فرّ هارباً من قلعته ، وتوجه شطر امبراطور البيزنطيين الذي لم يفتر يوماً عن دعمه ومدّه بأسباب البقاء ، ونزل في أرمينية مع أهله وأتباعه متخفين بزيّ التجار ، ولكن أمرهم لم يخفَ على سهل بن سنباط الذي مكر بهم والقى القبض عليهم ، فسيقوا إلى بغداد (سنة ٢٢٣ هـ ٨٣٨ م) .

ولما انتشر خبر سقوط عاصمة بابك ووقوعه في الأسر « ضجّ الناس بالتكبير وعمّهم الفرح وأظهروا السرور » وصار سكان بغداد وسامراء يتصافحون في الشوارع « فكان ذلك من أعظم الفتوح في الاسلام ، ويوم قبض عليه كان عيداً للمسلمين [1] » وحين جيء به إلى بغداد قُتل وصُلب وأخذت الناس في الصباح « تهرول إلى رأس الجسر ليروا « عدو الدولة والدين » مصلوباً هناك ، حتى إذا جن

---

١ - البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٨

الليل أنزلوه عن الصليب ثم قطعوه إرباً إرباً ، وأرسلوا رأسه إلى سائر البلدان [1] »

وبذلك قضي على تلك الثورة الخطيرة التي دامت زهـــاء عشرين سنة وكلفت المأمون عدة جيوش ، وأنهكت الكثير من قوى المعتصم ، وما كاد هذا يقضي على قائدها حتى التفت إلى المازيار والي طبرستان الذي كان له دور خطير في الثورة الخرمية ، وكان على اتصال سري ببابك ، وقد اقتفى آثاره ونهج نهجه حتى تعاظم خطره واستفحل أمره ، ولكن المعتصم تمكن من إلقاء القبض عليه وصلبه كما فعل ببابك. وهكذا قضي على هاتين الثورتين العقائديتين المصطبغتين بالصبغة السياسية، لأنهما كانتا ترميان إلى القضاء على الدولة العباسية وإرساء حـــكم الفرس في جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية .

ثورة الزط

ومن التركة التي خلفها المأمون لأخيه المعتصم ثورة الزط الذين كانوا كما يقول ابن خلدون قوماً من أخلاط الناس انتهزوا فرصة انشغال الجند بالحروب ، فغلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البـلاد ، ويرجع أصلهم إلى الهند ويعرفون بالنّوَر ، وكان همهم الشغب والخطف [2] .

والمعتقد ان الساسانيـين هم الذين أنزلوهم في جنوبي العراق على الساحل الشمالي من الخليج العربي ، ولم يعر الحكام العرب بادىء ذي بدء أي اهتمام لهذه الفئـة ، بل سمحوا لها بالبقاء بين ظهرانيهم ولم يعارضوا في انتساب أفرادهـــا إلى صفوف الجيش العباسي [3] .

وقد بدأ خطر هذه الجماعة من شذاذ الآفـــاق يذر قرنه مع بدء الصراع بين الأمين والمأمون ، اذ استغلوا تلك الظروف ليثيروا القلاقل والفتن ، ويعيثوا فساداً حيث حلوا وارتحلوا . ولما انتقل المأمون من مركز خلافته في مرو الخراسانية الى

---

١ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١١٥

٢ ـ العبر ج ٣ ص ٢٥٧

٣ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ - ٤٧

بغداد ، وجه همه للقضاء على فتنتهم ، وأوكل هذه المهمة الى عيسى بن يزيد الجلودي، غير انه لم يستطع الانتصار عليهم ، فولى المأمون داوود بن ماسجور البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ، ودعاه الى قتالهم ، فنهد اليهم ونازلهم وأحرز عليهم بعض الانتصارات .

وفي مستهل حكم المعتصم ندب الخليفة لقتالهم أحد مشهوري قـــادة العرب ، واسمه عجيف بن عنبسة ، وكان أمرهم قد استفحل ، وشرهم قد استشرى ، حتى انهم فرضوا المكوس الجائرة على السفن ، وحالوا دون وصول المؤن والأقوات الى بغداد[1] ، وعطلوا كافة طرق المواصلات بين الخليج العربي والبصرة ودار السلام.

وأدرك عجيف خطر هذه الجماعة التي تفلت افلات المـاء من اليد حالما يتهددها الخطر ، لتعاود بعد ذلك شن غاراتها الدموية ، فقرر أن يأخذها بالصرامة والحزم، محاولاً حصرها في بقعة من الأرض للاجهاز عليها . وانطلاقاً من مدينة واسط التي اتخذها دار حركاته ، راح يعمل على قطع الأنهار عنها ، وضرب الحصار على المنطقة بكاملها ، كي يسد أمام اولئك الشذاذ سبل النجاة ، ويحملهم على الاستسلام .

والواقع انهم حين ادركوا ألا أمل لهم بالنجـــاة ، القوا سلاحهم واستسلموا صاغرين ، وقد بلغ عدد اسراهم على ما أورده الطبري في تاريخه سبعة وعشرين الف زطي من رجال ونساء وأطفال[2]. ثم نقلهم عجيف في السفن الى بغداد حيث مثلوا أمام المعتصم ، فأمر بنفيهم الى آسية الصغرى سنة ٢١٠ هـ ٨٢٥ م ، وبذا قضي على هذه الثورة التي هي من نوع العصابات والتي هددت كيان الدولة العباسية ما يقارب عشرين عاماً .

ثورة الافشين

لمع نجم خيذر بن كاوس الملقب بالأفشين نتيجة حروبه مع البيزنطيين ، وبلائه

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٦٧
٢ ـ ج ١٠ ص ٣٥٦

في فتح عمورية ، واخماده ثورة بابك الخرمي . غير ان قائد الجيش العباسي ما لبث أن تنكر في أخريات أيامه لسيرته الأولى ، وحاول أن يستقل ببلاده الأشروسنة - أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر الواقعة بين أقاليم فرغانة شرقاً وسمرقند غرباً والشاش شمالاً [1] . وقد انكشفت مطامع الأفشين اثر محـــاكمة المازيار الذي « أقرّ على الافشين انه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب المانوية والمجوس [2] » .

وقد قامت الأدلة على صحة التهمة التي ألصقت بالأفشين في محاكمة علنية شهدها المعتصم ، وقد شهد المازيار بأن الأفشين كتب له بوساطـة اخيه يدعوه الى الثورة قائلاً : « انه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك ، فــــانه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه الا أن دلاه فيما وقع فيه ، فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس»وشهد المرزبان بن تركش ان اهل أشروسنة يكتبون الى الافشين: « الى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان [3] » .

والقي الأفشين في السجن وقتل مسموماً فيـــه ، وبذلك قضي على حركة من الحركات الشعوبية كان خطرها اكبر من غيرها لانها تهدم من الداخل ، ولا ندري مـــاذا كان يمكن ان تحمل في طياتها فيما لو أفلت هذا الرأس الكبير المتحلي بكل خلال الشجاعة والذي كان المعتصم يضع كل ثقته فيه . وكان مقتله عـــام ٢٢٦ هـ ٨٤٠ م .

الحراب التي استعان بها العباسيون ثم وجهت اليهم

وهكذا نجد ان العباسيين الذين أزالو الحكم الأموي العربي في دمشق ،

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٩٩

٢ ـ مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤

٣ ـ انظر تفصيل ذلك في الطبري ج ١٠ ص ٣٦٥ – ٣٦٧

مستعينين بجراب الفرس ، قد وضعوا أنفسهم تحت رحمة هذه الجراب ، وأطلقوا قوى كامنة باتت تشكل خطراً مصيرياً عليهم وعلى السلطان العربي للامبراطورية الاسلامية التي كانت بغداد عاصمة لها .

ويقول الدكتور عبد العزيز الدوري في ذلك: « ان الثورة العباسية قد أطلقت قوى اجتماعية بعضها خفي وبعضها ظاهر ، وأفسحت لها المجال دون تقدير ، لتحاول تأكيد وجهاتها فظهرت الشعوبيه » الا انه يستطرد قـــائلاً : « ونحن نخطىء حين نعتبر العباسيين وحدهم مسؤولين عن تنحية العرب وتقريب الأعاجم ، فان القوى والتيارات التي ساندتهم ، وخـــاصة الوعي الديني والوعي القومي لدى الشعوب الأعجمية ، كانت أقوى من أن تعود الى قواعدهـا وتهدأ . ولم يقدّر العبـاسيون مبدئياً أخطار هذه القوى [1] » .

---

١ - الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٣٩ - ٤٠

ظهور العنصر التركي على مسرح الامبراطورية العربية

المعتصم والترك

لقد رأينا خلال حديثنا عن الاوضاع السياسية القائمة في منطقة الخليج العربي ، كيف كان النزاع قائماً على أشده بين عنصري العرب والفرس ، ولا سيما خلال الحكم العباسي الذي قام على الحراب الخراسانية ، وظلت القوى الفارسية دعامته الأولى ، وما جرّ ذلك الى فتن وثورات ترمي كلها الى تقويض الدولة العباسية واحياء الدولة الساسانية .

وعلى ضوء هذه الأحداث التي سبقت اعتلاء المعتصم العرش العباسي ، فكر الخليفة الجديد في أن يمكّن لنفسه بتخفيف حدة الصراع العربي الفارسي ، وذلك بانشاء جيش جديد تكون دعامته العنصر التركي . ولا خلاف في ان كون ام المعتصم تركية ، كان له اكبر الأثر في قراره هذا ؛ وبذلك بدأ العنصر التركي يظهر في القصر الحاكم كبطانة خاصة [1] ، وشيئاً فشيئاً أخذ المرتزقة الاتراك سبيلهم الى العاصمة العباسية لتكوين نواة جيش تركي ، وذلك اما عن طريق النخاسة أو عن سبيل دفعهم الى الخليفة كجزء من الخراج المتوجب على بلاد ما وراء النهر . وقد ذكر السيوطي « ان المعتصم اعتنى باقتناء الترك ، فبعث الى سمرقند وفرغانة

---

١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٧٠

والنواحي في شرائهم وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب [1] ، ويستدل من ذلك انه قد آثرهم على غيرهم ، واختصهم بثقته ، وبدأ يسلمهم مرافق الدولة ، ويسند اليهم رفيع مناصبها ، شأن أخيه المأمون مع الفرس في بدء حكمه !..

ومنذ تلك الفترة ، بدأت قوافل تجار الرقيق تحمل إلى قصر الخلافة العباسية في بغداد ، الجموع المتدفقة من ذلك العنصر التركي الذي آثره المعتصم وشكل منه فيما بعد الجيش الضخم الذي تمكن بقيادة الأفشين من سحق الخطر المتمثل بالثورة الخراسانية .

ولم يكن الأتراك حين مقدمهم على مستوى الروح الحضارية التي بلغتها بغداد، وإنما كانوا في حالة زرية من التأخر الفكري ، ولذا فقد فتح المعتصم أمامهم أرحب المجالات لتثقيفهم ، كي « يحسنوا » الاضطلاع بشؤون الدولة التي ستوكل اليهم .

يقول الدكتور حسن ابرهيم حسن : « كان الشاب التركي يحصل على حريته إذا ما أخلص في خدمة مولاه . وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة في البلاط العباسي . وأخذ هؤلاء الأتراك الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون في طبقات الأمراء المثقفين ، فاعتنقوا الاسلام ، وتأدبوا بآدابه ، وتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية ، حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشؤون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية في البلاط ، تحرر من عبوديته ، وتولى المنصب الذي يتناسب مع كفاءته ومواهبه ، ومن ثم رشحوا للمناصب على اختلافها ، ووصلوا إلى أعلى مراتبها ، من الاندماج في سلك البلاط إلى تقلد أكبر الولايات [2] » .

وما عتمت كفة هذا العنصر أن رجحت على العنصرين العربي والفارسي معاً ، ودانت لهم الدولة بكافة مرافقها ، وأصبحوا يتحكمون بالشعب ، فبدأت تظهر من

---

١ - تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣

٢ - تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٧١

جديد بوادر السخط لدى العرب على هذه الطغمة التي غدت أزمة الأمور في أيديها ، وهذا ما أثار عدداً من القادة العر الذين رأوا في دخول هذا العنصر الجديد إلى كيان الدولة ، انقلاباً في الحكم يجري لمصلحة هؤلاء الدخلاء الذين بدأوا يهيمنون على شتى مرافق البلاد ، ورأوا من الخير والواجب العمل لاستئصال هذا الدمل في الجسم العليل ، فقرروا القضاء على تغلغل العنصر التركي وسيطرته ، بيد ان الخليفة كشف أمرهم وأنزل الموت بهم ..

وكان من أثر هذه الحادثة أن اشتدت الوطأة على العرب والفرس الذين ازدادت خشية الخليفة منهم « وأوقعته في أيدي القواد الأتراك ، وأدت إلى إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وإسقاطهم من ديوان العطاء [1] » .

الصراع بين العرب والترك

وبعد فترة من حكم الجنود الأتراك البغيض بدأ العرب ، ولا سيا البغداديين منهم ، يظهرون التذمر من هذه الزمرة التي غدت مصدر تعب للخليفة نفسه ، اذ كانت الحوادث لا تفتأ تقع بين الفريقين بسبب اختيال الترك وأنفة العرب، وغدت بغداد مسرحاً للاضطرابات الدائمة التي كثيراً ما يقع من جرائها القتلى من عرب أو ترك . وقد ذكر المسعودي طرفاً من تلك الاضطرابات فقال : « وكانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول في الأسواق ، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير [2] » .

وبلغ من نقمة المواطنين العرب انه بينا كان المعتصم « راكباً منصرفاً من المصلى في يوم عيد . فلما صار في مربعة الحرشي ، نظر الى شيخ قد قام اليه فقال

---

١ - المرجع السابق ص ٦٨

٢ - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩

له : يا أبا اسحق ! فابتدره الجند ليضربوه ، فأشار اليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ : ما لك ؟ قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت بهم رجالنا [1] » .

ولم تقتصر النقمة على عامة الشعب بل تعدته الى قادة الجيش ، فقد « قام عجيف ، ذلك القائد العربي الذي أبلى بلاء حسناً في محاربة الزط ، بثورة على قواد الأتراك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه . ودخل قواد العرب في حلبة هذه المؤامرة ، واتفقوا على قتل المعتصم ... على ان خبر هذه المؤامرة قد تسرب الى المعتصم ، فمنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف [2] » .

وخوفاً من مغبة تلك الاصطدامات الدائمة ، رأى الخليفة أن من الأفضل له ولجيشه أن يتركوا بغداد التي لم يستطع التغلغل الأجنبي بجميع أشكاله أن يزيل طابعها العربي الأصيل ، فوجه اهتمامه الى تمصير مدينة سامراء (سر من رأى) التي انتقل اليها فيما بعد .

وفي أخريات أيام المعتصم ، ندم الخليفة على ما فرط منه [3] ..

وظهر لديه الاتجاه الى تضييق نفوذ الأتراك وحصره ، غير ان المنية عاجلته عام ٢٢٧ هـ ٨٤٢ م دون أن تبدر منه بادرة عملية في هذا الصدد .

ولقد ظهر نفوذ الأتراك بشكل أدهى وأخطر ، باعتلاء الواثق سدة الخلافة خلفاً لأبيه المعتصم ، وكانت أول بادرة منه أن خلع على القائد التركي أشناس لقب السلطان [4] ، ورافق ذلك تشكيل نواة الدولة الطاهرية في شرقي الخليج باستقلال

---

١ ـ الطبري ج ١٠ ص ٣١١

٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٦٧

٣ ـ حماة الاسلام ص

٤ ـ وقد علق السيوطي على ذلك بقوله : وأظن انه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فان الترك انما كثروا في عهد أبيه (تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦)

أبناء طاهر في خراسان ، ومع تلك الفترة من حكم الواثق بدأت بوادر التفكك والانفصال تظهر بشكل جدي في كيان الامبراطورية العربية الاسلامية .

وخلال حكم الواثق الذي دام خمس سنوات (٢٢٧ – ٢٣٢ ه ٨٤٢ – ٨٤٧ م) اشتعلت في البلاد بعض الفتن والثورات وكان يوكل اخمادها للجيش التركي بقيادة بغا الكبير .

وهكذا جمع الأتراك ما بين المرافق المدنية والعسكرية،وغدت السلطة المطلقة في قبضة يدهم ، وظهرت هذه القبضة قوية طاغية لا يكبح من جماحها شيء ..

الدور الثاني من الخلافة العباسية

بدأت عوامل الضعف والتفكك تظهر بشكل جلي في كيان الدولة مع نهاية الدور الأول للدولة العباسية وهو عصرها الذهبي ، بافساح الخلفاء للمرتزقة الأتراك مجال التغلغل في جهاز الدولة والتسلط على الحكم .

وقد تميز خلفاء الدور العباسي الثاني بالضعف وفقدان الإرادة الحازمة ، وذلك لأن الجنود الأتراك قد غدوا بتكتلهم وتسلطهم ، يرفعون إلى سدة الحكم من شاءوا ، ويعزلون أو يقتلون من لم يرضوا عنه ، فكانوا يتلعبون برؤوس الخلفاء تلعبهم بحجارة الشطرنج ، حسب أهوائهم ويقتضى مصالحهم .

ولما ارتقى المتوكل سدة الحكم (٢٣٢ – ٢٤٧ ه ٨٤٧ – ٨٦١ م) بعد وفاة أخيه الواثق الذي رفض تسمية خليفة من بعده،اضطلع الجنود الأتراك بهذه المهمة، مما يدل دلالة واضحة على قوة شوكتهم ومدى سيطرتهم .

والحق ان الخليفة المعتصم كان قد فتح على الخلافة هـذا الباب من الفساد ، إلا ان شخصيته القوية مثلت دور الكابح لطغيان الأتراك ، بينما استهل المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم) حكمه باتباع سياسة خرقاء عملت على تأليب العرب عليه ، وذلك لاضطهاده العلويين وهدمه قبر الحسين في كربلاء . ومـا إن أوغل في تلك الطريق الشائكة حتى رأى ان الأتراك يزيدون في تضييق الخناق عليه ، وانه غـدا بين نارين لاهبتين ، فضاق ذرعاً من تدهور الأوضاع السياسية ، وعمل على الهرب

من ذلك الجو السياسي المضطرب المشحون بسحب الصواعق ، بالانتقال إلى الشام موئل الخلافة الأموية ، والاعتماد مجدداً على العنصر العربي . وقد نفذ بالفعل جزءاً من هذا المخطط ، غير انه لم يستطع أمـــام التفسخ الذي عمّ كيان الدولة سوى العودة إلى مقر الخلافة الجديد في سامراء ، يحدوه الأمل بأن يسعى إلى التخلص من طغمة الأتراك ، وقد خطا الخطوة الأولى في هذا السبيل بأن أزاح ابنه المنتصر عن ولاية العهد لتشيعه الصريح للأتراك ، كما أصدر أمره بمصادرة ممتلكات القائد وصيف في بلاد الجبل و « كذلك قضى على القائد التركي ايتـــاخ الذي سبق له ولوصيف أن ساعداه على ارتقاء العرش [1] » وقد ذكر الطبري انه عزم أيضاً على الفتك بابنه المنتصر وبوجوه الأتراك كوصيف وبغا وغيرهما [2] . .

إلا ان الأتراك كانوا أسبق إلى الفتك بالمتوكل إذ دبروا له ، بالاشتراك مع ابنه المنتصر ، مؤامرة قام على رأسها بغـا الصغير معتمداً على باغر حارسه التركي الخاص ، فتعاورته سيوفهم وقضت عليه .

مصارع الخلفاء

وخلف المتوكل ابنه المنتصر (٢٤٧–٢٤٨هـ ٨٦١–٨٦٢م) الذي كان قد أسهم في التآمر على أبيه . على ان حكمه لم يدم أكثر من ستة أشهر ، إذ بدأ يُظهر نفوره من الأتراك ، ويشير اليهم بأنهم قتلة الخلفاء « ففكروا في قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور بذلك ، وأعطوه ثلاثين الف دينار ، ففصده بريشة مسمومة [3] » فقتل على الأثر وله من العمر ست وعشرون سنة .

وبعد مقتل المنتصر ، رفع الجنود الاتراك الى سدة الحكم أحمد المستعين بن محمد ابن المعتصم (٢٤٨ – ٢٥٢ هـ ٨٦٢ – ٨٦٦ م)، وذلك لأنهم عارضوا في أن يتولى

---

١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٢

٢ ـ الطبري ج ١١ ص ٦٢

٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٧

أحد من أولاد المتوكل خوف الثأر منهم لقتلهم أباه وتسميمهم أخاه [١] .

وتميزت فترة حكم المستعين ، بظهور بذرة الشقاق في الجيش التركي ، فانقسموا فريقين ، فريق برئاسة وصيف وبغا وقد قصد بغداد واستقر فيها ، وفريق ظل في سامراء وقد علم هؤلاء ان الخليفة يريد القضاء عليهم فخلعوه ونصبوا بدلاً منه المعتز ابن المتوكل ، فعمت الاضطرابات كل مكان وسالت الدماء بين الفريقين ، ولما ضاقت السبل بوجه المستعين طلب نجدة أمير العراق والمدينتين المقدستين محمد بن عبد الله أحد أحفاد طاهر بن يحيى الذي شكل نواة الدولة الطاهرية في خراسان ، وسعى محمد لنجدة المستعين حين حوصر في بغداد ، غير ان خلافاً نشب بينه وبين بغا حدا به للانقلاب على المستعين والميل الى المعتز ، وبذا أفلتت أزمة الأمور من يد المستعين واضطر الى أن يخلع نفسه ولكن ذلك لم ينقذه فقتل على ايدي الزبانية الأتراك في مدينة واسط [٢] .

وبذا غدا الجنود الأتراك أسياد الموقف ، ولم يعد الخلفاء سوى دمى يتلهون بها ، وقد عبر عن ذلك أحد شعراء العصر أروع تعبير بقوله:

خليفة في قفص ٍ بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وننقل هنا عبارة ابن الأثير بصدد كلامه عن تلك الحقبة التاريخية: « ان الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه [٣] » .

النقمة على الطغيان التركي

ولقد اثارت سلسلة الاغتيالات هذه حفيظة العرب ، فثارت نفوسهم واضطرمت

---

١ - ابن الأثير ج ٧ ص ٤٠

٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٥

٣ ابن الأثير ج ٧ ص ٦٨

بالنقمة على الطغيـــان التركي ، وتميزت تلك الفترة بظهور الاضطرابات العنصرية والثورات الدموية في بغداد وجميع انحـاء العراق « وقد أكثر شعراء ذلك العصر من وصف ما أصاب البلاد من سوء الحال، وتحكم الأتراك في الخلفاء، وما عمّ الناس من الفوضى والاضطراب [1] » ومن ذلـك قول أحد الشعراء .

لله در عصـــابة تركيـــة ردوا نوائـــب دهرهم بالسيف
وطغوا فأصبح ملكنـا متقسماً وإمامنـــا فيـه شبيه الضيف

وقد بذل المعتز (٢٥٢ – ٢٥٦ هـ ٨٦٦ – ٨٦٩ م) جهده لتحسين الأوضاع السياسية والاجتماعية والادارية ، بيد ان الأمر كان أكبر من طاقاته ، وقد تغلغل النفوذ التركي إلى صغائر أمور الدولة فضلاً عن كبارها ، ولم يبق من الخلافة سوى الاسم والاسم فقط ، وقد اتبع المعتز سيـــاسة التقشف ، فاختصر نفقات القصر ليؤمن للأتراك ما يسد جشعهم ونهمهم المتواصل للمال . ولكن ذلك لم ينقذه مـن المصير الذي عاناه سلفاؤه ، إذ دخل عليه جماعة من الأتراك « فجروه برجـله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، وأقـــاموه في الشمس في الدار ، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر . وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وأدخلوه حجرة ، وسلموه إلى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثـــلاثة أيام ، فطلب حسوة (جرعة) من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سرداباً وحصحصوا عليه (سدوا بابه) فمات [2] . »

وحاول المهتدي الخليفة العباسي الرابع عشر (٢٥٦–٢٥٧ هـ ٨٦٩–٨٧٠م) أن يرفع من مقام الخلافة ، ويرد السلطة إلى أمـــير المؤمنين ، فاصطدم بالأتراك وانتصر له عامة الشعب ، ولكن ذلك لم ينجه من المصير الرهيب المحتوم ، فأسره الأتراك وخلعوه وعذبوه حتى مات [3] ، بعد معركة بينه وبين موسى بن بغا ذهب هو ضحيتها ، بل كانت الضحية الحقيقية الأمة التي ناءت بأعباء تلك الأحداث، والتي

---

١ ـ ظهر الاسلام تأليف أحمد أمين ج ١ ص ٢٢
٢ ـ ابن الأثير جـ ٧ ص ٦٨ – ٦٩
٣ ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣

تعود تبعتها على جده المعتصم .

والواقع ان روح النضال ضد التدخل الأجنبي كانت قد انتقلت من الطبقات الحاكمة إلى الطبقات الشعبية . ويقول الدكتور عبد العزيز الدوري في ذلك: «كان من آثار سيطرة الجند التركي،أن تزعزع الكيان العربي،وان ضُربت الارستقراطية العربية . وعندئذ اندفعت الروح العربية للظهور بشكل جديد ، إذ تمثل الوعي العربي في حركة الجماهير ضد السادة الأجانب المتحكمين وضد الأوضاع القائمة . وكانت هذه الجماهير قليلة التنظيم ، اللهم إلا إذا استثنينا منظمات « العيّارين » والشطار والفتيان ، لأنها كانت حديثة عهد بالظهور . ووقفت الجماهير بجنب الخلفاء الذين حاولوا ان يقاوموا تيار الأجانب . ومن أمثلة ذلك تطوع العامة والعيارين ببغداد بجموع كبيرة لنصرة الخليفة المستعين لما حاصر الأتراك مدينة بغداد سنة ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) . ولما اصطدم المهتدي بالترك سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) قاتلت العامة دفاعاً عن الخليفة،ولكن دور العامة كان لا يزال محدوداً في هذه الفترة[١].»

وقد تميزت فترة حكم المعتز والمهتدي بقيام الثورات ونشوب الفتن الداخلية ، فثورة في خراسان ، وثانية في طبرستان ، وثالثة في بلاد الشام ، وثورات علوية اشتعلت في كثير من البلدان الاسلامية ، غير ان أخطر ثورة عرفتها منطقة الخليج في تلك الفترة ، هي ثورة الزنج التي سنروي قصتها بالتفصيل ، ونستعرض من خلالها الأحداث التي وقعت في تلك المنطقة .

---

١ – الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٥٢

ثورة الزنج

مشكلة الزنج

لقد رأينــــا في بحثنا عن الملاحة والخليج ، وكذلك في تمهيدنا لصدر الدولة العباسية ، أن هذه الدولة كانت مسرحاً لأشد العوامل تبايناً واختلافاً ، تقوم على شط من شاطىء الحياة فيها الحضارة الزاهية ، والتقدم الرائع ، والاقتصاد المزدهر ، وانفتاح مرافق التجارة والزراعة مشرعة على مصاريعها من جهة ، وعلى شط آخر مصطرع الفتن ، والثورات الدامية ، والتناحر ما بين عناصر الدولة ، والانتفاضات المستمرة المتمخضة عن الحركات الاستقلالية سياسية وعقائدية ، تعمل نخراً في كيان الدولة التي ظهرت بوادر التفكك فيها وهي في شرخ مجدها وعنفوان شبابهـــا ، فكيف بهـــا وقد برز الى جانب العنصرين الاساسيين ، العربي والفارسي ، ند ثالث وهو ليس بذي حضارة او صاحب صفحة بيضـــاء من التاريخ ، هو العنصر التركي الذي نازع الفارسي ابن تليد الحضارة ، والعربي وفي برديه حملة اشرف رسالة.

وتردت الامة بحالة عمت فيها مظاهر الجور ، واتساع الشقة ما بين الخـــاصة والعامة ، يزيدها قلقاً واختلالاً ضعف الحكام ، وانغلال ايديهم الى اعناقهم ، مما مهد السبل لبروز ثورة اجتماعية من نوع جديد كان الخليج مرتعها الخصب بشاطئيه الغربي والشرقي معاً .

ولا مشاحة في أن مبدأ الخوارج القائل بشق عصا الطـــاعة على الحكام حين

يستشعر منهم الجور كان المنطلق الاول للحركات الثورية التي اطـاحت بالحكم الأموي، وهو ما انفك يظهر من جديد بمجموعة من الثورات المتلاحقة التي انتشرت في كل مكان دون أن تخمد جذوتها ، بالرغم من أن الخلفـاء كانوا يقضون عليهـا في مهدها . وقد تشربت منطقة الخليـج تلك الروح الثورية العاتية ، التي تمخضت عن ثورة الزنج بطابعها الاجتماعي الى جانب العوامل السياسية التي ساعدت على تكوينها وخلقها .

لقـد شكل عنصر الزنج في الدور العباسي الثاني (٢٣٣ – ٤٦٨ ﻫ ٨٤٧ – ١٠٧٥ م) طبقة اجتماعية متميزة في تلك الحقبة،وكان وجودهم في ظل الامبراطورية الاسلامية ، وخاصة في شمال الخليـج ، عـامل رواج كبير لحركة الرق والنخاسة هناك ، بعد أن امتد نفوذ السلطان العربي الاسلامي الى افريقية ، وتوغل العرب المسلمون في مجاهلها ، طلباً للرزق ككل دولة قوية ينشط ابناؤها للجرى وراء العمل والمرابح المادية ، وطرق العرب سائر ابواب التجارة التي كانت النخاسة في العـالم كله – ميداناً من ميادينها . ناهيك عن أن الامبراطورية كانت تسهل هذه التجارة ، فتحمل الرقيق مراكب التجار بعد أن يحصلوا عليهم اما شراءً من عائلات يضطرها العوز لبيع ابنائها ، او تدفعهم البلدان المغلوبة على امرها تسديداً لأقساط الجزية المفروضة عليها [١] .

وساعدت على ذلك الحركة الملاحية الاسلامية في عصرهـا العباسي الراهن ، اذ بلغت خلاله الاوج في الخليـج العربي لارتباطه الوثيق بسواحل افريقية ، فكانت تلك القارة السوداء ما تنفك تمد التجـار بتلك القطعان البشرية فيحملونها الى اراضي ما بين النهرين مركز حاضرة الخلافة ومدنها الغنية العامرة بالثروات الطائلة يعرف اربابها كيف يستثمرونها باستخدام تلك الايدي بالزراعة ، أو ضمهـا الى البيوت الكبيرة على أنها مظهر من مظاهر البذخ والترف .

وقد استطاع التجار المسلمون « أن يأتوا بأعداد ضخمة من هؤلاء الزنج ، لأن اتصال العرب بشواطىء افريقية الشرقية موغل في القدم،فقد عرفوها قبل الاسلام،

---

١ – انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ – ٢٤٤

وظلت علاقاتهم بهـا وثيقة بعد الاسلام . فاستعمروا هذه السواحل واستولوا على تجارتها وجعلوا منها سوقاً عربية ، ثم اسلامية خالصة ، لا ينازعهم فيها منازع ، يوم كانوا اسياد المحيط الهندي وأرباب الملاحـة والاكتشافات والعلوم البحرية . ومن هذه السواحل الشرقية لافريقية ، حيث نشأت مستعمرات اسلامية ومستوطنات أمثال لامو وممبسة وزنزبار وموزمبيق ، ومن جزيرة مدغشقر التي نزلها العرب منذ زمن سحيق وأقاموا لحين دولة في شمالها ، أتى التجار بالرقيق الاسود الذي كان مرفأ سفالة الذي يقع بمحاذاة خط العرض ٢٠ وقرب مرفأ بيرة مركزاً لتصديره . ذلك أن المسلمين ، وقد استوطنت جماعات منهم افريقية ، كالباطنيين والزيديين ، فراراً من الاضطهاد العباسي ، قد جاس بعض المغامرين منهم في مجاهل القارة الافريقية ، حيث كانوا يصطادون الزنج في ادغالها الكثيفة . وكان العرب يتصلون ايضاً بأواسط افريقية ، بواسطة البر ، وذلك خلال الطريق التجاري الذي ينطلق من بغداد ويمر بسورية ومصر فشمالي افريقية [1] » .

أما الزنوج الذين يُعرضون في اسواق النخاسة فكان بعضهم يدرج كأرقاء وجوار وعبيد الى جانب السبايا البيض ، ليكونوا تشكيلة بديعة في قصور الخلفاء والولاة والمترفين ،ان لم نقل — وذلك نتيجة لرواج الحركة الملاحية الواسعة — انهم غدوا من مقتنيات الطبقتين الوسطى والدنيا .

أما القسم الاكبر من الزنوج الذين اتصفوا بقوة البنية والجلادة على الاعمـــال الشاقة ، فقد استأثر بهم اقطاعيو العراق ، وطبقة الملاكين الكبار للمنطقة الواقعة شمالي الخليج ما بين البصرة وواسط [2] ، منطقة المستنقعات المحصورة بين النهرين ، وكان عملهم يتوقف على كسح الاراضي السبخية من الملح المتجمع عليهـا على شكل كثبان متراكمة ، أو يمتد على اراض شاسعة فيحيلها غير صـــالحة للزراعة ، وذلك توصلاً الى التربة الزراعية بعد كسح الملح عنهـا ، اثر كل فيضان يسببه المد البحري

---

١ - ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد تأليف احمد علبي ص ٧٦ - ٧٧

٢ - تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٢٠٩

الذي يغمر شطراً واسعاً من منطقة جنوبي العراق ، حتى اذا ما ارتد المد جزراً حال الارض سبخية ، وكان هذا العمل مستمراً لا هوادة فيه أو توقف ، وهو يدر على الملاكين المرابح الوفيرة نتيجة لاستصلاح الارض من جهـــة ، ولبيع الملح المكسوح والمدعو بالشورج ، من جهة ثانية [1] .

لكن الى جانب تكدس اموال كبار الملاكين وضخامة ثرواتهم ، تشكلت في جسم الدولة طبقة من الناس انتقل افرادها من طور الرق الى دور الثورة ، فهددوا الدولة العباسية وامتشقوا بوجهها ماضي السيوف ، واختوطوها في حروب مريرة لا هوادة فيها طوال اربعة عشر عاماً .

ويتضح من العرض السابق لطبيعة اعمال هذه الطبقة انهـا كانت مزرية ، وانهـا تميزت عن باقي الطبقات الاجتماعية التي ظهرت على المسرح التاريخي للخلافة العباسية، اذ كانت تُرمق بنظرات الازدراء ، وتعامل معاملة البهائم ضعة واحتقاراً ، على حين كان العراق الآخر غارقاً في بحور ترف ذلك العصر وبذخه:

مـا الناس الا عـــاملان فعـامل قد مات من ظمىء وآخر يغرق [2]

الاسلام والرق

وإذا ما تمحصنا نظرة الاسلام إلى الرق رأينا انه لم يكن يركز تركيزاً دقيقاً على هذا الموضوع ، غير ان الشريعة السمحـاء نادت بالمساواة ، واقامـة العدالة بين كافة المسلمين ، دون أن ينظر اليهم عبر قوائم الانساب العرقية او من زاوية لون البشرة « فالمؤمنون سواسية كأسنان المشط » ، كما أجاز أن يكون الائمة وأولو الأمر في المسلمين من عبيد الحبشة « ولو كان رأسه زبيبة » وعمل على ازالة العصبيات والتخفيف من الفوارق الطبقية، وصهرها جميعاً في بوتقة الاسلام، كما لم يجز استرقاق العبيد إلا في شروط ضيقة محدودة ، وجعـل رد الحرية إلى الرق أكبر زلفى إلى

---

١ - انظر تفصيل ذلك في الطبري ج ١٠ ص ٢٤٦ - ٢٤٨

٢ - صالح بن عبد القدوس

لله تعالى والكفارات عن المآثم « فك رقبة » وقد مرّ معنـــا كيف أن عمر بن الخطاب ولّى عمّـار بن ياسر ولاية الكوفة مع انـه رقيق حرره الاسلام ، وليس مَثَل عمار إلا واحداً من آلاف مثله .

غير ان الخلافة العباسية انحرفت عن سياسة المسلمين الاوائل في اتجاهم المدني ، فساعدت على حركة الاسترقاق وروجت لها ، فتشكلت بـــين ظهرانيهـا — وهي ساردة — طبقة ناقمة كانت تتضخم تبعاً للنشاط الملاحي حتى بلغت عشرات الالوف انتشر معظمهم — كما ذكرنا — من البصرة إلى واسط .

ولم تكن تلك الطبقة التي انهكت اجساد ابنائها الاعمال الشاقة التي ارغموا عليها خلواً من المشاعر الانسانية ، أو غير راغبة في الانطلاق والحرية ، وانهـــا حسب زعم الاسياد ، غلف القلوب متحجرة العقول ، وانما الأمر على العكس تماماً ، فالزنج قد أدركوا حقيقة واقعهم ، وما يعانون من اضطهاد وحرمان ، وبُعدٍ عن مساقط رؤوسهم التي كانوا فيها طليقين ليربطوا إلى تلك الاراضي السبخـة في ذلك العمل المضني ، بل كانوا مرهفي الشعور ، بعيدي غور النفس ، وعـدد المتكلمين منهم بالعربيـة غير قليل ، هذا إلى اتصافهم بالقوة البدنية التي تذلل دونها الصعاب ، وقد قال الجاحظ عنهم في إحدى رسائله :

« وكان الزنج يفخرون بطلاقـة اللسان ، وكثرة الكلام ، وشدة الابدان ، والسخاء ، وقلة الأذى ، وطيب النفس ، وضحك السن ، وحسن الظن[1] »

ولذا كانت نفوسهم العالية التي اجبرت على المهانة والاسترقاق حقلاً خصبـــاً للعاصفة ، ولتقبلهم روح الثورة التي ظهرت بوادرها هناك ، فاجتمعت كلمتهم مع اطلاق أول شرارة ، حين أتيح لهم أن يظفروا بقائد ينظم صفوفهم ، فانقلبت تلك الاسنان الضاحكة مكشرة عن نواجذ حادة ، وما لبثت ان انقلبت إلى شوكة في جنب الامبراطورية ، عانت منها ما عانت من أهوال وحروب دارت رحاها على مسرح الخليج العربي .

---

١ ـ ظهر الاسلام ج ١ ص ٧٥

ونتوقف هنا قليلاً لنتحدث عن قائد تلك الثورة ومنظم صفوفها ، الذي حمل عبئها ، وكان تلك الشرارة التي امتدت إلى متفجر احقادهم الدفينة ، علي بن محمد ، الذي لولاه لكان من الجائز ألا تسطر كتب التاريخ ثورتهم هذه .

قائد الزنج

تضاربت الآراء في نسب ملهم الزنج علي بن محمد، فأرجع بعض المؤرخين أصله لعبد القيس ، وقال آخرون انه فارسي الأصل ، وقد تمثلت في شخصيته ثورة شباب المتنبي ومأساة سبارتاكوس ، أول قائد عرفه التاريخ حاول أن يرد لذاتية الانسان كرامتها ، ويرفعها من هاوية الرق ، وحلبة المصارعة حتى الموت في ملاعب الرومان ، إلى المستوى اللائق بالحياة الكريمة ، وكانت نهايته شبيهة بنهاية هذا القائد الذي تمثلت به ثورة الزنج .

لقد ظهر الطموح جلياً في شخصية علي بن محمد مذ كان يافعاً يدرج أول خطاه في اعتاب الشباب ، وتجلت نوازعه تلك ببعض المقطوعات الشعرية التي خلفها، والتي تتسم منها أنه سعى إلى المجد ولكن الابواب كانت موصدة في وجهه ، وقد استطاع في مستهل شبابه أن يتصل ببطانة الخلفاء ، ويطلع على أحوال الحكم ، وتدهور الاوضاع السياسية ، وما تعاني الدولة من طغيان العنصر التركي ونفوذه غير المحدود ، فاستغل تردي الاوضاع وانغمس في غمار الاحداث تحقيقاً لصبوته ، فاختلق لنفسه نسباً يربطه بوشائج القربى بالبيت العلوي ، وترك حاضرة الخلافة سامراء ، قاصداً البحرين ، وهناك ادعى الالهام ، فزعم ان الوحي قد أنزل عليه ، وذلك لما تمثله من العقائد الفارسية التي قالت بتجسد الذات الالهية في الائمة ، وكان إلى جانب ذلك متشبعاً بمبدأ الخوارج الثوري ، فبدأ يبث الدعوة في البحرين ، فتجمع حوله اتباع كثيرون بلغوا منطقة الاحساء ، وحاول أن ينتزع لنفسه الإمارة على البحرين ويبسط نفوذه على البادية ، فاخفق واضطهد ، فقصد البصرة ، وشرع يبذر نواة الثورة في نفوس الزنج ، وكانت الدولة في شغل عن تلك الفئة المحتقرة ، لما تعاني على الصعيد السياسي من مشاكل عدة اجتمعت عليها دفعة

واحدة ، من ثورات متفرقة إلى النقمة السائدة على العنصر التركي المتنفذ .

وبدأ علي بن محمد صفحة جديدة من حياته حين حمل على عـاتقه مسألة الزنج ، وشرع يعمل على ايقاظهم وانتشالهم من حمأة الاضطهاد ، وحثهم على الجهاد انتزاعاً لحريتهم ، فسرت كلماته في نفوسهم سريان النار في الهشيم ، وما هو إلا زمن يسير حتى تجمع حول رايته عدد غفير منهم فروا من أسيادهم ليبدأوا معه حياة جديدة يتخلصون فيها من اغلال العبودية ، ويعيشون في ظل الحرية .

وقد مرت هذه الثورة من بدء انبثاقها حتى أوج احتدامها بدورين أساسيين هما [1] :

١ — حركة الاعتاق من الملاكين العراقيين .

٢ — الحروب التي قامت بين الزنوج والدولة العباسية .

حركة الاعتاق

لقد كان الزنج يعانون الوان الظلم والارهاق والحرمان وسوء التغذية التي كان قوامها كما يقول الطبري السويق والتمر والدقيق ، ناهيك عن تفشي الامراض فيهم ، فلم يترددوا في الاستماع إلى دعوة علي بن محمد ، ولا ندري إن كانوا قد آمنوا حقاً بأن في ذاته قبساً من الالوهية ، وانما الذي لا شك فيه انهم كانوا موجهين بالطبع للجانب الاجتماعي والاقتصادي من دعوته الذي يمثل لهم الانعتاق والحرية ، وبذا يتخلصون هم من ذل العبودية التي يعانون ، ويصل هو إلى غاياته من طلب السلطة والقفز إلى سدة الحكم .

وألقى الرجل نظرة فاحصة إلى أولئك السائرين بركابه ، فتوسم في واحد منهم واسمه ريحان بن صالح ، الذكاء والنشاط والقدرة على العمل ، فوعده بأن يكون كبير قواده ، وانتدبه لمهمة اجتذاب من يتوسم فيهم القوة والاستجابة للدعوة من العبيد ، ونجحت الفكرة ، واجتمع حوله خلق كثير [2] ، فأوكل بكل من التحق

---

١ - انظر ظهر الاسلام ج ١ ص ٧٠

٢ — انظر التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٤ ص ٣٢ - ٣٣

به مهمة جمع كلمة اخوانهم ، وتغذية احلامهم بالاماني الواسعة ، فسرت فكرته في نفوسهم ، وتقبلوا دعوته قبولاً حسناً ، وطفق الزنوج يتقاطرون عليه زرافات زرافـــات ، آبقين من مواليهم ، حتى قويت شوكته واشتد ساعده ، والتحق به كثيرون من موالي البحرين والاحساء والعراق [1] ، كما تبعه عدد غفير من غلمان البصرة .

وعبثاً حاول اقطاعيو العراق وأسياد العبيد ، استمالة محمد بن علي وإغراءه بالمال ، إذ كان يصب جام نقمته عليهم ، حتى أنه حين كانوا يتوافدون عليه ويبذلون الاموال اليه ليرد اليهم عبيدهم ، كان يصدر أمره إلى أرقـــاء الأمس بأن يجلدوا أسيادهم كل واحد خمسمائة جلدة ، ثم يصار إلى اطلاق سبيلهم ليكونوا عبرة لغيرهم [2].

وهكذا ، لم يمضِ وقت طويل حتى نهض الرجل مجاهراً بأنه « صاحب الزنج » ، إذ التف حوله قرابة خمسة عشر الفـــاً من هؤلاء الأشداء ، ورفع عقيرته بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي أو عرقي ، والتي بدت سائغة ولا شك لاتباعه الذين أكد لهم أن أيام العبودية قد ولت . وقد زاد في النفوذ إلى أعماقهم بما تحلى به من قوة الشخصية ، وما أوتي من سحر البيان ، وأقسم لهم مغلظ الايمان بأنه لن يخون قضيتهم أو يتآمر عليهم ، وكتب على أحد ألويته آية من سورة التوبة : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

وكان يؤول تلك الآية تـأويلاً سياسياً مفـاده ان ساعة القضـــاء على الرق والعبودية قد حانت [3] .

وهكذا بدأت تلك الجماعة الثائرة التي شحذت هممها وحددت أهدافها ، تستعد

---

١ – انظر الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٢٧
٢ – انظر ابن الاثير ج ٧ ص ٤٧
٣ – تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٢١٠

للسير تحت لواء قائدها علي بن محمد الذي يقول فيه الاستاذ احمــــد علي : « رجل ابيض يقود الزنج كقنديل في ليل بهيم ؟ » .

الدولة العباسية وموقفها من ثورة الزنج

بعد ان اتخذت حركة الزنج طابعها الاول في الاعتـــاق والتحرر ، شرعت بالاستعداد لخوض غمـــار مقبل الحروب مع الدولة ، وكانت دار تلك الحركات منطقة الخليج ولا تخرج عن نطاقه ، وكلها يتخذ طابع العنف والقسوة لما عرف عن الزنج من جلد وصبر على المكاره ، إلى جانب الطاقات الجسدية الهائلة ، ناهيك عن ان معنوياتهم قد أخذت بالارتفاع إذ شعروا بأن كرامتهم الانسانية قد ردت اليهم بالانضواء تحت لواء الثورة .

ولقد دفعتهم أحقادهم المتكدسة والمتوارثة إلى طرح كل القيم الاخلاقية جانباً، والاندفاع في التنكيل بكل من يقع في قبضتهم من اقطاعيي العراق ، وبذا ألفت الدولة نفسها فجأة أمـام خطر داخلي مداهم ، يهدد كيانهـا المشرف على التقوض ، بعد أن زلزلت أوضاعها السياسية عميق أسسها .

وقد أعار الطبري هذه الحركة أهمية خاصة ، ودرسها بصورة موسعة وشاملة لا يستثني من حركات الثائرين حتى تلك التي لا تستحق التـــأريخ ، وسنكتفي نحن بالقاء الضوء على تاريخ حروبهم ، بقدر ما تتصل بأحداث الخليج الناجم بعضها عن بعض ، باعتبارها حلقة من تلك السلسلة الطويلة .

حين شبت ثورة الزنـج ، كانت الامبراطورية بادية التفكك ، موشكة على الانهيار ، وكان ذلك في عهد خلافة المهدي الذي لم يستطع أن يسدي شيئاً للأمة ، لأنه لا حول له ولا طاقة ، بل هو مجرد دمية بيد لاه خبيث لم يلبث أن حطمها . وبمصرع المهدي رفع الترك إلى « وظيفـة » الخلافـــة المعتمد على الله سنة ٢٥٧هـ ٨٧٠ م ، في الوقت الذي استفحل فيه شأنه صاحب الزنج وامتد نفوذه على كثير من مناطق الخليج .

وأدار المعتمد على الله عينيه فرأى نفسه إلى جانب مشاكل الدولة المستعصية

أمام معضلة جديدة لا تستطيع الدولة أن تقف تجاهها موقف المتفرج ، لا سيا وان سكان البصرة حين رأوا استفحال شأن الزنج ، وتحركاتهم العسكرية في منطقة ما بين النهرين، شرعوا بمبادرة ذاتية منهم ، يجمعون قواهم وينظمون صفوف شبانهم الذين تطوعوا للوقوف في وجه تلك الحركة التي طفقت تهب هبوب العاصفة تحرق في طريقها الاخضر واليابس،وشن الثوار هجماتهم الاولى على القرى والمدن الصغيرة، يقضون فيها على كل مقاومة ، ويلقون الرعب حيث ينزلون ، ويزرعون الدمار أنّى يرون ، حتى اضطر عدد غفير من أهالي المدن إلى الهرب من المصير الاسود الذي يتربص بهم .

ثم دارت المعركة بين البصريين وعليّ ، وكانت حرباً ضروساً ما بين الفريقين ، تصارعت فيها القوى تصارع البقاء مع الجهاد في سبيل العقيدة ، وقد بذل الفريقان قصارى جهدهما لاحراز راية النصر ، في موقف كان شديد الحراجة تنازع الطرفان فيه راية الظفر غير مرة ، وكاد البصريون في إحدى الصدمات أن يوقعوا بقائد الزنج ويفتكوا به ، مما جعل هؤلاء يؤثرون الانسحاب الآني ، ولكن لينظموا صفوفهم ويرصوها من جديد ، وليشنوا على أهالي البصرة غارة شعواء دامية عنيفة ، أوقعت في صفوف المدافعين أعداداً لا حصر لها من القتلى ، كما القوا في قلوبهم الفزع والهلع ، والخوف من الاحتكاك بهم ثانية ، ولقد سميت تلك الموقعة بيوم الشذا [1] ، وكان من نتائجها ان أهالي البصرة لم يعودوا يتعرضون لعلي بن محمد ، وانما أرسلوا إلى السلطة المركزية في سامراء يستنجدون الخليفة أن يعينهم على هذا الخارج الرهيب على القانون [2] .

الزنج يحتلون عبدان والابلة والبصرة

ولقد اتسمت التحركات العسكرية الجديدة التي قام بها صاحب الزنج بطابع

---

١ - ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ص ٩٦
٢ - المرجع السابق ص ٩٧

الغارات المركزة يشنها على المدن ليس إلا ، وبلغت تلك التحركات البصرة والابلة والأهواز، وهو لا يهدف إلا إلى القاء الرعب في القلوب، وإضعاف المقـاومة في جنوبي العراق ، ولم يكن في مخططه الاستيلاء على أي من تلك المدن .

ولما آنس صاحب الزنج في جيشه الطاقات الكافية من قوة وحسن تنظيم ، عمد الى توسيع مخططه ، وصمم اول ما صمم على اقتحـام مدينة الابلة الثغر الشهير على الخليج العربي ، الذي يربط نهر دجلة بمدينة البصرة ، والذي يعد نقطة الاتصال ما بين الخليج والبصرة وبغداد، وما هي الا فترة يسيرة حتى وقعت المدينة في قبضته، وذهبت طعاماً للنار، اذ كان اكثر مبانيها مشيدة بالساج، بعد أن اطلق في اهلها يد النهب والسلب والاذلال والقتل .

وكان لسقوط هذه المدينـة وقع مؤلم في نفوس العراقيين ، وباتوا يتوقعون مستطير الشر من التحركات المقبلة ، كما كان له ردة فعل عنيفة في قلب العـاصمة العباسية سامراء وحاضرتها بغداد .

عندئذ ، ورغم ان الخليفة المعتمد مشهور تاريخياً بضعف الارادة والانغماس في الملذات ، فقد كانت تلك الاخبار المتطايرة في كل مكان جديرة بـأن تصحيه من خماره ، ليبحث عن مخرج من هذا المأزق الذي تردت فيه الدولة ، لا سيما وان دار حركات الزنج لم تعد بعيـدة عن مقر التـاج والصولجان ، واخذ ينشد الشخصية المنقذة ، فلم يهتد الى رجل كفء يدير رحا المعـارك المقبلة ، ويوقف من زحف الزنج ، ويعمد بعدها الى استلال انفاس الثورة ، الا اخيه الموفق الذي كان منفياً الى مكة بأمر منـه ، فاستقدمه منها واوكل اليه القيادة العسكرية ، كما قسم الدولة بين ابنه المفوض واخيه الموفق ، فكان شرق البلاد من حصة الموفق وغربهـا من سهم المفوض [1] .

وكان المعتمد قـد انفذ خلال فترة استقدام الموفق احد القـادة الاتراك واسمه جعلان لقتـال الزنج ، غير أن الدائرة دارت عليه وعلى جنده ، فقتل ومزق الزنج

---

١ - تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ١٢

جيشه وتعقبوا فلوله الهاربة .

وقد دفعت هذه الحادثة - الكارثة ، التي منيت بها الدولة ، الى جانب سقوط ثغر الابلة الميناء العباسي الثاني، الى استعجال استقدام الموفق، لما كان يتمتع به من عزم وقوة وبعد همة .

وبينما كانت السلطة المركزية منهمكة بحشد القوى ، وتعزيز مقدراتها الدفاعية والهجومية ، واعداد الجيش المقبل تحت قيادة الموفق ، كان صاحب الزنج قد مد برواق نفوذه ، وزاد في اتساع نطاق فتوحاته ، اذ سقطت بيده مدينة عبدان دون مقاومة تذكر ، لما بلغها من قسوة الرجل وعنف الزنج ، وموقفهم الضاري من كل من يحاول اعتراض طريقهم ، او التصدي لهم ، وما كاد مقر الخلافة يتلقى نبأ سقوط الاهواز في ايدي الزنج حتى وافته انباء مثيرة اخرى تعلن استيلاء صاحب الزنج على الف وتسعمائة سفينة كان بعضها يحمل الحجاج الى مكة [1] .

ولما دانت الامور للموفق ، سير جيشاً لقتال الزنج ، لكنه لم يستطع ان يشتبك معهم في معركة حاسمة على الرغم من بعض الانتصارات الاولية التي احرزها [2] . وفي الوقت نفسه لم يزج الزنج بكل قواهم لايقاف زحف الجيش العباسي ، اذ كانوا قد ضربوا الحصار على مدينة البصرة بقسم من تلك القوى ، واقتحموها من جهات ثلاث ، وأعملوا في اهلها القتل والذبح ، ونهبوا تلك المدينة الطائلة الثروات ، واستباحوها ثلاثة ايام ثم انسحبوا منها مخلفين وراءهم الدمار والموت. ولقد ذهبت الروايات التي لا تخلو من المبالغة الى حد القول بأن عدد من قتل من سكانها بلغ ثلاثمائة الف نسمة ، وقد هزت تلك النكبة الشاعر ابن الرومي فرثاها بقصيدة من عيون قصائد بكاء المدن والممالك :

دخلوها كأنهم قِطَعُ الليلِ	اذا راح مُدلهم الظلام
صبحوها ، فكان القوم منهم	طول يوم كأنه الف عام

١ - المرجع السابق ج ٣ ص ٢١١

٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٧

كم أب رأى عزيز بنيه وهو يُعلى بصارم صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف ، قبل حين الفطام

وبعد سقوط مدينة البصرة في يد الزنج وقعت عدة معارك بينهم وبين جيش الدولة العباسية بقيادة الموفق ، غير أن القائد العباسي الصارم لم يستطع أن يحرز عليهم اي انتصار ذي شأن، وجرى في شرق المملكة من الاحداث ما غيّر الوضع، واضطر معه الموفق الى وقف القتال ضد الزنج ليجابه ذلك الخطر الداهم الذي نشب ما بين الدولة الصفارية التي استولت على ايران وبين الحكومة المركزية في بغداد[1].

ونتيجة لهذا التحول في الموقف فُسح المجال واسعاً امام تحركات الزنج فدخلوا البطيحة، واستولوا سنة ٢٥٨هـ ٨٧١ م على واسط، وبعد سنة استولوا على النعمانية، ومنوا النفس بتثبيت اقدامهم في خوزستان .

قمع الثورة الزنجية

وخلال هذه الاحداث كانت تمصّر المدن التي يبنيها الزنج ، وكان مقرهم مدينة المختارة والمنيعة وغيرهما من المدن ، كما انضم اليهم في غضون السنوات العشر من قيام ثورتهم قبائل البدو الضاربة في جوارهم[2] ، وتمكنوا من مد سلطانهم على جنوبي العراق بأكمله ، واضحوا على بعد قوسين من بغداد .

وحين تم للموفق ما اراد من دفع الخطر الخارجي ، تفرغ للزنج من جديد ، وتسلم زمام الدولة بأسرها ، واطلق يده في ميزانيتها ، وانفقها على الجند ، وانشأ الى جانب التجهيزات العسكرية البرية السفن الحربية النهرية الصغيرة منها والكبيرة، وكان الحاكم المطلق في الدولة حتى لم يبق لأخيه المعتمد سوى الاسم فقط[3] ، والا رفع الشكوى مما آل اليه وضعه[4] .

---

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٥٧

٢ - الطبري جـ ٨ ص ٩٤

٣ – الفخري ص ٢٦٦

٤ – ومن ذلك قوله :

أليس من العجائب ان مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
اليه تحمل الاموال طراً ويمنع بعض ما يجبى اليه

وبدأت المعارك تدور من جديد بين الدولة والثورة ، وكانت مسارحها في البر وعلى قوارب الماء بين الاساطيل النهرية ، لاسيا وأن شمالي الخليج كان يتمتع بمستوى تنظيمي رفيع للري، حتى ان الطبري أورد المئات من أسماء الأنهار الصغيرة التي دارت عليها معارك الزنج .

وكان القائد الفعلي لتلك الحملات المعتضد بن الموفق ، فنهض بعبء المعارك الأولية ، وتمكن من إحراز العديد من الانتصارات ، كما استعمل مع الثوار جميع أساليب الترغيب والترهيب لإلقاء السلاح والتخلي عن الثورة .

وعانت الجيوش العباسية الأمرين من هذه الحروب الإفنائية لتفاني الزنج في الحرب ، مسجلين صفحات نادرة من البطولة والشجاعة ، يضاف إلى ذلك ان البيئة التي كانوا يحاربون فيها تكثر بها الخنادق والأنهار – موطن استرقاقهم السابق – مما يزيد في مناعة الأرض وصعوبة اقتحامها .

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ أحمد علبي معتمداً على عدة مصادر :

« ومما ساعد الثورة على الصمود أيضاً ان الزنج كانوا يحاربون على « ميدان » هم أدرى الناس به ، إذ عليه كانت تذوي عصارة حياتهم . فالأرض التي دارت عليها رحى معارك الزنج ملأى بالآجام والبطائح والأدغال وغابات النخيل ، والأنهار والجداول المتفرعة بالآلاف ، والقنوات والسدود . كما كان هناك المستنقع الكبير الذي يدعى بالبطيحة ، حيث يغلب الماء وتعيث الملاريا . وكان الزنج يعرفون مسالك هذه المنطقة ومتعرجاتها ، فنصبوا فيها الكمائن لأعدائهم ، وقادوها حرب عصابات دوّخت الدولة العباسية واستنزفت قواها . وعانى الموفق ، قامع الثورة ، كثيراً من ضيق المواضع التي كان يحارب فيها وصعوبتها وكثرة الخنادق والأنهار بها [1] » .

وبعد طول قتال ما بين الفريقين ، وكر وفر ، وصمود وتراجع ، وزحف وانسحاب ، انقلبت كفة القوى ضد الزنج ، وشرعوا يتخذون موقف المدافع عن

---

١ – ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ص ٩٣ - ٩٤

مكتسباتهم بعد ان كانوا إلى أمد قريب آخذين زمام المبادرة بأيديهم ، وضرب الموفق الحصار على مدينتهم « المنيعة » وكذلك على عاصمتهم « المختارة » التي أنشأ قبالتها مدينة دعاها « الموفقية » نسبة لاسمه ، وشرع يحصرهم ويضيق عليهم ، كما فعل من قبل قائد المعتصم « عجيف بن عنبسة » مع الزط الذين قامت ثورتهم على تلك الرقعة من الأرض بالذات ، وسقطت مدينة « المنيعة » في يد الجيش العباسي الذي لم يلبث ان أخذ يشن الغارات على « المختارة » تمهيداً للهجوم الحاسم عليها .

وبدأت ثورة الزنج تتردى في مهاوي الفشل بعد سقوط عاصمتهم « المختارة » أخيراً سنة ٢٧٠ هـ ٨٨٣ م ، وقد صمدوا وراء أسوارها أروع صمود ، ودافعوا عنها ببطولة قلّ نظيرها في تاريخ الحروب والثورات. قال الطبري مسجلاً ذلك الدفاع: « لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدهم السهم أو الطعنة أو الضربة فيسقط ، فيجذبه الذي إلى جنبه ويقف موقفه اشفاقاً من أن يخلو موقف رجل منهم فيدخل الخلل على سائر أصحابه [1] » .

ورغم ذلك فقد ظل من تبقى على قيد الحياة من الزنج مستمرين على القتال يجالدون ويناذلون إلى ان خروا جميعاً صرعى ، واحتز رأس علي بن محمد بعد حروب ضارية قادها ضد الدولة طوال أربعة عشر عاماً وأربعة أشهر ، عاث فيها فساداً وترك خلفه الدمار ، نهض يصارع الظلم فظلَم ، ويقارع البغي فبغى ، وهكذا تجسدت من جديد فاجعة سبارتاكوس ، وظلت المأساة هي نفسها ، إذ لم يمت قائد الثورة ويخمد لهيبها ، حتى عاد القيد الحديدي من جديد إلى أرجل تلك الجماعة التي عانت منها الدولة الحروب العنيفة المدمرة .

---

١ - الطبري جـ ٨ ص ١٠٦

دولة القرامطة في البحرين

حمدان القرمطي

لقد كانت الحركات الدينية والثورات الاجتماعيــة حــافزاً لكثير من الاحداث التي تتابعت على مسرح الخليج، وكانت بطبيعة اوضاعها تصطبـغ بالصبغة السياسية، وتتسم بالطابـع العسكري ، تحقيقاً لهدفها الذي ثارت ممتشقة الحسام من دونه .

وتميزت تلك الحركات ، ككل ، بالقسوة والعنف ، لما عرف عن أبناء الخليـج قديماً وحديثاً من قوة الشكيمة ، وشدة الصراحة .

وفيما كانت الدولة تعاني ما تعانيه من أمر الزنج ، برزت على سطح الاحداث الحركة القرمطية بثورة قائمـة على قواعد من العقيدة والمذهب ، كحلقة من سلسلة الثورات الشعبية التي شبت قبلها ، غير ان هذه كانت تختلف عن سالفاتها في الغاية والجوهر . فبينما كانت الثورات العلوية تتسم بعدم تبلورهـــا الفكري والتنظيم العسكري ، ويعوزها تفاني رجالها أيام المحن ، وكانت كل منها اشبه ما تكون بكبش الفداء للاخرى ، كانت الحركة القرمطية ، وهي احدى فرق الاسماعيلية ، وتنسب لصاحب الدعوة حمدان قرمط بن الأشعث ، تعمل بـأناة وتنظيم وبموجب منهج ومخطط سابقين ، مستعينةً على أمورها بالخفاء والتستر، واضعةً نصب عينها، باثارة اتباعها واستغلال الاستياء العام من السلطة ، أن تسدد الضربة القاضية لها ، وتقيم على أنقاضها دولة اشتراكية تحقق المساواة بين أفرادها ، متشربةً روح الثورة

الخرمية التي ظهرت سابقاً في فارس ، ومتشبعة بالعقائد الايرانية « القائلة بالنعمة اللدنية ، وبالنظريات الفنوستية التي تعود بأصلها إلى النساك ، وعناصر من الفلسفة اليونانية وأخرى من المانوية – ديانة الطبقة الممتازة – لتظهر في عقيدة باطنية تتلاءم مع الميل المعروف في الشرق إلى تأسيس الجمعيات السرية [1] . »

وكان مستهل هذه الحركة في مدينة الكوفة حيث أنشأ حمدان القرمطي مركزاً جديداً للدعوة الاسماعيلية سماه « دار الهجرة » فتوافدت اليه جموع القرويين وأبناء المدينة ، بدافع من روح العلم لسماع مواعظه ، وتطورت من ثم هذه النواة حتى غدت ذات خلايا منظمة تتسع وتنمو حتى انتشرت في أكثر مناطق الخليج [2].

وشرع حمدان ينظم الحركة القرمطية فارضاً الضرائب على أتباعه الأثرياء منهم ومتوسطي الحال ، لينفقها على الفقراء ومؤسسات الحركة [3] ، وقد روى المؤرخون بأن حمدان فرض عدة ضرائب على أتباعه،ثم خطا خطوة حاسمة فوضع يده على كافة أموال جماعته دون استثناء ، وجعلها مشاعاً في سواد القرامطة حتى لم يبق منهم فقير واحد ، وقادة حزبه متحمسون لهذه المقررات الاشتراكية التي ظهرت أول بوادرها عملياً في منطقة الخليج .

وكان أول عهد هذه الحركة في ظل حكم المعتمد (٢٧٩–٢٩٠هـ٨٩٢–٩٠٢م) ولم تلبث ان شرعت تزعزع أركان الدولة ، إذ انتقلت من العراق ، وتفشت في أنحاء سورية باستثناء دمشق ، واستشرت في البحرين والاحساء ، ونفذت إلى قلب الجزيرة العربية ، وامتدت إلى ربوع فارس ، وكانت تعشعش في البلاط العباسي بالذات في بغداد .

استيلاء القرامطة على البحرين وعمان

يعود نجاح هذه الحركة واتساع رقعة المنطقة التي انتشرت فيها الدعوة ، إلى

---

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٧٣
٢ – انظر تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٦٠ - ١٦٥
٣ – انظر ظهر الاسلام ج ٤ ص ١٣٢

توجيه حمدان الذي بعث بدعاته ليبشروا بالعقيدة في الامبراطورية الاسلامية ، تمهيداً لقلبها إلى دولة اشتراكية منظمة ، وذلك بتقريبها أولاً إلى مفاهيم الشعوب كيلا تكون الردة في صفوفها ، وذلك لتعلق الأفكار القديمة بالأوضاع الراهنة غير القابلة لأي تطوير أو تحوير ، فأنشأ لذلك أحد الفروع الذي كان بمثابة القاعدة لتاريخ الحركة القرمطية وأحداثها العسكرية لما لعبه من خطير الأدوار وترك من عظيم الآثار ، وهو الفرع الذي أقامه على الخليج العربي مـــن منطقة البحرين ، وأسند قيادته لأحد أركان قادة الحركة أبي سعيد الحسن الجنابي، هذا مع العلم بأن فروع الحركة لم تكن مستقلة بعضها عن بعض ، وإنما كانت تشكل رابطة واحدة متكاتفة لتحقيق الهدف الذي اختطته العقيدة فكرياً .

وما ان وصل الداعية أبو سعيد الجنابي إلى البحرين حتى شمر عن ساعد الجد ، وبدأ بث الدعوة في تلك الربوع وتنظيمها تحقيقاً للبرنامج الاشتراكي، فالتفت حوله جموع المنطقة من مختلف طبقاتها ، المتمثلة بعرب البحرين الناقمين على الحكم العباسي وأنظمته السياسية والاجتماعية (١) وامتد نفوذ القرامطة في البحـــرين إلى سائر مناطقها باستثناء عاصمتها هجر ، وذلك بصورة موقتة .

ولما تقبل حسن بن سنبر ، وهو أحد الوجوه البارزين في البحرين ، العقيدة القرمطية، وأعلن استعداده للذود عنها بقوة السلاح ، ازدادت قوة الحركة وعظمت شوكتها وأخذت تهدد عاصمة المنطقة : هجر .

وحينئذ أدرك الخليفة ان عليه المبادرة بتوجيه الضربة القاضية للحركة ، وأنفذ إلى عامله على البصرة عباس الغنوي يأمره بالتحرك لقتال القرامطة والقضاء عليهم قضاء مبرماً ، فسار عباس على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ونهد إلى أبي سعيد ، وكان هذا قد سمع بخبر تلك الحركات فرأى ان يكون السابق في مباغتة العدو ، والتقى بالجيش العباسي قرب البصرة وأنزل به هزيمة منكرة وتمزقته ظبي السيوف وقيود الاسر ، وعـار الهزيمة ، وكان في رأس الأسرى الذين عرضهم

---

١ ـ تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٦٧

أبو سعيد جميعاً على السيف عباس الغنوي الذي حمله رسالة إلى الخليفة مشحونة بعبارات التهديد والوعيد، والسخرية من جيش الامبراطورية، وأطلعه على أي رجال سيجابه إذا ما أراد نزالهم مرة ثانية .

وقد كان لتلك الرسالة في الواقع أثرها الفعال في نفس الخليفة ، فترك القرامطة وشأنهم ، إذ كانت المشاكل تعم الجيش بسائر فئاته ، ومرافق الدولة بكافة أجهزتها ، بما فتح المجال واسعاً أمام أبي سعيد ، فتمكن من الاستيلاء على هجر عاصمة البحرين ، وأعلنها دولة جمهورية .

ولما استتب أمر البحرين لأبي سعيد ، فكر في توسيع نطاق دولته ، فطفق يشن الغارات والحملات العسكرية على جنوبي العراق وقوافل الحجاج ، وحين شعر بقوة رجاله فكر – وهو الداعية المؤمن بالقوة والمتحمس للعقيدة – بمهاجمة عُمان، فسار اليها بنفسه وافتتحها عنوة ، وألحقها بقاعدة نفوذه . ولم تكن الدولة العباسية آنذاك بغافلة عن الحسن الجنابي ، وإنما كانت مشغولة بخوض غمار حرب لا هوادة فيها مع قرامطة الشمال بزعامة زكرويه بن مهرويه وأبنائه [1] في سواد العراق وبلاد الشام .

شرعة قتل ونهب وحرق

ولم تقتصر تحركات قرامطة البحرين على منطقتهم فحسب ، وإنما عاودوا الغارة المرة إثر المرة على الأراضي العراقية والتوغل فيها ، وكثيراً ما قاربوا العاصمة نفسها ، ولكنهم لم يشتبكوا بحرب فعلية مع القوات العباسية ، بل اكتفوا بشن الغارات الخاطفة ارهاباً وتمهيداً لبسط نفوذهم على المنطقة ، غير ان المعتمد أدرك نوايا هذه الجماعة العدوانية ، وتحسس داهم خطرها ، لا سيما وقد وطن الجماعة العزم على الاستيلاء على البصرة والأهواز ، فقر قراره على ضربهم وايقاف تحركاتهم ، وأنفذ سنة ٢٩٠ هـ ٩٠٢ م جيشاً قوامه ألفا رجل بقيادة العباس بن عمرو وقد ولاه

---

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٣ ص ١٩٧

البحرين .

زحف عباس لقتال القرامطة وكانوا قد علموا بمسيرته اليهم ، وكسالف عادتهم خفوا هم للقائه ، فاشتبكوا وإياه في جنوبي البصرة ، وأوقعوا برجاله قتلاً وأسراً ، ومن نجا فقد هام في فيافي الصحراء ليلقى مصيره ظمأ ، وكان في جملة الأسرى القائد العباسي بالذات [1] .

وكان لنتائج تلك الحملة وقع شديد في نفوس البصريين الذين هزتهم النكبات أيام حرب الزنج ، وخاصة عندما استطاع بعض الهاربين من المعركة الوصول إلى البصرة وهم في حالة يرثى لها ، فشرع السكان يهجرون مدينتهم الخالدة خوفاً من المصير المشؤوم .

وقد تبدّى حينذاك ان هـــذه الحركة التي قامت في الأصل على المبـــادىء الاشتراكية ، سرعان ما أخذت تتكشف عن أفكار هدامة تتنافى والمبادىء التي أعلن أصحابها عنها ، إذ أوغل الجماعة في النهب والحرق والقتل ولا سيما بعد وفـاة الحسن أبي سعيد الجنابي سنة ٣٠٢ هـ ٩١٤ م وتولي ابنه سليمان المدعو بأبي طـاهر أزمّة الأمور والأحكام وقيادة الجيش القرمطي ، فقد كان تاريخ حياة سليمان سجلاً حافلاً من الغارات التي ما انفك يشنها بنفسه على ثغور الدولة وعلى قوافـل الحجاج والقرى الآمنة ، زارعاً حيثما حل الدمار والخراب .

وكانت أولى حركاته العسكرية زحفه على مدينة البصرة ، وقد استولى عليهـا سنة ٣١٥ هـ ٩٢٧ م ، وذلك لما اتصف به جيشه من إيمان عميق بالعقيدة ، وتمرس بالآفات ، وصبر وتفان في سبيل تحقيق أهـــداف الثورة البعيدة ، حتى نسبت انتصاراتهم إلى قوى روحية تحقق لهم الظفر في حروبهم [2] .

وعمل القرامطة على وقف قوافل الحجاج التي تقصد مكة المكرمة ، لأنهم كانوا يعدون الحج من شعائر الجاهلية ، بل من قبيل عبادة الأصنام ، ولم يكن سليمان

---

١ ـ القرامطة تأليف عارف تامر ص ١١٠

٢ ـ ظهر الاسلام ج ٤ ص ١٣٣

(أبو طاهر) ليتورع عن التصدي للقوافل ونهبها ، ومنع الحجاج من زيارة بيت الله الحرام [1] .

وحاول الخليفة العباسي ان يضع حداً للأعمال الوحشية التي يرتكبها القرامطة ، فأنفذ لقتالهم جيشاً بقيادة عبد الله بن حمدان ، غير ان الجند العباسيين ولوا الادبار من الجولة الأولى للمعركة، ووقع قائدهم عبد الله أسير القرامطة ، وثنى أبو طاهر وجنوده على هذا الانتصار بانتصار ثان على جيش آخر بقيادة يوسف بن ساج عامل اذربيجان ،وفتكوا بجحافله، وتعقبوا فلولها حتى شارفوا بغداد ، ودخلوا الكوفة، ثم انكفأوا إلى مواطنهم وقد أثقلوا بما أصابوا من مكاسب ومغانم نهبوها من كل مكان.

غارة القرامطة على مكة

وأغار القرامطة بعدها على مكة المكرمة للمرة الثانية سنة ٣١٨ هـ ٩٣٠ م ، وقد ارتكبوا في هذه الغارة ألواناً عجيبة من الحماقة وضروب الفحش بحق أبناء المدينة المقدسة والحجاج نساء ورجالاً ، وأعملوا سيف الفتك والارهاب بمن تعلق منهم بالكعبة معتصمين مستغيثين ، مما ألّب عليهم المسلمين عامة ، لأنه تبين لهم ان هذه الجماعة ما نهضت بامرها الا لمناهضة الشعائر الدينية ، وقطع الطريق عليها ، وحسبنا علماً ان القرامطة قد ردموا بئر زمزم ، وفرشوا المسجد الحرام بجثث القتلى ، واندفعوا بخيولهم في ابهائه يصولون ويجولون ، وقائدهم ابو سليمان ينادي بجنده حاثاً اياهم : « اجهزوا على الكفار وعبدة الاحجار » ، واضافوا الى كل هذه الاعمال البربرية انهم احتملوا معهم الحجر الاسود الى الاحساء ، وقد ظل ملقى فيها حتى سنة ٣٣٩ هـ ٩٥٠ م حين امرهم برده الخليفة المنصور الفاطمي ، وكانوا يأتمرون آنذاك بأمره . وكانت مغانم هذه الغزوة الفاجرة اكثر من ان تحصى او تعد ، وهي تقدر بملايين الدنانير ، أنفذ قسمٌ منها الى الامام ، وانفق القسم الاكبر

---

١ – تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٧٣

على رجال الدعوة القرمطية [1] .

وقد حركت هذه الغارة المباغتة وانتهاك حرمـــة بيت الله ، وأخذ السبايا المحصنات من المؤمنـات ، قبيلة بني هذيل فنصبوا للقرامطة ، وهم في طريقهم الى منطلقهم ، كميناً أخذوهم فيه بغتــــة ، وتمكنوا من فك اسر السبايا ، غير انهم لم يستطيعوا الايقاع بهم .

وكان لتجرؤ القرامطة على انتهاك الحرمات التي يقدسها المسلمون عـامة ، ردود فعل عنيفـــة في سواد المؤمنين ، وكان من المنتظر من الدولة ان ترد عليهم بعمل انتقامي وتطهر المنطقة منهم ، غير انها لم تحرك ساكناً ضدهم ، لعجزهـا عن قتالهم من جهة ، ولتدهور أوضاع الدولة من جهة ثانية ، فانتشر القلق في انحــــاء البلاد ، وبات مجرد ذكر اسم القرامطة يوقع الذعر في نفوس المسلمين عامة ، ممــا شجع القرامطة على التمادي بغيهم ، مستغلين الظروف المؤاتيـة لهم بعـد تدهور معنويات السكان في شمالي الخليج .

الخليفة العباسي يدفع الجزية لامام القرامطة

والجدير بالذكر ، ان جماعة ابي طـاهر ، كانت متغلغلة في البلاط العباسي في بغداد ، تطلعه باستمرار على أوضاع الحكومة المركزية ومقدرتهــا العسكرية . وبناء على هذه المعلومات قرر الجنابي غزو العراق ، بعد أن وطد امره في جمهوريته المستقلة التي ضم اليها من جديد مقاطعة اليمامة بعد عودته من مكة .

وحين علمت الدولة بمخططات القرامطة الجديدة ، اتخذت معهم سياسة الترغيب والترهيب أملاً بتحويلهم عن هدفهم ، وقامت المفاوضات ما بين الجهتين غير انهــا ذهبت ادراج الرياح ، وسار سليمان الجنابي قــاصداً الاهواز ، ومن جديد حاول الوزير ابن الفرات ان يثنيه عن عزمه ، فاشترط عليه شروطاً قاسية مقابل تخليه عن غزواته ، ومنها ان يتخلى له الخليفة الراضي (٣٢٣ — ٣٢٩هـ ٩٣٤ — ٩٤٠م)

---

١ ـ انظر المرجع السابق ص ١٧١ ـ ١٨٢

عن البصرة والاهواز ليضمهما الى دائرة حكمه !

وجاء رد الخليفة بالرفض لتلك الشروط القاصمة لظهر الدولة ان قبلت بهـــا ، واجاب القرمطي على هذا الرفض باستهداف الكوفة مباشرة ، فاحتلها سنة ٣٢٦ هـ ٩٣٧ م دون مقاومة تذكر ، وقتل جموعاً غفيرة من سكانهـــا الآمنين ، ودنس مسجدها الاكبر فحوله الى اسطبل لخيوله ، ممـــا اضطر الخليفة الضعيف الى عقد معاهدة معه ، تقيم هدنة بين الطرفين على ان يؤدي الخليفـة للقرمطي جزية سنوية مقدارها مائة وعشرون الف دينار[1] كما فرض الى جانبها ضريبة اخرى على الحجاج.

وهكذا ونتيجة لاستخذاء الخليفة العباسي ، شرع أبو طاهر ينطلق من مواطن القوة، واخذ يعد العدة لغزو بغداد ، ويمهد الجو لمهاجمتها ، وبالفعل فقد هاجمها سنة ٣٢٩ هـ ٩٤٠ م ، غير انه اخفق في احتلالهـا ، فـارتد الى البحرين حيث توفي بعد سنة من هذا التاريخ .

وفي تلك الفترة كانت الامبراطورية الاسلامية قد تمزقت ، وانفرط عقد نظامها الى دويلات صغيرة مستقلة تحكم نفسها بنفسها حكماً ذاتياً ، ولا أدلّ على الحالة التي آلت اليها الخلافة من وصف ابن الاثير لها بقوله :

« ولم يبق للخليفة (الراضي) غير بغداد واعمالهـــا ، والحكم في جميعها لابن الرائق، وليس للخليفة حكم ، وأما باقي الاطراف فكانت البصرة في يد ابن الرائق، وخوزستان في يد البريدي ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمـان في يد ابي علي بن محمد بن إليـاس ، والري واصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعـة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يـد محمد ابن طغج ، والمغرب وإفريقية في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي ، وخراسان ومـا وراء النهر في يد نصر بن احمد الساماني ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي[2] » .

---

١ - ظهر الاسلام ج ٤ ص ١٣٤
٢ - ابن الأثير ج ٨ ص ١١٢ — ١١٣

على اثر وفاة أبي طاهر ، لم يعد للحركة القرمطية دور كبير في منطقة البحرين وما جاورها على الصعيدين العسكري والدعائي معاً ، اذ شب التنازع والشقاق في الإسرة الجنابية فانشطرت شطرين نتيجة اختلاف أخوي ابي طاهر احمد وسعيد ، وكان الفريق الذي تعصب لاحمد والمدعو « بالعقدانية » خاضعاً للدولة الفاطمية في المغرب خضوعاً مباشراً يعمل حسب توجيهاتها وبمقتضى تعاليمها ، بينما كان الفريق الذي تزعمه سعيد بن الحسن الجنابي يهدف الى الاستقلال التام عن الفاطميين ممهدين لقيام جمهورية مستقلة على اساس من الشورى والحرية والمساواة (١) .

وكان هذا الانقلاب الذي ظهر في صفوف القرامطة وغذته الدولة العباسية وزادت في توسيع شقة الخلاف ما بين طرفي النزاع ، سبباً في ضعف حركتهم الثورية فأوشكت على الخمود والانطفاء .

الا ان الدولة القرمطية في البحرين التي اسستها اسرة الجنابي ، ظلت محافظة على كينونتها ووفقت الى ترسيخ أقدامها في المنطقة على الرغم من ان خلفاء أبي طاهر قد اكتفوا بما وصل اليه اسلافهم من فتوحات وطفقوا ينظمون امورهم سلمياً ، ولا سيا عندما سقطت الدولة العباسية في أيدي البويهيين الذين تربطهم بهم وشائج العقيدة الشيعية ، وقد قامت العلاقات الحسنة بين الفريقين .

الحركة القرمطية في شرقي الخليج

وجدت العقيدة القرمطية في فارس والمناطق المجاورة لها ارضاً خصبة لبذورها ، وسرعان ما تفشت في ربوعها ، لانها لم تكن بغريبة عن القوم ، وانما كانت تحمل في طياتها شيئاً من بذور حركاتها الثورية ، كالخرمية والمانوية ، فرأى دعاة الحركة ان يمكنوا لانفسهم في الاقاليم الشرقية فانتشرت فيها بصورة عامة لكن دون ان

---

١ ـ القرامطة ص ١١٤

تتركز في أقاليم خاصة [1] كما تركزت غربي الخليج في اقليم البحرين وامتدت منه الى اليمن حيث شكلت دولة قوية فيهـا لم نأت على ذكرهـا كي لا نخرج عن نطاق بحثنا .

بيد ان الحركة القرمطية في شرقي الخليج ظلت مرتدية الطـابع الفكري البحت دون ان تسلك مسلكاً عسكرياً ، فصبغت الاقاليم بالعقيدة القرمطية التي استطاعت ان تكسب عدداً كبيراً من الانصار والاتبـاع ، وفيهم اصحاب الجـاه والنفـوذ كوالي طبرستان مرداويخ الديلمي ، ووالي اذربيجان يوسف بن ابي الساج ، وغيرهما ممن ساهموا بنشر الدعوة ، فتمكنت بفضل تكاتف جهودهم ان تبلغ السند والباكستان ، كما استطاعت بفضل تنظيماتها السرية المنهاجية نقل بذورها الفكرية الى الهند ، فكان فيها ، وما زال حتى يومنا هذا ، عدد غير قليل من اتباع الحركة القرمطية الاسماعيلية .

---

١ - المرجع السابق ص ١٢٨ - ١٤٩

الدولة الصفارية

الدولة الطاهرية

مع أحداث ثورة الزنج التي انغمرت الدولة العباسية في لجبها ، شب في الشرق خطر لا يقل أهمية عن هذه الثورة ، وهو الثورة الصفارية التي اضطرم لهيبها في ايران، اهتبالاً لفرصة تردي الأوضاع السياسية في قلب الدولة ، وانشغال الحكومة المركزية في الحروب ، وكان هدف تلك الثورة الرغبة في الاستقلال والانفراد بالحكم .

وترجع تسمية هذه الجماعة التي امتشقت الحسام في وجه الدولة إلى يعقوب بن الليث الصفار (نسبة لاشتغاله في الصفر) ، وكان منطلق خروجها بادىء ذي بدء، التطوع لقتال الخوارج الذين بسطوا نفوذهم على سجستان ، والذين انحطوا عن معارج المبدأ إلى درك اللصوصية والنهب ، لبعدهم عن الحكومة المركزية ، وترك هذه الأخيرة أزمة الأمور لحكامها المحليين [1] .

ولقد أظهر يعقوب الصفار أفانين من ضروب الشجاعة والبسالة عندما كان يعمل في ظل قيادة صالح بن نصير الكناني الذي تولى أمر تطهير المنطقة ، والذي تمكن من الاستيلاء على العاصمة السجستانية التي كانت تحكم حكماً ذاتياً في عهد

---

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٨ .

الدولة الطاهرية ، كما طرد منها عاملها القائم بأمرها من قبل الاسرة الطاهرية .

وقد ظهرت نواة الدولة الطاهرية منذ أيام المأمون ، واستقل أمراؤها بحكم المنطقة الشرقية مع اعترافهم الأسمي بسلطان الخليفة ، ثم عملوا على التركيز لنفوذهم وبسط مداه حتى بلغ حدود الهند ، واتخذوا من مدينة سابور قاعدة لحكمهم حتى أحداثهم الأخيرة مع الحركة الصفارية .

غير ان الدولة الطاهرية لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه التحركات العسكرية في الأراضي التابعة لامتداد حكمها ، وحين رأى رجالها سقوط المدينة في أيدي المتطوعين لقتال الخوارج تحرك طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان واسترد المدينة من أيديهم

مطامع يعقوب الصفار

وإزاء هذه الأحداث عيّن يعقوب الصفار قائداً للحملة بعد ظهور عوامل الضعف فيها ، لما اشتهر عنه من حنكة في القتال ، إلى جانب ما تحلى به من شجاعة ألقت الرعب والذعر في قلوب الأعداء ، فتولى مهمة تتبع الخوارج وملاحقة فلولهم ، ولكنه إلى جانب ذلك كان يبسط نفوذه على مقاطعة سجستان حتى وقعت بأكملها في يده ، ناهيك عن تمكنه من إخماد فتن الخوارج والقضاء على تحركاتهم وغاراتهم اللصوصية ، إذ أوقع بهم الهزيمة تلو الهزيمة ، وعهدت المنطقة بحكمه نوعاً من الهدوء والاستقرار لم تنعم به من قبل .

وكان من نتائج انتصاراته الأخيرة هذه واستيلائه على مقاطعة سجستان ، ان فتحت أمامه آفاق الحكم والسيطرة ، فأسفر عن حقيقة أهوائه وطبيعة غاياته ، فهاجم سنة ٨٧٦ الأراضي الواقعة تحت سيطرة آل طاهر في هراة ، واستولى عليها وعلى بوشنج والأراضي المتاخمة لها وضمها إلى دائرة نفوذه وسلطانه [١] .

وكان يعقوب إلى جانب مقدرته وكفايته الحربية ، سياسياً داهية ، إذ استطاع

---

١ — انظر ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٢

ان يمهد لنفسه لدى السلطات المركزية في بغداد ، فتقرب من الخليفة ، وزين له الأمر وأقنعه بأن ذلك إنما يجري لصالح الدولة ، وشفع تودده هذا بالهدايا والتحف النادرة التي وقعت بحوزته من جراء فتوحاته ، فعينه الخليفة والياً على المناطق التي غدت تحت نفوذه ، وأقطعه بالإضافة اليها ولاية كرمان المتاخمة لسجستان ، وعين في الوقت نفسه علي بن الحسين والياً على فارس .

ولقد دارت الأطماع في رأس كل من الواليين ، وظهرت المنافسة جلية واضحة ما بينهما ، وحاول كل منهما ان يلحق الآخر بدائرة نفوذه هو ، وتقدم عليّ على رأس جيش يريد احتلال منطقة كرمان ، غير ان يعقوب كان على أهبة الاستعداد للقائه ، فنهد اليه وأوقع بجيشه هزيمة منكرة سنة ٢٥٦ ﻫ ٨٦٩ م ، واستولى على عاصمته شيراز [١] ، ثم انكفأ إلى الشرق فاستولى على افغانستان ، وعاد بعدها إلى مهاجمة فارس ثانية ، وبدأت حركاته تقترب من العراق ، فرأى الخليفة العباسي ان يبعد عن نفسه خطره قدر المستطاع ، فدفعه عن بلاد الرافدين بالاحسان اليه واقطاعه كلًا من طخارستان والهند .

وبدأت الأوضاع الجديدة تكشف للخليفة عن مطامع يعقوب التي لا حد لها ، إذ وجّه أنظاره من جديد شطر خراسان مقر الدولة الطاهرية ، ومن قبيل التبرير لحركته هذه ، ادعى أن أهلها قد أوفدوا اليه الرسل ملتمسين استخلاصها من يد آل طاهر [٢] ضارباً بأوامر الخليفة الضعيف عرض الحائط ، لا سيا وقد بدأ الضعف والخور يظهران على الدولة الطاهرية ، فتمكن سنة ٢٦٠ ﻫ ٨٧٣ م من الاستيلاء على نيسابور قاعدة الدولة ، وبسط سلطانه على مقاطعة خراسان بعد سقوط العاصمة بيده دون مقاومة تذكر .

ورأى الخليفة المعتمد انه لا شيء يقف في وجه تحركات يعقوب الصفار ، فحاول أن يأخذه بالعنف والترهيب ، فأمره مهدداً متوعداً بالانسحاب من

---

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٩

٢ - الطبري ج ١١ ص ٢٣٢

خراسان ، غير ان الصفاري كان يدرك حق الادراك مقدار ضعف الخليفة العباسي، فوضع نصب عينيه الاستيلاء على فـــارس الحصينة ، ولم يقم لتهديدات الخليفة أيّ وزن ، عاملاً على تثبيت سلطانه واقامته على اسس قوية ، ومضى في انفاذ خطته ، فحارب الترك في الشمال على تخوم سجستان، وخطا خطوة اخرى في توسيع سلطانه فسار الى طبرستان ، وكانت تحت سيطرة الحزب العلوي ، فحارب مؤسس الدولة العلوية فيها الحسن بن زيد ، واوقع بجنده هزيمـــة شنعـاء ، غير انه اضطر الى الانسحاب بسبب وعورة المسالك والشعاب في تلك المقاطعة الجبلية الحصينة،ثم عاد في سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م، وقد استشعر في نفسه القدرة على اقتحامها ، فكرّ بقواته عليها ، وما هي الا فترة وجيزة الا ودانت له طائعة مستسلمة .

وحينئذ شرعت الدولة في الهجوم عليه بحرب دعائية في المناطق التي وقعت تحت سيطرته ، الا ان يعقوب لم يكن من الرجـال الذين يقهرون بسهولة، وقد رد على الحرب الدعـــائية هذه بان قرر الزحف على العراق نفسه ، كما قرر الاستيلاء على الاهواز التي كانت آنذاك بيد صاحب الزنج .

الخليفة يقر الصفاريين على ما في أيديهم

ورأت الخلافة انه ليس الحكمة ان تثير عليهـا حرباً عواناً في جبهتين : الزنج والصفارية ، وقررت أن تداري الموقف المتأزم،فأقرت يعقوب على كل المناطق التي وقعت تحت يده ، وأجابته الى طلباته في الولاية قهراً [١] .

لكن هل يثني القوي تساهل الضعيف ، وتسامح مهيض الجناح ، لذلك لم يقنع يعقوب بما نال،وقرر انفاذ ما عقد عليه العزم فشمّر له وقرر الزحف قاصداً بغداد، لا سيما وقـد غدا شديد البـأس لا يفل له حد ، حتى روى ابن خلكان ان مساحة عسكره كانت ميلاً في ميل [٢] .

---

١ ـ ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٦

٢ ـ المرجع السابق ج٢ ص ٣١٧

ولم ير الموفق من سبيل للامساك بأنفاس هذه العاصفة، وهو يخوض غمار الحرب العاصفة مع الزنج ، الا بالتوقف موقتاً عن قتال هؤلاء ليدفع خطر الصفـــارية ، فسارع الى لقاء يعقوب وكان قد شارف مدينة بغداد وغدا على بعد اثني عشر ميلاً عنهـا حين التقى به الموفق في دير العـاقول ، واستطاع هذا الحسام المسلول بيد بني العباس ان ينزل ، للمرة الأولى ، هزيمـة منكرة بيعقوب ، وذلك في سنة ٢٦٣ هـ ٨٧٦ م ، واضطره الى الانسحاب (١) .

وعلى الرغم من الهزيمة التي الحقها الموفق بيعقوب ، ومن اسبابها انشقاق الجيش عليه ورفض فئة منه قتال جيش الخليفة ، فان الرجل لم يرض من الغنيمة بالاياب والانسحاب الى مناطق نفوذه ، وانمـــا سار قاصداً الاهواز ، وهناك عرض عليه صاحب الزنج ان يتحالفا معاً للقضاء على الدولة العباسية ، لكن يعقوب رفض هذا العرض ، وشنها على الزنج موجة كاسحة في حروب طـــاحنة اسفرت عن انتصار الصفاري انتصاراً ساحقاً ، وانسحاب علي بن محمد عن الاهواز ، وكان الصفاري قد استولى قبيل ذلك على جنديسابور (٢) .

ورأى الموفق ان من الانجح سلوك طريق التفـاوض مع يعقوب، وانفذ اليـه الرسل لاقناعه بالكف عن مخططاته ، غير ان المحادثات بين الفريقين لم تؤل الى نتيجة ايجابية ، واصر الصفاري على متابعة القتال ، وشنها حربـــاً شعواء على الجيوش العباسية بالرغم من مرضه ، غير ان المنية عاجلته قبل أن يحقق ما عقد العزم عليه ، وذلك سنة ٢٦٦ هـ ٨٧٩ م .

وبعد وفاة يعقوب بن الليث الصفار خلفـــه اخوه عمرو ، ورأى الموفق نتيجة لتردي الاوضاع السياسية أن يقرّ عمراً على مـــا في يده ، فولاه على « خراسان ، وفارس واصبهان والسند وكرسان » ، واسند اليه فضلاً عن كل ذلك ولاية الشرطة في بغداد ، وخلع عليه ، وعقدت المعاهدات بينهما ، ولقد تكشف عمرو عن انسان

---

١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٦٠

٢ ـ الطبري ج ١١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧

بعيد النظر ، حسن التدبير ، ذي مواهب سياسية وعسكرية ، مع انه نشأ نشأة مكاري وبنّاء ليس الا . ويقول ابن خلكان في هذا الصدد : « ان عمرو بن الليث لما تولى ولايته احسن التدبير والسياسة حتى قيل : « ما ادرك في حسن السياسة للجنود والهداية الى قوانين المملكة منذ زمن طويل ، مثل عمرو بن الليث [1] » .

الا ان عمراً لم ينعم بسلطانه هذا ، إذ خرج عليه أحد رفاق يعقوب القدامى ، في اقليم خراسان ، وتمكن من الاستيلاء على العاصمة نيسابور سنة ٢٦٧ هـ ٨٨٠ م بعد ان الحق بعمرو هزيمة اضطره فيها على الانسحاب الى سجستان ، ولكن المنطقة ما عتمت ان عادت الى سلطان يعقوب بعد مقتل هذا الثائر سنة ٢٦٩ هـ ٨٨٢م [2].

وعادت الامور الى التأزم من جديد ما بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، اذ لم يقر المعتمد ما قرره الموفق من مهادنة الصفاري ، وعزم الخليفة على عزل عمرو من الاقاليم التي غدت في سلطانه ، واذاع نبأ هذا العزل في طول البلاد وعرضها ، وانه أسند أمر تلك الاقاليم الى محمد بن طاهر صاحب الشرطة في بغداد وسامراء ، وهو المنصب الذي جاءه هبةً من لدن عمرو .

ولقد رأى محمد بن طاهر ان من الخير له ألا يحتك بالصفاري احتكاكاً مباشراً ، فأناب عنه لتولي ادارة خراسان رافع بن هرثمة ، ونهد الموفق ، وكان قد قضى على ثورة الزنج ، لقتال عمرو ، واستطاع ان يسجل عدة انتصارات عليه ، لكنه لم يحقق ما هدف اليه وهو استخلاص مقاطعة كرمان منه ، لاستبسال عمرو في منازلة الموفق من جهة ، ولوعورة المنطقة من جهة أخرى ، ولذا عاد الموفق عن قراره وتوقف عن تعقب عمرو وجيشه .

وبقيت الحال على ما هي عليه ، مشحونة الجو بالتأزم والأحقاد ، حتى وفاة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٢ م وتولي ابن أخيه المعتضد بن الموفق سدة الحكم الذي رأى ان يعود عن نهج عمه إلى خطة أبيه بتصفية الجو ما بين مركز الخلافة

---

١ ـ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٠

٢ . تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٦٠

والصفارية ، فأقرّ عمراً على منطقته الشرقية وعزم على إعادة مقاطعة خراسان اليه . ولكن لم يكن ذلك من السهولة بمكان لأن رافع بن هرثمة الذي نعم فترةً من الزمن بحكم المنطقة والاستبداد بها ، لم يقبل بالتخلي عما في يده ، وشبت نيران الحروب ما بين الصفاري ورافع ، وكانت حصيلتها مقتل الأخير وعودة الصفارية إلى ما كانت عليه من مجدها السابق .

ولكن حدث في تاريخ الدولة الصفارية ما لم يكن في الحسبان ، فان الصفاري الذي اعتقد انه قد مُكّن له في الأرض ، ما لبث ان رأى نفسه في دوامة من الأحداث عصفت بدولته وأفسدت عليه كل ما بذله هو وأخوه يعقوب لإشادة هذا الملك وتأثيله على ظبى السيوف وأسنة الرماح .

وتفصيل الأمر انه حين قضى عمرو على رافع بن هرثمة بعد ان باتت الدولة تنظر اليه نظرها إلى الخارجين على السلطان ، أرسل عمرو رأسه إلى الخليفة العباسي سنة ٢٨٣ هـ ٨٩٦ م ، فسر الخليفة منه كل السرور وأنفذ اليه الخلع والهدايا الثمينة ، ولكن عمراً اعتذر عن قبولها وأصر على طلب ولاية بلاد ما وراء النهر ، وكانت آنئذ بيد اسماعيل بن أحمد الساماني الذي سنأتي على تفصيل خبره في الفصل التالي .

ولما بلغ ذلك مسامع اسماعيل سارع بالكتابة إلى الصفاري يقول له : « انك وليت دنيا عريضة ، وأنا في يدي ما وراء النهر ، وأنا في ثغر ، فاقنع بما في يدك واتركني مقيماً في هذا الثغر . » .

غير ان الصفاري المعتدّ بنفسه ، والذي لم يكن لمطامعه حد ، رد على اسماعيل برسالة أغلظ له فيها القول . وأجابه بصدد ما ذكره عن نهر بلخ وصعوبة عبوره بقوله : « لو شئت ان أسكره ببدر الأموال وأعبده لفعلت [1] » .

النزاع بين الصفارية والسامانية

وازداد موقف عمرو تصلباً ، وأصر اسماعيل على الدفاع عن الأقليم الذي سبق

---

١ – تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٦٠ .

الخليفة المعتمد ان ولّى اسرته أموره منذ سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م ، وكانت هـــذه الأسرة على جانب من القوة لا يستهان به ، فنشب النزاع ما بين الأسرتين ، وقرر الصفاري ان يغزو مقاطعة ما وراء النهر بنفسه ، فحشد قواته وسار على رأس سبعين ألف مقاتل [1] طالباً لقاء اسماعيل الذي لم يقف مكتوف اليدين ، وإنما أعدّ نفسه لخوض معركة مصيرية ما بين نواة دولته والدولة الصفارية القوية ، وما هي إلا جولة أو جولتان ما بين القوتين إلا وقد غدا السامانيون يضربون بأقفية الصفاريين ، وبات عمرو في قبضة اسماعيل أسداً في قفص .

وسارع اسماعيل إلى إرسال عمرو الصفاري إلى الخليفـــة مكبلاً بالقيود ، وفي الواقع كان الخليفة غير راض عن سيرة الصفاري لما يعرف من نواياه البعيـــدة وتطلعه إلى الاستيلاء على العاصمة العباسية بالذات ، ولم يكن قد أقره على ولاية ما وراء النهر ، إلا تجنباً للمشاكل أثناء انشغاله بأمر الحركة القرمطيـة وما تثيره من عواصف تكاد تزعزع العرش العباسي ، ولذا لم يتردد الخليفة وقد أصبح عمرو في قبضته من الاجهاز عليه ، مما نجَم عنه ايـــذان نجم الدولة الصفارية بالأفول ، واستهلال العهد الساماني في الضفة الشرقية من الخليج .

نهاية الدولة الصفارية

لقد بدأ الخط البياني الصاعد لتلك الدولــــة التي نشأت بقوة السلاح ، فأثارت الرعب والفزع بكل ما أحاط بها من الدويلات ، وهددت العرش العباسي غـير مرة ـــ بالانحراف عن مساره مائلاً إلى الهبوط ، بعـد أسر قائد هذه الـــدولة ودحرجة رأسه ، وآل الحكم من بعده إلى طاهر أحد أحفـــاد عمرو بن الليث وكان فاسد الرأي واهي العزيمـة ، مما حدا بأحد غلمان عمرو ويدعى سبـــك السبكري إلى الاستيلاء على السلطة ، محاولاً ان يعيد الاستقرار إلى نصابه في تلك الدولة التي عمتها الفوضى ، ويستعيد للصفارية مجدها الجانح إلى الغروب ، وكان

---

١ ـ ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٨

بعيد الهمة فاستطاع ان يمد رواق نفوذه على فارس . غير ان الجو لم يصف للرجل وقام أحد أبناء عمومة عمرو ويعقوب واسمه الليث بن علي بن الليث الصفار بردة عنيفة على السبكري ، إلا ان هـذا استطاع ان يحظى بعطف السلطة المركزية فقوي مركزه وتوطد سلطانه .

وكان من أمر الليث بن علي الصفاري ان خرج بالبقية من قومه الذين انحازوا له، وشنها حملة عنيفة على السبكري فتمكن من الاستيلاء على فارس،ونزع يد السبكري عنها، ثم قرر ان يقضي عليه القضاء المبرم، فزحف عليه في مقره سجستان . وحينئذ سارع السبكري الى الاستنجاد بالخليفة ليـأخذ بيده ، ويساعده على وقف زحف سليل البيت الصفاري الليث بن علي ، فأمدّه الخليفة المقتدر بجيش عقد لواء قيادته لمؤنس الخـادم ، فتمكن السبكري بمؤازرة الجيش العباسي من ان يوقع بجيش الليث ، ويأخذه اسيراً ، بعد حروب عنيفة طاحنة .

وحين استتب الامر للسبكري في الدولة الصفارية ، وكان يعرف حق المعرفة ما هي عليه الدولة من الضعف والتفكك ، لم يتردد في الاستقلال بالحكم والامتناع عن ارسال الخراج الى بغداد [1] .

وحاولت السلطة عبثاً اعادة السبكري الى الحظيرة،فانفذت اليه الحملة العسكرية تلو الحملة ، غير ان اكثرها كان يرتد عنـه مدحوراً . بيد ان الأمر لم يدم طويلاً للسبكري ، اذ شرعت الدولة السامانية تسير على نهج الفتح والتوسع ، وما هي غير جولات قصيرة حتى خـاضت الدولة السامانية معركة مصيرية قضت بهـا على دولة السبكري وأرسلته مخفوراً الى بغداد

وارتفعت على الضفة الشرقية للخليج راية السامانية المظفرة،ولكن الى حين!..

---

١ – ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠

الدولة السامانية

لقد المعنا في ثنـــايا حديثنا عن الدولة الصفارية الى الدولة السامانية التي كانت العامل الأكبر في الاطاحة بها ، والاخذ بالتوسع على حسابها ، واخيراً مد رواق سلطانها وسيادتها على كل ما كان في يدها .

غير ان بناة هذه الدولة النـاشئة لا يعود ظهورهم على المسرح السياسي الى عهد زوال الدولة الصفارية ، وانما يرجعون بجذورهم الى ابعد من ذلك بكثير، والاسرة السامانية هي احدى اسر ايران العريقة ذات المجد التالد ، وانما اشتهرت في الاسلام باسم مؤسسها سامان خوداه (اي قرية سامان) في منطقة بلخ ، وذلك باعتنـــاقه الاسلام واقلاعه عن الزرادشتية ايام هشام بن عبد الملك (١٠٦ – ١٢٦ ﻫ ٧٢٤ – ٧٤٣ م)[1] .

ولقد قرب الخليفة الاموي سامان خواده، وعين ابنـــه المشهور باسم أسد عبد الله القسري على ولاية خراسان ، وكان له دور بارز في ضبط امـور العراق، وفي اخماد الانتفاضات العلوية ، ومحاولته خضد شوكة الخوارج .

وظهر من اعقاب أسد عبد الله القسري حفدة سامان ، رجال كان لهم دور بارز في صدر الدولة العباسية،منهم نوح بن اسد بن سامان الذي ولاه المأمون سنة ٢٠٤ﻫ ٨١٩ م ولاية سمرقند ، واحمد بن اسد وولاه فرغانة الشاش واشروسنة ، والياس

---

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٣

ابن اسد وولاه هراة . ولما نهض طاهر بن الحسين بامر خراسان اقرهم على ما في ايديهم [1] .

ولقد اشتهر في تاريخ المنطقة الفارسية احمد بن اسد أمير فرغانة الذي سعى الى بسط سلطانه على سمرقند والمناطق التي تجاورها ، وتحقق حلم أحمد هذا بطموح ابنه نصر الذي اقطعه الخليفة المعتمد اقليم ما وراء النهر سنة ٢٦٢ هـ ٨٧٥ م ، وتمكن نصر بن أحمد ان يعزز نفوذه في الاقليم، وولى اخاه اسماعيل بخارى، وفي عهده بدأ خلاف الاسرة السامانية مع الدولة الصفارية ، وظهر بينهما التنافس والتشاحن .

غير ان الجو لم يصف لاسماعيل اذ اخذ نصر يشك في اخلاصه ، وذلك بفعل الدسائس والمكائد التي ما زالت توقع ما بين الاخوين حتى قرر نصر قتال اخيه اسماعيل ، ونهد لتلك الغاية سنة ٢٧٥ هـ ٨٨٨ م لكن الوقائع التي جرت ما بين الاثنين كانت سجالاً في بادىء الامر ثم انقلب ظهر المجن لنصر فوقع اسيراً بقبضة اخيه ، بيد انه لم ينتقم منه فعلته تلك ، وانما رده الى ولايته سمرقند وبقي هو يدير اقليم ما وراء النهر ، ولكن « بعد ان جرد أخاه نصراً من كل سلطة فعلية [2] » .

وحين آلت كافة مقاليد الحكم الى يده بصورة شرعية على اثر وفاة أخيه ، أخذت مواهبه العسكرية تتفتق ، مبرهنة عن طاقات فعالة ، وبخاصة حينما شب النزاع ما بينه وبين عمر بن الليث الصفاري، وقد سعى هذا الاخير — بموافقة الخليفة كما مر معنا — لاستخلاص اقليم ما وراء النهر من يده ، ولكن انتهى الامر بانتزاع طبرستان من يد الدولة الصفارية ، والحاقها بالدولة السامانية ، وذلك بعد ايقاع اسماعيل بجيش الصفاري وارساله اسيراً الى الخليفة ،ولم يتردد الخليفة في اقرار اسماعيل على ذلك ، وهو الذي كان يحرق الارم على الصفاري الذي لم يخف مطامعه في اقتحام بغداد وتقويض الدولة العباسية .

وشرع اسماعيل في توطيد حكمه ، بعد ذلك الانتصار على الصفارية ، حتى

---

١ — تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٧٣

٢ — تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٣

آنس في نفسه المقدرة للاتجاه إلى الفتوحات وتوسيع رقعة دولته : وكان أول ما تطلع اليه طبرستان التي كان واليها محمد بن زين يناوىء الدولة السامانية ويضمر لها العداء ، فاتخذ من ذلك ذريعة لمبادرته بالهجوم ، وأنفذ أحد قواده للاستيلاء على طبرستان ، وتمكن هذا القائد من أداء المهمة التي أوكلها سيده اليه ، ولكن ما ان دانت له المنطقة حتى ثار على سيده اسماعيل ليستأثر بالحكم ، فلم يمهله اسماعيل ، بل خف اليه على رأس جيش قاده بنفسه ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بقائده السابق ، وإدخال اقليم طبرستان إلى حظيرة الدولة السامانية الفتية .

وكان اسماعيل المؤسس الحقيقي للدولة السامانية، على شاكلة يعقوب الصفاري، « بطل حروب وعدل واحكام ، ليس من هم له غير توسيع رقعة بلاده وتعزيز حدودها ، وقد دانت له عدة مقاطعات منها بلخ وسيستان وسمرقند وبخارى وخوارزم [1] » وسعى إلى ضم الري وقزوين إلى سلطانه ، وتمكن من صد العديد من الغارات التركية على تخوم دولته بحدودها الشرقية ، وتوفي سنة ٢٩٦هـ ٩٠٨م، بعد ان بلغت الدولة في عهده شأواً بعيداً من القوة العسكرية إلى جانب تطورها في المرافق الادارية .

الدولة السامانية في ظل حكم أحمد بن اسماعيل

بعد وفاة اسماعيل بن أحمد الساماني ، آلت الولاية لابنه أحمد (٢٩٥ — ٣٠١هـ ٩٠٧ — ٩١٣ م) ، وكان ذلك في عهد الخليفة المكتفي (٢٩٠ — ٢٩٦ هـ ٩٠٢ — ٩٠٨ م) فأقره على دولة والده ، لاسيما وان أحمد كان يتمتع بنفوذ خاص لدى السلطة المركزية في بغداد ، فضلاً عن حكمه الذاتي للدولة السامانية.

وقد قفى أحمد على آثار والده ونهج نهجه في سياسة توسيع رقعة الدولة،ووضع نصب عينيه ازالة الدولة الصفارية التي كانت آنذاك في قبضة سبك السبكري الذي ثار على حفيد سيده محمد بن طاهر الصفاري وانتزع منه السلطة، كما ذكرنا في الفصل

---

١ ـ تاريخ ايران تأليف شاهين مكاريوس ص ١١٠

السابق . وكانت أول بادرة منه في هذا الصدد ، انه جهز جيشاً عقد قيادته لغلامه سيمجور ، وذلك بعد توليه السلطة بثلاث سنوات ، وتمكن هذا الجيش من إيقاع الهزيمة بالسبكري وأخذه أسيراً ، كما واقع الليث الصفاري الذي سبق له ان استولى على فارس . وبذلك تم القضاء على الدولة الصفارية وتمكن السامانيون عام ٢٩٩ هـ ٩١١ م من فتح سجستان وضمها الى حظيرة سلطانهم .

غير ان الامر لم يستتب للسامانيين بهذه السهولة ، اذ شبت الثورات الداخلية في وجوههم ، ورفع السجستانيون راية الغصيان ، ورأوا ان يولوا واحداً من الاسرة الصفارية ، ووقع اختيـــارهم على احد حفدة عمرو بن الليث الصفــــاري واسمه : عمرو بن يعقوب.وآتت الثورة أكلها،ونشط عمرو لاعداد العدة لمقاومة السامانيين، وما إن علم هؤلاء بنبأ انقلاب الاوضــاع عليهم في سجستان ، حتى بادروا لارسال القائد سيمجور ليردهـا ثانية الى حظيرة الدولة السامانية ، فدافع السجستانيون عن بلادهم بضراوة ، ودارت المعارك والمنازلات بين الفريقين زهاء سنة كاملة،وكان من حصادها انخذال الصفاري ، واعادة الاقليم السجستاني الى حظيرة السيادة السامانية ، وتولي سيجمور ادارتها من قِبَلهم [١] .

وقوع الخلاف في الاسرة السامانية

ظلت الدولة السامانية مرتفعة النجم تسير في سبل التوسع والفتح حتى وفـــاة احمد بن اسماعيل سنة ٣٠١ هـ ٩١٣ م ، ولم يكد يعلن نبأ وفاته حتى نشط التنافس على الحكم في الاسرة السامانية ، وانقلب هذا التنافس الى صراع دموي ، نتيجة لما لعبته المطامع والمطامح من ادوار في اثارة الخلاف الناشب .

ومرد هذا الخلاف انه كان لاحمد ابن لا يتجاوز الثامنة اسمـه نصر ، وقد رأى بعض اصحـــاب الرأي أن يُرفع إلى سدة الحكم اسحق بن احمد بن اسد الساماني صاحب سمرقند ، وسعى هذا الأخير منذ ذلك التاريخ لأخذ الولاية لنفسه ، بيد

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٧٤

ان الخليفة العباسي المقتدر اقرّ نصراً على ملك ابيه ، وأوكل الوصـــاية عليه إلى محمد بن احمد الجيهاني ، ليدير شؤون الدولة باسمه حتى يبلغ اشده [1] .

وكان لقرار الخليفة هذا ردود فعل عنيفة في بيت اسحق بن احمد الساماني الذي اعتقد بانه غدا على قاب قوسين او ادنى من سدة الحكم ، فأضرم هو وابنه اليـاس الثورة في ربوع الدولة السامانية ، وعمل على استمالة قلوب أبناء مـــا وراء النهر ، وركب الغرور رأسي الوالد والولد ، فسارا صوب بخارى بقصد القضاء على ابن عمهما نصر بن احمد الساماني ، وبسط نفوذهما على المنطقة دون ان يتبصرا بالعواقب. وقد اشتبك اسحق بجند نصر الذي لقب «بالسعيد» لكنه لم يثبت امامهم وتكررت هزائمه ، وقام جند «السعيد» بتعقب فلول المناوئين للسلطة ، فسقط اسحق اسيراً بينما فر ابنه الى فرغانة ليسلم بجلده .

غير أن الاوضاع مـا لبثت أن تأزمت من جديد ، وذلك لخروج منصور بن اسحق الساماني على الدولة ، وزادت الامور تعقداً وتفاقمـــاً في وجه الدولة عندما انشق قسم من جيش نصر عنـــه ، وانضوى تحت لواء منصور الذي استولى على سجستان عام ٢٩٧ هـ ٩٠٩ م ، وطفق يتحرك لتوسيع رقعة نفوذه. بيد ان الدولة كانت له بالمرصاد ، ووقعت بين الفريقين معارك فيها الكثير من المد والجزر استمرت أربع سنوات ، وقـــد أسفرت عن فشل ثورة المنصور ، واعـــادة المنطقة لابن عمه نصر .

ولم تكد تستقر الأمور فترة يسيرة حتى رأت الدولة السامانية نفسها وجهاً لوجه امام الياس بن اسحق ، يسير اليها بجيش عدته ثلاثون الف محارب اعدّ تكوينه في فرغانة لمنازلة ابن عمه نصر ، فسارعت جيوشه للقائه واوقعت به الهزيمة قبل ان يحقق اهدافه ، وحملته على الفرار إلى منطقة فرغانة .

بيد ان الياس لم يستسلم لليأس وانما عاد ليحيك المؤامرات على نصر ، وتوسل إلى غرضه هذا بان وقع إتفاقية تعاون مع صاحب الشاش ، ومع ذلك لم يحالف النصر

---

١ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨

هذا الحلف ، ولدى أول اصطدام مـا بين القوتين المتصارعتين وقع صاحب الشاش اسيراً بيد الدولة ، وبذا قضي على آخر أمل لالياس في الحكم .

ومع كل هذا ، لم تخمد جذوة التمرد والثورة في نفوس آل اسحق ، ولم تكف عن التآمر على الدولة السامانية ، وإذا كانت قد استكانت فترة من الزمن ، فانها ما لبثت أن عادت إلى نشاطها التمردي ، فقـام سنة ٣٢٣ هـ ٩٣٤ م أحد احفاد اسحق ويكنى بأبي علي محمد بن الياس الساماني ، وشق عصا الطاعة على ابن عمه نصر بن احمد ، وتمكن من الاستيلاء على كرمان ، غير ان منصور رد على هــذا التعدي بتسييره اليه جيشاً بقيادة « ما كان بن كالي » فانزل الهزيمة بساحـة ابن الياس ، واستولى على كرمان ، ووليها من قبل السامانيين ، لكنه ما عتم ان اعلن العصيان عام ٣٢٩ هـ ٩٤٠م ، فتحرك اليه جيش منصور وهزمه واعـاد كرمان إلى قبضة السامانيين [١] .

ودارت نشوة الظفر برؤوس قادة الجيش الساماني ، بعد ان قضت الدولة على عناصر العصيان والتمرد، وانطلقت بخطة الفتح والتوسع ، واستولت على الري بعد حروب دارت بينها وبين واليها وشمكير بن زياد، الذي الجأته الهزيمة الى طبرستان وإلى الاذعان بعد ذلك للحكم الساماني والدخول في طاعة أميرها نصر بن احمد، ولم يقف الجيش عند هذا الحد وانما تابع زحفه متعقباً آثار ما كان بن كالي الذي وقع قتيل المطاردة ، ومضى الجيش المظفر سائراً في دروب النصر ، فاستولى على كل من أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغ حدود حلوان ، وضمت هذه الاقاليم إلى الدولة السامانية فغدت قوية مرهوبة الجانب [٢] .

ومن المعتقد أن الحركة القرمطية قد تمكنت من التسوب إلى الدولة السامانية بتشجيع من اميرها نصر بن احمد الذي دان بتلك العقيدة . وفي رواية للمقريزي ان هذا الأمير قد أنفذ الى عبد الله المهدي الداعية الاسماعيلي رسالة يتعهد له فيهـا بأن

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٧٦

٢ ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٥٦

يكون على اهبة الاستعداد للتعاون معه عسكرياً ، إذا ما اقتضت الظروف ذلك، وامداده بالرجال والعتاد ، كما اعترف له بالسلطة الروحية . غير ان تلك البادرة كان لها ردة فعل عنيفة في صفوف الجيش ، وتآمر القادة عليه ، حتى اذا احس بتأزم الموقف الذي كاد يودي بحياته ويطوّح بكيان الدولة ، تنازل عن الامارة لابنه نوح ، ولم تطل حياته بعد ذلك لاصابته بمرض عضال توفي على اثره بعد حكم امتد سحابة ثلاثين سنة (١) .

ولما ارتقى نوح بن نصر سدة الحكم سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ م كانت الدولة السامانية – كما أسلفنا – قوية ممتدة الرقعة على الاقليم الخراساني وما وراء النهر ، ولكن أخذت تظهر في تلك الحقبة طلائع دولة البويهيين الفارسية ، وتمثل دورها في النشوء والاتساع ومحاولة بسط نفوذها على المناطق المتاخمة لحدودها .

وشجر النزاع ما بين الدولتين : البويهية والسامانية ، إثر استيلاء البويهيين على منطقة الري ، ونهد الأمير الساماني الجديد لإعادة المنطقة المغتصبة الى دولته، وأنفذ جيشه لقتال البويهيين ، غير ان الهزيمة لحقت بهذا الجيش لتمزقه داخلياً وانحياز بعض قادته بجندهم إلى صفوف البويهيين ، فكانت أول خسارة نزلت بساحة الأمير نوح وهو في مستهل حكمه، ومع ذلك لم يفت اليأس من عضده وإنما أعدّ على عجل جيشاً ثانياً دفع به لمناجزة البويهيين ، وتمكن من استعادة منطقة الري ولما يمضِ على حكمه غير سنتين (٢) .

وعادت الفتن لتذر بقرنها من جديد ، حين خرج أبو علي بن محتاج أحد القادة السامانيين ، وشق عصا الطاعة على الدولة التي غرقت في المشاكل ووقعت في دوامة المؤامرات ، واستدعى ابرهيم عم نوح بن نصر ، وكان خارج البلاد ، لتولي الحكم في غمرة تلك الاضطرابات، فسارع هذا إلى العودة والأخذ بيد القائد الثائر، وعقد الاثنان العزم على قتال نوح ، ولم يطل الأمر بابرهيم حتى بسط نفوذه على نيسابور ومرو ووصلت طلائع جيوشه إلى بخارى عام ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م .

---

١ ـ المرجع السابق ج ٨ ص ١١٤

٢ ـ المرجع السابق ج٨ ص ١٥٩

على ان ابرهيم ما لبث ان تخلى عن موقفه العدائي لابن أخيه نصر ، فخلع نفسه وتسلم قيادة الجيش الساماني ، بينما ظل أبو علي متمسكاً بموقفه من الدولة ، ودارت المعارك من جديد بين صديقي الأمس ، واضطرت الجيوش السامانية أبا علي إلى إلقاء السلاح ، وعقدت بين الفريقين معاهدة صلح أسندت بموجبها قيادة الجيش لابن الساج .

وكان البويهيون قد استرجعوا منطقة الري من السامانيين في غمرة الاضطرابات التي لم تنته حتى شرع نصر باستردادها من ركن الدولة بن بويه . وتمكن أبو علي الذي غدا قائد الجيوش السامانية ، من مضايقة البويهيين في مناطق نفوذهم ، واضطر ركن الدولة إلى عقد معاهدة مع أعدائه يدفع بموجبها جزية قدرها مئتا ألف دينار سنوياً [1] .

بدء تضعضع الدولة

على الرغم من الصلح الذي عقد ما بين كل من نوح بن نصر وأبي علي ، وإسناد قيادة الجيش للأخير ، وانتصار هذا القائد على البويهيين ، ظل الشك والريبة يعتملان في نفس ابن نصر ، وما لبث ان نحّى قائده عن القيادة ، مما حدا به للالتجاء إلى عدو السامانيين ركن الدولة البويهي ، فأكرم هذا وفادته وسعى له عام ٣٤٢ هـ ٩٥٣ م لدى المطيع الخليفة العباسي الثالث والعشرين (٣٣٥–٣٦٤ هـ ٩٤٦ – ٩٧٤ م) ليوليه خراسان ، وكان جواب الخليفة على ذلك إيجابياً . وكانت هذه ضربة قاسية سددت للسامانية قبيل وفاة الأمير نوح .

وباعتلاء عبد الملك بن نوح دست الامارة مكان أبيه سنة ٣٤٣ هـ ٩٥٤م ، وجه همه لاسترجاع خراسان إلى إمارته ، وأنفذ في سبيل ذلك جيشاً بقيادة بكر ابن مالك ، فما كاد يشتبك بقوات ابن محتاج حتى انشقت هذه على نفسها ، والتحقت بجيش الدولة السامانية . فلما رأى ابن محتاج نفسه وليس تحت يده غير مئتي رجل

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٧٨

قرر ان يلتجيء إلى بني بويه .

ومع ذلك لم تنعم الدولة السامانية بالهدوء ، إذ شبت الثورات في وجهها في سجستان ، رامية إلى خلع الأمير خلف بن أحمد ، ودارت عدة معارك بين قوات الثائرين والجيش الساماني الذي أعاد المنطقة للطاعة بعد حروب طويلة . ولكن عندما استتب الأمر للأمير خلف صنيعة السامانيين ، لمعت في ذهنه المطامع وأعلن استقلاله بالمقاطعة ، مما دفع الجيش الساماني لإعادة الكرة على المنطقة ، والاشتباك معه في حروب متواصلة دامت سبع سنوات ، أنهكت قوى الفريقين ، بينما كانت الدولة البويهية على أهبة الاستعداد لاستخلاص منطقة الري مدار النزاع ما بين السامانيين والبويهيين ، وقد نشبت في سبيل ذلك حروب عنيفة بين الدولتين استمرت خمس سنوات (٣٥٧ — ٣٦٢هـ ٩٦٧ — ٩٧٢م) انتهت بعقد لواء الصلح ما بينهما ، بعد ان دفع البويهيون للسامانيين مائة وخمسين ألف دينار ، وتوّج هذا الصلح بزواج المنصور بن نوح من ابنة عضد الدولة ، وأبرمت بينهما المواثيق بعدم الاعتداء في كل من فارس وبغداد وخراسان [١] .

نهاية الدولة السامانية

بعد ان بلغت الدولة السامانية أوجها السياسي والعسكري ، إلى جانب رقيها في ميادين الفكر ، إذ كانت مركزاً لحضارة زاهرة [٢] ، أخذت تظهر عليها علائم الضعف والتفكك والتفسخ نتيجة لما عانت من الثورات الداخلية العنيفة التي كادت تودي بها غير مرة ، إلى جانب المطامع البويهية وظهور العنصر التركي فيها ، ناهيك عن محاولات الولاة الاستقلال بالمناطق التي تحت أيديهم .

ومما كان له أعمق الأثر في انهيار هذه الدولة ، اختيار نوح الثاني بن منصور أميراً على الدولة (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ ٩٧٦ — ٩٩٧ م) وهو لا يتخطى الثالثة عشرة

---

١ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٥

٢ — تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٤

من عمره ، فتدخلت نساء البلاط في شؤون الحكم ، ورأى قادة الجيش ذلك فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم الذاتية [1] فاستبدوا في البلاد ، وأخذوا يتصرفون حسب أهوائهم ، وانتهز البويهيون تلك الفرصة فاستولوا على جرجان [2] .

إلا أن الضربة القاضية التي وجهت الى قلب الدولة أتت مع ظهور العنصر التركي في البلاد. وقد اتى عن نفس الطريقة التي دخل فيها بغداد،ولذا انتهت الدولة السامانية الصغرى الى مـا انتهت اليه الامبراطورية العباسية الكبرى ، إذ حمل الاتراك الى البلاد جنوداً محاربين ، حتى اذا ما ثبتت الارض تحت اقدامهم مكنّوا لانفسهم بالنفوذ ، وتدرجوا إلى المراتب العليا من الجيش ، ثم تغلغلوا في مرافق الدولة ، فغدت الادارة المدنية في أيديهم، واخيراً اصبحوا ارباب السلطة المطلقة في البلاد [3] ، وطفقوا يعزلون ويولون حسب اهوائهم ، وقد سمل بكتوزون الذي تولى امارة الجيش الخراساني من قبل الدولة السامانية عيني الامير منصور بن نوح.

وقام الغزنويون بتحقيق مآربهم في مد رقعة سلطانهم ، فاستولوا في ايام محمود الغزنوي على نيسابور وبخارى وخراسان ، وازالوا نفوذ السامانيين ، ليذهبوا بعيداً في الفتح ، منحدرين الى الهند حيث اقاموا امبراطورية كبرى .

وانتهى أمر السامانيين اخيراً على يد الدولة التركية القوية التي انشأها الأيلك خانية في تركستان [4] باستيلائهم على بلاد ما وراء النهر التي كانت نواة دولتهم ، ثم امتدت على رقعة شاسعة في منطقة شرقي الخليج .

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٧٩

٢ ـ ابن الأثير ج ٩ ص ٢ — ٥

٣ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

٤ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١١٤

البويهيون واستيلاؤهم على إيران والعراق

اسرة تمثل العنصرية الفارسية بأحلى مظاهرها

عقب استئثار العنصر التركي بمصالح الدولة والسلطة المركزية في بغداد وازاحة الفرس عن عالي مناصبهم ، شجر التنافس والتنازع ما بين هذين العنصرين استخلاصاً للسلطة واحدهما من يد الآخر .

وفي الواقع كان الفرس قد مكّنوا لانفسهم في ديارهم بشكل فعلي واقعي منذ تولى طاهر بن الحسين ولاية خراسان، وقطع الخطبة للخليفة المأمون ، فشكل أول دولة فارسية مستقلة وان لم يعلن ذلك الاستقلال رسمياً، وانما سلم الخليفة بالامر الواقع ، وقامت بقيامه الدولة الطاهرية التي صفّتها الصفارية، واتى على الاخيرة السامانيون ، وها قد جاء الآن دور البويهيين .

وسار البويهيون على خطة أسلافهم بالفتح والتوسع ، لانتزاعهم السلطة من أيدي غيرهم بقوة السلاح ، ولكن تميزوا على ما سبقهم من الدول بان حركتهم لم تكن محلية اقليمية وإنما عامة شاملة ، لأن هذه الاسرة التي ظهرت فجأة على المسرح السياسي كانت تمثل العنصرية الفارسية باجلى مظاهرها واعمق معانيها ، وقد استطاعت أن تنفذ إلى صميم الدولة العباسية ، وتنتزع مقاليد السلطة من أيدي الاتراك ، وتحل محلهم ، وتبسط رواق نفوذها ومطلق هيمنتها على كافة مرافق الدولة ، تاركةً الخليفة مجرد دمية في يدها القوية القاهرة ، وقد اجتمع بقبضتها كل

من فارس والعراق .

ويعود تاريخ هذه الاسرة إلى أيام دخول أفرادها بخدمة ماكان بن كالي التركي أحد قادة الجيش الساماني ، وقد درجوا في جيش ماكان من جنود بسطاء إلى مراتب الأمراء ، حتى آلت اليهم القيادة ، وكان ممثلي بن بويه آنذاك ، علي بن بويه الذي اشتهر أيام خلافة المكتفي (٣٣٣ - ٣٣٥ ه ٩٤٤ - ٩٤٦ م) بعماد الدولة، وأخواه الحسين بن بويه ويلقب بركن الدولة ، وأبو الحسين أحمد وينعت بمعز الدولة .

وحدث ان قام النزاع المسلح ما بين ماكان بن كالي ومرداويج بن زياد ، فلم يتردد البويهيون حينما آنسوا رجحان كفة ابن زياد في ان يقلبوا ظهر المجن لولي نعمتهم وينحازوا إلى عدوه، فقبلهم هذا في صفوف جيشه ، وأخذ نجمهم في التألق، إذ أسندت لعلي إدارة بلاد الكرج،[1] كما أسندت لأخويه أعمال هامة بادارة دولة ابن زياد وتشمل جرجان وطبرستان وقزوين وقم والكرج [2] .

إلا ان مرداويج ما لبث ان ندم على ما فرط منه ، وأبدى شديد الأسف لإطلاق أيدي بني بويه في ملكه ،فقد تبدّى له خطرهم واضحاً لما أبدوا من طموح، إذ أخذ علي يوسع من رقعة ولايته ، فاستولى على أصفهان وشيراز التي جعلها مقراً لحكمه . ورأى مرداويج ان يتدارك الموقف فأرسل إلى أخيه وشمكير ليقبض عليهم في الري ، بيد انهم أفلتوا منه وعادوا إلى الكرج ليعدوا العدة لقتال سيد الأمس .

وهكذا كان نفوذ البويهيين يزداد ودورهم يتضح على مسرح الأحداث ، مما دفع مرداويج إلى استخلاص بلاد الكرج منهم ، وانفاذه جيشاً لقتالهم، فانقلب علي عن اخطة العداء لمرداويج إلى سياسة التزلف اليه ، وعقد معاهدة صلح معه ، وزاد في طمئنانه بأن أنفذ أخاه الحسن ليكون رهينة لديه ، لكنه شرع من ناحية ثانية

---

١ - ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠

٢ - تجارب الأمم لابن مسكويه ص ٢٧٧

يوسع من نطاق نفوذه بجهات أخرى ، فاشتبك مع والي فارس وابنه المظفر ابن ياقوت بعدة معارك وتمكن من إيقاع الهزيمة به في نواحي أرجان ، ثم تعاظم أمره فاستولى على فارس ، ودانت له معظم بقاع شرقي الخليج ، وإذ ذاك أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه ان يقرّه على فارس ، فاستجاب الخليفة لطلبه [1] .

الفرسان الثلاثة

هذا ما كان من شأن علي بن بويه ، أما أخوه الحسن فلم يطل لبثه كرهينة لدى مرداويج ، وذلك لمقتل الأخير على أيدي بعض جنوده الاتراك ، فاهتبل الحسن الفرصة وفر فائزاً بحريته [2] وعاد إلى أخيه عليّ لتشرع له أبواب المجد ، إذ استولى على الري وهمذان واصفهان وباقي الاراضي الفارسية ، بينما استولى أحمد في السنة نفسها على كرمان .

وبذا استطاع هؤلاء الفرسان الثلاثة، بسط نفوذهم على كافة الاراضي الايرانية، لما كان بينهم من تساند في الشدائد وتناصر في المكاره ، وسنقتصر في بحثنا هذا على دراسة اثر البويهيين في فارس والعراق ، لما اضطلعوا به من دور واسع في هذين البلدين ، لان المنطقة الواقعة في شمالي ايران والتي افتتحها الحسن بن بويه (ركن الدولة) لم تعمر طويلاً لضعف أولاده في الحكم ، ولتنازعهم فيما بينهم بحيث وقعت البلاد لقمة سائغة في أيدي الغزنويين والاتراك خلال المدة الممتدة من سنة ٤١٢ الى ٤٢٠ هـ ١٠٢١ — ١٠٢٩ م [3] .

وها هي الاحداث تتوى مطردة مع نشاط تلك الاسرة الواسعة المطامع البالغة الفعالية، فما ان دانت فارس لأقطابها ، امتداداً من ديار الكرج حتى سواد العراق، حتى شرعوا يعدون العدة لبسط سلطانهم على الاراضي العراقية نفسها ، وازالة

---

١ - تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٣
٢ - تجارب الأمم ص ٣١٤ — ٣١٥
٣ - تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ١١٣

الخلافة العباسية، ولم يكد أحمد بن بويه يستولي على كرمان من يد علي بن العباس، حتى انفذ اليه أخوه علي يطلب منه أن يسير الى الاهواز ويستولي عليها ، وفي الوقت نفسه كان الحسن يعد العدة للغرض ذاته ، وقد استطاع عام ٣٢٦ هـ ٩٣٧م وبمساعدة البريدي الذي كان ينازع ابن الرائق السلطة على المنطقة ، ان يحقق ذلك الهدف ويستولي على الاهواز.

ورأى الخليفة العباسي المستكفي ، وقد انتزع ابن الرائق من يده اكثر سواد العراق ، أن يمسك بسلطانه المتداعي باستعدائه الفرس على الترك ، وكان معقد آماله على أحمد بن بويه .

وقد استدعى الخليفة أحمد بن بويه الى بغداد فلم يتردد في تلبية هذا الطلب ، لأنه يتفق مع خطة البويهيين الهادفين الى الاطاحة بالحكم العباسي ، والقضاء على النفوذ التركي ، ليكون لهم الأمر والنهي في البلاد ، وشرع هذا الفارس يعد العدة للاستيلاء على بغداد ، وسار اليها سنة ٣٣٤ هـ ٩٤٥ م ، وافتتحها عنوة ، بعد أن قضى على المقاومة التركية التي لاقاها لتصدي توزون له [١] .

معز الدولة

وخف الخليفة العباسي لاستقبال أحمد استقبال الفاتح المنقذ ، ومنحه لقب « أمير الامراء » اعراباً له عن امتنانه ، وزاد على ذلك فدفع اليه بالطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد له لواء واضفى عليه لقب « معز الدولة » ، وطوق اخاه الحسن بلقب « ركن الدولة » ، واما عليّ فغدا « عماد الدولة » وامر فضربت الق‍ابهم تلك على الدينار والدرهم [٢] .

وما إن تم لمعز الدولة ما أراد من الفتح السياسي ، واستتبت له الامور ودانت السلطة ، حتى كشر عن أزرق نابه ، فجرد الخليفة من سائر سلطاته، ثم أمر فجر

---

١ ـ ابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ـ ١٢٠

٢ ـ الفخري ص ٣٣٤

عليه ، وأجرى له جراية قدرها خمسة آلاف درهم لتنفق على مستلزماته اليومية[١] ثم عـاد فقطع تلك الجراية بعد أن فتح البصرة ، وحدد له اقطاعـات يسيرة يعيش عليها ، كما عين له كاتباً لادارة شؤونها [٢] .

وهكذا انتقل الأمر في حاضرة الاسلام إلى أيدي البويهيين، وشرعوا في السير على مخطط أسلافهم الترك، يتلعّبون بالخليفة كما يشاؤون، ويلهون به كيفما يريدون، وليس له من شأن أكثر من شأن موظف براتب.

ورأى معز الدولة ان يوطّد نفوذه فعيّن بنفسه ابنه بختيار «أمير الأمراء» [٣]، ولم يقف عند هذا الحد ، ولم يكفه ما بسط من سيطرة ونفوذ على سائر مرافـق الدولة ، وما لبث ان توجس خيفة من الخليفة العباسي فرأى ان يتخلص منـه ، فدخل عليه دار الخلافة ، وأوعز إلى رجاله « فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفـة ، فمد يده اليهما ظناً منه انهما يريدان تقبليها ، فجذباه حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته ، وهجم الديلم على دار الخلافة إلى الحرم فنهبوه فلم يبق فيه شيء ، ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفي ماشياً اليه ، فخلع وسملت عيناه ، وولوا المطيـع لله خليفة ، وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار فقط لنفقته [٤] » .

ولم يكن الخليفة العباسي الجديد المطيـع (٣٣٥ – ٣٦٤ هـ ٩٤٦ – ٩٧٤ م) سوى أسير بن يدي معز الدولة يقتاده في الحروب التي استهدف منها بسط نفوذه على كامل الأراضي العباسية ، ورأى ان يبدأ بالحمدانيين الذين تمركزوا في الموصل وقوي نفوذهم فيها .

لقد أخذ معز الدولة يثير أسباب العداء مع جيرانه الحمدانيين، ومع صديقه القديم كابد القاسم البريدي صاحب البصرة والأهواز ، لينفرد بالأمر في طول البـــلاد وعرضها ، ورأى ان يضرب الحمدانيين أولاً، لينقلب بعدئذ لانتزاع جنوبي العراق

---

١ ـ ابن الاثير جـ ٨ ص ١٤٨

٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي جـ ٣ ص ٤٤٥

٣ ـ ابن مسكويه جـ ٢ ص ١٥٨

٤ ـ ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥١

من البريدي .

وسار مصطحباً معـــه الخليفة « المطيع » على رأس جيش كبير ، لاستخلاص الموصل من ناصر الدولة بن حمدان ، وعلم هذا بمسيرة معز الـــدولة فانتهزها فرصة سانحة ودخل بغداد فاتحاً بمساعدة ابن سيراز .

وتناهى هذا النبأ الى مسامع معز الدولة ، فلم يعبأ به لوثوقه من قوته ، ورأى قبل أن يسترجع بغداد أن يعرج على تكريت التي كانت بيـــد الحمدانيين ليلقنهم درساً ، فسار اليها بنفسه ، ودخلها ، واطلق فيها يد السلب والنهب لجنده ، ثم كر راجعـاً إلى بغداد ودخلها من جانبهـا الشرقي ، بينما كان ناصر الدولة وابن سيراز معسكرين في الجانب الغربي ،ودارت الحرب في دار السلام طوال أربعة أشهر ، اسفرت بعدها عن هزيمة الحمدانيين ، فانسحبوا من بغداد الى عكبرة [1] .

ولما صفا الجو لمعز الدولة في الشمال بعد تصفية حسابه مع الحمدانيين ، أخذ يعد العدة لتصفية سيطرة البريديين عـلى البصرة والاهواز ، ومـــا عتم أن سار بنفسه لتحقيق هدفه وبرفقته « المطيـع » .

ولم ينشب القتـال مـا بين البريدي ومعز الدولة ،اذ آثر الأول – وقد رأى ألا طاقة له بقتال خصمه– ترك البلاد والالتجاء الى دولة القرامطة في البحرين. وبذلك هيمن معز الدولة على العراق ، واستأثر بقية ايامه بالسلطة دون الخليفة ، حتى بدأ يُخطب له في عُمان [2] إلى ان وافته المنية سنة ٣٥٧ هـ ٩٦٧م، وارتفع من بعده الى دست الحكم ابنه بختيار .

عز الدولة

كان بختيار الذي اتخذ لقب « عز الدولة » سر ابيه في معاملة الخلفاء العباسيين، وقد قفى على آثاره بالاساءة الى المطيـع ، فكان لا ينفك يلح بطلب الأموال منه

---

١ – ابن الاثير ج ٨ ص ١٦٧

٢ – تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٥

لينفقها على لهوه وهو يدعي كذبا بانه يبغي الجهاد الذي هو واجب على كل امام ومؤمن !.. وكان المطيع يجيبه بتلك الكلمات التي يتجلى فيهـــا الوضع السياسي المتدهور ، وتصف ادق وصف الحـالة التي آلت اليهـا الخلافة : « الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي ، والي تدبير الأموال والرجال ، وأمـا الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفافي ، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الائمة فيه ، وانما لكم هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكتون به رعاياكم ، فان احببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً ، وتركتكم والأمر كله [1] » .

ولم يدم حكم « المطيع » طويلاً في فترة سيطرة بختيار ، إذ اضطره إلى بيع قماشه وابتز منه أربعمائة ألف درهم ، ثم عزله وعين مكانه ابنه خليفة باسم «الطائع» .

تلك كانت سيرة بختيار مع الخلفاء العباسيين ، ولم تكن سياسته الـــداخلية والخارجية بأمثل مما انتهجه من التضييق على البيت العباسي ، فقد أخذ يشاكس ابن عمه المعتقد ويجاهره بالعداء ، « ونفى كبار الديلم طمعاً في أموالهم ، فكانت فترة حكمه حقبة فتن وثورات داخلية ، فالشيعة التي يدعمها البويهيون في نزاع مـــع السنة ، والجند تطالب بأرزاقها ، فكان ان تخبطت البلاد في حروب داخلية [2] » مما اضطر بختيار إلى الاستنجاد بابن عمه عضد الدولة .

النزاع بين أفراد الاسرة البويهية

ونتوقف هنا قليلاً عن الحديث عن بويهيي العراق ، وقد استنجد بختيار بابن عمه عضد الدولة ، لنرى كيف كانت أوضاع الحكم في فارس .

لقد رأينا كيف ان العلاقة قد قامت بين مؤسسي هذه الأسرة على أتم ما يرام من الود والتآخي ، فاستطاعوا ان يبسطوا نفوذهم بكل يسر وسهولـة على معظم مناطق الخليج كالعـــراق وفارس وأصفهان وجزء كبير من أراضي الدولـــة السامانية .

---

١ ـ ابن مسكويه ج ٢ ص ٣٠٧

٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٥

وبعد وفاة عماد الدولة المؤسس الحقيقي للدولة البويهية عام ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م تولى الملك ابن أخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة بناء على وصيته قبل وفاته.

واستهل عضد الدولة حكمه على فارس وهو على أتم وفاق مع معز الدولة والد البختيار، لكنه كان واسع مطرح المطامع، شديد الرغبة في أن يضم العراق إلى سلطانه في فارس، وما إن توفي عمه أحمد حتى رأى أن غايته قريبة المنال، بسبب تردي الأوضاع السياسية في العراق، وانشقاق الجيش على بختيار لما ظهر من اساءته الى الشعائر الدينية، والتمزق الكلي في صفوف الجند المؤلفة من اتراك وديلم.

واهتبل عضد الدولة سانح الفرصة حين ثار الجند على «بختيار» وعزلوه، فسار الى بغداد والقى القبض على ابن عمه الذي استنجد به، وتولى الحكم مكانه، وانفذ الى والده ركن الدولة في اصبهان يخبره بما حدث.

إلا أن ركن الدولة لم يسرّ من فعلة ابنه عضد الدولة، وانما امتعض غاية الامتعاض وأرسل يهدد ابنه بالزحف عليه حالاً وقتله ان لم يُرجع ابن عمه لمقامه في الحكم ويشد من أزره، فلم ير عضد الدولة بداً من التخلي عن مطامحه وأطاعه أمام ضغط والده الذي كان يسعى على الدوام لأن يكون بنو بويه عصبة واحدة مجتمعة الكلمة. واستخلف عضد الدولة بختيار على بغداد وقفل عائداً على مضض إلى فارس، لكن ما ان توفي والده ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م حتى عاد سيرته الاولى مع ابن عمه، وسار بقواته قاصداً العراق، والتقى بجيش ابن عمه بختيار في واسط، واوقع به هزيمة فادحة منذ الجولات الأولى التي دارت ما بين بني بويه انفسهم، والتي كانت فاتحة النزاع الطويل الذي قام في ذلك البيت ولعبت الدور الأول في انهياره.

وأسفرت المعركة عن فرار بختيار والتجائه إلى الحمدانيين في الموصل يطلب اليهم أن يمدوه بالعون لاستعادة سلطانه في العراق، وبالفعل لم يتردد الحمدانيون في نجدة هذا المستغيث. ولما علم عضد الدولة بما قر عليه قرار الحمدانيين، ورغبتهم في استرجاع بغداد من يده، زحف اليهم بجيشه والتقى بهم قرب تكريت، ودارت

ما بين الفريقين معارك دامية أسفرت عن أسوأ نتيجة لبختيار ، إذ وقع أسير ابن عمه بعد الايقاع بفلول جيشه وجيش أبي تغلب بن حمدان ، وسيق من ثَمّ إلى بغداد حيث علا السيف رأسه بإيعاز من عضد الدولة .

عضد الدولة وسلطانه في فارس

ولم يقف عضد الدولة عند هذا الحد من النفوذ ، إذ انـــه وهو البعيد المطامح الواسع المطامع، قد استطاع أن يضع حداً للنزاع الديلمي التركي، وراح يمد سلطان نفوذه ويوسع منه حتى شمل فارس والعراق والمقاطعات الايرانية مثل كرمان التي اقطعها ابنه شرف الدولة ، وخوزستان ، وامتد سلطانه حتى عُمان ، لانه استطاع القضاء على كل معارضة وقفت في وجهه ، وكان الخليفة الطـــائع ، يخشى سطوته ويعمل جهده ليحظى برضـاه ، حتى انه حين دخل بغداد خف الخليفـة اليه وخلع عليه خلعة السلطنة « وتوجه بتاج بجوهر وقلده سيفاً، وعقد له لواءين بيده، احدهما مفضض على رسم الامراء والاخر مذهب على رسم ولاة العهود ، ولم يعقد هـــذا اللواء الثاني لغيره قبله ، وكتب له عهداً وقرىء بحضرته [1] » .

وهذه الحفاوة المصطنعة ان دلت على شيء فانما تدل على أيّ حدّ من الضعف والهوان قد آل اليه النفوذ العربي ، وأيّ مبلغ من القوة والعنفوان بلغه العنصر الفارسي ، وكان رجال العلم والادب يتهـافتون على باب عضد الدولة ويصنفون له المجلدات العلمية والأدبية ، أمـا الطائع فقد أمر أن تضرب على ابوابـه المرباذي في أوقات الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب باسمه على منابر حاضرة العباسيين وفي المدن والأمصار العربية والفارسية [2] . وعهد اليه بادارة الدولة بكافة مرافقها وذلك بقوله: « قد رأيت أن افوض اليك ما وكل الله اليّ من امور الرعية في شرق الأرض وغربها ، وتدبيرها في جميـع جهـاته سوى خاصتي واسبابي » وبمعنى آخر :

---

١ ــ ظهر الاسلام ج ١ ص ٥٢

٢ ــ تاريخ الخلفاء ص ١٦٣

« كل ما وراء بابي !.. »

وكان من آداب الخلافة لدى «الطائع» ألا يفوته الخروج الى ظاهر بغداد للقاء عضد الدولة كلما رجع من رحلة استجمام، كما حدث عندما عاد من همذان الى بغداد عام ٣٧١ هـ ٩٨١ م وكانت هذه هي المرة الاولى التي يخرج فيها الخليفة لاستقبال أحد رجالاته، ومع ذلك لم يأل البويهيون جهداً باهانة وتحقير الدمية التي في أيديهم، وكثيراً ما كانت تقطع عنه الخطب ، ويجر ذليلاً في الشوارع ، وهو غير قادر إلا أن يحوقل ويندب حظه !..

اجلاء الحمدانيين عن مناطق نفوذ آل بويه

لكن تلك الاهانات التي كان يتقبلها الخليفة بذلة وضراعة ، كان لها ردود فعل عنيفة في قلوب العرب الذين كان يعزّ عليهم ان يروا الى رمز عزهم ومجدهم وسيادتهم الدينية ، ينحدر الى هذا الدرك من الضعة تتلعب به الاهواء ، ويدار كأي حجر من أحجار الشطرنج ، فكانت الانتفاضات والثورات لا تفتأ تعصف في ديار العراق برغم ما سار عليه البويهيون من سياسة العسف والعنف ، والقسوة والتنكيل ، وبذرهم الرعب في قلب كل من يجرؤ على الخروج عليهم ، فضلاً عن عصيان الجند المرة بعد المرة ، لذا رأى عضد الدولة أن من أسباب السلامة ابعاد الحمدانيين خير ممثل للعنصر العربي ، عن ديار العراق ، فشدّ عليهم ، واضطرهم إلى الجلاء عن مرابعهم في الموصل ، واستأصل نفوذهم من سائر ديار العراق ، وديار بكر وميا فارقين وآمد ومضر [1] .

صراع الأخوين : صمصام الدولة وشرف الدولة

وبعد وفاة عضد الدولة خلفه ابنه ابو كاليجار على العراق ، بملك يمتد من بحر قزوين شمالاً الى الخليج العربي جنوباً [2] ، واتخذ لقب «صمصام الدولة» كما وشحه

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٧

٢ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية تاليف الدكتور جمال الدين سرور ص ٥٧

الخليفة الطائع بلقب «شمس الملة» [1] لكن الدولة البويهية باستهلال حكم هذا الملك او الأمير ، كانت قد انشطرت على نفسها شطرين ، حكم هو شطراً وحكم اخوه شرف الدولة الشطر الثاني ، إذ كان عضد الدولة قد ولى هذا الأخير على كرمان ثم مد نفوذه على مقاطعة فارس ، ثم جمع تحت يده كل ما كان بامرة عم والده ركن الدولة كالري واصفهان وشيراز ، ومع ذلك لم يكن كل هذا مما يشبع مطامحه او يسد مطامعه وانما عقد النية على استخلاص العراق من يد اخيه « صمصام الدولة» ومهد لذلك بأن شرع يدس له الدسائس ليفسد عليه الملك ، حتى إذا زلزلت الأرض تحت قدميه عالجه هو بقوة السلاح .

وبالفعل فقد آتت الدسائس أكلها ، ولم تمض سنة واحدة على حكم الصمصام حتى سار شرف الدولة سنة ٣٧٣ هـ ٩٨٣ م [1] إلى الأهواز واحتلها ، وأخذ يعد العدة للاستيلاء على بغداد ، ومهد لذلك فوضع يده على واسط سنة ٣٧٦هـ ٩٨٦م .

وحينئذ رأى صمصام الدولة ان من الخير له ان يقصد أخاه بنفسه ويعقد معه الصلح ، وأبرم ما عقد العزم عليه ، لكن شرف الدولة عوضاً عن ان يأخذ بيد أخيه ، ويتعاون وإياه ، قبض عليه وساقه إلى بغداد ، حيث استقبله الخليفة كعادته ، مهنئاً إياه بالظفر ، وخلع عليه كما خلع على أبيه عضد الدولة من قبل . وقد رأى شرف الدولة ان من الخير له ، وتحاشياً للاضطراب في بغداد ، ان يبعد عنها أخاه فأرسله إلى مقاطعة فارس حيث اعتقل في إحدى قلاعها [2] .

وخيل إلى شرف الدولة ان الجو قد صفا له ، لكنه لم يكن يدري بمخبآت الأيام ، وحدث ان حاول ان يمد برقعة نفوذه إلى منطقة الجبل التي كانت تحت سيطرة بدر بن حسنويه ، والمعتقد كذلك انه كان ينوي استخلاص منطقتي الري وأصفهان من عمه فخر الدولة بن الحسن ركن الدولة ، ولكن مطامعه انقلبت

---

١ ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٧١
٢ ــ ابن مسكويه ج ٣ ص ١٢٠ ــ ١٢٤
٣ ــ ابن الاثير ج ٩ ص ٢٢

عليه ، إذ أصيبت جيوشه التي سيّرها للقاء ابن حسنويه بهزيمة منكرة ، واضطرته إلى التراجع ، بعد ان أوجد لنفسه عدواً خطراً ماثلاً في شخص ابن حسنويه الذي اشتهر أمره واشتد ساعده بعد انتصاره على جيش شرف الدولة ، وبات من المنتظر في كل لحظة ان يزحف على العراق ويستولي عليه .

القرناء الثلاثة

واضطربت أزمة السياسة في أيدي بني بويه بعد هذا الحادث ، وبلغ بهم الأمر أن تردد أبو النور الملقب ببهاء الدولة في قبول الحكم بعد وفاة أخيه شرف الدولة.

وكان شرف الدولة قد عين أحد أبناء البطائح أميراً عليها وخلع عليه لقب « مهذب الدولة » ، واستفاد هذا من تضعضع أمر بني بويه فتقوى بمنطقته وأعلن استقلاله فيها [1] .

وعوضاً عن ان يسعى بهاء الدولة إلى رتق الفتوق ، وسد الثغرات في الكيان الذي أخذ بالتفسخ ، كان يلح في طلب الأموال من الخليفة وهذا يشكو الضائقة ، فدبر أمر خلعه ، وأرسل اليه فسأله الإذن في الحضور ليجدد له البيعة فاذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة ، فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ، فلما دخل قبّل الأرض وجلس على كرسي ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة، فجذبه ، وأنزله عن سريره والخليفة يقول : « إنـّا لله وإنـّا اليه راجعون » وهو يستغيث ولا يُلتفت اليه ، وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر ، ونهب الناس بعضهم بعضاً، ولما حُمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أرغم على خلع نفسه[2] ، وبويع

---

١ ـ كانت البطيحة ارضا واسعا بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة والفرات منذ ايام كسرى فتبطح الماء في تلك الجهات فرحل اهلها عنها ، ثم جاء الاسلام وتغلب الماء على النواحي المجاورة حتى كانت السفن تسير فيها ، وبنوا القرى في المرتفعات التي لم يغمرها الماء ، وزرعوا الارز في بعض ارضها ، ثم تمكن اهل هذه الجهات في اوائل عهد بني بويه ان يؤمروا عليهم اميرا منهم ، وتحصنوا بالمياه والسفن ، وخرجت هذه الجهات عن طاعة الدولة العباسية (تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٥٠ ـ ٥١) .

٢ ـ ظهر الاسلام ج ١ ص ٥٤

للقادر بالله من بعده سنة ٣٨١ هـ ٩٩١ م .

وكان الشريف الرضي — الذي فاز بجلده إذ أسرع بمغادرة المجلس — حاضراً تمثيل تلك المأساة الدامية التي هزّت مشاعره وأجرت على لسانه قصيدة طويلة يقول فيها :

ومن بعد ما كان رب الملك مبتسماً | اليّ في النجوى ويدنيني
امسيت أرحمُ من اصبحتُ اغبطُه | لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني | يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات اغتر بالسلطان ثانية | قد ضلّ ولاّج أبواب السلاطين

وفيما كان بهاء الدولة يتلهى باللعب بالخليفة ، كان صمصام الدولة قد فر من محبسه في إحدى القلاع الفارسية ، واستطاع ان يؤلف قلوب اهل فارس والديالمة ، وشرع يستعد لاستعادة مجده الضائع في العراق ، وانتزاعه من يد بهاء الدولة . وقد استطاع في الواقع أن يستخلص مقاطعة فارس ويقضي على المقاومة فيها ، فأنفذ اليه بهاء الدولة جيشاً ليقضي على حركته لكنه مني بالهزيمة ، عندئذ اضطر على عقد الصلح ما بينه وبين اخيه ، على أن تكون الولاية على فارس وارجان لصمصام الدولة ، ويكون له العراق وخوزستان والاهواز .

على أن الصلح الذي عقده بهاء الدولة لم يكن سوى هدنة موقتة ليعاود الحرب بعدها ضد أخيه ، لاستخلاص ولاية فارس من يده ، بيد ان الحظ لم يواكبه في مغامرته هذه ، وتمكن صمصام الدولة من الاستيلاء على خوزستان كما سلخ الاهواز من حكم أخيه ، وقرر السير إلى بغداد ، فافتتح البصرة ، وشرع يعد العدة لدخول مدينة السلام ، لكن تحركات صمصام الدولة ما لبثت أن احبطت حين سارع صاحب البطائح لنجدة بهاء الدولة ، وانتهى الأمر بصمصام الدولة إلى الانسحاب إلى فارس ، وجرت الخطبة في البصرة للقرناء الثلاثة « صمصام الدولة ، وبهاء الدولة ، ومهذب الدولة » .

ولم يستتب الأمر لبهاء الدولة إلا بعد مقتل أخيه صمصام الدولة على أيدي ابناء بختيار انتقاماً منه لابيهم ، واستولوا على فارس والديلم ، حينئذ رأى بهاء الدولة أن

الفرصة سانحة ، وزحف بجيشه الى الشرق وتمكن من القضاء على ابنـــاء بختيار ، وانتزع حكم فارس من ايديهم ، وعاد البويهيون أسياد الموقف .

الصراع العنصري بين الترك والديلم

لم يطل سلطان البويهيين بعد وفاة بهاء الدولة ، وكان ابناء هذا البيت الحاكم ، هم بالذات علة فساد ملكهم ، لما اتصفوا به من الانانية والمطامع الشخصية ، وقتال الاخوة أو صراع ابناء العمومة ، غـــافلين كل الغفلة عما يدور حولهم في العالم الخارجي ، حتى أن ايامهم الأخيرة لم تكن سوى سلسلة من النزاع الداخلي ما بين أفراد هذا البيت ، ومحاولة كل من أفراد الاسرة أن يستقل بمقاطعة .

وزاد في اوضاعهم ضعفاً على ضعف الصراع العنصري الذي ظهر جلياً في فترة حكم جلال الدولة البويهي ٤١٦ — ٤٣٥ هـ ١٠٢٥ — ١٠٤٣ م مـــا بين الديالمة والأتراك ، وازدياد نفوذ الأخيرين ، وتغلغلهم التدريجي في سائر مرافق الدولة حتى غدوا يتدخلون في تولية السلاطين وعزلهم [1] ونهبوا دار السلطنة ، وثاروا على جلال الدولة وحاصروه في منزله مانعين عنه الطعـــام والشراب حتى توسط له الخليفة العباسي المقتدر ، وحتى اضطر جلال الدين إلى بيع اثاث بيته ليقدم ثمنه لهم [2] .

ومن أهم الأسباب التي اودت بهم ، ذلك الخلاف المذهبي الذي اندلعت نار فتنته في ايامهم ، إذ انهم من الشيعة ، والخليفة والأتراك من السنة ، وبلغ تردي الأوضاع حداً جعل معز الدولة يفكر حين دخل العراق أن يزيل الخلافـــة العباسية ويحل محلها خلافة محصورة في البيت العلوي ، لكنه أقلع عن فكرته هذه حين أشار عليه أحد اصحابه بقوله: « انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت واصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت واصحابك صحة خلافته ولو امرهم بقتلك لفعلوا [3] » .

---

١ — ابن الاثير ج ٨ ص ١٣٥
٢ — المرجع السابق ج ٨ ص ١٣٧
٣ — المرجع السابق ج ٨ ص ١٤٩

وفي هذه الفترة التي عمت فيها الاضطرابات أنحاء البلاد ، إلى جـانب تزعزع سلطان البويهيين ، ظهر على المسرح السياسي خطر خارجي تمثل بظهور السلاجقة الأتراك الذين أخذ نجمهم بالسطوع وقوي سلطانهم في فترة حـكم أبي كاليجار ، ووقعت بين الفريقين حروب أولية حول احتلال السلاجقة بعض الأراضي البويهية كهمذان ، ومساعدتهم الولاة المنشقين على أسيادهم ، مما كان يمهد لهم سبل السيطرة على الأقاليم الفارسية والعراقية . وقد وقعت هدنة بين الفريقين أوثقت بربـاط المصاهرة المتبادلة « فاستقر الحال بينهما على ان يتزوج طغرل بك (السلجوقي) بابنة أبي كاليجار ، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنـة الملك داوود أخي طغرل بك[1] » .

غير ان تلك المصاهرة السياسية لم تحل دون تحرك السلاجقة الذين انتزعوا الأقاليم البويهية ، في الوقت الذي كانت تتساقط تحت ضرباتهم أقاليم المملكة الغزنوية في ايران .

وسقطت آخر معاقل البويهيين في العراق حين أقدم الخليفة العباسي القائم على الاستنجاد بأعدائهم السلاجقة،لدرء خطر أحد قواده الأتراك واسمه البساسري وكان صاحب السلطان الفعلي في بغداد إثر تمرده على الخليفة العباسي وسيده البويهي أبي النصر «الملك الرحيم» في آن واحد ، ولقيامه بالدعوة للخليفة الفاطمي « المستنصر » في مصر .

ووجد طغرل بك الفرصة سانحة لتحقيق أهدافه، ودخـل بغداد سنة ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م وقضى على النفوذ البويهي ، وأنهى حكمهم الذي دام زهاء قرن وربـع (٣٢٠ – ٤٤٧ هـ ٩٣٢ – ١٠٥٥ م) ليقوم على أنقاضه صرح العهد السلجوقي .

---

١ ـ المرجع السابق ج ٩ ص ١٩٩

السلاجقة ونهاية الخلافة العباسية

السلاجقة في طور النشوء

كانت الدولة الاسلامية ، في بدء العهد العباسي الثاني ، مسرح نزاع بين العصبيات الفارسية والتركية والعربية ،ولم يستطع العنصر العربي الثبات أمام ندّيه لعدم قدرته على الوصول إلى مرافق الدولة وقيادة الجيش ، ولذا ما عتم ان انسحب من الميدان ليعاود جمع قواه ، وليكون له دولته بانتثار عقد الامبراطورية إلى دويلات شكل فيها العرب الدولة الحمدانية في الموصل أولاً وشمالي سورية كلها ثانياً.

واشتد على اثر ذلك الصراع في شمالي الخليج وشرقيه بين العنصرين الآخرين الفارسي والتركي ، يحاول كل منها أن يستأثر بالحكم ويقود دفة البلاد ، وكل منهما يسعى للاطاحة بالثاني ليتسنى له الحكم منفرداً .

والسلاجقة هم أحد العناصر التركية ، وكانوا في بادىء أمرهم قبائل نزحت مع اطلالة القرن التاسع الميلادي ، من تركستان إلى الأقاليم الايرانية ، واستمر تدفقهم المطرد حتى باتوا يشكلون أقليات لا يستهان بها ، تعاظمت قوتها تدريجياً ، وتحددت فعاليتها بشكل واضح ابان ظهور مؤسسها الحقيقي سلجوق ، وذلك مع غروب القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي .

ولقد شهدت هذه القبيلة التركية قيام الدولة السامانية وامتداد نفوذها على رقعة عظيمة من الاراضي الايرانية ، وانسياحها حتى أواسط آسية حيث كانت تستقر

تلك القبيلة ، فتقرب رؤساؤها إلى حكام الدولة ، ودخلوا في طاعتها قواداً وجنوداً، وحين بدأت الدولة الغزنوية تمثل دورها في أقصى المناطق الايرانية والسند،وحاولت بسط نفوذها على جارتها السامانية ، أدى ذلك إلى اشتباك الدولتين بطاحن الحروب فانحاز السلاجقة إلى السامانيين ضد الغزنويين وشدوا من أزرهم في حروبهم، فكافأهم هؤلاء بالنزول في أراضيهم والسماح لهم بالاستقرار قريباً من شاطىء نهر سيحون [1]

وحين انهارت الدولة السامانية أخيراً تحت ضربات الغزنويين في الشرق والبويهيين في الغرب والشمال ، وحاول كل من الفريقين مد نفوذه على انقاض الدولة السامانية ، اهتبلها السلاجقة فرصة سانحة ليستقلوا بالمناطق الواقعة في أيديهم ، وسعوا لانشاء دولة خاصة بهم .

بين السلاجقة والغزنويين

ورأى الغزنويون أنفسهم فجأة أمام قوة هائلة تقف في طريق زحفهم ، فآثروا ألا يثيروها حرباً عواناً بينهم وبين السلاجقة لما عرف عن أبناء تلك القبيلة من كثرة العدد وقوة الشكيمة ، ناهيك عن انها فرع من الدوحة التركية التي ينتسب اليها الغزنويون أيضاً .

« وفي نزول سلجوق ، حوالي سنة ٣٦٠ هـ ٩٧٠ م مع قبيلته من بادية القيرغيز إلى جند حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم اورال ، ومن ثم انتقالهم إلى بخارى بالقرب من الدولة السامانية ، اعتنق افراد القبيلة الدين الاسلامي وانحازوا إلى المذهب السني المتلائم مع عقولهم البسيطة ، فاقبلوا على هـذا المذهب واعتنقوه بكل ما في نفوسهم الفظة من القوة والحماس الفطري [2] » وعرفوا بالتركمان اللقب الذي اشتهروا به بعد دخولهم في الاسلام .

وبعد وفاة مؤسس الدولة السلجوقية تولى زعامة القبيلة ابنه اسرائيل وكان ذلك

---

١ ــ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٤ ص ٥٢
٢ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢٤ ــ ١٢٥

في فترة حكم محمود الغزنوي الذي رأى الخطر المحيق بدولته مجسماً بهذه القوة الفتية ، ورأى أن يأخذ السلاجقة بالخديعة والحيلة ، فأبدى تودده اليهم، ثم طلب من قائدهم أن يوافيه بحجة التفاوض معه ، فانطلت الحيلة على اسرائيل ، وما ان وصل إلى البلاط الغزنوي حتى اودع في غيابة السجن . وقد اعتقد الغزنوي انه قضى بذلك على رأس الخطر ، في حين ان الامور جرت في التيار المعاكس تماماً ، إذ ما كاد السلاجقة يعلمون بخديعة الغزنوي حتى اجتمعت كلمتهم على اخيه ميكائيل ، فعقدوا له لواء القيادة عليهم ورفعوه الى دست الحكم .

وكان ميكائيل من الدهاء والبصر بقوة جيرانه الغزنويين ، ما جعله يتريث عن اقحام نفسه وقبيلته في خضم معركة لا يعرف مصيرها ، لما ذاع من اخبار فتوحات الغزنويين في الهند ، وارتفاعهم إلى اوج القوة العسكرية باستيلائهم على اشلاء الدولة السامانية [1] . واصفهان وسجستان [2] فضلاً عن اشتباكهم والبويهيين في الري وبلاد الجبل .

غير أن امد المهادنة والتظاهر بالمسالمة لم يدم طويلاً بين الفريقين ، واعتزم محمود الغزنوي ان يخضد من شوكة جيرانه قبل أن يستشري خطرهم ، وقيل انه كان يعتقد بان نهاية دولة الغزنويين – رغم ما بلغته من قوة ومجد في عهد هذا الفاتح الكبير – ستكون على يد السلاجقة [3] ، وذلك لما عرف عنهم من كثافة العدد ، وقوة الشكيمة ، كجميع الشعوب التركية التي هي والشجاعة صنوان ، وطفق محمود الغزنوي يعد العدة لغزوهم ، ولم يلبث أن اخذهم على حين غرة واجتاح بجيشه ديارهم ، واوقع بهم هزيمة منكرة ، وشتت عصائبهم في كل حدب وصوب وذلك عام ٤١٨ هـ ١٠٢٧ م ، ولم يطل حكم ميكائيل بعد تلك الكارثة التي المت بقبيلته إذ توفي على اثرها، وانتقل الحكم إلى ابنيه جفرى وطغرل اللذين سعيا لتضميد الجراح

---

١ – ابن الاثير ج ٩ ص ٥٤
٢ – المرجع السابق ص ٦٤ – ٦٥
٣ – تاريخ ايران ص ١٢١

النازفة بكيانهم ، واعادة القبيلة الى ما كانت عليه من قوة ومنعة ، وزاد في آمال السلاجقة انتعاشاً ما تناهى اليهم من نبأ وفاة الفاتح الكبير محمود الغزنوي ، الذي كان مجرد وجوده يبعث الخوف في قلوبهم .

وبدأ سوس الفساد ينخر كيان الدولة الغزنوية بعد وفاة السلطان محمود عام ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م ، إذ انه اوصى بولاية عهده لابنه الاصغر محمد ، مما شجر عنه الخلاف في البيت الغزنوي ، وتصدى لمحمد أخوه الأكبر مسعود الذي تولى حكم العراق وما يليه في حياة والده [1] . فاستغل السلاجقة هذه الفرصة وطفقوا يعدون العدة للزحف على الغزنويين الذين ذهب ريحهم في حروب عائلية أسفرت عن ازاحة محمد من الطريق واعتلاء مسعود العرش الغزنوي .

وشبت نيران الحرب ما بين السلاجقة والغزنويين ، واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً ، غير أن السلاجقة كانوا في طور الفتوة والنمو ، على حين كان الغزنويون في طور الشيخوخة والانحدار للغروب ، ولم يلبث السلاجقة ان خضدوا شوكة الغزنويين وزعزعوا سلطانهم في ايران ، والحقوا بهم هزيمة شنعاء في موقعة سرخس عام ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م وبذا انحسر ظل السيطرة الغزنوية عن تلك البقاع ، ولم يبقوا غير عصائب وفلول اجتمعت من جديد تحت قيادة الملك مسعود الذي آثر ألا يشتبك بمعارك جديدة مع السلاجقة ، وولى وجهه شطر الهند فاتحاً .

قيام الدولة السلجوقية

وقامت دولة السلاجقة باستيلائهم على خراسان وبلاد ما وراء النهر من الغزنويين ، وأصبحوا ذوي ملك بعد أن كانوا يعيشون حياة القبيلة ، ويرجع فضل تأسيس تلك الدولة إلى طغرل بك الذي اعترف به الخليفة العباسي وأقره على ما بيده عام ٤٣٢ هـ ١٠٤٠ م .

ولم يقف السلاجقة عند المدى الذي بلغوه ، وانما استمروا في زحفهم غرباً ،

---

١ ـ تاريخ ايران ص ١١٨

ومدوا رواق دولتهم على غزنة وطبرستان وخوارزم[1] كما ضموا اليها بلاد الري واصفهان لينعطفوا بعدها إلى منازعة البويهيين ملكهم الذي تسرب اليـــه الضعف والوهن ، وسرعان ما تقوض تحت ضرباتهم الصاعقة .

وبذا ظهرت الدولة السجلوقية على المسرح التاريخي، كغابر الدول التي سبقتها، والتي مرت بخط بياني صاعد قوة واتساع رقعة واستشراء نفوذ حتى بلغت القمة ، وبتعبير هندسي : النهاية العظمى،لتنحدر بعدها بحركة دورية متناوبة إلى الحضيض، بعوامل التفسخ السياسي والضعف العسكري ، لتفسح المجـــال لقيام دولة أخرى يتطاول صرح بنيانها على انقاضها لتمر في الاطوار التي سبقتها ، وهكذا دواليك ، تمثيلًا لقانون تصارع الاضداد في النشوء والارتقاء ، ذلك الصراع المتجـــلي بصورة حفظ البقاء ، وحق الاقوى بالثبات أمام العوامل السياسية والقوى المعاكسة .

السلاجقة والخلافة العباسية

بينا كانت كفة السلاجقة ترجح في شرقي الخليج آخـــذة في النمو والتطور والازدهار ، كانت الخلافة العباسية مغلوبة على أمرها ، وحكم البويهيين يمر في آخر أطواره من الوهن والانحلال ، وذلك لضعف آخر سلاطينهم « الملك الرحيم » ، ونرى لزاماً علينا ان نلم بالاحداثالتي تعرضت لها الخلافة العباسية وآلت إلىدخول السلاجقة بغداد .

في ظل الخليفة القائم سنة (٤٢٣ – ٤٦٨ ﻫ ١٠٣١ – ١٠٧٥ م) ظهر على المسرح السياسي أحد القادة الاتراك واسمه السباسيري ، وقام بحركة عصيان على الدولة ، ثم ما عتم ان استبد بالحكم ، وأضحى كل من الخليفة القائم ، والسلطان البويهي الملك الرحيم ، مجرد بنيدقين في رقعة شطرنجه يحركهما كيفما شاء ، وحسبما يملي عليه هواه،حتى بلغ الأمر أن طفق يخطب للخليفة الفاطمي المستنصر ويدعو له. ورأى الخليفة « القائم » الذي سبق له أن أقر طغرل بك على المنطقة الشرقية

---

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢٥

الواقعة ضمن حدود ايران،أن يستعين به ليتمكن من اعادة الاستقرار إلى العراق، والأمر بالنسبة له لا يعدو مجرد استبدال حماية سلطان بويهي بآخر سلجوقي ، بعد أن أفلتت سائر الأزمّة من يده ، وجرد حتى من سلطته الاسمية ، فاستنجد بمؤسس الدولة السلجوقية طغرل بك ، وكان قد بسط نفوذه على الشرق واستقر آخر أمره في حلوان .

وتبدت لطغرل بك الفرصة سانحة لا تفوّت ، فخف لانتهازها ، ودخل البلاد بجيشه بالصفة الرسمية ، دون أن يلقى أية مقاومة ، واستقبله الخليفة العباسي بالترحاب ، وأطلق عليه لقب « يمين أمير المؤمنين » ، فخضعت له البلاد العباسية ، كما أقرّ به السلطان البويهي ، وبدأت – منذ تلك الفترة – تتردد في الخطب على المنابر ، اسماء القرناء الثلاثة : الخليفة العباسي ، فالزعيم السلجوقي ، ومن ثم السلطان البويهي !

غير ان السلجوقية ، هذه العنصرية الجديدة التي كانت تعيش أوج عظمتها العسكرية وقوتها السياسية،قد رأت في وجود السلطان البويهي انتقاصاً من سيادتها، والسنديانة القوية الجذور –كما يقول لافونتين – لا ترضى بأن يكون بجانبها شجرة السعتر الضعيفة ، ولذا لم يتردد طغرل بك في حذف اسم السلطان البويهي من الخطب على المنابر ، ثم اصطنع من المبررات ما ألقى به القبض عليه واستاقه مكبلاً بالحديد إلى الري حيث توفي في إحدى قلاعها عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨م ، وبذا زال آخر ظل للحكم البويهي ليضطلع السلاجقة بمهام الأمور كلياً بادارة دفة الحكم في الامبراطورية العباسية .

تثبيت الحكم السلجوقي في العراق

على الرغم من ان معظم البلاد العربية والفارسية قد خضعت للحكم السلجوقي ، إلا انه قد واجهت طغرل بك مشكلة تدعيم سلطانه في العراق ، وذلك لاستمرار ثورة البساسيري القائد التركي السابق في جيش الخليفة العباسي ، الذي رأى فيه السلطان السلجوقي خطراً قائماً يهدد البلاد ، ولذا بادر بالضرب على حركة التمرد

حالما تمت له السيطرة الكاملة ، بعد إبعاد العنصر الفارسي المتمثل بالبويهيين .

وكان البساسيري – ابان دخول طغرل بك إلى العراق – قد فرّ إلى شمالي بغداد قاصداً الموصل ، وعقد حلفاً عسكرياً مع إحدى القبائل العربية التي شكلت لنفسها حكماً ذاتياً مستقلاً عن بغداد دعته بالدولة « العقيلية » ، وبعد أن تم هذا التحالف سار الفريقان إلى الموصل وافتتحاها عنوة [1] . وتحصن القائد الثائر وراء حصونها واستمر في دعوته للخليفة الفاطمي .

إلا ان طغرل بك لم يفسح المجال للقائد الثائر كي ينعم بالاستقرار في الموصل ، بل زحف اليه بجيوشه ، ودخل الموصل ، وتمكن من اخماد الثورة فيها بعد سنتين من قدومه إلى بغداد ، إلا انه لم يقض على رأس الفتنة التي طفقت تظهر برؤوس جديدة ، وذلك ان البساسيري قد فرّ إلى الشام ، بينما انفصل عنه أحد أخوته لأمه واسمه ابرهيم بن نيـال ، وانقلب إلى همذان [2] ، وكانت ثورته الجديدة أضرى وأشد أواراً من ثورة البساسيري ، ولذا رأى طغرل بك أن يتفرغ لها لينقلب بعد ذاك إلى البساسيري ، ولحق بابرهيم إلى همذان ، غير ان هذا أبدى مقاومة ضارية ، مما حمل طغرل بك على الاستعانة بابن أخيه الب ارسلان بن داوود ، وكان آنذاك حاكماً على سجستان ، وسارع ابن الاخ لنجدة عمه ، وتمكن الاثنان من إلحاق الهزيمة بابرهيم بن نيال في شرقي همذان ، وظلا يتعقبانه حتى الري حيث وقع أسيراً بقبضة طغرل بك ، فاستل انفاسه وقضى على حركته عام ٤٥١ هـ ١٠٥٩ م .

وفيما كان طغرل بك يتعقب ابرهيم ، استغل البساسيري هذا الحدث ، وزحف نحو العراق دون أن يلقى أية مقاومة ، وانقلب إلى بغداد ، فلم يرَ الخليفة «القائم» بدأ من الاستجارة بحليف عدوه العقيلي ابن بدران ، فأجاره رغم محالفته البساسيري ، وكان هذا الاخير قد بات خلال عام كامل (٤٥١–٤٥٢ هـ ١٠٥٩–١٠٦٠ م) حاكم بغداد والتابع الوفي للخليفة الفاطمي « المستنصر » في مصر . وبقي الوضع

---

١ – التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٤ ص ٥٥

٢ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢٧

على ذلك حتى اخماد فتنة ابرهيم ، وانقلابه إلى العراق حيث اشتبك مع البساسيري. في آخر معركة عام ٤٥٢هـ ١٠٦٠م وقد دارت رحاها في القرب من واسط،وكانت بها نهاية البساسيري وقد سقط قتيلاً .

وأعيد الخليفة العباسي القائم من جديد إلى سدة الخلافة ، فخلع على طغرل بك لقب « ملك الشرق والغرب » لليد البيضاء التي أسداها للخلافة العباسية واعادة بعض ما كان لها من جلال غارب .

والواقع ان السلاجقة كانوا على خلاف أسلافهم الفرس والترك بمعاملتهم الخلفاء، إذ ربطت علاقات الود والمصاهرة ، ما بين الفريقين ، ودأب السلاجقة على اظهار الاحترام والاجلال للخلفاء العباسيين رغم سيطرتهم المطلقة على كافة مرافق الدولة ، كما عزي هذا الولاء لاعتناق الطرفين مذهباً واحداً هو المذهب السني الذي أشربت به نفوس السلاجقة ، وأدى هذا الاحترام المتبادل إلى نتيجة طيبة في توحيد الجهود ورص القوى لإعادة الاستقرار إلى الدولة العباسية خلال الحكم السلجوقي .

السلاجقة وتوطيد دعائم الحكم خارجياً

بعد وفاة طغرل بك سنة ٤٥٦ هـ ١٠٦٣ م كانت السيطرة السلجوقية قد بسطت سلطانها على رقعة عظيمة الاتساع من الامبراطورية الاسلامية المتجزئة ، وكان نفوذهم يشمل منطقة الخليج بشماله وشرقيه ، ولا سيما في المناطق الشرقية الموغلة في أعماقها ، وتولى الب ارسلان ، وتعني الأسد الظافر ، مقاليد الحكم بعد طغرل بك ، وسار على نهجه في توطيد دعائم الحكم وتوسيع رقعة الدولة السلجوقية التي ظلت سلطتها السياسية متركزة في الري دون بغداد،وكانت سابقاً في نيسابور.

ويُعدّ الب ارسلان في تاريخ الدولة السلجوقية من أعظم السلاطين قوة خلق اقترنت بشجاعة نادرة المثال ، فبعد أن قضى على الحركات المناوئة له في الداخل ، أخضع لحكمه بعض المناطق الشرقية كولاية سيران ، ثم قاد حملات موفقة على الروم البيزنطيين ، وصد هجوماً بيزنطياً ، وألحق بالجيوش الرومية هزيمة منكرة في ملازكرد حيث وقع الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينوس أسيراً في أيدي

السلاجقة في سنة ٤٦٤ هـ ١٠٧١ م [١] ، إلا انْ السلطان السلجوقي الب ارسلان أظهر من ضروب الشهامة ما حرك عوامل النبل في اعماق الامبراطور ، إذ أمر بفك قيوده واطلاق سراحه بعد أن أكرمه غاية الاكرام .

غير ان هذه الحادثة لم تعطِ ثمارها المرتجاة ، فيتوطد السلام ما بين الدولتين ، لأن الامبراطور رومانوس ما كاد يرجع إلى دياره حتى وثب عليه الامبراطور ميخائيل السابع ، ورمى به في غيابة السجن ، إذ شاء سوء طالعه أن يكرم على أيدي أعدائه ، ويذلّ بأيدي بني جلدته ، وقدر للاوضاع والعلاقات الخارجية أن تسوء بين السلاجقة والبيزنطيين .

ووجه السلطان السلجوقي الب ارسلان همه الى اضعاف النفوذ الفاطمي في سورية ، وتمكن من انتزاع دمشق من أيديهم ، فكانت دولته الفعلية تمتد من بلاد الشام حتى ضفاف نهر جيحون [٢] .

لكن على الرغم مما تحلى به الب ارسلان من شجاعة وبسالة ، واسراع لخوض غمار الصعاب ، لم تستقر له أوضاع الملك استقراراً تاماً ، وقد هبت في وجهه ثورة عاصفة ، في اقليم خوارزم نواة الدولة السلجوقية ومركزها الأساسي ، وامتدت نيرانها حتى نهر جيحون ، فسارع الفاتح على رأس جيش عدته مئتا الف مقاتل لحصر نار تلك الثورة اللاهبة ، لكنه لقي في ذلك عناداً بالغاً لاستبسال الثائرين وضراوة أحد قادتهم واسمه الأمير يوسف الذي لم تكسر شوكته إلا بعد أن مني جيشه بخسائر فادحة ،ومع ذلك فقد تمكن هذا الثائر رغم أخذه أسيراً من ان يفاجىء السلطان على حين غرة ويسدد اليه طعنة أودت بحياته ، وذلك عام ٤٦٥ هـ ١٠٧٢ م .

وانتقل الحكم السلجوقي بعد ذلك إلى ابنه السلطان ملكشاه ، غير انه كان قاصراً ، فقام وصياً عليه الوزير نظام الملك الذي لعب الدور الكبير في توطيد الحكم السلجوقي ، وكان رجل دهاء وسياسة ، وقائداً عسكرياً لامعاً .

---

١ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢٧
٢ ــ تاريخ ايران ص ١٢٤

لقد نهض نظام الملك باعباء الادارة والتوجيه السياسي ، وكان العقل المفكر ، والحاكم المدبر الذي يعود اليه فضل تثبيت دعـائم الحكم السلجوقي ، والقبض بيد حديدية على مقاليد الامور ، وتدعيم سلطان ملكشاه الذي ثار عليه عمه فتلقاه نظام الملك بضربة سريعة وحمله اسيراً الى إحدى القلاع الخراسانية، ولكن اتسع الخرق عندما قامت حركة عصيان في الجند تأييداً لعم الملك الأسير، ورغم حرص ملكشاه على حياة عمه ، فقد اتى الوزير سراً بالرجل الثـــائر وقتله في العاصمة السلجوقية ، فخمدت نيران الفتنة حين فقد الثوار زعيمهم .

وسار السلطان ملكشاه على نهج والده ، وتمكن بفضـــل وزيره الذي يتحلى بصفات نادرة من الفضل والحكمة،والذي رعى الحكماء والفقهاء وسائر رجال القلم، من الغزالي إلى الخيـــام ، وانشأ المدارس النظامية ، التي تعد من اقدم جامعات العالم [1] ، وكان إلى جانب ذلك رجل حرب وشجاعة ، وكثيراً ما رافق سلطانه بحملاته العسكرية،وقد تمّ في عهد ملكشاه انتزاع كافة سورية من أيدي الفاطميين، وكانت كل من دمشق وبيت المقدس ولاية سلجوقية .

حركة الحشاشين

وفي عهد ملكشاه قامت حركة باطنية ، كان لها دور كبير في زعزعـــة الحكم السلجوقي ،.وهي حركة الحشاشين التي بثت الرعب والذعر في الاقطار الاسلامية ، وداعية هذه الحركة رجل فـارسي الاصل يدعى الحسن ابن الصبـاح اشربت روحه مبادىء المذهب الفاطمي ، وقد دخلت عناصر كثيرة في تلك الدعوة ، منها الحركة الاسماعيلية البـاطنية التي امتدت جذورهـا في شرقي الخليـج . وقد بدأ خطر هذه الجماعة يشتد حينما استولت على قلعة الموت (ملجأ العقبان) الواقعة بالقرب من بحر قزوين ، ومن هناك استطاعت أن تبسط سلطانها على كثير من المناطق المتاخمة ، كما

---

١ ــ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٤ ص ٥٩

استولت على عدة قلاع في كل من فارس وسورية[1]، وبدأت تهدد الحكم السلجوقي، وقد سددت اليه طعنـــة نجلاء حين انفذت حكم الموت بنظام الملك سنة ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م[2]، ومن المعتقد أن ملكشاه كان على عـــلم بالمؤامرة التي حيكت على حيـاة وزيره، ولكنـه غض الطرف ليتخلص من سلطان وزيره القوي على الدولة السلجوقية !..

ولقد استمرت هذه الحركة حتى ما بعد تاريخ الدولة السلجوقية، وعاصرت الدولة الأيوبية، ولم يقض عليها إلا مع الزحف المغولي على فارس حوالي عـــام ٦٥٩هـ ١٢٦٠م[3].

وبعد مقتل نظام الملك فكر ملكشاه بـــأن ينقل مقر حكمه من الري إلى بغداد، غير أن المنية عاجلته قبل ان يحقق مـا عقد العزم عليه، وكانت وفاته في السنة التي لقي فيها الوزير المصلح مصرعه.

بوادر الضعف والانقسام

وأخذت المكائد والدسائس تلعب دورها بعد وفاة ملكشاه، وذلك ان ارملة الملك السلجوقي السلطانة خاتون أرادت أن ترفع ابنها الصغير محمود الذي لم يشب عن الطوق إلى سدة الحكم، رغم وصية ملكشاه الواضحة التي سمّى فيهـا خلفاً له ابنه الاكبر بركيارق، ولقد أبدى الخليفة العباسي المقتدي (٤٦٨ – ٤٨٧ هـ ١٠٧٥ – ١٠٩٤ م) استعداده للاعتراف بسلطة محمود، مما دفع بركيارق، ومن ورائه أبناء الوزير نظام الملك، للتحرك استرداداً لحقه، واجتمعت لديه من القوى ما آنس فيهـا القدرة على توجيه الضربة الصـــاعقة، وتمكن من القبض على أخيه وأرملة أبيه، وقتلها معاً خوفـــاً من وقوع الاضطرابات من جديد كما انتقم من الخليفة العباسي بقتله لاعترافه بأخيه محمود.

---

١ – ابن الاثير ج ١١ ص ٥٢

٢ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٣٩

٣ – التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج ٤ ص ٦٧

بيد ان الأمر لم يستتب للسلطان السلجوقي بر كيارق الذي خيل اليه ان الجو قد صفا له ، إذ شبت من جديد ثورات أخرى متتالية ، كانت سبباً في تخلخل الحكم السلجوقي الذي بدأ يدب اليه الضعف مع وفاة ملكشاه ، فقد قامت ثورة بقيادة عمه تتشر بن الب أرسلان عالجها بقوة وقضى على مدبرها خلال زحفه على فارس عام ٤٨٦ هـ ١٠٩٣ م ، ثم أعقبتها ثورة أخرى كان رأسها عم آخر له يدعى أرسلان اورغون أعلن استقلاله في خراسان ، فقضى عليها أيضاً ليواجه ثورة أعنف يقودها كل من أخويه محمد الذي كان والياً على أذربيجان وسنجر والي خراسان ، وسارا قاصدين مقر حكمه في الري ، وأعمل الملك السيف ولكن سيفه فلّ بوجه هذين الخصمين العنيدين ، فاضطر إلى الفرار منسحباً بفلول جيشه إلى جبال دامغان ، ومن هناك دارت المفاوضات بين طرفي النزاع وأسفرت عن عقد الصلح عام ٤٩٧ هـ ١١٠٣ م على أساس اقرار السلطان بر كيارق أخويه على ما في أيديهما ومنحهما الاستقلال الذاتي .

وما عتم بر كيارق أنْ توفي إثر هذه المصالحة عام ٤٩٨ هـ ١١٠٤ م ، وحين بلغ خبر وفاته أخاه محمد انتهز الفرصة لتحقيق مطامحه في الحكم ، فبسط سيطرته على الدولة السلجوقية بعد أن اقصى ابن اخيه اياس بن بر كيارق ، وعمل محمد طوال فترة حكمه التي امتدت من عام ٤٩٩ الى عام ٥١٢ هـ ١١٠٥ — ١١١٨ م على اعادة استتباب الأمن إلى ربوع دولته ، ووجه همه إلى حركة الحشاشين ، وتمكن من الاستيلاء على معظم حصونهم ، وكان في اخريات أيامه يحاصر قلعة ألموت ، غير أن المنية عاجلته قبل ان يستولي عليها ، وكذلك سعى إلى إخماد بعض الحركات الاستقلالية التي قامت في بلاده وقد لعبت الدولة السلجوقية في عهده دوراً كبيراً في مقاومة الزحف الصليبي إذ تلقت ضرباته الأولى .

انهيار السلاجقة

لقد كانت تلك الأحداث تشير إلى ظهور عوامل التفسخ في الدولة السلجوقية ، وبخاصة تلك الثورات التي اضرم لظاها افراد الاسرة الحاكمة بعضهم ضد بعض ،

والتي رافقتها الحركات الاستقلالية التي قام بها الولاة التابعون للدولة .

وبعد وفاة السلطان محمد خلفه ابنه محمود وكان ضعيف الهمة فاتر العزم ، مما دفع بعمه سنجر والي خراسان إلى أخذ زمام المبادرة ، وجعل ابن أخيه يعمل طوع اوامره ، ثم استأثر بالحكم ، وعين افراد الاسرة السلجوقية ولاة على الأقاليم ، ونهد للضرب على أيدي المشاغبين واخماد حركات التمرد في مهدها ، فنعمت الدولة بفترة من الاستقرار ، ولكنها لم تدم طويلاً ، وذلك لنشوب الحرب ما بينه وبين التتر ، إذ قام الأمير التتري غورخان يناوئه ، فلم يتردد سنجر في منازلته ، وجرد عليه حملة عسكرية قادها بنفسه ، ولكن غورخان أنزل بالسلطان السلجوقي ضربة قاصمة ،واضطره إلى التراجع مع فلول هزيلة من عسكره نجت من الموت باعجوبة.

ومن ثمّ آذن نجم هذه الدولة القوية بالغروب ، إذ عادت الثورات سيرتها الأولى ، وكان ثمة قبيلة من التركمان تدعى الغز ، وقد ارتبطت مع السلاجقة بتاريخ المنشأ ، فلما رأت ضعف السلطان السلجوقي قطعت الجزية التي كانت تدفعها له ، فرأى لزاماً عليه أن يخوض غمار الحرب ضدها ، وسار ليلقن تلك القبيلة درساً في الطاعة ، لكن القبيلة كانت على أتمّ الاستعداد لملاقاة السلاجقة ، فأنزلت بساحتهم ضربات قاتلة من بعضها وقوع السلطان سنة ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م أسير قبضتهم ليذيقوه كل ضروب المذلة والمهانة ، وقد تمكن من الفرار ولكنه لم يعش طويلاً بعد هذه الحادثة الدامية، وتوفي سنة ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م وكانت الدولة قد انتهت إلى طور التجزئة والتفكك ، وسادت الفوضى جميع أنحائها .

ولقد استمرت الحال على هذا المنوال طوال اربعين سنة لم تعرف البلاد خلالها معنى للهدوء والاستقرار ، وكل حاكم يستبد في مقاطعته ويسعى للطغيان على جاره واستلابه ما بيده ، وأخذ ذلك العود النضر من دوحة الدولة يذوي شيئاً فشيئاً ، حتى تقصف نهائياً وقد ناهز حكمها قرناً ونصف قرن ، وكان آخر سلاطينهم طغرل بك الثالث .

وشرعت الدول الصغيرة بعد انقراض الدولة السلجوقية تأخذ بالظهور والنمو ، وأهمها الدولة الخوارزمشاهية التي لعبت دوراً كبيراً في تقويض دولة السلاجقة

وذلك بقضائها على آخر سلاطينهم .

لقد اجتمعت على السلاجقة عدة عوامل من عناصر التهديم وذلك صرح الدولة أهمها :

١ – قيام الثورات على الاسرة السلجوقية الحاكمة .

٢ – الزحف الصليبي ، وقد نجم مع بدء تفكك الدولة .

٣ – الحركات الاستقلالية .

٤ – حركة الحشاشين التي أشاعت الفوضى والاضطراب في البلاد ، ولم تستطع الدولة السلجوقية استئصال شأفتها .

بعث الخلافة

وفي غرة هذا الزحام من تصارع الولايات ووثوب الولاة بعضهم على بعض ، اهتبل الخليفة العباسي الناصر (٥٧٦ – ٦٢٢ هـ ١١٨٠ – ١٢٢٥ م) فرصة ضعف النفوذ السلجوقي ، فاعلن استقلاله ببغداد واستطاع أن يحررها من طغمة أمراء الجيش [١] ثم شرع يتطلع إلى توسيع رقعة سلطانه ، وتوجهت مطامعه إلى ضم الولايات التي كانت تابعة للحكم السلجوقي ، ورأى هذا الخليفة أن يعتمد على الشيعة والحركة الباطنية ، وقد خضع لسيطرته زعيم حركة الحشاشين ، كما كان عهده عهد ازدهار العنصر العربي المتمثل في حركة الفتوة التي قامت بأعمال بطولية باهرة لرد الاعتبار للعرب ، وكان الخليفة هو الرئيس الأعلى لهذه الحركة التي تعد حسب رأي الدكتور عبدالعزيز الدوري من أقوى الجذور التاريخية للقومية العربية .

وقد وجه الخليفة الناصر وزيره ابن القصاب (مؤيد الدين محمد بن علي) على رأس حملة عسكرية في اتجاه الشرق ، وتمكن هذا الوزير من فتح خوزستان والاقاليم الفارسية المجاورة [٢] .

---

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٨ .

٢ – المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

إلا ان أحد الحكام السلاجقة واسمه تكش ، تمكن من استرجاع بعض المناطق التي سلخها الخليفة العباسي من يده . فاتجه الخليفة إلى الفتوحات في غيرها من الاقطار ، محاولاً أن يعيد للخلافة فتوتها ، لكن تلك المهمة كانت فوق طاقته وطاقة أي انسان غيره ، إذ نشأت آنذاك قوة ضارية ضخمة اجتاحت البلاد كالأعصار الساحق ، وقضت على الخلافة العباسية ، ونعني بها الغزو المغولي .

والواقع ان تاريخ تلك الحقبة كان مشحوناً بجليل الاحداث ، ولكننا ضربنا عنها صفحاً حرصاً منا على البقاء ضمن نطاق تاريخ الخليج العربي .

الغزو المغولي والاستيلاء على ايران

في الوقت الذي كانت تتردى فيه الاوضاع وتسوء في جنوبي غربي آسية، نجمت في الشرق قوة غلابة كاسحة تجتاح الممالك والدول اعصاراً مدمراً، وهي قوة المغول التي تمكن زعيمها جنكيزخان من بسط نفوذه على كافة مناطق الصين ، ثم راح يتطلع إلى فتوحات جديدة واخضاع الدول القائمة غربي بلاده ، وما عتم ان امتد زحفه إلى ايران ، وكانت الدولة القائمة فيها آنذاك هي الدولة الخوارزمشاهية ، وقد أرسل من لدنه بعثة إلى الشاه محمد برسالة تحمل معنى تبعية الدولة الخوارزمشاهية لسلطانه ، إذ لقب السلطان الخوارزمشاهي « بابنه الأثير » فقتل السلطان محمد رسل جنكيزخان ، مرتكباً بذلك خطأ فاحشاً أثار به العداوة بينه وبين المغول وفتح على نفسه النار .

وردّ جنكيزخان على الاهانة بأن جيّش جيوشه وزحف بها على الدولة الخوارزمشاهية ليزيلها من الوجود ، وعوضاً من أن يصمد السلطان محمد لقوى المغول وينازلهم منازلة الرجال ، لأنه رب جيش ضخم وقوي ومنظم ، فقد آثر التحصن وراء قلاعه ، ومتى كانت الجدران تصمد لقوى الاجتياح ! ..

وتمكن جنكيزخان بغير عناء من دك قوى المقاومة الايرانية وتسوية مدنها بالتراب ، ومنها سمرقند عاصمة الدولة الخوارزمشاهية ، وانتهت حياة السلطان محمد أسوأ نهاية ، إذ مات شريداً في إحدى الجزر النائية عام ٦١٨ هـ ١٢٢١ م .

وقام من بعده ابنه جلال الدين ، فانتضى الحسام وسجل من ضروب البسالة في سبيل استرجاع الملك الذي ضيعه والده ، صفحـــات ناصعة تضع سيرته في سفر الأبطال ، ولكنه لم يتمكن برغم ذلك من الصمود في وجه العاصفة وخر صريعاً وهو يسعى لتوحيد القوى وجمع شمل ابناء وطنه للدفاع عن حياض دولته .

نهاية الخلافة العباسية

لقد مكن جنكيزخان لنفسه في بلاد شاسعة ، وشكل امبراطورية مترامية الحدود امتدت حتى اوربة ، وقام من بعده أحفاده يتأثرون خطاه في الفتح ، ومن أشهرهم هولاكو الذي توجهت أنظاره إلى بغداد ، وكان قد تعاقب على عرشها بعد الناصر ثلاثة خلفـــاء ضعاف الهمة ، اخرهم المستعصم الذي انتهت على يده الخلافة العباسية وقتله المغول شر قتلة بعد فتح بغداد في ٦٥٧ هـ ١٧ كانون الثاني ١٢٥٨ .

وبذلك انتهت تلك الامبراطورية العربية الاسلامية التي امتدت في اوج عظمتها من حدود الصين إلى المحيط الاطلسي، وكانت مسرح رقي وحضارة ، وتفتح علمي، وازدهار أدبي اين منها ثمرات الفكر الاوربي في تلك القرون، بعد ان صمدت وقتاً طويلاً امام العديد من النكبات وعوامل التهديم .

وقد بزغ مع افـول الامبراطورية الكبرى ، دويلات صغرى عـاشت مستقلة ردحاً من الزمن ليلفها من بعد تياران عنيفان واحد من الشرق هو الفتح العثماني ، وثان من الغرب وهو الغزو الاوربي الذي عانى الخليج من خطوبه — وما زال — الكثير من البلاء !..

الجزء السادس

الخليج العربي في دوامة الاستعمار العالمي

- ابن ماجد وفاسكو دوغاما
- البرتغال أول نذر الشر
- الأتراك العثمانيون يمتشقون الحسام
- الانكليز يدخلون الحلبة تجاراً مسلحين
- الهولنديون يزاحمون
- الفرنسيون ينازعون الانكليز السيادة
- بريطانية تجهز على قوى المقاومة العربية
- معاهدات ومواثيق الخليج البريطانية العربية
- ايران بين فكي روسية وبريطانية
- بريطانية تحالف خصوم الأمس

ابن ماجد وفاسكو دوغاما

في غمرة الصراع ما بين العالمين الآسيوي والأوربي ، وفي زحمة ابتهاج العـــالم الاسلامي عـام ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م لسقوط القسطنطينية في يـد السلطان العثماني محمد الثاني الذي توشح بلقب الفـــاتح ، كانت اوربة ممثلةً بدولتي اسبانية والبرتغال ، تعيش حلم تأسيس الأمبراطوريات في الشرق واعادة سيرة الاسكندر الكبير بعد الف وثمانمائة سنة .

وقبل أن تتهادى على صفحة المحيط الأطلسي سنة ٨٩٨ هـ ١٤٩٢ م أشرعة السفن الثلاثة التي أقلت كريستوف كولمبس وأعوانه ، في طريقهـا إلى أميركة، هادفاً إلى اكتشاف طريق ثانية للهند غير الطريق المعهودة ، كان الرحالة بارتلومر دو دييز يطوف دون أن يدري ما يفعل ، حول رأس الرجـاء الصالح ، وذلك عام ٨٨٥ هـ ١٤٨٠ م ، وقد قفّى على آثاره وترسم خطاه الرحالة فاسكو دوغاما الذي اكتشف عام ٩٠٣ — ٩٠٤ هـ ١٤٩٧ — ١٤٩٨ م — بفضل المـلاح العربي أحمد بن ماجد — الطريق إلى الهند ، وغدت على يده طريقاً مأمونة تجوبهـــا السفن ، تحدوها رياح الجشع والطمع ، والاستثمار والاستعمار ، وتضع بذرة تغيير مصاير العـــالم ، من أقوام وأمم ، ودول وشعوب ، وذلك لأن الوصول إلى الهند وانشاء امبراطورية فيها ، يجب أن يسبقه أو يتبعه المحافظة على الطريق المؤدية اليهـــا ، والتحكم بتلك الطريق ، والفتوحات تستدعي الفتوحات ، والاستعمار يستعدي الاستعمار .

العرب على الشواطىء الافريقية

لقد تحدثنا في فصل الملاحة عن انتشار الملاحين والتجار العرب في المحيطات الكبرى ولا سيما في المحيط الهندي ، واقامتهم العلاقات الوثيقة مع سكان الشواطىء الآسيوية التي بدأت قبل الاسلام وتوطدت من بعده ، ولم نشر الى ما كان لاولئك الملاحين والتجار من نشاط واسع على الشواطىء الأفريقية. والواقع أن صلة العرب بهذه المنطقة واضحة مشهورة « ويكفي أن نذكر ان جماعة من أهل جنوب جزيرة العرب رحلوا إلى الحبشة ، عن طريق البحر الأحمر ، قروناً قبل الميلاد ، وأقاموا فيها دولة ، وتركوا فيها آثارهم ونقوشهم ومعابدهم ، وما تزال تلك الآثار مرئية حتى اليوم . بل ان اسم الحبشة أطلقه العرب على دولتهم في تلك البلاد ، ومن لغة أولئك العرب أخذت الحبشية الفصحى المسماة « الجعز » وهي ما زالت لغة العبادة والدين حتى اليوم . وقد تطورت من هذه اللغة الحبشية القديمة لغات ما تزال حية يتكلم بها في الحبشة ، أهمها التيجري والتجرنيا في اريتريا ، والأمحرية في أواسط بلاد الحبشة ، وهي لغة الحبشة الرسمية اليوم ، ولكن شابتها شوائب من لغات القبائل « الحامية » الذين هم سكان الحبشة الأصليون [١] » .

ولم تنقطع صلات العرب بافريقية منذ ذلك الحين ، على اخلاف تلك الصلات وتعدد أشكالها ، وأقاموا فيها مراكز عدة لهم فيها تجارة وعمارة وسلطان . وقد لجأت اليها جماعة من أزد عمان من الخوارج الشراة ، فاحتلت سوقطرة وحاولت السيطرة على مراكز الملاحة والقوة البحرية في بلاد الزنج. وكانت مراكب الخليج العربي في تنقل مستمر بين الموانىء العربية والمدن الساحية الافريقية ، ولا سيما مقدشو وزنجبار وجزر القمر ومدغشقر وبراوة ولاوة ومالندي وممباسا وكلوة وموزمبيق وسفالة ، تجلب منها العاج والذهب والنارجيل وجوز الهند والرقيق .

---

١ ـ العرب في سواحل افريقيا الشرقية بقلم محمود الغول ، مجلة العربي ، العدد ٣٢ ص ١٠٨

وقد كثر الرقيق من الزنج في البلاد العربية ولا سيا في العراق والأهواز ، كثرة ظهر أثرها في ثورتهم كما رأينا في فصل سابق .

وصول فاسكو دوغاما الى افريقية الجنوبية

لقد كانت تلك الشواطىء الافريقية تتصل بالعالم عن طريق الشمال والشرق ، أما الجنوب فكانت تعتقد بانه الحد الآخر للعالم ولا عمارة ولا ناس وراءه. وكانت مفاجأة مذهلة لهم أن بصروا ذات يوم براكب قادمة من تلك الجهة ، وكانت تلك المراكب تحمل رواداً برتغالين على رأسهم فاسكو دوغاما ، بعد أن تبين لهم أن من الممكن الوصول إلى الهند عن طريق رأس الأعاصير الذي سماه ملك البرتغال : رأس الرجاء الصالح .

وقد اختلفت ردات الفعل لدى سكان المدن الساحلية الافريقية ، لمرأى السفن البرتغالية واستقبال البحارة البرتغاليين ، « وكان شعار البرتغاليين في هذه الرحلات العصبية الدينية والسعي وراء التجارة بالقوة ، ولما أدرك شيخ موزمبيق ورجاله ان القادمين يبطنون هذه النوايا أظهروا لهم الجفاء ، فركب دوغاما ورجاله البحر مسرعين . ووصلت الأخبار إلى كلوا وممباسا قبل وصول دوغاما اليها فلقي فيها جفاء . ولكن مالندي كانت على عداء لممباسا دفعها ان تتودد إلى القادمين وتعقد معهم عهداً . ويقول مؤرخ مشهور : ومن الجلي ان مالندي إنما فعلت ذلك نكاية بممباسا لا خوفاً من البرتغاليين ، إذ لم يكن ليخطر ببال أحد من عرب السواحل ، وهم سادة تلك البقاع منذ زمن سحيق ، ان هذه السفن الثلاث من أوربا ، رغم حسن تسليحها ، كانت تنذر بخطر على مياههم التي تمتعوا فيها دوماً بالثروة والقوة ، ولكن سرعان ما تفتحت عيون العرب على الحقيقة [1] » .

ابن ماجد يرشد دوغاما

ولم يكن في وسع فاسكو دوغاما الوصول إلى الهند دون الاستعانة بدليل

---

١ ـ المرجع السابق ص ١١٢

عربي ماهر ، لأن « تلك الطريق لا يسلكها إلا تجار العرب وملاحوهم ،ولا يعرفها أحد سواهم ، لاختلاف مهاب الرياح في المحيط الهندي ، وشدة ثوراته .وصعوبـــة ركوبه [1] » . وفي مالندي تعرف الربان البرتغالي بالربان العربي أحمد بن ماجـد الذي خبر تلك الأنحاء وعرف أسرار الأنواء ، فوجد ضالته فيه ، ولجأ إلى جميع الأساليب لإقناعه برافقته في مغامرته وقيادة سفنه ، واستعان في ذلك بملك مالندي كما استعان بالرشوة والخمرة .

يقول المؤرخ البرتغالي كستانهيدا : « وصل فاسكو دوغاما إلى مالندي (على الساحل الشرقي من افريقية شمال مدغشقر في ١٥ آذار (مارس) ١٤٩٨ ، وأرسى في فرضتها .. فصعد إلى سفينته مسلمون منهم مسلم اسمه أحمد بن ماجد ، أحب ان ينعم برفقة دوغاما وبحارته ، ورضي أن يذهب معهم فيدلهم على طريق الهند. وكان دوغاما قد دهش لسعة علم الملاح المسلم عندما أراه خريطة الساحـــل الهندي كله ، وعليها خطوط الطول والعرض بتفصيل .. ثم دعا دوغاما الملاح المسلم ليشاهـــد الاسطرلاب الكبير الذي كان يحمله على سفينته ، وآلات فلكية أخرى ، فـــلم يعجب المسلم لما رأى ، وأنبأ دوغاما ان للملاحين العرب في البحر الأحمر آلات متقنة مصنوعة على غير مثال ما بيد البرتغال .. ثم أطلعه على آلة له مؤلفة من ثلاث لوحات . فلما عرف دوغاما قيمة هذا الكنز الذي ظفر به أحب الاحتفاظ بهـذا المعلم المسلم ، وأقلع متوجهـاً إلى الهند في ٢٤ من شهر نيسان (ابريل) ، فجـاز الخليج الكبير وطوله ٦٠٠ فرسخ في ٢٢ يوماً ، دون أن يلقى في طريقه عقبة أو مشقة .. [2] »

أما المؤرخ العربي قطب الدين النهروالي فيروي قصة لقاء ابن ماجد ودوغاما في كتابه المخطوط « البرق اليماني في الفتح العثماني » بقوله [3] :

---

١ ــ الملاح العربي احمد بن ماجد تاليف محمد ياسين الحموي ص ٧

٢ ــ مجلة العربي ، العدد ٢٩ ص ٧٢

٣ ــ ليث البحر احمد بن ماجد للدكتور عبد الهادي هاشم ، من محاضرات الموسم الثقافي بالكويت سنة ١٩٥٩ ص ١٠٣

« وقع في أول القرن العاشر الهجري (بعد ١٤٩٥ م) من الحوادث الفوادح النوادر دخول البرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة (أي مضيق جبل طارق) في البحر ، ويلجون في الظلمات ويمرون خلف جبال القمر (لعلها جبال الكمرون اليوم) ويصلون إلى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات، في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتتكسر ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب (نوع من السفن) إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له الأملندي (هذه الكلمة منحوتة من العربية وغيرها ومعناها أمير البحر) وعاشره في السكر ، فعلّمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج. فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوا في كوه (غوا) من بلاد الدكان قلعة يسمونها « كوتا » (وهي كلمة سنسكريتية معناها قلعة) ثم أخذوا هرموز وتقووا بها ، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى ان كثر ضررهم على المسلمين وعمّ أذاهم على المسافرين ... »

الملاح العربي يستنكر الاستعمار البرتغالي

ويقول الدكتور عبد الهادي هاشم تعليقاً على هذا النص المهم لمؤرخ ثقة عاش في ذلك العصر تقريباً في مكة ، وعلم بأخبار غزوات الفرنجة وقرصنتهم : « ان غابرييل فرّان يستبعد أن يشرب ابن ماجد الخمرة مع دوغاما ، ويميل إلى أن النهروالي اخترع هذه الفرية ليكون سكر ابن ماجد سبباً مخففاً لفداحة جرمه بنظر أهل مكة الصالحين إذ دلّ الفرنجة على عورات بلاد المسلمين ، ويرجح أن يكون

المال هو الذي أغرى ابن ماجد على أن يكون صنيعة للعدو أجيراً له . أما أنا فما أستبعد أن يكون الفرنجة قد لاذوا بهذه الخدعة لاستكناه أسرار الطريق ، ولا أستغرب أن يقدم ابن ماجد على احتساء خمرة البرتغاليين المعتقة ، وهي إلى اليوم شهية طلية عند من يعرفها ، وقد رأيت لابن ماجد في كتبه أشعاراً وأقوالاً تدل على انه عاقر بنت الحان وأولع بها واستهوته [1] » .

والواقع أن ابن ماجد لم يتوقع شيئاً مما حدث فيما بعد ، وما كان له ان يتنبأ بان البرتغاليين سيقابلون جميله بالعدوان على بلاده وقومه ، وقد ندم فيما بعد على فعلته عندما عرف نواياهم وشاهد أفعالهم ، وله في ذلك أرجوزه طريفة نشرها المستشرق الروسي شوموفسكي في جملة ما نشر من أشعاره ومما قاله فيها :

وساحل البر وكل جزره ... فحكمها للبرتغال الكفره
والبرتغالي حكم الجميعا ... كُفيت كل الشر والتصديعا
وجالكاليكوت خذ ذي الفائدة ... لعام تسعمايه وسنة زائده
وباع فيها واشترى وحكما ... والسامري بَرْطَلَهُ وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام ... والناس في خوف وفي اهتمام
وخبرتي بجملة الفرنجي ... من جانب السودان شط اللجي
وهو الذي قد قهر المغاربه ... واندلس في حكمه مناسبه
وصفتهم حقاً وهذا جهدي ... ولست أدري ما يكون بعدي
وبينهم وبين أهل الهند ... من العلاج والتعدي
عندهم السرقة قد سنّوها ... ما بينهم فليس ينكروها
ويشربون الخمر في الأسواق ... ولا يصلون على الاطلاق
وينقضون العهد ، والهدية ... يسعوا لها بالدخل والأذية
صنعتهم الكذب والمطالْ ... في المشترى والبيع والأشغال

---

١ - المرجع السابق ص ١٠٤

ابن ماجد من ابناء رأس الخيمة

وهذا الربان العربي الفذ هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن مـاجد النجدي الذي كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين ، وقد ولد حوالي عام ٨٣٦ هـ ١٤٣٢ م في جُلفار على الشاطىء الغربي للخليج العربي (وهي رأس الخيمة اليوم) وقد قـال فيها وفي قومه :

رعى الله جلفاراً ومن قد نشا بها   وأسقى ثراهـا واكف متابع
بها من أسود البحر كل مجرّب   وفـارس يم في الشدائـد بارع
يسرك في الأوصاف ان وصفت له   حذور جسور في المهات شاجع
إذا قـام في شـيء تُوجّى كماله   يقوم ولم يمنعـه عن ذاك مـانع

وكان أبوه وجده ممن اشهروا في الملاحة وألفوا فيها الرسائل « فابن ماجد تلقى هذا الفن عن آبائه كابراً عن كابر ، وفي ذلك يقول رابـع الليوث: « إلا أن جدي كان نادرة في ذلك البحر (أي البحر الأحمر) واستفاد منه والدي وقد أخذت علم الرجلين ، مع كثرة التجربة . ويقول في موضع آخر : وقد كان جدي محققاً فيه مدققاً ، وزاد عليه الوالد .. بالتجريب والتكرار ، وفاق علمه علم أبيه ، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريبـاً من أربعين سنة حررنا وقدرنا علم الرجلين النـادرين .. وكان الوالد يسميه الربابين « رُبان البرين » ونظم الأرجوزة المشهورة « الحجازية » فوق الف بيت، ومع ذلك كله قد أصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل. ».وهو يستشهد على صحة علم والده بحادثة جرت له سنة ٨٩٠ هـ ١٤٨٥ م نجـا هو ومن معه في السفينة من الهلاك بفضل ما أودعه والده أرجوزته من علم ، ثم قـال ابن مـاجد : « وكانت ارجوزة الوالد خيراً لي من جميع ميراثه في ذلك المكان [1] » .

مؤلفات ابن ماجد

ولابن ماجد عدد من المؤلفات في علم البحـار ووصفها وكيفية تسيير السفن

---

١ ـ المرجع السابق ص ٩٧

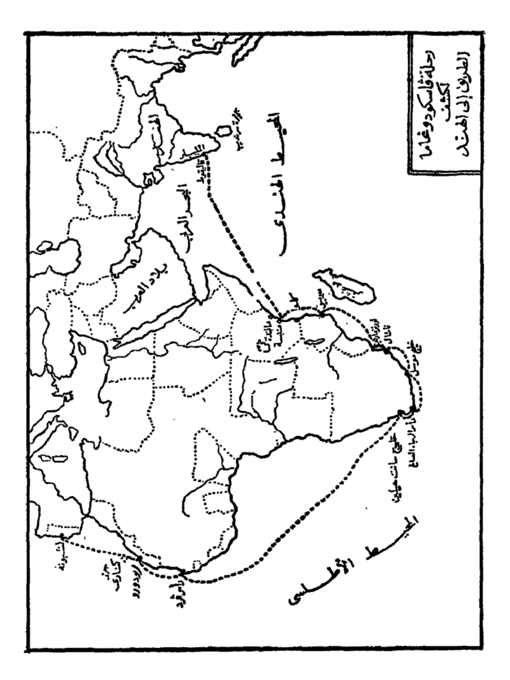
فيهـــا ذات أهمية علمية وتاريخية ، وقد بلغت الأربعين مـــا بين كتاب ورسالة وارجوزة .

ويقول الاستاذ محمد رضا الشبيبي : « ممـا يلاحظ على ابن ماجد أنـــه لم يتقيد بالاصول اللغوية والقواعد النحوية في مؤلفاته . ويعلل بعض الباحثين ضعفه في هذه الناحية بأنه من أهل عمان . وعمان أو مسقط تغلب عليها العجمة وفيهـا أخلاط من الأمم . وليس هذا التعليل بشيء ، فالغالب ان صاحبنا لم يعن بدراسة العربية ولم يحذق علومها ، فانه نشأ نشأة عملية وعاش بين السفن والموانىء البحرية يعمل فيهـا ، وحصل على خبرة فنية عظيمة من مغامراته وأسفاره الكثيرة في البحر ، أعانه عليها حدة في ذكائه وقوة في ملاحظته وجرأة أو شجاعة نادرة فيه . والظـــاهر انه الف كتبه وانشأ منظوماته لأهل مهنته خـــاصة وشحنها بتلك المصطلحات الشايعة عند البحريين [1] » .

وأشهر مؤلفات ابن ماجد « كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد » وقد وصفه الاستاذ قدري طوقان بقوله : « ومن مؤلفاته النفيسة كتاب اقتنـاه المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو محفوظ الآن في دار الكتب العربية الظاهرية . واسم هذا الكتاب « كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد » وجاء في مجلة المجمع العلمي في المجلد الأول : « والكتاب عبارة عن مائتي صفحة كل صفحة ٢٣ سطراً ، يتضمن معرفة طريق سير السفن في البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة .. » ونجد في هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التي يقصدها المسافر ، ويتبين منه ان المؤلف اتخذ بنـات نعش ، وسهيلًا ، والنـاقة والحمارين ، والعيون والعقرب ، والنسر الواقع ، والاكليل ، والسماكين ، والثور ، من جملة الادلة التي تساعد المسافرين في الاسفار ، وقـــال انه علم ذلك بالاختبار . واعترف بان ثلاثة من مشهوري الربابين سبقوه إلى ذلك ، وأن الفرق بينه وبينهم

---

١ ـ ثقافتنا البحرية وشهاب الدين احمد بن ماجد ، من محاضرات الموسم الثقـــافي بالكويت سنة ١٩٥٩، ص ٢١٣ ـ ٢١٤


رحلة ڤاسكو دوغاما
لكشف
الطريق إلى الهند
لشبونة
جزر كناري
ريودورو
رأس ڤرد
المحيط الأطلسي
خليج سانت هيلين
رأس الرجاء الصالح
خليج موسل
ناتال
كلوة
ممباسة
ماليندي
المحيط الهندي
قاليقوط
جزيرة سرنديب
البحر العرب
بلاد العرب
الهند

« .. ان ما ذكره هو مصحح مجرّب ، وما ذكره اولئك ليس على التجريب منه شيء ...» وفي هذا الكتاب عرض لبعض الثغور التي على الأقيانوس الهندي والبحر الصيني ، وشكل البرور ومراسي ساحل الهند الغربية والجزر العشر الكبرى المشهورة وكذلك وصف تفصيلي للبحر الأحمر بما فيه مراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية [1] » .

النتائج المصيرية لاكتشاف البرتغاليين طريق الهند

وقد كان لاكتشاف البرتغاليين طريق الهند ، عبر المحيط الهندي ، نتيجتان مصيريتان بالنسبة للعرب ، عرض احداهما الدكتور حسين فوزي في محاضرته بالكويت عن «الملاحة العربية في القرون الوسطى» فقال : ان ذلك الاكتشاف قد وضع حداً لعصر الملاحة العربية وسيطرة العرب على البحار . وفسر ذلك بقوله : « وليس من الصدف ان يبدأ الأوربيون غزو الأسواق الشرقية في بدء تدهور الحضارة العربية،فان دارس التاريخ يستطيع ان يرجع بالحوادث إلى أسبابها وليس هذا من شأني،إنما أردت ان أقول ان تحديدي لوصول فاسكو دوغاما إلى شواطىء الهند ، كنهاية للعهد الذي تتناوله محاضرتي ، ليس محض تحديد عرفي ، وإنما هو يجد معززاته من تداعي الأحداث التاريخية ذاتها، فالملاحة العربية ما تزال موجودة في بحار الهند إلى اليوم ، والجاليات العربية تعيش منذ أكثر من الف عام في السند والهند وسيلان وسنغافورة وجزر الهند الشرقية ، ولكني أزعم بأن عهد ازدهار الملاحة العربية الكبرى قد بدأت نهايته بوصول فاسكو دوغاما إلى الهند [2] » .

أما النتيجة المصيرية الثانية والمرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً ، فلعلها أكثر أهمية وأبعد عمقاً وأبقى أثراً ، وقد نوه بها الدكتور عبد الهادي هاشم في محاضرته بالكويت ايضاً عن « ليث البحر أحمد بن ماجد » فقال ان الاستعمار البرتغالي لم

---

١ ـ ابن ماجد بحار العرب الاول ، مجلة العربي العدد ٢٩ ص ٧٠ ـ ٧١

٢ ـ محاضرات الموسم الثقافي بالكويت سنة ١٩٥٦ ص ٢٧٦

يكن الكارثة العظمى التي مني بها العرب من جراء غزو الأسطول البرتغالي للمحيط الهندي ، لأنهم ما لبثوا ان طردوا البرتغاليين المستعمرين وتحرروا من سيطرتهم ، ولكن الكارثة الكبرى التي حلت بعرب المشرق جميعاً هي ان بلادهم كانت والجسر الذي تعبر عليه تجارات الهند وأندونيسيا وما جاورها إلى الغرب، وتجارات أوربة وصناعاتها إلى الشرق القاصي والداني ، وكانت هـذه العلاقات الاقتصادية توفر للعرب مركزاً مرموقاً وربحاً حلالاً مادياً ، يرفع بعض الشيء مستواهم المعاشي ، وكانت تيسر لهم شيئاً أعظم من ذلـك وأخطر ، كانت تصلهم بحضارات الشرق والغرب وتفتح عيونهم على ما يجري في هذا العالم من أحداث وتتيح لهم المشاركة في المدنية الانسانية، يأخذون منها ويعطونها، يسترفدونها ويرفدونها. فلما اكتشف الغرب الطريق البحرية ، عبر افريقية الجنوبيـة ، أقفرت مسالك البر ، وانعزل عرب المشرق، وساءت حالتهم الاقتصادية، وسكرت أمامهم بعض موارد العيش، وأغلقت نوافذ كانوا يطلون منها على العالم ويطل العالم منها عليهم ، فقبعوا في عزلة موحشة مقفرة ، وانطووا على أنفسهم غافلين لاهين، على حين كان الغرب مستوفزاً مستيقظاً يحث السير ويطيل الخطو . وزاد في الخطب قيام دولة بني عثمان واحتلالها بلاد المشرق العربي ، وهي دولة ليس لها من مقومات الحضارة نصيب ، وكان القائمون بأمرها جاهلين خاملين ، حاسري البصر ، ضيقي العَطَن ، فلقيت بلادنا منهم كل عنت وضر. ولو اقتصر الخطب على الاحتلال العثماني وحده لعرف العرب كيف يقلّمون أظافر شره ويفلون أنياب شرهه ، ولكن انقطاع صـلة العرب بالعالم الغربي وقد أخذ ينهض من غفلته ويضع أسس هذه الحضارة الحديثة، كانت له عقابيل سيئة على العرب ، لم يستطيعوا الخلاص من بعضها إلا في القرن التاسع عشر عندما وصلوا بعض ما انقطع ولكن بعد ان فاتهم الركب ، وأفلت من أيديهم التفوق الذي كان لهم في جميع الميادين [١] . »

---

١ المرجع السابق ص ١٠٦ – ١٠٧

البرتغاليون أول نذر الشر

سادة البحار

لم تمض إلا أعوام قليـــلة على لقاء ابن ماجد ودوغاما حتى كان البرتغاليون يركزون راية استعمارهم تحت اسم التجارة في « غوا » الميناء الهندي ، مطلقين على أنفسهم اسم: سادة البحار . ومن هذا المنطلق أخذوا بالتوغل شرقاً وغرباً ، وهدفهم جزر الأفاويه : الملايو وأندونوسيا ، يسعون اليها سعي كلاب الصيد وراء طريدة ، يضاعف من نشاطهم ويزيد في عنفوانهم حقد عميق الاغوار في نفوسهم على المسلمين عامة والعرب خاصة . وقد ارتكبوا خلال ذلك من الفظائع والاعمال الهمجيـــة البربرية ما لا يذكر اليوم إلا وتضطرب له القلوب وتقشعر الابدان .

يقول المؤرخ الهندي بانيكار : « وقد شرع دوغاما وعصبته حتى قبل وصولهم إلى ساحل الهند في أن يطبق بالقوة ادعاء مولاه انه « سيد الملاحة ومولاها » فكان يقطع الطريق دون أي تحذير على أية سفينة يلتقي بها في طريقه ويدمرها تدميراً . والحادثة التالية التي يرويها لنداس دا إنديا خير مثال للارهاب والقرصنة ، التي بثها في المياه الهندية . إذ تصادف ان التقت العمارة البرتغالية ببعض السفن غير المسلحة العائدة من مكة . فالقى فاسكودو غاما القبض عليها ، وكان كما يقول لنداس : « يعمد بعد تفريغ السفن مما بها من بضائع ، وحظر أي فرد من اخراج أي عربي منها ، إلى اصدار الأوامر باشعال النيران فيها » . ولعلنا نحصل على تفسير لدوافع

الاستيلاء على السفن من الملحوظة التي أدلى بها بارّو حيث قال : « أجل انه يوجد بالفعل حق عام للناس جميعاً بأن يمخروا عباب البحر ،ونحن في أوربا نعترف بالحقوق التي يمسكها الغير علينا ، ولكن ذلك الحق لا يتجاوز قارة أوربا ، ومن ثم فمن حق البرتغاليين كسادة للبحر مصادرة جميع بضائع من يخوضون البحار دون إذن منهم [1] »

ولا بدع ان يسلك البرتغاليون هذا المسلك وهم مزودون برسوم يبرر اعمالهم ويحرضهم عليها ، هو رسالة البابا نيقولاووس الخامس إلى أميرهم هنري الملاح وفيها يقول :

« ان سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال ، إذ يترسم خطى والده العظيم الذكرى الملك يوحنا وإذ تلهمه الغيرة التي تملأ الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة [2] .. »

ويروي مدوّن رحلة فاسكو دوغاما ان العرب كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة في كالكوتا وفي بلاط الزامرين (لقب الحاكم هناك) ، وانهم حاولوا أن يعكروا الجو بين الحاكم وبين البرتغاليين ، لأنهم توقعوا أن يكونوا منافسين لهم في التجارة الهندية التي احتكروها من زمن بعيد . « وكان فاسكو دوغامـا يتحرق غضباً وسخطاً ، لما توهمه من معاكسة العرب له في بـلاد الزامرين ... وظل فاسكو ورجاله في كالكوتا قرابة ثلاثة أشهر تعرضوا فيها لرضا الزامرين حينـاً ولسخطه حيناً آخر ، ولا شك ان تجـار العرب كانوا يوجسون خيفة من هؤلاء الوافدين المزاحمين ، ولا شك أنهم اوغروا صدر سيد البحار الهندي على البرتغاليين ، فاعتقلهم الوالي العربي بعد ان طلبوا قوارب يعودون فيها إلى سفنهم ، فلم يجابوا إلى طلبهم ،

---

١ ـ آسيـا والسيطرة الغربية ، ص ٤٠

٢ ـ المرجع نفسـه ص ٢٧

واحتواهم ظلام أسر رهيب . وما زال فاسكو بالمصانعة والحيلة مع الزامرين حتى علم بأسره ، فأمر بأن يطلق سراحه ، وتفك قيوده ، ويذهب في التجارة كما يشاء ، وعقد معه معاهدة تجارية ، كانت السبب في زوال ملكه عما قليل [1] ! .. »

ألفونسو البوكرك

وكان ألفونسو البوكرك الذي خلف دوغاما في امارة الاسطول،لا يقل عن سلفه همجية ، ويكفي أن نعلم بأنه عند فتح غوا قتل كل من فيها من العرب ، وكتب إلى مولاه انه « حيثما أمكنه العثور على عربي كان افلاته من يده من المحال ، وانه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار [2] » .

وحسبنا إلى ما تقدم ، أن نتأمل في هذه الكلمات التي سطرها المؤرخ الهندي بانيكار : « وأخذ البوكرك يؤثر بهذا النغم في خطبة القاها على رجاله . ذلك انه أكد لهم بوجه خاص : « تلك الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وباطفائنا شعلة شيعة محمد ، بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب » وبعد ذكر خدمة الله عرج إلى خدمة الملك ، حيث قال : « وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم (يعني المسلمين) ، لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك » فما أشد مهارته في مزج الدافعين أحدهما بالآخر ! غير ان الهجوم الاول باء بالفشل ، فان السلطان نفسه خرج يقود المدافعين ممتطياً صهوة فيل . على ان المدينة ما فتئت بعد ذلك أن سقطت بعد قتال عنيف ، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد انسحاب حاكم الملايو وجيشه ، وبيع المسلمين الذين نجوا من السيف في المذابح التي تلت سقوط المدينة بيع الرقيق ، ولكن أبقى الفاتحون على نزلائها الصينيين والهنود والبورميين . وانتهبت المدينة

---

١ ـ فاسكو دوغاما تاليف عبد الغني حسن ص ١٠٠
٢ ـ آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٦

انتهاباً تاماً.: حتى لقد بلغ النصيب المرسل إلى الملك وحده مائتي الف كروسادو من الذهب [١] »

ولم يطل الزمن بأباطرة البرتغال — وقد اطمأنوا إلى قوامهم فيما وراء البحار ، يحقق من مطامحهم ويشد من أزرهم السفن المسلحة بالمدافع مما لم يتيسر امثاله للشرقيين — حتى شرعوا يرفعون عقيرتهم مباهين مفاخرين بانهم سادة البحار وأبطال الملاحة وارباب التجارة غير المنازعين، مع بلاد الحبشة وفارس وشبه جزيرة العرب، وقد صادق البابا على تلك الألقاب [٢] ، ودامت تلك الامبراطورية للبرتغال قرابة أربعمائة سنة ملطخة الصفحات بالدم ، متوقدة الحروف بالنار .

ولم يكن ذلك الكلام ادعاء فارغاً من البرتغاليين ، وانما كان حقيقة واقعة ، إذ انه تقدم في عام ٩١٢ هـ ١٥٠٦ م اسطول برتغالي بقيادة البوكرك والكابتن تريستان داكونيا ، عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى سوقطرة ليقيم مركزاً فيها، بغية سد طريق البحر الأحمر في وجه اساطيل البندقية والمماليك المصريين ، وبعبارة أخرى للتفرد بالتجارة مع الهند ومنطقة الخليج العربي [٣] .

---

١ ـ المرجع السابق ص ٤٨

٢ ـ جاء في الصفحتين ٤١٨ ـ ٤١٩ من المجلد الاول من كتاب « تاريخ العالم » في بحث فكرة الامبراطورية وكيف شكلت في التاريخ بقلم السيرجون ماريوت : « ... ودخل التاريخ بعد ذلك مرحلة جديدة باكتشاف البرتغاليين طريق راس الرجاء ، واكتشاف الاسبان العالم الجديد ، وقد صدر امر باباوي يمنح حق التملك في العالم خارج اوروبة لهاتين الدولتين ، فالغرب لاسبانية والشرق للبرتغال ! »

٣ ـ كي يتعمق القارىء مدلول كلمة التجارة مع الهند ، بلاد الافاويه ، يحسن بنا هنا ان ننقل هذه الفقرة من كتاب « آسيا والسيطرة الغربية » ص ٢١ : » ان تجارة الافاويه مع الشرق كانت تدر على التجار اعظم الارباح بوصفها سلعا يشتد عليها الطلب من الناس جميعا ، لم يكن في الامكان الحصول عليها من الموانىء الهندية الا عن طريق الاراضي التي يتحكم فيها الحكام المسلمون . ويقول احد الكتاب المحدثين : « لعله ليس للفلفل الان اهمية كبيرة ، بيد انه كان في ذلك العصر يقف على قدم المساواة مع الاحجار الثمينة . فان الناس كانوا يجابهون مخاطر البحار ويقاتلون ويموتون في سبيل الفلفل » ويحلل المستر ج. ف. هدسن في دراسته الضليعة لشؤون « اوروبة والصين » الموقف بهذه الكلمات : « ان الافاويه التي

وبعد احتلال سوقطرة تابع داكونيا إبحـــاره إلى الهند بينما أقلع البوكرك بسفنه مستهدفـــاً هرمز التي تبين له أن وضعهـا تحت السيطرة البرتغالية أجـدى للامبراطورية من سد طريق البحر الأحمر .

البرتغال تشن حرباً صليبية

ولما بلغ البوكرك باسطوله مدينة هرمز ، استقبله السكان مرحبين به ، فموّن سفنه ودفع الثمن . ثم واصل الابحار إلى قرياط الهندية ، فـلم يرتح السكان لوصوله وأعرضوا عنه ، ولم يشاءوا التعاون معـــه ، فدخلها عنوة بعد أن قتل فريقاً من سكانها ثم نهبها وأحرق سفنها . واتجه بعد ذلك إلى مسقط ، وكانت حصينة منيعة ، مزدحمة بالسكان ، فلما رسا تجاهها ، وكانت أنباء كارثة قرياط قد سبقته اليهـــا ، أوفدت اليه اثنين من وجوهها لمفاوضته رجاء انقاذها من المأساة التي حلت بقرياط ، وقد ابديا له استعداد المدينة لأن تصبح موالية للبرتغال . ولكن هل تنفع لغـــة المنطق بمعتد يرى في انزال الدمار بالعرب والمسلمين الرسالة التي يجب اداءها، وواجباً دينياً ينبغي له انفـاذه ، بل ان تلك الحروب كانت بالنسبة له ولمولاه المتربـع على عرش برشلونة – كما يرى المؤرخ بانيكار – استمراراً للحرب الصليبية :

اخذت تزداد قيمتها شيئا فشيئا كعنصر جوهري الاهمية لفن الطبخ الاوروبي لم يكن في الامكان الحصول عليها الا من الهند واندونيسيا ، ولا بد لها من المرور مـن خـــلال فارس او مصر ، فهذه التجارة التي لا يستغنى عنها والاحتكارية بطبيعتها اصبحت محور النزاع في سياسة بلاد المشرق ، كما كانت اقوى عامل بمفرده فـي استثارةالتوسع الاوروبي اثناء القرنالخامس عشر . وساعد ارتفاع شاو التتار ببلاد الفرس – قبل اعتناق دولة ايلخان الاسلام – التجار الايطاليين على الوصول الى الهند راسا وتخفيض الاسعار على المصريين الذين تعودوا علـــى رفعها ثلاثمائة في المائة كوسطاء بين الهند واوروبة ، وكانت نتيجة ذلـك ان عرف الاوروبيون اين تنتج التوابل وباي سعر تنتج ، حتـــى اذا قطعت عليهم الطريق ثانية وسدت دونهـــم ابواب الاسواق الهندية لوجود دولة اسلامية معادية ، وللحروب التي لا تنقطع ببـــلاد المشرق تجلى لديهم تماما عظم الفرص التي تنتظر اية دولة تستطيع ان تجد سبيلا جديدا الى بـــلاد الهند التي تنمو فيها الافاويه » .

« وإذا كانت البرتغال قد أصبحت بذلك وريثة تقـــاليد الكشف والارتياد الجنوية ، فلقد أصبحت أيضاً في القرن الخامس عشر نصيرة المسيحية وراعيتهـا على الاسلام . فكأن روح الحروب الصليبية لم تبق فيها جذوة الحياة متقدة فقط ، بل ازدهرت أيضاً مكتسبة قوة على قوتهـا بشبه الجزيرة الايبيرية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وبينما لم يكن الاسلام في نظر دول غرب اوربة الأخرى إلا شبحـاً بعيداً لتهديد شاسع ، فـانه لدى شعوب شبه الجزيرة الايبيرية ولدى شعب قشتالة وأرغونة والبرتغـال ، كان يمثل قوة على الأبواب تهدد بالثبور وتنفرد بالقهر وشدة المراس ، وتكل بها عيناً يقظة لا تنام . وكانت الحماسة ضد المسلمين تلمّ بغير هذه الأقطار على فترات متقطعة ، ولكن الايبيري كان محارباً صليبياً بحكم الضرورة الملحة في كل يوم من أيام حيـــاته ، وذلك لأن الممالك الاسلامية كانت لا تزال تزدهر . وكان الايبيري المخلص لدينه المتفـــاني في حب وطنه ، اسبانياً كان أو برتغالياً ، يعد القتال مع الاسلام ضرورة ماسة صارمة ، ويراه خليطاً يجمع على حد سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية . لقد كان الاسلام هو عدوه اللدود الذي لا بد من قتاله في كل مكان . وسيظل الشيء الكثير من تصرفات البرتغال في آسية غامضاً لا سبيل إلى تفسيره ما لم تتذكر هذه الحقيقة على الدوام[1] » .

البوكرك في الخليج العربي

وهكذا ، وانطلاقاً من المبدأ القائل بأن مبادىء القانون الدولي لا تطبق خارج أوربة ، وان مـا يُعدّ همجية في لندن أو باريس يحسب سلوكاً متمدناً في بكين .. وان « ليس على الشعوب الأوربية التزامات خلقية عند معاملة الشعوب الاسيوية[2] » .. واهتبالاً لفرصة انفراده بتسليح سفنه بالمدافع الضخمة غير المعروفة حتى آنذاك في المنطقة ، فقد قصف المدينة قصفاً بالغ الهمجية والوحشية ، ولم ينفع

---

١ ــ المرجع السابق ص ٢٤ ــ ٢٥
٢ ــ المرجع السابق ص ٤١

مع مسقط استبسال سكانها ودفاعهم المستميت عن مدينتهم البطلة ، حتى إذا ما دخلها عنوة رجاه السكان ألا يطعم بلدهم النيران ، فاشترط عليهم دفع غرامة أثقلت كواهلهم ولم يستطيعوا سدادها ، عندئذ أصدر أمره فأحرقت المدينة ومسجدها ، واستاق سكانها أسرى ، ولكن هل يمكن لسفنه أن تحمل سكان مدينة كاملة ؟.. عندئذ اكتفى الفاتح القاهر بأن يجدع أنوف أسراه ويصلم آذانهم ، ورحل عن المدينة مخلفاً إياها حطاماً تذروه الرياح ، بعد أن كانت مسقط البلد التجاري الهام ، والمركز السياسي الحساس ، والبلد العامر بخيرات الخليج ، يعج بالجياد والعربات والكثير من الطيبات ! ..

وأبحر الاسطول البرتغالي بعد ذلك ووجهته صحار ذات القلعة الجبارة ، ولكنها كانت تفتقر إلى حامية من الجند ولذا لم يدانها البوكرك بعدده الجهنمية حتى جلا عنها السكان يهيمون على وجوههم في كل فج ، ليقينهم بأن البرتغاليين يزرعون الدمار أينما حلوا ، ثم أقبل على البوكرك بعض وجوه البلد يفاوضونه ويسألونه شروطه التي أملاها وارتضوا باداءها ، فأقلع عنهم وتوجه باسطوله إلى خورفكان حتى إذا ما لقي بعض المقاومة منها دمرها تدميراً ، واتبع بالدمار النار ، ومثل بأهلها شر تمثيل . ثم دار بأسطوله حول رأس مسندام عائداً إلى هرمز التي رآها على قدم الاستعداد للقائه ، فطلب البوكرك من حاكمها ان يكون موالياً للتاج البرتغالي فرفض ، وهنا دارت رحى حرب ضروس ما بين الفريقين كانت الغلبة فيها للبرتغاليين ، وأصبحت المدينة مرتبطة بالتاج البرتغالي ، تؤدي له الغرامة الحربية مع الجزية السنوية ، فضلاً عن اعفاء البضائع البرتغالية من كل ضريبة ، وزيادة على هذا وذاك يتوجب على كل سفينة في البلاد ان تمتنع من الابحار دون ترخيص من الاسطول البرتغالي ، ثم أكد البوكرك سيطرته على البلد ببناء حصن يكون مقراً لقوة برتغالية تقيم فيه ، وبذا غدت قاعدة الاستعمار البرتغالي ! هرمز القريبة من الجزيرة العربية ، والدانية من التربة الفارسية ، والمطلة على باب الخليج ، والتي هي — لموقعها الممتاز هذا — من الأهمية بمكان بالنسبة للتجارة العالمية ، حتى ان هناك مثلاً شائعاً يقول : « إذا كان العالم خاتماً ذهبياً فهرمز جوهرته النفيسة » .

سيطرة البرتغاليين على الخليج

وحدث في عام ٩١٤هـ ١٥٠٨ م ان ظهرت حركة عصيان في الاسطول البرتغالي نفسه ، إذ ثار بعض الضباط على البوكرك لاستبداده في الرأي ، فانشطر الاسطول على نفسه بسفنه ورجاله ، وسلك الفريقان : البوكرك والثائرون عليه ، الطريق إلى الهند ، وكل منها قد أخذ طريقاً مغايرة ، مودعين كل ما بذلوا من جهد في السيطرة على الخليج ، لمصلحة غيرهم من عروش أوربة التي أخذت تتطلع بعين النهم والشراهة إلى هذه البقعة من الارض .

ومع ذلك وفي شتاء عام ٩١٩هـ ١٥١٣ م ، قام البوكرك الذي أصبح حاكم الممتلكات البرتغالية في الهند ، بناء على أوامر عاهله ، بحملة ثانية على الخليج ، وكانت تلك الاوامر لا تخص الخليج وحده وإنما ترمي إلى احتلال عدن والتوغل في البحر الاحمر كذلك ، ولكن الحملة لم تحقق أغراضها ، بل يمكن القول أنها أخفقت ، فعاد إلى الهند ، وهناك عقد لواء الحرب لابن أخيه بيرو ، فأبحر بالأسطول حتى سوقطرة ، حيث استولى على عدة سفن عربية وواصل ابحاره إلى هرمز التي قدمت له غرامة حالت دون إحراقه المدينة ، ولكن لم تلبث الجزيرة أن اجتاحتها ثورة أهلية عارمة على حاكمها لخنوعه للبرتغاليين ، وألقى الثوار القبض عليه ، ولكن هدير مدافع الدخلاء سرعان ما غيّر ميزان القوى ، فتراخت قبضة الشعب عن الحاكم الدمية ، وأعاد البرتغاليون احتلال حصنهم القديم وعاد علمهم يخفق عليه بجانب العلم المحلي .

ولما قتل البوكرك عام ٩٢١هـ ١٥١٥م في إحدى غزواته البحرية ، كان الحاكم الذي خلفه في الممتلكات البرتغالية بالهند واسمه سواريز ،يسير على خط مغاير لسياسة سلفه من حيث الشدة والعنف ، ولكنه كان أشره منه إلى احتلاب ثروات البلاد واستغلالها أبشع استغلال، ومع ذلك فقد ظل البرتغاليون أسياد الموقف في الخليج بعد أن أحكموا سدّ الطريق الممتدة ما بين جزيرتي « سوقطرة » التي هي بمثابة باب الخليج ، وهرمز المقابلة لـ « بندر عباس » ، لا سيما وقد تمكنوا من تدمير

المراكب العربية وإحراقها بمن فيها،واحتلوا كلًا من ميناءي «فليات» و «فرياتي»، وأحكموا طوق سيطرتهم على الضفة الغربيـــة من الخليج باستثناء الاحساء التي استطاعت أن تفلت من قبضتهم .

وظل البرتغاليون أكثر سني القرن السادس عشر أسياد الموقف في الخليج لا ينازعهم فيه منازع ، وقد أنشأوا على جانبيه قلاعهم الحصينة التي تحمي أملاكهم ، وتمكّن من سيادتهم على البحر ، ومن تلك المنشآت قلعتهم التي شادوهـا في جزيرة قرين وهي تقابل ميناء الشويخ في الكويت، كما انهم أقاموا لهم مركزاً في البصرة، وبذا هيمنوا هيمنة كاملة على الطريق التجارية الممتدة من جزر اندونيسيا والهند حتى أوربة مروراً بالخليج العربي ورأس الرجاء الصالح ، وكانت نقطة الضعف في تلك الطريق الطويلة هي انهم لم يستطيعوا السيطرة على عدن ، وانقطـــاع حلقة واحدة في السلسلة كفيل بتحطيمها جميعـاً ، لا سيا وقد برز لهم أكثر من منافس واحد ، ناهيك بالثورات الوطنية التي أخذت تُضعف من قواهم شيئاً فشيئاً .

الأتراك العثمانيون يمتشقون الحسام

الدولة العثمانية تحل سورية ومصر

كان الجيش العثماني قد أولع بالتوغل في اوربة والانسياح الكاسح في ربوعها ، ولكن الممالك التي كانوا يفتتحونها سرعان ما كانت تميد ارضها تحت اقدامهم ، فتشتعل فيها الثورة بعد الثورة ، وتقوم فيها الانتفاضة اثر الانتفاضة ، ولذا فقد رأوا ان يولوا وجوههم شطر البلاد الاسلامية التي كانوا فيها واحدة من ثلاث قوى رئيسية ، اما القوتان الاخريان فتتمثلان بالدولة الصفوية الفارسية التي تبسط نفوذها على ايران والعراق ، ودولة المماليك وتحت سلطانها مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية .

وفي الواقع ان الصدام المسلح ما بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية كان ما يبرح يشتد ما بين الفينة والفينة لرفع الصفويين لواء زعامة المذهب الشيعي ، ولتمسك العثمانيين بمذهب السنة واعلان الشيعة خارجين عن الدين .

اما العلاقة ما بين العثمانيين والمماليك فكان الاولون يسلكون فيها سلوك التودد نحو اخوانهم في الدين ، ولا يفتأون يزودونهم بانباء فتوحاتهم في الديار الاوربية ، ليعم الفرح العالم الاسلامي ، رداً على الحروب الصليبية التي داوت رحاها

فيما مضى في بلاد الشام ومصر [1] ، على حين كان المماليك يسلكون سلوك الحذر نحو اولئك « الاخوة في الدين » .

وكان المماليك على حق بموقفهم المتوجس من جيرانهم « واخوانهم في الدين » العثمانيين . وفي احدى فترات النزاع العثماني الايراني « حاول قانصوه الغوري ، سلطان المماليك المتقدم في السن ، ان يقي نفسه من هذا العدوان على منطقة النفوذ المشتركة بينه وبين فارس ، فعقد حلفاً مع الشاه اسماعيل ، حتى إذا خرج السلطان سليم في حملة جديدة على الشاه ، سار قانصوه إلى حلب ، متظاهراً بالرغبة في اصلاح ذات البين ، ولكن سليماً كان قد بلغ الارض السورية فاغلظ معاملة السفراء الذين وجههم الغوري لطلب الصلح . وهكذا نشبت المعركة بين الفريقين في مرج دابق شمالي حلب في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ [2] » .

وغني عن البيان ان الجحافل التركية المزودة بالمدفعية التي تشكل تفوقاً ملحوظاً على اعدائها ، ما كادت تصطدم بالجيش الجركسي الذي قاده السلطان قانصوه الغوري حتى تفرق اكثر انصاره عنه وخذلوه منضمين إلى صفوف اعدائه ، فتراجع متقهقراً يجر ذيول الهزيمة والانكسار ، متخلياً عن حلب ودمشق والقدس فغزة ، تتعقبه الجيوش التركية إلى مقره في مصر حيث نازلته في معركة فاصلة كانت

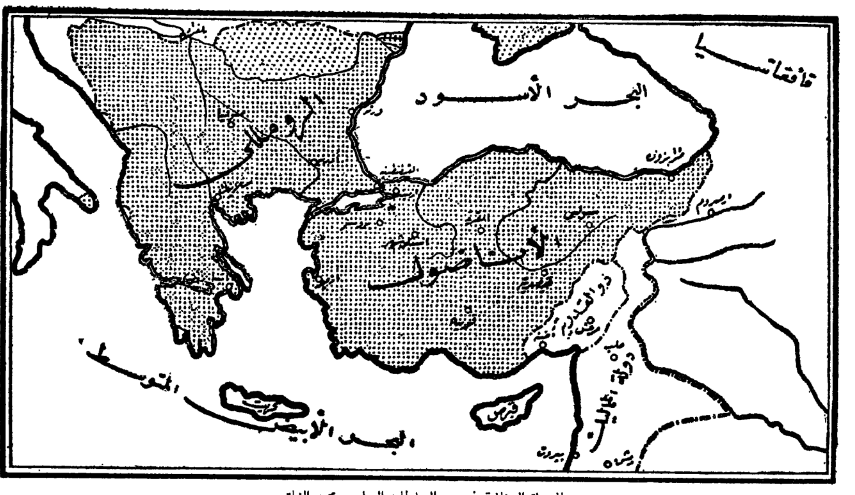
---

١ ــ من تلك الرسائل الكثيرة والمطولة المتبادلة ما بين الدولتين رسالة اورد فقرات منها الاستاذ ساطع الحصري في كتابه « البلاد العربية والدولة العثمانية » ص ٢٤ ، كتبها محمد الفاتح الى عزيز مصر اثر فتح القسطنطينية ومما جاء فيها :

« ان من احسن سنن اسلافنا ، انهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ونحن على تلك السنة قائمون ، وعلى تلك الامنية دائمون، متمثلين بقوله تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ومتمسكين بقوله عليه السلام : « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار » فهممنا هذا العام ، عممه الله بالبركة والانعام ، معتصمين بحبل ذي الجلال والاكرام ، ومتمسكين بفضل الملك العلام ، الى اداء فرض الغزاء في الاسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً ، والتي بقيت في وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخراً

فكأنها حصف على الخد الاغر وكأنها كلف على وجه القمر الخ ... »

٢ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية ج٣ ص ٦٢-٦٣



الدولة العثمانية في عهد السلطان السابع محمد الفاتح

فيها نهايته وانقراض الحكم المملوكي الشركسي في سورية ومصر .
وتحت انباء تلك الانتصارات الساحقة والخاطفة ، وانطلاقاً من واقع ان الارض تميد تحت قدميه ، سارع شريف مكة وأميرها أبو نمي بإرسال مفاتيح الديار المقدسة إلى السلطان الظافر اعلاناً عن الطاعة والدخول في دائرة نفوذه .

الاسطول العثماني في الخليج العربي

وسار السلطان سليمان القانوني على خطة أبيه في الفتح وامتشاق الحسام تارة في الغرب وطوراً في الشرق ، حتى إذا ارتدت جيوشه بجملتيه عام ٩٣٦ هـ ١٥٢٩ م ، و ٩٣٩ هـ ١٥٣٢ م كليلة الظفر والناب تجاه مدينة العلوم والفنون وعاصمة الامبراطورية الجرمانية – فيينا – توجه بتلك الجيوش نحو القطر العراقي ومنازلة أحفاد الساسانيين من ملوك الفرس ودحرهم ، ودخول عاصمة الرشيد بغداد دخول الفاتح الظافر عام ٩٤١ هـ ١٥٣٤ م .
واقتداء بأبي نمي الذي سلم مفاتيح الحرمين إلى السلطان سليم عندما فتح سورية ومصر ،تقدم الشيخ راشد بن مغامس الذي انتزع البصرة من أيدي الفرس ، وسلم مفاتيحها إلى السلطان سليمان ، وبذا أصبحت الدولة العثمانية دولة خليجية ، وغدت بالتالي وجهاً لوجه مع قوات الاستعمار البرتغالي .
وفي عام ٩٤٤ هـ ١٥٣٧ م كانت كالكوتا وكامباي الدولتان المسلمتان في الهند قد اكتويتا بنار الدمار البرتغالي ،ولذا فقد رفع ملكاهما صوت الاستغاثة بالسلطان العثماني الذي غدا خليفة المسلمين ، ولبى عاهل القسطنطينية نداء الاستغاثة وطلب النجدة ، بأن بعث إلى واليه على مصر سليمان باشا الخادم الأمر التالي :
« عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجاتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد اسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الاجزاء ، فانك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون

وأزلت رايتهم من البحر [1] »

وانصاع الوالي لأمر مولاه السلطان ، وأبحر بأسطول مؤلف من سبعين سفينة مسلحة بالمدافع تقلّ عشرين الف جندي باسل ، واستطاع أن ينشر بقوة حرابهم لواء سيطرته على كل من اليمن وعدن ، ويمسك بمفتاح البحر الاحمر ، ولكنه لم يبلغ النتيجة التي هدف اليها من منازلة الاسطول البرتغالي في مياه المحيط الهندي ، لأن البرتغاليين عرفوا بأمر تحرك الاسطول العثماني ، واستطاعوا أن يستدرجوا الاساطيل الهندية لخوض المعركة قبل وصول الحليف القوي، وعندها قفل الاسطول العثماني عائداً ، ولكن لا إلى قواعده ، بل ليعرج على مياه الخليج الذي كان يتأجج حتى قبل هذه الحملة بنيران الثورات ضد البرتغاليين لمـــا اثقلوا به كواهل المواطنين من اعباء هي فوق طـاقة البشر ، فاندفع في وجوههم لهيب الثورة عـام ٩٢٩ هـ ١٥٢٢ م في هرمز وامتد منها إلى البحرين .

ولذا كان ظهور الاسطول العثماني في مياه الخليج بمثابة طوق النجاة لفريق تتقاذفه الأمواج وتكاد تأتي عليه غمرات اللجج ، مما سهل على السلطات العثمانيـــة احتلال مسقط ، ومحاصرة جزيرة هرمز ، في الوقت الذي هب فيه سكان القطيف بثورة كنسوا بها أوضار البرتغاليين ووضعوا أيديهم على قلاعهم الحصينة ، وقدموها سائغة للاتراك .

وتحرك البرتغاليون للانتقام واستطاعوا ان يبلغوا القطيف مجدداً ويدكوها دكاً ، ويردوا شاهق حصونها إلى ذل التراب ، ويتقدموا بعدهـــا نحو البصرة ، ولكنهم خافوا من أن توجه اليهم طعنة في الظهر وان يغرر بهم حلفاؤهم سكان هرمز ، فعادوا أدراجهم إلى قاعدتهم .

حروب القراصنة

لكن الاتراك لم ينسوا للبرتغاليين فعلتهم بالقطيف ، فجردوا عليهم حملة بحرية

---

١ – آسيا والسيطرة الغربية ص ٥٠ – ٥١

بقيادة القرصان بيريك وبأمرته ستة عشر الف محارب ، فاستطـــاع أن ينزل بالبرتغاليين أشد الضربات إيلاماً ، وان يقض مضاجعهم ، وينغص عليهم حياتهم حتى غدت جحيماً لا يطاق ، إن احتل مسقط عرج على هرمز ، فان أعجزته جنح إلى جـزيرة قشم ، ليعاود التطواف في مياه الخليج يمشط انحاءها مشطاً ، في صراع أبدعت ريشة جان جاك بيربي بوصفه في كلامه عن القراصنة الشجعان : « أولئك الافاقون العريقون في البحر والبر ، الذين كان همهم الاعتداء على البرتغاليين ولا يتهيبون ان يشتبكوا معهم في عراك [١] »

ولما اختفى هـذا القرصان الجريء من ساح المعركة ، عقد السلطان لواء قيـادة الاسطول لمراد بك الذي اشتبك في المياه الفارسية بالاسطول البرتغالي في معركة سجال. ثم تجددت المعارك عام ٩٦٥ هـ ١٥٥٧ م قرب مسقط وكسبها البرتغاليون، وبسطوا من جديد سيطرتهم على الخليج .

ولما عاود الأتراك التحرش بالبرتغاليين ، وضربوا حصارهم على البحرين ، كان لهم أولئك بالمرصاد ، ونازلوهم في معركة خسرها الأتراك ، إلا انهم أعادوا الكرة عام ٩٨٩ هـ ١٥٨١ م فاحتلوا مسقط ، وهرب أهلها مع الحامية البرتغاليـــة إلى الداخل ، لكن الأتراك لم يطيلوا اللبث فيها طويلاً فغادروها بعد ان تزودوا منها .

وفي عام ٩٩٥ هـ ١٥٨٦ م توجهت حملة برتغالية إلى ممباسة فدمرت حصناً تركياً وقصفت المدينة ، ثم راحت تبني من جديد حصناً لها في مسقط التي مارست فيهـــا حكماً شبيهاً بحكمها في هرمز .

لكن ، وفيما كان القرن السادس عشر يجنح إلى المغيب ، كان نفوذ البرتغاليين يودع المنطقة مواكباً في ذلك الزمن ، إذ برز إلى الميدان منافسون جدد أخـذوا يزحزحون البرتغاليين عن مواقعهم ليحلوا محلهم ، وفي طليعـــة أولئك المنافسين، الهولنديون والبريطانيون الذين انتزعوا قصب السبق من أيدي البرتغاليين، على حين

---

١ J. J. Berreby : Le Golfe Persique . P, 33-34

ظل العثمانيون دولة خليجية حتى أواخر الحرب العالمية الأولى مستقرين في منطقتي الحسا والبصرة ، وان نازعهم السيادة على الأخـــيرة جيرانهم الفرس وتمكنوا من احتلالها فترة قصيرة من الزمن ، لكن وجود العثمانيين في الخليج ظل وجودَ مـن تميد الأرض تحت قدميه .

الإنكليز يدخلون الحلبة تجاراً مسلحين

بريطانية تتطلع الى الشرق

ما كادت بريطانية تتخلص من منافستها القوية العنيدة ، اسبانية ذات الاساطيل الجبارة «الارمادا» ، التي كانت عازمة على قبر الانكليز في جزيرتهم فانقبرت اطماعها في الجحيم عام ٩٩٧ هـ ١٥٨٨ م نتيجة تحطم الاسطول الجبار ، حتى اخذت عيناها النهمتان تدوران في محجريها تطلعاً إلى عالم الشرق بشراهة وكلب ، مكملة ما كانت قد شرعت به من مدّ نفوذها خارج جزيرتها .

وقد عرف الانكليز الذين يتصفون بالدهاء منذ القدم ، كيف يدخلون الخليج العربي متابعين خط سيرهم الذي انتهجوه في الهند ، ومسوح الراهب وطيلسان التاجر زيان قديمان من ازياء المستعمرين الذين يتقدمون من الشعوب الضعيفة والمتأخرة بطاقات الورود التي تخفي تحتها الخناجر .

وكان أول من فكر من اباطرة الانكليز بالنفوذ إلي الشرق هي الملكة اليزابيت الاولى وكانت تعرف ما هي عليه المملكة الفارسية من عداء مع الاتراك العثمانيين ، فانفذت في عام ٩٦٩ هـ ١٥٦١ م مبعوثاً لها إلى البلاد الفارسية ، مزوداً برسالة ودية إلى الشاه تعرض فيها رغبة انكلترة باقامة علاقات تجارية مع فارس .

ولم تنجح الخطة ، ولكن هل يقلع الصياد عن الصيد إذا ما سحب شصه فارغاً في المرة الاولى ؟.. انه ولا بدّ معاودٌ الكرة بعد الكرة ، والمحاولة إثر المحاولة ،

فكيف بالصيد الديبلوماسي ؟ وهكذا كان لانكلترة مبعوث جديد الى فـــارس وذلك عـام ٩٨٧ هـ ١٥٧٩ م ، وهو في هذه المرة قس كاثوليكي يدعى « ستيفر » ، وكانت وجهته الهند مباشرة ، وقد عرف هذ الداهيــة في أي وسط ينشط ، فعمل بكلية للجزويت في « غوا » البرتغالية ، ومن هنــاك كان يبعث بالرسالة تلو الرسالة الى الوطن الام ، واصفاً ما هي عليه التجارة في الشرق ، وصفاً يتحلب له لعـــاب التجار المغامرين ، فكان ان قفى على آثاره في عــــام ٩٨٨ هـ ١٥٨٠ م المدعو جون بنويري الذي نفذ الى هرمز قلعة البرتغاليين على الخليج ، وطاف بمنطقة الخليج من اقصاها إلى اقصاها .

ولما عاد هذا المغامر إلى وطنه راح يصف باسهاب ما شاهد ورأى ، ولمـا كانت الملكة الحصيفة تريد أن تقف على الحقيقة كما هي ، فقد اعـادت مبعوثهـا هذا للمرة الثانية إلى هرمز يصحبه ثلاثة اشخاص .

ولما كان الأفاقون يعرفون اخلاق بعضهم بعضـــاً بشكل صحيح ، فقد القى البرتغاليون القبض على افراد البعثة القلائل بتهمـــة التجسس وبعثوا بهم إلى سجن « غوا » .

ولم يكن البرتغاليون على خطأ عندما زجوا في السجن بهؤلاء الذين يمكننا ان نعرف شيئاً عن مهمتهم من خلال رسالة كتبها احدهم ويدعى «رالف فيشن» يصف البصرة بما يلي : « البصرة بلد التجارة الرائجة بالافاويه والعقاقير » .

ويصف هذا المغامر لمواطنيه ما هو عليه الشرق من ثراء ، وكيف تثقل المرأة الشرقية أذنيها ، وأحياناً أنفها وصدرها ومعصميها ، بالأقراط والحزام والأطواق والأساور ، ناهيك عن الخلاخيل التي تحلي بها رجليها ، وكل تلك الزينة والحلية من الذهب الخالص والجواهر واللآلىء مما تشتهيه كل أنثى ، ويسعى كل ذكر لإرضائها به .

وبلغت مطامع بريطانية في الشرق ذروتها حين سطا المدعو «دريك» عام ٩٩٦ هـ ١٥٨٧ م على ارشيف التجارة البرتغالية في السفينة « فيليب » وقد تكشفت له تلك الصفحات عن الأرباح الأسطورية التي يجنيها البرتغاليون .

وتتوى الأحداث سراعاً متلاحقة ، إذ تمكن الأسطول البريطاني ان يدفن الارمادا في أعماق اليم ، وبذا تخلص الانكليز من منافسيهم الاسبان الأقوياء الشكيمة والسلطان ، وارتقى عرش فارس رجل هو الشاه عباس الأكبر الذي رأى في الانكليز حلفاء طبيعيين ضد أعدائه التقليديين: الأتراك، وأعدائه وأعدائهم معاً: البرتغاليين الذين يأخذون بخناقه لاحتلالهم مفتاح بلاده: جزيرة هرمز .

ولم يمضِ طويل وقتٍ على تربع الشاه عباس عرش الأكاسرة ، حتى برز في بلاطه الشقيقان انطوني وروبير تشيرلي ، وقد عرفا كيف ينفذان إلى قلبه ، إذ حملا له الكثير من الهدايا ومنها ستون الف بندقية ، ما كان أحوجه اليها في حربه مع الأتراك !

ولم يتردد الشاه في اتباع كل خطة يشير بها الأخوان ، حتى انه رفع أحدهما لمقام سفير له في بلاطات أوربة ، وكانت الحصيلة الأهم من ذلك أن شرّع الرجل أبواب بلاده على مصاريعها للتجارة البريطانية وأعفاها من المكوس .

وبذا تحقق للانكليز ما كانوا يطمعون به من الاتجار مع الفرس ، يشترون منهم الحرير وبضائع أخرى ، ويبيعونهم منسوجاتهم ، وبخاصة الجوخ والمنسوجات الصوفية ، بسبب ما يحتاجه الفرس للدفء أيام الشتاء .

وفي مستهل القرن السابع عشر كانت الملكة اليزابيت تدشن بنفسها شركة الهند الشرقية، فأوجس البرتغاليون خيفةً ، وشعروا بالخطر المحيق بهم،فأوعزوا إلى الحاكم البرتغالي بالهند بأن يهتم بأمر القلاع والحصون في جميع المستعمرات البرتغالية في الهند وفي الخليج ، لأنهم يعرفون أمام أي منافس قد أصبحوا ، وما عهدهم بحادث إغراق الارمادا ببعيد .

وهكذا ، وتحت عاملي الخوف والغضب معاً ، وابقاءً على سيطرتهم التجارية على المنطقة ، أخذ البرتغاليون يضايقون السفن الانكليزية ، ويتصدون لها ، ويمنعون عبور أية سفينة إلى الخليج ما لم تحمل ترخيصاً من أحد الموانىء البرتغالية .

ولم يكن الانكليز ممن يخافون التحدي ، وليس ببعيد انهم كانوا يستدرجون البرتغاليين لحلبته ، معتمدين في ذلك على صداقتهم مع فارس والشاه عباس الذي كان يتحرق لتحرير هرمز الموجهة كالحربة إلى قلب فارس، والذي عقد مع الانكليز اتفاقية غريبة للاستيلاء عليها وتخليصها من يد البرتغاليين .

ثمار الصداقة البريطانية الفارسية

واستناداً إلى قوة الانكليز طفق الشاه عباس منذ عام ١٠١١ هـ ١٦٠٢ م يجرد حملاته على القلاع البرتغالية ، وفي ذلك العام بالذات هاجم البحرين وانتزعها من يدهم واحتلها فترة قصيرة من الزمن ، وفي عامي ١٠٢١ هـ ١٦١٢ م و ١٠٢٤ هـ ١٦١٥ م نازل الانكليز البرتغاليين قرب سورات وهزموهم ، لكن البرتغاليين لم يكونوا من النوع الذي يستسلم بسهولة ، ولذلك فانهم — وقد اصبحوا على بينة من نوايا الشاه والانكليز معاً — سارعوا إلى احتلال بندر عباس خوفاً من أن يضطروا إلى الجلاء عن هرمز التي شرع الشاه يطالب بها، ويوعز إلى حكام المقاطعة باستردادها، لكن البرتغاليين اضطروا بعد عامين من الحصار إلى أن يجلوا عن بندر عباس .

وفي عام ١٠٢٥ هـ ١٦١٦ م اغار البرتغاليون على ميناء صحار الذي كان ينافس موانئهم في مسقط وهرمز ، فهدموه بعد أن نهبوه .

ولكن بينما كان الانكليز من وراء شركة الهند الشرقية يتغلغلون في فارس ، وتزداد تجارتهم رواجاً مما يؤثر تأثيراً سيئاً على مراكز البرتغاليين في هرمز ، شرع هؤلاء يحاولون عبثاً استمالة الشاه عباس ، الذي كان يفكر بطريقة مغايرة تماماً ، الا سيما وقد خيم السلام على الحدود الفارسية التركية ، وسجل الأسطول الانكليزي تفوقاً ملحوظاً على الأسطول البرتغالي ، مما شجعه على طرد البرتغاليين بالتعاون مع العرب عام ١٠٣٠ هـ ١٦٢٠ م .

ولما رأى الشاه عباس أن موعد اتفاقه مع الانكليز قد حان ، جعل يطالب بالعائدات التي كانت هرمز تدفعها للشاه باعتبارها من املاكه ، والتي كانت قد نقطعت منذ استيلاء البوكرك عليها ، ولكن البرتغاليين المتحصنين في قلعتهم في

جزيرة قشم ، والمطمئنين لوجود اسطولهم بحراسة هرمز ، رفضوا طلب الشاه ، فبدأ الشاه اولى عملياته الحربية بحصار القلعة بقيادة « امام كولي خان شيراز » . وكان مقدراً للفرس أن يخفقوا في تلك المغامرة لولا ظهور الاسطول الانكليزي القادم إلى ميناء بندر عباس من الهند .

ودارت مفاوضات ما بين القوات الفارسية وقائد الاسطول الانكليزي بغية الهجوم المشترك على قشم وهرمز ، وهدد الفرس الانكليز بحرمانهم مما حصلوا عليه من امتيازات تجارية ، وبخاصة احتكار الحرير الفارسي . ووجدت شركة الهند الشرقية الفرصة مؤاتية للتخلص نهائياً من البرتغاليين الذين يشكلون الخطر الرئيسي على التجارة الانكليزية ، فأمر المجلس الاعلى للشركة قائد الأسطول بخوض المعركة إلى جانب الفرس ، شريطة ان تحتفظ انكلترة بقلعة هرمز ، وان يقتسم الفريقان المغانم بالتساوي ، وأن تعفى التجارة الانكليزية في بندر عباس من الضرائب إلى الأبد .

وبناء على ذلك خاض الاسطول الانكليزي الحرب في أول عام ١٠٣٢ هـ ١٦٢٢ م ، ولم يصمد البرتغاليون طويلاً تجاه هذا الحلف ، فاستسلمت قلعة قشم اولاً ، ونزلت قوات الحليفتين الى اليابسة في هرمز ، فاحتمى البرتغاليون بقلعتهم هناك ، لكن الحصار الشديد أرغمهم على الاستسلام ، وفي نيسان (ابريل) من العام نفسه انزل العلم البرتغالي عن قلعة هرمز إلى الأبد . ولم تنفذ بنود المعاهدة المبرمة ما بين الفرس والانكليز بسبب استئثار الفرس بالمغانم كلها ، ولاسيما المواد الحربية من اسلحة وذخيرة ، كما اشتروا منهم حصتهم من المنهوبات بابخس الأثمان ، والأهم من كل ذلك انهم لم يسلموا القلعة إلى الانكليز كما يقضي الاتفاق المبرم ، فشعر هؤلاء بأنهم اهينوا ، وانهم خدموا بهذه الحرب قضية الفرس وحدهم .

سقوط آخر معقل برتغالي في الخليج

وكان الفرس يأملون ان يستعينوا بالانكليز على مهاجمة مسقط ، لكن هؤلاء اعتذروا عن ذلك متناسين — في سبيل حرية تجارتهم مع فارس — خسائرهم وما لحقهم

من نقض المعاهدة ، لكن الشاه أكد وعده لهم ببيعهم أية كمية يريدونها من الحرير الفارسي ، وإدخال بضائعهم دون أية ضريبة، ورعاية مصالحهم في شيراز وأصفهان. وقد احتل الفرس على الشط المقابل مدينتي صحار وخورفكان على ساحل عمان ، لكن البرتغاليين ما لبثوا ان جمعوا قواهم واستعادوا المدينتين منهم ، وهاجموا الساحل الفارسي ، وعاث قراصنتهم في البحر فساداً .

وهنا عادت القوى العربية تبرز من جديد ، إذ أغار إمام عمان عام ١٠٥٠ هـ ١٦٤٠م على الحصن البرتغالي في مسقط، ثم ارتد عنه ، وفي عام ١٠٥٣ هـ ١٦٤٣ م عاود الإمام هجماته على المواقع البرتغالية فاستولى على صحار وطرد منها البرتغاليين بعد ان حكموها ٢٠ عاماً، وفي عام ١٠٥٨-١٠٥٩هـ١٦٤٨-١٦٤٩م نزلت بالبرتغاليين الضربة الأخيرة ، فقد حاصر العثمانيون مسقط لمساندة القوى العربية فيها ، ولما وصل أسطول برتغالي من الهند بقيادة الحاكم البرتغالي هناك لإنقاذ مسقط ، كان الأمر قد انتهى ، وكان الحصن والمدينة في قبضة الأيدي الوطنية ، ولم يوقف العرب زحفهم بل واصلوه ليزيلوا آخر معقل للبرتغال في الخليج .

وحاول حاكم الهند البرتغالي استعادة مراكز البرتغاليين على سواحل الخليج من جديد ، فأرسل عام ١٠٦٣ هـ ١٦٥٢ م أسطولاً التقى قرب مسقط بأسطول عربي، وقد لعبت الحامية العربية دوراً هاماً في هذه المعركة ، إذ رمى حصن مسقط العربي السفن البرتغالية بوابل من مدفعيته ، مما أضطر الأسطول البرتغالي إلى التراجع .

وبذلك خسر البرتغاليون جميع مستعمراتهم على الشط العربي ، ولم يبق لهم في الخليج غير مرفأ كنج على الساحل الشرقي الذي خسروه كذلك بعد وقت قصير.

وهكذا كانت نهاية الاستعمار البرتغالي في الشرق لسوء معاملته الشعوب الشرقية اولاً،ولاعتماده على قوات عسكرية ينقصها النظام والقيادة الحكيمة ثانياً،ثم لما لقي من منافسة التجارة الانكليزية ومزاحمة التجارة الهولندية التي بدأت منذ سنين قليلة تغزو الشرق ، وتشق لها طريقاً إلى الخليج العربي وجزائر الهند الشرقية .

الهولنديون يزاحمون

اسطول هولندي للتجارة والحرب

لقد تنفست انكلترة الصعداء إذ زال من طريقها المنافس الأكبر المتجسم بالبرتغاليين ، وقد رأينا أي دور اضطلعت به الشركة الهندية بمنازلة اسطولها لهم ، وأخذها بيد الفرس في حربهم ، مما جعل العرب ينتهزون الفرصة للانتفاض على الجلادين القساة والتخلص نهائياً من نير استعبادهم .

لكن انكلترة لم تبق وحيدة في الميدان ، وانما كان لها مزاحمون خضدوا قبلها شوكة البرتغاليين ونازلوهم في مياه المحيط الهندي ، وهؤلاء هم الهولنديون .

لقد شارك الهولنديون الانكليز تحديهم للأمر البابوي الذي يمنح ممتلكات الشرق للبرتغاليين والغرب للاسبان ، ويرد صاحب كتاب « آسيا والسيطرة الغربية » هذا الأمر لقيام المذهب البروتستاني وانتشاره في اوربة فيقول :

« وكان لانتشار المذهب البروتستنتي بأوربة نتائج أعظم أهمية وأبعد مدى فيما يتعلق بآسية . فان ذلك الانتشار أبطل فيما يتعلق بالأمم البروتستنتية منحة البابا للبرتغال باحتكار التجارة بالشرق . وحدث أيضاً ان توازن القوى بأوربة أخذ يتغير رويداً رويداً ، فان انكلترة لعهد اليزابيت تحدت احتكار فيليب الثاني في البحار العالية الاسبانية ، وبعد هزيمة الارمادا التي ظُن انها لا تقهر ، وتشتيت شملها ، صار في إمكان دول أوربة البحرية اقتحام المياه الهندية . ومن الأمور الهامة

التي يجب نذكرها ان مركز تجارة الأفاويه قد انتقل مـــن لشبونة إلى الموانىء العظيمة بالأراضي المنخفضة أثناء ذلك القرن . ذلك ان الاقبال على التوابل كان أعظم في مناطق أوربة الشمالية ، كما ان أهمية لشبونة كانت ترجع بوجه رئيسي إلى انها المستودع لتلك البضائع الضرورية . بيد ان التجارة في أوربة كانت بأيدي تجار شماليين ، وكانت انتورب منذ البـــداية مركزاً لتلك التجارة التي ما لبثت ان احتكرتها فعلاً فيما بعد ، فان التجار الهولنديين الذين كانوا يصرّفون هذه السلع لم يعودوا راغبين بأي حال بعد ذلك ان يـدفعوا أسعار الاحتكار التي كان يطلبها البرتغاليون ، وخاصة وقد اتضح ان تحدي قوة البرتغاليين في البحار الشرقية كان من السهولة بمكان ، وفي ١٥٩٢ عقد كبار تجار الهولنديين بأمستودام اجتماعاً قرروا فيه إنشاء شركة للتجارة مع الهند . ورغبة في إعداد العدة للرحلة وجمع المعلومـات الضرورية لها أرسلت تلك الهيئة كورينليوس دي هوتمان إلى لشبونة . ثم حصلت الشركة على المعلومات حيث وضعها تحت تصرفها جان هيوجن لنشوتن الذي أتاح له منصبه إذ كان يعمل أميناً لأسرار كبير أساقفة غوا ، ان يحظى بفرص استثنائيـة نادرة لفهم نقاط الضعف والقوة في مركز البرتغاليين ببلاد الشرق . وينبغي ألا يفوتنا ان البرتغاليين حتى في عهد الدوم مانويل اتخذوا أعظم الاحتياطات للاحتفاظ بسرية الطريق إلى الهند . فأصدر مانويل في سنة ١٥٠٤ مرسوماً يحظر ان توضع على الخرائط أية اشارات تدل على الطريق بعد منطقة الكونغو . وجمعت جميع الخرائط التي كانت عليهـا قبل ذلك اشارات إلى مختلف الأماكن الواقعة بعـــد الكونغو ، جمعت جميعاً ومحيت منها الإشارات. وكانت الحكومة البرتغالية تحيط دائرة رسم الخرائط الرسمية بأعظم الكتمان ، ومن ثم صار لزاماً على الهولنديين ان يجمعوا المعلومات الضرورية من تقارير لنشوتن وهوتمان [١] . »

وفي الفترة الممتدة ما بين ١٠٠٧ — ١٠١٠ هـ ١٥٩٨ — ١٦٠١ م ،كان اسطول هولندي مؤلف من خمس عشرة سفينة يأخذ طريقه من رأس الرجاء الصالح ووجهته

---

١ ـ اسيا والسيطرة الغربية ص ٥٥ ـ ٥٦

مياه المحيط الهندي ، لا للاتجار فقط ، وانما ، وبتفويض رسمي من الحكومة ، للعمل الحربي والسياسي كذلك .

وعقد الهولنديون عام ١٠١٣ هـ ١٦٠٤ م أول معاهدة مع امبراطور « ملبار » الهندي ، وتنص صراحة على طرد البرتغاليين من الهند . على أن خطة الهولنديين عدّلت فضربوا اضعف المواقع البرتغالية في جزائر أندونيسيا وزحزحوهم عنها ، وحلوا محلهم ، ثم انكفأوا إلى الوراء شأنهم في ذلك شأن الانكليز لتأمين خط ملاحي لهم ، وكان ظهورهم في مياه الخليج ، لمناصرة البريطانيين على البرتغاليين العدو المشترك .

الهولنديون يتبوأون مركز الصدارة في الخليج

وبينما كان الفرس مشتبكين مع الاتراك في حرب عنيفة حول بغداد التي انتزعوها من العثمانيين ، وقام هؤلاء بالقاء الحصار عليها وتشديد الخناق على القوات الفارسية المنهكة ، تقدم الهولنديون من الشاه يطلبون نصيبهم من تجارة الحرير الفارسي ، فلم يستطيع الشاه إلا الموافقة ، لاسيا وانهم اسهموا مع الانكليز عام ١٠٣٥ هـ ١٦٢٥ م بالحرب ضد البرتغاليين واجبارهم على التخلي عن هرمز ، ولكن تبين للانكليز بعد ذلك أن حلفاءهم في هذه المعركة كانوا يعملون ضدهم في الخفاء في البلاط الفارسي ، ويهدفون إلى الاستيلاء على هرمز .

وهكذا ، ما كاد الانكليز يرتاحون من البرتغاليين حتى وجدوا في شخص حلفائهم الهولنديين منافسين اقوى شكيمة من أولئك ، يسارونهم في ميدان السياسة ، ويجارونهم في حلبة التجارة ، وعلى الرغم من الاتفاق المسبق ما بين الانكليز والشاه باقتسام المكوس مناصفة بين الفريقين ، فقد هبط الهولنديون ببضائعهم إلى بندر عباس ولم يدفعوا للانكليز بنساً واحداً ، مما أثار حفيظتهم . ولكن ماذا يصنعون ، والهولنديون ليسوا بالضعفاء .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وانما استطاعوا في عام ١٠٣٧ هـ ١٦٢٧ م ان يقلقوا مركز الشركة الانكليزية في فارس ، مغتنمين فرصة انغمارها في الحروب

التركية ، والاضطرابات الداخلية ، فانتزعوا من الانكليز حصة الأسد بتجـارة الحرير ، وأخذوا يستدرجون البريطانيين للحرب في مياه المحيط الهندي فنازلوهم في سومطرة وجاوة ، كما كشفوا ظلهم من سيام والصين .

ولما توفي الشاه عباس عـام ١٠٣٩ هـ ١٦٢٩ م خسر الانكليز بموته صديقاً وفياً ، واصبحت كل الاتفاقات السابقة ما بينه وبين البريطانيين حبراً على ورق ما لم يصدقها خلفه ، وبذا واجهت التجارة البريطانية صعوبات جمة لفترة من الزمن، لكنها عادت فانتزعت عام ١٠٤٢ هـ ١٦٣٢ م من الشاه صافي تصريحاً بمزاولة تجارة الحرير .

لكن الهولنديين كانوا قـد عرفوا في تلك الفترة كيف يوطدون اقدامهم في فارس وسبيلهم في ذلك استمالة وجوه البلد بالرشوة من جهة وبالمضاربة المالية من جهة ثانية ، حتى انهم لم يتورعوا عن بيع بضائعهم بخسارة ملحوظة ، وبذلك هيمنوا تقريباً على تجـارة فارس ، ولم يبزغ عام ١٠٥٠ هـ ١٦٤٠ م حتى كان لهم مركز الصدارة في الخليج ، بينما كان البرتغاليون يحاولون دون جدوى استرجاع منزلتهم التي فقدوها فيه .

صراع الانكليز والهولنديين

وكفرسي رهان متسابقين في حلبة واحدة ، تمكن الانكليز بموافقة ورضا الاتراك عام ١٠٥٣ هـ ١٦٤٣ م من افتتاح مؤسسة لهم في البصرة ، على حين ظل الهولنديون على متابعة سياستهم القديمة : الرشوة وعرض العضلات في آن واحد ، وظهر لهم في عام ١٠٥٠ هـ ١٦٤٠ م اسطول جبار هاجموا به قشم وانتزعوها عنوة من أيدي الفرس ، وشادوا بها في مياه الخليج المراكز والحصون لتكون على اهبة الاستعداد لمواجهة أي طارىء ، فلم يكن من الشاه إلا أن ارتعدت فرائصه من من ظهور تلك القوة المفاجئة ، واخذ يجزل الهبـات والعطايا لقائد الأسطول ، واجرى معه محادثات اسفرت عن اعفاء البضائع الهولندية من اية ضريبة في كافة بلاد فارس .

واراد الهولنديون استثمار هـذا النصر فتوجهوا باسطولهم إلى ميـاه البصرة حيث قصفوا المؤسسة البريطانية وكادوا يدمرونها .

وفي عام ١٠٦٣ هـ ١٦٥٢ م اندلعت نيران الحروب واستعرت في اوربة ما بين انكلترة وهولندة بصراع مرير دام عامين كاملين وانتهت سجالاً ما بين الطرفين ، لكن هولندا عمدت في اثنائها إلى توسيع رقعة القتال ونقل ساحات الحرب إلى ما وراء البحار ، وهنا ظهر اسطول هولندي في ميناء سورات الهندي قاصداً ميـــاه الخليج ، واشتبك مع الأسطول الانكليزي وتمكن من أسر ثلاث سفن منه .

ولم يمض عامان على هذا الحادث حتى جدد الهولنديون الاشتباك مع الانكليز ، واغرقوا لهم سفينتين في مياه بندر عباس ، ممـــا عطل التجارة الانكليزية في هذا الميناء ، كما نقل الانكليز مؤسستهم في البصرة إلى مكان آخر خوف دمارها ، وبذا غدا الهولنديون اسياد الموقف ، وارباب التجارة مع فارس، لا تفتأ سفنهم تمخر مياه الخليج قادمة نازحة ، موقرةً بالسكر والسجاد والحرير والفضة والذهب ، وظل الانكليز قانعين من الغنيمة بحصة الثعلب .

تجدد المقاومة العربية

ولكن حدث في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر أن برز منافس جديد للاستعمارين الهـــولندي والانكليزي معاً ، وهو الاستعمار الفرنسي ، مما اضطر العدوتين المتنازعتين المتصارعتين : هولندا وانكلترا ، إلى ان تتخذا موقفاً جديداً ، وتتعاقدا على التعاون فيما بينهما لدرء الخطر الجديد .

وكانت النتيجة شبيهة تماماً بنهاية أيام الاستعمار البرتغالي ، فقد نشط البحـارة العرب الميامين وبرزوا إلى الميدان من جديد،وراحوا ينازلون الهولنديين ويقاتلونهم بضراوة متناهية (وقد مرّ معنا في الفصل الأول أي دور اضطلع به الأمير مهنا في هذا الصدد) وهكذا وفيما كان الهولنديون يُرغمون على التخلي عـن مركزهم في بندر عباس الذي نقلوه إلى البصرة ، وبالأصح إلى جزيرة خرج القريبة من البصرة، عادوا فأرغموا على الانسحاب،من هذا المركز ايضاً عام١٠٨٦هـ ١٦٧٥م، مما كشف

ظلهم نهائياً عن الخليج، في حين كان عرب رأس الخيمة ومسقط يتقدمون ليحتلوا أكثر الجزر القريبة من الشط الشرقي الفارسي، ويلعبوا دورهم كقوى مهمة في مياه الخليج الذي ظل مسرحاً للأحداث العالمية تتنازعه قوة فرنسة الغازية، المصممة على انتزاع موطىء قدم لها في حلبة النزاع هذه، وانكلترة المتشبثة بموقعها، التي تتلقى الصدمات صابرة معاندة، لتعود فتمثل دور المهاجمة من جديد، إذ تمخضت أحداث عام ١١٠٠هـ ١٦٨٨م كما يقول جون مارلوف[1] عن عقد اتفاق ما بين «شركة الهند الشرقية» والحكومة البريطانية، منحت الحكومة بموجبه الشركة جزيرة بومباي مع حق انشاء قوة تابعة لها وممارسة الادارة المدنية فيها، وبذا بدأ التغير في وضع الشركة، فتبدل من كونه هيئة لتجار متفرقين إلى ادارة تابعة للتاج، أو على الأقل شبه تابعة للتاج، وفي الوقت ذاته نقل مركز الشركة في الشرق من سورات إلى بومباي. ولقد قوي مركز الشركة التجاري بعد ان تم دمجها بعدد من الشركات البريطانية الأخرى التي كانت تتاجر مع الشرق، وازداد بالنتيجة مركزها السياسي قوة بعد ايفاد سفير بريطاني إلى بلاط المغول.

وبذا غدا تحت تصرف شركة تجارية قوى عسكرية تتحرك لحماية مصالحها وتقاتل لتحقيق أهدافها.

(1) The Persian Gulf in the Twentieth century. P. 8

الفرنسيون ينازعون الانكليز السيادة

فرنسة وعقدة الهند

لم تكن حرب السنوات السبع التي احتدم اوارها عام ١١٧٠ هـ ١٧٥٦ م ما بين فرنسة وانكلترة الدولتين اللتين كثيراً ما تخالفتا فتحاربتا وائتلفتا فتحالفتا ، قائمة في الديار الأوربية فحسب ، وانما امتدت إلى املاك الدولتين فيما وراء البحار ، لأن تلك الممتلكات هي بتحصيل الحاصل الغنم الذي تفوز به الدولة الظافرة ، والغرم الذي يحل بالدولة الخاسرة .

وكان من أول اعمال فرنسة ضد انكلترة خارج القارة أن قوتها البحرية هاجمت القاعدة الانكليزية في بندر عباس ودمرتها ، مما اضطر الانكليز لأن ينقلوا تلك القاعدة إلى البصرة .

ورغم انتهاء حرب السنوات السبع ، وخروج فرنسة منها خاسرة ، وتنازلها لانكلترة بموجب معاهدة الصلح المبرمة ما بينهما في سنة ١١٧٧ هـ ١٧٦٣ م عن سائر ممتلكاتها في الهند ، ورغم وقوعها بعد فترة في دوامة ثورتها الكبرى التي الهتها عن كل شيء ، فما إن عادت الأحوال تستقر فيها نسبياً ، ورغم رفع شعارات الحرية والاخاء والمساواة ، حتى عادت تحلم — وانف الحرية راغم — باقامة امبراطورية لها ، وتوسيع دائرة نفوذها ورقعة ممتلكاتها، لأن الاستعمار كان مظهراً من مظاهر العزة القومية للدول الصناعية المتطورة ، ومفهوم الحرية يظل

شعاراً محترماً في نطاق الدول الاوربية فقط ، اما استعباد الشعوب المستضعفة آسيوية كانت أم افريقية ، ونهب ثرواتها ، واذلال شعوبها ، فمشروع كلياً ، ومن واجب ابناء الامم القوية أن يريقوا دماءهم في حروب المغامرات والنهب والسلب، ليزيدوا بثروات ابناء جلدتهم من الأغنياء ويمكنوا لهم في الأرض تحت ستار وشعار تقوية الوطن الأم .

وظلت عقدة الهند التي خسرت فرنسة مراكزها فيها ، تراود احلام دهاقنة الاستعمار الفرنسي،نافسين على انكلترة المكانة التي بلغتها من توسيع دائرة تجارتها، وبسط نفوذ سيطرتها بعيداً عن الجزر البريطانية المدانية للساحل الفرنسي، واخذوا يعدون العدة ، ويحبكون الخطط ، لزحزحة بريطانية والحلول محلها . وكان أول ما خططوا له وفكروا فيه ، وضع أيديهم على المواقع الستراتيجية التي هي مفاتيح الهند ، ولذلك دار في خلدهم أن أول عمل يجب القيام به هو الهيمنة على البحر الأحمر ، حتى إذا تم لهم ذلك نهدوا لاستمالة سلطنات الخليج إلى جانبهم وواسطة العقد فيها مسقط، ثم اتخذوا منها نقطة انطلاق لهم للانقضاض على القوات البريطانية في الهند والمحيط الهندي ، مستفيدين كذلك من قاعدتي فرنسة البحريتين القائمتين في الناحية الغربية الجنوبية من المحيط الهندي وهما جزيرتا موريشس وبوربون ، كما ادخلوا في حسابهم استمالة ايران إلى جانبهم .

وتعود أهمية مسقط ليس لموقعها الستراتيجي الذي يشرف على خطوط التجارة العالمية ما بين أوربة والهند وحسب ، وإنما لقوتها العسكرية أيضاً ، إذ كانت في أواخر القرن الثامن عشر تملك قوة لا يستهان بها ، ويكفي انه « في عهد سلطان ابن أحمد الذي حكم من سنة ١٧٩٢ إلى سنة ١٨٠٤ ، قدرت بحرية مسقط بخمسمائة سفينة ، متوسط حمولة كل منها ٢٥٠ إلى ١٠٠٠ طن ، بالإضافة إلى ثلاث سفن حربية يملكها السلطان ، عدا ١٠٠ سفينة أخرى يملكها أهل صور ثاني مدينة بحرية في عمان . وقد امتدت توابع هذه السلطنة إلى جزء كبير من الساحل الشرقي لأفريقية ، وضمت على ساحل مكران مدينتي غوادور وشوربار سنة ١٧٩٢ [1] » .

---

١ ـ الاستعمار في الخليج الفارسي تاليف الدكتور صلاح العقاد ،ص ٣٠ ـ ٣١ .

وقد انتهزت هذه السلطنة فرصة مـــا تعاني فارس من أزمة داخليـة مزقت امبراطورية الأكاسرة شرّ ممزق ، لاختلال حبل النظام فيها ، وما عمها من فوضى كادت تشمل كل شبر مـــن أراضيها ، فأسرعت وبسطت هيمنتها على أكثر الجزر الواقعة على الشاطىء الشرقي من الخليج كجزيرة قشم، وجزيرة هرمز التي كانت فيما مضى أمنع حصون البرتغاليّن في الخليـج .

ولم تكتف مسقط بما نالت من هذه المراكز ، وإنما تقدمت إلى البر الفـارسي بالذات ، فتنازل الشاه للسلطنة العربية عن بندر عباس على سبيل الاجارة ، ناهيك عن انها مدت رواق سيطرتها وسيادتها على جزء غير صغير من الساحـــل الشرقي لأفريقية وأخضعت زنجبار لسيادتها .

فرنسة تهدد مصالح الانكليز في الخليج

وبدأ الاستعمار الفرنسى محاولاته ليرسي قواعده تدريجياً وبأساليب هـادئة في مسقط، كي لا يثير ريب المستعمرين الانكليز بصدد مخططاته البعيدة التي من بعض معانيها منافستهم على مراكزهم التجارية العالمية ، ثم انتزاع مستعمراتهم من ايديهم، وكان أن فاز بعقد اتفاقية تجارية مع سلطان مسقط على اساس تبادل المنافع ، هذا فضلًا عن أن مسقط اعتبرت من مراكز الاسطول الفرنسي بالمؤن والمياه .

وثارت شكوك البريطانين حول نشاط الفرنسيين،وسعوا لخطب ود السلطان ولكن على غير طائل ومع انه قبل باقامة وكالة فرنسية في مسقط عـــام ١٢٠٠ هـ ١٧٨٥ م ، فقد رفض عرضاً مماثلًا تقدم به البريطانيون ، ولم تكتف فرنسا بذلك، وانمـــا اخذت تمهد لانشاء تمثيل ديلوماسي مـــا بينها وبين مسقط وفتح قنصلية فرنسية فيها .

وإلى جـانب خطوتهـا هذه ، عملت فرنسة سنة ١٢٠٨ هـ ١٧٩٣ م على ارسال بعثة إلى فارس مهمتها رصد نشاط وحركات الانكليز في ايران ، والوقوف على كل شيء يرتبط بالتجارة الانكليزية الهندية ، ولقد مثل هذه البعثة التي اتخذت طـابع السرية والتكتم فرنسيان هما اوليفيه وبروجيير اللذان دخلا ارض فارس بصفة عالمين

نباتيين ، مهمتها دراسة الأحوال النباتية لهذه المنطقة . واستطاعت البعثة أن تفوز ببعض النجـــاح ، ولكنها لم تصل إلى الهدف كاملاً ، إذ كانت فرنسة ترمي إلى استغلال العداء القائم ما بين روسية القيصرية من جهة، وحكومتي ايران وتركية من جهة ثانية ، واجتذاب الدولتين الاخيرتين لجهتها ، وبذا تهدد مصالح الانكليز في منطقة الخليج كخطوة أولى، وتتحفز لتسديد الضربة اللازمة للتجارة الانكليزية في نهاية المطاف .

وفي الواقع استطاعت فرنسة قبل انفـــاذ هذه البعثة ان تدغدغ مشاعر الشاه كريم خان ، إذ رأى فيها سنداً قوياً في وجه المطـامع الروسية الراغبة في ابتلاع مملكته ، والتي اقتطعت بالفعل الكثير من اجزائها الشمالية ، وبناء على ذلك الحلم منح الشاه فرنسة جزيرة خرج عام ١١٨٣ هـ ١٧٦٩ م .

فرنسة تعتمد على صداقة مسقط

كل هذا ، وفرنسة ما تزال في دور التمهيد فقط ، وكل هدفها العمل على فتح قنصلية لها في مسقط .

وفي سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م ، انتقلت فرنسة من دور التمهيد والتخطيط إلى دور العمل والتنفيذ ، واستطاع نابليون أن يطأ ثرى النيل فاتحاً ، ولكن لم يلبث أسطوله ان مزق شر ممزق ، في معركة ابي قير التي دارت ما بينه وبين الاسطول البريطاني ، ومع ذلك لم يفلّ هـذا من عضد الغـازي الفرنسي وظل يعمل ضمن دائرة مخططه .

لقد كانت فرنسة تعتمد على صداقة مسقط ، وتعمل على تعزيزهـا ، رغم مـا كان يعتريها من جفاء بين الفينة والفينة، لممارسة الاسطول الفرنسي القرصنة والترصد للسفن العربية ونهبها ، ولذا لم يتردد لامارك حاكم جزيرة موريشس الفرنسية عن الاعلان، حتى قبل الحملة على مصر ، بأن فرنسة ستمد يد المساعدة لـ «تيبو صاحب» حاكم ولاية ميسور الهندية الذي امتشق الحسام بوجه القوات البريطانية ، ومعنى ذلك ان تلك المساعدة ستتخذ سبيلها عن طريق مسقط ، مما حدا بوكيل الشركة

الهندية في بوشير المستر سميث ان يكتب معلقاً على هذا الموضوع :

« ان مسقط ستصبح عما قريب وكراً للجاسوسية الفرنسية ، لأن خمساً أو ست سفن عربية تقوم بنقل التجارة بين موريشس ومسقط وساحل ملبار ، ولا شك ان نقل الانباء سيكون مورد ربح للبحارة العرب [1] »

والواقع ، ان تكهنات التاجر السياسي « سميث » كانت ذات موضوع ، إذ استطاعت فرنسة ان تنتزع من مسقط إذناً لها بفتح قنصلية اسندت مهمتها إلى الرحالة بوشان ولم تتردد في تعليل اقدامها على تلك الخطوة بالقول بكل صراحة :

« ان قنصلية مسقط انما أنشئت للتجسس على حركات الانكليز في الهند ، ودراسة الاحوال الداخلية في هذه البلاد ، وكذلك دراسة الطرق التي يمكن ان يستخدمها غزو فرنسي للشرق [2] »

نابوليون يكتب لسلطان مسقط

ولكن القنصلية لم تفتح ، لأن الحكومة الفرنسية أمرت موظفها أن يطوف بالممالك العثمانية باحثاً منقباً ، وفي الواقع متجسساً ، قبل أن يصل إلى مقر عمله .

وعندما بلغت الحملة الفرنسية وادي النيل ، كان ذلك القنصل ما يزال في حلب ، ولم يستطع إلا أن يفر إلى مصر ، وهو يقرأ آيات الغضب والاستياء من الفرنسيين في وجوه كل من لاقى من الوطنيين ، ومع ذلك لم يتردد نابوليون في أن يرسل إلى سلطان مسقط الكتاب التالي :

« أكتب اليكم هذا الكتاب لأبلغكم ، ما لا شك انكم علمتموه ، وهو وصول الجيش الفرنسي إلى مصر . ولما كنتم أصدقاء لنا فعليكم أن تقتنعوا برغبتي في حماية جميع سفن دولتكم ، وعليكم أن ترسلوها إلى السويس ، حيث تجد حماية لتجارتها [3] »

---

١ ـ المرجع السابق ص ٣٧

٢ ـ المرجع السابق ص ٣٣

٣ ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ٢٧

وكتب نابوليون إلى تيبو صاحب عن طريق السلطان يستحثه على متابعة القتال والصمود في وجه الانكليز حتى يأتيه مدده .

لكن هاتين الرسالتين لم تصلا لا إلى مسقط ولا إلى الهند ، ذلك لأنها وقعتا في يد شريف مكة ،وبادر هذا إلى تسليمها للمثل البريطاني في جدة ، وبذا غدت فرنسة مكشوفة الخطة كلياً لدى انكلترة ، فأخذت هذه بالتحرك ليس لاحباط المشاريع الفرنسية فقط ، وانما لتعزيز مشاريعها هي ، مستفيدة من شعور الاستياء العارم ضد فرنسة الذي شمل الديار العربية والاسلامية لاحتلالها مصر .

بريطانية تنتزع المبادرة

وهكذا أخفقت فرنسة في انشاء قنصلية لها في مسقط ، وسارعت انكلترة لاهتبال الفرصة فأرسلت إلى مسقط أحد عملائها من الفرس ويدعى مهدي خان فاتصل بالسلطان وأجرى معه مفاوضات انتهت بتعهد السلطان بألا يسمح بموطىء قدم للفرنسيين أو الهولنديين ليس في مسقط فقط وانما في توابعها أيضاً، وان يكون اسطول مسقط في أي نزاع يدور بين الدولتين الاوربيتين الكبيرتين بجانب الاسطول البريطاني إذا كانت حومة الصراع منطقة مسقط ، ولم تكتف بريطانية بهذا الاجراء وانما عززته باجراءات أخرى ، إذ انفذت ممثلاً سياسياً عنها إلى بغداد كما أوعزت إلى الاسطول البريطاني بالقيام بمناورات في المحيط الهندي والبحر الاحمر بقيادة الاميرال بلانكيت .

وبينما كانت انكلترة تطرح على بساط البحث فيما سلف، موضوع حياد مسقط، وتشدد على ضرورة كونها دولة مستقلة بعيدة عن التأثير الخارجي ، وتندد بنوايا فرنسة العدوانية ، وتتهمها بانتهاك سيادة دولة مستقلة من وراء مناوراتها العسكرية التي لا تكف عن الاعتداء على السفن العربية والانكليزية في حالة وجودها في مسقط، غدت الآن ، وقد تلبد الجو السياسي بما ينذر بتهديد مصالحها ومكتسباتها في الهند، أو بالقضاء على زعامتها التجارية في المحيط الهندي ، تقرر الاهتمام بمنطقة الخليج أكثر فأكثر ، وتفكر في اقامة وكالة انكليزية في عمان ، غير انها لم توفق إلى ذلك ، إذ

أصر سلطان بن احمد على عدم قبوله انشاء وكالة انكليزية متذرعاً بالخوف من ردة فعل فرنسية .

وفي الواقع كان موضوع الوكالة الانكليزية يحمل في طياته أكثر من معنى العلاقات الودية التي أظهرها الانكليز ، لأنهم أرفقوا طلبهم هذا ، بضرورة السماح بانزال ٨٠٠ جندي كحد أقصى على البر المسقطي ، الأمر الذي نبه السلطان إلى الخطر الحقيقي الذي يكمن وراء نوايا البريطانيين وهم الذين لا يقيمون للمعاهدات والاتفاقات أي وزن ، ما داموا يمثلون الجانب الأقوى ، وما على الضعيف إلا أن ينفذ .

هذا ما كان بالنسبة للشاطىء الغربي من الخليج ، أما بالنسبة للشاطىء الشرقي فقد أرسلت حكومة الهند البريطانية إلى فارس بعثة مشابهة لبعثة السلطان في عام ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م ، وقد عرضت على المسؤولين هناك احتمال امتداد نشاط البحرية الفرنسية إلى ايران، ومدى الخطر الذي يكمن وراء ذلك على عرش الشاه الايراني. وتمكن أعضاء البعثة من اقناع الشاه بضرورة تحصين الشواطىء الفارسية الواقعة على الخليج العربي ، والمهام التي يتوجب القيام بها ضد القوات الفرنسية ، إذا ما ظهرت في الخليج ، وقد نجحت البعثة في مهمتها وأوعز الشاه بإنفاذ قوة عسكرية قوامها ألفا جندي لحراسة الساحل ، والأمر بقتل كل فرنسي يظهر في ايران .

وتناولت المحادثات البريطانية كذلك ، موضوع تنازل ايران لبريطانية عن ثلاث جزر في الخليج هي : هنجام وقشم وخرج ، ولكن هذا العرض قوبل بالرفض الجازم والرد العنيف في الاوساط الايرانية والاجابة بعدم التخلي عن قيد شبر من أراضي ايران .

ولقد ذكّر المفاوض الفارسي مرزا شفي، المبعوث الانكليزي ملكولم « بأن بريطانية بدأت صلتها بالهند عن طريقة اقامة حاميات صغيرة على الساحل ، والآن أين ذهبت امبراطورية المغول [1] » .

---

١ ــ الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٥٩

ورغم ان البعثة البريطانية إلى ايران قد نجحت في الحقل الاقتصادي نجاحاً ملموساً فقد ظل ملكولم يتحلب لسانه طمعاً بالجزر المذكورة ، ولاسيا قشم وكان لا يفتأ يردد على مسامع اسياده: «ان اقامة حامية بها ضرورية من الناحية العسكرية، لأنها تقف خط دفاع أول عن بومباي ، ومن الناحية السياسية فانها تشعر الدول المحيطة بالخليج بقوة بريطانيا ، ولا تجعلها تتردد في اختيار حليفها عند قيام حرب أوربية . وأخيراً من الناحية التجارية فانها تعيد رخاء سيران وهرمز الذي نعهده في عهد إقامة البرتغاليين هناك[1] » .

التنافس بين فرنسة وبريطانية حول مسقط

بعد ان نجحت السياسة البريطانية في كل من مسقط وايران ، اتجهت بانظارها نحو النقطة الثالثة التي يمكن ان يرتكز عليها الفرنسيون، ونعني بذلك ولاية العراق التابعة للحكم العثماني ، منتهزة فرصة اعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسة سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م لتوطد صداقتها مع والي بغداد سليمان باشا الذي كان مشتبكاً في حرب مع القوى الوهابية التي نشطت في جنوبي العراق ، والتي غدت من القوة بحيث تستطيع ان تهدد العراق باكمله ، ورأت بريطانية ان انجع وسيلة لذلك هي ان تمده بالسلاح الذي يتحرق شوقاً اليه ، ولذا كان لقاء البعثة البريطانية إلى بغداد لقاء الاصدقاء ، وبهذا يمكن القول بأن الانكليز شكلوا درعاً رادعاً على طول سواحل الخليج العربي ضد الفرنسيين .

لكن على الرغم من جميع الاجراءات الديبلوماسية التي اتخذتها الحكومة الانكليزية لوقف تغلغل فرنسة إلى الخليج ، وضرب الحصار عليها ، لم يستطع الانكليز جني كل الثمرات التي توخوها ، ذلك لأن سلطان مسقط كان يفهم السياسة بقدر ما تدر عليه وعلى مواطنيه من ارباح، ولذا ظل على علاقاته بالفرنسيين الذين كانت لهم مستعمرات في المحيط الهندي كجزيرتي موريشس وبوربون الواقعتين

---

١ - المرجع السابق ص ٤٦

تجـــاه الساحل الشرقي لموزنبيق في القارة السوداء ، وتكمن في هذه المستعمرات منابع للتجارة الفرنسية التي كانت تعتبر الدولة الثانية في المحيط الهندي .

ولم يكن السلطان ليقبل بالعلاقات الودية بديلاً عن المكاسب التجارية القائمة بين مسقط والمستعمرات الفرنسية ، مما دفع بريطانية إلى أن تغير موقفها منه وتتبع وسائل الضغط والعنف والتهديد ، وحمله بالاكراه على تبديل موقفـه من فرنسة ، وانفذ البريطانيون إلى الخليج ممثلهم السابق ملكوكم الذي اخذ على عـــاتقه تدبر الوضع ، وقد استطاع هذا الرجل عام ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م بعد أن هدد السلطان بضرب كافة المصالح التجارية لسلطنة مسقط في الهند ، ان يكبل السلطان بمعاهدة نصت على إيفـاد مبعوث سياسي من لدن حكومة الهند البريطانية إلى مسقط يمثل مصالح انكلترة هناك .

وكان ان عين أحد الأطباء الانكليز واسمه بوغل ممثلاً عن بريطانية التي هدفت إلى منع قيام اية بادرة من الفرنسيين لانشاء قنصلية في مسقط ، أو ارسال بعثة اليها بأية ذريعة كانت . ولقد حرص كل من الممثل بوغل وخلفه دافيد ستون على تنفيذ المخطط البريطاني بامانة وتفان،وتوصلا إلى نتائج مرضية لمصلحة الاستعمار البريطاني.

وفي عام ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م حاولت فرنسة التي كانت ترقب مجرى الاحداث عن كثب ، أن يكون لها بدورها ممثل عنها في سلطنة مسقط ، مستغلة المدنة القائمة ما بينها وبين انكلترة ، ورأت أن يكون ممثلها في هذه المهمة أحد وجوه ساستها المرموقين واسمه كافيناك ، فحاول هذا جاهداً تحقيق أهداف دولته ولكن على غير جدوى ، ورفض السلطان عام ١٢١٨ هـ ١٨٠٣ م بضغط من بريطانية وتهديدها كل الملتمسات التي تقدم بها المبعوث الفرنسي ، ولم يوافق على أي منها .

وأجابت فرنسة على الاجراءات الانكليزية برد" أشد"، وذلك ــ ضمن ماجريات الاحداث الدولية الكبرى ــ بضرب الحصار القاري عليهـــا خلال عام ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م الذي ظهرت في أفقه بوادر تقارب ما بين سلطـــان مسقط الجديد السيد سعيد وفرنسة ، وكان من ثمرات ذلك التقارب ان جرت محادثات بين السلطان وحاكم جزيرة موريشس الجنرال دوكان أدت إلى عقد اتفاقية تجارية ما بين مسقط

وفرنسة ، على أن تستمر التجارة المسقطية مع البريطانيين ، لكن حكومة باريس رفضت التصديق على تلك الاتفاقية لأن فيها خروجاً على روح الحصار القاري الذي ضربته فرنسة على انكلترة ، ولذا عاد السلطان فولى وجهه شطر بريطانية ، يوطد علاقاته الاقتصادية والسياسية معها ، حتى بلغ به الأمر ان لا يمانع في وضع بلاده تحت الحماية البريطانية .

ايران بين انياب ثلاث دول استعمارية

هذا ما كان في تلك الحقبة من شأن المستعمرين في الساحل الغربي من الخليج ، اما في الساحل الشرقي فلم تكن الاحداث اقل اهمية منها على الطرف الآخر ، وقد اتجهت السياسة الاستعمارية إلى ايران سافرة بنواياها العدوانية دون اي قناع ، واجتمعت عليها انياب ثلاث دول تحاول كل واحدة ان تستبق الأخريين لادخال ايران في دائرة نفوذها ، وكان آخرها روسية القيصرية التي ما فتئت تتلمظ مكشرة عن نابها توسعاً في شمالي ايران ، مما دفع بساسة ايران إلى أن ينشدوا دولة اوربية قوية يستندون اليها توسلاً لدرء الخطر عنهم .

لقد سبق ان رأينا ايران ترتبط والحكومة البريطانية بمعاهدة ابرمها مالكولم عام ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م ، ولكن تلك المعاهدة ذهبت ادراج الرياح . إذ نشبت الحرب من جديد ما بين روسية وايران ، بعد فترة وجيزة من ابرام تلك المعاهدة ، ولم تف انكلترة بأيّ من التزاماتها ، أو تقدم لها اية مساعدة ، رغم وضوح النص الذي يقول بتقديم المساعدة لايران في حال اشتباكها في حرب مع روسية ، على ان تمنع ايران من جانبها اي تغلغل فرنسي إلى اراضيها .

ومزق الايرانيون المعاهدة من جهتهم ، وراحوا يبحثون حثيثاً عن حليف آخر يأخذ بيدهم في محنتهم ، وكان من البدهي أن يتجهوا صوب فرنسة من جديد ، لانها الدولة الوحيدة التي يهمها ذلك ، وتقبل بخوض المعارك مع روسية القيصرية نفسها ، مقابل أن تجد لها منفذاً الى الهند عن طريق ايران .

والحقيقة أن مطامع الأمبراطور الفرنسي نابوليون بونابرت لم تكن ذات حدود ،

ولم تكن النكبات لتثنيه عن عزمه ، ولقد اصر على متابعة المسير على خططه رغم ما مني به من اخفاق اثر اخفاق ، في معركة ابي قير ، وفي حصار عكا ، واخيراً في غزو الجزر البريطانية عـــام ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م ، ولم تكن حروبه مع انكلترة لتعود عليه باي نفع ظاهر ، وكان يجد نفسه فيها تجاه خصم قوي عنيد ، فضلاً عما يتحلى بـه من ديبلوماسية قوية بنعومتها محكَـمة تنفيذ الخطط ، دقيقة الأهداف ، موضوعية التفكير .

وعلى كل ، فقد سعت فرنسة بعد ان صفا الجو ما بينها وبين الامبراطوريـة العثمانية، لإقامة علاقات ديبلوماسية مع ايران، وأنفذت ممثلين لها في الشرق ليعقدوا مشاورات ابتدائية مع الشاه ، ولم تلبث المحادثات التمهيدية ان انجلت عـن اتفاق وجهات نظر الفريقين ، وبالنظر لأن فرنسة كانت مشتبكة آنذاك في حرب مـع روسية فقد أبرمت المعاهدة في بولندة حيث عسكر الجيش الفرنسي قبـالة الجيش الروسي .

وكان نص المعاهدة يشتمل على بندين أساسيين هما الضغط الفرنسي على روسية القيصرية لإعادة بعض الأقاليم التي انتزعتها من ايران اليها ، ويقابل هذا البند سماح ايران لفرنسة باستعمال أراضيها حين قيامها بغزو مباشر للهند .

غير ان التزامات فرنسة غدت مستحيلة التحقيق نتيجة تبدل الموقف العسكري، واضطرار نابوليون إلى الانسحاب من جبهة القتال الفرنسية الروسية، وعقد معاهدة الصلح بين الطرفين عام ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م . ولما عادت فرنسة للتباحث مع ايران ، وطرق الباب الذي ارتد عنه الانكليز خائبين، وهو تنازل ايران عن احدى جزرها في الخليج لفرنسة، كان من الطبيعي ان يكون جواب ايران سلبياً، ومع ذلك فقد تريثت بالجواب قليلاً ، وشرعت بالمساومة التي كانت تدور حول التنازل عن احدى الجزر الايرانية لفرنسة مقابل إعادة اقليم جورجيا إلى ايران ذلــك الأقليم الذي اغتصبته روسية منها .

ولم تكن بريطانية بغافـلة عما يجري في البلاط الايراني ، واستقبال البعثـة الفرنسية فيه ، فبادرت بدورها إلى ارسال بعثة إلى ايران برئاسة مالكولم ، وذلك

عام ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م ، لكنها فشلت في الوصول إلى مفاوضة جدية ، وعادت، تتعثر بأذيال الخيبة ، وهنا اتجهت آراء البريطانيين المتسلمين أزمة الأمر في الهند إلى ضرورة اللجوء لقوة السلاح ، وتحقيق ما عجزت عنه الديبلوماسية بفوهة المدفع .

إلا ان الحكومة البريطانية الأم ثنت حكومة الهند عن هذا العزم ، وقام البلاط الملكي في انكلترة بمساع جديدة ، وأرسل إلى ايران ممثلاً يدعى هارفور جونس ، فاستطاع ان يتوصل إلى عقد معاهدة مع الشاه ، حصلت انكلترة بمقتضاها على السماح لقواتها باستخدام الموانيء الايرانية في حالة الحرب فقط .

مسقط وعمان مثار اهتمام السياسة الدولية

كان تطور التجارة الانكليزية ، وازدياد نفوذها العسكري ، قد جعلا انكلترة تعطي منطقة الخليج أهمية أكبر في السنوات التي تلت عام ١٢٢٥ هـ ١٨١٠ م ، وشرعت منذ ذلك التاريخ تغير لغة تخاطبها شيئاً فشيئاً، انتقالاً من منطق التفاوض والديبلوماسية الناعمة إلى لهجة العنف والضغط السياسي والعسكري ، لتبعد عن المنطقة نفوذ أية دولة أخرى تحاول منازعتها السيطرة .

وهنا يجب أن ننعطف من شرق الخليج إلى زاويته الجنوبية حيث تقوم سلطنة مسقط وعمان التي كانت مثار اهتمام السياسة الدولية، وذلك لدورها التجاري الكبير، ولأن لها بالذات مستعمرات في افريقية كزنجبار ، حتى سعت الولايات المتحدة الاميركية أن تقيم معها علاقات تجارية بحتة عام ١٢٤٩ هـ ١٨٣٣ م ، كما سعت فرنسة في نفس السنة لنفس الهدف مع بسط نفوذها العسكري هناك ، وتوسلت لغايتها تلك بان أدخلت الى ميناء مسقط سفينة حربية فرنسية ،متحدية بذلك انكلترة التي تدعي أن الخليج منطقة مقفلة، غير أن تلك المناورة العسكرية لم تجد باريس فتيلاً ، لأن النفوذ الانكليزي كان اقوى في توجيه الحكام وتعيين سياستهم . ومع ذلك حاولت فرنسة عام ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م إعادة التجربة، بيد انها لم تكن بنتائجها أفضل من السابقة .

وفي عام ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م ، تقدمت باريس بعرض إلى لندن اقترحت فيه

اعلان استقلال سلطنة مسقط ، وتعهد كل من حكومتي انكلترة وفرنسا باحترام هذا الاستقلال ، وذلك لتعادل كفتي الدولتين باعتبار ان فرنسة قد أقامت تمثيلاً ديلوماسياً في المستعمرة المسقطية - زنجبار - منذ أمد طويل ، فلم تتردد بريطانية في ذلك وأصدرت الدولتان بياناً مشتركاً يعلن تعهد البلدين باحترام استقلال امارة زنجبار العربية وسلطنة عمان ومسقط ، ورعاية سلامة أراضيها[1] .

لكن انكلترة رغم توقيعها ذلك البيان لم تكن تنفك عن التدخل بشؤون مسقط وعمان عسكرياً ، كلما قامت في المنطقة بعض الأحداث أو نجمت احدى المشاكل ، وكانت تضرب بقوة على الثورات الداخلية التي تنشب في السلطنة ، وتمد السلطان تركي بن ثويني ١٢٨٨ - ١٣٠٦ هـ ١٨٧١ - ١٨٨٨ م بالعون المادي دون انقطاع، لدعم حكمه ، وكذلك استمرت على تقديم هذا العون إلى ابنه فيصل ، وقدره ٤٠٠٠٠ كراون في السنة ، وكانت مستعدة في نفس الوقت لأن تخوض حرباً مع أية دولة أوربية تحاول ان تجد لنفسها منفذاً إلى الخليج .

وفي عام ١٣٠٩ هـ ١٨٩١ م تسربت الأنباء إلى حكومة الهند البريطانية حول توزيع أعلام فرنسية على السفن العمانية التابعة لميناء صور ،وهذا ما يعطيها الحصانة، وينجيها من التفتيش البريطاني أو العماني ، وقد فسرت هذه البادرة الفرنسية لدى الساسة البريطانيين بأنها محاولة تمهيدية لبسط النفوذ الفرنسي على مسقط ، وتشجيع لتجارة الرقيق التي تمارسها فرنسة ، ولجأت بريطانية إلى وسائل الضغط على السلطان ليقف موقفاً حازماً من هذه الحركة الفرنسية ، وقررت ان تقطع عنه المعونة المالية إذا استمر على محاباة الفرنسيين .

---

١ - انظر نص البيان في الجزء الاول من كتاب « الخليج العربي والعلاقات الدولية» تأليف الدكتور علي الداود ص ٢١٤ ، ويقول الدكتور صلاح العقاد في كتابه « الاستعمار في الخليج الفارسي » ص ١٤٥ - ١٤٦ ان الاتفاق بين فرنسة وبريطانية كان يرمي الى اصدار تعهد باحترام استقلال امارة زنجبار ، وقد حدث خطأ كتابي اثناء تبادل المراسلات فاضيفت كلمة « مسقط » للمشروع النهائي لان الكتاب السياسيين تعودوا ان يسموا حاكم هذه المناطق « امام مسقط » منذ حياة السيد سعيد ، وقد تمسكت فرنسة بالنص وتطبيقه على سلطنة مسقط وعمان .

وقد فعل هذا التهديد فعله في نفس السلطان ، فقام عـــام ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م بالاتجار على ظهر سفينة حربية بريطانية إلى صور التي حصل معظم سكانها على الجنسية الفرنسية وسحب رخص السفن التي تحمل الأعلام الفرنسية ، ممـــا أثار فرنسة ، فأرسلت سفينة حربية إلى مسقط ، وأنذرت السلطان بوجوب إعادة الحصانـــة الفرنسية لأصحاب السفن العمانيين الذين يحملون جنسيتها . وفي السنة نفسها قـام القنصل الفرنسي السيد اوتافي بزيارة إلى عمان ، حيث أجرى محادثات ودية مـــع السلطان فيصل بن تركي ، وبسط له خلال محادثاته موضوع منح فرنسة ميناء بندر جيزه لجعله مستودعاً لتخزين الفحم الحجري ، فلقي الموافقة من السلطان الذي وعد القنصل فضلاً عن ذلك باتخاذ تدابير عدائية ضد المصالح البريطانية في بلاده .

بريطانية تريد الخليج منطقة مقفلة

وكانت المدرسة الاستعمارية الانكليزية ومن قادتها اللورد كيرزون وسولزبري ونيكلسون تقول بضرورة جعل الخليج منطقة مقفلة ، وابعادها عن كل منافس استعماري آخر ، ويفهم من تصريحات اللورد كيرزون حـاكم الهند البريطاني ان سلطان مسقط ليس سوى آلة بيدهم ما دام يقبض راتباً سنوياً من الخزينة البريطانية ، ولهم الحق بتوجيه سياسة مسقط الخارجية ، وتحديد موقفها من الدول الأخرى ، كما صرح اللورد عن اقتناعه بضرورة جعل سلطنة مسقط من المحميات الانكليزية . وكان من الطبيعي ان يثير تصرف السلطان حفيظة بريطانية ، فسارعت تحتج على سياسته الجديدة ، وأنذرته بوجوب المسارعة في القيام باجراءات فعلية لقطع علاقته الديبلوماسية مع فرنسة — وكانت هذه قد أنشأت في مسقط قنصلية عـام ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ م — وكذلك بسحب الحصانة الفرنسية عن رعـاياه ولا سيما سكان مـدينة صور ، معتبرة إقدام فرنسة على فتح قنصلية في مسقط خرقاً للاتفاق الانكليزي الفرنسي المعلن عام ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م ، والذي ينص على احترام استقلال مسقط ، اما فعلة السلطان فليست في رأيها إلا خيانة للانكليز ونقضاً للاتفاقية الانكليزية المسقطية القاضية بعدم تخليه عن أي شبر من الأراضي التابعة للسلطنة . وقد رأت

ان لا حل لهذا الموضوع إلا بلغة الحزم والعزم ، وتحركت السفينة الانكليزية سفينكس إلى ميناء بندر جيزة ، لتضعه تحت السيطرة الانكليزية ، وذلك برفع العلم البريطاني عليه ، ونزع العلم الفرنسي عن ساريته .

ولكن ما ان دخلت السفينة البريطانية المياه المسقطية حتى تصدت لها مدمرة فرنسية ، وأنذرتها – والعنف لا يفله إلا العنف – بأنها ستطلق عليها النار إذا ما حاولت ان تثير أية مشكلة ، فاضطرت السفينة الانكليزية إلى النكوص على أعقابها ، والرجوع من حيث أتت .

ولا مشاحة في أن هذه الحادثة كانت انتكاسة للسياسة البريطانية ، واهانة لها ، وهي التي اعتادت أن تأمر فتطاع ، وترغب فتنفذ مشيئتها ، ولذا رأت أن تستعمل اقسى أنواع الضغط والعنف مع السلطان فيصل بن تركي ، وأن تلزمه بحسر الظل الفرنسي عن مسقط ، واعادة النفوذ البريطاني ، غير أن السلطان لم يذعن لمتطلبات انكلترة ، وفضل المضي بسياسة « اللعب على الحبلين » تارة مع الفرنسيين وطوراً مع الانكليز ، ولكن هل في مسايرة قوتين ضخمتين ، كل منهما تتربص به الدوائر ، ما يصل به إلى شاطىء السلام ؟..

والواقع أن بيان الاستقلال الذي اعلن بشأن سلطنة مسقط لم يتعد كونه حبراً على ورق ، وأن الطرفين اللذين وقعاه قد خرقاه اكثر من مرة اثناء تناحرهما على السيادة .

بريطانية تتخلى عن الديبلوماسية وتلجأ الى المدفع

ولما بلغت الأزمة ذروتها ، رأت مدرسة الاستعمار الانكليزي أن تلجأ إلى أسلوب جديد سافر العداء ، بمزق القناع عن ذلك الاحترام المصطنع « لاستقلال » مسقط ، ورفع اللورد كيرزون نائب التاج البريطاني في الهند عقيرته بلغة البارود والمدفع التي كانت في عرفه المنطق الامثل والحجة الفضلى ، لاعادة السلطان إلى جادة الصواب ، والرد على الدرس الفرنسي بدرس أبلغ .

وما عتم الرجل أن قرن تصريحاته التهديدية بالفعل ، واتخذ من الاجراءات ما

قلب الوضع السياسي رأساً على عقب ، إذ انه أصدر أمره إلى قـــائد الأسطول البريطاني في المحيط الهندي الاميرال دوكلاس فـــاسرع بالتوجه إلى مياه مسقط مستعرضاً عضلاته ، توسلاً لالقاء الذعر في قلب السلطان فيصل بن تركي عساه يذعن ويسلم بمطـالب انكلترة الاستعمارية . وزاد الاميرال على ذلك ، فزمجرت مدافع اسطوله تروع الميـــاه الهادئة ، ثم طلب من السلطان أن يصعد إلى ظهر إحدى المدمرات البريطانية ، ليمثل بين يديه ويملي عليه شروطه ، ففعل ، وقد غدا دمية هزيلة بيد اولئك الطغاة، معلناً التوبة والطاعة للسادة البريطانيين ، وتنفيذ أوامرهم دونما قيد أو شرط ، وبالتالي الغاء الاتفاقية الفرنسية المسقطية التي تنص على السماح للفرنسيين باستعمال بندر جيزة كقاعدة تموينية للاسطول الفرنسي بالفحم الحجري ، واخيراً قبول الحماية الانكليزية على مسقط ، ولم يكن من السلطان إلا أن هز رأسه بالقبول والطاعة ، والتوقيع على ما أملاه رجل بريطانية .

وبذا نجحت السياسة البريطانية في مخططها الذي سدد ضربة قـــاصمة للمصالح الفرنسية الاستعمارية في مسقط ، ولكن على حساب ابناء السلطنة العرب، وتخاذل سلطانهم الذي اعلن تمزيق المعاهدة المسقطية الفرنسية ، والافتخار بقيـام علاقـات « الصداقة والاخوة » ما بينه وبين بريطانية .

أما فرنسة فحين رأت أن مصالحها قد تهددت بتصريح صديق الأمس بالغاء كافة امتيازاتها ، فقد حاولت أن تلعب لعبة بريطانية بالذات ، وابحرت إلى مسقط سفينة فرنسية حربية ، كان على متنها نائب القنصل الفرنسي المسيو اوتافي الذي سبق له أن عقد منذ سنتين اتفاقية بندر جيزة مع السلطان ، وغرضه معاودة الكرة من جديد ، وأن يهدد وينذر ، إلا أن السلطان لم يكن وحده هذه المرة ، وبالأحرى لم يعد يملك من أمره شيئاً،وتركت المهمة للبريطانيين الذين انذروا السفينة الفرنسية بالانسحاب من مياه مسقط ، وإلا رقدت غير مرتاحة في اعماق اليم .

ولم تقدر السفينة إلا أن تصدع بما امرت، وبذا خسرت فرنسة الجولة أخيراً في جنوبي غربي آسية ، وقلمت أظافرها ، وكاد هذا الاحتكاك المسلح بين الدولتين الاستعماريتين أن يقودهما إلى الاشتباك في حرب واسعة النطاق ، ولكن السياسة

البريطانية ، وقد انزاح الكابوس عن صدرها ، عادت لتطرق من جديد سبل السلم مع العدوة القوية ، وطرحت على بساط البحث مسألة تسوية الأزمة حبياً ووديا ، وقبلت السلطات الفرنسية أخيراً عام ١٣١٨ ه ١٩٠٠ م عرضاً انكليزياً ينص على اقامة محطة فرنسية في ميناء مكلا الواقع على الساحل الحضرموتي ، وبقيت أمام بريطانية جولات اخرى ، ولكن ليست في هذه الخطورة !..

بريطانية تجهز على قوى المقاومة العربية

في غمرة النزاع ما بين انكلترة وكل من دول الاستعمار التي توافدت على الهند أو الخليج العربي ، ونازلتها في هذا الميدان أو ذاك عسكرياً وديبلوماسياً كالبرتغال وهولندا وفرنسة، أو تربصت لها كروسية القابعة في الشمال من ايران ، أو صاولتها كالامبراطورية العثمانية ، كانت تعمل في الوقت نفسه جاهدةً في التمكين لها على أرض الخليج في ضفته الغربية ، والقسم الجنوبي منه ، وقد رأينا في الفصل السابق أيّ دور لعبته مع سلاطين مسقط وهي تنازع فرنسة وتنازلها ، سالكةً بادىء ذي بدء السياسة المرنة الهادئة ، متغلغلةً أولاً في المرافق الاقتصادية الحياتية ، حتى إذا أخذت زمام المبادرة بيدها انقلبت تلك المرونة الافعوية إلى التكشير عن الناب الناضح بالسم ، مما ينطبق وقول الشريف الرضي :

ان الأفاعي وان لانت ملامسها   عند التقلب في انيابهـــا العطب

ولا مشاحة في أن الهيمنة على مسقط المنفصلة عن امامة عمان كانت هي الخطوة الأكثر اهمية في ميدان الصراع العربي البريطاني ، لأن مسقط كانت تملك اكبر قوة بحرية في الخليج ، قد سهل على بريطانية المهمة الثانية وهي الاجهاز النهائي على القوى العربية، لاسيا وأن سلاطنة مسقط كانوا في كثير من الأحيان ساعد بريطانية في مقارعتها ومنازلتها تلك القوى الفتية الناشطة الغلابة على غوارب المـــاء ، والتي اظهرت من البطولة والتفاني في النضال ما يُسجّل بمداد الفخر والاعتزاز ، رغم مـا

سوّد الاستعمار من صفحاته التي ستبقى مضيئة مشعة بروح الكفاح ومنازلة قوى التدخل والاحتلال .

ظهور الوهابية كحركة تحرر في شبه الجزيرة العربية

بينما كانت ديار العروبة تئن تحت وطأة الاستعمار العثماني وهو يتردى بها في مهاوي الجهالة والفقر والانحلال، وتتعرض لعدوان الاستعمار الغربي وحملاته الوافدة على الخليج تأخذ بخناقه وتبسط ظل نفوذها وهيمنتها عليه ، تمخضت الجزيرة العربية عن داعية الاصلاح الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي الذي حز في نفسه ما آل اليه العالم الاسلامي من الانحطاط ، والبعد عن روح الدين الاسلامي ، وبخاصة تلك الفتاوى التي يصدرها شيخ الاسلام القابع في ظل السلطان العثماني ، بما فيها من تناقض وتضارب ، والتي تجعل من الدين مطية لسياسة الاستبداد والطغيان، فاطلقها صيحة مدوية ترمي إلى إعادة الاسلام إلى ينابيعه الاولى، البسيطة بمظهرها العميقة في جوهرها، والبعد عن كل ما دخله من بدع منكرة وطرف مضحكة ومبكية معاً !

وما عتمت تلك الدعوة المذهبية الفكرية أن استحالت إلى قوى غلابة مجاهدة، بعد أن اشربت بها روح الأمير محمد بن سعود ، وتعاهد الاثنان على العمل معاً ، وكان السيف في خدمة القرآن ، تظللها راية واحدة هي إعادة مجد العرب السالف، واداء الجزيرة رسالتها من جديد إلى ديار العروبة .

وسرعان ما آتت تلك الحركة ثمارها ، وسرى تيارها إلى بعض القبائل العربية الكبيرة ، فآمنت بالدعوة، وراحت تبسط نفوذها على شبه الجزيرة العربية، وبخاصة الاحساء ، بالقضاء على الحامية التركية فيها ، وقيام الدولة السعودية الاولى التي غدت دولة خليجية وهو الجانب المهم في بحثنا هذا .

القواسم ينضوون تحت راية التوحيد الوهابية

وكان لتفيوء القواسم ظل دعوة التوحيد الوهابية ، اثر كبير في تسليط الاضواء عليها في منطقة الخليج ، لما عرف عن القواسم القاطنين « ساحل القراصنة » كما سماه

الاوربيون آنذاك ، من تاريخ عريق بالقرصنـــة التي لا تعدو الامتداد الطبيعي لغارات البدو في الصحارى العربية ، والتي كانت ضرورة حتمية لمواجهـــة أعمال القرصنة الغربية السافرة .

وقد اشتهر عن القواسم الجرأة والاقدام واقحـام النفس في مواطن الخطر ، وكانوا يشكلون قوة بحرية تعدى نشاطها دائرة الخليج إلى أعماق المحيط الهندي ، واستطاعت هذه القبيلة قبيل انضمامها إلى الدعوة الوهابية عام ١٢١٨ هـ ١٨٠٣ م ، ان تبسط سيادتها على كثير من القبائل .

وبعد انضمام هذه القبيلة إلى الدعوة ، ازدادت نشاطـاً وحماسة ، وغدت من الدعائم المهمة للدولة السعودية الحديثة ، وجهدت لبسط سيطرتها على سلطنة مسقط وحكامها البوسعيديين الذين رأوا في علاقاتهم ببريطانية خير سند لهم لتثبيت سلطانهم ، وكثيراً ما ناشدوا البريطانيين ليمدوهم بالعون لمجابهة الخطر الوهابي ونفوذ القواسم ، لكن الحكومة الهندية الانكليزية تجنبت بادىء ذي بدء اقحام نفسها في منزلق يثير عداء القوى العربية لها ، وآثرت — على طريقتها المعهودة — أن تتخذ موقف المسالم الموادع .

إلا ان خطر القواسم لم يقتصر على تهديد المصالح المـــلاحية لسلطنة مسقط فحسب ، وانما تعداها إلى التصدي لقوى بريطانية البحرية ، ولم تتورع عن مهاجمتها ، حتى باتت كفتهم هي الراجحة بعد انحسار ظل القرصنة الفرنسية المناوئة .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ ١٨٠٥ م وقعت الواقعة ما بين الدولة الوهابية تدعمها قوى القواسم من جهة ، وسلطنة مسقط ومن ورائها البريطانيون من جهة ثانية ، وكان السلطان هو البادىء بالعدوان وذلك للسيطرة على الساحل الغربي للخليج ، وبخاصة لاستعادة جزيرتي هرمز وقشم اللتين سقطتا في أيدي القواسم ، فأسفرت النتيجة عن رجحان كفة الحلف السعودي ، وبات السلطان نفسه واقعاً تحت النفوذ السعودي ، وغدت سلطنة عمان بأكملها مهددة بغزو القواسم .

القواسم : فرسان البحر الاشداء

وتجدر الاشارة هنا إلى ان بريطانية كانت تفرق ما بين القواسم والحركة الوهابية ، وتعتبرهما حركتين منفصلتين لا رابط بينها ، مع العلم بأنها كانتا تشكلان قوام الدولة السعودية ، ومصدر قوتها الضاربة ، ولهذا كانت القوات البريطانية تؤثر ألا تحتك بالقوة الوهابية ، وتوجه ضرباتها إلى القواسم ، لأنها ترى فيهم خطراً يهدد مركزها في الخليج ويقضي على احلامها التوسعية .

وبناء على ما تقدم شرعت بريطانية باعداد حملة تأديبية للقواسم ، فأرسلت في عام ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م بعض القطع من اسطولها الحربي ، وهاجمت عاصمتهم رأس الخيمة ، وضربتها بالمدافع ، لكنها لم تحاول السيطرة عليها ، بل اكتفت بانزال جنودها لفترة يوم واحد كي ينهبوا ما يقع في أيديهم ، ولما خفت السلطة المركزية في الدولة السعودية لانجاد رأس الخيمة ، كانت القوات البريطانية قد غادرتها . إلا ان حكومة الهند البريطانية عادت إلى ارسال حملة أخرى على شناص،وكان الموقف مماثلا تماماً لسالفه ، اذ كان البريطانيون قد انسحبوا غانمين عندما وصلت إلى مكان الفاجعة الحملة السعودية التي قادها مطلق بن محمد المطيري ، أمير البريمي . ورداً على هاتين الغارتين الغادرتين ، تابع الأمير مطلق زحفه إلى مسقط ، لكنه أخفق في الاستيلاء عليها .

وتجاه هذه الاحداث ، ونظراً لما للقواسم من قوة ضاربة لا يستهان بها ، وما يتحلون به من شجاعة واقدام وعنفوان ، رأت بريطانية أن تداري موقفها، وعقدت هدنة مع فرسان البحر الأشداء عام ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م ، ولكن أيمكن أن يقلع أبطال غوارب الماء عن القرصنة التي هي من مقومات حياتهم ونواميس طبيعتهم والسنة المتعارف عليها آنذاك في أكثر انحاء العالم ، لا سيا وان الغارات التي يقومون بها انما توجه إلى أعداء البلاد والطامعين فيها ، ولذا عاود القواسم إلى شن هجماتهم الصاعقة على المراكب والسفن البريطانية ، وبلغ بهم الأمر عام ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م انهم استولوا على أحد الطرادين اللذين كانا يحرسان بعثة مالكولم إلى فارس [١] .

١ ـ الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٧٥

القسطنطينية تأمر محمد علي بخنق الحركة الوطنية في شبه الجزيرة

وكان لهذا الحادث صدى بعيد في السياسة الانكليزية ولدى الساسة البريطانيين. وانشأ هؤلاء يفكرون بانفــاذ حملة عسكرية لتدمير مواقع القواسم ، ومراكز تجمعهم ، واستئصال شأفة القرصنة في الخليج ، مـع الحرص على عدم التوغل في داخل البلاد أو الاحتكاك بالقوة الوهابية ، وقد اقتصرت تلك الحملة على التحرك في مياه الخليج ، واتباع طريق التهديد الضمني ، واطلاق مدافعها على بعض المواقع في الموانىء العربية .

وجاء رد الفعل على تلك الحملة البريطانية بأن خرجت حركة القواسم عن نطاق الخليج العربي ، وامتدت متوغلة في المحيط الهندي ، وباتت تتعرض بشكل خاص للسفن البريطانية ، وقريباً من الشواطىء الهندية بالذات .

وفي هذه الحقبة نفسها ظهرت على مسرح الأحداث قوى جديدة كان لهـا دور مباشر بخنق الحركة الوطنية الآخذة بالصعود ، إذ قام والي مصر محمد علي باشا، بامر من عاهل القسطنطينية ، بالاشتباك مع القوى السعودية ومنازلتها في حرب طاحنة ، وكانت النتيجة أن انهارت -إلى حين- تلك الدولة العربية الفتية عام١٢٣٤هـ١٨١٨م.

سقوط آخر معقل للقواسم وسيطرة بريطانية على الخليج

وحينئذ اقلعت بريطانية عن سياسة الملاينة والمداورة ، ورأت أن تخوض مع القواسم معركة تصفية حساب ، وفي عام ١٢٣٥ هـ ١٨١٩ م انفذت حكومة الهند البريطانية حملة عسكرية قوامها ست قطع حربية ضخمة ، فضلاً عن السفن الصغيرة، برئاسة الجنرال وليام كير ، واتجهت هذه الحملة مباشرة إلى رأس الخيمة وشرعت بدك حصونها ، ولم تتوقف عن القصف طوال ستة ايام ، ثم كانت حركة الانزال العسكرية على الساحل بعد تأكد الحملة من القضاء على المقاومة الفعلية،وسقط أخيراً معقل القواسم رغم ما أظهروه من بسالة وشجاعة في الذود عن حياضهم .

وباختفاء نشاط القواسم تم لبريطانية الهيمنة على ميـاه الخليج ، وكانت آخر

انتفاضة للقوى العربية عندما قام بنو ياس عـام ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م بمهـاجمة وتدمير طراد بريطاني في حركة انتقامية يائسة .

تكبيل العرب بسلسلة من المعاهدات الانكليزية

لقد تمّ لبريطانية ما أرادت من القضاء على حركة القرصنة أو « حياة الجهاد » كما يسميها العرب ، قضاء مبرماً ، وراحت توطد انفسها في الأرض العربية ، وقامت لأول مرة بمسح المنطقة ووضع خارطة للشاطىء الغربي من الخليج برؤوسه وخلجانه وكافة مداخله ومنعطفاته ، ثم خطت خطوة ثانية ، ومضت تكبل المشيخات العربية بسلسلة من المعاهدات لتأمن خطرها من جهة ، ولتظهر عليها بمظهر السيطرة والسيادة من جهة ثانية ، وعقدت أولى تلك المعاهدات – بعد تكبيل مسقط وسلاطينها – مع صالح بن صقر شيخ القواسم ، وقد تم بموجبها تسليم كافة السفن الحربية لحكومة الهند البريطانية ، ثم قفى على آثار الشيخ صالح بقية مشايخ المشيخات الذين تحالفوا مع بريطانية فمنعت الحرب فيما بينهم وانتزعت منهم معـاهدة ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م التي سيرى القارىء نصوصها في الفصل التالي . وقد أطلق على القسم الجنوبي مـن الساحل الغربي منـذ ذلك اليوم اسم ساحل الهدنة أو الصلح .

حكومة الهند البريطانية وموضوع الغاء الرق

منذ القرون الوسطى ، وتجارة الرق منتشرة في ربوع الخليج انتشاراً واسعاً ، وذلك لما كانت تجره من مرابح فـاحشة على تجارها الذين كانوا يتعاملون مع سلاطين مسقط وكل من فارس والدولة العثمانية المشجعتين لهذه الحركة التجـارية ، ويتضح ذلك أكثر إذا علمنا ان سلطنة مسقط كان لها مستعمرات في افريقية منبـع الرق الذي من بعض آثاره اليوم وجود اكثر من عشرين مليونـــاً من الزنوج في أمريكة .

ولقد بقيت هذه الحركة تسير على قدم وساق عبر حياة الخليج حتى كان دور تغلغل النفوذ البريطاني ، فرفعت راية محاربته ، وأخذت من نفسها صفـة البوليس

الدولي على مياه الخليج .

وقد يثير هذا الموضوع دهشة القارىء واستغرابه وتساؤله : كيف يكون المستعمرون البريطانيون الذين لم يشهد تاريخ الاستعمار العالمي أشرس منهم ، حفظة القيم الانسانية ، والمثل الاخلاقية ، والتبجح بأنهم هم الذين قضوا على القرصنة وأتوا على تجارة النخاسة .

ولكن الذي نراه ان بريطانية لم تكن تستهدف الغاء الرق بذاته ، ولا عمدت لمحاربة القرصنة لمثل أعلى ولغاية نبيلة ، وإنما كان كل غرضها هو الهيمنة على الخليج سياسياً ، وتقويض قوى المقاومة العربية أو من يظاهرها ، واتخذت حجة محاربة القرصنة والرق ذريعة لتحقيق ذلك ، وقد تمّ لها ما أرادت بمعاهدة ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م التي تطلق يد الانكليز في تفتيش السفن العربية متى شاءت وحيثما رغبت ، ويتضح هدف بريطانية بوضوح اكثر من تصريح بلمرستون وزير الخارجية البريطانية عام ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م ، وفيه يقول :

« ان مهمتنا في الخليج الفارسي هي وضعه تحت سيطرتنا البحرية بعيداً عن نفوذ أية دولة أخرى تستطيع منازعتنا هذه السيطرة ، ولكن بشرط ألا تكلفنا هذه السياسة نفقات باهظة [١] » .

ويتضح هدف الانكليز بصورة أوضح ، فضلاً عما قدمنا من تصريح وزير خارجيتهم ، إذا علمنا ان السلطات البريطانية قد رفضت رفضاً قاطعاً ان تساهم الدولة العثمانية في «تلك المهمة الانسانية» ومراقبة الحركة الملاحية ، وذلك لتخوف تلك السلطات من المنافسة التركية ، ولخشيتها من احتمال استعادة العثمانيين سلطانهم المنحسر عن الامارات العربية . وصفوة القول ان الانكليز كانوا يريدون أن يستأثروا بأداء « تلك الرسالة الانسانية » ، التي ان كان فيها ظل من الحقيقة ، فهي تنطبق كل الانطباق وآية الشاعر الفرنسي فيكتور هيغو التي ترجمها أديب اسحق شعراً :

---

١ ـ المرجع السابق ص ١١٧

قتل امرىء في غابةٍ   جريمةٌ لا تغتفر ..
وقتـــلُ شعبٍ آمنٍ   قضيـــةٌ فيها نظر !

وبعد عامين من عقد هذه المعاهدة مع المشيخات العربية ، ثنت عليهـا بمعاهدة مماثلة مع مسقط عام ١٢٣٨ هـ ١٨٢٢ م بشأن المراقبة البريطـــانية على المراكب العمانية ، إلا ان هذه المعاهدات لم تسفر في الواقع إلا عن تدعيم النفوذ البريطاني وخضوع السفن التجارية ليس في الخليج فحسب ، وانما في المحيط الهندي وعلى نطاق واسع ، لمراقبتهم وسلطانهم .

وزاد الأمر تفاقماً ، عندما أصدرت السلطات البريطانية عام ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م مرسوماً ينظم المكافآت المالية للبحارة الانكليز إذا مـــا القوا القبض على مركب عربي متلبس بالجريمة التي لا تغتفر ،فكان ذلك ذريعة جديدة للتعرض لكل مركب عربي حتى ولو لم يكن ذلك المركب حاملاً قلامة ظفر لرقيق ، وذلك لأن تلك المكافأة كانت تغري قواد السفن الانكليزية باتهام السفن العربية بدون حق، كأن يكون عمال هذه السفن من الزنوج الذين لا يقصد التجـــارة فيهم . وقد اعترف المؤرخون الانكليز أنفسهم بسوء استعمال البحارة لحق التفتيش [١] وغالباً ما كانت السلطات البريطانية تفتعل أوهى الذرائع للتدخل في شؤون المشيخـــات العربية الداخلية البحتة ، لتستدرجها إلى حمايتها الكاملة بأسرع وقت ممكن .

وهكذا كانت الحركة التجـارية العربيـــة تذوي شيئاً فشيئاً متودية في درك التدهور ، وكيف لها أن تقاوم تلك الضربات المتلاحقة وتنافس التجارة البريطانية المتسلطة ، وخاصة بعد أن طفقت المراكب الاوروبية البخـارية تغزو الخليج ، لتتورم على حسابها جيوب صقور المال في الجزر البريطـــانية التي حرّمت استرقاق الفرد لتفتح اسواق النخاسة الاستعمارية على صعيد القارات .

البحرين ودخولها في ظل الحماية البريطانية

لقد كانت جزر البحرين مثار مشاكل عدة ، ذلك لأنها كانت موضع اطماع

---

١ ـ المرجع السابق ص ١٨٥

عدة أطراف متناوئة ، فالفرس كانوا يدعون انها امتداد لأراضيهم ، وقد حاولوا استغلال التحالف الانكليزي الفارسي لتأمرهم انكلترة باحتلالها وتساعدهم عليه ، غير ان ساسة حكومة الهند البريطانيين كانوا يقابلون تلك المساعي بالرفض القاطع ، وقد اتخذوا موقف الضغط والتهديد من الحكومة الايرانية حين حاولت الاخيرة غزو جزر البحرين ولم تستطع ايران إلا أن تذعن ، وبخاصة في فترة وقوعها بين شقي رحى الاستعمارين البريطاني والروسي .

ومن ناحية ثانية فقد أصاب جزر البحرين رشاش مناورات الحملة المصرية التي استهدفت ضمها مع الأراضي النجدية عام ١٢٥٥ هـ ١٨٣٩ م إلى مصر ، مما جعل حكومة الهند البريطانية تقف موقف المحترس المتربص .

ولما حطمت بريطانية المقاومة العربية في الخليج ، وأعلنت حمايتها على مشيخات ساحل الهدنة ، وتقدمت خطوة ثانية فأدرجت إمارة قطر في ظل سلطانها ، رأت ان الوقت قد حان لإخضاع جزر البحرين لنفوذها .

لكننا نرى قبل أن نفضي إلى النتائج التي آلت لالحاق هذه الإمـــارة العربية بدائرة الحماية البريطانية ، وتدخلها الصريح في شؤونها عام ١٢٧٨ هـ ١٨٦١ م ، أن نعرف شيئاً عن مقدماتها .

لقد تميزت الحقبة التي سبقت التدخل البريطاني بإمارة البحرين بانتشار الاضطرابات الداخلية والفتن المحلية التي ظهرت بشكل جلي عندما أقدم السلطان محمد آل خليفة على اقصاء عمه الشيخ عبدالله ، وكان الاثنان يحكمان جزر البحرين معاً ، فالتجأ الأخير إلى الحكومة الفارسية التي قبلت بمساعدته ومن هناك شرع يشكل قوة مناوئة لابن أخيه ، على حين كانت فـــارس ترى فيه مخلب القط ، وبتعبير ثانٍ كانت ترى بالبحرين الكستناء التي تستخرجها من النار بحرق أصابعه ، بيد انها لم تجرؤ على تجريد حملة على الإمارة ، إذ سبقتها إلى ذلك التهديدات البريطانية ، فانكمشت على نفسها لينتقل الشيخ عبدالله من أرض فارس إلى جزيرة قيس في القسم الجنوبي من الخليج ، حيث نظم بعض القوى لاسترجاع حقه بالحكم عنوة ، مما دفع السلطان محمد آل خليفة للاستنجاد بكل من بريطانية وفارس والدولة العثمانية معاً .

ورأت فارس من الحكمة ألا تدخل تلك الدوّامة ، لأن عبـــارات التهديد البريطانية ما زالت تتردد صداها في مسامع ساسة ايران،لكنها تدخلت في الموضوع بشكل غير مباشر ،إذ خوّلت الدولة العثمانية ان تنوب منابها،فلبت هذه على شروط، لكن قبل أن يتحرك أحد تلك الاطراف ، بادرت حكومة الهند البريطانية بهزّ غليظ هراوتها في وجوههم جميعاً ، وأعلنت حمـايتها لجزر البحرين ووجوب احترام كيانها كدولة مستقلة ، لأنها مرتبطة ببريطانية بمعـاهدات السلام الدائم المعقودة مع المشيخات العربية .

وفي عام١٢٦٥هـ١٨٤٨م توفي الشيـخ عبدالله عم محمد آل خليفة حاكم البحرين، وخيل للجميـع بان الثورة قد خمد اوارها بموته ، على حين كان جمرها تحت الرماد ، إذ بادر لحمل لوائها الشيخ محمد بن عبدالله آل خليفة،وكانت ثورته هذه أشد خطراً من من ثورة والده ، إذ استطاع أن يستولي على الاحساء ويتخذ من مدينة الدمام عاصمة لحكمه ، ومن هناك مد يده إلى السعوديين في نجد آملاً أن يؤازروه في حملته المقبلة على البحرين ، ثم ما عتم أن أعلن ولاءه لحكومة فيصل بن تركي، و « باسم حكومة الوهابيين قام بمحاولة لغزو بلاد البحرين سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م [1] » .

وحينئذ رأت بريطانية نفسها ملزمة بحماية البحرين، إذ خافت مغبة امتداد النفوذ السعودي إلى مغاصات اللالىء البحرانيـة ، وسعت للحؤول دون الغزو ، لكن دون جدوى وجرد الشيخ محمد بن عبد الله حملة عسـكرية على البحرين عام ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م وضرب عاصمتها المنامة وحينئذ ردت بريطانية على القوة العسكرية بقـوة امضى وارسلت حكومة الهند قطعتين من اسطولها قامتا بقصف الدمام مقر الشيخ محمد بن عبد الله .

إلا أن صنيع بريطانية هذا لم يحل دون نشوب الخلاف واثارة العداوة ما بينها وبين حاكم البحرين وذلك لأن السلطان أقدم دون استئذانها على محاصرة ميـنـــاء القطيف التابع للسلطة المركزية في نجد ، وكانت بريطانية تتحـــاشى على الدوام

---

١ ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ٦٧

اشتباكها مع الوهابيين ، خوف أن يجرها ذلك إلى فقدان سيطرتهـــا على الخليج العربي ، واجتماع كلمة القبائل تحت الراية السعودية ضدها ، ناهيك عن أن حرباً كهذه قد تجرهـــا إلى التوغل داخل الجزيرة العربية وهو أمر تخشى عواقبه ، ولذا فقد أرسلت خطاباً شديد اللهجة إلى الحاكم البحراني ، مما حمل السلطـان على مجافاة البريطانيين ، وأجرى اتصالات مباشرة مع حكومة فارس ، واعلن عـام ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م تحالفه مع الشاه الايراني .

وتدارست حكومة الهند ووزارة الخـــارجية البريطانية الموقف على ضوء الأحداث الأخيرة ، وقرارها تجنباً للمضاعفات أن تعلن عام ١٢٧٨ هـ.١٨٦١ م عن استقلال امارة البحرين استقلالاً ذاتياً عن باقي الامـارات العربية الاخرى ، واقدمت بعدها على انفاذ قائد بحريتها الاميرال جونس على رأس اربـع سفن حربية بريطانية فقام بمحاصرة ميناء المنامة ، وحمل حاكمها على توقيـع معاهدة نصت بنودها على استقلال البحرين استقلالاً ذاتيـــاً ، ثم شرعت تملي عليه الشروط الاستعمارية الروتينية لضمان السيادة البريطانية ، ومن جهتها « تعهدت له بسلامة جزره ورد كل غارة عليها مقابل تنازله عن حقه في تجهيز الجنود والسفن البحرية [1] » .

غير أن العلاقات السياسية عادت من جديد إلى التوتر ما بين البريطانيين والحاكم البحراني ، لتجريده حملة عسكرية على قطر عام ١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م لقيـــام اهليها بثورة على البحرانيين ،وامتناعهم عن دفع الجزية لهم ، الأمر الذي اعتبرته الحكومة البريطانية نقضاً لاتفاقية عام ١٢٧٨ هـ ١٨٦١ م ، ورأت أن تقابله بحملة تأديبيـة لتعيده إلى جادة الولاء واحترام المواثيـق ، وعمدت لسالف اسلوبهـــا المعروف فحاصرت قواتها المنامة ، فاضطر السلطان محمد للفرار وترك أخيه الشيخ علي نائباً عنه ، ولم يستطع هذا غير التسليم ، وعقد اتفاقيـة جديدة مع بريطانية هي رجع الصدى لاتفاقية عام ١٢٨٧ هـ ١٨٦١ م ، وزادت عليها شروطاً جديده منها تسليم

---

١ ــ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ٦٧

السفن الحربية البحرانية للحكومة البريطانية ، فضلاً عن دفع غرامة قدرها مئة الف دولار ، وشددت البنود الأخيرة على ابراز النفوذ البريطاني في الامارة المنكوبة ، واعتبرت الأمير علياً الحاكم الشرعي للبلاد .

ولم يستطع السلطان محمد ان يقر بالاوضاع السياسية الأخيرة وعمد إلى تكتيل القوى القبلية لاسترجاع حكمه من يد أخيه ، وحين وثق من قوته البحرية والعسكرية التي تجمعت لديه ، هاجمها بحراً،وأسفرت النتيجة عن مصرع الأمير علي بعد معارك عنيفة دارت بين الاخوين .

ولم تعجب هذه النهاية حكومة الهند البريطانية ، « لذلك أسرع المقيم العام بيلي إلى مكان هذه الاضطرابات ، وصحب معه السفينتين الحربيتين : نمف ودفني ، وللمرة الأولى نزل بالبلاد الجند البريطانيون ، وذلك بعد ضرب مدينتي المنامة والمحرق بالقنابل . وكان محمد بن خليفة قد قتل أثناء هذه المعارك ، فاستطاع بيلي ان يسوّي مشكلة البحرين وفق رغباته : فقبض أولاً على جميع المعادين لبريطانيا وأرسلهم أسرى إلى بومباي ، ثم صادر أموالهم . وأخيراً نصب على الجزيرة الشيخ عيسى أحد أبناء علي بن خليفة ، وقد استمر حكمه في البلاد اكثر من نصف قرن [1] . »

وبالنظر لما تتمتع به البحرين من مركز ستراتيجي هام فقد دأب البريطانيون على اثقالها بالقيود والمعاهدات والالتزامات ، المعاهدة اثر المعاهدة ، والالتزام تلو الالتزام ، ففي سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م ، انتزعت من السلطان عيسى بن علي آل خليفة تعهداً جاء فيه بألا يقدم على عقد أية معاهدة كانت أو أي اتفاق مع أية دولة دون موافقة الدولة البريطانية ، وألا يمنح أي امتياز كان لأية دولة كانت بتأسيس قنصليات أو محطات للفحم [2] .

ومع اهلال القرن العشرين ، أقامت بريطانية في البحرين عنها ممثلاً سياسياً ، كما

---

١ ـ الاستعمار في الخليج الفارسي ١٣١

٢ ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ٦٨

اتخذتها لأهميتها الستراتيجية خلال أحداث الحرب العالمية الاولى قاعدة حربية [1]، ولكن البحرين لم تقبل التخلي عن سيادتها، وصمد حكامها في وجه الضغط البريطاني، وكانوا لا يفتأون يعملون على انتزاع حقهم الشرعي في الاستقلال والسيادة الكاملة.

---

١ ـ الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٣٢

معاهدات ومواثيق الخليج البريطانية العربية

– ١ –

قولنامة [1] Note verbale من امام مسقط في سنة ١٧٩٨

وثيقة اتفاق من ولاية الملاذ العماني تحت إشراف الإمام المدير سيد سلطان دام أمره ، إلى الشركة [2] السامية المقتدرة دامت عظمتها مضمنة في المواد التالية :

مادة ١ – من وقت وصول كتاب اعتماندي الدولة ميرزا مهدي علي خان بهادور جونج لا يجوز الانحراف عن هذه القولنامة .

مادة ٢ – من وقت قراءة الكتاب المذكور أخذ قلبي يميل إلى توثيق الصداقة مع تلك الدولة ، ومنذ هـذا اليوم سيصبح صديق أحدنا صديق الآخر وعدوّه عدوه .

مادة ٣ – ونظراً إلى ان طلبات مختلفة قدّمت ولا تزال تقدم من قبل الفرنسيين والهولنديين لإقامة مصنع ، أو بعبارة أخرى ليركزوا أنفسهم إمّا في مسقط أو في جومبروم أو في الموانىء الأخرى ، لهـذا السركار فقد كتبت على نفسي أنه طالما الحرب مستمرة بين الشركة الانكليزية وبينهم ، فلن أعطي لهم مكاناً في أراضيّ ، رعاية مني لصداقة الشركة ، ولن يجدوا لأنفسهم فيهـا موضعاً لقدم .

---

١ – قولنامة : معاهدة باللغة الفارسية

٢ – المقصود بالشركة : شركة الهند الشرقية « الانكليزية »

مادة ٤ – وبما أن هناك شخصاً فرنسياً ظل السنوات العديدة الماضية يعمل في خدمتي ، وقد ذهب الآن على رأس إحـــدى سفني إلى جزائر الموريشيوس فإنني سأفصله من خدمتي بمجرد عودته ، وأطرده من بلدي .

مادة ٥ – في حالة دخول احدى السفن الفرنسية مياه مسقط فلن يسمح لهـــا بالدخول إلى المرفأ الذي يسمح للقوارب الانكليزية بدخوله ، بل تبقى خارجه ، وفي حالة وقوع اعتداء في هذه الجهة بين السفن الفرنسية ، والسفن الانكليزية فإن قوة هذه الولاية في البر والبحر وكذلك شعبي سيشتركون فيه إلى جانب الانكليز ، فأمّا في البحار المكشوفة فإنني لا أتدخل .

مادة ٦ – في حالة غرق سفينة أو سفن تابعة للانكليز فانها تلقى حتما المساعدة اللازمة وتتوفر لها وسائل الراحة من جانب هذه الحكومة ، كما أن مـــا عليها من متاع لا يغتصب ولا يستولى عليه .

مادة ٧ – إذا رغب الانكليز في أي وقت في إنشاء مصنـع بمينـــاء أباسي (بجومبروم) فلا اعتراض لي على تحصينهم لهذا الميناء ، ووضع المدافع بقدر مـــا يتراءى لهم ، ولا اعتراض على اقـامة أربعين أو خمسين رجلاً انكليزياً هنـــاك ، ومعهم سبعمائة أو ثمانمائة جندي من الهنود . أما فيما عدا ذلك فإن الرسوم التي تجبى على البضائع عند البيع والشراء ستكون في نفس المستوى المعمول به في البصرة وأبو شهر .

حرر في أول جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هجرية
الموافق ١٢ اكتوبر سنة ١٧٩٨

– ٢ –

اتفاقية معقودة من جانب إمام ولاية عمان مع الكابتن جون مالكولم بهادور – رسول الرايت أونورابل الحاكم العـــام . مؤرخة في ٢١ شعبان سنة ١٢١٣ هـ . الموافق ١٨ يناير سنه ١٨٠٠ .

مادة ١ – تبقى القولنامة التي اتفق عليها مع إمام عمـــان مع مهدي علي خان بهادور نافذة المفعول دون تغيير .

مادة ٢ – وبالنظر إلى أن تقارير سيئة تهدف إلى تعكير التفـاهم القائم ، وإلى خلق جو من سوء التفاهم بين الولايتين ، فقد ذاعت في خارج البلاد ، ووصلت إلى سمع الرايت أونورابل – الحاكم العـام إيرل أوف مونتجتون (K.P) ، فإننا رغبة منا في منع مثل هذه المساوىء في المستقبل ، تحدونا إلى ذلك عواطف الصداقـــة المتبادلة ؛ نوافق على أن يبقى واحد من أفاضل الإنكليز ، ومن ذوي المكانة بينهم مقيماً في ميناء مسقط بصفة مستديمة نيـابة عن الشركة الموقرة ؛ تجري عن طريقه جميع المعاملات بين الولايتين حتى تعرض أعمال كل حكومة عرضاً عادلاً منصفاً ، وحتى لا تتاح فرصة لذوي الأغراض الذين لا همّ لهم إلاّ بذر بذور الفرقة ، وتبقى الصداقة بين الولايتين ثابتة غير مضطربة حتى يوم الدين ، وإلى أن تكف الشمس والقمر عن الدوران ..

ختم بحضوري

جون مالكولم

المندوب

وافق عليه الحاكم العام وهو بمجلسه في ٢٦ إبريل سنة ١٨٠٠

– ٣ –

خطاب ملحق مؤرخ في ١٨ أغسطس سنة ١٨٤٥ صادر من صاحب السمو إمام مسقط إلى الكابتن هامرتون بشأن المادة الرابعة من المعاهدة المبرمة في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٢٢ بين الكابتن مورسبي وصاحب السمو إمام مسقط :

بعد التحية ،

وصلت رسالتكم الكريمة ، وفهم صاحبكم ما جاء بهـــا . لقد ذكرتم فيها أنكم تلقيتم رسالة من الحكومة العزيزة تتضمن أمراً إليكم بلفت نظرنا إلى ان المـــادة

الرابعة من المعاهدة التي أبرمناها مع الكابتن مورسبي في سنة ١٨٢٢ . قد ورد في نصها الإنكليزي ما يحتم علينا، وعلى ورثتنا ، وعلى الحكام من قبلنا، أن يساعدوا في القبض على الرعايا الإنكليز المشتغلين بتجارة الرقيق ، بينما لا يوجد مثل هذا النص في النسخة العربية من تلك المعاهدة ، وأن صديقي (أنتم) يعتقد أنه ليس ثمة ما يوجب تعديل المعاهدة ، على أننا نراه واجباً محتماً علينا ، وعلى ورثتنا ، وعلى الحكام من قبلنا،أن نعاون في القبض على الرعايا الانكليز الذين يعملون في تجارة الرقيق .

وعلى هذا فان كل شخص مفوض من قبل الحكومة يطلب منا معاونته فانه سيلقى هذه المعاونة فوراً .

أرجو إفادتي بكل ما تطلبونه ، والسلام عليكم .

حرر في ٤ شعبان سنة ١٣٤١ هجرية .

الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٤٥

– ٤ –

معاهدة تجارية بين صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا ، وبين صاحب السمو سلطان سيد سعيد بن سلطان – امام مسقط . في عام ١٨٣٩

مقدمة :

لما كانت صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا ، وصاحب السمو سلطان مسقط وملحقاتها حريصين على توكيد حسن التفاهم الذي يقوم الآن بينهما ودعمه ، وعلى تنمية العلاقات التجارية بين رعاياهما عن طريق عقد معاهدة بينهما ، ولما كان سمو سلطان مسقط راغباً فوق ذلك في أن يسجل في صورة ذات طابع رسمي أقوى الارتباطات السابقة التي تعهد بها سموه في ١٠ سبتمبر سنة

١٨٢٢ بشأن إلغاء تجارة الرقيق إلغـــاءً مستديماً بين ممتلكات سموه ، وبين جميع الشعوب المسيحية — فقد عيّنا كوزراء مفوضين عنها كلًا من السيد رويرت كوجان — الكابتن في الخدمة البحرية في شركة الهند الشرقية ، نيابة عن صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا ... الخ وحسين بن إبراهيم وعلي بن ناصر — نيابة عن سمو سلطان مسقط الخ .. وبعد أن تبـــادل هؤلاء أوراق اعتمادهم ، ووجدوها مستكملة اتفقوا على الموادّ الآتية ، وتعاهدوا عليها :

مادة ١ - يكون لرعـــايا صاحب السمو سلطان مسقط حرية الدخول ، والإقامة ، والتجارة ، وحمل بضائعهم في جميع ممتلكات صاحبة الجلالة البريطانية في أوروبا وفي آسيا ، ويكون لهم حـق التمتع في هذه الممتلكات في شؤونهم التجارية وغيرها بجميـع الامتيازات والمزايا الممنوحة ، أو التي قد تمنح لرعـــايا أو مواطني الشعوب الأكثر رعاية . ويكون لرعايا صـــاحبة الجلالة البريطانية كذلك مطلق الحرية في الدخول والإقامة والتجارة والمرور ، وحمل بضائعهم في جميـع أنحـــاء ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط،ويكون لهم حق التمتع في هذه الممتلكات: في شؤونهم التجارية وغيرها بجميـع الامتيازات والمزايا الممنوحة ، أو التي قد تمنح لرعايا أو مواطني الشعوب الأكثر رعاية .

مادة ٢ - يكون للرعـــايا البريطانيين الحرية في أن يبيعوا ، ويشتروا ، ويستأجروا بممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط .

ولا يجوز الدخول عنوة إلى المنازل ، والمخازن ، أو غيرها من المباني التـــابعة لرعايا بريطانيين ، أو لأشخاص في خدمة الرعـايا البريطانيين فعلًا — داخل ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ، ولا يجوز تفتيشها بأي عذر دون موافقة شاغليها إلا أن يكون ذلك بعلم القنصل، أو الوكيل البريطاني المقيم . وعلى القنصل أو الوكيل المقيم في هذه الحالة عند وجود أسباب مقنعة تقدمهـا سلطات صاحب السمو سلطان مسقط أن يرسل شخصاً مسؤولاً يشترك مع موظفي صاحب السمو سلطان مسقط في أعمال التفتيش ، ويمنع استعمال العنف في غير ضرورة ، ويحول دون كل مقاومة غير مشروعة .

مادة ٣ – يعترف الطرفـــان المتعاقدان – كل منها للآخر – بحقه في تعيين قناصل يقيمون في ممتلكات الآخر ، كلما اقتضت مصالح التجارة وجود مثل هؤلاء الموظفين ، ويكون هؤلاء القنـــاصل في جميع الأوقات – في البلد الذي يقيمون فيه – في مصاف قناصل الأمم الأكثر رعاية .

وكذلك يوافق كل من الطرفين الساميين المتعاقدين على أن يسمح لرعاياه بأن يعيّنوا قناصل من قبل الطرف الآخر بشرط أن لا يزاول الأشخاص الذين يعيّنون في هذه الوظائف أعمـالهم إلا بموافقة سابقة من صـاحب السلطان الذي يتبعه هؤلاء الأشخاص .

ويتمتع الموظفون العموميون في أي من الحكومتين – المقيمون في ممتلكات الحكومة الأخرى – بنفس الامتيازات والحصانات والاعفاءات التي يتمتع بها في نفس هذه الممتلكات – نظائرهم من الموظفين العموميين التابعين للدول الأخرى .

مادة ٤ – رعايا صاحب السمو سلطان مسقط الذين يعملون فعلاً في خدمـــة رعايا بريطانيين في ممتلكات سموه يتمتعون بنفس الحماية الممنوحة لرعايا البريطانيـين أنفسهم . على أنه إذا حكم على أحد من رعايا صاحب السمو سلطان مسقـط هؤلاء لجناية ارتكبها ، أو لمخالفة للقانون تقضي العقاب ؛ فان على الرعايا البريطانيين الذين يعمل هؤلاء في خدمتهم أن يفصلوهم من خدمتهم ، ويسلموهم لسلطـــات صاحب السمو سلطان مسقط .

مادة ٥ – لا تتدخل سلطات صاحب السمو سلطان مسقط في المنازعات التي تقوم بين رعايا بريطانيين أو بين رعايا بريطانيين ورعايا أو مواطنين تابعين لشعوب مسيحية أخرى .

وفي حالة قيام خلافات بين أحد رعايا ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط وأحد الرعايا البريطانيين ، تسمع الدعوى أمام القنصل البريطاني أو الوكيل المقيم إذا كان الطرف الأول هو المدعي، كي يقضي بينهما. أما إذا كان المدعي من الرعايا البريطانيين وكانت دعواه ضد واحد من رعايا سمو سلطان مسقط أو ضد أحـــد رعايا دولة اسلامية أخرى فتتولى الفصل بينهما أعلى سلطة من قبل سلطان مسقط أو

من يرشحهم سموه لذلك . وفي جميع مثل هذه الحالات لا تسير اجراءات المحاكم إلا بحضور القنصل البريطاني أو الوكيل المقيم أو مندوب عن أحدهما يذهب إلى دار القضاء أو إلى حيث يكون التقاضي في هذه المسألة .

وفي الدعاوى التي تقوم بين أحد الرعايا البريطانيين وأحد الوطنيين من سكان ممتلكات سمو سلطان مسقط يكون القضاء فيها أمام القنصل البريطاني أو الوكيل المقيم أو أمام السلطة التابعة لسمو سلطان مسقط التي سبقت الإشارة اليها، ولا يجوز سماع شهادة شخص ثبتت عليه شهادة الزور في قضية سابقة .

مادة ٦ – الرعايا البريطانيون الذين يموتون في ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ورعايا سمو سلطان مسقط الذين يموتون في الممتلكات البريطانية ، تسلم أملاكهم إلى ورثة كل منهم أو لمنفذي تركته أو المشرفين عليها . أما في حالة تغيب الورثة أو المنفذين أو المشرفين فتسلم تركته إلى القنصل أو إلى الوكيل المقيم التابع له .

مادة ٧ – إذا أفلس أحد الرعايا البريطانيين في ممتلكات سمو سلطان مسقط فان القنصل البريطاني أو الوكيل المقيم يستولي على كل أملاك هذا المفلس ويعطيها لدائنيه لتقسم فيما بينهم . فإذا تم هذا أبرأ المفلس ذمته أمام دائنيه ولا يجوز في أي وقت بعد ذلك أن يطالب بسد العجز ، ولا يجوز استخدام الأملاك التي يحوزها بعد ذلك التاريخ لوفاء هذا العجز . ولكن للقنصل البريطاني أو الوكيل المقيم مع ذلك أن يبذل جهده ليحصل ، رعاية لمصلحة الدائنين ، على ما قد يكون للمفلس من أملاك في بلاد أخرى وأن يتأكد أن كل ما في حيازة المفلس عند افلاسه قد سلم دون تحفظ .

مادة ٨ – إذا تهرب أحد رعايا صاحب السمو سلطان مسقط من دفع ديونه المستحقة عليه لأحد الرعايا البريطانيين أو ماطل في دفعها فان سلطات صاحب السمو يجب أن تقدم إلى الرعية البريطاني كل مساعدة لإستعادة المبلغ المستحق له، وكذلك يقدم القنصل البريطاني أو الوكيل المقيم كل مساعدة إلى رعايا صاحب السمو سلطان مسقط لاسترداد الديون المستحقة لهم قانوناً قِبَلَ أي رعية بريطاني .

مادة ٩ — لا يجوز أن تجبى ضريبة تزيد على ٥ بالمئة على حدود ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط على أية بضاعة أو غلة أو انتاج أو صناعة من صناعات الممتلكات التابعة لصاحبة الجلالة البريطانية المستوردة على سفن بريطانية . وتعتبر هذه الضريبة شاملة لرسوم الاستيراد والتصدير وضريبة الحمولة ومصاريف الرخص التجارية ونفقات الارشاد والارساء وغير ذلك من الرسوم التي تحصلها الحكومة على المراكب أو البضائع المستوردة أو المصدرة بهذه الطريقة. ولا يجوز فرض ضريبة على البضائع إذا نقلت فيما بعد من مكان إلى آخر داخل ممتلكات صاحب السمو وإذا دفعت الضريبة المذكورة آنفاً جاز بيع البضائع بالجملة والقطاعي دون أن يترتب على ذلك أية زيادة في الضريبة . ولا يجوز كذلك فرض ضريبة على السفن البريطانية التي تدخل موانىء صاحب السمو بقصد الاصلاح أو التموين أو لتبين حالة السوق .

مادة ١٠ — لا يجوز منع استيراد أي سلعة داخل أراضي صاحب السمو سلطان مسقط أو تصديرها منها ، بل تبقى التجارة بين ممتلكات صاحبة الجلالة البريطانية وممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط حرة طليقة فلا تخضع إلا للرسوم الجمركية على السلع المستوردة التي سبقت الاشارة اليها ، ويتعهد صاحب السمو سلطان مسقط بألا يسمح بانشاء أي احتكار أو منح امتيازات خاصة للبيع داخل ممتلكاته فيما عدا البضائع العاجية وصمغ القوبال في تلك الجهة من الشاطىء الشرقي لافريقية من مرفأ تانجيت الذي يقع على خط ٥,٥ درجة تقريباً من خطوط العرض الجنوبية ، إلى ميناء كويلا الذي يقع حوالي ٧ درجات جنوبي خط الاستواء، بما في ذلك هذان المرفآن . أما في سائر الموانىء والأماكن من ممتلكات صاحب السمو فلن يسمح فيها بأي نوع من الاحتكار . ويكون لجميع رعايا صاحبة الجلالة البريطانية ملء الحرية في البيع والشراء لأي كان وممن كان ، غير خاضعين في ذلك لأية ضريبة غير ما سبقت الاشارة اليه .

مادة ١١ — إذا نشب نزاع في ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط حول قيمة البضائع التي يستوردها تجار بريطانيون وتجبى عليها ضريبة ٥ بالمئة ، جاز لمدير الجمارك أو لأي موظف مسؤول يعمل نيابة عن حكومة صاحب السمو سلطان

مسقط أن يطلب جزءاً من عشرين جزءاً من البضاعة بدلاً من دفع ٥ بالمئـــة وعلى التاجر أن يسلم هذا الجزء عند الطلب ما دامت طبيعة البضاعة تسمح عمليـــاً بهذا الاجراء فاذا أنفذ التاجر ذلك لم يعد ملزماً بدفع أية رسوم جمركية على الـ ٢٠/١٩ جزء المتبقية من البضاعة في أي مكان من ممتلكات صاحب السمو سلطـــان مسقط ينقل اليه بضاعته أما إذا اعترض مدير الجمارك على جباية الضريبة بالطريقة المذكورة سابقاً بأخذ جزء من عشرين جزءاً من البضاعة أو كانت البضاعة لا تسمح طبيعتها بأن تقسم على هذا النحو ، فيحال موضوع النزاع على شخصين ممن هم أهـــل لذلك أحدهما يختاره مدير الجمارك والآخر يختاره المستورد ليقوما بتقييم البضاعـة ، فاذا اختلفا عيّنا حكماً بينهما تكون قراراته نهائية ، وتجبى الضريبة وفق القيمـــة التي تُحدد على هذا النحو .

مادة ١٢ — لا يجوز لأي تاجر بريطاني أن يعرض بضاعته للبيع خـلال ثلاثة أيام من تاريخ وصولها إلا إذا اتفق المستورد ومدير الجمارك على تثمين البضـــاعة المذكورة قبل انتهاء فترة الايام الثلاثة . فاذا لم يوفق مدير الجمـــارك خلال ثلاثة أيام على قبول إحدى الطريقتين المقترحتين لتحديد قيمة البضاعة ، فان سلطـــات صاحب السمو سلطان مسقط — بناء على طلب يقدّم اليهـــا لذلك — تلزم مدير الجمارك باختيار إحدى الطريقتين التي يمكن أن تجبى الرسوم الجمركية على أساسها .

مادة ١٣ — إذا وقعت حرب بين ملكة انكلترا أو صـاحب السمو سلطان مسقط وبين بلد آخر فان رعايا صاحبة الجلالة البريطانية ، ورعايا صـــاحب السمو سلطان مسقط : يُسمح لهم بالمرور إلى مثل ذلك البلد عبر ممتلكات أي من الدولتين المتعاقدتين حاملين معهم البضائع على اختلاف أنواعها مـــا عدا المعدّات الحربية . ولكن لا يسمح لهم بدخول أي مرفأ أو مكان محذور أو محاصر .

مادة ١٤ — إذا التجأت سفينة تحمل العلم البريطاني إلى مرفأ واقع في ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط وهي في مأزق ؛ فان السلطات المحلية في ذلك المرفـأ تقدم كل المساعدات اللازمة لاصلاح السفينة ومعاونتها على استئناف رحلتها . وإذا تحطمت سفينة بهذا الوصف على شواطىء ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ؛

فان على سلطات صاحب السمو أن تقدم جميع المساعدات التي في مكنتها لتسلّم أصحاب السفينة كل ما يمكن إنقاذه من الحمولة التي عليهـــا ، وتقدم نفس المساعدة والحماية التابعة لممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ، كما تتبع نفس الاجراءات بازاء مـــا ينقذ من حمولتها في الأحوال المشابهة في مرافىء أو شواطىء الممتلكات البريطانية .

مادة ١٥ – يجدد ويؤكد صاحب السمو سلطان مسقط تعهداته التي التزم بهـا سموه مع بريطانيا في ١٠ سبتمبر ١٨٢٢ ، بخصوص القضاء على تجـــارة الرقيق بين ممتلكاته وبين جميع البلاد المسيحية . ويتعهد سموّه زيادة على ذلك بأن يسمح للسفن والمراكب الحربيـة التـابعة لشركة الهند الشرقية بمساندة موادّ هذه المعـــاهدة ، والمساعدة على تنفيذها طبقاً للشروط الواردة فيها بنفس الطريقة التي يسمح بها في ذلك لسفن صاحبة الجلالة البريطانية ومراكبها .

مادة ١٦ – يعترف الطرفان الساميان المتعاقدان ويعلنان بـأن هذا الاتفاق لا يتضمن ما يقصد منه بحال من الأحوال التدخل في الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها حالياً رعايا صاحب السمو سلطان مسقط بالنسبة للتجارة والملاحة في حدود ميثاق شركة الهند الشرقية ، أو إلغاء هذه الحقوق والامتيازات .

مادة ١٧ – يتم التصديق على هذا الاتفاق ويجري تبادل التصديق عليه في مسقط أو زنجبار في أسرع وقت ممكن ، وفي مدة لا تتجاوز في أي الحـالات خمسة عشر شهراً من تاريخ عقده .

حرر في الجزيرة بمدينة زنجبـار في هذا اليوم الحـــادي والثلاثين من شهر مايو في سنة ١٨٣٩ . الموافق السابع عشر من شهر ربيع الأول ١٢٥٥ هجرية .

صورة اعلان صادر من قبل الحكومة البريطانية
تصديق صاحب السمو امام مسقط على معاهدة التجارة

بعد الاطلاع على المعاهدة المفصّلة أعلاه قد وافقنـــا على مختلف المواد والبنود

الواردة فيها وقبلناها، وأمّنا عليها. ونعلن بمقتضى هذا بموافقتنا وقبولنا لها، وتأميننا عليها ؛ بالأصالة عن نفسنا ، وبالنيابة عن ورثتنا وخلفائنا . وبناء على ذلك فإننا نعد بمقتضى مـا تعهدنا عليه ، ونلتزم في أمانة وإخلاص بأن ننفذ كل مـا جاء في هذه المعاهدة ، وكل ما تضمنته ، بأن لا نسمح – بكل ما أوتينا من قوة – لأحد بأن يخرق أو ينقض هذه التعهدات بأية طريقة كانت .

وإشهاداً على ذلك قد أمرنا باثبات خاتمنا على هذه الوثيقة ، ووقعنا عليها بيدنا في مرفئنا هذا بمسقط في اليوم الثاني والعشرين من شهر جمـادى الأولى سنة ١٢٥٦ هجرية . الموافق ٢٢ يوليو سنة ١٨٤٠ م .

سيد سعيد

– ٥ –

مواد اضافية بشأن مكافحة تجارة الرقيق الاجنبية التي تعهد بها صاحب السمو سعيد سيد بن سلطان ، امام مسقط سنة ١٨٣٩

أوافق على إضافة المواد التالية إلى المعاهدة المذكورة آنفـاً التي أبرمهـا الكابتن مورسبي في التاريخ المذكور سابقاً :

مادة ١ – يجوز لطاردات الحكومة ،حيثما صادفت مركباً من مراكب رعاياي فيما وراء خط مستقيم يمتد من رأس (دلجارو) ويسير درجتين في البحر من ناحيـة جزيرة (سوقطرة) ، وينتهي في (يوسين) ، وداخلهـا الشك في أن هذا المركب يستخدم في تجارة الرقيق ؛ يجوز للطاردات المذكورة حجز هذا المركب وتفتيشه.

مادة ٢ – إذا تبين من التفتيش أن أحد المراكب التي تخص رعاياي تحمل رقيقاً سواء كانوا رجالاً أو نساءً أو أطفـالاً بقصد بيعهم فيما وراء الخط المذكور كان لطاردات الحكومة الحق في الاستيلاء على هذا المركب ، ومصادرة حمولته . أمّا إذا تخطى المركب الخط المذكور آنفاً بسبب سوء الأحوال الجوية، أو لأي ظرف قاهر خارج عن إرادته فلا يستولى عليه في هذه الحالة .

مادة ٣ – وبما أن بيع الأحرار من الذكور والاناث – بالغين كانوا أو قاصرين – مخالف لتعاليم الدين الاسلامي . وحيث أن الصوماليين يدخلون ضمن الأحرار ، فإني بمقتضى هذا أوافق على أن بيع الذكور والاناث من القبائل الصومالية ؛ سواء كانوا بالغين أم قاصرين ، يعتبر عملاً من أعمال القرصنة ، وأن كل من يثبت عليه من أفراد شعبي الاشتراك في هذه الأعمال بعد أربعة أشهر من يومنا هذا سيلقى عقوبة القراصنة .

حرر في ١٠ شوال سنة ١٢٥٥ هجرية ، الموافق ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٩ م .

ختم

سعيد بن سلطان

- ٦ -

حجة تنازل عن جزائر كوريا موريا ، أصدرها صاحب السمو إمام مسقط بحضور الكابتن (فريمنتل) – قائد سفينة صاحبة الجلالة (جونو) بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٥٤ .

من المتواضع لله سعيد بن سلطان إلى كل من يقع بصره على هذا المكتوب مسلماً كان أو غير مسلم : حضر لديّ من الأمة العزيزة (انكلترا) الكابتن (فريمنتل) التابع للبحرية الملكية لصاحبة الجلالة يطلب مني (جزائري : بن كولفيم) جزائر كوريا موريا ، أي رولانيسا ، جبلية ، سودا ، هاسكي ، جوروزوند) .

وإنني بمقتضى هذا أتنازل عن الجزائر المذكورة أعلاه إلى الملكة فكتوريا لتكون ملكاً لها ولورثتها ، ولخلفائها من بعدها .

وإثباتاً لهذا قد أثبتّ هنا توقيعي وخاتمي عن نفسي وعن ابني من بعدي ، وذلك بمحض إرادتي ورضاي ، ومن غير قهر أو ارهاب ، أو منفعة مالية أياً

كانت . وليكن هذا معلوماً لكل من يطلع على هذا .

حرر في مسقط في اليوم السابع عشر من شهر شوال سنة ١٢٧٠ هجرية . الموافق ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤ .

من وضع يدي :
تمّ بحضوري

سعيد بن سلطان – إمام مسقط
ستيفن . ج . فريمانتل
قبطان سفينة صاحبة الجلالة (جونو)

– ٧ –

معاهدة صداقة وتجارة وملاحة بين بريطانيا العظمى ومسقط عام ١٨٩١

(وقعت هذه المعاهدة بمسقط في ١٩ مارس سنة ١٨٩١ وتم تبادل التصديق عليها في سنة ١٨٩٢)

لمـــا كانت صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا وإمبراطورة الهند ، وصاحب السمو السيد فيصل بن تركي بن سعيد سلطان مسقط وعمان،يرغبان في دعم علاقات الصداقة القائمة بين بلديهما،وتوثيقها،وفي تعزيز علاقاتهما التجارية ، وتوسيع نطاقهـــا ؛ فقد اختارا كمفوضين عنهما في إبرام معاهدة لهذا الغرض كلاً من :

عن جلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا وإمبراطورة الهند الكولونيل إدوارد شارل روس ، حامل وسام نجمة الهند ، والمقيم السياسي لجلالتها البريطانية في الخليج الفارسي .

صاحب السمو سلطان مسقط عن نفسه .

ومن ثم فقد أبرما المواد التالية :

المادة ١ – المعاهدة المبرمة بين الحكومة البريطانية والسلطان سعيد بن سلطان، سلطان مسقط وعمان في ٣١ مايو سنة ١٨٣٩ الموافق ١٧ ربيع أول سنة ١٢٥٥ هجرية قد ألغيت بمقتضى هذا ، وأصبحت باطلة ، وتحل المعاهدة التالية محلها بعد التصديق عليها .

المادة ٢ يشمل رعايا صاحبة الجلالة البريطانية لأغراض هذه المعاهدة الرعايا الوطنيين لولايات الهند المتحالفة مع جلالتها ، فيكون لهؤلاء ؛ فوراً ومن غير شرط في جميع ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ؛ فيما يتصل بالتجارة والملاحة والتبادل التجاري وغيرها من النواحي، جميع الحقوق والامتيازات والحصانات والمزايا والحماية أياً كانت طبيعتها التي يتمتع بها،أو التي يمكن أن يتمتع بها مستقبلاً، رعايا أو مواطنو الشعوب الأكثر رعاية ، وبصورة خاصة فإنهم لا يخضعون لأعباء إضافية ، أو ضرائب ، أو قيود ، أو التزامات مهما كان نوعها غير ما يخضع له رعايا أو مواطنو الشعوب الأكثر رعاية ، سواء في الحاضر أو المستقبل .

مادة ٣ – يعترف الطرفان الساميان المتعاقدان بالتبادل،بحق كل منهما في تعيين قناصل يقيمون في ممتلكات الآخر ، كلما اقتضت المصالح التجارية وجود هؤلاء الموظفين ، ويكون لهؤلاء القناصل في البلاد التي يقيمون فيها المكانة التي لقناصل الشعوب الأكثر رعاية . ويوافق كل من الطرفين الساميين المتعاقدين كذلك على السماح لرعاياه بأن يعينوا في الوظائف القنصلية لدى الطرف المتعاقد الآخر على شريطة أن لا يزاول الشخص المعيّن في هذه الوظائف عمله إلا بعد موافقة سابقة من الحكومة التي يتبعها ، ويتمتع الموظفون العموميون لكل من الحكومتين ممن يقيمون في ممتلكات الأخرى، بنفس الامتيازات والحصانات والإعفاءات التي يتمتع بها في تلك الممتلكات الموظفون العموميون المماثلون التابعون لدول أخرى .

المادة ٤ – تسود بين الطرفين الساميين المتعاقدين الحرية الكاملة في التجارة والملاحة ، ويسمح كل منهما لرعايا الآخر بدخول جميع الموانىء والخلجان والأنهار بمراكبهم ، بما عليها من حمولة ، وان يسافروا ويقيموا ، ويزاولوا التجارة

بالجملة والقطاعي ، في ممتلكاته ، أو أن يستأجروا فيها المنازل والمخازن والمتاجر والمستودعات والأراضي ، وأن يشتروها ويتملكوها ، ويسمح للرعايا البريطانيين في كل مكان بدون قيد أو شرط ، سواء بأنفسهم ، أو عن طريق وكلائهم في المساومة والشراء والمقايضة والبيع بالنسبة لجميع أنواع البضائع والمواد سواء المستوردة أو المصنوعة محلياً ؛ يستوي في ذلك إذا كانت معدّة لبيعها في ممتلكات صاحب السمو ، أو للتصدير ، ويكون لهم الحق في أن يتفقوا مع صاحبها أو وكيله على أسعار جميع هذه البضائع بدون تدخل من أي نوع من جانب سلطات صاحب السمو ، ويتعهد صاحب السمو سلطان مسقط بألاّ يسمح أو يعترف بإنشاء أي نوع من الاحتكارات ، أو الامتيازات التجارية الاستثنائية في ممتلكاته لأية حكومة أو مؤسسة ، أو فرد .

المادة ٥ – يسمح لرعايا صاحبة الجلالة البريطانية ان يتملكوا في جميع أرجاء ممتلكات صاحب السمو ؛ سواء عن طريق الهبة ، أو الشراء ، أو الميراث ، أو الوصية ، وبأية طريقة قانونية أخرى ، الأراضي والمنازل والأموال من أي نوع سواء كانت منقولة ، أو عقارية ، وأن يحوزوها ، وأن يتصرفوا فيها بالبيع ، والمقايضة ، والهبة ، أو غيرها .

المادة ٦ – يسمح لصاحب السمو السلطان بأن يجبي ضريبة دخولية لا تزيد على ٥ بالمئة من قيمة البضائع بجميع أنواعها التي تستورد من البلاد الأجنبية بالبحر عند دخولها إلى ممتلكات سموّه . وتدفع هذه الضريبة في الميناء التابع لسموه الذي تصل اليه هذه البضائع ، وعند دفعها تعفى هذه البضائع من جميع الضرائب ، والرسوم الجمركية داخل ممتلكات سمو السلطان ، ولا تتعرض لضرائب أخرى سواء من قبل حكومة السلطان أو نيابة عنها أياً كان نوع السلعة ، ولا يجوز أن يطالب الرعايا البريطانيون بضرائب استيراد أعلى مما يدفعه رعايا أو مواطنو الشعوب الأكثر رعاية ، وهذه الضريبة بمجرد دفعها تعفى من جميع الرسوم الأخرى التي يفرضها صاحب السمو السلطان على البضائع المختلفة المستوردة من بلاد أجنبية بطريق البحر ، سواء كان الغرض منها الاستهلاك المحلي ، أو التصدير إلى مكان آخر بالجملة

أو خلافها ، وسواء بقيت بحالتها التي استوردت عليه ، أو حوّرت عن طريـــق التصنيع .

وتعفى من دفع أية ضريبة المواد التالية :

١ — جميع البضائع والسلع الواردة باسم ميناء أجنبي ، وتنقل بسبب ذلك من سفينة إلى أخرى في أحد المرافىء التابعة لصاحب السمو سلطان مسقط ، أو تنزل إلى البر بصفة مؤقتة ، وتودع في أحد مخازن الجمارك التابعة للسلطان ريثما يصل المركب الذي يعاد شحنها عليه إلى الخارج . ولا تعفى السلع والبضائع التي تنزل إلى البر على هذا النحو من الضريبة إلاّ أن يسلمها المرسل اليـــه ، أو وكيله عند وصول المركب كي تختم وتحفظ تحت رقابة الجمارك ، وأن يخطر الجهات المسؤولة بأنهـا تنزل إلى البر بقصد نقلها إلى مركب آخر مع تحديد الميناء الأجنبي المرسلة اليه ، وعلى شريطة أن يعاد شحن هذه البضائع بالفعل إلى الميناء الأجنبي المعيّن في فترة لا تزيد عن ستة أشهر من تاريخ انزالها إلى البر أول مرة ، وألا يتغير أصحابها خلال هذه الفترة .

٢ — جميع البضـائع والسلع التي لم تكن في الأصل مرسلة برسم أحد المرافىء الواقعة في ممتلكات السلطان ، ثم أنزلت فيه خطأً ، وعلى شريطة أن تشحن خـارج البلاد خلال شهر من تاريخ إنزالهـــا . أمّـــا إذا فتحت هذه البضائع أو السلع المذكورة ، أو نقلت من تحت الحراسة الجمركية ، ففي هذه الحـالة تدفع عنهـــا الضرائب الجمركية كاملة .

٣ — الفحم ، والمؤن البحرية ، والمخزونات ، والادوات التي تملكها حكومة صاحبة الجلالة، وتنزل إلى البر في ممتلكات صاحب السمو لاستعمال السفن التي تعمل في بحرية صاحبة الجلالة .

٤ — جميع البضائع أو السلع التي تشحن من سفينة إلى أخرى أو تفرغ في البر لإصلاح الخسائر التي تسببت عن سوء الاحوال الجوية ، أو النكبات الاخرى التي تقع في البحر بشرط أن يعاد شحنها على نفس المركب ، أو على مركب آخر إذا كان المركب الذي أصابه العطب قد أصبح غير صالح للسفر ، أو تعطل سفره لأي

سبب آخر .

المادة ٧ – لا يجوز تحريم استيراد أية سلع، إلى ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ، أو منع تصديرها منه ، ولا تجبى رسوم تصدير على البضائع المصدرة من تلك الممتلكات إلا بموافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية، بالشروط التي تتضمنها المذكرات التي تتبادل في هذا الصدد .

المادة ٨ – اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان، وأحاطا علماً بأنه في حالة وضع ترتيبات مستقبلة فيما بين صاحب السمو السلطان والدول التي تربطها بمسقط معاهدات بموافقة بريطانيا العظمى وتقضي بأن تدفع المراكب التي تدخل ميناء مسقط رسوماً للشحن ، أو الحمولة أو رسوم موانىء ، وأن توضع هذه الرسوم تحت تصرف مجلس خاص لتحسين الميناء وإنشاء وصيانة المنارات ... الخ . فـــان هذه الترتيبات لا يجوز أن تؤول شروطها لكي تعفى المراكب البريطانية من دفع رسوم الشحن، أو رسوم الميناء ، أو الحمولة التي قد يتفق عليها فيما بعد .

المادة ٩ – يكون للرعايا البريطانيين في كل حالة عند دفع النسبة المئوية للرسوم الجمركية المنصوص عنها في المادة «٦» الخيار في دفعها إمّا نقداً أو عيناً ، إذا سمحت بذلك طبيعة البضاعة وذلك بإعطاء قدر موازٍ لهذه النسبة من البضائع أو المنتجات ، وفي حالة الدفع نقداً تحدد قيمة البضائع أو السلع أو المنتجات التي تجبى عنهـــا الرسوم طبقاً للسعر السائد في السوق المالية وقت جبـــاية الرسوم . أمّا البضائع المستوردة من الخارج فتحدد قيمتها حسب السعر في سوق مسقط . وبالنسبة للبضائع والمنتجات المحلية تحدد القيمة حسب سعر السوق في المكان الذي يختاره التاجر لدفع الرسوم . وفي حالة قيام أي نزاع بين الرعايا البريطانيين وسلطات الجمارك بخصوص قيمة مثل هذه البضـــائع يفضّ النزاع بالرجوع إلى خبيرين اثنين يعيّن كل طرف واحداً منهما ، وتكون القيمة التي يحددانها نهائية وملزمة ، أمّا إذا لم يتفق الخبيران على رأي ، فعليهما أن يختارا حكماً ، ويعتبر قراره نهائياً .

المادة ١٠ – يتعهد سمو سلطان مسقط بمقتضى هذه المعاهدة بأن يضع الترتيبات اللازمة ويصدر التعليمات لموظفيه التي تكفل عدم عرقلة سير البضائع (الترانزيت)

أو تعويقها ، أو تأخيرها بسبب الإجراءات الجمركية المثيرة للنفوس ، ويتعهد بأن تعطى جميع التسهيلات لنقل هذه البضائع .

المادة ١١ — المراكب البريطانية التي تدخل موانىء في ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط وهي في ضيق يجب أن تتلقى من السلطات المحليـة كل المساعدات اللازمة لتمكينها من التموين والاصلاح حتى تتمكن من إتمام رحلتها .

وإذا جنح مركب بريطاني على سواحل ممتلكات صاحب السمو فإن على سلطات صاحب السمو تقديم كل مساعدة في مكنتها لمساعدة المركب المعطوب حتى تتمكن من إنقـاذ حمولته ، وعليها كذلك أن تقدم المساعدة والحمـاية للأشخاص الذين يتم إنقـاذهم ، وأن تساعدهم على الوصول إلى أقرب قنصليـة بريطانية . وأن تتخذ كل وسيلة لخزن البضائع التي تنقذ في مكان أمين ، وحفظها إلى أن تسلم إلى صاحبها ، أو إلى قبطـان أو وكيل المركب ، أو القنصل البريطاني مع عدم الإخلال بالحقوق المترتبة على الإنقاذ .

وعلى السلطات التابعة لصاحب السمو — علاوة بذلك — أن تتأكد من أن القنصلية البريطانية قد أخطرت على الفور بوقوع الكارثة ، وفي حالة نهب مركب بريطاني بعد جنوحه على شواطىء ممتلكات صاحب السمو فإن على السلطات التابعة لسموه بمجرد علمها بذلك أن تقدم المساعدة العاجلة ، وأن تتخذ الإجراءات لاقتفاء أثر اللصوص ومعاقبتهم واسترجاع الأموال المسروقة . وكذلك إذا جنح مركب من مراكب صاحب السمو على شواطىء ممتلكات صاحبة الجلالة فـإن السلطات البريطانية ستقدم إليها نفس المساعدة والمعاونة .

المادة ١٢ — إذا هرب بحارة أو غيرهم من التابعين لسفن بريطانية حربية ، أو لمراكب تجارية والتجأوا إلى شواطىء صاحب السمو أو على سفنه فان على سلطات صاحب السمو سلطان مسقط بناءً على طلب رسمي من القنصل أو في حالة غيابه من قبطان السفينة ، أن تتخذ جميع الإجراءات للقبض عليهم ، وتسليمهم إلى الموظف القنصلي أو القبطان ، ويقوم الموظف القنصلي والقبطان في مثل هذه الحالات بتقديم المساعدات التي يقتضيها الأمر .

المادة ١٣ – يتمتع رعايا صاحبة الجلالة البريطانية فيما يختص بأشخاصهم وممتلكاتهم في داخل ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط بجميع حقوقهم الاقليمية التي كانت لهم ، ولا يحق لسلطات صاحب السمو أن تتدخل في المنازعات القائمة بين رعايا صاحبة الجلالة البريطانية بعضهم البعض،أو بينهم وبين أفراد شعوب مسيحية أخرى، ويفصل في مثل هذه الأمور سواء كانت مدنية أو جنائية في نوعها السلطات القنصلية المختصة ، وتكون المحاكمات والعقوبات في الجنح والجنايات التي قد يتهم فيها رعايا بريطانيون في ممتلكات صاحب السمو السلطان ، وكذلك سماع وتسوية القضايا المدنية،أو الدعاوى والمنازعات التي يكونون فيها مدعى عليهم، هي من اختصاص السلطات القنصلية البريطانية ومحاكمها وحدهـا ، ولا تخضع لولاية قضاء صاحب السمو السلطان .

وفي حالة قيام منازعات بين رعايا صاحب السمو السلطان ، أو رعايا دولة غير مسيحية ليس لها تمثيل قنصلي في مسقط ، وبين أحد رعايا صاحبة الجلالة البريطانية ويكون فيها الرعية البريطاني هو المدّعي أو الشاكي ، فان الدعوى ترفع ويفصل فيها أمام أعلى سلطات السلطان ، أو أمام شخص ينتدبه السلطان خصيصاً لهذا الغرض ، ولا تعتبر اجراءات المحاكمة في هذه الحالة ، أو الأحكام التي تصدرها شرعية،إلا إذا سبق ذلك إنذار مع فسحة من الوقت تسمح للقنصل البريطاني أو نائبه بحضور المحاكمة والاستماع إلى حكمها .

المادة ١٤ – رعايا صاحب السمو السلطان أو أفراد أية أمة غير مسيحية ليس لها ممثلون قنصليون في مسقط ، الذين يعملون في خدمة رعايا بريطانيين بصفة مستمرة داخل ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط،يتمتعون بنفس الحماية التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون أنفسهم .

وفي حالة اتهامهم بارتكاب جنايات أو جرائم خطيرة يعاقب عليها القانون ؛ فان مخدوميهم البريطانيين يسلمونهم ، بعد قيام الأدلة الكافية التي تسوغ اتخاذ اجراءات أخرى ضدهم ، او بناءً على أمر القنصل البريطاني ، إلى السلطات التابعة لسمو السلطان لمحاكمتهم ومعاقبتهم .

المادة ١٥ -- إذا أعلن إشهار إفلاس أحد رعايا صاحبة الجلالة من المقيمين في ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ؛ فان القنصل البريطاني يضع يده على كل أمواله الموجودة وله حق استردادها وتجميعها كي يتصرف فيها ، ويتولى توزيعها طبقاً لأحكام قانون الافلاس البريطاني .

المادة ١٦-- إذا امتنع أحد رعايا صاحب السمو سلطان مسقط عن دفع الحقوق العادلة المستحقة لأحد الرعايا البريطانيين ، أو تهرّب من دفعها ؛ فان سلطات صاحب السمو السلطان تقدم إلى الدائن البريطاني كل مساعدة ، وتيسر له سبل الحصول على المبالغ المستحقة . ويقدم القنصل البريطاني بطريقة مماثلة كل مساعدة لرعايا صاحب السمو سلطان مسقط ، وييسر لهم سبل استرداد الديون العادلة المستحقة لهم قبل أحد الرعايا البريطانيين .

المادة ١٧-- إذا توفي أحد الرعايا البريطانيين في ممتلكات صاحب السمو سلطان مسقط ، أو توفي في مكان آخر تاركاً فيها أموالاً منقولة أو غير منقولة ؛ فان للقنصل البريطاني السلطة في تحصيل وجمع أمواله، وفي وضع يده على ممتلكات المتوفي كي يتصرف فيها تبعاً لنصوص القانون البريطاني .

المادة ١٨- لا يجوز لموظفي سمو سلطان مسقط ان يدخلوا المنازل،والمساكن، والمخازن ، أو غيرها من الأملاك الخاصة برعايا البريطانيين ، أو بالأشخاص الذين هم فعلاً في خدمتهم بصفة دائمة داخل أراضي سموه ، او تفتيشها ، لأي سبب ، من غير موافقة شاغلها، إلا ان يكون ذلك بعلم القنصل البريطاني ، او مَن ينوب عنه ، او بمساعدته .

المادة ١٩ - يوافق الطرفان الساميان المتعاقدان بمقتضى هذا على انه في حالة الوصول مستقبلاً إلى اتفاق بين صاحب السمو سلطان مسقط والدول المختلفة، بما في ذلك بريطانيا العظمى ، التي قد يرتبط سموه معها بمعاهدات توافق عليها بريطانيا حتماً ، وتقضي بأن يدفع المقيمون في أحد الأقسام ، او إحدى المدن -- بغض النظر عن جنسياتهم -- ضرائب لأغراض بلدية او صحية تحددها وتشرف على ادارتها هيئة مخصوصة -- اتفقا على ان المعاهدة الحالية لا تتضمن ما يفهم منه اعفاء

الرعايا البريطانيين من دفع مثل هذه الضرائب .

المادة ٢٠ـ يتمتع رعايا الطرفين الساميين المتعاقدين كل منهم في ممتلكات الآخر بحرية العقيدة والتسامح الديني ، وبحرية ممارسة الطقوس الدينية علناً ، وبحق بناء الأماكن المخصصة للعبادة .

المادة ٢١ ـ تسري شروط المعاهدة على جميع المستعمرات والممتلكات الخارجية التابعة لصاحبة الجلالة البريطانية في حدود ما تسمح به القوانين ما عدا الجهات الواردة فيما بعد، يستثنى من ذلك:

دومينيون كندا ،
رأس الرجاء الصالح ،
ناتال ،
ويلز الجنوبية الجديدة ،
فيكتوريا ،
كوينز لاند ،
تاسمانيا ،
جنوبي أوستراليا ،
أوستراليا الغربية ،
نيوزلاند .

على انه يشترط في جميع الحالات لسريان بنود هذه المعاهدة على أي من المستعمرات او الممتلكات الخارجية المذكورة آنفاً ان يقدم ممثل صاحبة الجلالة البريطانية بمسقط،مذكرة بذلك نيابة عن جلالتها إلى صاحب السمو السلطان خلال عامين من تاريخ تبادل التصديق على المعاهدة الحالية .

المادة ٢٢ ـ حررت هذه المعاهدة على أربع نسخ : نسختين منها بالانكليزية ، ونسختين بالعربية ، ومن المسلم به ان هذه النسخ متماثلة في مدلولها ومعناها ، على أنه في حالة حدوث أي التباس في المستقبل بشأن التعبير الصحيح للنص العربي او

الانكليزي فيما يتعلق بنص أو أكثر من نصوص هذه المعاهدة يكون النص الانكليزي هو الفيصل في كل خلاف ، ويعمل بهذه المعاهدة قبل مضي شهر على تاريخ تبادل التصديق عليها .

المادة ٢٣ - يجوز تعديل هذه المعاهدة بعد مضي اثني عشر عاماً من تاريخ سريانها ، وبناء على إخطار مدته اثنا عشر شهراً من أحد الطرفين للطرف الآخر . ويتولى تعديلها وزراء مفوضون يعينهم كلا الطرفين ، ويكون لهم سلطة تقرير التعديلات التي أثبتت التجربة ضرورتها والموافقة عليها .

وإشهاداً على ذلك قد وقّع على هذه المعاهدة وأثبت خاتمه عليها كل من الكولونيل إدوارد شارلس روس (C. I. S) نيابة عن صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا وإمبراطورة الهند ، وصاحب السمو سيد فيصل بن تركي سلطان مسقط بالاصالة عن نفسه .

حرر في مسقط في هذا اليوم التاسع عشر من شهر مارس سنة ١٨٩١
الموافق لليوم الثامن من شهر شعبان سنة ١٣٠٨ هجرية

ادوارد شارلز روس ، كولونيل
المقيم السياسي بالخليج الفارسي

ويلي ذلك توقيع صاحب السمو سلطان مسقط باللغة العربية

بروتوكول

الموقعان أدناه قد وافقا ، وهما بصدد تبادل التصديق على المعاهدة الموقعة في مسقط في ١٩ مارس سنة ١٨٩١ ، بين صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا وإمبراطورة الهند ، وبين صاحب السمو سيد فيصل بن تركي سلطان مسقط ، على هذا البروتوكول الذي يصبح له من القوة والمفعول كما لو كان جزءاً

لا يتجزأ من المعاهدة المذكورة نفسها . وقد اتفقا بمقتضى هذا على أنه ، استناداً إلى المادة(٢٣)من المعاهدة المذكورة يكون لكل من الطرفين المتعاقدين الساميين الحرية بعد مضي اثني عشر عاماً من تاريخ سريان هذه المعاهدة ، في إنهاء المعاهدة المذكورة في أي وقت بناء على إنذار بذلك مدته اثنا عشر شهراً .

وإشهاداً على ذلك قد وقع على هذا البروتوكول الموقعان أدناه بما لهما من تفويض لهذا الغرض ، وأثبتا ختميهما عليه .

ا. س. تلبوت ـ لفتنانت كولونيل
مقيم سياسي في الخليج الفارسي
ويلي ذلك توقيع صاحب السمو سلطان مسقط باللغة العربية

- ٨ -

اتفاقية بشأن عدم تنازل سلطان عمان عن أراضيه لغير الحكومة البريطانية بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٨٩١ .

الحمد لله وحده

الغرض من تحرير هذا الميثاق الشرعي المبجل هو إثبات ما اعتمده ووافق عليه صاحب السمو سيد فيصل بن تركي — سلطان مسقط وعمان من ناحية ، والكولونيل إدوارد شارلز روس — حامل وسام نجمة الهند، والمقيم السياسي لصاحبة الجلالة البريطانية في الخليج الفارسي،بالنيابة عن الحكومة البريطانية من الناحية الأخرى، وهو أن السيد فيصل بن تركي بن سعيد المذكور — سلطان مسقط وعمان ؛ يتعهد ويرتبط عن نفسه وورثته وخلفائه بألاّ يتنازل ، أو يبيع ، أو يرهن ، أو يسمح باحتلال أي جزء من أراضيه في مسقط أو عمان أو في أي من ملحقاتها لغير الحكومة البريطانية، وإثباتاً لإبرام هذا الميثاق القانوني المبجل فإن السيد فيصل بن تركي بن سعيد سلطان مسقط وعمان ، والكولونيل شارلز روس — حامل وسام

نجمة الهند والمقيم السياسي لصاحبة الجلالة البريطانية في الخليج الفارسي — الأول بالاصالة عن نفسه وعن ورثته وخلفائه ، والثاني بالنيابة عن الحكومة البريطانية — قد وقّع عليه كل منهما بإمضائه في حدود الشهود في يومنا هذا التاسع من شعبان سنة ١٣٠٨ هجرية . الموافق لليوم العشرين من شهر مارس سنة ١٨٩١ .

السيد فيصل بن تركي بن سعيد	**اي . ش . روس - كولونيل**
سلطان مسقط وعمان	المقيم السياسي في الخليج الفارسي

لانسدون

نائب الملك والحاكم العام للهند

صدق عليه صاحب السعادة نائب الملك والحاكم العام للهند ، في سملا في اليوم الحادي والثلاثين من شهر مايو سنة ١٨٩١

ه . م . ديوراند

سكرتير حكومة الهند للادارة الخارجية

— ٩ —

تعهد من سلطان مسقط بشأن زيت البترول سنة ١٩٢٣

(رسالة مؤرخة بتاريخ ٢١ جمادى الاول سنة ١٣٤١ هـ . الموافق ١٠ يناير سنة ١٩٢٣ من تيمور بن فيصل صاحب السمو السلطان . الى الميجور راي - قنصل صاحب الجلالة البريطانية بمسقط)

بعد التحية : رداً على رسالتكم رقم ١٧٥١ بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ نحيط سعادتكم علماً بأننا نوافق على ألا نقوم باستغلال أي بترول قد يوجد في أي مكان داخل أراضينا ، أو نمنح تصريحاً باستغلالها دون مشاورة الوكيل السياسي في مسقط ، وموافقة حكومة الهند السنية .

إن ما سمعناه من وجود الزيت المعدني بجهة (مسيرة) فلم يتأكد بعد ، وقد أخذنا نتحرى عن وجود هذا المعدن فيها ، فاذا علمنا عنه شيئاً أعقب ذلك مباحثات بين سيادتكم وبيننا حول استغلاله ، واتخاذ الاجراءات والتدابير اللازمة للعمل ، والشروط الضرورية ، وسيكون أمره بطبيعة الحال احتكاراً، فنحن نثق بالمساعدة التامة من حكومة الهند السامية في هذه المسألة الهامة على نحو ما سبق أن أمدتنا به دائماً من المساعدات التي نحفظها لها .

- ١٠ -

على اثر تفكك سلطنة مسقط وانقسامها الى عدة مشيخات مستقلة عن القسمين الاساسيين من السلطنة اللذين استقلا بدورهما ، واحد باسم « سلطنة مسقط » والثاني باسم « امامة عمان » ، واطلاق اسم « ساحل الهدنة » على ما كان يسمى قبلا ساحل القراصنة ، انضمت تلك المشيخات الى الدولة السعودية الا ان تراخي ايدي السلطة السعودية هناك ، وضراوة بريطانية وضغطها المستمر على شيوخها ، اضطر هؤلاء الى توقيع الاتفاقيات التالية مع الاميرال البريطاني كران كير سنة ١٨٢٠ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أمر بالسلام رحمة لخلقه

لقد تأسس سلم دائم بين الحكومة البريطانية وبين القبائل العربية التي هي فريق في هذه الاتفاقية بالشروط الآتية :

المادة الاولى — تقف أعمال السلب والقرصنة في البر والبحر أبدياً من قبل العرب الذين هم فريق في هذه الاتفاقية .

المادة الثانية — إذا قام فرد من العرب المتعاقدين بمهاجمة ما يمر في البر والبحر ويخص أي أمة كانت وذلك بطريق السلب والقرصنة ، وليس بطريق الحرب المعترف بها فانه يحسب عدواً للبشرية جميعاً ويجب أن يتبرأ من ماله وحياته .

والحرب المعترف بها هي الحرب التي تعلن وتدار ويؤمر بها من قبل حكومة ضد حكومة . وأما قتل الناس وأخذ أموالهم بدون اعلان وتصديق من الحكومة

فانه يعتبر نهباً وقرصنة .

المادة الثالثة — العرب الخاضعون سوف يحملون في البر والبحر علماً احمر ، مكتوباً عليه أو غير مكتوب حسب اختيارهم . وهذا يكون في محيط ابيض ، وعرض الأبيض المحيط مساوياً لعرض الأحمر وكل ذلك يعرف في البحرية البريطانية باسم الأبيض الذي يخترقه الأحمر . وهذا يكون علم العرب الأصدقاء وسوف يستعملونه دون سواه .

المادة الرابعة — ان القبائل التي خضعت ستداوم على علاقاتها السابقة وستظل في حالة سلم مع الحكومة البريطانية ولن يحارب بعضها بعضاً . والعلم سيكون دليلاً على ذلك ليس اكثر .

المادة الخامسة — سيكون في كل سفن العرب الأصدقاء ورقة « سجل » موقعة بتوقيع الزعيم ، يذكر فيها اسم السفينة وطولها وعرضها ومقدار الكراع التي تحملها وسيكون في حوزتها كتاب آخر (رخصة المرفأ) موقعة بتوقيع الزعيم وتذكر فيها اسم الحامل والناخوذة أو عدد الرجال الذين فيها وعدد الأسلحة ومن أين سافرت ووقت سفرها والى أي مكان تقصد، وإذا التقت بها السفن البريطانية فانها ستبرز لها السجل ورخصة المرفأ .

المادة السادسة — إذا أراد العرب الأصدقاء ارسال رسول إلى المقيم البريطاني في الخليج مع الملحقين اللازمين فلهم ذلك، وهذا سيبقى هنالك لأجل اتمام أعمالهم مع الوكالة . وإذا أرادت الحكومة البريطانية ارسال مندوب اليهم بالمقابلة فلها ذلك . وهذا الرسول سيضع امضاءه مع امضاء الزعيم في ورقة السجل العائدة للسفن والتي تحوي طول السفينة وعرضها وحمولتها . وتوقيع هذا الرسول يجدد كل سنة . وكل هؤلاء الرسل يكونون على حساب فريقهم .

المادة السابعة — إذا لم تمتنع احدى القبائل أو خلافها عن السلب والقرصنة فالعرب الأصدقاء يعملون ضدها بحسب مقدرتهم وحسب الظروف . وسيعمل ترتيب لأجل تلك الغاية مع العرب الأصدقاء والحكومة البريطانية في الوقت الذي يقع فيه السلب أو القرصنة .

المادة الثامنة – قتل الرجال بعد تسليم السلاح يحسب عملاً من اعمال القرصنة ، وليس من الحرب المعترف بها . واذا قتلت احدى القبائل أي شخص سواء كان مسلماً أو خلاف ذلك بعد القائه السلاح فتحسب هذه القبيلة مخلة بالسلام . والعرب الأصدقاء سيعملون ضدهـا بالمعاونة مع الحكومة البريطـانية وان شاء الله لن تقف الحرب إلى أن تخضع اولئك الذين قاموا بالعمل والذين أمروا به .

المادة التاسعة – ان نقل العبيـــد والنساء والرجال والأطفال من شواطىء افريقيا او خلافها في السفن هو عمل سلب وقرصنة . والعرب الأصدقاء لن يعملوا عملاً بهذه الصفة .

المادة العاشرة – ان سفن العرب الأصدقاء التي تحمل العلم الموضح أعلاه يمكنها الدخول إلى المرافىء البريطانية ومرافىء حلفاء بريطانيا بقدر ما يمكنهم تطبيقها . ويمكنهم البيع والعطاء هنالك . وان تعرض لهم أحد فالحكومة البريطانية تلاحظ ذلك .

المادة الحادية عشرة – ان الشروط المذكورة أعلاه هي عمومية لجميع القبائـل والأشخاص الذين يقبلونها فيا بعد بنفس الطريقة التي يقبلها الذين يوقعون عليها الآن.

عملت في رأس الخيمة من ثلاثة نسخ ظهر يوم السبت ٢٢ ربيع الأول سنـة ١٢٣٥ هـ الموافق ٨ يناير عام ١٨٢٠ ووقع عليها من قبل المتعاقدين في الأوقـات والأماكن الموضحة أدناه . وقع عليها في رأس الخيمة حين صدورها :

غرانت كير

حسن بن ابراهيم شيخ خط وخلفه في السابق رأس الخيمة .

رجب بن أحمد شيخ جورة القمرة .

ووقع عليها يوم ٢٥ ربيع أول سنة ١٢٣٥ و ١٥ ينـاير سنة ١٨٢٠ شخبوط شيخ أبو ظبي .

صدق عليها الحاكم العام في مجلسه يوم ٢ ابريل سنة ١٨٢٠ .

ووقع عليها يوم ٩ جمادي الأولى سنة ١٢٣٥ :

سعيد بن سيف (عم محمد بن هزاع بن زعل شيخ دبى) .

سليمان بن صقر شيخ توغاه .
سعيد عبد الجليل بن سيد اياس .
وكيل سليمان بن أحمد والشيخ عبد الله بن أحمد خليفة (شيخا البحرين).
سليمان بن أحمد بن خليفة (البحرين) .
عبد الله بن أحمد بن خليفة (البحرين) .
ووقع عليها يوم ٢٩ جمادي الأولى سنة ١٢٣٥ :
راشد بن حامد شيخ العجمان .
عبد الله بن رشيد شيخ أم القيوين .
كرانت كير .

- ١١ -

وهذه هي الاتفاقية الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

ليعلم الجميع ان الشيخ شحبوط بن دياب المتلاحق حضر أمام الجنرال السر ويليام غرانت كير وتم بينهما الاتفاق على الشروط الآتية :

المادة الأولى – إذا وجد في أبو ظبي او أي مكان آخر يخص الشيخ شحبوط سفن تخص القوات العاصية التي هوجمت او يمكن ان تهاجم من قبل الجنرال في الحرب الحاضرة ضد القرصان فانه يسلم هذه السفن إلى الجنرال .

المادة الثانية – سيقبل الشيخ شحبوط ضمن شروط المعاهدة العمومية مع العرب الأصدقاء .

كتب في رأس الخيمة في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٥ / ١١ يناير سنة ١٨٢٠
غرانت كير
شحبوط

- ١٢ -

وهذه هي الاتفاقية الثالثة :

بسم الله الرحمن الرحيم

ليعلم الجميع ان حسن بن علي حضر أمام الجنرال السر ويليام غرانت كير وتم الاتفاق بينهما على الشروط الآتية :

المادة الأولى — ان وجدت سفن من سفن حسن بن علي في شرغاء أم القيوين او أمام أبو ظبي او في أي مكان آخر يذهب الجنرال اليه مع القوة فان هذه السفن ستسلم إلى الجنرال، والجنرال سيسمح فقط بالذهاب لتلك التي تخص صيد اللؤلؤ او سفن صيد السمك .

المادة الثانية — سيسلم حسن بن علي جميع الأسرى الهنود ان كان أحد منهم في قبضة يده .

المادة الثالثة — بعد ذلك يقبل حسن بن علي شروط المعاهدة العمومية المعقودة مع أمراء العرب الذين خضعوا .

كتب في رأس الخيمة قبل ظهر السبت في ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٣٥ الموافق ١٥ يناير سنة ١٨٢٠ .

غرانت كير

حسن بن علي

- ١٣ -

اتفاقية مع شيخ ابو ظبي

ووقع شيخ ابو ظبي في شهر مارس سنة ١٨٩٢ اتفاقاً مع انكلترا نيابة عن نفسه وعن ورثته وخلفائه هذه خلاصته :

« اني لا أدخل في قرار ما ولا محاولة مع أحد سوى الدولة البهية انكلترة بغير

رضائها، ولا أقبل ان يسكن في حوزة ملكي وكيل عن دولة سوى دولة انكلترة. وأبداً لا أسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطي للتصرف أو للتبؤ بنوع ما شيئاً من ملكي لأحد إلا لانكلترة . »

- ١٤ -

(تعهد من شيخ الشارقة بشأن زيت البترول سنة ١٩٢٢)

رسالة من الشيخ خالد بن أحمد – رئيس الشارقة إلى النبيل اللفتنانت كولونيل ا . ب . تريفور (G. S. T., G. L. E.) المقيم السياسي بالخليج الفارسي ببوشير ، بتاريخ ١٨ جمادي الثانية سنة ١٣٤٠ (١٧ فبراير سنة ١٩٢٢)

بعد التحية

إن هدفي من كتابة هذه الرسالة الودّية هو إبلاغ تحياتي لكم ، ولكي أسأل عن صحتكم .

وثانياً ، ليس بخاف عليكم أنني أكتب هذه الرسالة بمحض إرادتي لأتعهد لسيادتكم بأنه إذا كان ثمة أمل في أن يوجد في اراضيّ منجم للبترول فلن أعطيَ امتيازه لأحد من الأجانب ، اللهم إلا للشخص الذي تعينه الحكومة البريطانية السامية .

هذا ما وجب تقريره[١].

خالد بن ادريس

- ١٥ -

تعهد من شيخ دبي بشأن زيت البترول في سنة ١٩٢٢

رسالة من الشيخ سعيد بن مكتوم – رئيس دبي – إلى اللفتنانت كولونيل

١ – اعطي تعهد مماثل من شيخ راس الخيمة في ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٢

تريفور (G. S. T. , C. I. E) المقيم السياسي بالخليج الفارسي بتاريخ ٤ رمضان سنة ١٣٤٠ (٢ مايو سنة ١٩٢٢) :

بعد التحية

لا يخفى عليكم أننا نوافق إذا مـــا أصبح من المنتظر وجود النفط فعليّ ، أن لا نعطي أي امتياز في هذا الشأن لأحـــد ما إلا للشخص الذي تعينه الحكومة البريطانية السامية [١] .

سعيد بن مكتوم

---

١ ـ اعطيت تعهدات مماثلة للتعهد المذكور اعلاه من كل من شيخ ابو ظبي بتاريخ : ٣ مايو سنة ١٩٢٢ ، شيخ عجمان بتاريخ : ٤ مايو سنة ١٩٢٢ ، شيخ ام القوين بتاريخ : ٨ مـــايو سنة ١٩٢٢ .

إيران بين فكي روسية وبريطانية

بريطانية تواجه عدوين خطرين

لقد تركز بحثنا الأسبق حول التنافس الانكليزي الفرنسي ، وتطور الاحداث بفعل ذلك العامل الذي هو أقرب إلى السياسة من العوامل الاخرى ، وهو تخوف انكلترة مغبة الستراتيجية البعيدة لفرنسة ، ولكن في الواقع كان على انكلترة ان تواجه عدوين اثنين في آن واحد : الاستعمار الفرنسي وضغطه على منطقة الخليج الجنوبية ، والاستعمار الروسي القيصري وخطر امتداده وتوسعه في شمالي ايران ، ومن ثم نفوذه إلى مياه الخليج مما يهدد تجارة بريطانية العالمية في المحيط الهندي .

ويجدر بنا أن نشير قبل استرسالنا في دراسة التنافس الاستعماري الانكليزي الروسي ، إلى انه لم يكن هناك أي خطر مباشر وفعلي بالنسبة للحكومة الهندية الانكليزية ، ذلك لأن تجارة فرنسة مع فارس كانت ضعيفة هزيلة ، ناهيك عن أن حلب لا الخليج ، هي التي كانت تشغل النقطة الهامة كمركز لتجارتها التي تمتد إلى ايران عبر الأراضي العراقية .

والشيء الثاني وهو الأهم ، أن دوافع تقرب فارس من فرنسة كان يمليها عليها الخوف من روسية ، ذلك الخوف الذي عرف الامبراطور الفرنسي بونابرت ، كيف يستغله لاجتذاب بلاد الاكاسرة إلى جانبه تحقيقاً لحلمه في ضرب الممتلكات الانكليزية في الهند ، وكانت الديبلوماسية الانكليزية تعمل انئذ على جبهتين اثنتين :

ضرب نفوذ كل من روسية وفرنسة ، وجر فارس إلى صفها ، وبالتالي استئثارها بمنطقة الخليج وتفردها فيها . وقد عرفت كيف تنتزع من الشاه معاهدة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م التي اتصفت بكونها ترتكز على البنود الدفاعية والدعم العسكري .

هذا ما كانت تعمل له انكلترة وتسعى لتحقيقه ، اما روسية القيصرية فقد كانت من جهتها لا تخفي مطامعها في التوسع الاستعماري في كل من ايران وافغانستان لضرب الملاحة البريطانية من جهة ، وتعليل الاستعماريين الروس أنفسهم بأن يكون لهم نصيب في الهند من جهة ثانية ، وهي لم تتردد في اجتياح شمالي ايران مما جعل هذه تلغي المعاهدة الفارسية البريطانية ، لتخلي بريطانية عن ايران في محنتها ، ومع ذلك استطاعت انكلترة ان تنتزع من فارس عام ١٢٢٤ هـ ١٨٠٩ م معاهدة تحقق بالنسبة لمشاريعها شروطاً أفضل من معاهدة عام ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م ، وذلك في ميداني التجارة والستراتيجية التوسعية معاً ، إذ تضمنت استعمال انكلترة الموانىء الفارسية وجزرها في ظروف الحرب .

وفيما كانت انكلترة ، وبالأصح الحكومة الهندية الانكليزية ، تدعم نفوذها الاستعماري في الخليج ، كانت فارس من جهتها ترى من الضروري ان تحافظ على توازن قواها ، خوفاً من أن تنقلب صديقة اليوم إلى عدوة الغد ، ولذا سعت إلى توطيد نفوذها على الساحل الشرقي للخليج ، لا سيما وانها كانت تعيش عهد هدنة مع روسية القيصرية ، لما حاولت فارس أن تبسط سلطانها على البحرين ، لكنها اصطدمت بالمعارضة الانكليزية التي رأت في ذلك تهديداً لمصالحها .

روسية تستولي على اقليمين ايرانيين

وبينما كانت العلاقات الانكليزية الفارسية تسير قدماً في طريق التقارب والتجاوب ، إذا بالحرب تعود إلى الاشتعال عام ١٢٤٢ هـ ١٨٢٦ م ما بين فارس وروسية القيصرية ، وحينئذ رأت بريطانية أن تمكن لنفسها على السواحل الشرقية للخليج العربي ، توسيعاً لمواقع أقدامها من جهة وحداً للنفوذ الروسي من جهة ثانية ، ذلك النفوذ الذي طالما أقض مضاجع الساسة البريطانيين خوفاً على مصالح

الامبراطورية في جنوبي غربي آسية .

وفي الواقع ان الزحف الروسي اوقع بالجيوش الفارسية خسائر فادحة، ناهيك عن اجتياح الجيوش القيصرية اقليمين ايرانيين همـــا اريفان ونقشبند، وسلخها عن جسم الدولة الفارسية ، وقد أقر الشاه روسية على هذين الاقليمين ، وذلك بمعاهدة وقعت بين الفريقين عام ١٢٤٤ هـ ١٨٢٨ م .

وتراجعت انكلترة للمرة الثانية عن انفاذ معاهدتها مع ايران لعـام ١٢٢٩ هـ ١٨١٤ م والتي تنص على مؤازرة فارس عسكرياً إذا مـــا تعرضت للاعتداء ، بل رأت ان تطرح جانبـــاً وكلياً موضوع المساعدة ، ولم يقدر الشاه فتح إلا ان يقرّ التعديلات البريطانية ، شريطة أن تتوسط الحكومة الهندية البريطانية ، وكذلك الساسة الانكليز في انكلترة ، لدى البلاط الروسى لاعـــادة الاقليمين المنسلخين حبياً .

غير أن الوضع ما عتم أن انقلب كلياً بعد عـام ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م ، وخضعت ايران للنفوذ القيصري ابان حكم الشاه محمد ، وارتبطت فارس مع روسية بعلاقات ودية ، فكان من الطبيعي أن تتخوف انكلترة من الروابط الجديدة ما بين فارس وروسية القيصرية، وانقلبت تلك المخاوف إلى قلق حقيقي عندما انطلقت الحكومة الفارسية — صديقة روسية، تبغي مدّ رواق سيطرتها على هراة الواقعة شرقي ايران وغربي الافغان ، ممـا يجعل فارس ومن ورائها روسية على قـاب قوسين من الهند ، فسعت بالطرق الديبلوماسية اولاً لثني الفرس عن عزيمتهم ، وبالتالي لفك الحصـــار الذي ضربته الحملة الايرانية على هراة، حتى إذا باءت مساعيها بالفشل قررت التوسل باسباب التهديد والضغط المباشر ، واوعزت لاسطولها في المحيط الهندي بالتحرك نحو الخليج ، واحتلال جزيرة خرج التي كانت تطمع في احتلالها من قبل

النزاع الفارسي البريطاني

وكانت صدمة مؤلمة لايران حين احتلت بريطانية جزيرة خرج عـام ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م وعززتها بقوة عسكرية، مما غرز بجيش فارس شوكة دامية ، وزاد الموقف

تأزماً مـا بين الدولتين إذ انقطعت على الأثر العلاقات الديبلوماسية والمبـــادلات التجارية مـــا بينهما ، والانكى من ذلك ان قوات ايران فشلت باحتلال هراة ، واضطرت لفك الحصار عنها لعوامل عدة منهـا التدخل الانكليزي اولاً ، ومنـاعة الحصون ثانياً ، وأخيراً انهيار معنويات القوى المحاصرة التي كان يُطلب منها اقتطاع اراضي الغير في الوقت الذي تسلب اراضيها .

ورضيت بريطانيـة بسحب قواتها من جزيرة خرج بعد التراجـع الفـارسي على هراة ، ولكنها ابقتها تحت سيطرتها متخذة منها وسيلة لتهديد الشاه ، والعمل على تعزيز مواقعها التجارية بالقوة ، ولم تنسحب منها الا بعد اربعة اعوام من الاحتلال عام ١٢٥٧ هـ ١٨٤١ م بعد أن حصلت على امتيازات فضلى على الصعيدين السياسي والعسكري معاً .

ولم يكن معنى هذا أن العلاقات التي تربط مـــا بين ايران وانكلترة غدت علاقـات صداقة ومودة ، فقد ظلت بريطـانية تنـــاصب ايران العداء في سياستها الخارجية وتجارتها معها في نمو مطّـرد، ولما شجر الخلاف ما بين فارس والامبراطورية العثمانية حول ولاية بغداد ، وقفت انكلترة إلى جانب العثمانين تشد من ازرهم ، بينما انحاز الروس إلى ايران يؤيدون توسعها على حساب ولاية بغداد .

ولم يكن موقف بريطانية الأخير موقفـاً املاه عطف بريطـانية على العثمانيين ، وانما أملته مصالحها الخاصة في الخليـج ، وكانت اهدافها واضحة لا لبس فيها ، فهي تعمل دائبة على اضعاف فارس في سواحلهـا الواقعة على الخليج ، وتعـاند باصرار موضوع انشاء قوة بحرية لفارس واسطول خاص بها .

وازداد الموقف حرجاً ما بين انكلترة وفارس ، إذ برز من جديد عام ١٢٦٨ هـ ١٨٥١ م موضوع الاحتلال الفارسي لاقليم هراة بموافقةِ حاكمه ، وتقدم القوات الفارسية عـام ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م واحتلالهـا الاقليم المذكور ، وردت انكلترة على ذلك رداً عنيفاً ، فاعلنت في العام ذاته الحرب على فـــارس ، وتوجهت الاساطيل البريطانية إلى الخليـج ، واحتلت في سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م ميناء بوشير ، وتوغلت القوات البريطانية في اراضي فارس ، كما احتلت في مستهل عام ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م

الحمرة .

وأفاقت فارس على كابوس مخيف يعرّض أراضيها لخطر الاستعمار الانكليزي في الجنوب ، والاحتلال الروسي في الشمال ، لتصبح منطقة نفوذ انكلو روسي ، فسارعت لرد ذلك الخطر الداهم ، متوسلة بالأساليب الديبلوماسيـــة ، وعقدت في في المدينة الفرنسية « نيس » عام ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م معاهدة مع انكلترة تنص على انسحاب الانكليز من جنوبي غربي فارس مقابل انسحاب ايران من هراة ، وكانت انكلترة هي الرابحة في تلك المعاهدة، إذ حصلت على حصة الأسد في التجارة الفارسية.

الخطوط الديبلوماسية البريطانية

ان الدارس المتعمق للسجلات الانكليزية ، يرى أي قلق واضح كان يخامر سياسة الاستعمار البريطاني من التغلغل الروسي في فارس ، وامتداد نفوذ القياصرة إلى شواطىء الخليج العربي ، ويمكن اعتبار الحقبة التي امتدت من عـام ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م حتى ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م فترة سادتها المخاوف البريطانية من توسع روسية الذي يهدد في أول مراحله تجارتها في المحيط الهندي ، لينقلب بعد ذلك إلى تهديدها في ممتلكاتها في الهند ، وبخاصة حين أبرمت اتفاقية روسية فرنسية تنص على انفـاذ هذه الفكرة واخراجها إلى حيز الوجود ، ناهيك عن ان روسية كانت تعبر — على المكشوف — عن رغباتها الهادفة إلى ان يكون لها منفذ بحري على الخليج ومـدّ حركاتها الملاحية اليه .

وقد رأينا في الفصول السابقة كيف مكّن البريطانيون لأنفسهم في الضفـــة الغربية من الخليج تجارياً وسياسياً ولم يكلفها ذلـــك كبير عناء ، إلا ان الشط الشرقي كانت مشكلته أكثر تعقيداً ، ولا نغالي إذا قلنا ان تلك المشكلة هي من ضروب المعضلات ، وذلـك لجثوم الدب الروسي في شمالي فارس ، وهو حسب المفاهيم البريطانية — لا يفتأ يتحرك مكشراً عن أنيابه ، وكل تحرك من بريطانية في الجنوب يقابله تحرك روسي في الشمال ، مما سيجعل الفريقين المتنازعين وجهاً لوجه في وسط ايران ، وهذا ما كانت انكلترة تخشى مغبته .

من أجل ذلك توسلت بريطانية بطرق الديبلوماسية الناعمة ، وطفقت لا تقدم على اتخاذ أية خطوة إلا بعد الدرس والتمحيص ، يضاف إلى ذلك انها بثت عيونها وأتباعها في البـــلاط الايراني ، تحصي على روسية حركاتها وسكناتها ، وتتقصى كل شاردة وواردة تقوم على الأرض الايرانية ، وتضع بناءً على معطيات الأحداث ، من المخططات العسكرية ما يكفل لها التفوق وأخذ المبادرة في استراتيجية الدفاع والهجوم ، وكان كل ذلك ينعكس على أوضاع الخليج عامة في ضفتيه الشرقية والغربية .

وشرعت أبحاث البريطانيين تدور حول دراسة طوبوغرافية المناطق التي يمكن ان تجري على مسارحها التحركات البريطانية للوقوف بوجه الزحف الروسي المرتقب ، ومعرفة أوضاعهـــا الجيولوجية ، ومدى امكانية استعمال نهري دجـــلة والفرات وروافدهما ، وردود الفعل لدى الدول التي ستشهد هـذه الحركات ، إذا ما طبقت بريطانية مخططاتها في الشرق ، وموضوع دخول تلك الدول بين طرفي النزاع ، ولم تهمل بريطانية عامل الزمن ، وامكانية قلب الأوضاع ، والاستعداد لكل طارىء !..

ولذلك كان هذا الموضوع لا ينحصر في نقطة معينة ، او اقليم بذاته ، فهو موضوع كبير الخطورة بتطبيقاته ، يتطلب دراسة العلاقـات على الصعيد الدولي ، ويتعلق بأمور التـــاريخ واحداثه ومفاجـــآته ، عظيم الشبه بالمعادلات الكيمائية والنتائج الفيزيائية ، إذا ضربنا صفحاً عن الجانب النفسي ، ومثلناه بطبيعة العلاقات المادية ، ومـــا ينجم — بناء على المقدمات ودخول العناصر الجديدة وتبدل المحيط المؤثر — من نتائج تنتقل بالاوضاع إلى التحولات الكيفية تبعاً للتطورات الكمية ، في علاقات هي بطبيعتها بالغـة التشابك والتداخل ، غـــاية في التعقيد ، بجوهرها ونتائجها ، تمسك الدبلوماسية بدفة توجيهها .

« وقد ذكرت جميع وثائق وزارة الحربية البريطانية للفترة ١٨٩٠ — ١٩١٤ بأنه في حالة نشوب حرب مع روسية ، فعلى الأسطول البريطاني في المحيط الهندي أن يتوجه إلى بندر عباس وبوشير ، وعليه ان ينزل قوات عسكرية لاحتلال ايران عن طريق الاستيلاء على المحمرة وعربستان أولاً لأهميتها الاقتصادية ، ثم احتـلال

كرمنشاه لوقوعها على طريق العراق. وقالت تلك التقارير إن من المحتمل أن تقاوم ايران دفاعاً عن كيانها السياسي، لكن مقاومتها ستكون ضعيفة وسيصبح بالامكان التغلب عليها بمدة وجيزة لا تزيد على أسبوعين. أما في حالة الهجوم الروسي فكان رأي اللورد سولزبري أن تعمل حكومة الهند على تزويد ايران فوراً بالأسلحة والضباط والأموال لعرقلة التقدم الروسي مدة تكفي لوصول امدادات جديدة إلى الأسطول البريطاني في الخليج العربي [1]. »

أهمية عربستان في مخططات بريطانية

ورغماً عن جميع التصريحات التي تنم عن مخاوف الساسة المستعمرين، والقائلة بوجوب اتخاذ اجراءات وقائية وتعزيز بعض المواقع الستراتيجية تجاه زحف روسي مرتقب، كمقاطعة كرمنشاه التي قالت القنصلية البريطانية بضرورة تحصينها، فقد آثرت انكلترة أن تسلك السبل الديلوماسية للحفاظ على مكتسباتها وصيانة تجارتها في الخليج العربي.

ولقد شعر ممثلو الديلوماسية البريطانيون بضرورة مدّ الخطوط الحديدية في ايران، لانها ستعود على انكلترة بالمنافع في أيام السلم أو حالة الحرب، وتميزت هذه الحقبة بظهور الصراع الاقتصادي على وجهه الحقيقي ما بين روسية وانكلترة، وكانت الأخيرة – خلافاً لمواقفها السابقة – تتخذ من المواقف ما يدل على دعم سيادة ايران الاستقلالية، دفعاً لخطر النفوذ الاقتصادي الروسي على مرافق الدولة الايرانية، ولا تفتر حكومة الهند او بريطانية عن التغلغل في المصالح الاقتصادية الايرانية، وتجهد على الدوام أن تفوز منها بحصة الاسد.

لكنها من جهة ثانية، أخذت تعول على قوى القبائل العربية في جنوبي وغربي ايران لتشكل منها جبهة دفاعية قوية متماسكة في وجه أي زحف روسي، مع الملاحظة بأنها كانت لا تتحرج من انزال الضربات المتلاحقة بهذه القوى وتحطيمها

---

١ – الخليج والعلاقات الدولية ص ١٥٥ – ١٥٦

بالاتفاق والتعاون فيا بينها وبين كل من ايران وتركية على السواء ، وبخاصة قبيلة كعب التي عانت من انكلترة الامرّين .

وأولت بريطانية عنايتها بشكل خاص ، بعربستان التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي عن ايران ، وكانت الى جانب ذلك تملك قوى عسكرية هائلة جعلتها تؤمّن لنفسها مركزاً ثابتاً في دوامة تلك الاحداث .

وكانت انكلترة تنظر لعربستان نظرة متميزة، لأهميتها من الوجهة الاقتصادية، وكانت دائبة القلق من امتداد النفوذ الروسي أو الفرنسي اليها ، ولم تنس بريطانية كذلك ان تعير قبائل البختيارية الفارسية اهتمامها لما تتمتع به من قوة فاذا ما انحازت اليها رجحت كفتها وشالت الكفة الروسية ، وقد عرف الدهاء البريطاني كيف يضمن هاتين القوتين إلى جانبه . وفي ذلك يقول سولزبري في أحد تقاريره : « ان في الامكان الاستفادة من الشجاعة التي يشتهر بها عرب المحمرة وعربستان وكذلك قبائل البختيارية ، وكذلك الاستفادة من سهول الكارون الخصبة للمجهود الحربي [1] . »

روسية تحاول ايجاد منفذ لها على الخليج

والحقيقة التي لا مراء فيها أن انكلترة كانت تخشى الاحتكاك مع روسية القيصرية التي تجيد لغة القوة والعنف ، وهي واضحة النوايا الاستعمارية نحو البلدان المجاورة لها ، ولا تفتأ تتوسع على حساب سواها من ايران وتركية والدول القريبة من الهند كالافغان والصين .

والشيء الثابت ، كذلك ، ان روسية كانت تسعى جاهدة لأن يكون لها منفذ إلى الخليج العربي ، وحاولت ان تنشىء ميناء لها على ساحليه الشرقي والشمالي ، وخطت أولى خطواتها في هذا السبيل بأن ركزت على ميناء باطوم الواقع في الجنوبي الشرقي من ساحل البحر الأسود ، ليكون مرحلة استهلالية لمد

---

١ ـ المرجع السابق ص ١٥٦

نفوذها إلى بغداد ، والتسلل من ثم إلى شواطىء الخليج .

ويجب ألا يغرب عن البال ، انه في الوقت الذي كانت تثار النوايا الروسية في ايران ، كانت فرنسة المرتبطة بتحالف ثنائي مع الروس تسعى بدورها إلى بسط نفوذها على جنوبي الخليج ، وذلك بتأثيرها المباشر على سلطنة مسقط ، وبذا كانت انكلترة ، وهي صاحبة السيادة في منطقة الخليج ، تراوح بنشاطها ، فتجنح للديبلوماسية حيناً ، وتهدد بحرب مناوئيها طوراً ، إلا انها لم تجرب حظها بدخول حرب مكشوفة مع هاتين الدولتين الاستعماريتين اللتين تحاولان الحد من نطاق تجارتها والقضاء على نفوذها في الخليج ، لأنها عرفت ، بنتيجة معطيات دراساتها ، انها ستكون تجاه عدوين اثنين ، فضلاً عما يمكن ان يتمخض عنه الموقف من تكتل عسكري بين دولتي المنطقة الكبيرتين : ايران والدولة العثمانية .

وكان الروس لا ينفكون عن استعمال لغة العنف والضغط مع الشاه الايراني ليتخلى لهم عن ميناء بندر عباس ، بينما كانت انكلترة تدعي ان الخليج منطقة بريطانية مقفلة ، ولقد عبر اللورد كيرزون بلغة متميزة بالحدة عن مساعي الروس في هذا الصدد بقوله :

« ان انشاء ميناء روسي على الخليج هو حلم الوطنيين المتحمسين من أهل الفولغا ، ولكن مثل هذا الميناء سيكون عنصر اضطراب في الخليج حتى في وقت السلم ، وسيفسد توازن القوى الذي وضعته بريطانية بعد جهد شاق كما انه سيلحق الضرر بتجارتها المقدرة بعدة ملايين ، وسيثير القوميات المتعددة في هذه المنطقة ، وهي قوميات مستعدة للاشتعال والتطاحن [1] . »

ولقد اعتبر أساطين مدرسة الاستعمار البريطانية انه إذا ما قيض لمحاولات روسية النجاح ، فمعنى ذلك ان ينشطر الخليج إلى منطقتي نفوذ روسية وبريطانية ، وذهب آخرون منهم ، أكثر تعصباً ، إلى ان نجاح المحاولات الروسية معناه ضرب التجارة البريطانية أولاً ، وانحسار ظل سيطرتها على مراكزها الستراتيجية أخيراً .

---

١ ـ الإستعمار في الخليج الفارسي ص ١٧٣

طراد روسي في الخليج العربي

ومع اطلالة القرن العشرين ، بلغت الأزمة ما بين بريطانية وروسية الذروة ، وردت هذه على ادعاءات انكلترة بأن الخليج منطقة مقفلة،بأن أرسلت عام ١٣١٨هـ ١٩٠٠ م باحدى قطع أسطولها «الطراد جلياك» إلى الخليج العربي، واتجه به قائده إلى بندر عباس مباشرة حيث جرت مباحثات بين المبعوثين الروس والمسؤولين الايرانيين، وتناولت أبحاث الفريقين امكانية تطوير العلاقات التجارية،ودعم النشاط الملاحي بين الدولتين ، وانشاء خط ملاحي بين المراكز التجارية الروسية والخليج، وابقاء قطع من الأسطول الروسي في بندر عباس لحماية مصالح روسية هناك ، وأخيراً انشاء مستودعات للفحم الحجري في ميناء بوشير .

ولقد لاقت هذه التحركات الروسية معارضة شديدة من الجانب الانكليزي ، وذلك لما يشغله هذان الميناءان الايرانيان – بندر عباس وبوشير – من أهمية بالغة ، باعتبارهما أضخم ميناءين على الساحل الشرقي للخليج، ولإشراف الأول على مدخل الخليج لقربه من مضيق هرمز .

ورأى الاستعماريون البريطانيون ان يجنحوا الى استعمال القوة إذا ما تساهلت ايران ، وتخلت لروسية عن ميناء بندر عباس ، واحباط أية محاولة من جانب روسية لرفع علمها على ذلك الميناء ، هذا بالنسبة لموقفها من ايران، أما بالنسبة لروسية فقد أعلن اللورد هاملتون عن استعداده للتخلي عن أيّ ميناء للروس ، مقابل اقلاع روسية عن مشروع جعل بندر عباس تحت الحماية الروسية !

وبغفلة من روسية التي كانت تحسب نفسها سيدة الموقف وتعارض جهدها التغلغل الاقتصادي البريطاني إلى داخل ايران، تمكن البريطانيون منذ عام ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م من ان يجعلوا من نهر قارون خطاً ملاحياً مقتصراً على التجارة البريطانية ، فزمجرت روسية ، وسعت ايران لفتح النهر المذكور للملاحة الدولية ، إلا أن الانكليز عرفوا كيف يتصلبون في موقفهم لا يتزحزحون عنه رغم كل الاعتراضات والاحتجاجات ، وظلوا اسياد الموقف في موضوع الملاحة النهرية في نهر قارون .

وفيما كانت بريطانية تحث ايران على تغطية اراضيها بشبكة من الخطوط

الحديدية ، إذا باللورد هاملتون ينادي بالويل والثبور في مذكرة سرية بعث بها إلى وزير الخارجية البريطانية، حالما وُضع على بساط البحث موضوع انشاء خطوط حديدية تمتد جنوباً حتى بندر عباس ، وبناء خطوط غيرها داخل ايران ، بأموال روسية [1] .

هزيمة المانية في الخليج

وحين ظهرت على المسرح السياسي قوة جديدة في الخليج وهي المانية التي عرضت على الدولة العثمانية موضوع مد خط حديدي يصل إلى الخليج ، وشرعت تبسط نفوذها الاقتصادي على كل من ايران والامبراطورية العثمانية ، وقف اللورد السالف الذكر ، رغم ما يشكل النفوذ الالماني من خطر على مواقع بريطانية ، موقفاً ايجابياً من هذا الموضوع ، لاعتقاده بأن ذلك يحدّ من النفوذ الروسي، وذلك بتصريحه عام ١٣١٨هـ ١٩٠٠ م : « انني لا أحب الألمان والحكومة الألمانية ، ولكني قد شعرت منذ مدة طويلة بأن سياستنا كانت بعيدة عن الصراحة معهم . اني على استعداد للتعاون مع الألمان ، وأفضل التعاون معهم على الروس... ثم لماذا لا نفسح المجال لخصومة المانية روسية حتى نكسب الوقت [2] ؟.. »

ولقد حاول الروس من جهتهم مد اصابعهم إلى الجانب الغربي من الخليج فارسلوا عام ١٣١٠ هـ ١٩٠٢ م بعثة من لدنهم إلى كل من الكويت والدولة السعودية ، في محاولة منهم لاقامة علاقات ديلوماسية بين روسية والفريقين المعنيين، لكن تلك البعثة عادت تجر اذيال الخيبة ، وذلك تحت ضغط انكلترة ، مع العلم بأن بريطانية كانت قد فرضت عام ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م حمايتها على الكويت .

معاهدة سرية بين روسية وايران

لكن اذا كانت روسية قد فشلت عام ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢ م بانتزاع موطىء قدم

---

١ ـ انظر نص المذكرة في كتاب « الخليج العربي والعلاقات الدولية » الجزء الاول ص ١٦٩

٢ ـ المرجع السابق ص ١٦٦

لها في الضفة الغربية ، فقد وفقت في نفس العام في عقد معاهدة سرية مع فارس ، تجعل لها قصب السبق في التجارة الايرانية، وتزحزح انكلترة عن مواقعها ، وكانت وجهة النظر الروسية تقضي باغراق ايران بالمشاريع ومدها بالمساعدات المادية ، لسد عجز الميزانية الايرانية ، وتطمين متطلبات الشاه الخاصة لتعويل الساسة الروس عليه شخصياً ، مما يمهد السبيل نهائياً للتسلل إلى مياه الخليج ، وبمعنى آخر لتغدو منطقة الشرق الأوسط تحت النفوذ الروسي .

وعندما رأت بريطانية انه اسقط في يدها ، وان السيطرة الروسية على ايران حتمية لا مناص منها ، لجأت إلى لعبة اخرى ، فمدت يد العون إلى الحركات التحررية التي بدأت طلائعها تظهر على الارض الايرانية ، مما سنراه مفصلاً في الفصل القادم ، وغرضها أن يطير رأس الشاه لتتبخر معه مشاريع روسية وبنود معاهدتها السرية التي تنسمتها حاسة الشم البريطانية .

ولكن مهما قيل حول مشاريع روسية التوسعية، فلقد ظلت التجارة البريطانية تحتل مرتبة الصدارة في الخليج العربي ، وظلت تزداد بنمو مضطرد، وقد سيطرت على الجمارك الفارسية التي كان يديرها موظف هندي ممن تعينهم حكومة الهند البريطانية، مقابل دفعها للخزينة الايرانية مبلغاً سنوياً مقطوعاً، وكان الغنم الأكبر الذي استحوزت بريطانية عليه ، حصولها في عام ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م على امتياز استغلال البترول الايراني الخام ، وهو أول امتياز من نوعه في الشرق الأوسط ، وكان من نصيب شركة « دارسي »[١] .

ولكن إلى أيّ مطاف انتهى التنازع الروسي الانكليزي حول ايران ؟.. وإلى أية غاية انتهى ؟.. هذا ما نراه في فصلنا القادم ، مما سيؤكد للقارىء انه ليس في قاموس السياسة كلمة « مستحيل » .

---

١ ـ الاستعمار في الخليج الفارسي ص ١٦٣

بريطانية تحالف خصوم الأمس

ظهور المانية على مسرح السياسة الدولية

كان لظهور المانية الموحدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أثر كبير في العلاقات السياسية الدولية التي كان لها انعكاساتها في الخليج العربي ، الأمر الذي استرعى انتباه الأتراك العثمانيين الذين كانوا على احتكاك مسلح دائم مع روسية ، إلى ضرورة توثيق صداقتهم وصلاتهم العسكرية بالمانية التي خرجت ظافرة موحدة بعد حروب شتى شنتها على جاراتها من الدول الأوربية .

وقد بلغت المانية على يد بسمارك أوج قوتها ووحدتها ، إذ اندمجت الولايات الالمانية في امبراطورية واحدة بزعامة بروسية ، فدحرت عام ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م القوات النمساوية في سادوا ، ثم عادت فانتصرت على الجيش الفرنسي في سيدان عام ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م ، وكان لا بد لمثل هذه الامبراطورية الفتية من ان تطمع في احتلال مكان جديد في المجال الأوربي ، وممارسة دورها في الأسرة الأوربية ، باحثة عن حلفاء تعمل وإياهم ، ولم يطل الأمر بالمانية حتى عقدت وشائج التحالف ما بينها وبين دولتي «النمسة — هنغارية» وايطالية ، مما شكل أكبر تكتل في وسط أوربة .

وكانت ردة الفعل تجاه هذا الائتلاف الثلاثي : المانية ، النمسة — هنغارية ، وايطالية ، ان مدت فرنسة الثورة يدها إلى روسية الأوتوقراطية وعقدتا تحالفاً

ثنائياً ، يقف بالمرصاد للتحالف الثلاثي .

وفي دوامة هذا الوضع الجديد ، وجدت بريطانية نفسها مطالبة بالمحافظة على ميزان القوى بين الكتلتين الكبيرتين ، مع جنوح إلى الجانب الأضعف الذي هو الحلف الثلاثي ، وذلك لما توارثت انكلترة بحكوماتها المتعاقبة من تركة ثقيلة من البغضاء ما بينها من جهة ، وبين فرنسة وروسية من جهة أخرى .

لكن ازدياد قوة المانية ، ومنافستها الصريحة للتجارة البريطانية في الاسواق العالمية ، ثم توسع المانية الاستعمارية والبدء بتنفيذ البرنامج الضخم لبناء اسطول الماني – أضف إلى كل ذلك ما كان يتشدق به القيصر الالماني من تهديدات ، وما يدلي به من تصاريح تنم عن العجرفة والعنجهية وواسع الاطماع – حمل بريطانية على أن تعيد النظر في موقفها من جديد تجاه الكتلتين الاوربيتين الكبيرتين ، وان تجنح في النهاية إلى المعسكر الثاني ، وتكون الدولة الثالثة في ذلك الحلف .

ويجدر بنا قبل أن نمضي قدماً بما تمخضت عنه تلك التحالفات والمعاهدات بالنسبة للعالم الاوروبي الذي كان يبرم وينقض ، حسب هواه ، ان نلقي نظرة عجلى على اوضاع تركيا وايران اللتين كانتا موضوع تلك الأحلاف والمنازعات .

لقد كان القرن التاسع عشر عهد الحركات التحررية في الممتلكات العثمانية الاوروبية ، بما نجم عنه افول نجم السلطان العثماني عن معظم دول البلقان ، وإن تبقى لها في بعضها شيء فلا يعدو النفوذ الأدبي فقط ، وباتت تشرف على الاضمحلال وينخر بهيكلها الضعف والانحلال .

وكانت السياسة الانكليزية ترى ضرورة بقاء الدولة العثمانية محتفظة ببعض قواها العسكرية لتكون حائلاً دون نوايا روسية القيصرية الرامية إلى الاستيلاء على اكثر الممالك العثمانية – وكانت تسميها الرجل المريض – وبالتالي التغلغل إلى مواطن نفوذها ومواقعها الستراتيجية ، واخشى ما كانت تخشاه أن تمسّ منطقة الخليج العربي ، وبخاصة بعد فتح قناة السويس وارتباطها بالهند ، وتحول الموانىء العربية إلى قواعد عسكرية للأسطول البريطاني ، ومراكز تموينية لسفن انكلترة التجارية في خطها المباشر ما بين حوض الأبيض المتوسط والمحيط الهندي .

وتتضح تلك السياسة من خلال التصريحات التي أدلى بها اللورد سولزبري، وهي تنوه بضرورة الحفاظ على تركية ودعمها عسكرياً، لكن تلك التصريحات النظرية، قد طمستها سياسة انكلترة العملية حين أقدمت على الاستيلاء على مصر عام١٢٩٩هـ ١٨٨١ م وسلخها عن جسم الدولة العثمانية ، مما حطم من كبرياء عاهل الاستانة الذي لم يستطع أن يعمل شيئاً سوى أن يحتج ، ثم يسكت على مضض .

الصراع البريطاني العثماني في الخليج

لكن رغم ما كانت تعاني تركية من ضعف ، فقد كانت تحاول ان تبعث أمجادها في الشرق بعد ان خسرتها في الغرب ، وكان فيما هدفت اليه ان تقوي مركزها في منطقة الخليج العربي، ولا سيما بعد ان أسندت ولاية بغداد إلى داعية الاصلاح في الامبراطورية العثمانية مدحت باشا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م ، وقد حاول هذا السياسي مد رواق السيطرة العثمانية على البلاد التابعة لها اسمياً ، وربطها بها بشكل فعلي ، ثم الوقوف في وجه بريطانية .

وبالفعل ، فقد قامت في عهد ولاية مدحت باشا على بغداد ، حملة تركية بحرية استولت على منطقة الاحساء وبسطت النفوذ العثماني على قطر . ودعم مدحت باشا ذلك النفوذ بربط سفينة حربية بها ، كما انه قام باعادة ميناء الزباري المواجه بشكل مباشر لجزر البحرين ، مما أثار مخاوف بريطانية من امتداد النفوذ التركي إلى مواقعها الستراتيجية ، ولكنها لم تشأ بادىء ذي بدء أن تجابه الدولة العثمانية بشأن ميناء الزباري ، بينما احتج الشيخ عيسى آل خليفة لدى الباب العالي بان الزباري جزء من املاكه ، ثم أقدمت وزارة الخارجية البريطانية على تهديد تركية واظهرت انها وراء البحرين .

وزاد الوضع تأزماً بين الدولتين الكبيرتين ، عندما أقدمت تركية على انشاء قوة عسكرية في شط العرب ، مما جعل بريطانية تصارح الدولة العثمانية بالعداء ، بعد ان كانت تقف إلى جانبها في مشاكل الحدود ما بينها وبين ايران .

وجاء رد السلطان على ذلك ببذل المال والسلاح لشيوخ العرب لأجل مقاومة

النفوذ البريطاني في الخليج العربي ، واخـذ يشجـع امـراء قطر على احتلال جزيرة البحرين ،وبسط سيادته على الأخيرة،وارسل البعوث إلى ابن الرشيد وإلى امراء عمان ومسقط والهند يحرضهم على الانكليز ، وقد شجع عبد الحميد الحركة الاسلامية في الهند وحاول اعادة مجد الخلافة العثمانية ، ودعـا إلى الجامعة الاسلامية لتكون قوة سياسية ضد النفوذ البريطاني (١) .

وخطت الدولة العثمانية خطوة عمليـة على الصعيد الدولي عندما اعلنت انحيازها إلى الحلف الثلاثي القـــائم في وسط اوربـة ، ومركز الثقل فيه المانية التي كانت تحاول هي أيضاً أن تجد لهـا حليفاً في الشرق تنفذ بواسطته إلى جنوبي غربي آسية ، مما جعل التلاقي طبيعياً مـا بين الدولتين ، وبخاصة بعد أن وافقت المانية بعد تردد قصير على تقوية تركية عسكرياً وفنياً، ومدّها بالسلاح والاعتدة ، وتزويد البحرية التركية بالمدافع الضخمة لتحصين مضيق الدردنيل .

ولم تتردد الدولة العثمانية بعد مفاوضات قصيرة وسريعة في قبول فكرة المانية بانشاء خط حديدي يصل الشبكة الحديدية الالمانية ببلاد الرافدين عبر آسية الصغرى، حتى يبلغ الخليج العربي ، واستخدام الكويت كمحطة وصل لهذا الخط .

المعاهدة البريطانية الكويتية

ولكن حدث في تلك الفترة أن عقدت معاهدة الحماية بين الكويت وبريطانية، فقد تم الاتفاق ما بين بريطانية ويمثلها الكولونيل ميد ، والكويت ممثلة في شخص الشيخ مبارك الصباح في ١٠ رمضان ١٣١٦ هـ الموافق ٢٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٩٩ م ، على ألا تتنـازل الكويت عن أي جزء من أراضيها او تقبل تمثيـــلاً ديبلوماسياً أجنبياً إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، وتعهدت بريطانية بدورها ان تضمن استقلال الكويت وتدعمه عسكرياً إلى جانب منحها المساعدة المالية . وكان من نتائج تلك المعاهدة ان امتنعت حكومة الكويت عن استقبال الممثل القنصلي

---

١ ـ الخليج العربي والعلاقـات الدولية ، الجزء الاول ص ١٩٣ ـ ١٩٤

الالماني ستمريخ خلال جولته في المناطق العربية لتنفيذ المقررات التي عقدت بشأن اقامة الخط الحديدي المزمع انشاؤه بين انقرة – بغداد فالكاظمة الواقعة على الخليج العربي في امارة الكويت، وكانت جولة القنصل الالماني تستوجب التفاوض بشأن استملاك الأراضي التي سيقام عليها الخط الحديدي .

وبدأ منذ ذلك الحين التقارب الانكليزي الكويتي، وقد حدث في عام١٣١٩هـ ١٩٠١ م ان اشتبكت القوات الكويتية بقوات عبد العزيز بن الرشيد وكانت النتيجة في صالح الأخير ، فحاولت تركية انتهاز الفرصة للتدخل ، وأرسلت احدى سفنها الحربية لتمهد لاحتلال ميناء الكويت ، ولكن البريطانيين كانوا للأتراك بالمرصاد ، مما اضطرت معه السفينة التركية إلى الانسحاب وجر أذيال الخيبة .

ولم تهل سنة ١٩١٢(١٣٣١هـ)حتى اعترفت تركية في « اتفاقية الخليج » التي تم التوقيع عليها من قبل المفاوض العثماني حقي باشا، ووزير خارجية بريطانية السير ادوار غراي في ٢٩ تموز سنة ١٩١٣م (١٣٣٢هـ) بالمعاهدات والاتفاقات التي عقدت بين انكلترة وأمير الكويت ، وبأن الكويت امارة مستقلة تحت الحماية البريطانية على أن يكون للدولة العثمانية ممثل لدى أمير الكويت . وقبلت بريطانية بالمقابل بأن يقوم الألمان بمد خط برلين – بغداد إلى البصرة ، على ان تتولى شركة انكليزية مد فرع للخط من البصرة إلى الكويت [1] .

قصة سكة حديد برلين ـ بغداد ـ البصرة

وعلى الرغم من أن مشروع السكة الحديدية الألمانية وفكرة الوصول بها إلى الكويت اولاً ، ثم تعديل تلك الفكرة والاكتفاء بانتهاء السكة إلى البصرة، ظل مشروعاً فقط ، فقد كان من الأهمية بحيث يفرض علينا بحثه ولو باقتضاب .

في تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م وقعت تركية مع

---

١ – انظر نص « اتفاقية الخليج » السرية في كتاب « البلاد العربية والدولة العثمانية » للاستاذ ساطع الحصري ص ٢٠٥

المانية ممثلة بالبنك الالماني «دوتش بنك» اتفاقية تقضي بان تنشيء المانية خطاً حديدياً هو خط حيدر آباد وطوله ٤٨٥ ميلا وينتهي بانقرة ، وقد نوه في تلك الاتفاقية بامكانية مده إلى بغداد ومنها إلى الخليج العربي ، وبذا تكون تركية ، وبالأحرى المانية ، قد وضعت مخططاً هو الخطوة الأولى لنسف قواعد التجارة الانكليزية .

وحسبنا في هذا الصدد ، والتاريخ دروس وعبر ، أن نتذكر ما نوّه به الخليفة العباسي العظيم المنصور عن أهمية البصرة وبغداد،وبأن تجارة الهند والصين ستكون في متناول يده عبر هذين الثغرين : النهري والبحري . وبذا تكون تركية ، أو المانية على الأصح ، قد انفتحت امامها الأفاق للارتباط عن طريق هذا الخط ، مع الهند ذات الثروات التي لا ينضب لها معين .

وفي سنة ١٣١٠ ﻫ ١٨٩٢ م ، وبالرغم من افلاس الخزينة التركية ، وفقدان الضمانات ، قبلت المانية بفكرة انشاء خط حديدي ما بين : انقرة — سيواس — بغداد — وذلك حين تحركت فرنسة وبلجيكة لتبني هذا المشروع ، كي لا يرى الالمان اي منافس لهم في هذا الميدان .

ولقد ساد التوتر ما بين المانية وانكلترة ، فترة من الزمن ، إذ ادعت الأخيرة بان المانية تهدد مصالحها الاقتصادية في الشرق ، لكن موقف المانية المتصلب من مشروعها ، وتهديدها على الصعيد الدولي ، بانها مزمعة على معارضة احتلال بريطانية لمصر ، في وقت لم تكن انكلترة بحالة تحسد عليها في ارض الكنانة ، شاعرة بأن الأرض تميد تحت قدميها نتيجة لانبعاث الحركة القومية الوطنية ، جعلها تتراجع عن موقفها ، فافسحت المجال للنشاط الألماني ، لكنها ظلت تكيد له .

ومضت المانية في مشروعها الذي ركزت عليه تركية اهمية خاصة ، يحدوها الأمل بانتزاع قصب السبق في هذا الصراع العنيف للتغلغل إلى مناطق نفوذ جديدة ، وانشاء الاسواق التجارية ، والبحث عن المواد الخام الأولية ، والاستفادة من المواقع الستراتيجية .

ولكن في الوقت الذي سكت فيه الانكليز ، اشرأبت أعناق الروس

والفرنسيين ، وأنشأوا يشنون أعنف الحملات على الاتفاق العثماني الالماني ، معبرين عن سخطهم وتخوفهم من نوايا المانية الاستعمارية في الشرق الأدنى عامة وفي العراق خاصة ، ولا سيما بعد قيام القيصر الالماني عام ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م بزيارة استانبول ودمشق تمهيداً لإقامة التعاون الالماني ـ الاسلامي .

وفي سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م سكتت فرنسة عن احتجاجاتها ، ولكن بعد ان نالت هي الأخرى امتيازات شبيهة ، وذلك بمشاركتها في المشروع الالماني من جهة ، وحصولها على امتياز بانشاء خطوط حديدية في سورية وفلسطين وامكانية ربطها ببغداد من جهة ثانية .

وحينئذ جاء دور روسية القيصرية التي كانت هي ايضاً طرفاً في النزاع مع السياسة الالمانية ، وكانت تبدي أشد المخاوف من انشاء خط بغداد ـ خانقين الحديدي ، وذلك بعد عقد اتفاق بين انكلترة وروسية اقتسمت فيه الدولتان مناطق النفوذ في ايران ، وتمخض العداء الالماني الروسي عن عقد مؤتمر بوتسدام عام ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م لبحث الخلاف ما بين عاهلي الامبراطوريتين بصدد الخطوط الحديدية البغدادية !..

وأسفر اجتماع الامبراطورين بعد مساومات سياسية ، عن تسوية فيما بينهما ، وذلك بتعهد القيصر الالماني للقيصر الروسي بعدم التدخل بامتيازات روسية في الأراضي الايرانية التي احتلتها ، واهمال مشروع خط حديد بغداد ـ خانقين ، مقابل وقف التدخل الروسي بشؤون الخط الحديدي الذي يصل بغداد بأوربة .

وفي عام ١٣٣٣هـ ١٩١٤م أعيدت اللمسات الأخيرة دولياً على موضوع الخطوط الحديدية ، وتم الوصول إلى اجراء مسودة اتفاقية عقدت بين البنك الالماني والبنك الامبراطوري العثماني ، وحضر الاجتماع مندوب عن الحكومة الفرنسية ، وتقرر انشاء شبكة خطوط تقوم كل من المانية وفرنسة بتنفيذها ، وقد تعهدت المانية بتكميل خط بغداد ، بينما أزمعت فرنسة على مد سكك حديدية تربط البحر الأسود بهضبة الأناضول مع الأمل بربط هذا الخط بخط بغداد ، كما تقرر ربط سكة حديد بغداد باسكندرون ، وانشاء خط آخر ينتهي بالساحل السوري

ويسير بمحاذاة نهر الفرات مروراً بسكنة .
ولم تستطع انكلترة إلا اقرار هذه المشاريع . ونشأ من جراء ذلك اتفاقية انكلو المانية،وافقت المانية بموجبها على قبول المساهمة البريطانية بتلك المشاريع، كما وافقت كل من تركية والمانية معاً على التحفظات البريطانية التي سيرد ذكرها خلال هذا البحث .
ومع ذلك ظل المشروع الالماني مشروعاً ، إذ مزقته نيران الحرب العالمية الأولى !..

تلاقي الخصوم

هذا ما كان يجري على الصعيد الدولي ، اما على الصعيد العثماني فلم تكن المانية رغم وشائج الصداقة ما بين قيصرها والسلطان العثماني ، لتجد في تركية الرجل المريض بغيتها ، ولم ترسخ صداقة الدولتين إلا بعد ثورة الأتراك الشباب عام ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م وحين استلم أزمة الحكم عدد من الضباط الذين تدربوا في المانية واقتنعوا بالفكرة والقوة الالمانيتين ، الأمر الذي نظرت اليه الدول الأوربية نظرة المتأمل البصير ، فوضعت حداً للمنافسات التقليدية ما بين انكلترة وفرنسة وانكلترة وروسية ، تلك المنافسات التي ظلت ترتدي طابع المناحرات السياسية طوال القرن التاسع عشر .
فبعد أن كان مركز مسقط موضع خلاف بين بريطانية وفرنسة طيلة قرن من الزمن ، عادت فرنسة فوافقت على مشاريع بريطانية في تلك البلاد ، وكان عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م عاماً حاسماً إذ وقعت فرنسة وانكلترة الاتفاقية الانكلو ــ فرنسية ، وبهذا أقدمت انكلترة على الخروج من وراء الحاجز الذي كانت تحتمي وراءه ، معلنة بشكل جلي سافر انها أصبحت خصماً لكل من برلين ــ فينا الالمانيتين .
هذا ما كان بشأن مسقط ، أما باقي الساحل العربي ، فقد دارت عليه احداث غاية في الأهمية رغم انها قليلة نسبياً إلى ما كان يحدث في الجانب الآخر ،

ونعني به الساحل الفارسي الذي سنتكلم عنه بعد قليل .

وفي نجد نرى أمير الرياض عبد الرحمن بن سعود يلجأ بعد مخاطرات جمة إلى الكويت حيث يجد في جوار شيخها مبارك الصباح الأمن والسلامة ، ناجياً بنفسه وأسرته من أمير شمر ابن الرشيد الذي كان في أواخر القرن التاسع عشر من أقوى الزعماء الذين شنوا غارات موفقة على الرياض ، وقد أمضى الامير عبد الرحمن وولده عبد العزيز الذي سيصبح فيما بعد عاهل الجزيرة العربية تسع سنوات في ضيافة أمير الكويت .

وفي عام ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م ، وكان الأمير عبد العزيز قد بلغ سن الرجولة ، قاد عدداً من رجاله وسلك طريق الصحراء إلى حيث تقوم الرياض ، فاستطاع خلال سنوات قليلة أن يستعيد نجدا والاحساء التي تقع على شاطىء الخليج ، وظل يتتبع خصمه اللدود ابن الرشيد حتى قضى عليه ،مما أدى إلى تنبه حكومة الهند الانكليزية، واعترافها بما تنطوي عليه تحركات الأمير النجدي من أهمية بالغة .

وكانت الحرب الكونية الأولى على الابواب ، فأسرعت حكومة الهند قبيل نشوبها ، وأوفدت الميجر شكسبير ليمثلها في الرياض ، فقتل عام ١٣٣٤ هـ ١٩١٥ م اثناء معركة ضد ابن الرشيد ، إذ كان يرافق الأمير عبد العزيز .

هذا ما يقال عن غربي الخليج ، أما شماله ، وهو العراق ، فان الامبراطورية العثمانية كانت قد قسمته إلى ولايتي البصرة وبغداد ، أو ما يعرف في العالم باسم بلاد الرافدين — وحدودها من الشمال ولاية الموصل ومن الشرق بلاد فارس ، أما في الجنوب والغرب فلم يكونا محددين تماماً مما أثار نزاعاً بين حكام الكويت ونجد والعراق حول تلك الحدود .

وفي تلك الايام كان البريطانيون يتمتعون بمركز خاص في البصرة وبغداد قياساً على ما لهم من نفوذ في منطقة الخليج ، وكان لهم قنصل في البصرة ، ومركز بريد ، ومقيم في بغداد هو كبير الممثلين السياسيين في الخليج ، وكان يشكل وحده دولة ضمن الدولة .

ويقول الاستاذ ساطع الحصري في صدد النفوذ البريطاني في العراق في أخريات

الدولة العثمانية :

« كانت (بريطانية) صاحبة النفوذ الأوحد في ولايتي البصرة وبغداد .

« انها كانت مسيطرة سيطرة تامة على الخليج ، من جانبيه العربي والفارسي ، منذ مدة تزيد على القرن ، وكانت تولت مهمة التنوير والارشاد والتنظيم في شط العرب ، وأصبحت مهيمنة على الملاحة والتجارة فيه هيمنة تامة .

وكان أكثر من تسعين في المائة من السفن التي تدخل شط العرب تحمل أعلام امبراطوريتها ، وكان نحو ستين في المائة من مبادلاتها التجارية تتم معها .

وفضلاً عن ذلك كله ، كانت القنصلية البريطانية في بغداد قد اكتسبت مكانة خاصة وأوضاعاً ممتازة ، لا مثيل لها في سائر القنصليات . كان لها حامية تتألف من خمسة وعشرين سياسياً وضابطاً ، وكان يرسو أمام القنصلية سفينة خاصة بها ، عليها خمسة وعشرون بحاراً وضابطاً .

وخلاصة القول ، كانت بريطانية قد اكتسبت هناك نفوذاً سياسياً واقتصادياً كبيراً جداً ، وصار هذا النفوذ يزداد ويقوى ، دون منافس ومنازع [1]. »

وكان جل اهتمام الانكليز في الخليج يومذاك ينحصر في أمور ثلاثة :

١ — ان تحمل انكلترة تركية على الاعتراف بسيادة الاسطول البريطاني في منطقة الخليج .

٢ — ان تحصل على اعتراف تركية بالمعاهدات التي عقدتها انكلترة مع مشيخات الخليج العربي .

٣ — مراقبة تنفيذ الامتياز الذي منحته الحكومة العثمانية لشركة سكة حديد برلين — بغداد وهو المشروع الذي اقضّ مضاجع البريطانيين .

وبعد مفاوضات تعثرت طويلاً ، أظهرت تركية تجاوباً مع الأمر الواقع ، وانتهت إلى الاتفاق مع بريطانية على معظم القضايا المختلف عليها ، لكن هذه المعاهدة لم تنفذ من قبل تركية بسبب اندلاع نار الحرب العالمية الاولى ، ووقوف

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٩٤ — ١٩٥

تركية إلى جانب المانية الأمر الذي لم تقره انكلترة فعملت من جانبها على تنفيذ المعاهدة، وانزلت في اواخر عام ١٩١٤ قوة من الجيش البريطاني على شط العرب، وكان ذلك بداية عمليات حربية واسعة طويلة الأمد لم تنته إلا بعد استسلام الدولة العثمانية .

أمـــا على الشاطىء الشرقي أي بلاد فارس ، فقد حدثت بالنسبة له تبدلات ليست أقل أهمية .

بريطانية تدعو الى الاصلاح في ايران

من المسلم به ان الشاه كان يحكم ايران حكماً متوارثاً مطلقـاً ، كلمته قانون ، وارادته دستور، وليس من عمل لوزرائه الا تنفيذ رغباته، وحكم هذا شأنه لا يمكن أن يدوم الا في ظل ادارة نزيهـــة ، وجيش قوي مخلص ، ومثل هذه الشروط لا يمكن أن تتوافر ما دامت هناك تدخلات اجنبية .

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار اموراً اخرى كانت تجري في بلاد فـــارس ، فالخزينة كانت على شفا الافلاس ، ولم يكن الشاه مظفر الدين يملك ازمـة الامور بشكل قوي ، وقد تسربت العلوم الحديثة إلى بلاد فـــارس على أيدي من تلقوا ثقافة اوربية ، فضلاً عن ظهور تيار سياسي وديني جديد ، هو العصبة الاسلامية التي اسسها جمال الدين الأفغاني ، إذ خلق هذا التيـــار لنفسه نفوذاً واسعاً في صفوف المتدينين ليس في فارس فحسب،وانما في كل من مصر وتركيةوالشرق العربي عامة، فقد نادى الأفغاني بضرورة القيـــام باصلاحات جذرية تؤمن للمواطن الحقوق الأساسية والحريات العـامة ، الأمر الذي اعتبره مظفر الدين شاه مقدمـة للثورة ، فأبعد الأفغاني عن فارس .

لكن اضطرابات حدثت ضد الحكومة في طهران قادهـــا فريق من التجار والملاك مطالبين بالاصلاح ، فوعد الشاه ولم يف ، ثم كثرت وعوده دون وفـاء ، وتجددت الاضطرابات مرة بعد أخرى،واضحت البلاد في دوامة من الاحداث هي من القوة بحيث تعادل الأحداث الخارجية التي لا بد لنا من استشرافها لنرى كيف كانت تتلاقى مع الأحداث الداخلية ، ويشكل التياران : الخـارجي والداخلي ،

سيلاً جارفاً يكاد يزلزل البلاد .

أول ما يسترعي انتباهنا في السياسة الدولية التي واكبت تلك الاحداث ، انها قد تناهت في التداخل والتعقيد ، نتيجة لتشابك الاحداث الخـــارجية التي قلبت عوامل التنابذ والتناحر إلى عناصر تجاذب وتحالف !

وقد رأينا تصريحات اللورد كيرزون المعبرة عن السياسة البريطـــانية تجاه التحركات الروسية ، ومحاولة القياصرة النفوذ إلى الخليج ، ذلك الحلم الذي طالما راود مخيلات سادة الكرملن ، ووقوف انكلترة لروسية بالمرصاد .

لكن الاحداث التي تلت تلك التصريحات ، خلقت جواً جديداً يختلف شكلاً ومحتوى عن الوضع السابق ، وذلك نتيجة للتقارب الالماني التركي ، ومشاريـع بناء شبكة الخطوط الحديدية التي حملت أكثر من معنى دار في مخيلات دهاقنة الاستعمار وأقطاب الديبلوماسية الأوربية الذين لا يهمهم شيء بقدر ما يهمهم البحث عن مصادر المواد الخام ، وأسواق تصريف فائض الانتـــاج ، ومساندة الاحتكار بقوى الاستعمار ، وهيمنتها على المواقع الستراتيجية ، تلك العوامل التي كانت ظـــاهرة للعيان في ميدان الصراع الدولي الذي طبع مطلع القرن العشرين ، والتي ليس أسهل عليها من أن تجعل عدو الأمس صديق اليوم .

وهكذا ، وبشكل فجائي انقلب متنافسو الأمس إلى حلفاء متآزرين ،واختفت التصريحات الانكليزية العدائية للروس ليجلسوا وإياهم على المائدة المستديرة ، عام ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م ، وقد نشرت أمام الطرفين خارطة منطقة الخليج بالألوان ليتفقا على تقاسم مناطق النفوذ ، ويبينا موقع الخط الخارجي الذي يمكن أن يحدد الاتفاقية الانكلو — روسية ، وبالطبع على حساب الفريسة : الدولة الضعيفة .

ومن غرائب السياسة أن يتجه كل من الروس والانكليز ولا سيما الأخيرين إلى المعارضة في ايران ، تظاهراً بدعم المطالب الشعبية وتأييد الحركة الدستورية ، والجهر بوجوب اصلاحات جذرية وتبديل قواعد الحكم والنظم الادارية ، ولقـــد أسست بريطانية جمعية دعتها « جمعية الصداقة الانكليزية الايرانية » لم تدخر وسعاً في دعم وجهة نظر المنادين بالاصلاح ، فلاذ هؤلاء بصخرة الصداقة البريطـانية التي جابهت اصرار وعناد الشاه باصرار أشدّ وعناد أعنف ، واعتصم ١٣٠٠٠ مواطن

ايراني من أبناء طهران بالسفارة البريطانية ، يرفعون عقـــائرهم من خلف أسيجة الحدائق منددين مهددين ! ...

وانتهت هذه الجولة بانتصار الجبهة الشعبية ، وتتويج ذلك النصر بانتزاع دستور عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، ولكن في غمار هذه الفرصة أخذت تتردد في الاوساط الشعبية انباء الاتفاقية الانكلو روسية المنتظرة ، ممـــا أحدثت ردة فعل عنيفة في الاوساط الوطنية التي شعرت بخيبة الأمل ، وانجلت أمانيها عن برق خلّب .

ولم تكن هذه الانباء مجرد اشاعات تطلقها الاوساط الدولية المعـــادية ، وانما كانت حقيقة واقعة،وقد اقتسمت فيها الدولتان الظالمتان مناطق النفوذ في ايران[1].

هرة بين دب وأسد

ولا بأس هنا من الوقوف على تلك المأساة التي كانت تعانيها الأمة الايرانية والتي عبرت‌عنها مجلة البنج الكرتونية الانكليزية بصورة تمثل‌الهرة الفارسية واقفة بين‌الأسد البريطاني والدب الروسي ، وقد أشار الأسد للدب قائلا : « تستطيع أن تبدأ من الرأس وسأبدأ أنا من الذيل ، ولا بد أن نلتقي في وسط الظهر » وهنـــا أومأت القطة الفارسية قائلة : « ولكني لم أعبر عن فكرتي في الموضوع[2] »

وهكذا استطاعت انكلترة أن تبقي الخليج العربي منطقة بريطانية مغلقة إلى جانب توطيد نفوذها في كل من جنوبي ايران وعربستان .

ومن جديد ذر قرن الطغيان الذي ما زال يعتمل في أعماق الجالس سعيداً على عرش ايران محمد علي شاه بن مظفر الدين شاه ، وأخذ يعمل بكافة الوسائل لوضع شتى العراقيل أمام البرلمان ليشل من حركته ويقضي على آمـــال الدستوريين التقدميين ، لا سيما وان المجلس كان على أبواب افتتاح دورة في مقدمة موضوعاتها: مناقشة الميزانية الخاصة بالشاه.

---

١ ـ انظر كتاب « الخليج العربي والعلاقات الدولية » ج١ ص ١٧٥ – ١٨٧

٢ ـ المرجع السابق ج١ ص ١٧٧

ولكن الدستوريين صمدوا على موقفهم ، وبات المجلس ينـــاقش كل صغيرة وكبـيرة تتعلق بالدولة والشاه ، ولم يتردد في مطـــالبة الشاه بأن يبعد مستشاريه الأجانب ويطردهم خارج البلاد ، وزاد الدستوريون على ذلك بأن هددوا باغتيـال الشاه إذا ما وافق على الاتفاقية الانكليزية الروسية ، غير ان الشاه رد على التهديد باجراءات انتقامية عنيفة ، وأمر بإلقاء القبض على كافة وزرائه حتى باتت حيـاتهم مهددة بالقتل ، ومن المؤسف حقاً ان رئيس الوزراء لم يجـــد من يستنجد به غير السفارة البريطانية صوناً لحياته وحياة مرؤوسيه ، واضطر أخيراً إلى الهرب بجلده إلى أوربة ، وهنا لعب المستر تشرشل سكرتير السفارة البريطانية في طهران لعبته المزدوجة، ما بين القصر والبرلمان، واستطاع أن يخفف من حدة التوتر،وتمكن بعد لأي من اقناع الشاه بالاقلاع عن فكرة اعدام المناوئين له في الحكم .

وصب الشاه وقد غُلَّت يده عن ازهاق الارواح ، جـــام غضبه على مبنى البرلمان ، فضربه بالمدفعية ، وكان معظم العسكريين الذين اشتركوا بهـذه الجريمة من القوات الروسية التي تعمل في خدمة الشاه ، وبعضهم من حرسه الخاص .

وزاد الروس على ذلك بأن أخذوا على عاتقهم الدفاع عن حياة الشاه ، وتركوا تحت إمرته فصيلاً من القوقازيين بقيادة العقيد الروسي ليـاندن الذي تبوأ منصب الحاكم العسكري لطهران وقام ثانية بضرب مبنى البرلمان بالمدفعية ، وثنى على تلك الجريمة بأشنع منها عندما قصف الجامع الكبير .

وسعى الايرانيون لدى السفارة البريطانية عساها أن تقف حائلاً دون تصرفات السفارة الروسية المعادية للشعب الايراني ، ولكن السفير البريطاني ادوار كراين أجاب على هذا الملتمس بكل برود ، بأن العقيد هو في خدمة الشاه الايراني وليس للسفارة الروسية من يد في الموضوع .

خلع محمد علي شاه

وقد ازداد المد الثوري في ايران جواباً على تعسف الشاه الذي لم يدع وسيلة من وسائل العنف والقسوة إلا اتبعها ، وأصدر أمره ، فأغلقت الصحف الوطنية ، وزج

باحرار المناضلين من زعمـــاء الحركة الدستورية في غياهب السجون وساحـــات المعتقلات ، ومع ذلك ظل المجلس – رغم انه كان يمر بمرحلة تجريبية ولم تتبلور بعد المفاهيم التي ينافح من أجلها – روح الشعب وشعلته المتـــأججة ، وزحفت أفواج الوطنيين الطهرانيين ، وعلى رأسهم الطليعة الدستورية إلى البرلمان لتتلقى النيران بصدورها دفاعاً عن رمز الأمة ومعقد آمالها .

وزاد الجو تلبداً والاضطراب اتساعاً ، عندما كشف النقاب عن مؤامرة فاشلة لقلب الحكم واغتيال الشاه ، إذ القيت قنبلة على سيارته في حزيران (يونيه) سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م .

وعلى الرغم من عدم معرفة عناصر المؤامرة ، فقد أنحت القنصليـات الروسية والانكليزية باللائمة على المجلس ، واجتمع السفيران برئيسه وهدداه بوخيم العواقب إذا مـــا حدث واغتيل الشاه ، أما هـــذا فقد انهارت أعصابه وفرّ من طهران تحرسه القوات القوقازية الروسية إلى قصره الصيفي الواقع على شاطىء بحر قزوين ، ليواصل من هناك تآمره على القوى الوطنية .

وعرف الشعب ما يحيك الشاه من خيوط التآمر ، كما تجلى له عداء انكلترة له، ومحاولتها – جرياً مع روسية في مضمار واحد – ضرب حركة الاصلاح رغم مـــا تظهره الديبلوماسية الانكليزية من مرونة ونعومـــة في التقرب إلى الشعب تارة ومجاهرته بالعداء طوراً ، وكان من حصيلة ذلك ان رسخت الافكار الثورية عميقة الجذور في القواعد الشعبية، وتبلورت بأجلى معانيها في مدينـــة تبريز التي أصبحت معقلاً من معاقل الحركة الدستورية ومجابهة استبداد الحكم الفردي، وكلما ازداد ضغط هذا الاستبداد في طهران ازدادت الجبهة الوطنية تصلباً وتماسكاً في تبريز ، وما ان حلّ عام ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م حتى باتت تبريز بمعزل كلياً عن طهران وغدت تشكل خطراً جدياً على التاج الايراني ، وحينئذ رأى الشاه أن يبادر فيدك ذلك الحصن من معاقل الوطنية اعتماداً على القوى الروسية .

وبالفعل أخذت فصائل القوى الروسية المرابطـة على الحدود الايرانيـة بالزحف على تبريز ، ولما رأت الديبلوماسية الانكليزية انه لا دور لهـا في هذه الاحداث ،

أخذت تعمل على تحويل رياح السياسة لمصلحة أشرعة مطـــامعها ، فخففت لعرض مشروع انتخابات عـــامة ، وتقديم قروض تصرف لتهدئة الاحوال المضطربة في ايران .

غير ان اللعبة الروسية لم تتم ، إذ قامت كل من ولاية اصفهان ومدينة رشت في وقت اطباق الحصار على تبريز ، بطرد القوات الملكية منها، كما تحركت القبائل لتعبر عن سخطهـــا ، وهبت القبائل البختيارية القوية وعلى رأسها سردار اسعد زاحفة من الجنوب إلى الشمال متجهة إلى العاصمة ، كما زحفت قبائل الشمال بزعامة سفيدار إلى طهران حيث التقت القوتان بالقرب منهـــا ، وأجمع الرأي على توحيد الجهود ، ودخول العاصمة التي لم تقاوم إلا مقاومة رمزية ، وأصبحت في قبضة القوى الثائرة ، ولم يعصم الشاه من وصول يد الثورة اليه إلا التجاؤه إلى السفارة الروسية.

وعلى أثر ذلك الانقلاب العسكري ، اجتمع المجلس وقرر خلع الشاه وتولية ابنه القاصر سدة العرش على ان يكون تحت الوصاية حتى يبلغ رشده ، أما الشاه المخلوع فقد نفي إلى أوديسة في روسية ، وقد تعهدت كل من الحكومتين الروسية والانكليزية بتأمين راتب تقاعد له من الخزينة الايرانيـــة مقداره ١٦٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً .

غير أن الأوضاع الجديدة لم تحمل إلى البلاد الأمن والاستقرار لتدهور الوضع المالي للخزينة الايرانية، فتقدمت اميركة باقتراح ايفاد خبير اقتصادي ينظم مـــالية الدولة ، فقبل ذلك الاقتراح واسندت تلك المهمة إلى الاقتصادي المستر شستو الذي شغل عام ١٣٣٠ هـ ١٩١١ م وظيفة مدير للمالية ، وكاد هذا الرجل أن ينجح في مهمته لولا العراقيل التي وضعت في طريقـــه ، فقد رأى الروس والانكليز الذين وافقوا على تعيينه ضرورة اخراجه من البلاد لأن وجوده بات يهدد مصالح الدولتين، وقد طلب السفيران الروسي والانكليزي من الحكومة اقالته واخراجه من ايران، فعارضت الحكومة ذلك ، واعتبرت هذا الطلب انتهاكاً للحياة الدستورية في البلاد وتدخلاً في شؤونها الداخلية .

وعادت السفارة الروسية وحدها في نفس السنة تطلب طرد مدير المال الأميركي

فوافقت الحكومة على الطلب بينما رفض المجلس، فحلته الحكومة، وغادر المستشار الاميركي الأرض الايرانية تحت الضغط الانكوروسي الذي بـدأ يقطف ثمرات الجهود المشتركة .

أول امتياز للبترول في منطقة الخليج

وفي غمرة هذه الفوضى الضاربة استطاع رجل استرالي هو وليام فوكس دارسي الحصول على امتياز من الحكومة الفارسية لم يؤبه له وقتذاك ، لكنه كان بعد سنين قليلة سبباً في خلق ثورة في سياسة بلدان الخليج واقتصادها واهميتها الستراتيجية ، نعني بذلك امتياز التنقيب عن البترول في أي مكان من جنوب ايران ، اذ اكتشف اخيراً البترول بعد مجهود شاق وبكميات تجارية في سفح جبال زغروس وذلك عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٨ م عند مدينة مسجدي سليمان على بعد ١٥٠ كيلو متراً من رأس الخليج العربي .

وهكذا كان ظهور البترول في هذه المنطقة عـاملًا اساسياً في تطور السياسة الدولية تجاه اقطار الخليج ، ولم تمض سنة واحدة حتى تألفت شركة النفط الانكلو ايرانية لتحل في الامتياز محل الاسترالي دارسي ، ثم ربطت مدينة مسجدي سليمان بخط لانابيب البترول مع جزيرة صغيرة في شط العرب سيكون لها شأن خطير في التاريخ الحديث هي مدينة عبادان . فقد انشئت فيهـا مصفاة للبترول ، وشرع بتصدير النفط ومشتقاته ، وتدخلت الامبرالية البريطانية عـام ١٣٣٢ هـ ١٩١٣ م وكانت برئاسة ونستون تشرشل فاشترت نيـابة عن الحكومة البريطانية حصة من أسهم الشركة لتـأمين النفط لسفن الاسطول الانكليزي ، وكانت السفن آنذاك قد بدأت تتحول محركاتها من استخدام الفحم إلى استخدام البترول .

وبالرغم من أن انتاج النفط كان يومذاك أقل بكثير منه هذه الأيام ، إلا أن ذلك كان كافياً لتوجيه سياسة بريطانية في الخليج في اتجاه جديد .

ولقد كان موقف انكلترة في الخليج موقف القوي ، وكان الاسطول البريطاني يبحر بحرية مشرفاً على جميع السواحل في الخليج ، ولم يكن يقلق بريطـانية شيء

غير جيش الصديقة روسية الذي كان في مركز يسمح له باجتياح شمالي ايران عند حدوث اقل حركة عصيان أو أيّ هجوم اجنبي .

ولم يكن هناك من يُخشى خطره على فارس ، غير تركية التي بدت في ذلك الوقت اكثر جنوحاً لمساندة المانية في أية حرب تخوضها ، وكانت تركية تشترك مع فارس في ديانة واحدة وفي كره الروس ، وهي تطمع في أن تساند فارس التحالف التركي الالماني رجاء أن تتخلص فارس من النفوذين الروسي والانكليزي، وكان هذا هو في الواقع اتجاه الطبقة المثقفة في فارس .

وبالاضافة إلى ذلك وجدت الدعاية الالمانية المجال خصباً لبسط نفوذها المعنوي في اوساط القبائل الايرانية ، وخاصة في اوساط قبيلة بختياري التي لم تكن تدين بالولاء للحكومة وكانت تعارض التدخل الانكليزي [١] .

وكان الالمان قد ركزوا اهتمامهم منذ زمن غير بعيد على منطقة الخليج، وتبع ذلك نشاط تجاري ملحوظ ، فقد افتتحوا عام ١٣١٤ هـ ١٨٩٦ م مؤسسة المانية هي «ونكهاوس» على الشاطىء الشرقي ، كما افتتح مكتب لنائب قنصل الماني في بوشير عام ١٣١٥ هـ ١٨٩٧ م ، وفي عام ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م جاءت بعثة المانية إلى الكويت لتستملك قطعة أرض من أجل خط برلين بغداد الحديدي ، ثم توسعت اعمال مؤسسة ونكهاوس فشملت البحرين والبصرة وبندر عباس ، وحاولت حصر امتياز صيد اللؤلؤ بها لكنها فشلت امام معارضة بريطانية ، كذلك بدأت شركة الملاحة الألمانية «هامبورغ -اميركا» ترتاد بقواربها البخارية منطقة الخليج، وتطورت التجارة الألمانية داخل فارس ، وسرعان ما وجدت لها سوقاً رائجة ، وبخاصة فيما يتعلق بصناعة السجاد . وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على مبلغ كراهية الشعب الفارسي لكل من الانكليز والروس ، وعدم الرضا بان يكون ابناء الأكاسرة الهرة التي يأخذ بذيلها الأسد البريطاني وبرأسها الدب الروسي .

١- The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 37

الجزء السابع

الخليج العربي يعيش مآسي القرن العشرين

- الخليج في الحرب العالمية الأولى
- الخليج بعد الحرب العالمية الأولى
- الخليج بين الحربين العالميتين
- الخليج في الحرب العالمية الثانية
- ايران تتململ
- العراق يثور
- بترول الخليج العربي
- مأساة البريمي
- امبراطورية البترول تجهز على إمامة عمان
- عربستان أندلس الخليج

الخليج في الحرب العالمية الأولى

الخليج العربي عشية الحرب العالمية الاولى

لم تلبث الغيوم التي كانت متجمعة في الأفق الدولي والعالم عائش على أعصابه ، قلق على مصيره ، حتى انفجرت عن صاعقة مدمرة امتدت ألسنة لهبها من قلب أوربة مجتاحة القارة الأوربية إلى آسية وعرض البحار إلى ما وراء المحيط ، بصدام دولي أدمى قلب العالم ، لكن ما يهمنا هنا من تلك الاحداث ما جرى منها على ضفاف الخليج وحده ،و دوله فحسب ، من بلاد عربية وامبراطورية عثمانية وفارس.

وقد رأينا في الفصل السابق كيف ان بريطانية قد أعدت للأمر عدته ، متأهبة لدخول حلبة الصراع ، بما أجرت من تبديل في سياستها ، ومـا جرت عليه من انعكاس الاحلاف ، وكيف غدا من كان لها عدواً لدوداً ، حليفاً ودوداً .

وفي عشية اندلاع نار الحرب العالمية الأولى التي اصطلت بسعير نارها أكثر شعوب أوربة ، وتركية وفارس ، كانت السلطات البريطـانية في الخليج تحت اشراف وزارة الخارجية البريطانية من جهة وحكومة الهند من جهـة أخرى ، وكانت تركية باديء ذي بدء مترددة حائرة نتيجة توزع رجـالاتها على جبهات متعددة ، إذ كان بعضهم مؤيداً لانكلترة ، وبعضهم الآخر لروسية ، وأما المانية فكانت بانحصارها في قلب أوربة ، ومعاداتها للغرب ، تحاول أن تنفذ إلى الشرق عن طريق تركية ، في حين كانت روسية تمـارس ضغطها على كل من تركية

وفارس على السواء ، ثم اتفقت عـام ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م – كما مرّ معنا – مع انكلترة على مشاطرتها النفوذ في فارس ، وكانت فارس ، شأنهـا شأن تركية ، موزعة الاتجاهات ، ولكن عنصراً آخر هو القبائل كان بإمكانه أن يلعب دوراً هاماً في أي اتجاه أريد له ، وبخاصة قبائل البختياري المتمركزة في جبال زغروس المشرفة على منطقة شركة النفط الانكلو ايرانية .

ولما نشبت الحرب كان لانكلترة عدد من القناصل العـامين في الامبراطورية العثمانية وبلاد فارس ، وكذلك في مسقط ، ناهيك عن عدد من الوكلاء السياسيين في المشيخات العربية والمحمرة ، أما كبير المقيمين السياسيين الانكليز في الخليج فقد كان مركزه في بوشير .

وكانت المشكلة الأساسية التي ستواجه انكلترة إذا ما دخلت تركية الحرب إلى جانب المانية هي الدفاع عن المصالح البريطانية في الخليج ، وبخاصة الدفـاع عن حقول البترول والمصفاة في جنوبي فارس ، وكذلك خط الانابيب البترولية الذي يصل المنبع بالمصفاة ، هذا إلى جانب الالتزامات التي ترى انكلترة انها ملزمة بهـا ، وهي حماية المشيخات العربية التي ارتبطت بانكلترة بمعاهدات أو كانت على علاقة حسنة معها ؛ وذلك في حالة تعرض استقلالها للخطر .

بريطانية تستبق الاحداث

وكان موقف بريطانية حرجـاً بالنسبة للشيخ خزعل الذي كان يحكم عربستان بقوة الأمر الواقع ، وكان تابعاً اسمياً لشاه فـارس ، وبوساطته استأجرت شركة النفط الانكلو ايرانية جزءاً من جزيرة عبـادان لانشاء مصفـاة البترول مع السماح للسلطات البريطانية بالاشراف على حفظ النظام في منطقة العمليات البترولية ، وكان كل من الشيخ والشركة سيصبح مركزه مهدداً من قبيلة بختياري التي تطل من فوق جبال زغروس على عربستان التي تقع فيهـا آبار النفط ، تلك القبيلة التي كانت على خـلاف مستديم مع الشركة والشيخ ، وكان متوقعاً أن تلك القبيلة لن تتوانى عن انتهاز فرصة نشوب الحرب ، ودخول تركية غمارهـا ، لخلق المشاكل ضد

الشركة والشيخ خزعل معاً .

هذا ما كانت تخشاه بريطانية في الدرجة الاولى في الشطر الشرقي من الخليج ، أما الشيوخ العرب الآخرون الواقعة اماراتهم على الساحل الغربي للخليج فكان الأمر بالنسبة لهم يختلف كلياً ، وكان الموقف مأموناً إلى درجة ما ، ولاسيا إذا علمنا أن ازدياد قوة أمير نجد ، عبد العزيز بن سعود ، الذي نجح في اقـــامة امارته في اعماق بادية نجد ، وقد اصبح حاجزاً بين الامبراطورية العثمانية وبين تلك المشيخات التي كانت تأمن جانبه ، بسبب ما كان بينه وبين انكلترة من علاقـات غير رسمية أرسى دعائمها كبير المقيمين في الخليج في ذلك الحين .

ولم يكن ليغرب عن ذهن انكلترة لحظـــة ان الهيمنة على الخليج العربي والمحافظة على مركزها فيه ، والاحتفاظ بحـالة السلم والتفاهم القائمة بين المحميات ، وتأمين سيادة الأسطول البريطاني إذا مـا حاول الألمان التسلل إلى ميـــاه الخليج العليا ، كل ذلك سيمنع تقدم الاتراك والالمـان شرقاً نحو الخليج العربي وبلاد فارس ، وسيبعد بالتالي أي خطر قد يحيق بطريق الهند ، فكان على بريطانية والحالة هذه ، ان تعـــالج بحكمتها أكثر الامور حساسية في ذلك الوقت – وقد اعلنت الحرب بينها وبين ألمانية – ونعني بـه علاقاتها مع تركية ، لأن تركية مـا دامت باقية على الحياد ، فان ذلك مما يسر انكلترة ويجنبها فتح جبهات شرقية جديدة على طريق الهند .

لهذا تجنبت انكلترة توقيع أية معـــاهدة رسمية مع أمير نجد الذي كان قد استولى على اقليم تابع لتركية هو اقليم الحسا ، والذي كان ينازل عميلاً تركياً هو ابن الرشيد أمير شمر ، لكن ذلك لم يمنع انكلترة من اقامة علاقات غير رسمية مع أمير نجد ، فاوفدت اليه الميجر شكسبير في الرياض لتبادل الاتصالات الودية معه ، كما لم يمنعها من اتخاذ قرار بحماية المصالح البترولية الانكليزية ، فابحر من الهند إلى عبادان لواء من الجيش الهندي ، وبذا أكدت بريطانية للحكام المحليين انها على قدم الاستعداد لشد ازرهم إذا ما وقع عليهم هجوم تركي ، فلما وصل اللواء إلى عبادان

في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٤ م (١٣٣٣ هـ)، كانت تركية قد دخلت الحرب إلى جانب المانية .

وسموس : لورنس الالمان

وهكذا تكون انكلترة قد استبقت الأحداث ، وتمركزت بقوتها في رأس الخليج العربي ، ولما تكلم المدفع خرست ألسنة الديبلوماسية ، إذ لم تعد تجدي نفعاً ، بينما أعلنت ايران وقوفها على الحياد ، رغم اننا سنراها لا تستطيع الدفاع عن حيادها ، حين يصبح الجزء الشمالي الغربي من بلادها ميدان عراك وصراع بين الروس المتمركزين في القوقاز ، وبين العثمانيين الذين هم في آسية الصغرى ، إلى جانب ما يقوم به لورنس الالمان واسمه «وسموس» من اثارة القبائل في الشمال الغربي من فارس على البريطانيين ، إذ كان الالمان في سني ما قبل الحرب يعملون على تطوير مصالحهم التجارية في تلك المنطقة وترسيخ علاقاتهم مع الفرس، فأصبحوا في سني الحرب في مركز يمكنهم من اثارة القبائل ، وبعث روح الكره ضد البريطانيين والروس الذين خرقوا حرمة الحياد الفارسي منذ الأسابيع الأولى للحرب .

وكانت المانية بسبب حياد فارس ، ما يزال لها في تلك البلاد قنصل وممثل تجاري ، وكان وسموس اثناء وجوده في بوشير – قنصلاً لبلاده – قد قام باتصالات ناجحة مع قبائل الجنوب، وأجرى محاولات شتى للايقاع بالمصالح البريطانية وخططها الحربية ، منها انه حاول جر افغانستان للحرب ضد انكلترة إلى جانب المانية ، كما حاول اثارة الأكراد في شمالي غربي العراق ضد الانكليز ، فلم يلق في كلتا المحاولتين نجاحاً ملموساً، بقدر ما نجح في خطة أخرى قادها ضد الانكليز في جنوبي فارس حيث تقوم شركة النفط، فحاصر لمدة قصيرة دار المعتمد البريطاني في بوشير، واللواء الهندي الذي وصل إلى هنالك ،كما استولى في شيراز على فرع البنك البريطاني ، وسجن الرعايا الانكليز .

لكن انكلترة لم تقف مكتوفة اليدين ، فقد عمدت إلى تشكيل فرقة الرماة

الفرس ، وهي مؤلفة من ضباط بريطانيين وجنود من الفرس بقيادة سايكس الذي سبق له ان شغل منصب قنصل لبلاده في فارس ، وكانت له اتصالات وثيقة مع كثير من الهيئات والقبائل الفارسية ، الأمر الذي ضاءل من نشاط وسموس ، وشل حركته ، ثم ألجأه إلى التواري ، وما عتم ان ألقي القبض عليه وسيق إلى الاعتقال .

تطويق فارس من كل مكان

تلك هي التحركات التي كانت تجري في فارس، اما العمليات الحربية في العراق فقد تمت على الشكل التالي :

لقد نزلت في الفاو عند مدخل شط العرب قوة استكشافية هندية وذلك بمساعدة سفن صغيرة وكاسحات ألغام من سلاح البحرية الملكية ، وذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ (١٣٣٣ هـ) ، وما لبث هدير المدافع ان أخذ يجلجل مزلزلاً الأرض تحت أقدام العثمانيين الذين لم يهتموا بهذا المركز الحساس الذي يعد من أهم واجهات بلاد الرافدين على الخليج ، حتى ان الموقع العثماني لم يثبت في وجوه البريطانيين أكثر من ساعة واحدة أضحى بعدها في أيدي الانكليز، ثم جعلت تلك القوة تتقدم نحو البلدة فاحتلتها ، وجاءها الامداد فتقدمت إلى موقع القرنة عند ملتقى دجلة والفرات، وكانت متجهة إلى الشمال،حين أقدم الأتراك على خرق حياد فارس ، وتقدموا نحو عربستان طمعاً في احتلال منابع البترول .

وحينئذ توقف تقدم الانكليز موقتاً في العراق الأسفل ، وتحول شرقاً إلى دلتا نهر قارون ، فوصلت القوات البريطانية إلى الأهواز ، وأسست ما بين الأهواز والقرنة رأس جسر قوياً ، وكان لا بد لهذه القوات من حماية ظهرها ، أي حماية امارتي الكويت والمحمرة ، فيما إذا ظهر في الجنوب تقدم تركي الماني في منطقة الخليج الأعلى .

وأمام ما قد يتمخض عنه الغد القريب ، كان لا بد من اتخاذ استراتيجية عسكرية وسياسية ، وبمعنى آخر دق وتد التفرقة ما بين سكان البلاد العرب

وحكامهم من الأتراك ، بوعد بقطعه الانكليز بتحريرهم من الأتراك يكون كافيا لعرقلة توجيه حملة تركية نحو الجنوب ، وكذلك كان الاسراع بالزحف العسكري نحو بغداد حرياً بأن يشل المقاومة التركية ويقطع الاتصال بينها وبين ما قد يحدث من قلاقل واضطرابات في منطقة عربستان .

وفي الوقت نفسه كانت قوة بريطانية تحت قيادة الجنرال ويلسون تعرف باسم « حزام شرقي فارس » تتخذ مراكز لها على طول الحدود الهندية الافغانية من البحر الهندي متعمقة إلى الشمال حتى بيرغاند ، فاستطاعت الاتصال مع القوات الروسية شمالاً ، وكانت مهمتها منع تهريب الأسلحة إلى فارس ، وايقاف ما يقوم به الالمان هناك من أعمال التمرد ، وبهذا تكون فارس قد طوّقت من الشمال والجنوب ، وقليلاً من الناحية الغربية .

الهجوم على العراق

وقد أغنى هذا الاجراء عن بذل أي وعد للعرب يومذاك ، ما دام الحلفاء يتلقون المساعدات الفعالة منهم ، وما دامت القوات التركية المرابطة في الأهواز ستصبح بعد قليل شبه محاصرة ، وقد تشرع بالانسحاب غرباً لئلا تقع في الأسر ، وتحقيقاً لهذا الغرض قام الانكليز باحتلال ولاية البصرة بكاملها ، وكانت معركة الشعيبة التي دارت رحاها في نيسان سنة ١٩١٥ (١٣٣٤ هـ) من المعارك العنيفة والقاصمة للقوات العثمانية ، حتى ان القائد العثماني لم يتردد في الانتحار مؤثراً الموت على مواجهة ذل الهزيمة عندما وقف على نتائج تلك المعركة رغم ما أعدّه لها الأتراك.

ثم تتبع البريطانيون الجنود العثمانيين المنكفئين إلى مدينة العمارة التي آثرت الاستسلام مع واليها والحامية التي يبلغ عددها اكثر من الفي جندي وضابط ، ليواصلوا زحفهم مستهدفين مركز سوق الشيخ الذي احتلوه في ٦ تموز ١٩١٥ م (١٣٣٤ هـ) ، وليتابعوا بعد ذلك تقدمهم إلى الناصرية التي استسلمت دون قتال ، وبذا اصبح الطريق مفتوحاً امام القوات البريطانية للتقدم شمالاً نحو الكوت التي حصنها العثمانيون قبل أن يصلها البريطانيون ، وفي ٢٦ ايلول ١٩١٥ م (١٣٣٤ هـ)

حصل أول اشتباك ما بين القوتين ، وكانت الحامية التركية تبلغ ستة الاف جندي من العرب المكرهين على القتال إلى جانب العثمانيين ، ومع ذلك كان القتال ضارياً والمقاومة عنيفة ، حتى خشي البريطانيون أن يكون ذلك التاريخ آخر يوم من أيام تقدمهم في الأراضي العراقية ، ولكنهم فوجئوا في اليوم التالي بانسحاب الحامية تحت استار الظلام في إتجاه بغداد ، فاحتل الانكليز المدينة وعززوا فيها مراكزهم، ليتعقبوا بعدها العثمانيين خشية أن ينجح هؤلاء بلم شعثهم وتنظيم صفوفهم .

وفي الطريق إلى بغداد ، اصطدمت القوات البريطانية بقوات عثمانية وافدة من الشمال ووجهتها الكوت ، وكان مركز الصدام في موقع يدعى « سليمان باشا » فـأسفر عن تقهقر البريطانيين وانكفائهم منهزمين إلى كوت العمارة ، والقوات العثمانية جادة في تعقبهم حتى بلغت الكوت وضربت عليها الحصار وذلك في ٢٥ تشرين الثـاني ١٩١٥ م (١٣٣٤ ﻫ) ، وفي ٧ كانون احكم العثمانيون الطوق على البريطانيين وأخذوا بالتشديد عليهم ، ثم قاموا بهجوم مركز على المدينة في ٩ و ١٢ و ٢٤ من الشهر نفسه لتحطيم معنويات المحاصرين .

ولمـا رأى القائد البريطاني تاونستد أن الوضع حرج جداً بالنسبة له وللقوات البريطانية المحاصرة طلب النجدة من قيادته للقيام بهجوم بري وبحري لتخفيف الضغط الذي يواجهه، فاجيب إلى طلبه واصطدمت القوة البريطانية المنجدة بالقوات العثمانية في ٤ كانون الثاني ١٩١٦ م (١٣٣٥ ﻫ) في موقع يقـال له الشيخ سعد ، لكن الانكليز آبوا بالخسران ولم يستطيعوا إلى فك الحصار سبيلاً ، كما أصيبوا بضربات عنيفة وتكبدوا خسائر فادحة بالرجال والعتاد .

وفي ٢٩ نيسان سنة ١٩١٦ م (١٣٣٥ ﻫ) انـذر القـائد العثماني نور الدين بك تاونستد بالاستسلام دون قيد أو شرط ، فلم يقدر إلا أن ينصاع للأمر الواقع بعد أن فشل برشوة القائد التركي بمليون ليرة ذهبية،على أن يسمح له ولجنوده بالانسحاب بعد تسليم اسلحتهم والتعهد بعدم محـاربة العثمانيين فيما بعد ، وقد نقلت القوات العثمانية حوالي ثلاثة عشر الف جندي بريطاني أسير إلى الأناضول[1] ، وكانت هذه

١- The Persian Gulf in the Twentieth Century. P. 47

اكبر مذلة نزلت بالبريطانيين آنذاك ، حتى انها حركت الشعب البريطاني ضد حكومته وقادته العسكريين .

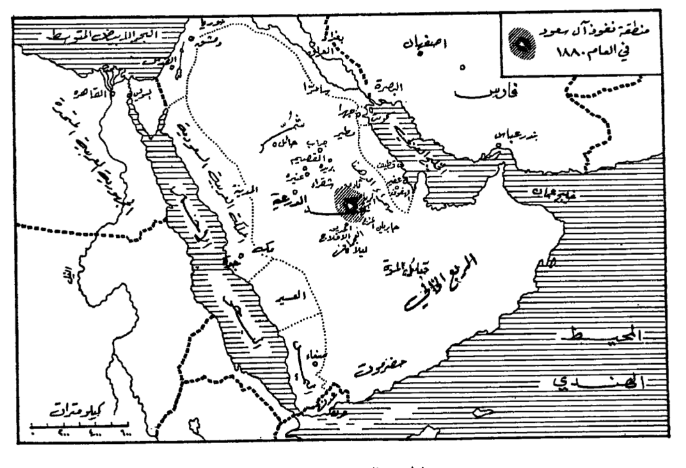
بريطانية تفاوض العرب

وإذ كانت القوة البريطانية محاصرة في الكوت ، شعرت انكلترة بتأخرها في مسألة هي غاية في الأهمية ، ونعني بها مفاوضة العرب ، ووعدهم بالتحرر من النير التركي من جهة ، ووضع حد للخلافات القائمة بين المشيخات العربية القائمة على الخليج من جهة ثانية ، فان ذلك من شأنه أن يمد الانكليز بمساعدات عربية ، وأن يؤمن مؤخرة الجيش الانكليزي المقاتل في بلاد الرافدين .

وكانت السلطات البريطانية في القاهرة منذ بداية الحرب تجري مفاوضات مع شريف مكة لدعمه في اعلان ثورة مسلحة عن الاتراك ، وفي نهاية عام ١٩١٥ (١٣٣٤ هـ) كادت المفاوضات تنتهي مع الشريف حسين ، لتبدأ مفاوضات غيرها مع امير نجد الذي كان بينه وبين شريف مكة عداء مستحكم ، وكان أمير نجد يقف في قلب الجزيرة موقفاً محرجاً للقوات البريطانية في العراق . فابن سعود كان يحارب في الجنوب ابن الرشيد ، وكانت منطقة نفوذه تمتد نحو الشمال حتى قبيلة عنزة القوية والمتاخمة لحدود العراق ، وكان رئيس تلك القبيلة فهد بن سعود تربطه ببريطانية علاقات ودية ، وكانت الامارات العربية في كل من الكويت والبحرين وقطر تخشى ضمناً ، رغم انها تتمتع بالحماية البريطانية ، من تضخم نفوذ أمير نجد ، فكان والحالة هذه لا بد من تقريب وجهات النظر بين كل اولئك الفرقاء ، لهذا فصلت بريطانية بين اتفاقاتها مع شريف مكة ، وبين اتفاقاتها مع امير نجد ، فجعلت السلطات البريطانية في القاهرة تفاوض مكة ، وتركت امر مفاوضة الرياض للسير كوكس كبير المقيمين السياسيين في منطقة الخليج نيابة عن حكومة صاحبة الجلالة .

وقد تم عقد معاهدة دارين مع ابن سعود ، وهذا أهم ما فيها :

١ - اعتراف انكلترة بابن سعود وسلالته حكاماً في نجد والحسا .



الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٤

٢ – تقديم المعونة الانكليزية لابن سعود إذا ما تعرض لخطر خارجي .
٣ – اشراف بريطانية على الشؤون الخارجية لنجد .
٤ – يَعِد الأمير ألا يؤجر أيّ جزء من أرضه إلا بموافقة بريطانية .
٥ – يعد الأمير ان يبقي طريق الحج مفتوحاً للحجاج .
٦ – يعد الأمير بالامتناع عن أي تدخل او اعتداء على امارات الكويت والبحرين وقطر .

وتطميناً لشيوخ هذه الامارات عقد اجتماع في البصرة في ايلول سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ ﻫ) حضره شيخ الكويت ، وشيخ المحمرة ، والشيخ فهد زعيم عنزة ، كما حضره كوكس ايضاً ، وأزيلت في ذلك الاجتماع سائر الخلافات ، وقرّبت وجهات النظر .

لكن خلافات أخرى في وجهات النظر نشبت حول السياسة العربية بين السلطات البريطانية في الهند التي كانت تشرف على العلاقات البريطانية العربية في منطقة الخليج وتوجهها ، وبين « المكتب العربي » التابع لقيادة القوات البريطانية في القاهرة ، والذي كان يضم بعض الخبراء العرب ويدير العلاقات البريطانية مع سورية والحجاز ، ويتبنى أو يتظاهر انه يتبنى وجهة نظر الشريف حسين . وسبب الخلاف هو التباين في وجهات النظر ، فبينما كانت سلطات الهند تميل إلى الاعتقاد بأن علاقاتها مع العرب لا تهدف إلا لتأمين طريق الهند ، وان كل سياستها في الجزيرة العربية وبلاد الرافدين انما يجب ان تتبع خط السياسة البريطانية الهندية بتقوية علاقاتها مع الامارات والمشيخات ، وعدم التفكير في الوحدة العربية التي بدأ خيالها يراود أحلام بعض الشخصيات العربية آنذاك ، كان « المكتب العربي » في القاهرة قد تبنى سياسة تهدف إلى اقامة دولة عربية كونفدرالية تحت الحماية البريطانية ، تحدّ من أطماع فرنسة في المنطقة العربية وتؤمن في الوقت نفسه طريق الهند .

وهكذا تراءى لرجال السياسة لحين من الزمن ، ان الجزيرة والعراق كانتا تداران من نيو دلهي مباشرة ، بينما الحجاز وسورية تعالج مشاكلها في مصر .

بريطانية تنجز احتلال العراق

ولم تكن الدول المتحاربة لتلهو بالمناقشات حول مستقبل الأمم عن جبهات الحرب ، فان الأتراك استغلوا فرصة ظفرهم في العزيزية والكوت ، وشنوا في آذار ١٩١٦ هجوماً في الشمال على الروس في فارس فبلغوا خط قزوين – همذان – قصر شيرين،وبهذا تجدد تهديد آبار البترول الواقعة جنوباً، لكن الهجوم الانكليزي تجدد في العراق ، وكان قائد الجبهة الانكليزية هذه المرة الجنرال ستانلي مود الذي زود بكافة الصلاحيات ، وجُعل ارتباطه مع لندن مباشرة بدلاً من حكومة الهند في نيو دلهي.

وقد ظل هذا العسكري يستعد لخوض معركة فاصلة مع العثمانيين طيلة عام ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) مكدساً الذخائر فوق الذخائر ، والعتاد فوق العتاد ، تقله اليه السفن عبر شط العرب حيث أجري تخزينها في سواحل الخليج العربي ، حتى إذا تم له ما أراد ، شرع في كانون الأول ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) بالزحف في ملتقى النهرين : دجلة والفرات ، واشتد أوار المعارك ما بين الجيشين الانكليزي والعثماني متناوبين الكر والفر ، ، وفي ١٧ شباط سنة ١٩١٧ (١٣٣٦ هـ) هاجم البريطانيون موقع الصناعية ، فدفع العثمانيون إلى حومة هذه المعركة بأكثر قواتهم دفاعاً عن هذا الموقع ، واستغل القائد البريطاني انغمار الجند العثمانيين بكل زخمهم في هذه المعركة ، ليقوم بهجوم آخر عبر نهر دجلة ، فخاف العثمانيون مغبة الهجوم الجديد وحاولوا الارتداد والانسحاب لكنهم وجدوا الطريق مقفلة ، فساد الاضطراب صفوفهم ، وعمتها الفوضى ، وانكفأوا هاربين إلى بغداد .

وعادت الكوت مجدداً إلى الأيدي البريطانية ، بينما تابعت قواتها تتعقب فلول العثمانيين المنهزمة .

وفي ٢٣ – ٢٧ شباط سنة ١٩١٧ (١٣٣٦ هـ) بلغ البريطانيون منطقة نهر ديالي وقد غدوا على قيد أميال قليلة من بغداد ، ثم ضربوا حصارهم في ١٠ آذار على مدينة الرشيد الخالدة لينسحب منها العثمانيون منهزمين ، وليدخلها القائد البريطاني على رأس جيشه في ١١ آذار، وذلك قبل أيام قلائل من الثورة في روسية القيصرية،

ثم جعلت القوات الانكليزية تتجه من بغـــداد شمالاً نحو طريق الموصل ، وكان الروس قد تقدموا جنوباً في بلاد فارس في الأشهر الأخيرة، وهكذا أقفلت الثغرة التي كانت تفصل بين الحلفاء ، وأصبح الأتراك في الموصل في وضع حرج لكن الثورة الروسية خففت الضغط عنهم في الشمال .

ولما حل كانون الأول من عام ١٩١٧ م (١٣٣٦ هـ) كانت روسية في حالة هدنة مع تركية ، إذ انسحبت القوات الروسية من آسية الصغرى ، ومن بلاد فارس ، فاحتلت القوات التركية هذه المناطق فور انسحاب الروس ، وظلت هنـاك حتى وقعت الحكومة العثمانية وثيقة الهدنة .

لكن الزحف الانكليزي نحو الشمال لم يتوقف حتى احتل الموصل ، وبـــذا اصبحت العراق كلها تحت الاحتلال الانكليزي ، واستدعى الأمر اقـــامة ادارة مدنية في البلاد .

إلا أن بغداد كانت وقتـذاك تعج بالمشاكل السياسية على نطـــاق أوسع من المشاكل العسكرية ، وبالرغم من أن انسحاب الموظفين الاتراك كان قد تم نهائياً ، فان رجالات العرب لم يقدموا على اية خطوة للتعاون مع السلطات المحتلة ، إذ كانوا غير متأكدين من نتيجـة الحرب ، ولا واثقين من نوايا الانكليز ، فـــاضطرت السلطات المحتلة إلى فرز عدد من افراد القوات البريطانية تنقصهم الخبرة ليبـاشروا الأعمـــال الادارية في بلاد الرافدين ، بالاضافة إلى أن مشاكل كثيرة نجمت عن اصطدام أوامر كوكس الحاكم المدني في بغداد بأوامر الجنرال مود القائد العام وخلفائه ، وكذلك ما نتج عن تأييد «المكتب العربي» في القاهرة لمطالب الشريف حسين ، الأمر الذي خلق بين رجالات العراق حالة من القلق والتطلع ستتمخض عنها كثير من المشاكل المعقدة في فترة ما بعد الحرب .

الخليج بعد الحرب العالمية الأولى

بريطانية تحاول ان تجعل من ايران محمية تابعة لها

لقد القت الدولة العثمانية سلاحها ، واستسلمت في كافة ميادين القتال إلى قوات الحلفاء دون قيد أو شرط ، وذلك إثر توقيع الهدنة في نهـــاية تشرين الأول سنة ١٩١٨ م (١٣٣٧ ﻫ) ، وجلا الأتراك عن شمال غربي فارس ، وكانوا قد احتلوهـا بعد انسحاب روسية من الحرب في أواخر عـــام ١٩١٧ (١٣٣٦ ﻫ) كما جلوا عن باطوم وباكو ، ولما كانت القوات البريطانية تحتل وقتذاك جنوبي فـارس والبصرة وبغداد ، فقد اصبح من البدهي أن تزحف هذه القوات إلى الشمال ، وان تحل محل القوات التركية المستسلمة .

وكان على القوات البريطانية أن تحافظ على خطوط المواصلات المارة عبر فارس من العراق حتى قزوين فمشهد ، كما كان عليها أن تتصدى لمختلف الثورات المعاكسة التي قد تأتي من الشمال أو تظهر في البلاد الفارسية نفسها كثورة كوجوك خـان ، وأن تنقذ بعض المقاطعات التي نهبتها القوات التركية من المجاعة ، إلى جانب مـــا كانت تفرض عليها الهدنة من مسؤوليات في حمـاية الجاليات الآشورية والأرمنية ، وكان الأتراك قد اجلوهم عن اماكن اقامتهم .

وهكذا ، يمكن القول بان الفوضى كانت ضاربة اطنابها في البلاد الفـــارسية نتيجة الحرب التي دارت في اراضيها . مع أن حكومتها كانت قد التزمت جـانب

الحياد في الحرب ، لكنها لم تكن تملك من الأمر شيئاً ، واللواء الفارسي القوزاقي ، وهو القوة الفعالة في فارس ، كان مشكوكاً في ولائه لحكومة فارس ، والخزينة الفارسية كانت مفلسة ، وقسم كبير من السكان كانوا يتضورون جوعاً ، بينما الخوف من امتداد نفوذ الشيوعية إلى اقاليم فارس الشمالية كان قائماً .

كل هذه المشاكل الآخذ بعضها برقاب بعض ، كانت تواجه القوات الانكليزية المحتلة ، التي كان عليها في نفس الوقت أن تؤازر الروس البيض في الشمال ضد الروس الحمر ، فضلاً عن أطماع الانكليز في بلاد فارس ، وانها كانت باحتلالهم لها صلة الوصل بين الهند ومصر وسورية إذ كانوا آنذاك قد احتلوا العراق وسورية وفلسطين .

وكانت فارس تطمع في ان تمثل في مؤتمر الصلح في باريس نظراً لما قدمته من تضحيات للحلفاء بالاموال والأرواح ولكن بريطانية كانت تقاوم هذه المحاولات ، وتعاكس وفدها غير الرسمي الذي أمّ باريس ، من جهة ، وتفاوضها في طهران من جهة اخرى من اجل عقد اتفاقية كانت – لو صُدّقت – ستنزل بمركز فارس إلى مستوى محمية بريطانية ، وقد كانت هذه الاتفاقية تنص على تعيين مستشارين بريطانيين لاعادة تنظيم الجيش الفارسي والخزينة الفارسية ، وان تمتنع فارس عن المطالبة بأية تعويضات عما تدعي بأن القوات البريطانية قد أحدثته في بلادها من خراب وتدمير [1] .

وإلى جانب هذا المخطط الاستعماري كانت هناك خطة تهدف إلى جعل العراق مستعمرة تاج ، وجعل مصر والسودان احدى الممتلكات البريطانية في المستقبل ، واقامة دولة عربية اتحادية من شمالي سورية ممتدة إلى عدن ومرتبطة بمعاهدة مع بريطانية على غرار معاهداتها مع مشيخات الخليج .

مشاريع بريطانية الاستعمارية وردود الفعل الوطنية في الشرق الادنى

لكن بريطانية استفاقت من احلامها بعد عامين ، على الواقع الصحيح للشعوب

---

١ – انظر The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 56-57

التي وقعت في براثن استعمارهـــا ، فقد ثار العراق ، واضطربت مصر ، ووقعت سورية تحت الانتداب الفرنسي ، ولم يعـد لانكلترة من مكتسباتها غير المنطقة الفارسية التي تحتلها ، وبالرغم من ان حامياتها كانت في تلك البلاد الجائعة مصدر خير للشعب ، فقد كان ينظر اليها كوصمة عار ، منتقداً احتلالها لبلاده ، حاملاً على المعاهدة الانكلو فارسية حملات شديدة .

ومع هذا ، فقد فشل المشروع البريطاني في محـــاولة تطبيقه ، وذلك لأسباب كثيرة منها سوء الادارة البريطانية في الشرق ، وإلحاح الشعب البريطـــاني على التعجيل بتسريح ابنائه الذين ظلوا حتى بعد انتهـــاء الحرب يحاربون في روسية ، واعادتهم إلى أهليهم ، لكن الأهم من ذلك كله ان المشروع كان منافياً تماماً لروح العصر ، وقد ناهضته الروح الشعبية في جميع بلدان الشرق الأدنى ، حتى اضطرت بريطانية في نهاية المطاف أن تذعن لرغبات الشعوب في الحرية والاستقلال ، فمنح العراق حكماً ذاتيـاً ، وانهيت الحماية البريطـــانية في مصر ، وشرعت القوات الانكليزية المحاربة إلى جانب الروس البيض تتراجع ، وقد قررت الانسحاب من الميدان الروسي نهائياً .

ويضاف إلى هذا كله التنافس الانكليزي الفرنسي في الشرق الأدنى حول حصة فرنسة ، وحقها في حكم رقعة من الشرق الأدنى تعويضاً لهـــا عن تضحياتها الجسيمة في الحرب ، ولا سيما بعد أن لاح في الأفق امكان العثور على البترول في الموصل ، ولأنها كانت تعارض في التوسع الانكليزي .

كما ان اميركة صاحبة مبدأ « الباب المفتوح » كانت تتحين الفرص لتنال حصة من أرباح الحرب التي سيغنمها حلفاؤها ، الأمر الذي حمل كلًا من اميركة وفرنسة على اعلان عدائها للاتفاقية الانكلو فارسية ، إلى جانب معارضة الشعب الفارسي لها ، مما أدى إلى امتناع الوزارة الفارسية عن تقديمها إلى المجلس .

وهكذا بعد ان انسحبت القوات البريطانية المحاربة في جنوب روسية من باكو عام ١٩١٨ م ١٣٣٧ هـ ، ثم عادت فاحتلتها عام ١٩١٩ م ١٣٣٨ هـ ، جعلت تلك القوات تنسحب من القوقاز ، ومنطقة بحر قزوين ، ثم من فارس نفسها ، دون أن

تحصل على أية نتيجة ايجابية من جهة المعاهدة أو أية محبة في قلوب الايرانيين .
واتجه الفرس حينذاك إلى موسكو التي ألغت مرة واحدة جميع الامتيازات التي نالها القياصرة في فارس ، والتي تتناقض والسيادة الفارسية ، وتنازلت عن جميع الديون السابقة التي لروسية على فارس ، ناهيك عن تنازلها عن جميع الممتلكات الروسية في فارس وتسليمها إلى الحكومة الفارسية ، وتلا ذلك توقيع معاهدة ما بين الاتحاد السوفياتي وفارس عام ١٩٢١ م ١٣٤٠هـ نظمت بموجبها علاقات الجوار والحدود المشتركة شريطة ألا تمنح فارس لأية دولة أجنبية شيئاً من الامتيازات التي تخلت عنها روسية لها .
وفي تلك الاثناء وقع انقلاب ابيض في فارس أطاح بالحكومة القائمة بقيادة رضا خان أحد مشاهير القواد الفرس الذي استعاد سيادة فارس على أراضيها ، وقمع ثورة كوجوك خان ، وقاوم الحركات الانفصالية المشايعة للاتحاد السوفياتي في الشمال ، واعتقل الشيخ خزعل شيخ المحمرة حاضرة عربستان ، وروّض القبائل الجنوبية التي كانت شبه مستقلة عن الحكومة المركزية ، ثم خلع الشاه احمد آخر حكام القاجار ، ونصب نفسه شاهنشاه (ملك الملوك) وذلك عام ١٩٣٥ م ١٣٤٤ هـ ، وهكذا تربع على عرش الأكاسرة رضا بهلوي ، وتولت حكم فارس أسرة جديدة ما تزال تحكمها إلى اليوم .

الانتداب على العراق ومشكلاته

أما في العراق فقد واجهت بريطانية بعد الهدنة مشاكل خطيرة ، أولها مستقبل البلاد ، فان معاهدة سايكس بيكو قد سمحت لبريطانية باحتلال جنوبي العراق ، كما سمحت لفرنسة باحتلال الموصل ، ثم صدر في أواخر عام ١٩١٨ م ١٣٣٧ هـ بيان انكلو فرنسي هذا ملخصه :
« ان كلا من بريطانية وفرنسة قد أقدمتا على خوض الحرب بالشرق في سبيل تحرير الشعوب التي تعاني حكم الاتراك ، ومن أجل اقامة حكومات وطنية ، وهما تشجعان وتساعدان في تأسيس حكومتين محليتين في سورية والعراق اللتين

حررتها قوات الحلفاء ، وان يترك لكل من الشعبين فرصة الاختيار الحر لحكومته [1] »

لكن تأخر الحلفاء في التزاماتهم أدى إلى خلق اضطرابات محلية ازدادت حدة بعد مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م ١٣٣٩ هـ الذي وضع العراق تحت انتداب بريطانية ، واضطرت تعزيزات انكليزية ان تبحر من الهند إلى العراق .

والمشكلة الثانية التي اعترضت انكلترة في العراق هي شكل الحكم ، وكان العراق أميل إلى الحكم الملكي الدستوري، فاقترح اسم الشيخ خزعل أمير المحمرة، الذي هو من أصل عربي ، ويحكم في ايران قطر خوزستان العربي (عربستان) ، كما اقترح اسم السيد طالب النقيب أحد أشراف البصرة ، لكن إبعاد فيصل عن عرش سورية ، وهو الذي كان أكثر ضباطه الذين خاضوا معه الثورة العربية من العراق ، ثم اضطرار الحلفاء للوفاء بوعودهم للشريف حسين وأبنائه ، فيما يتعلق بمنح العرب استقلالهم ، وبتمليك الأسرة الهاشمية عرشاً عربياً ، كل هذه الأمور حددت معالم مستقبل العراق ، وجعلت الحكومة الانكليزية تفكر بتنصيب فيصل على عرشه .

واصطدمت الحكومة الانكليزية خلال ذلك بحركة تزعمها كيرزون الذي تمسك بالمعاهدة الانكلو فارسية السالفة ، في الوقت الذي كان الاتجاه الانكليزي يحبذ الجلاء عن العراق بعد تنصيب فيصل ، ثم ظهر في الجو عامل جديد هو وثبة تركية بقيادة مصطفى كمال الذي كان يُخشى من أن يحتل العراق إذا جلا الانكليز عنه باعتباره جزءاً من املاك تركية سابقاً . لذلك كله رأت انكلترة أن تنهج بالنسبة للعراق نهجاً وسطاً: أن تنشىء حكومة وطنية تحت الانتداب البريطاني، وعلى هذا انشىء مجلس اقليمي، واعلن عن قيام مملكة العراق،ورشح لها فيصل الهاشمي الذي كانت الحكومة البريطانية ترتبط به بروابط شرف تجاه قيادته للثورة العربية . وسرعان ما صوت له الشعب العراقي،ونودي به ملكاً في آب عام١٩٢٠م(١٣٣٩هـ)

---

١ ــ المرجع السابق ص ٦٢

فكان أول عمل قام به فيصل أن دخل مع انكلترة في مفاوضات لتوقيع معاهدة ينهي الانتداب بموجبها بعد عدد من السنين ، ودخل العراق عصبة الامم .

وكانت المشكلة الثالثة هي حدود العراق الشمالية أي ولاية الموصل التي كانت قبلةَ الأمل منذ سنوات مـا قبل الحرب حين منحت الحكومة العثمانية احدى الشركات حق التنقيب عن البترول في بغداد والموصل، فلما انقضت الحرب اختلفت انكلترة التي اخذت تمثل مطالب العراق بضم الموصل اليه مع تركية التي كانت تطالب باحتلالها ، ثم قبل الطرفان بتحكيم لجنة توفدها عصبة الامم ، وقد اقرت اللجنة الحاق الموصل بالعراق .

والمشكلة الرابعة ، هي وجود اقليات عرقيـة ودينية في شمـال العراق ، كالاشوريين والاكراد ، وبعض الأتراك ، الأمر الذي استلزم كثيراً من الحكمة لتهدئة الامور ، واحلال التفاهم محل الخصام ، بالرغم من أن كل اقليـة كانت مـا تزال تبيّت في نفسها امراً يعززه الاستعمار ويذكيه ، وهو مـا بـدا من ثورة الاشوريين بعد ذلك بسنين ، ومن مطالبة بعض الأكراد المتطرفين بالانفصال أو بالحكم الذاتي وهي الحركة التي نعاصرها اليوم في عام ١٩٦٥ م (١٣٨٥ هـ) ونحن نضع هذا الكتاب بين أيدي القراء .

ذلك هو وضع العراق بالنسبة لبريطانية ، أما بالنسبة للمواطنين العراقيين ، فقد أدركوا منذ البدء زيف ادعاءات الحلفاء عن الديمقراطية والحرية وتقرير المصير، ولم يؤخذوا بأكذوبة الانتداب التي حلت محل الاحتلال تحت ستار الاخـذ بيد العراق نحو التحرر والاستقلال ، وايقنوا بأن هذا الانتداب ليس في حقيقة الأمر سوى استعمار عسكري مباشر لا يختلف عن أي استعمار آخر ،فقد «كان هم ضباط الارتباط البريطانيين والموظفين السياسيين ، ودوائرهم العسكرية والمدنية أن يثبتوا المصالح البريطانية في الدرجة الأولى ، وأن يوسعوا نفوذ السفارة البريطانية بين العشائر ، وأن يجذبوا إلى جانبهم متنفذي الأقضية والقصبات ولا سيما تلك التي تكون نائية عن العاصمة بغداد ، مستهينين بمشاعر السكان وأمانيهم الوطنية ،متناسين تأثير النهضة العربية الشاملة في ايقـاظ المشاعر الوطنية عنـد الشعب العربي في

العراق[1] » وهب هذا الشعب يدافع عن حقه ومصيره « فكانت الثورة التحررية الأولى التي أعلنهـــا العراق سنة ١٩٢٠ – ١٩٢١ م (١٣٣٩ – ١٣٤٠ هـ) ضد الجيوش الانكليزية المحتلة واحدة من هذه المعارك ، فاشتركت فيها جماهير الشعب في المدن الكبرى كبغداد والنجف وكربلاء والحلة والناصرية وأكثر القبـــائل الفراتية في العراق الأوسط ، وساندها رجال الدين في النجف الأشرف وفي بغداد والموصل بفتواهم ضد الحكم الدخيل . وخاضت جحافل الثورة معارك دموية عنيفة في الرميثة والرارنجية والسماوة والشامية وشتاتة ، وقدمت من التضحيات ، ما هي قمينة به كل ثورة مسلحـــة ضد الاستعمار[2] » وتبع تلك الثورة الأولى ثورات وانتفاضات .

سطوع نجم ابن سعود في الجزيرة العربية

كانت انكلترة وابن سعود مرتبطين بمعاهدة عـام ١٩١٥ م ١٣٣٤ هـ السالفة الذكر ، وقد أمدته انكلترة في حربه مع ابن الرشيد، وفي عام ١٩١٧ م ١٣٣٦ هـ كانت قوات الشريف حسين قد احتلت العقبة ، وكانت طلبـــات الشريف تتزايد تبعاً لانتصاراته الأمر الذي قد يحدث صداماً بين الشريف وابن سعود ، فكان لا بد من حفظ السلام بين أميرين لكل منهما طموحـــه ومشاريعه في المستقبل ، وكانت انكلترة تحرص على ايجاد التوازن بين ابن سعود الذي كانت تطمع بأن يحمي ظهرها في حروبها في العراق ، وبـــين الشريف حسين الذي كانت صداقته تعضد موقف بريطانية في جبهة فلسطين .

واستطاعت بريطانية أن تحفظ السلام مدة الحرب ، وتحتفظ مع ذلك بصداقة كلا الأميرين ،لكن ما كادت الحرب تنتهي حتى عاد التناحر بين الخصمين على أشده، ولما قضى ابن سعود على ابن الرشيد نهائياً ،لجأت قبائل موالية له إلى العراق والأردن

---

١ – العراق الثائر » من منشورات الفرع الثقافي العسكري بدمشق ، ص ٢٢ – ٢٣

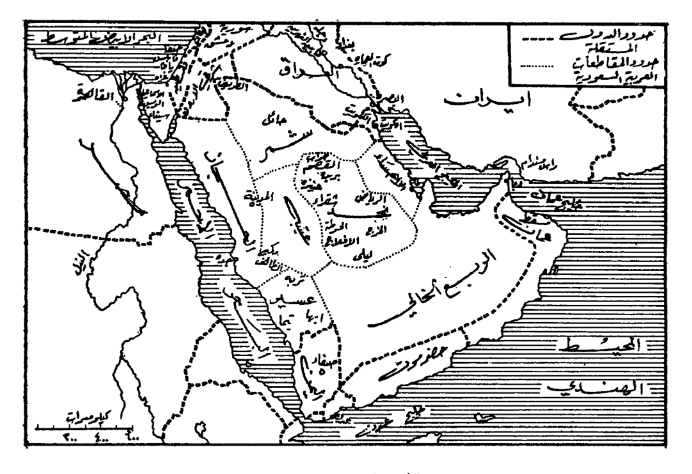
٢ – المرجع السابق ص ٢٥

الأمر الذي أشعل النار عام ١٩٢٢ م ١٣٤١ هـ بين ابن سعود والحكومة العراقية ، من جهة ، وبين السعوديين وحكومة شرقي الاردن من جهة ثانية ، وتدخلت القوات الانكليزية لحل المشكلة ، وحاولت أن تلعب دور الضامن للوضع القائم ، وذلك بربط ابن سعود والحكومة العراقية بمعاهدة المحمرة في حزيران عام ١٩٢٢ م ١٣٤١ هـ ، وجاء فيها ما معناه ان المعاهدة تصبح لاغية في حالة اقدام أحد الطرفين على انهاء علاقته مع بريطانية [١] .

لكن ابن سعود نتيجة لاثارة خلافات جديدة بينه وبين العراق والكويت أبى تصديق تلك المعاهدة ، فعقد اجتماع آخر في العقير لتحديد الحدود بين الاطراف الثلاثة ، وحضره ممثل عن انكلترة هو الميجر هولمز الذي حصل في نهاية الاجتماع من ابن سعود على امتياز للتنقيب عن البترول في الحسا، ثم أعقب ذلك الاجتماع اجتماعات كثيرة ، لم يتفق فيها على حل نهائي للحدود .

وإلى جانب هذه الخلافات على الحدود والاصطدامات التي كانت تجري بين قوات ابن سعود ، وقوات كل من العراق وشرقي الاردن ، كانت هناك على الحدود بين نجد والحجاز خلافات أخرى . وكان عناد الشريف حسين وتصلبه بمطالبة انكلترة الوفاء بالتزاماتها تجاهه وتجاه الدولة العربية الممتدة بحسب الاتفاقات السابقة ما بين جبال طوروس والبحر الهندي ، قد أدى كل ذلك إلى سحب انكلترة حمايتها له ، كما أوقفت المساعدات المالية التي تؤديها له ولابن سعود معاً . ومعنى ذلك ان الحجاز بات بلا حماية ، ونتيجة لضعف جيش الشريف حسين ، وللمشاكل القائمة بينه وبين ابن سعود ، والتي لم تحل بعد ، فقد تقدمت القوات السعودية في خريف ١٩٢٤ م ١٣٤٣ هـ إلى الحجاز ، واستولت خلال اسابيع قليلة على المنطقة ، ثم تنازل الشريف حسين لابنه الأمير علي الذي اضطر نظراً لافلاس خزانته وضعف جيشه ، إلى التفاوض بشأن التسليم لابن سعود ، فأصبح الأمير العربي الشاب ملكاً على الحجاز وسلطاناً على نجد ثم وحّد القطرين تحت اسم جديد هو المملكة العربية

١- The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 70-71



الجزيرة العربية بعد سنة ١٩١٨

السعودية عام ١٩٣٢ م ١٣٥١ هـ .

ولما أصبح ابن سعود ملكاً للمملكة العربيـــة السعودية ، بادرت الحكومة البريطانية إلى الاعتراف به ، وغدت معاهدة ١٩١٥ م ١٣٣٤ هـ لا تناسب الوضع القائم ، فكان لا بد من تعديلها على ضوء قوة ابن سعود الجديدة المتعـــاظمة في الجزيرة وما حولها من الشمال ، وكذلك مستقبل طريق الحجاج الذي أصبح الآن تحت اشراف ابن سعود، كل ذلك اقتضى تحسين العلاقات بين ابن سعود وبريطانية، فكانت معاهدتا البحرة والحدا ، ثم ادمجتا في معاهدة جدة عام ١٩٢٧ م ١٣٤٦ هـ التي اعترفت بسيادة ابن سعود التامة ، ونصت على تبادل التمثيل الديبلوماسي بين البلدين .

أمارات الخليج

أدت الكويت أيام الحرب في عهد أميرها الشيخ مبارك الصباح بعض المساعدات العسكرية للقوات الانكليزية المتوغلة شمالاً في العراق ، ولصد أي هجوم تركي ، مقابل ضمان انكلترة لاستقلالهـــا وحمايته في المستقبل . وفي عهد أميرهـــا الشيخ سالم الصباح ساءت العلاقـــات بينها وبين ابن سعود ، ثم تحسنت في عهد أميرها الشيخ احمد الجابر الصباح ، لولا بعض الخلافات على الحدود ، ثم اتفق على احترام مناطق محايدة بينهما .

أمـــا البحرين التي كانت تعيش على صيد اللؤلؤ ، فقد أصيبت بنكسة أيام الحرب ، وسرعان ما عادت للازدهار بعدها ، لكنها عادت منذ عـــام ١٩٢٠ م ١٣٣٩ هـ تشكو الكساد ، حين أنزلت المنافسة اليابانية في لآلىء العـالم خسارة لا تقدر ، بالاضافة إلى تدني الاسعـار في الغرب . وكانت ضربة قـاسية لولا ان تداركها ظهور البترول .

ووقع حاكم قطر عام ١٩١٦ م ١٣٣٥ هـ مع بريطانية معاهدة مماثلة للمعاهدات التي ارتبطت بها المشيخـات مع انكلترة ، اتقاءً للعدوان عليها ، وقد نعمت طيـلة أيام الحرب بالسلم والاستقرار ، على العكس من مسقط التي تجددت عليهـا

الهجمات من قبل امام عمـان ، فاستنجد سلطان مسقط بانكلترة ، لكن الإمـام الجديد لعمان أعطى الفرصة لعقد معاهدة سلم بين البلدين ، ولم يكد عام ١٩٢٠ م ١٣٣٩هـ يطل حتى بدت منطقـة الخليج العربي ، وكأنها استقرت بعض الشيء ، فقد تغيرت الأسرة الحاكمة في فارس ، وزالت الامبراطورية العثمانية ، وبرزت إلى الوجود مملكة مستقلة في شبه الجزيرة العربية ، وتأسست في بلاد الرافدين حكومة عراقية تحت الانتداب الانكليزي ، وربطت أمارات الخليج بمعاهدات حماية مع انكلترة ، فأصبح نفوذ بريطانية في أوج قوته ، إذ لم يعد لها في الخليج من منازع ، وبدأت منافع هذه السيطرة الانكليزية في الخليج تعطي انكلترة فوائدهـا ، إذ أصبحت المنطقة محطة للطيران العالمي عبر الشرق والغرب ، كما غدت منبع ثروات بترولية هائلة سنفرد لها فصلاً خاصاً .

الخليج بين الحربين العالميتين

دكتاتور مصلح في ايران

لقد تمخضت الحرب العالمية الاولى عن احداث خطيرة وحوادث جسام: اختفت الامبراطورية العثمانية ولم تعد سوى الدولة التركية ، وانكمشت روسية كدولة استعمارية توسعية ، وسيطرت انكلترة على الخليج وبلاد الرافدين ، وظهر حاكم قوي في فارس وآخر في نجد ... وقد احدث ذلك كله استقراراً سياسياً في المنطقة تنافست بسببه على الخليج الشركات البترولية ، ثم تدفقت على حكومـاته ثروة منقطعة النظير ، تكاد ترتفع بالانسان من دنيا الواقع إلى عالم الاسطورة .

وقد رأينا كيف تطورت الامور في فارس بعد الحرب،من مقاطعات يحكمها رؤساء منفصلون عن العاصمة ، ومن قبائل تحكم مناطق معينة ، ومن تهديد روسي لشمال ايران ، الأمر الذي كاد يدفع بالحكومه الفـارسية إلى توقيع معاهدة مع انكلترة تضع فيها نفسها تحت حمايتها لو لم يختلف المسؤولون في بريطانية ذاتها حول تلك المعاهدة التي شجبتها بعض الدول ومنها فرنسة ، ثم تطورت الامور مع روسية التي ابدت حسن نيتها بتنازلها عن كل امتيازاتها ومـا تملكه في فارس للحكومة الايرانية ، وبضمانها حياد فارس في المستقبل بشكل يسمح للقوات الروسية بدخول الأرض الايرانية في حالة وقوع اعتداء عليها ، أياً كان المعتدي .

ثم وقع انقلاب رضا بهلوي فالغى المعاهده البريطانية ، ووقع المعاهدة الروسية ،

ووسع السلطة المركزية ، واخضع الثائرين والقبائل ، وأعدم الزعماء الانفصاليين ، وحمى شركة النفط والمؤسسات الأجنبيــة الاخرى التي تتعـــامل لأول مرة مع الحكومة الوطنية الفارسية ، ثم خلع الشاه وحل محله في عرش الإمبراطورية، ودام حكمه ١٨ عاماً لم يخرق خلالها أي دستور رغم انه كان دكتاتوراً .

ثم التفت إلى الاصلاحات الداخلية ، اجتماعية واقتصادية ، وهي اكثر اعتدالاً من اصلاحات جاره اتاتورك ، وقد وضع حداً لنفوذ رجال الدين المتطرفين ، وفتح المدارس، وأنشاء جامعة في طهران، وتساهل في بعض الامور الدينية، الأمر الذي اثار غضب الشيعة فقمع حركاتهم ، وكذلك حدّ من نفوذ الأعيان ووجوه البلاد ، وكان قد احاط سلطته بالجيش والجندرمة (الشرطة والدرك) ، واحتاج إلى المال ، ففرض ضرائب باهظة على المنتج والمستهلك ، وحصل على شروط احسن من شركة النفط الانكليزية ، واقتصد في استخدام المستشارين والفنيين الأجـانب ، وأوجد عدة صناعات كالسكر والزجاج والكبريت .

وكان رضا شاه يحلم بوصل اطراف بلاده بشبكة من الخطوط الحديدية، وكانت فارس قد خسرت انشاء الخط الكبير في القرن التـاسع عشر نتيجة تنافس انكلترة وروسية ، إلا أن الشاه قـــام بانشاء هذا الخط من البحر إلى البر عام ١٩٣٨ م (١٣٥٧ هـ) بأموال وطنية لأنـــه كان مصمماً على تجنب نفوذ اية دولة كبرى ، كبريطانية وروسية ، وقد شجع التجارة مع المانية ، فكانت ايران تصدر إلى المانية ٤٠ بالمئة من صادراتها مقابل ١١ بالمئة كانت تصدرهـا إلى روسية ، ثم حسّن رضـا شاه العلاقات مع جيرانه الأتراك والعراقيين وافغانستان ، ووقع معهم ميثـــاق سعد آباد .

وهكذا جعل رضـا شاه من ايران [1] بلداً معتدلاً في سيره ، إذ كان هو نفسه مزيجاً من القديم والحديث، ولكنه في آخر أيامه اقتطع لنفسه الاقطاعات ، وركز

---

١ ــ اتخذ المجلس النيابي الايراني في عهد رضا شاه قرارا باطلاق اسم ايران على البلاد بدلا من فارس ، وفارس في الاصل اسم احد الاقاليم الايرانية .

في يده جميع السلطات ، ولما تنازل عن العرش لابنه محمد رضا شاه سنة ١٩٤١ م (١٣٦٠ هـ) زالت معظم مبادئه واصلاحاته التي فرضها بالقوة [١] .

انتقال مركز الثقل في السعودية من ساحل البحر الاحمر الى ساحل الخليج

بدأت الحركة السعودية السياسية كما مر معنا منذ قيام الدعوة الوهابية في نجد ، ففي مطلع القرن الثامن عشر ولد في نجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أنشأ بين سكان الجزيرة نزعة اسلامية تعيد إلى الاسلام سيرته الاولى وصفاته السابقة ، وقد تأثر بمبادئه الأمير محمد بن سعود رئيس فرع قبيلة عنزة ، ومع انتشار الدعوة الجديدة (الوهابية) اتسعت سلطة ابن سعود، وفي عام ١٧٤٥ م (١١٥٨ هـ) اصبح رئيساً لأقليم نجد وعاصمته الدرعية ، وقد واصل ابناؤه تثبيت أمر الدعوة الجديدة من بعده ، وتوجهوا بالحملات حتى بلغوا شاطىء الخليج ، وكان ذلك بدء نزاعهم مع العثمانيين . وقد احتل حفيده عبد العزيز عام ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) الحجاز ، فأمر السلطان العثماني والي مصر محمد علي بتجريد حملة عليه ، فاحتل هذا الحجاز واشتبك مع الوهابيين بمعارك عديدة واحتل الدرعية واسر عبد الله بن سعود الذي خلف والده ، فأرسل إلى القسطنطينية واعدم هناك . ولكن السعوديين ظلوا مع ذلك يحكمون نجداً من عاصمتهم الرياض متعرضين لخصومة العثمانيين ومن والاهم من امراء نجد ، فكان سلطانهم يتسع تارة وينكمش تارة أخرى ، إلى أن استعاد السعوديون في مطلع القرن العشرين سيطرتهم على نجد ،كما استعادوا الرياض من ابن الرشيد ، وعادت معهم الدعوة الوهابية قوية مطبقة تطبيقاً منتظماً ، لكن تطرف بعض الاخوان كاد يجر الملك عبد العزيز آل سعود إلى الاصطدام مع العالم الاسلامي في العراق وشرقي الأردن ، وبالتالي مع انكلترة الدولة المنتدبة في هذين البلدين ، فعمد لتحويل نشاط الاخوان إلى الزراعة ، وروض القبائل الوهابية ، وجعلها تهجر عادات الغزو وتستقر وتبني وتحيا حياة اجتماعية متطورة جديدة .

---

١ ـ انظر The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 98-102

ونجح ابن سعود في ضم الحجاز إلى ملكه ، ، واحكم ترتيبات الحجيج ، ونشر الأمن والنظام ، ثم أعلن الملكية وتبادل مع الدول البعثات السياسية ، ووقع مع بريطانية معاهدة في عام ١٩٢٧ (١٣٤٦ هـ) تربط بين الدولتين بروابط ودية دون خضوع السعودية لانكلترة .

كانت الدولة في السعودية تستمد مواردها مما تجني من الحجيج ، لكن أعمال البناء والتنظيم وانشاء جيش نظامي بدلاً من خدمات المتطوعين ، أدت إلى زيادة النفقات دون زيادة في الواردات ، وكانت آبار البترول في فارس والعراق قد بدأت تدر على كلا البلدين أموالاً طائلة ، ففكر الملك عبد العزيز في استغلال ما قد يوجد في أرضه من بترول ، وتتابعت الطلبات على امتياز التنقيب ، ولم يتدفق البترول من أول بئر إلا في عام ١٩٣٨ (١٣٥٧ هـ) ، وقد اكتشف النفط في الحسا ، وهكذا انتقل مركز الثقل في السعودية من ساحل البحر الأحمر حيث يفد الحجيج الاسلامي ومعه الأموال الكثيرة ، إلى ساحل الخليج العربي حيث يتدفق البترول ويعود على البلاد بنفع أعم وأشمل .

ثم حلّ ابن سعود مشكلة حدوده مع اليمن بعد حرب اشتعلت أوارها ما بين السعودية وهذا البلد العربي الشقيق عام ١٩٣٤ (١٣٥٣ هـ) ، وتم الصلح في مفاوضات الطائف بالرغم من ان كفة السعودية كانت أرجح وكان في وسعها احتلال اليمن بغير عناء ، إلا ان وشائج الاخوة العربية التي تربط ما بين البلدين الشقيقين هي التي هيمنت على المفاوضات بين الفريقين فاعترف كل منهما باستقلال الآخر ، وأعلن ان شعبه جزء من الأمة العربية .

وهكذا ظهر ابن سعود بمظهر المنتصر القادر الكريم ، كما وضع حداً لخلافه مع ملك العراق منافسه القديم ، بعقد معاهدة معه أعرب كل منهما عن رغبته في ان يرى كل دولة عربية مستقلة متحدة ، في اطار صداقة اسلامية واخوة عربية .

وكان للملك عبد العزيز آل سعود دور بارز على مسرح السياسة العربية ، وتوجيه فعّال في القضايا الوطنية التي مد لها يد العون والمؤازرة في كل بلد عربي ، وعرفت الأوساط الدولية مدى أثره وخطره فتسابقت الدول الغربية إلى كسب

صداقته ، أما علاقته ببريطانية فكانت قائمة على سياسة الوفاق معهم والاستقلال عنهم ، ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كان ابن سعود في ذروة مجده السياسي .

العراق بين الموالاة والمعارضة

كان النزاع مستمراً بعد الحرب العالمية الأولى بين العراق وايران بالنسبة لتعين حدود البلدين ، وكانت الحدود بينه وبين نجد غير معروفة ، ونتيجة لوساطات دولية اتفق على الحدود بينه وبين تركية .

وكان الاستعمار لا يفتأ يحاول استغلال الأقليات الكردية والآشورية واليزيدية وبقايا الأرمن والسريان الذين لجأوا من تركية،واثارة النعرات العنصرية والنزعات الانفصالية .

وكانت القومية العربية قد بدأت تشعر بكيانها قبيل الحرب العالمية الأولى ، وأذكت نارها مجازر جمال باشا السفاح ، وزادت ضرامها ثورة الشريف حسين .

وكانت سورية أول بلد تأثر بتيار القومية العربية ، فانتقل الوعي السياسي إلى مثقفي العراق ، ووقف الرأي العام العربي في الهلال الخصيب موقفاً متشابهاً بالنسبة للقضايا العربية ووعود الحلفاء والتزاماتهم نحو البلاد العربية كوعد بلفور ، ومعاهدات سايكس بيكو ، وسان ريمو ، وتعهد ماكماهون ، والبيانات الانكلو فرنسية ، ثم ثار العراق عام ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) حين خان الحلفاء القضية العربية وفرضوا الانتداب على كل من العراق وسورية ، وأقصوا الملك فيصل عن سورية.

وطالبت الفئات الواعية بأن تكون الحكومة في العراق حكومة دستورية ، فأكد البيان الانكليزي بأن الحكومة ستكون دستورية ملكية . وتتالت الحكومات العراقية وسط كراهية الشعب ومعارضته للانتداب وللانكليز معاً ، لكن حاجة الدولة إلى المال ، واضطرارها للمساعدات المالية البريطانية ، جعل بعض الحكومات الوطنية تلجأ إلى تهدئة الفئات المعارضة .

ثم جاءت معاهدة ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) ، فأمنت للعراق المساعدة والخبرة الانكليزيتين ، وضمنت الحاق الموصل بالوطن الأم ، وسهلت دخول العراق إلى

عصبة الأمم ، واعترفت باستقلال البلد ، ووعدت بانهاء الانتداب عنه بعد عدد من السنين ، ولكن هذه المعاهدة كبلت العراق من ناحية ثانية بالاغلال والقيود ، فكانت المعارضة لا تفتأ تقاومها وتثير الرأي العام عليها مما أدى إلى عقد معاهدة ١٩٣١ (١٣٥٠ هـ) التي نصت على تخفيض عدد ومراكز القوات البريطانية في العراق ، والاقلال من الموظفين الانكليز . إلا ان المعارضة لم تجد في المعاهدة الجديدة ما تنشده البلاد من سيادة واستقلال ، فواصلت حملتها على الحكم القائم ، مطالبة بالاستقلال الناجز والسيادة الوطنية الكاملة . ذلك ان كل ما قدمته هذه المعاهدة للعراق « انها اعترفت– بالنصوص فقط – بحق العراق في السيادة والتحرر من قيود الانتداب ، هذا الحق الذي لم يكن في يوم من الأيام محلاً للريب أو الشكوك ، والذي سطره الشعب بدمائه ، وظل بعد ذلك يغذي شجرته الراسخة في الأرض والصاعدة في السماء بالدماء [1] » .

وكانت الحكومات الاولى تعتمد على القوات البريطانية في حماية حدودها وحفظ الأمن الداخلي ، ثم رغبت في الخروج من هذا الوضع المذل وتأسيس جيش نظامي رغم ضآلة الميزانية ، وكانت البلاد قد أمنت التهديدات الخارجية بسبب تسوية حدودها وخلافاتها مع الجوار وهكذا اصبح للعراق جيش قوي يحفظ الأمن والنظام ، ولم يحدث بعد ذلك سوى اضطرابات قامت بها الأقلية الآشورية التي كانت تنظر بقلق إلى مصيرها في عهد الاستقلال ، لكن الجيش كان لها بالمرصاد، فقمع الثورة ، وخرج منها ظافراً واثقاً من نفسه ، مكتسباً سمعة حسنة في بطاح الرافدين وسائر الأقطار العربية .

ولما توفي الملك فيصل، وكان يتمتع بشعبية وديموقراطية اكسبتاه حب الجماهير، خلفه ابنه الشاب غازي ، فحفل تاريخ العراق بالاضطرابات نظراً لمواقف الملك غازي الصلبة في وجه الاستعمار ، فقامت ثورة الشيعة ثم ثورة الأكراد في الموصل، الأمر الذي زاد من صلاحيات رجال الجيش ، وفتح بالتالي باب الانقلابات

---

١ – العراق الثائر ، ص ٤٢

العسكرية في العراق ، وكان أول من بـــدأ بذلك الجنرال بكر صدقي ، الذي احتفظ لنفسه بالقـوة الفعليـة في البلاد ، ولكن انقسام الجيش أدى إلى قتل بكر صدقي بعد اقل من عام ، وانهيار الحكم الذي اقامه .

وبعد مقتل بكر صدقي انقسم الساسة العراقيون في الحركة الوطنية إلى فئتين : الجناح اليميني ، والجناح المعارض . أمـــا الأول فكان يتزعمه نوري السعيد وهو يقول بالتعاون مع بريطانية بسبب ما تمليه الضرورة ، ويتطلع إلى وحدة عربية في ظل الهاشميين . وأما الجناح الآخر فكان يقول بعدم التعاون مع بريطانية بأي شكل كان وتحقيق الاستقلال التام ، ويدعو الى الوحدة العربية على اسس قوميـة سليمة تتلاقى مع مشاعر الملايين من ابناء الشعب العربي في جميع دياره . وقد استغل هذا الجناح فرصة الوضع المتأزم يومذاك في اوربة ، وانشأ صداقـات مع دول المحور ، وكان له سند من العسكريين ، وخاصة تلك الفرق الأربـع التي كان يرأسها أربعة من كبار الضباط ، بينهم قائد سلاح الجو ، وقد عرفت هذه الجماعة بعد ذلك باسم المربـع الذهبي . وكانوا يعتمدون على حركات منظمات الشباب ، فاكتسبوا بذلك تأييد العناصر التقدمية ، نتيجة معارضتهم لكبار الاقطاعيين المؤيدين للمعـــاهدة الأنكلو عراقية .

ولما لاقى بكر صدقي مصرعه ، تشكلت حكومة المدفعي ، ثم تلتها حكومة نوري السعيد عام ١٩٣٨ (١٣٥٧ هـ) ، وبعد أشهر قليلة قتل غـازي في حـــادث غامض ، فآل الملك لابنه فيصل الثاني ، وكان طفلاً ، لكن خاله عبد الاله اصبح وصياً على العرش ، فأصبح الحلف الذي يؤيد المعاهدة بزعـــامة عبد الاله ونوري السعيد ، ودام عشرين عاماً تقريباً إلى أن قتلا معـــاً ، وقتل الملك فيصل الثاني في ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) .

وما بين انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وبين مقتل نوري السعيد والعائلة المالكة عام ١٩٥٨ م (١٣٧٨ هـ) وقعت احداث كبيرة ، وثورات عارمة ، وازمـــات مالية ، فلم يتيسر للعراق ان يتقدم شوطاً بعيداً في نواحيه الاجتماعية والاقتصادية ، ومع ذلك فقد انشئت في المدن الادارات ، واعيد تنظيم نظـــام الري الذي كان

المغول قد دمروه اثناء غزوهم البلاد ما قبل سبعة قرون كما انشيء خط سكة الحديد ما بين البصرة وبغداد ، ثم وصل بخط تل كوجك ، وهكذا تحقق الحلم القديم : خط بغداد برلين ، ولكنه تحقق بعد أن أفل نجم الخطوط الحديدية وفقدت اهميتها التجارية والستراتيجية السابقة .

ومنذ عام ١٩٣٩ م (١٣٥٨ هـ) اصبحت عائدات البترول تدعم واردات الدولة ، وكان لا بد لتصريف البترول من وصل منبعه بالبحر الأبيض المتوسط ، عبر سورية ، وكان هذا العمل يتلاقى مع التفكير في الوحدة العربية التي دعا اليها العراق في ظل الهاشميين .

أما مشاكل الاقطاع الزراعي ، وأوضاع شيوخ القبائل الكبيرة ، فقد أرجيء النظر في اصلاحها ، الأمر الذي كان يثير سخط الفئات التقدمية ، نظراً لإهمال أولئك الاقطاعيين مسؤوليات الدولة ، وتهربهم من دفع ما عليهم من الضرائب ، وموالاتهم للمستعمرين .

طلائع البترول في امارات الخليج

حافظت أكثر امارات ومشيخات الخليج على صلاتها السابقة ببريطانية ، ولم يطرأ على تلك العلاقات أي تبدل خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ولكن بعد اكتشاف البترول في البحرين جعل رضا شاه يدعي ان البحرين من أملاك ايران دون ان يكون لادعائه هذا أي مرتكز من الجغرافية أو التاريخ أو العنصر أو اللغة أو غير ذلك من مقومات الدول والشعوب !

وقد أصبحت البحرين بسبب عائداتها البترولية الكبيرة واحة جميلة غنية ، وأخذت تسير في مضمار التطور باعتدال واتئاد .

اما الكويت ، فقد حكمها الشيخ أحمد الجابر الصباح منذ سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٥٠ (١٣٤٠ — ١٣٧٠ هـ) وكان من أفذاذ الرجال ، وقد نظم مرافق الدولة وأقامها على أسس حديثة ، وشهدت البلاد في عهده نهضة علمية وأدبية لم تعرفها من قبل ، فأنشئت المدارس والمستشفيات والنوادي والمكتبات العامة ، وأسست دوائر الدولة التي قامت مقام الوزارات حتى سنة ١٩٦٢ (١٣٨٢ هـ) وفي كانون

الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٤ (١٣٥٣ ﻫ) عقدت شركة نفط الكويت المحدودة اتفاقاً مع الشيخ أحمد الجابر الصباح للتنقيب عن البترول ، واستمرت أعمال التنقيب سنتين كاملتين ، وفي المدة الواقعة بين عامي ١٩٣٨ (١٣٥٧ ﻫ) و ١٩٤٢ (١٣٦١ ﻫ) حفرت تسع آبار ، ولكن نظراً لصعوبة الحصول على المؤن وعدم توفر الأيدي العاملة في مطلع الحرب، وخوفاً من وقوع مفاجآت على المسرح الدولي لم تكن في الحسبان ، رأى المسؤولون في الكويت انه لا مفر من وقف جميع أعمال الحفر والتنقيب ، فسدت في عام ١٩٤٢ (١٣٦١ ﻫ) جميع الآبار .

اما قطر فقد كان الفقر سبب تخلفها ، وقد عقد حاكمها عام ١٩١٦ (١٣٣٥ ﻫ) معاهدة مع بريطانية خوفاً من مطامع بعض الدول المجاورة . ولم يكن سكان قطر بين الحربين يزيدون على ثلاثين ألف نسمة يعمل معظمهم في صيد اللؤلؤ الذي كان المصدر الوحيد لثروة قطر قبل ان يكتشف البترول .

وأما سكان المشيخات فكانوا يعيشون في فقر مدقع وتأخر اجتماعي قاهر ، وتستمر المشكلات فيما بينهم بسبب الحدود أو حقول المراعي ، أو الثأر ، أو أي خلاف آخر .

وقد عقد شيخ الشارقة مع الحكومة البريطانية معاهدة تعطي بريطانية حق استعمال بلاده محطة لخطوط المواصلات بين البصرة وكراتشي ، فاحتلت هذه الأمارة بذلك أهمية في نظام مواصلات الأمبراطورية البريطانية .

وأما مسقط الدولة المستقلة التي تربطها ببريطانية معاهدة تحالف ، فقد تنازل سلطانها تيمور عام ١٩٣٢ م (١٣٥١ ﻫ) ، لابنه سعيد عن حقه في الحكم ، لكن هذه السلطنة المشرفة على مدخل الخليج ، فقدت مكانتها الستراتيجية الهامة بسبب تعدد المحميات البريطانية ووجود الأسطول الانكليزي في الخليج . وقد مرت فترة اضطرابات قبلية بين مسقط وعمان ، ثم عقد البلدان معاهدة تنص على حرية تنقل القبائل طلباً للمرعى ، وعدم تدخل أي منها بالامور الداخلية للبلد الآخر ، مما سنبسطه في مكانه من فصل آخر ، وسنرى أي دور مجرم لعبته انكلترة والاستعمار البريطاني !..

الخليج في الحرب العالمية الثانية

ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق

على الرغم من النكسات العديدة التي منيت بها السياسة البريطانية سواء بالتحالف الألماني الروسي في اوربة ، أو بالخطر الياباني في الشرق ، أو بالنهضة الوطنية في الهند ، وعلى الرغم كذلك من سوء السمعة التي لازمت بريطانية سياسياً في البلاد العربية بسبب القضية الفلسطينية ، وموقف بريطانية العدائي من العرب ، ومساعداتها العديدة للصهيونية العالمية ، وعطف سواد العراقيين على المانية الهتلرية ، وميل شاه ايران كذلك لرياح الفوهرر، فان مركز انكلترة في الخليج لم يتأثر بهذه العوامل أيام الحرب العالمية الثانية تأثراً ملحوظاً وإن أصابتها بعض الهزات !..

ففي العراق لم يكن لانكلترة من أصدقاء غير نوري السعيد ومدرسته والأمير عبد الاله الوصي على العرش ، غير أن هذه الصداقة لم تكن لتؤثر أو تغير ، بالنسبة لانكلترة ، من حالة الأمن في منطقة الخليج . فالحلف الألماني استطاع أن يحصر الحرب على صعيد اوربة الغربية فقط ، وذلك حتى استسلام فرنسة ، ودخول موسوليني الحرب وتحالفه مع من ظنه رابحاً في النهاية ، وهنا انتقلت الحرب إلى صعيد آخر ، ووصلت إلى الشرق بعد أن كانت منحصرة في الغرب فقط .

ولولا أن تركية اتخذت موقف الحياد من هذا الصراع العالمي بحيث أبعدت خطر امتداد المعارك إلى البلاد الشرقية ، ولولا انتصار ويفل في الصحراء الغربية ،

والمساعدات الهندية التي تلقتها بريطانية ، لكان ثمة مجال لتزعزع ايمان منطقة الخليج بقوة النفوذ البريطاني بكامله .

ففي ربيع عام ١٩٤١ م (١٣٦٠ هـ) احتل الألمان اثينة وسالونيك وجزيرة كريت ، كما زحف فيلق الماني ايطالي من برقة إلى الاسكندرية ، وهكذا راحت بريطانية تتلقى الضربات ضربة بعد ضربة ، وكان ذلك اقسى ما شهدته في تاريخها الحربي ، فقد طردت من اليونان، واصبح موقفها مزعزعاً ومهدداً في مصر ، كما أن ايران كشفت عن عداوتها لهـا ، بينما كانت مراجل الثورة تغلي في كل من الهند وافغانستان .

أما في الجزيرة البريطانية نفسها فحدث ولا حرج ، فقد كانت قاذفات القنابل الألمانية وقوات المانية المتمركزة على سواحل بحر الشمال والمانش توالي غاراتها عليها ، وآل الحال بالامبراطورية العجوز إلى حد جعل تشرشل يعبر عن تلك الأزمة بقوله : « لقد كانت بريطانية تبذل المستحيل للمحافظة على رأسها طافياً فوق سطح الماء [1] » .

وهذه الأوضاع السيئة التي تردت بهـا السياسة البريطانية حملت تشرشل على اصدار أمره إلى احدى الفرق الهندية بالنزول في البصرة يوم ١٨ نيسان ١٩٣٩ م (١٣٥٨ هـ) باسم المعاهدة التي تربط بين العراق وبريطانية ، ولكن الحقيقة أن بريطانية كانت تتجاوز نصوص المعـاهدة ، وكانت ترمي إلى فتح أبواب العراق جميعاً أمام الجيوش البريطانية لتتنقل وتتحشد بحرية ، واشراك فرقتين عراقيتين أو أكثر في صحراء ليبيا أو في البلقان ، وقطع العلاقات السياسية مع الدول المعـادية لبريطانية ، فثـارت النقمة في صفوف الضباط العراقيين الأحرار ، واتفقوا على القيام بانقلاب،على أن يرأس الدولة رشيد عالي الكيلاني المعروف بعدائه للانكليز، وهكذا كان ، فهرب الأمير عبد الاله الوصي على عرش العراق إلى قاعدة الحبانية

---

١ – عبد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة

محتمياً بالقوات الانكليزية ، ثم انتقل منهـــا إلى البصرة التي غدت مركزاً لتجمع القوات البريطانية .

وقد أمر الكيلاني بحل مجلس النواب ، وأعلن الغـــاء الانتداب البريطاني واستقلال العراق، وطوقت قواته السفارة البريطانية، ووجـــه انذاراً إلى السفير بالقضاء على جميع أفراد الجالية البريطانية إذا مـــا القت انكلترة قنبلة واحدة على العراق .

وكذلك فعل شاه ايران رضا بهلوي ، فقد مزق معاهداته مع بريطانية واستعد للتعاون مع الكيلاني .

ولكن رد الفعل البريطاني كان عنيفاً على العراق، ومزق سلاح الجو الانكليزي صفوف القوات العراقية ، فاستنجد الكيلاني بالمانية طالبـــاً مساعدتها ، ولكن المساعدة كانت متعذرة بسبب بعد المسافة بينما كانت المساعدات البريطانية تتدفق من الأردن بقيادة غلوب باشا . ودافع الجيش والشعب من ورائه بأضعاف ما يستطيع عن كرامة وطنه وشرفه فقاوم شهراً كاملاً رغم انه كان يفتقر إلى كل شيء، ولكنه اضطر بعد هذه المقـاومة الضارية إلى التراجع ، وسقطت الفلوجة ثم بغداد في يد العدو ، وتركت حكومة رشيد عالي الكيلاني بغداد ، وتشتت كرام الوطنيين والضباط [1] . وعادت العراق سيرتها الاولى ، كما احتلت بريطانية وقوات فرنسة الحرة التي يرأسها الجنرال ديغول سورية بعد انتزاعهـــا من أيدي حكومة فيشي الخاضعة للألمان .

احتلال ايران من قبل الحلفاء

وفي هذه الأثناء مزق هتلر وثيقة التعاون الروسي الألمـــاني ، وقد رأى أن هجوماً صاعقاً على روسية ، واندحارها سريعاً أمـام جحـافله ، سيؤثر على مركز بريطانية في منطقة الخليج والشرق الأوسط عـامة ، وحينئذ انفرط عقد التحالف

---

١ ـ العراق الثائر ص ٧٤

السابق ، فاذا بروسية التي كانت رديفاً لألمانية تغدو نصيرة الحلفاء ، ولما لم يكن بالامكان إذ ذاك فتح جبهة جديدة في غربي اوربة ،فقد اكتفى الانكليز بدعم روسية واحتلوا معها القسم الشرقي من ايران المحايدة ، دون أن يلقوا أية مقاومة ، وذلك لاستخدام سكة حديد ايران في نقل المؤن والمعدات لروسية ، بالرغم من وجود فئات ايرانية عديدة تعطف على المانية ، ولم يؤثر الاحتلال على شركة البترول ، لأن العائدات ظلت تدفع للحكومة الايرانية بشكل منتظم .

ولكن النتيجة التي أسفر عنها هذا الاحتلال هي ابراز الفئات المعارضة لحكم الشاه الذي أحس هو الآخر بالمذلة والهوان إذ غدت ايران مضغة ممزقة على نابي الدب والأسد ، وانتهى به الأمر بأن أرغم على التنازل عن العرش لابنه بعد الاحتلال بعام واحد ، بتهمة العطف على سياسة المانية ، ونفي إلى جزيرة موريس .

ولا يفوتنا القول أن ايران شهدت في عهد رضا بهلوي اصلاحات عديدة ، دون اللجوء إلى المساعدات الخارجية ، وبالرغم من حكمه الاستبدادي فقد صان الدستور ، غير انه كبت الحريات وخص نفسه بامتيازات مختلفة وميز حكمه بالقسوة والتسلط [1] .

وعقدت بين الاتحاد السوفياتي وبريطانية وايران ، معاهدة نظمت العلاقات فيما بينها ، فتعهدت ايران بالتعاون مع الحلفاء ، بتقديم الوسائل اللازمة والمتطوعين من العمال ، وفرض الرقابة الصحفية ،كما تعهدت روسية وبريطانية باحترام سيادة ايران واستقلالها ، وانسحاب قواتهما بعد انتهاء الأعمال الحربية ، فضلاً عن تأمين الغذاء الذي يحتاجه الشعب الايراني خلال أيام الحرب ، ومساعدته في اجتياز الازمة الاقتصادية التي يعانيها .

ظهور أميركة في الخليج العربي

وما إن دخلت أميركة الحرب إلى جانب الحلفاء ، حتى تغير مجرى الأحداث ،

١ـ The Gulf in the Twentieth Century. P. 128

وطفقت المساعدات الأميركية لروسية تأخذ طريقها عبر أراضي ايران ، وكانت هذه بداية حلول أميركة محل انكلترة في منطقة الخليج ، وسبب تسابق كل من الدولتين على التقرب من ابن سعود .

وعندما حل عام ١٩٤٢ م (١٣٦١ هـ) ، كانت بريطانية تعاني الهزيمة في هجومها في الصحراء الغربية ، ومـا زالت تتراجع حتى توقفت أخيراً في منطقة العلمين . وتمكن الألمان من الاقتراب من القفقاس ، كما نفذ اليابانيون إلى بورمة والملايو وسنغافورة وجزر الهند الهولندية حتى كادوا يقرعون ابواب الهند درة التـاج البريطاني الثمينة .

ولكن عندما شارف عام ١٩٤٢ (١٣٦١ هـ) على نهايته ، تغير مجرى الأحداث تغيراً تاماً ، فقد تراجع الالمان في العلمين ، وفي ستالينغراد ، وتمكنت اميركة من صد اليابانيين ومنعهم من التقدم في منطقة الشرق الأوسط ، وشلت حركة ايطالية، ونزلت القوات الأميركية في شمالي افريقيـة ، ودمرت القوات الجوية الانكليزية المراكز الصناعية في المانية .

وبهذا ، فقد الخليج العربي أهميته الستراتيجية في الحرب الثانية بسبب اشتعال نيرانها في ميادين بعيدة عنه .

وبدرت عن الرئيس الأميركي روزفلت في عـام ١٩٤٢ (١٣٦١ هـ) — دون استشارة الكونغرس — بادرة سخية ، فأعلن: « ان جيش الولايات المتحدة سيرفع عن كاهل بريطانية ، بعد الآن ، عبء مسؤولية نقل المعدات إلى الاتحاد السوفياتي بطريق ايران [1] . »

ونتيجة لهذا القرار أتيح للادارة الاميركية ان تحل شيئاً فشيئاً محل الادارة البريطانية في تلك المنطقة من العالم ، وما هي إلا خمسة عشر يوماً حتى تولى الجنرال الأميركي « كونولي » قيادة مصالح الحلفاء كلها في الخليج العربي .

وفي عام ١٩٤٢ (١٣٦٣ هـ) عقد في طهران مؤتمر الذروة للحلفاء ، وقد تمسك

---

١ — عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ص ٢٥٠.

هذا المؤتمر بمبادىء حلف الاطلسي ، كما اعترف بمساعدات ايران للحلفاء ، وأكد على استقلالها واحترام سيادتها ، واعداً إياها باستمرار المساعدات الاقتصادية لها .

عبد العزيز آل سعود وروزفلت

اما بالنسبة للشاطىء الغربي للخليج ، فقد كانت السعودية تعاني أزمة مالية ، لأن موارد الحج انقطعت إبان الحرب ، ولأن المبلغ الذي قبضته عن حصتها من عائدات البترول قد أنفق على تعزيز الدفاع الوطني ، يضاف إلى ذلك ان الانتاج الزراعي كان منخفضاً بسبب وجود الجيش في حالة تعبئة منذ ثلاثة أعوام .

وكان ابن سعود يقول في نفسه : « يريد الانكليز ان يحتفظوا بطريق الهند مفتوحة ، ويريد الأميركيون الاحتفاظ بطريق إلى الاتحاد السوفياتي ، وهم فوق ذلك يبحثون عن مكان أمين لإصلاح بواخرهم وافراغ حمولتها. ان لديّ ما يريدون في موانىء الاحساء ، فهنالك الرافعات والمستودعات والأرصفة والمنشآت المرفئية المختلفة التي بنتها شركات النفط الأميركية . ولما كانت هذه المنشآت قد أقيمت كلها في الأراضي السعودية لأغراض مدنية وتجارية ، فلا يمكن استخدامها لأغراض عسكرية إلا بعد موافقتي . واني لمستعد للموافقة ما دمت أؤيد الحلفاء وأعتقد بأنهم سينتصرون في النهاية ... إذن لا بأس من أن أستغل هذه المساعدات التي سأقدمها لهم لمصلحة بلدي وشعبي [1] » .

وبعد مفاوضات بين ابن سعود وبريطانية جرت في القاهرة ، رفض العاهل العربي قرضاً انكليزياً بسبب ما تضمنه مشروع الاتفاق الذي قدمته بريطانية من شروط سياسية .

وعندما أحاط الرئيس الأميركي روزفلت علماً بما جرى ، لم يسعه غير الابتسام والسخرية من هذه العقلية المتحجرة التي ما تزال تلازم بريطانية في معاملاتها مع الشعوب . وكان رد فعل الرئيس الواثق من صحة سياسته البعيدة والعميقة ، سريعاً وحاسماً ، وإذا به – ودون ان يستشير أحداً – يدرج السعودية في لائحة

---

١ – المرجع السابق : ص ٢٥٢

الدول المستفيدة من قانون الاعارة والتأجير ، وقد صدق هذا القرار بعدئذ بأغلبية عظمى في الكونغرس الأميركي ، وأتيح لأميركا أن تقدم المعدات وتسلف المال للسعودية دون حاجة إلى وسيط .

ثم سعى روزفلت إلى توطيد علاقاته بالسعودية ، وعمل على مقابلة ابن سعود التي تمت بالفعل — وبريطانية تحرق الأرم غيظاً دون أن تستطيع الاعتراض بكلمة واحدة — وقد احيط ابن سعود بالتجلة والاحترام الزائد على ظهر الطراد « كويشي » عند مدخل البحر الأحمر في ١٤ شباط ١٩٤٥ م (١٣٦٥ هـ) .

وكان الاجتماع على غير ما يشتهي الرئيس الأميركي ، فان لباقته وكياسته لم تؤثرا في ابن الجزيرة العربية ، وعندما سأله روزفلت عن مطالبه ، أجابه بألا طلب له ما دام لم يسع هو للزيارة ، وإنما محدثه هو الذي سعى اليها ، ومن المفروض ان يكون لديه (أي روزفلت) ما يقوله له .

وتعب روزفلت في النهاية من انتظار مبادرة ابن سعود إلى الحديث ، في الموضوع الهام الذي يشغله ، وهو قضية فلسطين ، فلم يسعه إلا أن يكون هو المبادر اليه . ويقول هوبكنز في وصف ذلك الاجتماع :

« لا ريب في أن الرئيس كان يجهل تماماً حقيقة الرجل الذي دعاه لزيارته . انه ملك مهيب ، ذو سلطة كبيرة ، جندي بالفطرة ، وعربي صميم أولاً . لقد طلب اليه الرئيس أن يوافق على مجيء مهاجرين جدد من اليهود إلى فلسطين ، وأشار إلى أن عددهم لن يشكل سوى نسبة ضئيلة من مجموع شعوب العالم العربي ، فأصيب روزفلت بصدمة عندما سمع ابن سعود يجيب دون أي تردد : لا !.. [1] » .

وشدد الملك عبد العزيز على أن العرب لو اعطيت لهم الأموال الأميركية والبريطانية التي اعطيت لليهود ، لكان في وسعهم أن يفعلوا بالمثل ، وان يحولوا اراضي فلسطين إلى تربة خيرة خصبة .

ولم يكن من الملك إلا أن أعلن للرئيس الأميركي بصراحة ، أن العرب

---

١ — المرجع السابق ص ٢٥٧ نقلا عن مذكرات هاري هوبكنز

لا يسمعون البتة بدخول المهاجرين اليهود الجدد إلى فلسطين وأنهم سيحملون السلاح ضدهم ، كما انه سيكون بصفته الدينية والسياسية أحد المحاربين إلى جانب اخوانه عرب فلسطين ، ولنترك روبيرت شيروود يروي ما حدث :

« ويبدو أن روزفلت لم يفهم تماماً ما قاله ابن سعود ، فأعاد مزاراً طرح القضية على بساط البحث . وكان الملك كل مرة يبدو أكثر صلابة في الرفض . ولا ريب في أن الملك كان له أثر عميق في نفس الرئيس ، فبات على يقين بأن العرب لا يلقون الكلام على عواهنه [1] » .

وقد قال روزفلت ذاته عن ذلك الاجتماع الحاسم : « بين جميع الأشخاص الذين تعاملت معهم في حياتي ، ما وجدت واحداً حصلت منه اقل مما حصلت عليه من هذا الملك العربي ذي الارادة الحديدية [2] » .

وانتقل الملك والرئيس ، ازاء هذا الاصرار ، إلى موضوع الموانىء السعودية ، فوافق الملك مبدئياً على رغبات الرئيس روزفلت ، ولكنه اشترط أن تتعهد أميركا بما يلي [3] :

١ — ألا تتعرض السعودية لاحتلال عسكري .

٢ — ألا يقتطع أي جزء من أرض الوطن ، وما يستخدمه الجيش الأميركي يكون ايجاراً لخمس سنوات ، تؤول المنشآت بعدها للسعودية ، ومتى انقضت السنوات الخمس تعود للدولة السعودية بكل ما عليها من أبنية ومنشآت .

٣ — أفضلية السعودية في الحصول على المعدات الحربية المودعة في الموانىء الايرانية .

٤ — تأييد مبادرات السعودية للاسهام في تحرير الشعوب العربية الرازحة تحت نير الاحتلال الأجنبي .

فاقتنع الرئيس بكل ذلك ، بعد تداول طويل ، كما استطاع الاتفاق مع الملك

---

١ — المرجع السابق ص ٢٥٨ نقلا عن روبرت شيروود في كتابه « في ذكرى روزفلت »

٢ — المرجع السابق ص ٢٥٨ نقلا عن روبرت شيروود في كتابه « في ذكرى روزفلت »

٣ — المرجع السابق ص ٢٥٩

على قضية النفط أيضاً ، وانتهى الاجتماع بسرور ، على عكس ما بدأ ، وقام الرئيس الأميركي باهداء كرسيه الخاص الذي يجلس عليه إلى الملك تعبيراً عن شكره له وتقديره .

وهكذا وجهت ضربة جديدة إلى السياسة البريطانية في الشرق ، جاءتها هذه المرة من يد السعودية ، والحليفة الكبرى أميركا .

الامارات العربية

اما الامارات والمشيخات العربية ، فكان اثر الحرب فيها ضئيلاً . ولقد لبثت البحرين تستخرج النفط بالنسبة ذاتها ، متمتعة برفاهية نسبية . وظلت آبار البترول مغلقة في الكويت مما أحدث امتعاضاً محلياً ، ولا سيما بالمقارنة مع النشاط الأميركي في السعودية ، فانخفض نفوذ بريطانية ، وزاد اهتمام سكان منطقة الخليج بالسياسة الاميركية. وبقيت الحال على هذا المنوال حتى استؤنف تصدير البترول عام١٩٤٨ (١٣٦٨ ﻫ) ، فعادت إلى الكويت أسباب الثراء والتطور والازدهار .

وفي قطر اكتشف البترول عام ١٩٣٩ (١٣٥٨ ﻫ) ، وبلغ انتاجه عام١٩٤٠ (١٣٥٩ ﻫ) حوالي ٢٠٠ الف طن ، ولكن العمل في آباره توقف كما توقف في الكويت إلى ما بعد الحرب .

وفي ساحل الهدنة ، أعيد تعيين المعتمد السياسي البريطاني في الشارقة حيث أنشئت قاعدة لسلاح الجو الملكي في بداية الحرب ، ولكن الخصام لم ينته هنالك فيما بين المشايخ .

أما سلطنة مسقط فقد عقد سلطانها سعيد بن تيمور مع بريطانية معاهدة السيب ، وقد ضمنت هذه المعاهدة لبريطانية امتداد نفوذها إلى امامة عمان الأمر الذي كانت لا تمارسه فعلاً إلا بالنسبة للمناطق الساحلية .

إيران تستملك

انتقال سياسة الخليج البريطانية من الهند الى انكلترة

كانت الحرب العالمية الثانية بالنسبة للخليج العربي مبدأ عصر جديد وانطلاقاً لحياة أرفه ، فأميركة الدولة الاولى في العالم استطاعت أن تثبت اقدامها في السعودية اقتصادياً وتعاكس الروس في ايران ، وبرزت روسية كدولة ثانية في العالم تنافس الغرب في السيطرة على اوربة وآسية، ثم ظهرت الهند وباكستان كدولتين مستقلتين ضمن الكومنولث البريطاني ، وكان لكل هذا تأثيره المباشر وغير المباشر على الخليج .

كانت علاقات انكلترة في الخليج علاقات تجارية واستراتيجية، وكانت المحميات تدار كملحقات للامبراطورية الهندية، لكن الهند استقلت وانحسر عنها النفوذ البريطاني ، ثم تحول نظر الغرب إلى بترول العراق ، وتطورت القومية العربية ، وبرز رضا شاه وابن سعود كحاكمين قويين ، وكل هذا جعل تطور علاقات الخليج ببريطانية أمراً لا محيص عنه .

وتميز هذا التطور بانتقال سياسة الخليج من حكومة الهند إلى انكلترة ، فنقل كبير المقيمين السياسيين من بوشير إلى البحرين ، وانشىء له حرس خاص، واقيمت قاعدة بحرية وعسكرية في المنامة . كما شمل التطور البلاد العربية ، فانشئت الجامعة العربية عام١٩٤٥ (١٣٦٥هـ) بسبب يقظة القومية العربية التي كانت مصممة على تصفية

الاستعمار في العالم العربي كله ، ثم استغلت الصراع بين الشرق والغرب المسمى «الحرب الباردة» لمصلحة السيادة العربية .

ولما تدفق البترول بعد الحرب العالمية الثانية في منطقة الخليج ، كان الغرب قد اقتسم فيه مناطق النفوذ والتجارة ، والجدول الآتي يعين مدى تطور انتاج البترول في الشرق الأوسط يومذاك :

العام	انتاج الشرق الاوسط	الانتاج العالمي
١٩٣٨	٣٣٥ الف برميل في اليوم	٥٠٦ مليون برميل في اليوم
١٩٤٧	٦٨٥ الف برميل في اليوم	٨٠٦ مليون برميل في اليوم

وكان انتاج أميركا يستهلك محلياً ، وكذلك كان انتاج روسية يستهلك في بلدان الكتلة السوفياتية ، أما أوربة الغربية فلم يكن يزيد انتاجها اليومي على ٣٥ ألف برميل . لهذا شعرت أوربة بحاجتها الشديدة إلى بترول الشرق الأوسط ، فأصبحت هذه المنطقة أكثر أهمية وحيوية لأوربة من سائر أقطار العالم ، وخشيت عليه من روسية ومن العرب أنفسهم لئلا يستعملوه كسلاح مضاد في ميدان السياسة ، لكن هذا التهديد لم يأت إلا من ايران نفسها ، إذ كان الامتعاض الشديد من الاحتلال ، وما جره على البلاد من تأخر اقتصادي ، قد أثار الفئات الوطنية ، الأمر الذي جاء بمصدق إلى الحكم ، فتوقف موقتاً تصدير الزيت من ايران إلى الغرب .

النفوذ الروسي في ايران

لقد كان من جراء الاحتلال بعد استبداد رضا شاه أن غلت النفوس بالثورة ، وبدأت القبائل من جديد تؤكد نفوذها الاقليمي ، وخرج سجناء رضا شاه أو عادوا من المنفى ، وراحت صحف الأحزاب تنادي بضرورة عودة الديمقراطية ، بينما الروس الذين احتلوا القسم الشمالي من ايران كانوا يتمسكون بالأرض المحتلة كقطعة من أرض روسية . وأمام ضغط النفوذ الروسي أطلقت حرية العمل للحزب الشيوعي الايراني باسم « تودة » أي الجماهير ، وشجعت التيارات الانفصالية بين الأقليات

كالأكراد والأتراك والتركمان وجميعهم يعيشون في منطقة الاحتلال الروسية ، ورشيت الصحف ، وأشرف الروس بدقة على منطقة احتلالهم ، وطردوا منها الموظفين غير الشيوعيين ، فأثار ذلك رد فعل في ايران ونقمة عارمة . ومع ذلك فان انتخابات عام ١٩٤٣ (١٣٦٣هـ) أدخلت ثمانية أعضاء شيوعيين من الشمال إلى قاعة البرلمان الايراني ، وسرعان ما لفتوا الأنظار وأصبح لهم نفوذ قوي ، لكن موقف السيد طباطبائي في المجلس ، وهو الذي نفاه رضا شاه ، وغيره من المعارضين للسياسة الروسية قد أبرزتهم أيضاً كمواطنين يغارون على مصالح الوحدة الايرانية .

وكانت الجبهة المعارضة للشيوعيين تضم الجيش والشاه ، وملاكي الأراضي ، وقبائل الجنوب ، وعلماء الشيعة ، الذين استعادوا نفوذهم بعد زوال عهد رضا شاه ، وازداد هذا المزيج قوة حين اضعف النفوذ الأميركي الخطر الروسي ، فاصبح معارضو النفوذ الانكليزي من أقطاب الحركة الوطنية السالفة أصدقاء له ، وكان الجميع يحاولون منع وصول الدكتور مصدق إلى الحكم لأن أهدافه الوطنية المعارضة للانكليز كانت تلتقي مع أهداف حزب تودة الموالية للروس !..

وكانت المساعدات الأميركية قد تأخر تقديمها لايران إلى عام ١٩٤٤ م (١٣٦٤هـ) ، وإلى جانب الشركة الانكلو ايرانية كان ثمة شركة صغيرة اخرى تعمل في وسط البلاد وهي ايرانية روسية . فقامت عدة شركات اميركية واوروبية بمفاوضة ايران منفردة للحصول على امتياز بالتنقيب عن البترول في جنوب شرقي ايران ، ثم اتضح للروس أن ممثل تلك الشركات كان يفاوض ايران في التنقيب عن البترول في شمالي ايران ، أي في منطقة الاحتلال الروسية ، ولما افتضح الأمر اعلنت ايران رفضها لجميع العروض بشأن البترول ، واستطاع الدكتور مصدق أن يحمل المجلس على أن يشرع قانوناً بتجريم كل وزير يدخل في مفاوضات بترولية دون علم المجلس .

روسية ترفض الجلاء وتشجع الحركات الانفصالية

وأمام هذا كله سمح الروس لأنفسهم بالتهجم على الغرب الذي يعمل خلافاً لمصالح

الشعب الايراني ، وأصبح الارتباط بين الروس وحزب تودة قوياً وعلنياً في الوقت نفسه، وعاد تشجيع الحركات الانفصالية إلى سابق عهده ، لكن انتهاء الحرب جعل الحكومة الايرانية تطالب بجلاء القوات الأجنبية ، وفي الواقع لم يكن هناك من مبرر لاحتلال الحلفاء أرض ايران ، فان بقاء الحرب مع اليابان ، وروسية ليست في حالة حرب معها، لا يستدعي ارسال الذخائر إلى روسية عبر ايران، وهو العذر الذي تذرع به الحلفاء لاحتلالها .

ثم القت اليابان السلاح ، فأصبح الجلاء حتمياً ، وجعلت القوات البريطـانية والاميركية تنسحب منذ ربيع عام ١٩٤٥م (١٣٦٥ هـ) وتمّ انسحابها كلياً في نهاية ذلك العام ، غير ان الروس لم يحددوا موعداً لانسحابهم ، بل لقد عززت القوات الروسية في ايران ، وحدثت محاولتان للثورة الانفصالية في أزربيجان ضد طهران مقر السلطة المركزية ، ورفض الروس السماح للقوات الايرانية بدخول أزربيجان، ونجحت أخيراً الحركة الانفصـالية ، وتشكلت جمهورية أزربيجان ذات الحكم الذاتي ، وتلتها حركة كردية في جنوب غربي أزربيجان ، وتشكلت أيضاً حكومة شعبية كردية متحالفة مع حكومة أزربيجان .

ولم تنفع وساطة بريطانية واميركة لدى روسية بشأن أزربيجان ، أمـا مجلس الامن فقد أوصى باجراء مفاوضات مباشرة بين الفريقين ، وبعزل أزربيجان المنتجة للقمح عانت ايران ضائقة اقتصادية ، وألف قوام السلطنة الذي كان على وفاق مع حزب توده وزارته ، وفاوض الروس في موسكو ، وانسحبت اثنـاء ذلك قوات الحلفاء من ايران ، وأعلن الروس عزمهم على ابقاء قواتهم في أزوبيجـان فقط ، وتحركت مظاهرات حزب توده في ايران ، ثم عقد قوام السلطنـة مع الروس اتفاقية تقضي باجلاء قواتهم عن ايران مقابل بعض الاجراءات لتحويل أزربيجان إلى جمهورية ذاتية ومنح شركة روسية ايرانية حق التنقيب عن البترول في المناطق الشمالية يكون للروس فيها ٥١ بالمئة ، كما وافق على منح حاكم أزربيجان صلاحيات اقليمية واسعة ، وحينذاك فقط انسحب الروس . لكن حزب توده نظم اضراباً كبيراً في شركة البترول الجنوبية ، ودخل ثلاثة من اعضـائه الوزارة ، وتحركت

انكلترة ، وعرضت بعض القبائل الكبرى ، فثـــارت على الحكومة المركزية ، واحتلت الجنوب ، وطالبت بإقصاء حزب توده ، ومنح الاقليم الجنوبي حكماً ذاتياً أيضاً ، فأعيد تأليف الوزارة دون اشتراك حزب توده فيها . ووقفت اميركة موقفاً صلباً ضد مشاريع روسية في ايران ، وأعلن عن انتخابات جديدة ، ودخل الجيش الايراني أزربيجان ليشرف على الانتخابات ، فصفيت حكومتها، وصفيت الحكومة الكردية أيضاً ، وتخلت عنها روسية التي كانت الدافع الأول لتشكيلها ، وجرت اعتقالات واعدامات واسعة النطاق في صفوف الانفصاليين [1] .

انتهاء دور بريطانية في ايران وابتداء دور اميركة

ولما جرت الانتخابات فاز بالاغلبية حزب قوام السلطنة ، ومثلت المعارضة كتلة مصدق المؤلفة من ٢٥ نائباً الذي كان يتهيأ للوقوف في وجه بريطانية بعد أن انتصر قوام السلطنة بوقوفه في وجه روسية ، لكن روسية عادت تضغط من أجل المصادقة على الاتفاقية الايرانية الروسية للنفط ، وهنا أعلن ترومان مبدأه ، وهو الوقوف في وجه الشيوعية والدفاع عن الدول الصغيرة ، وتقديم مساعدات لتركية واليونان وايران .

وقد رفض المجلس المصادقة على الاتفاقية الروسية الايرانية ، واعتبرها لاغية ، وقرر الا يمنح بعد اليوم أيّ امتياز لأية شركة أجنبية ، وأن تدخل الحكومة في مفاوضات مع الشركة الانكلو ايرانية للحصول على نسبة أعلى من الأرباح التي يحددها امتياز ١٩٣٣م (١٣٥٢ هـ) ، ثم قدمت اميركة بعض المساعدات في العتاد الحربي ، وجددت خدمات البعثات العسكرية في ايران ، ولم تنفع احتجاجات الروس ضد الغاء الاتفاقية وضد تسليح ايران من قبل الولايات المتحدة، وهددت بارسال قواتها إلى ايران طبقاً لمعاهدة ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) التي تنص على السماح باحتلال ايران فيما إذا اصبحت قاعدة لشن هجوم على روسية ، لكنها اكتفت بالتهديد .

١ـ The Persian Gulf the Twentieth Century. P, 147-148

وخلال ذلك استمر حزب تودة يقوي باستمرار ، وطالب بالاصلاح الزراعي ، وكانت اوضاع البلاد المتدهورة في حاجة إلى هذا الاصلاح ، لكن زعماء الشيعة لم يقفوا مكتوفي الأيدي ، فشكلوا جمعية ارهابية باسم « فدائيان اسلام » و كذلك كانت هناك الجبهة الوطنية بزعامة مصدق . وبرز الشاه كزعيم كبير ، بعد تعديل امتياز الشركة الانكلو ايرانية لمصلحة البلاد،واتفق الجميع عام ١٩٤٧ م (١٣٦٧ ﻫ) على برنامج السنوات السبع لتطوير اقتصاد البلاد ، لكن هذا البرنامج كان يحتاج إلى رأسمال قدره ٦٥٠ مليون جنيه ، فاما ان يوفر من زيادة عـائدات البترول ، أو يعقد قرض مع الولايات المتحدة .

مصدق يؤمم البترول

كانت الاتجاهات السياسية الايرانية تنقسم إلى يسار ، ويمثله حزب توده ومن ورائه روسية . وإلى يمين ويمثله العناصر المتطرفة التي تكره الاجنبي الغربي والشرقي معاً وتؤثر الاعتماد على اقتصاديات البلاد نفسها . والوسط ويتزعمـه الشاه وبعض العناصر المعتدلة وهو يؤمن بالسياسة الغربية ، وبالقروض الخـارجية ، وزيادة العائدات البترولية .

لكن نفوذ الشاه أصيب بنكسة إثر محاولة اغتياله،وقد نُسب ذلك إلى تحريض اليسار ، وأعلن ان حزب تودة غير شرعي فانقلب حزباً سرياً ، وقويت نتيجة ذلك المعارضة الوطنية بزعامة مصدق ، وأصبحت العناصر المعتدلة ضعيفة أمامه ، لكنها عمدت إلى تقوية مركزها بالتفكير باجراء سلسلة من الاصلاحـات الاقتصادية والاجتماعية ، فبدأت مفاوضاتها مع شركة البترول ، وزيدت عـائدات الحكومة باتفاقية اضافية عام ١٩٤٩ م (١٣٦٩ ﻫ) ، لكن المجلس امتنع عن المصادقة عليها ، ولم تستطع الحكومة الحصول على قرض من اميركة رغم زيارة الشاه لها لهذه الغاية . وتشكل عام ١٩٥٠م (١٣٧٠ﻫ)مجلس جديد أكثر تطرفاً ، وكان الشاه قد استعد لمنازلة العناصر المتطرفة،فعدل الدستور ، وانشأ مجلساً للشيوخ نصفه تعينه الحكومة. ومنح الشاه نفسه صلاحيـات حل المجلس متى شاء ، ولكن كان من نتيجة تلك

الصلاحيات ، وبسبب صداقته للغرب، ان اصطدم في وقت واحد مـــع الوطنيين المتطرفين ، ومع اليمينيين المتحمسين الذين يكرهون الغرب وثقافته . وكذلك فشلت الحكومة في أن تحمل المجلس على المصادقة على الاتفاقية الاضافية ، أو في أن تزحزح الشركة عن موقفها من أجل تحسين شروطها .

وجاء « رازمارا » وأجرى مفاوضات مع بنك التصدير والاستيراد لعقد قرض بمبلغ أقل مما تحتاجه البلاد لمشروع السنوات السبع ، وتقدم مصدق بتوصية تقضي بتأميم البترول الايراني ، لكن لجنة البترول البرلمانية رفضت التوصية ، وان كانت كتلة مصدق قد وافقت عليها ، وكانت هـــذه الكتلة تتمتع بتأييد كبير خارج المجلس ، وقد أعلن رازمارا رئيس الوزارة في تقريره ان التـــأميم غير عملي ولا مشروع ، وكان ذلك في الثالث من اذار عام ١٩٥١م (١٣٧١هـ) ، وفي السابع من اذار قتل رازمارا بدافع من منظمة « فدائيان اسلام » ، مما حمل لجنـــة البترول البرلمانية على المصادقة على تأميمه ، وفي الخامس عشر منه صدق المجلس النيـــابي ، وتبعه مجلس الشيوخ بعد خمسة أيام ، على قرار التأميم ، وتشكيل شركة بترول ايرانية .

وتسلم الدكتور مصدق الحكم ، وهو المعروف بنضاله العنيد ضد الاستعمار ، فاتخذ الاجراءات السريعة لتنفيذ قرار التأميم ، فقابلتها انكلترة بالتهديد باستخدام القوة ، وقدمت شكوى إلى محكمة العدل الدولية ، ودخلت بمفاوضات فاشلة مع الحكومة الايرانية ، ورفضت ناقلات النفط حمله ، ورحل الموظفون البريطانيون ، فتجمدت عمليات النقل والتصدير .

وهنا بدت اميركة كوسيط لحل المشكلة خوفاً من أن تنحاز ايران إلى الاتحاد السوفياتي ، وكان الوطنيون الايرانيون المتطرفون يعتقدون بأن انكلترة التي تعتمد في حياتها وصناعتها على البترول الايراني سوف تقبل في النهـــاية بالأمر الواقع ، وتعود لشراء البترول الايراني ، كما ظنوا ان ايران في وسعها أن تعيش دون دخل البترول . وكذلك كانت انكلترة تقدر تقديراً خاطئاً حاجة ايران الماسة إلى عائدات النفط .

وكان مركز بريطانية في الخليج بعد الحرب قد تضعضع ، وبرزت أميركة كمنافسة لانكلترة ، وبرزت روسية كمدافعة عن حقوق الشعوب ضد الاستعمار والاستثمار ، ولكنها لم تستطع ان تقدم لايران حلاً عملياً لمشكلة البترول بعـــد تاميمه ، لأنها غير قادرة على شرائه ، وإذا اشترته فهي غير قادرة على نقله .

الجنرال زاهدي يحسم الموقف بقوة السلاح

وتأسست الأمم المتحدة ، وجعلت تستمع إلى صوت الشعوب المستضعفة ، ولم تستجب الحكومة الانكليزية إلى حزب المحافظين الذي كان يلحّ بوجوب ارسال قوات مظلية وسفن حربية إلى الخليج ، واكتفت بالشكوى إلى محكمة العدل ومجلس الأمن،لعل مصدق يتزحزح عن موقفه ، أو يطرد من منصبه،لكن محكمة العدل قررت انها ليست بصاحبة اختصاص للنظر في القضية . وطلب مجلس الأمن إلى الطرفين الدخول في مفاوضات مباشرة ، فأقدمت انكلترة على فرض عقوبات اقتصادية على ايران ، وذلك بتهديد كل مستورد لزيت ايران ، باعتبار ذلك الزيت أموالاً انكليزية مسروقة . كما سحبت جميع التسهيلات المعطاة لايران بالنسبة لرصيدها من العملة الاسترلينيـــة ، ورخص الاستيراد الممنوحة لها في المملكة المتحدة ، وأغلقت قنصليات انكلترة ، ولما وافى عام ١٩٥٢ (١٣٧٢ هـ) قطعت نهائياً العلاقات الديبلوماسية ما بين ايران وبريطانية .

كانت اميركة قد دخلت بين ايران وانكلترة كوسيط. وكان بينهما اختلاف في وجهات النظر بالنسبة للحل المرتجى ، فقد كانت أميركة ترى دعم مصدق لئلا يؤدي سقوطه إلى تشيّع ايران ، وكانت انكلترة تعمل لإسقاطه باعتبار عمله نوعـــاً من القرصنة ، ثم التقت وجهتا النظر عام ١٩٥٣ (١٣٧٣هـ) وهي تقضي بأن تدخل عدة شركات بترول مع الشركة الانكلو ايرانية وتشتري هـذه كلها الزيت من الشركة الايرانية الوطنية التي كانت قد حلت محل الشركة الانكلو ايرانية ، وان يترك تعويض الشركة لمحكمة العدل على ان يدفع من ريع مبيعات البترول .

وقدمت الاقتراحات بهـــذا الشأن لإيران ، لكن مصدق رفضها جميعاً ،

فكانت النتيجة ان رفضت أميركا تقديم مساعدات مالية لإيران . كما رفض الشاه قبل ذلك منح مصدق صلاحيات استثنائية لمعالجة الضائقة الاقتصادية ، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة قوام السلطنة ، ولكن الاضطرابات اتسعت ، وصدر في تلك الاثناء حكم محكمة العدل ، وهو انها ليست بذات اختصاص ، فعلا نجم مصدق ، واعتبر مخلصاً للبلاد ، وعاد مصدق إلى الحكم مؤيداً من أقصى اليسار وأقصى اليمين، ونال من المجلس سلطات استثنائية لستة أشهر، وأقنع مجلس النواب بالتصويت لحل مجلس الشيوخ الذي كان يبدي شيئاً من المعارضة ، ثم حلت المحكمة الايرانية العليا ، ومددت سلطات مصدق ستة أشهر تالية .

وكثرت المظاهرات ضد الأجانب ، يدفع اليها علماء الشيعة ويستغلها الشيوعيون، فتكتلت المعارضة ضد مصدق بقيادة الشاه والجيش، مؤلفة من العناصر المعتدلة التي كانت تشك في مقدرة مصدق على معالجة أزمة البترول والاقتصاد الوطنيين .

وخطا مصدق خطوة أخرى حين عزم على تعديل الدستور لسلب الشاه صلاحياته واناطتها برئيس الوزراء ، لكن المجلس انقسم على نفسه ، فلجأ مصدق إلى استفتاء شعبي ، وصوّت الشعب إلى جانبه ، إلا ان المعارضة أعلنت ان الاستفتاء غير شرعي واعتصم أعضاؤها في بناية المجلس .

ثم أقال الشاه مصدق وعين محله الجنرال زاهدي ، لكن مصدق لم يقبل الاقالة ودعا الشعب إلى دعمه ، فخشي الشاه مغبة الأمر وغادر البلاد ، فحل مصدق المجلس ودعت الجماهير إلى اقامة حكم جمهوري ، وصفا الجو لحزب توده فكان يحرك الجماهير كما يشاء ، لكن الجنرال زاهدي كتل الجيش وزحف على طهران ، وأعلن الأحكام العرفية ، واعتقل الدكتور مصدق ، وأعاد الشاه إلى البلاد ، كما الغى قرار حل مجلس الشيوخ ، وحصل على قرض من أميركا بمبلغ ٤٥ مليون دولار ، وحوكم مصدق وسجن ثلاث سنوات ، ثم استؤنفت العلاقات الديبلوماسية بين انكلترة وايران ، ودخلت ايران مع انكلترة واميركا بمفاوضات لحل أزمة النفط الايراني ، وهكذا تراجع التطرف الايراني لا أمام ضغط الغرب وجيوشه ، لكن امام

الأزمة الاقتصادية الخانقة ، إذ كانت حركة التأميم ممثلة في جبهة مصدق وحزب تودة وعلماء الشيعة،وليس لها مؤيدون في الطبقة الوسطى التي تطمح إلى تحقيق اصلاحات اجتماعية دون ثورة ولا عنف ، وكذلك لم يكن لتلك الحركة أي سند في الجيش ، ولا نالت تأييده ، وكان الشاه قد انشأ الجيش بحذر بالغ فبقي مخلصاً له ، واستطاع زاهدي أن يستغل هذا الاخلاص لمصلحة الشاه .

وهكذا استقبلت ايران وودعت في الدكتور مصدق ، رجلاً سياسياً من طراز فذ ، إذا كان لم يستطع تقدير الظروف المحلية والدولية المحيطة به، فانه استطاع بعد أن امتد حكم انكلترة للخليج مائة وخمسين عاماً ، أن ينتقص من نفوذها وعظمتها في الخليج والشرق الأوسط .

وسارعت اميركة وانكلترة لتضمد جراحات الهزائم السابقة،وساندت الدولتان ايران في عهدها الجديد ، وساعدتا على ازالة كراهية الشعب للغرب وهي الكراهية التي غرسها مصدق وحزب تودة وفدائيان اسلام .

وكانت القضية بالنسبة للغرب سياسية اكثر منها اقتصادية ، إذ استعاض الغرب عن بترول ايران ببترول الكويت، لكن ايران كانت في حاجة إلى من ينهضها من كبوتها،فنفحتها أميركة هبات بلغت في نهاية عام١٩٦٠ (١٣٨٠هـ)الف مليون دولار وقروضاً بلغت ٦٠٠مليون دولار.ثم دخلت ايران والغرب واتحاد شركات البترول الجديد ، في مفاوضات حفظت كرامة ايران أمام الرأي العام ، واعطيت عائدات تعادل عائدات منطقة الخليج ، وعوضت الشركة القديمة عن خسارتها بعض المال ، وقد منح الاتحاد امتيازاً للتنقيب بشكل ايجار للارض من قبل الشركة الايرانية للبترول لمدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد ، ويشمل الايجار المنطقة الجنوبية وبقية المناطق بما فيها عبادان التي كانت الشركة الانكلو ايرانية صاحبة الامتياز فيه ، وكان هذا الاتحاد دولياً وذا ادارة دولية ، فعاد البترول الايراني يتدفق على الاسواق العالمية، والفائدات الكبيرة تدخل إلى الخزينة الايرانية ، فبلغت عام ١٩٥٦ م ١٣٧٦ هـ أربعين مليون جنيه ، وعام ١٩٦٠ م ١٣٨٠ هـ مائة مليون جنيه ، ونهضت هذه العائدات مع القروض الغربية بمشاريع التنمية الايرانية ، ومولت احتيـــاجات

الجيش الذي كان وجوده ضماناً لبقاء العهد :

وهكذا هدّأ الازدهار الاقتصادي من كره الشعب للغرب ، وكذلك فان تأييد الغرب لإيران قد جعلها بأمن من اطماع روسية ، مما دفعها إلى الدخول في حلف بغداد ، ثم عن طريقه اصبحت عضواً في حلف شمالي الاطلسي ، لمقاومة الشيوعية العالمية .

ولما كانت ايران مرتبطة مع روسية بمعاهدة ١٩٢١ م (١٣٤٠ هـ) التي تقضي باحتلال روسية لايران في حالة احتلال إحدى الدول أرض ايران ، وتمنع ايران من عقد معاهدة ثنائية دفاعية ، فان روسية ردت على انتساب ايران لحلف بغداد بحملة دعاية مضادة ، ثم عادت إلى السكوت على مضض .

وكان الشاه قد استعاد سلطاته ، وعاد للظهور باعتباره القوة السياسية الوحيدة في البلاد ، وقد أقعد زاهدي المرضُ وخلفه حسين علاء ، وكان الشاه قد أمضى أربع سنوات في ظل الاحتلال ، ثم أربعاً أخرى قلقاً على انفصال أزربيجان والاضطرابات الداخلية ، ثم تبع ذلك عهد مصدق ، والأزمة السياسية الاقتصادية ، وكانت تنقصه صفات والده رضا شاه ، ومع ذلك فقد جنب بلاده شروراً كثيرة منها الشيوعية والسيطرة الغربية وحكم الشارع .فهو يؤمن بالاصلاح البطيء الهادىء ، وقد وزع بعض ممتلكاته على مستأجريها ، ثم أقنع رئيس وزرائه الدكتور اقبال بتبني قانون الاصلاح الزراعي ، لكن المجلس قابله بمعارضة قوية ، ثم أقره بعد مجهود شاق ، كما شجع تأليف الاحزاب السياسية ، حتى تصبح الانتخابات في المستقبل على أساس حزبي ، لكن انتخابات عام ١٩٦٠ م (١٣٨٠ هـ) قوبلت بالمقاطعة من جهة المعارضة التي تتمثل في بقايا الشيوعيين والمتطرفين مما جعل الشاه يطلب الاسراع في انجاز اعمال التنمية لكي يرتفع مستوى الدخل لدى الفرد ، ويفتر تعلق الشعب بجبهة المعارضة .

ومن أجل ذلك كان الشاه لا يفتأ يطالب بالمزيد لبلاده ، من العائدات والمساعدات ، ويعمل على ان يمنح شركات بترول أخرى حق التنقيب على ان تبلغ

عائدات ايران ٧٥ بالمئة من أرباح الشركات .

وهكذا استطاعت ايران أن تحصل على أقصى ما يمكنها من الغرب مقـــابل تنفيذ التزاماتها نحوه ، لكن على الرغم من انها تطورت وازدهرت ، فقد ظل العهد مداناً ومتهماً بنظر الشعب كما كان عهد نوري السعيد في العراق .

العراق يثور

الاستعمار يحاول تمزيق القوى الوطنية في العراق والعالم العربي

لقد تميز العراق من بين سائر دول الخليج العربيـــة بشدة حساسية مركزه الستراتيجي فكان أول قطر عربي استهدف للغزو البريطاني في الحرب العالمية الأولى، ولم يمض على دخول الامبراطورية العثمانية الحرب إلا أيام قلائل، كما ان الحرب العالمية الثانية ما كادت تطلق شراراتها في أوربة حتى رأى المستر تشرشل حفـــاظاً على الامبراطورية العجوز، ضرورة تمزيق وثيقة الاستقلال العراقي، وأمر فنزلت الجيوش البريطانية البصرة لتتابع زحفها إلى بغداد، كما بينا في فصل « الخليج في الحرب العالمية الثانية ».

وظهر دور العراق بارزاً متميزاً شأنه شأن ايران، ابان الحرب العالمية الثانية، لأنه والجارة ايران كان الجسر الذي تمر عليه الامدادات والاعتدة انكلو اميركية إلى روسية، ناهيك عن انه لولا عقدة ستالينغراد لكان العراق وايران ولا خلاف، المسرح الذي سيرقص فيه عزرائيل رقصة الموت الكبرى في الشرق الاوسط، ولذا أحكم البريطانيون قبضتهم عليه، آخذين بخناقه مكبلين أبناء الرافدين بأثقل القيود وأقسى القوانين.

وكان لسقوط حكم رشيد عالي الكيلاني، حكم الثورة التي لم يشب بها أبطـــالها حتى غمرتهم موجة الاستعمار العاتية، وعودة الوصي من ثكنات الجيوش البريطانية

عام ١٩٤١م (١٣٦٠هـ) ، وتأليف أول وزارة برئاسة جميل المدفعي ، نصراً كبيراً لسياسة بريطانية والدائرين بفلكها من قادة العراق .

وعلى الرغم مما مكن البريطانيون لأنفسهم بالقبض على أزمة الأمور ، وبثّ ضباط استخباراتهم في كل زاوية بأجهزة الدولة ، وكل ركن في التربة العراقية ، وأخذهم بأنفاس الحركة الوطنية ، والتدخل المستمر في أوضاع البلاد الداخلية ، واصطباغ الحكم بالصبغة البوليسية الرهيبة ، فقد كانت بطاح الرافدين في حالة من التقلقل والتململ ، وعدم الاستقرار على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، مما آل إلى التبدلات الوزارية الفينة بعد الفينة والفترة إثر الفترة ، ابتدأت بوزارة المدفعي ، وقفت على آثارها بالسقوط المتوالي ثلاث وزارات لنوري السعيد ، ثم وزارة خامسة برئاسة مزاحم الباجه جي .

وفي هذه الفترة العصيبة التي مرت بالعالم العربي ، كانت أصابع الاستعمار تعمل لتفتيت القوى الوطنية المناهضة له ، ليس في العراق وحده وإنما في كافة البلدان الرازحة تحت النير الاستعماري الذي جهد زبانيته في عصب أعين العرب عما جرى ويجري في ديار العروبة من مؤامرات ، منها انسلاخ لواء الاسكندرون العربي وإلحاقه بتركية ، وتوسيع دائرة نفوذ اليهود في فلسطين تمهيداً لإقامة إسرائيل ؛ وكانت القوى الوطنية رغم تلك المؤامرات ترص صفوفها أوثق فأوثق ، وتدرك مفاهيم القومية العربية أكثر فأكثر ، استعداداً للوثبة ليس في العراق فحسب ، وإنما في كافة ديار العروبة .

« وقد أثرت هذه الكوارث أيما تأثير في نضال الشعب العربي ، وفي تعميق جذور الحقد الوطني في ضباط الجيش وقادة الجماهير الشعبية ضد الاستعمار وعملائه وأعوانه ، بل في بلورة الحركة الوطنية في العراق وإبراز طابعها العربي التحرري المميز[1] » . كما كان لهجرة الوطنيين في كل من سورية وفلسطين إلى العراق انعكاسات في دوره النضالي واسعة النطاق ، أدت إلى تعاظم المد التحرري في العراق .

---

١ ـ العراق الثائر ص ٦٨

دور نوري السعيد

وقد قامت وزارة نوري السعيد الأولى سنة ١٩٤١م (١٣٦٠هـ) وكان شخصية فريدة في نوعها ، وظل رغم ما لقي من معارضة عنيفة أبرز شخصية في العراق ، وكان في خطوط سياسته العريضة يهدف إلى التعاون مع انكلترة على أوسع نطاق، ليس في العراق فقط ، وإنما على صعيد العالم العربي كله ، فكان يجهد لتأمين حل مرض لقضية فلسطين يتفق مع رغبات العرب ويؤمّن مصالح البريطانيين ، إلى جانب تطوير الدولة العراقية اقتصادياً من عائدات البترول التي أثرت في النهضة السياسية والاجتماعية في منطقة الخليج ، كما استهدف الحصول على القروض البريطانية والاميركية لتحقيق الغرض نفسه .

إلا ان الاخفاق لازم سياسة نوري السعيد،ولم يستطع أن يجنح بالقوى العربية إلى الجهة التي يشاء والجانب الذي يريد ، واتسعت على غير ما يشتهي شقة الخلاف بين الدول العربية وبريطانية ، لتآمرها على مصالح العرب القومية ، إذ مكنت لليهود احتلال فلسطين،واشتدت المعارضة ضد عهد نوري السعيد والسياسة البريطانية الممسكة بأزمة العراق، وكان دعامة هذه المعارضة الفئات القومية العربية والعناصر الشيوعية التي التقت أهدافها على تحطيم ذلك العهد .

وكان موقف الحلفاء متأزماً شديد الحراجة في الفترة التي تولى فيها نوري السعيد اولى وزاراته عام ١٩٤١ م (١٣٦٠ هـ) ، فهم يتقهقرون في أغلب الميادين ، بينما كان الألمان يتوغلون عبر القوقاز وقــد وضعوا نصب أعينهم أن يدخلوا تركية لينفذوا منهـا إلى معاقل الحلفاء في الشرقين الادنى والاوسط ، كما تساقطت عدة مستعمرات بريطانية وهولندية واميركية في أيدي اليابانيين ، فكان موقف نوري السعيد تبعاً لذلك غاية في الارتباك والتخبط، فليس ثمة زملاء يتعاون معهم على الصعيد السياسي ، والشعب ناقم حـاقد متحفظ لا تنفع فيه اساليب الضغط والحد من الحريات .

وتم لنوري السعيد في عام ١٩٤٢ م (١٣٦١ هـ) تـألیف وزارته الـ[illegible] الثانية ، وأعلن فور تسلمه مقاليد الحكم الحرب على دول المحور التي غدت في [illegible]

تراجع ، وعمدت الحكومة الجديدة إلى اعتقال رجالات الحركة الوطنية، كما جرت اعتقالات في صفوف الجماعات المشايعة للمحور .

وكان مجرى الحرب المتبدل لمصلحة الحلفاء قد رفع معنويات نوري السعيد ، فلم يقف عند حد الجولة الاولى ، وانما أخذ على عاتقه جر البلاد العربية إلى تبعية الاستعمار البريطاني تحت شعار وحدة العرب السياسية في ظل حكم دكتاتوري عسكري تكون الزعامة فيه للعراق ، وبعبارة اخرى لنوري السعيد نفسه ، فأخذ يكثر من التنقل في البلدان العربية لجرها لسياسته تلك ، إلا أن مساعيه عصف بها الوعي القومي العربي ، فلم تلق سياسته الاستجابة لدى السوريين المدركين ، والسعوديين الواعين ، والمصريين المتأهبين للقفز إلى صفوف الطليعة في الميدان العربي والدولي معاً .

الحركة الوطنية في مد وجزر

وكان لاخفاق نوري السعيد المتلاحق ، وجهوده التي ضاعت سدى ، تأثيره على مركزه السياسي ، وأفلتت أزمة المبادرة من يديه ، فسقطت حكومته وخلفه الباجه جي في الحكم سنة ١٩٤٤ م (١٣٦٤ هـ) ، فتسلم البلاد في حالة يرثى لها من من عدم الاستقرار والقلق ، والاضطرابات الناشبة في كردستان ومناطق حقول البترول ، واستمر الباجه جي في الحكم طوال سنة ونصف السنة وهو يسعى إلى ضبط الامور ولكن اعنتها أفلتت من يديه اكثر فاكثر .

وفي فترة حكم الباجه جي شهدت الدول العربية مولد الجامعة ، ووضعت بروتوكولها سبع دول عربية في القاهرة ، وترك الباب مفتوحاً امام بقية الدول العربية ذات السيادة ، مما زاد في نفوذ مصر ، وبعد الشقة ما بين الدول العربية وبريطانية لنكوصها عن حل قضية فلسطين حسب منطوق الكتاب الابيض الذي اصدرته عام ١٩٣٩ م (١٣٥٨ هـ) ، وذلك بضغط من أميركا .

وبهذا منيت الدعوة التي تبناها نوري السعيد وهو خارج الحكم ، وازدادت متاعب انكلترة في العراق ، فسقطت وزارة الباجه جي عام ١٩٤٦ (١٣٦٦ هـ) ،

ورأت السياسة البريطانية أن تلطف من موجة العداء المتصاعدة ضدهـــا ، نتيجة للتطورات الجديدة في الوطـــن العربي ، فرفعت إلى سدة الحكم توفيق السويدي الذي رغم تحمسه لسياسة التعـاون مع بريطانية ، فقد خفف من القيود التي تكبل حرية الصحافة ، والغى الأحكام العرفية ، « وسمح بتشكيل خمسة أحزاب سياسية هي حزب الاستقلال ، وحزب الأحرار ، والحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب البعث ، وحزب التحرر الوطني [1] » .

وكان لهذه الأحزاب السياسية دور كبير في دفع الحركة الوطنية اشواطـــاً بعيدة ، وتمتع الشعب العراقي ببعض الحرية في التعبير عن أمانيه الوطنية، وكذلك قامت حركات عنيفة في صفوف العمال والطلبة ، ونشطت الحركة النقابية لتحقيق الحياة الكريمة في ظل الأنظمة الدستورية، وشرع العمال يطالبون بحقوقهم المشروعة، في زيادة الاجور ، وتحسين البيوت السكنية ، ونشطت اقلام الصحافة بشكل أيقظ البريطانيين ، واشعرهم بانهم أمام تيـار جارف مناهض لسياستهم ، فكانت النتيجة سقوط وزارة السويدي لتعقبها وزارة ارشد العمري .

واستهلت الوزارة الجديدة أعمالهـــا بفرض القيود على الأحزاب السياسية التي شكلت في وزارة سلفه ، واعيد نظـــام الأحكام العرفية ، وعمد رئيس الوزارة الجديدة إلى تطبيق حكم الاهارب، ليوقع الرعب في صفوف القوى الوطنية والقومية المناوئة ، وجرت الاعتقالات على نطاق واسع في صفوف الشعب «فكانت مذابح جماعية ، منها مذبحة «مكاور باغي» في كركوك ، ومذبحة عمال الخطوط الحديدية ببغداد [2] » .

معاهدة بورتسموث

واستقالت حكومة العمري في تشرين الثاني من عام ١٩٤٦ (١٣٦٦هـ) « لتفسح

---

١ ـ المرجع السابق ص ٧٧
٢ ـ المرجع السابق ص ٧٨

المجال أمام حكومة « محايدة » برئاسة نوري السعيد الذي كلف بالإشراف على انتخابات نيابية وكان « إشرافه » من الشدة بحيث تمخضت الانتخابات التي أجريت في اوائل عام ١٩٤٧ (١٣٦٧ هـ) عن مجلس كان معظم نوابه من مؤيدي نوري السعيد ، وبعد الانتخابات استقالت حكومة نوري (الحكومة التاسعة التي يرئسها) واستبدلت بحكومة صالح جبر وهو من مرشحي نوري [1] . »

وسار التلميذ صالح جبر ، على نهج استاذه نوري السعيد ، فأخذ البلاد بالشدة والعنف وتكبيل الصحافة وكمّ الأفواه ، وتغطية البلاد بشبكات الاعتقال الجماعية ، وفي هذه الفترة طرح وزير خارجية العراق فاضل الجمالي مشروعه الداعي إلى انشاء ما اسماه « الدفاع المشترك » وسعى لتبديل معاهدة ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) البريطانية العراقية ، وإبرام معاهدة جديدة قوامها التعاون مع بريطانية على أرفع مستوى ، وبمعنى آخر زيادة القيود البريطانية المفروضة على العراق ، وتسليم بريطانية قاعدتين عسكريتين في العراق هما الحبانية والشعيبة ، على أن تتبدل البعثة العسكرية البريطانية بمجلس عسكري مشترك من القوات البريطانية والعراقية .

وفي شهر كانون الثاني عام ١٩٤٨ (١٣٦٨ هـ) وقع رئيس الوزراء العراقي هذه المعاهدة بالأحرف الاولى في مدينة بورتسموث وتعرف المعاهدة باسم هذه المدينة .

إلا ان ردود الفعل لهذه المعاهدة كانت أبعد من تقدير الوزارة الجديدة ، إذ اندفعت القوى الوطنية المعارضة إلى الشارع ، تدعمها القوى الطلابية والعمالية تعبر عن رأيها سلمياً ، لكنها قوبلت بقوة السلاح ، وأقفلت المدارس وعلقت الدراسة ، ولم يسمح حتى للأندية بمزاولة نشاطها ، بيد ان ذلك لم يجدِ الحكومة فتيلاً ، فكانت وكأنها تطفىء النار بالبترول ، وازداد المد الشعبي وغدا ينادي بسقوط المجلس وحله ، فازداد رد الفعل الحكومي عنفاً ، وسقطت جموع القتلى من المتظاهرين بالعشرات ، ورد الشعب بعنف أشدّ صامداً في موقفه لا يتزحزح عنه

١- The Persian-Gulf in the Twentieth Century. P, 191

قيد شعرة ، وانقلبت المظاهرات الطلابية إلى ثورة شعبية كاسحة غطت البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وإزاء هذه الأضطرابات الداميـــة ، لم يستطع الوصي الأمير عبـد الإله غير التراجع ورفض التوقيـع على المعــاهدة ، وسارع فاجتمع ببعض رؤساء الوزراء السابقين ورجال المجلس ، وصدر عنهم البيان التالي :

« قد أبدى المجتمعون آراءهم بمسودة معاهدة بورتسموث العراقية ــ الانـكليزية واجتمعت الآراء على انها لا تحقق أماني البلاد ، وليست دعائم صالحة لتوطيد دعائم « الصداقة بين البلدين » كما وعد البيان بأن الوصي لن يقوم بابرام أي معاهدة لا تضمن حقوق البلاد وأمانيها الوطنية [١] » .

حجاج القرن العشرين

وعاد صالح جبر من بريطانية يكشر للشعب العراقي عن أنيابه ، عـــازماً على المضي في نهج معلمه ، وكان قد سبقه تصريحـــه وهو في الأرض الانـكليزية ، بأنه عائد للعراق للقضاء على رؤوس العناصر الفوضوية ، وفرض الاحكام العرفية، معلناً عن نفسه انه حجاج القرن العشرين . وأطبق على بغداد جو خانق ، وسادها التوتر بنزول السيارات المصفحة إلى الشوارع ، وتمركزها في مفارق الطرق ، وخيم على عاصمة الرشيد السكون المطبق ، ولكنه سكون ينذر بهبوب العاصفة ، ولم تلبث القوى الشعبية ان اجتاحت الشارع تتلقى الرصاص بصدور عامرة وتستقبل الموت راضية ، منتزعة حياة الوطن من مخالب الذئب الكاسر ، وعرف ذلك اليوم بمذبحة الجسر .

وعادت السيارات المصفحة لمراكزها مشيعة الوزارة التي سقطت سقوط تمثـال من الفخـــار القي من شاهق ، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة محمد الصدر الذي تميزت فترة حكمه بالنقمة على البريطانيين ، ناهيك عن حل مجلس التعين ، الذي

---

١ ــ العراق الثائر ص ٨١

شكله نوري السعيد . واستهدف الصدر اعادة الهدوء والاستقرار للبلاد ، بالطرق السلمية ، غير انه لم يقدّر لتلك الوزارة الاستمرار طويلاً ، فقامت بعدها حكومة برئاسة مزاحم الباجه جي تلتهـــا وزارة جديدة على رأسها نوري السعيد وذلك في اوائل عام ١٩٤٩ (١٣٦٩ هـ) .

وقـام نوري السعيد خلال حكمه الجديد بتأليف حزب اسماه « حزب الاتحاد الدستوري » من اهدافه العريضة السيطرة على أجهزة الحكم ، وابقـــاء القديم على قدمه ، غير مقدر للاوضاع الدولية والعربية ، وعاد إلى سياسته الداخلية القديمـــة يطبقها بحذافيرها ، فغصت السجون والمعتقلات بكل من يتوهم فيه مناوئاً لحكمه وعهده .

حلف بغداد

هذا ما كان على الصعيد الداخلي ، أما على الصعيد العربي فكان للثورة المصرية التي قامت عام ١٩٥٣ (١٣٧٣ هـ) التي قادها جمال عبد الناصر أثر بارز ببلورة خطين سياسين عريضين في دنيا العروبة ، وكلاهما مناوىء لحكم نوري السعيد ، عامل على الاطاحة به ، وهما :

١ – القومية العربية وحركات التحرر في الوطن العربي .

٢ – الشيوعية المتغلغلة بشكل واسع في العراق الـــتي تخيف دولتي الغرب الجبارتين انكلترة واميركا معاً .

وحينئذ قامت بريطانية ، ومن ورائها اميركا ، بمنـــاورة في الشرقين الأدنى والأوسط ، فشكلت «حلف بغداد» وكان من دعائمه نوري السعيد الذي ولى ظهره لدنيا العروبة ليتحالف مع تركية عام ١٩٥٥ ولم تلبث باكستان أن انضمت في العام نفسه إلى الحلف المذكور .

وكانت ردة الفعل الشعبية عنيفة جداً لهذا المنزلق الذي تورط فيه نوري السعيد ، وقام في ظله وزير خارجيته فاضل الجمالي ، ليوازن موافقاً بين سياسة البلاد والخطين الغربين الانكليزي والأميركي معاً ، ولكن كانت النتيجة كما يقول الدكتور فاضل

الجمالي بأن نوري السعيد قد ذهب «ضحيه السياسة الغربية في العالم العربي [١]» لان الشعب كان في واد والحكام في واد آخر لا يحاولون تفهم آمـاله وأمانيه . إذ كان العالم العربي يرزح تحت ضغط الحلف الأطلسي ، ومـا زالت تركاتـه تثقل كاهله وتتطلب حلولاً جذرية ، فاسرائيل قد قامت بقوى الغرب ، ومصر تهاجمها دولتان اطلسيتان هما انكلترة وفرنسة وربيبتهما اسرائيل،إلا أن فاضل الجمالي يحاول تبرير ساحة نوري السعيد فيقول فيه :

« فقد كان مؤمنـــاً بقوة بالسياسة الموالية للغرب ، وعدواً لدوداً للشيوعية ، لكن كيف يستطيع أن يكسب الجمـــاهير بمثل هذه السياسة ، ان اطلاق حرية النشاط السياسي وحرية الصحـافة في العراق كان سيتحول في معظم الحـالات ضد الغرب لا ضد الشيوعية [٢] » .

ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

وهكذا زادت سياسة نوري السعيد بعد الشقة ما بين العراق وشقيقاته الدول العربية بعد ارتباطه بالأحلاف العسكرية الموالية للغرب ، إذ « على الرغم من ان الحلف في شكله الرسمي كان وسيلة للدفاع ضد الشيوعية ، إلا انه في الحقيقة كان معتبراً من بريطانية والعراق على أساس انه وسيلة للابقاء على نفوذ بريطانية في منطقة الشرق الأوسط ، وذلك عن طريق دعم الحكومة العراقية ضد أعدائها في الداخل والخارج على السواء [٣] . »

ولذلك كان رد الشعب السوري على العدوان الثلاثي عـــلى مصر عام ١٩٥٦ (١٣٧٦ هـ) تفجير أنابيب البترول العراقية المارة في الأراضي السورية ، موجهاً بذلك ضربة مباشرة لبريطانية وعملائها في العراق ، ونجح النطاق الذي ضرب على

---

١ ـ ذكريات وعبر ص ٢٥٦

٢ ـ المرجع السابق ص

The Persian Gulf in the Twentieth Century P. 198 ـ٣

بلاد الرافدين ، وانعزل الحكام العراقيون على أنفسهم ليحكموا الشعب العراقي بقوة الحديد والنار .

وما عتم نوري السعيد أن خرج على العالم العربي بمشروع جديد من مراميه توحيد كل من العراق والأردن ، ثم ضم سورية اليه لتشكيل ما يسمى « الهلال الخصيب » غير ان مساعيه باءت بالفشل ، لإعراض الشعب السوري عنه إذ كان يتجاوب كل التجاوب والسياسة المصرية التي رفعت شعار القومية العربية والنضال ضد الاستعمار .

وتشكل عام ١٩٥٧ (١٣٧٧ هـ) اتحاد ما بين المملكتين العراقية والأردنية كان صداه التقاء الدولتين المصرية والسورية ووحدة القطرين باسم «الجمهورية العربية المتحدة » عام ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) ، ولم تمض إلا أشهر قليلة (١٤ تموز ١٩٥٨) حتى قام الجيش العراقي بانتفاضة ثورية أطاحت بنظام نوري السعيد ، وأتت على الملكية في العراق ، وأعلنت الجمهورية العراقية ، وكان بطلي الثورة كل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ليدخل العراق في طور جديد كانت الغلبة في مستهله لعبد الكريم قاسم الذي أزاح رفيقه في النضال عن الحكم ليودعه السجن، ثم ليجد نفسه في عام ١٩٦٣ (١٣٨٣ هـ) وقد طوح به الجيش ليمسك دفة البلاد الرئيس عبد السلام عارف .

وعادت عاصمة الرشيد لأبناء الرشيد .

بترول الخليج العربي

البترول ودوره في مضمار الرقي العالمي

شهدت اوربة مع مطلع القرن السابع عشر مولد وقيام حركة النهضة العلمية ، إذ قيض لها أن تتحرر من أغلال الجمود ، وتتخلص من أجواء الفلسفة الحالمة ، وترجع إلى عالم التجربة والواقعية ، عالم المـــادة الحية المتطورة ، في محاولة تخطى القديم ، والتطلع إلى آفاق المعرفة التي لا تحد ، والعمل في دائرة المعارف التجريبية والاختبار العلمي ، ووضع معادلاته في مجال التطبيق ، تتخطى به الانسانية ذاتها بذاتها ، تزيد من معارفها وتوسع من خبراتها .

وكان من اولى التطبيقات العلمية اكتشاف العجلة البخارية التي حلت محل وسائل النقل القديمة ، واستبدال المراكب الشراعيه بالمراكب البخـــارية التي وفرت على الانسانية الكثير من الجهد وحققت لها الأكثر من الربح .

وظل العلم التجريبي يسير حثيثاً يستشرف كل يوم جواً جديداً واكتشافاً حديثاً ، حتى اهتـدى إلى اكتشاف البترول ووضعه موضع التطبيق العلمي ، فقفز العلم على أثر ذلك قفزة واسعة تخطت الأبعاد ، مميزة خطه البياني الصاعد بحركة اقتصادية متسارعة الوتائر ، مما نجم عنه الانقلاب الحضاري الزاهر المتمثل بعصرنا هذا في ارتياد الفضـــاء الخارجي ، والأمل في التنقل بين الكواكب ليس بشارة الفكر المتخدر بالاحلام الواهية ، وانما على متن نتاج العلم المتطور الذي لعب البترول دوره الكبير

في تحقيقه وفي وثبة الانسان الحديثة ، وان وقع إلى جانب هذا الازدهار بعض المآسي الوطنية والنكبات القومية ، فليس ذلك من ذنب العلم وانما من جريرة تطبيقه وسوء استعماله .

على ان معرفة الانسان للبترول ليست حديثة ، فالواقع التاريخي يشير إلى استعماله قديماً لدى شعوب منطقة الخليج ، وقد عرفته المعابد الزرادشتية، والمشاعل اليونانية ، ثم إتسعت دائرة استعماله في منتصف القرن التاسع عشر حينما عُرفت طريقة تطويره والاستفادة منه عملياً في الولايات المتحدة .

وتصدت لهذا السائل العجيب فروع العلم يكمل بعضها بعضاً ، تكاتفاً على استخراجه ، تعمل الخبرة الجيولوجية مع أفانين الهندسة ومعادلات الميكانيك لاستغلاله ووضعه في مجالات التطبيق ، فأصبح الوقود الضروري لإدارة المعامل ، وتسيير البواخر ، ودفع الطائرات في الجو ، وزرع التراكتورات في الحقول ، إلى آخر ما هنالك من أوجه استخدامه في مجتمعنا الصناعي الحديث .

ونرى الآن لزاماً علينا بعد هذا الاستعراض الموجز السريع لدور البترول في خدمة المجتمع والتقدم الحضاري،ان ننتقل موضوعياً إلى دراسة بترول دول الخليج العربي بدءاً من الساحل الشرقي إلى الساحل الشمالي ، فالضفة الغربية التي تسبح على بحيراتها الجوفية الامارات العربية ، حيث يكمن أوفر احتياطي في العالم من هذه المادة الخيّرة : الذهب الأسود .

البترول في ايران

لقد كان لإيران فضل السبق في استنباط البترول وتفجير طاقاته في أراضيها،فقد اكتشف فيها عام ١٩٠٣ (١٣٢١ هـ) إذ اكتشف في الأراضي المتاخمة للحدود العراقية بكل من اقليمي عربستان وخوزستان .

وقبل هذا التاريخ واستثماره من قبل شركة « دارسي » توجهت الأنظار للتنقيب عنه،فقامت من أجل ذلك مساع المانية مثلتها شركة هورتز،وجاءت التقارير الالمانية تبشر ببوادر الخير عام ١٨٧١ (١٢٨٨ هـ) ، كما قام أحد الخبراء الأرمن،

كولبنكيان ، بوضع تقرير ، نيابة عن كل من حكومتي بريطانية وروسية ، حول امكانية التنقيب عن حقول البترول في الأراضي التابعة للدولة العثمانية .

تلك هي البوادر الأولى لمحاولات التنقيب والبحث عن البترول ، إلا أن الخطوات الفعلية والعملية قد اتخذت مع مطلع القرن العشرين على أثر وصول وليم فوكس دارسي الاسترالي إلى إيران ، فشرع بالبحث الجدي ، وحين آتت دراساته ثمارها ، واستبشر خيراً بامكانية الحصول عليه بمقادير مناسبة ، تفاوضت شركته مع الشاه الايراني مظفر الدين ، واستحصلت منه على امتياز حرية التنقيب في كافة أرجاء فارس ، باستثناء المناطق الشمالية خوفاً من ضغط الروس ، واحتمال تدخلهم العسكري ، كاجراء انتقامي على التغلغل الاقتصادي للشركة الاسترالية ، ومن ورائها الرأسماليون البريطانيون الذين بادروا إلى شراء الامتياز منها وتأليف شركة جديدة باسم الشركة الانكلو ايرانية .

وتم لأول مرة تفجير النفط الايراني عام ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ) من بئر عند بلدة مسجد سليمان ، ثم تلته آبار أخرى ، واتسعت حركة استخراجه بحيث عزز بانشاء مصفاة للتكرير في جزيرة عبادان على خليج شط العرب ، وزادت كميات استنباطه فتدفق في أنابيب طولها ١٤٥ ميلاً ربطت ما بين الحقول البترولية البالغة ثلاثين بئراً والمصفاة المذكورة ، فكانت تكرر سنوياً مع بدء الحرب العالمية الأولى ٢٥٠ ألف طن تدخل كافة عائداتها على خزائن الشركة البريطانية واضعة اليد على الامتياز السابق .

وأخذت أهمية منطقة الخليج تزداد بدخول العامل الاقتصادي الجديد المتمثل بالبترول ، وعرفت الحكومة البريطانية وشركاتها في ايران كيف تستغل هذه المادة الجديدة التي دخلت ميدان الصناعة ومرافق الحضارة ، فكانت عصب الحرب وشريان الحياة النابض في أيام السلم ، ولذا جهدت بريطانية بكل ما فيها من طاقات لصيانة امتيازاتها أيام الحرب العالمية الاولى من أي غزو خارجي ، وتشبثت بالمنطقة تشبث الغريق بخشبة النجاة ، إذ رأت في الذهب الأسود البراق سر قوتها والمحرك الاول في تطورها ، وقد استمرت أنابيب البترول تتدفق بنسب صاعدة في زيادتها ،

وإلى القارىء جدولاً يشير إلى هذه الزيادة ، خلال الحقبة الممتدة من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٩ م (١٣٣٢ – ١٣٤٨ هـ) [١] :

السنة	الكميـة المنتجـة بالاطنان
١٩١٣	٨٠،٠٠٠
١٩١٤	٢٧٣،٠٠٠
١٩١٨	٨٩٧،٠٠٠
١٩١٩	١،١٠٠،٠٠٠
١٩٢٣	٢،٣٠٠،٠٠٠
١٩٢٩	٥،٢٦٠،٠٠٠

ومـا زالت الكميات المنتجة تزداد بوتائر مرتفعة حتى بلغت عـام ١٩٥٩ (١٣٧٩هـ) ٤٥،٥٠٠،٠٠٠ طن، وكانت العلاقات الانكلو فارسية تقوم على قاعدة الاستغلال ، لذا كثيراً ما ثارت الخلافات المـالية بين الفريقين وتنـازعا حول العائدات، وكانت الشركة البريطانية تسعى دائماً لابعاد المنافسة الاقتصاديةالاجنبية، إلا ان ايران منحت ، رغم حرص البريطانيين هذا ، أحد رجالات الاعمال الروس حق التنقيب في ولاياتها الشمالية ، كما سعت إلى منح امتياز آخر لإحدى الشركات الاميركية ، لتؤمن للبلاد مبدأ توازن القوى ، فكان جواب بريطـانية على هذين التحدين ان احتجت على فارس احتجاجاً شديد اللهجة ، مدعية أحقيتها بالتنقيب في كافة الاراضي الايرانية ، وبادرت فاشترت الامتياز الروسي ، وأبعدت بمناوراتها السياسية الشركات الاميركية عن ايران ، ولكن إلى حين .

وعلى الرغم من أن بريطانية كانت مسيطرة على اقتصـاديات ايران ، مستأثرة بآبارها البترولية ، فقد حـاولت فارس الغاء الامتياز البريطاني عـام ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) وذلك لازدياد المطامع الانكليزية، وتدني الارباح الصافية من العائدات الخاصة بالحكومة الايرانية خلال عامي ١٩٣٠–١٩٣١ م (١٣٤٩ – ١٣٥٠ هـ) من

١ – The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 82

١٫٢٩٠٫٠٠٠ جنيه استرليني إلى ٣٠٣٫٠٠٠ جنيه، ورفع موضوع هذا الخلاف إلى عصبة الامم ، فدرسته بشكل موضوعي ، وقضت بتوقيع معاهدة جديدة تم فيها الاتفاق مع نفس الشركة على تقليص مساحة الأراضي الخاضعة للامتياز الجديد ، ومدته ستون عاماً ابتداء من سنة ١٩٣١ م (١٣٥٠ هـ) ،كما عدلت فيه أسس الدفع بحيث أصبحت أربع شلنات عن كل طن من البترول الخام إلى جانب العائدات التي تتقاضاها ايران وهي بنسبة ٢٠ في المائة من الربح الاجمالي .

ولقد ظلت الشركات البريطانية متشبثة بتوحدهـا في استغلال النفط الايراني حتى ثورة مصدق ، فانقلبت الأوضاع على اثرها ، وغدت الحكومة الايرانية صاحبة الامتياز الأعلى في بلادها ، وشرعت كذلك تطالب بحصتها العادلة من جـانب الشركات الاستعمارية البريطانية ،كما سعت عام ١٩٤٨ م (١٣٦٨ هـ) لتعديل شروط الاتفاقية الانكلو ايرانية السابقة ، فقبل البريطانيون بمبدأ المناصفة بالارباح ، لكن ايران رفضت العرض ، وأرادت أن يكون نصيبها أفضل من ذلك ، وأن تعطى حق الامتياز ، وتعنتت بريطانية ، فـأممت ايران البترول في وقت يتعطش الغرب للمزيد منه .. ولم تعد العلاقات ما بين ايران وبريطانية إلى مجاريها الطبيعية إلا بعد سقوط حكومة مصدق ، وتتقهقر ايران إلى المرتبة الثـالثة بين دول الخليج المنتجة للنفط ، لأن كلاً من حكومتي الكويت والسعودية قد تجاوزتاها في انتاج الذهب الأسود ، ناهيك عن أن أميركا التي تقدمت لفض النزاع ما بين الدولتين أضحى لها ٤٠ في المائة من أسهم الشركة .

البترول في العراق

بينما كانت الامـال معقودة على تفجير البترول الإيراني ، كانت المساعي تنشط بشكل محموم لاستنباط البترول العراقي ، وقد توجهت الأنظـار اليه للمرة الأولى عندما شرع الخبراء الألمان عـام ١٨٧٠ (١٢٨٧ هـ) بدراسة الاراضي العراقية جيولوجيـاً بعد أن حصلت المـانية على مشروع مد سكة حديد برلين — بغداد — وكانت تقـارير خبرائها مشجعة جداً ، وسعت شركة سكة الحديد الألمـانية

فحصلت على امتياز التنقيب عن البترول والمعادن الاخرى على جانبي الخط ، كما قام «كولبنكيان» نيابة عن كل من روسية وانكلترة بوضع تقارير حول امكانية وجود البترول في الأراضي التابعة للدولة العثمانية ، لافتاً نظر الدولة المذكورة إلى نجاح الحركة التنقيبية والأرباح الهائلة التي يمكن أن تجنيها بعد التطور الذي لاقته شركة دارسي في ايران .

إلا أن الفشل لازم المشاريع الألمانية لشركة سكة حديد الأناضول ، فنفضت يدها منها سنة ١٩٠٧ (١٣٢٥ هـ) وفسخت امتيازاتها ، إذ لم تعثر على أية آثار مشجعة للمضي في التنقيب عن الذهب الأسود . وكان إلى جانب هذه الشركة منافسون اميركان وهولنديون ، سعوا هم كذلك للحصول على امتيازات مماثلة من الدولة العثمانية في التنقيب عن البترول العراقي .

ولقد ظلت تلك المساعي معلقة حتى قامت الثورة التركية عام ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ) واضطر على أثرها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني للتنازل عن سدة الحكم لرجال جمعية الاتحاد والترقي ، إذ تقدمت في عام ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) عدة شركات محاولة الحصول على امتياز التنقيب من رجالات العهد الجديد .

ولقد شهدت الدولة العثمانية وولاية العراق ، مولد شركة جديدة في عام ١٩١٢ م (١٣٣١ هـ) انضم اليها كل من المساهمين الانكليز والألمان ، فشكلوا الشركة التي عرفت باسم « الشركة الأفريقية الشرقية » ثم تبدلت تسميتها عام ١٩١٤ م (١٣٣٣ هـ) باسم شركة البترول التركية حين دخل البنك الوطني التركي مساهماً فيها ، ودمجت كذلك بالشركة الانكلو ايرانية ، واستحوذت على امتيازاتها بحق التنقيب عن البترول في كل من الموصل وبغداد .

وكان اندلاع الحرب العالمية الاولى سبباً مباشراً لتوقف العمل في التنقيب عن البترول العراقي ، وكان الأمل يراود البريطانيين في اكتشاف حقول النفط في كل من ولايتي بغداد والموصل ، مما دفعهم إلى احتلال الأراضي العراقية ابان الحرب العالمية الاولى ، واجلاء القوات التركية عن الأراضي العربية لتكون استثمارات النفط أضمن لمصالحهم ، وما عتموا أن تبرقعوا باقنعة الاصدقاء والحماة بالذود عن

مصالح الشعب العراقي بعدم تخليهم عن الموصل للدولة المنتدبة على سورية .

وفي تلك الفترة ، لعب النفط دوره الكبير في جلب الشقاء على البلدان العربية، فكان الحافز لربط العالم العربي بعجلة الاستعمار العالمي المتمثل في تلك الفترة بالتنافس الانكليزي الفرنسي ، لتنال كل من الدولتين حصتهما في الانتدابات العسكرية على أراضي الهلال الخصيب : العراق وبلاد الشام ، وبعد مفاوضات ثنائية ما بين لندن وباريس ، قبلت انكلترة أن يكون للشركات الفرنسية ٢٥ بالمئة في حصة النفط العراقي .

ولم تدخر الولايات المتحدة الاميركية جهدها للحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في الأراضي العثمانية، غير انها لم تصل إلى نتيجة تذكر في الفترة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الاولى،ولكن حالما وضعت الحرب اوزارها عادت اميركة إلى المطالبة بأن يكون لها نصيب في البترول العراقي ، فلبي طلبها ، إذ كان لها الدور الكبير في انحسار ظل الاستعمار الالماني عن الشرق الأوسط ، كما أعطيت تركية حصة في الارباح ، ولمدة ٢٥ سنة ، مقابل تنازلها عن ولاية الموصل .

وحاول البريطانيون — وقد دخلوا البلاد العراقية ابان الحرب العالمية الأولى مدعين صداقة العرب — ان يتشبثوا بنفوذهم الاستعماري ، غير انهم اصطدموا بعقبات كأداء ، أهمها تفتح الوعي القومي العربي ، إذ هب العراقيون يطالبون بحقوقهم كاملة في الحرية والاستقلال ، مما أدى إلى تدهور الأوضاع السياسية البريطانية في الشرق ، فسارعت بريطانية في العودة إلى سبلها القديمة في ديبلوماسيتها المرنة ، لتصون مكتسباتها في العراق بعد ان شملته الثورات الوطنية ، فسعت لتهدئة الأوضاع ، وطلبت من الأمير فيصل بن الحسين ألا يدخر وسعاً لإقرار الوضع السياسي ، فرأت البلاد مولد دولة العراق الفتية في ٢١ آب سنة ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) .

إلا ان الخطر ما انفك يهدد المصالح البريطانية في العراق ، بما ألجأ بريطانية — بعد ان فشلت في مساعيها لدى عصبة الأمم إلى اتباع الطرق الملتوية في الضغط والمساومة ، وعرضت على العراقيين واحداً من أمرين أحلاهما مرّ كما

يقول أبو فراس — فاما ان تمنح الدولة العراقية شركتها امتياز التنقيب عن البترول واستثماره ، وإلا فالاستقلال العراقي سيكون على كف عفريت، وستعيد بريطانية ولاية الموصل للدولة التركية التي ما انفكت تطمع في استعادتها ، باعتبار انها ولاية تابعة للدولة العثمانية المنقرضة .

ولم يستطع ساسة العراق أمام سيف الارهاب هذا ، سوى التسليم بطالب البريطانيين ، والاذعان لسياسة الأمر الواقع ، وتمّ التوقيع على اتفاقية جديدة تنص على منح الشركة التركية التي سميت فيما بعد بشركة بترول العراق امتيازاً مدته ستون عاماً .

وعدت الشركة موزعة الارباح حسب الجدول التالي [١] :

شركة شل	٢٣ ٣/٤ في المئة
مجموع الشركات الفرنسية	٢٣ ٣/٤ »
الشركة الانكلو ايرانية	٢٣ ٣/٤ »
مجموع الشركات الاميركية	٢٣ ٣/٤ »
المستر كولبنكيان	٥ »

ولقد عدّلت الحكومة العراقية امتياز سنة ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) بامتياز جديد عام ١٩٣١ (١٣٥٠هـ) سمح بمقتضاه بفتح باب المنافسة للشركات الاخرى لاستثمار حقول النفط الواقعة غربي دجلة ، ومنحت به امتيازاً للشركة البريطانية للبترول المحدودة مدته ٧٥ عاماً ، ولكن ما عتمت شركة بترول العراق ان اشترت الامتياز المذكور ، وتعهدت الشركة بمدّ أنابيب بترولية تربط آبار العراق بحوض البحر الابيض المتوسط ، وبالفعل تمّ تمديد خطين ينتهي أحدهما بميناء طرابلس ، وينتهي الآخر بميناء حيفا .

وفي فترة الحرب العالمية الثانية وتبعاً للاوضاع السياسية ، تدنى الانتاج العراقي من النفط،بينما كان الخط البياني للانتاج الايراني يشير إلى التزايد المضطرد،

---

١ — المرجع السابق ص ٨٥

ولم يكن في تلك الفترة العصيبة ، في منطقة الخليج اكثر ازدهاراً من منطقة الشركة الانكلو ايرانية التي كان انتاجها خير عماد للحلفاء .

ويرجع تدهور انتاج البترول العراقي ، إلى عدة عوامل منها :

١ – قيام حكومة رشيد عالي الكيلاني في العراق .

٢ – ظهور الغواصات في البحر الأبيض المتوسط ، مما نجم عنه وقف عمليات شحن بترول العراق إلى ميناءي طرابلس وحيفا .

٣ – النقص العام في المعدات والرجال .

وإلى القارىء الجدول الذي يبين مدى تدهور انتاج النفط العراقي [١] :

السنة	الكمية المنتجة
١٩٣٩	٤،٠٠ مليون طن
١٩٤٠	٢،٥٠ » »
١٩٤١	١،٥٠ » »

إلا ان الخط البياني للانتاج عاود مساره الصاعد منذ عام ١٩٤٣ (١٣٦٢هـ) ، وقد حصلت شركة بترول العراق على امتياز استثمار بترول البصرة، وتمّ استخراجه في السنوات التي تلت ، وجرى ربط البصرة بخط بترولي ، كما أنجز مدّ ثلاثة خطوط ، اثنان منها اضافيان لخطي طرابلس وحيفا ، والثالث هو خط كركوك بانياس .

والجدول الآتي يبين اطراد نسبة انتاج البترول العراقي :

السنة	الكمية
١٩٤٣	٣٠٥٠ مليون طن
١٩٤٥	٤،٥٠ » »
١٩٥١	٨،٥٠ » »

وكانت الدولة العراقية التي تنبهت لأوضاعها – وسعت لتطوير نفسها في ميادين

١ – المرجع السابق ص ٨٦

الحضارة ومرافق الحياة ، ورأت نفسها في حــاجة ملحة للاصلاحات الداخلية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي – تلح باصرار على تعديل نصوص الاتفاقية السارية المفعول منذ عـام ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ)، وقد استطاعت في عـام ١٩٥١ (١٣٧١هـ) أن تعدل تلك الاتفاقية على أساس المناصفة بالأرباح ، وبذا ارتفعت العـائدات البترولية من خمسة ملايين جنيهاسترليني عام ١٩٥٠ م (١٣٧٠ هـ) إلى خمسين مليون جنيه استرليني مع اطلالة عـام ١٩٥١ (١٣٧١ هـ)، ولقد انفقت الحكومة العراقية تلك العائدات من الدخل لمواجهة مشاكلها الداخلية ، من مقتضيات العصر الحالي ، ومتطلبات الحضارة ، ومسايرة ركب الرقي العالمي في الميادين الاقتصادية ، زراعية وصناعية ، وغيرها من المستلزمات الاجتماعية .

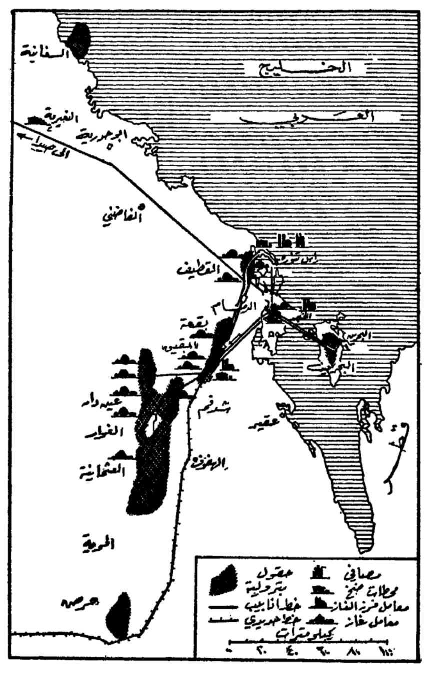
البترول في الشاطىء الغربي للخليج

لقد تـأخر اكتشاف البترول في السـاحـل الغربي من الخليج العربي ، ونعني بذلك الإمارات ، ومشيخـات السـاحل المهـادن ، وكذلك البترول السعودي المستنبط في مقاطعة الاحساء ، وكان مرد هذا التأخر لعوامل سياسية بحتة ، منها عدم استقرار الوضع وتركيز البريطانيين اهتمامهم على استثمار البترول الفارسي ، ثم البترول العراقي ، واكتفاء الحكومة البريطانية بضمون تعهدات الامـارات والمشيخات العربية ، التي تنص على ألا تسمح بدخول أي نفوذ أجنبي دون علم منها.

بترول الدولة السعودية

تعود أولى محاولات استكشاف البترول في الشاطىء الغربي من الخليج ، إلى فرانك هولمز النيوزلندي الذي قام بسبر الطبقات الجيولوجية ،بعد أن كان الاستقصاء العلمي يشير إلى امكانية وجوده « فقد ثبت لهم (العلماء) ان التشقق الناشىء عن الهبوط الذي يكوّن فتحة الخليج والبحر الاحمر تحتوي على نفس الطبقة الصخرية الموجودة في ثنايا الجبال ، والتي عثر بها على البترول في فارس [١] » .

١ – الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٢١٦



الآبار وخطوط الأنابيب في الاحساء والبحرين

وأخذ فرانك هولمز ، يمثل الشركة الشرقية العامة يسعى للحصول على امتياز ليكون لشركته السبق في تحقيق مراميها ، فاتصل بالملك عبد العزيز آل سعود في عقير عام ١٩٢٢ (١٣٤١هـ) ولم يكن لتلك الشركة من منافس غير الشركة الانكلو ايرانية ، واستطاع الرجل بما بذل من مساع أن ينجح في الحصول على امتياز التنقيب في اقليم الاحساء السعودي ، بيد ان جهوده ذهبت أدراج الرياح ، واضطر للتخلي عن حقوق الامتياز وألغي بعد ثلاثة أعوام من ابرامه ، وذلك لاهمال الشركة المذكورة التي يئست من استنباطه ، وباتت تعتبر نفط الجزيرة مجرد اسطورة .

وفي عام ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) قدم خبراء اميركيون للتنقيب ، فأطلق لهم الملك حرية التفتيش والبحث ، وجاءت دراساتهم مشجعة كثيراً ، وكانت الدولة السعودية عهد ذاك تمر بأزمة اقتصادية خانقة ، فعرض الملك السعودي على أحد الجيولوجيين الاميركان الذين جاؤوا لهذه الغاية واسمه « توتشيل » بأن يقدم له امتيازاً للتنقيب عن البترول باعتباره ممثلاً للشركات الاميركية ، إلا ان أحداً لم يجرؤ على تبني هذه المشاريع إلا بعد أن تفجر بترول البحرين ، فكان صداه مدوياً ، وعاملاً كبيراً على تبدل نظرة الشركات الاجنبية للشاطىء الغربي ، وتهافت كل منها على الملك عبد العزيز تلتمس منحها امتياز التنقيب ، وكانت لفتة بارعة من المؤرخ الفرنسي « بنوا ميشان » بوصفه الشركات الكبرى « رويال دوتش » و « شل » و « ستاندارد أويل » ، في تهافت ممثليها على الرياض لمقابلة الملك السعودي : « والجميع حسب قولهم ما كانوا يحلمون إلا بسعادة الشعب العربي ، وقد أخذوا فجأة بحب خالص للجزيرة العربية [١] . »

لكن فهد الصحراء أعلن على الملأ من هؤلاء المتزاحمين بأن انتقاءه للشركة لن يتم على أساس من جنسيتها ، وإنما على أساس الشروط الأفضل ، وكان يعرف وهو رجل دين ، أي نوع من الحجاج هم أولئك القاصدون .

---

٢ ــ عبد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة ص ٢٢٥

وأخيراً ، تمّ اختيـــار الملك السعودي لإحدى الشركات الاميركية وهي « ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » وكانت قد اتصلت به سابقاً بواسطة خبرائها الجيولوجيين ، ووقع الامتياز ومدته ستون عاماً ،ومع بدء هذه الفترة أخذ الاقتصاد الأميركي يزحزح الاقتصاد البريطاني عن مواقعه الذي طالمـــا جهد لابعاد أية منافسة دولية تهدد مركزه الاحتكاري لبترول الخليج العربي .

ولقد الزمت الدولة السعودية هذه الشركة بانشاء معامل للتكرير على أراضيها ، وانشيء لها فرع خاص عني باستثمار النفط السعودي ، وذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٣٣م (١٣٥٢ هـ).

إلا أن الشركة الأميركية واجهتها صعوبات عديدة بصدد ايجـــاد اسواق للتصريف ، ولذا فقد اتفقت مع شركة « بترول التكساس » على تأسيس شركة ثنائية جديدة ، وكان ذلك في عام ١٩٣٦ م (١٣٥٥ هـ) ، والشركة الاخيرة هي الوحيدة من الشركات الأمريكية التي تمتلك سوقاً للتصريف في الأسواق الهندية ، ولقد عرفت الشركة الجديدة فيما بعد باسم «ارامكو» وتوزعت اسهمها على اربع شركات اميركية كبرى للبترول هي :

١ ــ شركة ستاندرد اوف كاليفورنيا .
٢ ــ تكساس .
٣ ــ شركة ستاندرد اويل نيو جرسي .
٤ ــ شركة سكوني موبل اويل .

ولكل من الشركات الثلاث الاول ٣٠ بالمائة من أسهم الشركة ، وللاخيرة ١٠ بالمائة فقط [١] .

ولقد ظلت الشركة الجديدة تنقب عن البترول في الأحساء ، واعترضتهـــا متـاعب جمة إلى أن تم تفجيره لأول مرة في الأراضي السعودية عـــام ١٩٣٨ م (١٣٥٧ هـ) حين تم كشف حقل جبل الظهران الكبير ، وتدفق في منطقة الدمـام

---

١ ــ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١١٤

بالاحساء بكميات تجارية احتفل بتصديرها في شهر ايار سنة ١٩٣٩ م (١٣٥٨ ﻫ) ، كأول دفعة من البترول السعودي ، وامتدت خطوط النفط التي ربطت الآبار البترولية بميناء رأس تنورة على الخليج العربي ، وكذلك وصلت بحوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد سعت شركة «ارامكو» اثر التفجر البترولي على رفع حقها في التنقيب من مساحة ٣٦٠ الف إلى ٤٤٠ الف ميل مربع .

وقد تميزت أعمال الشركة في فترة الحرب العالمية الثانية بتجمدها ، واضطرت إلى وقف أعمالها وذلك لصعوبة المواصلات وطرق النقل ، لاسيما وأنها كانت في مرحلتها الاستهلالية [١] .

إلا أن شركة أرامكو استطاعت بعد أن استأنفت أعمالها من جديد ، أن تزيد من نسبة المستثمر من النفط ، من نصف مليون طن قبل الحرب إلى ٣ ملايين طن في نهاية الحرب،وتم لها اكتشاف آبار جديدة ، ومدت خطوط أنابيب بترولية بين المملكة العربية السعودية وكل من سورية ولبنان ، وأنشأت كذلك مصفاة في الاحساء ربطتها بآبارها ، فارتفع الانتاج في السنوات التي تلت ذلك وفق الجدول التالي [٢] :

السنة	الكمية المنتجة
١٩٤٦	٦ر٥ مليون طن
١٩٤٧	١١ر٨ » »
١٩٤٨	١٨ر٧ » »
١٩٤٩	٢٢ر٨ » »
١٩٥٤	٤٦ » »

ولقد أرادت الولايات المتحدة الأميركية أن تكون الوحيدة في استثمارها للبترول السعودي، ولذا فقد سعى الرئيس روزفلت إلى مقابلة العاهل السعودي عام

١ ــ المرجع السابق ص ١١٣

٢ ــ The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 166

١٩٤٥ م لدى توقفه في مصر ، وهو عائد من مؤتمر يالطة ، وتمت المقابلة بين رئيسي الدولتين في ١٤ شباط ١٩٤٥ م (١٣٦٥ هـ) كما مر معنا، وكان من حصادها التوقيع على معاهدة ارتكزت على الاسس التالية [١] :

١ — لا يتخلى ابن سعود عن أيّ جزء من أراضيه ، بل تكون الشركات المستثمرة مستأجرة للأراضي .

٢ — مدة الاستثمار ستون عاماً ، أي انها تنتهي في العام ٢٠٠٥ م (١٤٢٦ هـ)، وتعود بعدها الآبار ومنشآت البترول كلها إلى الدولة السعودية .

٣ — يُرفع الرسم المدفوع للمملكة السعودية عن كل برميل من البترول المصدر من ١٨ إلى ٢١ بنس أميركي .

٤ — توسع المنطقة التي تستثمرها شركة آرامكو إلى مساحة تبلغ مليون وخمسمائة الف كيلو متر مربع .

ولم يعجب البريطانيين ما آل اليه بترول السعودية فكانوا يتحرقون غيظاً وهم يرون الأميركيين يثبتون أقدامهم اقتصادياً في أرض الجزيرة العربية، بعد أن كانوا يجهدون ليكون الخليج منطقة مغلقة في وجه كل من عداهم من الدول ، لاسيما وقد أشارت آخر الأبحاث بأن بترول المملكة العربية السعودية يشكل ٤٢ بالمئة من البترول العالمي الذي اكتشف حتى ذلك الحين .

وعلى الرغم من أن أميركة هي رأس كتلة الدول الغربية ، وحليفة انكلترة الكبرى ، فقد تميزت الفترة التي امتدت من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٠ م (١٣٦٥ — ١٣٧٠ هـ) بالصراع المكشوف بين بترول الدولار وبترول الاسترليني ، على حد تعبير المؤرخ الفرنسي بنوا ميشان ، وكان انعكاس هذا الصراع بالغ الأثر على الدول العربية المجاورة ، فقد رأت الشركات الأميركية أن تصرف ٢٨٠ مليون دولار لانشاء خطوط أنابيب للبترول تصل منابعه في الظهران بحوض الابيض المتوسط على أن تنتهي في صيدا ، بعد أن عملت ناقلات النفط البريطانية على عرقلة

---

١ — عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ، ص ٢٦٠.

نقله عبر قناة السويس ، تشفياً من الحليفة الكبرى !.

وهنا تحركت بريطانية لعرقلة المشروع الأميركي الجديد ، وسعت لاحباطه ، وطفقت تلعب لعبتها الخسيسة للاجهاز على الجمهورية السورية (ممر الأنابيب) ودمجها بما أسمته «دولة الهلال الخصيب» ، الواثقة من سيطرتها عليها إذا مــــا رأت النور ، والتي ستكون حاجزاً يحـــول دون وصول البترول السعودي إلى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن أميركة كانت أطول باعاً ، إذ وقع انقلاب حسني الزعيم الذي بخر مشاريع بريطانية حسب رأي بنوا ميشان ، فعاجلت الامبراطورية العجوز ، حسب رأي المؤرخ المذكور — بتدبير اغتيــال دكتاتور سورية ، لتعاود اميركة تبييت المقالب لحليفتها العزيزة .

وأسفر الصراع المكشوف حيناً ، المستتر أحياناً ، عن رجحان كفة الشركات الأميركية، وتم في عـــام ١٩٥٠م (١٣٧٠ ﻫ) انشاء الأنابيب البترولية التي امتدت من حقول الاحساء إلى صيدا بخط طوله ١٧٨٣ كيلو متراً .

ولقد حل انتاج السعودية من هذه المادة القيمة في المرتبة الثــــالثة من الانتاج العالمي ، وذلك بعد فنزويلا والكويت .

ولقد سعت المملكة العربيـــــة السعودية لفرض شروط جديدة على الشركات الأميركية لتجني عائدات أفضل ، تواجه بها مقتضيات العصر في التطور والازدهار، فكانت أول من طبق مبدأ المناصفة بالأرباح، مما غدا قاعدة لجميع المفاوضات في الشرق عامة ، وفي الخليج العربي خاصة ، وقد قبلت الحكومة الأميركية دون اعتراض بهذا المبدأ ، ناهيك عن أنها أقرت للعاهل السعودي بالسيادة الكاملة على كل حفنة تراب من مملكة الجزيرة ، ولم تتردد في دفع الضرائب التي فرضتهــــا المملكة على عائدات الشركة درن اسقاطها من حساب الأرباح ، وكان للدولة السعودية مـــــا أرادت لما تتمتع به من «مركز سياسي مرموق تحتله في الشرقين الأدنى والأوسط، إلى جانب اتساعها الاقليمي، الأمر الذي خولها فرض الشروط التي ترتئيها والمحافظة على قدر كبير من حقوقها على الصعيدين السياسي والاقتصادي [1] » .

---

١ — الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص ٢٢٢

وعملت المملكة العربية السعودية صيانةً لاقتصادها ، على الاستفادة من مبدأ توازن القوى السياسية ، فاتفقت مع شركات أخرى لمنحها امتياز التنقيب عن البترول في المياه الاقليمية إلى جانب استخدام الخبراء من غير الأميركان ، في سبيل تطوير مشاريعها التي تنهض بالبلاد .

بترول البحرين

يرقى تاريخ أولى المحاولات التي جرت لاستنباط البترول في امارة البحرين إلى عام ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) إذ تقدم فرانك هولمز وقد أتينا على ذكره بصدد بترول السعودية ، من شيخ امارة البحرين بطلب منحه تصريحاً في التنقيب ، وقام الخبراء الجيولوجيون الذين اصطحبهم معه بالدراسة وسبر الاغوار ، لكن جهودهم لم تتوج بالنجاح بل لم تلح لهم أية بارقة أمل ، ولذا كفت الشركة التي يمثلها هولمز عن محاولاتها ، واضطر الرجل إلى بيع الامتياز لشركة اميركية صغيرة هي « غولف اويل كومباني » احدى الشركات الممثلة في شركة بترول العراق ، وذلك عام ١٩٢٨ (١٣٤٧ هـ) .

إلا ان مشكلة جديدة اعترضت الخبراء الأميركيين ، حين حاولوا الشروع بالتنقيب ، وهي ارتباط هذه الامارة بتعهداتها للحكومة البريطانية بألا تسمح لغيرها من الدول بالتدخل في شؤون الامارة إلا بموافقتها ، ناهيك عن التعهدات التي انتزعتها الحكومة البريطانية من امارات الخليج ، الكويت والبحرين وقطر عام ١٩٠٣ والتي تنص على ألا تعطى حقوق امتيازات التنقيب عن البترول إلا للشركات البريطانية .

ولم تعجز الحيلة الشركة الأميركية ، فسعت للتفاهم مع بريطانية ، وتشكلت على الأثر سنة ١٩٣٢ (١٣٥١ هـ) شركة بترول البحرين باسم بابكو التي سجلت في كندا ودعمتها الدولارات الأميركية والجنيهات الاسترلينية .

وفي مستهل عام ١٩٣٨ (١٣٥٧ هـ) كانت امارة البحرين في عداد الدول المصدرة للبترول ، وقد ارتفع انتاجها السنوي في ذلك العام إلى ما يربو على مليون

طن .

وكان لتفجر آبار البترول في البحرين اثر كبير في تغيير مجرى المنافسة الدولية ، وحافز للتهافت على السعودية للحصول على امتياز التنقيب في الاحساء كما سبق بيانه .

وكانت الشركات العـــاملة في استثمار البترول تدفع للحكومة البحرانية ثلاث روبيات عن كل طن ، ثم عدل السعر عام ١٩٥٠ م (١٣٧٠ هـ) إلى عشر روبيات، وفي عام ١٩٥٢ م (١٣٧٢ هـ) تمكنت امارة البحرين من اقتسام المرابح مناصفة .

ولقد انشىء في امارة البحرين مصفاة للتكرير تعد من اضخم المنشآت البترولية بعد مصفاة عبادان ، وكانت تدر على الحكومة ارباحاً اضافية ، وذلك لتكرير مـا يردها من البترول السعودي .

أما العائدات فقد قفزت ارقامها إلى ثلاثة أو أربعة ملايـين جنيه استرليني ، غير أن هذه العائدات مع أهميتها لا تقاس بعائدات جاراتها .

بترول الكويت

منذ فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى،في سنة ١٩١٣ م (١٣٣٢ هـ) عقد بعض الرأسماليين البريطانيين الآمال العراض على اكتشاف البترول في امارة الكويت ، وسبر اغوار تركيبها الجيولوجي ، وهو بطبيعته يتكون من اراض رسوبية شأنه شأن معظم منـــاطق الساحل الغربي ، وذلك بفضل عوامل التفتت نتيجة لتبدل درجات الحرارة ، وهبوب الرياح الصحراوية والموسمية .

وكانت التجربة الاستهلالية لحركة التنقيب التي قام بها الخبراء الجيولوجيون تكاد تنبيء بذريع الفشل ، لولا قبس من الأمل ظل يحدوهم لمتابعة البحث والسبر ، بيد أن هذا القبس سرعان مـا خبا حين نشبت الحرب العـالمية الاولى ، والغى الخبراء البريطانيون اتفاقيتهم التي عقدوها مع أمير الكويت الشيخ مبارك الصباح .

وقيّض لمشاريع التنقيب أن تبعث من جديد على يد شركة بترول العراق عام ١٩٣٤ م (١٣٥٣ هـ) ، وقد حصلت على امتيـاز للاستثمار مدته ٧٥ سنة ، ويشمل مساحة قدرها ستة آلاف ميل مربع ، وقضت تلك الاتفاقية أن تدفع الشركة

للحكومة الكويتية أربعة شلنات ذهبيـــة عن كل طن من البترول الذي يجري استثماره .

وباشرت الشركة الجديدة ، وعرفت فيما بعد باسم شركة بترول الكويت ، بالسبر والتنقيب ، وعملية المسح الجيولوجي في جنوبي مدينة الكويت ، وتم اخيراً اكتشافه بكميات تجـــارية مشجعة بعد حفر أول الآبار التمهيدية بعمق ٧٩٥٠ قدماً [١] ، وكانت الدلائل تشير إلى وجوده بكميات هائلة في شمالي الامارة ، وقد حفرت تسعة آبار حتى عام ١٩٤٢ م (١٣٦١ هـ) .

إلا أن الشركة اضطرت إلى التوقف عن عملها ابّان الحرب العالمية الثانية واغلاق الآبار المكتشفة إلى أن كانت سنة ١٩٤٥ م (١٣٦٥ هـ) ، فـــاستؤنف العمل من جديد ، واحتفل بتدشين أول شحنة من البترول الكويتي عام ١٩٤٦ م (١٣٦٦هـ).

وكان لغزارة الآبار البترولية ، ووجودها على عمق قريب نسبياً ، أثرهمـــا في تعزيز الانتاج الذي تميز بقفزات واسعة مطردة أقرب ما تكون إلى الخيال ، وكان لتوقف العمل في الآبار البترولية الايرانية أيام أزمـة مصدق ، أثر كبير في ارتفاع انتاج النفط الكويتي الذي كان يتطور حسب الجدول الآتي [٢] :

سنة	مليون طن
١٩٤٨	٦٫٣
١٩٥٠	١٧
١٩٥١	٢٧٫٨
١٩٥٢	٣٧
١٩٥٣	٤٢٫٦
١٩٥٤	٤٦٫٩

كما أن عدد الآبار ارتفع خلال الفترة الممتدة من عـام ١٩٤٦ إلى عـام ١٩٥٣

---

١ ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١١٥

٢ - The Persian Gulf in the Twentieth Century. P, 174

(١٣٦٦ - ١٣٧٣ هـ) من تسعة آبار إلى ٣١٩ بئراً بترولية ، وبلغ انتاج الكويت وحدها عام ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) ما يقارب ثلث الانتاج الاجمالي للشرق الأوسط .

والجدول التالي ، يبين انتاج الكويت بين دول منطقة الخليج لعـــام ١٩٥٩ (١٣٧٩ هـ) [1] :

اسم الدولة	مليون طن
الكويت	٧٠
السعودية	٥٣٫٦
ايران	٤٥٫٥
العراق	٤١٫٧
قطر	٨٫١٥
المنطقة المحايدة	٦
البحرين	٢٫٢٥

ولقد أنشىء ميناء خاص في امارة الكويت لشحن البترول دعي باسم مينـــاء الأحمدي ، احياء لذكرى الشيخ أحمد الجابر الصباح الذي اكتشف البترول في عهده . وفي عهد الحاكم الحالي سمو الشيخ عبد الله السالم الصباح مدد أجل الامتياز لشركة بترول الكويت إلى عام ٢٠٢٧ (١٤٤٩ هـ) [2] ، كما أضيفت إلى اتفاقيته بنود تقضي بجرية استثمار البترول في المياه الاقليمية .

وارتفعت تبعاً لزيادة الانتاج عائدات الكويت من البترول ارتفاعاً كبيراً [3] كان له أبعد الأثر في التقدم الاجتماعي والاقتصادي والازدهار العلمي في الامـارة التي عرفت انقلاباً جذريـاً في كافة مرافق الدولة ، وشتى ميادين الحيـــاة للشعب الكويتي ، وقفزت لؤلؤة الخليج قفزة نوعية لتلعب دورها المرموق بـــين دول الشرقين الأدنى والأوسط على الصعيدين العربي والعالمي معاً .

---

١ - الاوضاع السياسية في امارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ص ١٣٧

٢ - الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٢٢٦

٣ - بلغ انتاج الكويت سنة ١٩٦٠ ثمانين مليون طن ومدخولها منها ١٦٠ مليون جنيه

وملاحظة أخيرة يجب ألا تغرب عن البال وهي ان شركات الولايات المتحدة الأميركية ساهمت بنصيبها في شركة بـترول الكويت ، وقاسمت الشركات البريطانية الأسهم مناصفة. اما الشركات اليابانية التي تعاقدت مع الكويت والسعودية، في المياه الاقليمية والمنطقة المحايدة فقد تعهدت بدفع ٥٦ ٪ من صافي الأرباح إلى الكويت و٥٧ ٪ إلى السعودية بما في ذلك أرباح التكرير والتسويق .

البترول في قطر

أما البترول القطري ، فقد قـامت مداولات بين الشركة الانكلو ايرانية وشركة بترول العراق بشأنه ، وتم الاتفاق عن التنقيب في امارة قطر بعد أن منح حاكمها الشركة الأخيرة حق استنباط البترول في اراضيه عـام ١٩٣٥ م (١٣٥٤ هـ) ومدة الامتياز ٧٥ عاماً في منطقة مساحتها ٤ آلاف ميل مربع ، وبذا تم انشاء شركة بترول قطر ، وتعتبر فرعاً من شركة بترول العراق .

وشرع الخبراء الجيولوجيون البحث والتنقيب ومسح الأراضي ، إلا أن الحرب ما عتمت أن نشبت فاضطرت الشركة إلى التوقف عن عملهـا موقتاً ، كباقي الشركات القائمة على الساحل العربي للخليج في انتظار أن تضع الحرب أوزارها .

ولكن لم يستأنف العمل في التنقيب إلا عـام ١٩٤٧ م (١٣٢٧ هـ) ، وقـد تم تفجر البترول في قطر وتدفق انتاجه باضطراد ، فبلغ عام ١٩٥٠ م (١٣٧٠ هـ) ، مليون ونصف طن ، وارتفع عـام ١٩٥٤ م (١٣٧٤ هـ) إلى ٤ر٧ مليون طن ، وغدا في عام ١٩٥٩ م (١٣٧٩ هـ) ما يقارب ٨ر١٥ مليون طن تبلـغ أرباح قطر منها ١٦ مليون جنيه استرليني .

وأقدم الشيخ عبد الله آل ثاني حاكم قطر على اعطاء امتياز آخر لشركة اخرى للتنقيب عن البترول في المياه الاقليمية، مما أثار حفيظة شركة بترول قطر ، وتطورت المشكلة إلى معضلة اثيرت أمـام المحاكم الدولية ، وجاء الحكم الصادر عن محكمة باريس عام ١٩٥١ م (١٣٧١ هـ) في مصلحة قطر ، وحريتها بمنح امتيازات التنقيب لمن تشاء في التعاقد معها [١] ، كما أقدم الشيخ عبد الله آل ثاني على اعطـاء امتياز

١ ــ المرجع السابق ص ٢٢٨

آخر لشركة شل الانكليزية للتنقيب عن البترول في المنطقة الشرقية من قطر غير أن البترول لم يأت في تلك المنطقة بالثمرات المرجوةحتى عام ١٩٦٠ م (١٣٨٠ هـ) وفي عـام ١٩٥٢ م (١٣٧٢ هـ) تم تعديل نص الاتفاقية حول العائدات التي تجنيها قطر من الشركة الانكليزية ، فأقرت مبدأ المناصفة في الأرباح .

البترول في بقية الامارات

لقد جرت عدة محاولات لاستنباط البترول في كل من سلطنة مسقط وامامـة عمان ، ولكن حتى هذه الفترة لم تشر النتائج إلى توفره بكميات تجارية .

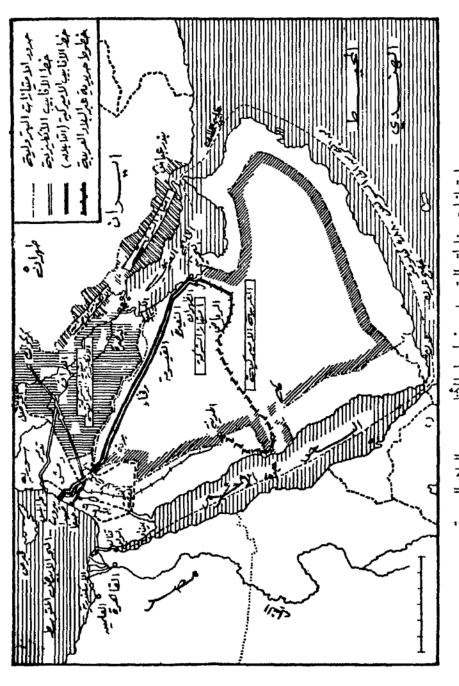
وفي عام ١٩٤٩ (١٣٦٩ هـ) منحت امارة أبي ظبي احدى شركات البترول البريطانية حق التنقيب في أراضيها غير انه لم يتم اكتشافه إلافيعام١٩٥٨(١٣٧٨هـ) إذ عثر عليه قرب جزيرة داسر .

ولقد أثارت أدوار التنقيب عن بترول الخليج التنافس الاستعماري على أشد ما يكون ، ولا سيما بين الشركات الأميركية والبريطانيـــة ، إذ سعت الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن العشرين إلى توطيد نفوذها الاقتصادي في منطقة الخليج ، لتوفر الاحتياطي من البترول فيها ، لئلا تحتكر منابعه في أيـــدي البريطانيين .

ومن الاحصاءات الأخيرة لعام ١٩٦٠ تبين ان حصة الشركات الأميركية من نفط الخليج العربي هي ٦٠ بالمئة وذلك لمساهمتها في كثير من الشركات البتروليـة في الشرق الأوسط ، والجدول الآتي يبين حصة أميركا من بترول الدول المنتجة في هذه المنطقة [١]:

السعودية	١٠٠ بالمئة
البحرين	١٠٠ بالمئة
الكويت	٥٠ بالمئة
العراق	٢٣ ٣/٤ بالمئة
ايران	٤٠ بالمئة

١- The Gulf in the Twentieth Century. P, 218.



امتيازات مناطق البترول وخطوط الأنابيب عبر البلاد العربية

مع وثبة العرب المعاصرة ، وتبلور مفاهيم القومية العربية ، وانتشار الوعي الوطني ، والايمان بوحدة مصير العالم العربي ، ولوشائج القربى الصميمية التي تشد الأقطار العربية بعضها إلى بعض، والعمل على متابعة الحركات التحررية، وبذل صادق الجهد لاستئصال آثار التركات الثقيلة التي خلفها الاستعمار ، تنادت دول الجامعة العربية إلى عقد مؤتمرات البترول الفترة بعد الفترة ، لان تلك المادة الثمينة هي إحدى دعامات البناء الاجتماعي والسياسي لكافة اقطار المنطقة ، فلئن كان البترول لفترة ما مستعبد الشعوب ، وموضع تناحر الامم ، وبخاصة ذلك الصراع الدائر ما بين منطقتي الدولار والاسترليني ، فهو في الوقت نفسه عامل كبير من عوامل تحرر الشعوب ونهوضها ورقيها ، وأخذها مكانها تحت الشمس .

وكان من اولى الخطوات التي اتخذت في هذا الصدد ، أن تقرر عام ١٩٥٢ (١٣٧٢ هـ) طرح قضية البترول للبحث في لجنة الجامعة العربية ، وتمت الموافقة على انتهاج العرب سياسة بترولية موحدة ازاء الدول الأجنبية ، وتركزت النقاط الاولى على مقاطعة اسرائيل والعمل على منع تسرب البترول العربي اليها .

ولقد رأت الاقتراحات الايجابية النور، ووضعت في حيز التطبيق حين اتفق في احدى جلسات الجامعة العربية في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ (١٣٧٤هـ) على انشاء مكتب بترولي دائم ، وكانت نقاط الاتفاق الاولى التي وضعت لهذا المكتب ما يلي :

١ — تنسيق الاحصائيات .

٢ — مكافحة التهريب (تهريب البترول إلى اسرائيل) .

٣ — تسهيل تمويل الدول الأعضاء به .

٤ — تنظيم احصاء عن انتاج البترول في الدول العربية وعن شركات الامتياز، وعن مقدار ما يستهلك منه في كل بلد عربي .

٥ — انشاء شركات عربية قوية لتوزيع البترول بقصد توفير حاجة جميع البلدان العربية من منتجاته .

واتبعت تلك الخطوات بغيرها ، وانتقلت المقترحات الى طور العمل ، وبوشر باقامة مكتب ألحق بالأمانة العامة للجامعة، وذلك في العام نفسه ، وبمبادرة منه عمل على تنسيق السياسة البترولية بما يتفق والمصالح العربية،وشرع في وضع المخططات التي توجه سياسة البترول وتحدد دوره في المستقبل :

أولاً – تنسيق سياسة البترول لدول الجامعة العربية ويكون ذلك :

أ – بدراسة اجازات البحث وعقودها لاستغلاله والمسائل القانونية في كل دولة عربية ، والعمل على توحيد أسسها بقدر الامكان ، مع مراعاة ظروف كل دولة .

ب – دراسة اللوائح الخاصة بالمحافظة على الثروة البترولية وحسن استغلالها .

جـ – تبادل الموظفين القائمين بأعمـــال الرقابة في كل دولة عربيـة بقصد تحسين الرقابة والاستفادة من تبادل الخبرة الموزعة في كل بلد عربي.

د – دراسة الصناعات البترولية والعمل على انتشارها وانجاحهـا في بلاد الدول العربية .

هـ – رسم سياسة للاكتفاء الذاتي لدى دول الجامعة فيما يختص بمشتقات البترول ومنتجاته المختلفة .

ثانياً – دراسة طرق استغلال البترول العربي في المحيط السياسي ويكون ذلك:

أ – بوضع نظام للتصدير .

ب – بوضع نظام خاص لتصاريح التصدير بقصد الحصول على الأموال الأجنبية التي تحتاج اليها البلاد العربية .

جـ – دراسة امكان استبدال البترول بمنتجات وامكانيات صناعية تحتاجها البلاد العربية ومراعاة ذلك حين عقد الاتفاقات التجارية مع الدول الأخرى .

ثالثاً – تعريب صناعة البترول ويكون ذلك :

أ – بوضع نظام يشجع على استخدام الموظفين والعمال العرب في جميع فروع صناعة البترول .

ب – وضع نظام يضمن الاستفادة من الخبراء الأجـــانب في تمرين الموظفين العرب .

جـ - البحث عن امكان اشتراك الدول المنتجة للبترول بجزء بسيط من دخلها لإنشاء معامل لأبحاث البترول وتشجيع البحث العلمي ومد يد المساعدة للمعاهد المشتغلة .

رابعاً - حماية حقوق العمال والموظفين العرب الذين يعملون في صناعة البترول.

خامساً - دعوة البلاد العربية المنتجة للبترول من غير المشتركين في الجامعة العربية لحضور اجتماعات لجنة الخبراء وانشاء قسم خاص بالبترول في معهد الدراسات العربية لتدويل صناعة البترول ، ونشر الثقافة البترولية في البلاد العربية .

وكانت السياسة البترولية التي اتخذتها الجامعة تدل دلالة واضحة على قوة الشعور العربي ، وبلورة مفهوم المصير الواحد للعالم العربي ، وليس أدل على ذلك من مثال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ (١٣٧٦هـ) وردوده في نفوس أبناء الخليج ، وبقية البلاد العربية وفي مقدمتها سورية .

ولقد قامت المساعي الاستهلالية لعقد المؤتمر الأول للبترول العربي وتداولت موضوعه لجنة الخبراء العرب ، في بغداد عام ١٩٥٧ (١٣٧٧هـ) وكان مجال الدراسة يدور على محور النقاط الآتية :

١ - عقد المؤتمر الأول للبترول العربي .

٢ - تنسيق سياسة البترول للدول العربية

٣ - انشاء شركة عربية موحدة لناقلات البترول .

٤ - انشاء شركة خطوط أنابيب عربية تساهم فيها الدول العربية ، وخصوصاً البلاد المنتجة للبترول والبلاد التي تمر الخطوط في أراضيها .

٥ - عدم السماح بمرور البترول لاسرائيل .

وكانت الخطوة التالية عندما تم في عام ١٩٥٨ (١٣٧٨هـ) انشاء « الهيئة العامة للبترول » في مدينة القاهرة وذلك حرصاً على توحيد الجهود وتحقيق المرامي التي استهدف من ورائها انشاء المكتب الدائم للبترول العربي ، وقد دعت هذه الهيئة إلى عقد عدة مؤتمرات عربية للبترول .

المؤتمر البترولي الاول

لقد عقدت أولى جلسات هذا المؤتمر البالغ الأهمية بمدينة القاهرة في ١٨ نيسان ١٩٥٩ (١٣٧٩ هـ) وتم لأول مرة اجتماع مندوبين عن الدول العربية لتخطيط السياسة البترولية وتوجيهها وما يتفق والسيادة العربية ، ليكون لها الدور الطليعي في قضايا البترول ، عصب الحياة ودعامة التطور ، واستمرت جلساته ستة أيام وختمت في ٢٣ من الشهر نفسه ، وذلك نص قراراته وتوصياته المتخذة :

١ — ضرورة تحسين المشاركة في الأرباح لمصلحة الدول المنتجة للبترول واقامتها على أسس عادلة معقولة .

٢ — العمل على تكوين شركات وطنية متكاملة تباشر نشاطها في جميع عمليات البحث عن البترول وانتاجه وتكريره ونقله وتسويقه وذلك جنباً إلى جنب مع الشركات الخاصة القائمة في هذه الدول .

٣ — ضرورة العمل على ايجاد أجهزة في الدولة المنتجة تختص برسم سياسة المحافظة على مصادر الثروة البترولية وسلامة استغلالها آخذة بعين الاعتبار مصالحها الوطنية والأوضاع السائدة فيها .

٤ — تقوم الحكومات في الدول ذات الموارد البترولية ، من آن إلى آخر بتبادل وجهات النظر بما بينها فيما يتعلق بتدابير المحافظة على مصادر الثروة البترولية وسلامة استقلالها ، وغير ذلك من المسائل لايجاد نوع من التنظيم والتنسيق بين التدابير والاجراءات التي تتخذها كل منها في هذا السبيل ولضمان وصول البترول للأسواق العالمية .

٥ — ان التعديل في الطريقة المتبعة في تسعير البترول ومنتجاته في الوقت الحاضر وأي تغيير في الأسعار لا يتم إلا بعد بحثه مع الدول المصدرة للبترول على أن تقوم الشركات المنتجة نفسها باعلان هذه الأسعار .

٦ — ان تفكر الحكومات ذات الموارد البترولية في تشكيل جهاز استشاري لها كأداة لتبادل وجهات النظر حول المسائل المشار اليها آنفاً .

٨ — تنفيذ مشروع خط الأنابيب العربية .

٨ – زيادة طاقة التكرير في البلاد المنتجة للبترول والمجاورة لها لاقامة صناعات بترولية كيمائية .

٩ – العناية بانشاء معاهد البحوث البترولية والمراكز اللازمة لإعداد الفنيين من أبناء البلاد المنتجة للبترول وتدريبهم على القيام بالأعمال الفنية المتصلة بفروع صناعة البترول المنوعة .

المؤتمر البترولي الثاني

ولقد توالت المؤتمرات العربية بشأن البترول ، وحسب القارىء ان يعلم ان المؤتمر الخامس منعقد حتى تاريخ كتابة هذه السطور ، وكان انعقاد المؤتمر الثاني بمدينة بيروت في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٠ (١٣٨٠هـ) ، وقد أصدر القرارات والتوصيات الآتية :

١ – يؤيد المؤتمر مطالب الحكومات العربية وجهودها التي تهدف إلى تحسين شروط الامتيازات البترولية ، ويعرب المؤتمرون عن أملهم بأن تتجاوب الشركات مع هذه المطالب العادلة لضمان استمرار التعاون المثمر بينها وبين الحكومات لخدمة المصالح المشتركة لهذه الحكومات والشركات والمستهلكين معاً .

٢ – يستنكر المؤتمر التجاء شركات البترول إلى تخفيض أسعار البترول الخام ومنتجاته دون الحصول على موافقة حكومات البلاد العربية المنتجة .

ويؤيد المؤتمر هذه الحكومات في موقفها بعدم الاعتراف بالتخفيض المشار اليه .

٣ – يوصي المؤتمر بأن تضاعف حكومات البلاد العربية جهودها الخاصة بتشجيع البحوث الفنية والاقتصادية والقانونية المتعلقة بشؤون البترول بمختلف الوسائل وبتسهيل اشتراك أبناء البلاد العربية بأعمال المؤتمر البترولية

٤ – يوصي المؤتمر بأن توجه الدعوة لانعقاده سنوياً في يوم الاثنين من الأسبوع الثالث من شهر تشرين الأول وبأن يعقد المؤتمر في مدينة القاهرة.

المؤتمر البترولي الثالث

عقد هذا المؤتمر بناء على توصيات المؤتمر الثاني ، وذلك بمدينة الاسكندرية في شهر تشرين الأول ١٩٦٠ (١٣٨٠ ﻫ) وتدور قراراته حول النقاط الآتية :

أولاً – يوصي المؤتمر الدول العربية بالتأكد من مثالية الاجراءات التي اتخذتها لتنفيذ توصيات مؤتمر المقاطعة التي تستهدف الحيلولة دون نقل أو بيع البترول أياً كان مصدره إلى اسرائيل سواء بطريق مباشر أو بالواسطة وان تحيط شركات البترول العاملة لديها بأن عليها والشركات التي لها علاقات مساهمة بها أن تتجاوب تجاوباً تاماً مع الدول العربية في هذا الشأن إذا شاءت أن تحافظ على مصالحها في البلاد العربية .

ثانياً – يؤيد المؤتمر حق شعب الجزائر العربي الشقيق وسيادته الكاملة على صحرائه وما تحتويه من ثروات بترولية ويرى ان جميع الاتفاقات الخاصة بالبحث عن هذه الثروات واستغلالها سواء في الجزائر أو في أي بلد عربي آخر لا تعتبر قائمة ما لم تكن معقودة مع الحكومات الوطنية التي يكون لها وحدها حق تمثيل ذلك البلد .

ثالثاً – يرى المؤتمر ان وحدة أهداف الدول العربية التي تعبر عن وحدة آمال شعوبها تقتضي توفير جميع الوسائل اللازمة لتوحيد الخطوط الرئيسية للسياسة البترولية وتطويرها ووضع وتوحيد النظم المعمول بها في النواحي الادارية والمحاسبة والفنية وأسس الاتفاقيات ودراسة المشروعات البترولية العربية المشتركة .

رابعاً – يوصي المؤتمر بأن تضاعف الحكومات العربية جهودها للمساهمة بطريقة ايجابية في المشروعات التي تقوم بها الشركات البترولية العاملة في البلاد العربية وذلك بالمساهمة في رؤوس أموال هذه الشركات ، وكذلك المشاركة في ادارتها باعتبار ان ذلك هو السبيل العملي لتأمين حقوق الشعوب العربية وضمان استقرار العلاقات بين الحكومات والشركات .

خامساً – يرى المؤتمر ان من المحتم استكمالاً للجهود التي تبذلها الدول العربية لإعداد فئات الفنيين والعمال من المستويات المختلفة ان تقوم حكومات هذه الدول

والشركات العاملة فيها باقامة العدد الكافي من المعاهد الفنيـــة ومراكز التدريب المهني ، كما يوصي المؤتمر بأن تتخذ التدابير الـــلازمة في كل دولة لإلزام الشركات بتهيئة الفرص لأبناء البلاد العربية لاستكمال خبراتهم الفنية وتمكينهم من الاضطلاع بالمسؤوليات الأساسية في هذه الشركات .

سادساً – يوصي المؤتمر الحكومات والشركات العاملة فيها باقامة العـدد الكافي والخطوات اللازمة للمحافظة على الثروة الغازية التي تبدو حـــالياً اما بالتوسع في استعمالها أو بحقنها في باطن الأرض تمهيداً لاستغلالها في المستقبل .

سابعاً – نظراً للتطور المستمر في الصناعة البترولية يوصي المؤتمر بأن تبذل الحكومات العربية جهودها لحماية العاملين في هذه الصناعة من الأخطار الصناعيـة التي قد يتعرضون لها ومطالبة الشركات بضرورة تأمين سلامتهم .

ثامناً – يوصي المؤتمر بأن تولي حكومات الدول العربية بالغ اهتمامها بضرورة استخدام الشركات البترولية للمصنوعات والمنتجات والخامات العربية كلما أمكن ذلك باعتبار ان ذلك من شأنه ان يدعم الصناعات العربية ويطورها ويحقق للعرب نصيباً أوفر من دخل البترول .

تاسعاً – يؤيـــد المؤتمر الحكومات العربية في كل ما تتخذه من اجراءات تستهدف المحافظة على مصالحها البترولية بصفة عامة وعلى أسعار عادلة للبترول بصفة خاصة باعتبار ان ذلك أساس للمحافظة على مورد رئيسي لدخلها القومي .

عاشراً – تقرر ان يعقد مؤتمر البترول العربي الرابع في مدينة بيروت في يوم الاثنين الأول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٣ .

المؤتمر الرابع للبترول

تم انعقاد هذا المؤتمر بمدينة بيروت في ٥ تشرين الثاني من عام ١٩٦٣ (١٣٨٣هـ) وإلى القارىء ما جاء في قراراته :

ان مؤتمر البترول العربي الرابع المنعقد في بيروت في المدة منه ٥ إلى ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٦٣ :

ايماناً منه بأهمية البترول العربي كثروة قومية لها أثرها الحيوي في تنميـة الاقتصاد العربي وتطويره ، ورفع مستوى المعيشة في الوطن العربي ، وادراكاً منه للمسؤوليات الكبيرة التي تقع على عاتق الحكومات العربية في هذا المجال قد أصدر القرارات الآتية :

١ – يوصي المؤتمر ويؤكد مرة أخرى ضرورة مبادرة الشركات إلى اتخاذ الخطوات الايجابية للالتقاء مع الأماني العربية بما يحقق حصول الأقطار العربية على نصيبها العادل من ثرواتها الوطنية حتى تستطيع ان تطور اقتصادياتها ، ويسترعي المؤتمر اهتمام الشركات إلى ان استمرارها في اتخاذ موقف سلبي تجاه هذه الأماني العادلة إنما يزيد الأمور تعقيداً ويضر بمصالح الشركات نفسها في نهاية الأمر .

وينوه المؤتمر بصفة خاصة بوجوب تجاوب الشركات مع المطالب العربية بشأن احتساب الريع كمصروف واعادة الأسعار إلى المستوى الذي كانت عليه قبل آب (اغسطس) سنة ١٩٦٠ ويأمل أن تعلن في القريب العاجل أنباء تسليم الشركات بوجهة النظر العربية في المسائل السابق الاشارة اليها ليتحقق للعرب اطمئنانهم إلى حصولهم على نصيبهم العادل من ثروتهم القومية الأمر الذي لا شك يؤمن من ناحية أخرى الاستثمارات الأجنبية في هذه البلاد نتيجة لاطمئنان الشعب العربي لها وقبوله استمرارها .

٢ – (أ) : يرى المؤتمر أن تعمل الدول العربية على احكام تنفيذ ما سبق لهذا المؤتمر اصداره من توصيات بشأن منع تزويد اسرائيل بالبترول ومشتقاته من مختلف الدول ، خاصة تلك الدول التي تربطها بالدول العربية مصالح بترولية مشتركة .

ب – كما يحذر المؤتمر الدول الأعضاء في السوق الأوروبية المشتركة من السماح لاسرائيل بالارتباط بهذه السوق بأية صورة من الصور .

٣ – يؤكد المؤتمر ضرورة استمرار العمل على خلق جيل بترولي واع وعلى توفير الفنيين والاخصائيين العرب القادرين على النهوض بهذه الصناعة وتطويرها.

ويوصي البلاد العربية بضرورة انشاء المعاهد والكليات الفنية على أن تقوم هذه الكليات والمعاهد بالتعاون والتنسيق فيما بينها بتبادل المعلومات والأساتذة

والمساعدات الفنية لتقوم على اعداد هذا الجيل .

كما يوصي المؤتمر بالعمل على اقـــامة مركز عربي لبحوث الصنـــاعة البترولية والبتروكيمائية تموله الدول العربيةوالشركات العاملة بها لتدعيم هذهالصناعة والمساهمة في حل مشاكلها الفنية في جميع مراحلها .

٤ – يؤكد المؤتمر ضرورة اعطاء العامل العربي الأولوية في شغل الوظـــائف بحيث لا يسمح بتعيين أجنبي إذا كان هناك عربي قادر على القيام بعمله مع مطالبة الشركات بتنظيم دراسات تدريبية لاعداد العامل العربي لشغل وظيفة الأجنبي .

كما يؤكد المؤتمر ضرورة المساواة الكاملة بين العامل العربي والعامل الأجنبي في في الأجر الأساسي طالما كانا يؤديان نفس العمل وعلى أن يتساويا تمامـــاً في الأجر الأساسي والمزايا الفنية إذا كان العامل الأجنبي من المقيمين اقامة دائمة في البلاد .

ويوصي المؤتمر بزيادة نصيب العـــاملين العرب بغية رفع مستوياتهم الاجتماعية والثقافية والفنية وتنظيم ذلك بقوانين تصدرها الحكومات العربية كلها .

٥ – يوصي المؤتمر بأن توجه الدعوة لعقد المؤتمر الخامس واقـــامة معرضه في مدينة القاهرة في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٦٥ .

ونحن نكتب هذه السطور والمؤتمر الخامس ما زال معقوداً ، وكل الدلائـل تشير إلى ان قراراته ستزيد من قوة العرب اقتصادياً وتدعم العالم العربي سياسياً .

مأساة البريمي

الواحة السعودية

البترول نعمة ورحمة ، ما في ذلك ريب ، ما دام حقله الصناعة والعلم ، لكن إذا ما دخلت ساحته السياسة ، بارتباط الدول بعضها ببعض ، على أساس دول عظمى قوية ودول صغرى مستضعفة ، انقلبت تلك النعمة إلى نقمة ، والرحمة إلى جريمة ، ومأساة البريمي هي جريمة بترولية كبرى .

والبريمي جغرافياً هي تلك الرقعة من الأرض المنبسطة على مساحة ٧٣٥٥٤ كيلومتراً مربعاً ، وتقع جنوبي الخليج العربي بين شبه جزيرة قطر غرباً وشبه جزيرة رؤوس الجبال شرقاً . ويشمل البحر الواقع بين قطر ورؤوس الجبال جزءاً كبيراً من مغاصات اللؤلؤ الكبيرة وعدداً ضخماً من الجزر الصغيرة . وفي بعض الأماكن القريبة من الساحل بين قطر وسبخة مطي تكون مياه الخليج عميقة نسبياً ، أما على طول الساحل الجنوبي من سبخة مطي شرقاً فانها ضحلة إلى مسافة بعيدة عن الشاطىء .

وتتألف الواحة من تسع قرى ، وتفصل بينها مساحات صحراوية متفاوتة الاتساع . ووضعها الممتاز نسبياً نشأ عن وجود ينابيع للماء فيها ، مما يجعل فيها القسم الأكثر كثافة بالسكان . وفوق ذلك فهي مركز طبيعي للزراعة والتبادل

التجاري كما انها الطريق المؤدي إلى مسقط [1] . »

هذا هو التحديد الجغرافي لتلك الواحة التي ارتبطت بالتاريخ السعودي والدولة السعودية منذ نشأة دولتها الأولى ، وكان دخولها تحت راية التوحيد دخول من أشربت روحه الايمان ، لا الخاضع بحد السيف ، فكما اشتهر أهل الغبراء بأنهم آمنوا بالرسول الكريم دون ان يروه فكسبوا ذلك الدعاء من شفتي ابن عبد الله « رحم الله أهل الغبراء » فقد آمن بعض أحفادهم برسالة التوحيد دون ان تشهد أعينهم حاملي لواء الدعوة : الشيخ محمد عبد الوهاب ، والامام عبد العزيز،فأرسلوا وفداً عنهم إلى الدرعية يلتمسون من الامام ان يرسل اليهم من يعلمهم قواعد الدعوة ، فأجابهم إلى طلبهم هذا فبعث اليهم بابرهيم بن سليمان بن عفيصان الذي اتخذ من الواحة مقراً له ، وشاد فيها قصراً دعاه قصر العبادة .

وتحرك سلطان مسقط ، سلطان بن احمد البوسعيدي يريد انتزاع الواحة من الأيدي التي فيها مضاء السيف إلى شدة الايمان بتعاليم القرآن ، فارتد عنها مدحوراً مقهوراً ، فاستظهر عليهم بالفرس فلم يفلح ، واستنجد بالترك فلم ينجح ، ولم ينقذه غير التسليم بتلك القوة الغلابة ودفع الأتاوة السنوية لها ، إن توقف عن الدفع رُفع السيف بوجهه .

وكان خلفاء سلطان بن أحمد ، إما موالياً للسعوديين أو مناوئاً ردّه للجادة حد السيف ، حتى غدت عُمان بالذات عام ١٧١١ (١٢٢٣ هـ) تدور في فلك الدولة السعودية .

بريطانية تعترف بأن الواحة ليست تابعة لمسقط

وحينئذ ولىّ السلطان سعيد بن سلطان وجهه شطر حكومة الهند البريطانية يلتمس منها العون ، ولكن أيّ جواب تلقى من الانكليز ؟ لقد قيل له :

« واحة البريمي تقع بعيداً عن الساحل في المنطقة الواقعة خلف سلسلة الجبل

---

١ – الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٣٢ – ١٣٣

الاخضر ، وأن جزءاً كبيراً من هذه المنطقة لا يخضع فعلاً لحكم ائمة مسقط.. وعلى ذلك فان السلطات البريطانية لا تجد أيّ مبرر لتدخلها في مثل هذه الشؤون الخاصة بأمر السيادة على مناطق غير واضحة الحدود [1] » .

ومع ذلك فقد نازلهم هذا الضارب أبداً بسيف غيره بقوى فارسية يقودها ضباط روس ، فحلت به الهزيمة ، ودفع الأتاوة صاغراً .

إلا ان قبضة السعوديين قد تراخت فترة قصيرة عندما تقوضت أركان دولتهم على يد محمد علي باشا الوالي على مصر من قبل الحكومة العثمانية ، وانحسرت راية التوحيد عن البريمي لتظل العقيدة راسخة في أعماق أبنائها الذين وقفوا من الحاكم سعيد بن مطلق الذي أدار شؤون الواحة باسم سيده خالد بن سعود، ولم يكن هذا الأخير غير دمية هزيلة بيد محمد علي باشا الذي عجز عن أن يحكم نجد وتوابعها حكماً مباشراً ، حتى عرض بعض شيوخ المنطقة فكرة الحماية البريطانية تخلصاً من ابن مطلق وسيده والصنم الكبير الذي يجثم وراء الاثنين ، ونزل أول ممثل لشركة الهند الشرقية الكابتن همرتن الأرض المسقطية وزار البريمي ، ليرفع بعدئذ عنها تقريراً مفاده بأن الواحة ليست بتابعة لسلطنة مسقط [2] .

ولم يطل الوقت حتى بُعثت الدولة السعودية مجدداً عام ١٨٢٤ (١٢٤٠ هـ) على يد الامام تركي بن عبد الله بن سعود ، وعادت الراية السعودية إلى الخفوق في سماء البريمي بقوة الايمان قبل مضاء السلاح ، وعاد السلطان سعيد بن سلطان إلى خطة أجداده في الاستعانة بالقوى الانكليزية والتمسح على الأعتاب البريطانية التي خيبت طلبه مرة أخرى ، إذ جاءه الخطاب التالي من حكومة الهند البريطانية رداً على ملتمساته .

« ليست الحكومة البريطانية مستعدة للموافقة على استعمال قواتها للمحافظة على سلامة ممتلكات إمام مسقط في داخل القارة . إن قوة الوهابيين في ازدياد دائم ،

---

١ ــ الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٩٠

٢ ــ المرجع السابق ص ١١٣

وليس لنا أي مصلحة في الاشتباك معهم في حرب . وقد أوحى وردن Warden ، الخبير بشؤون بلاد العرب في مذكرة بتاريخ شباط (فبراير) سنة ١٨٢٦ بأفضلية اتباع هذه السياسة . وعلى فرض ان مسقط سقطت في أيدي الوهابيين ، فإن هذا لا يزعجنا ما دمنا نحافظ على تفوقنا البحري في الخليج . ولما كانت سلامة التجارة هي التي تهمنا فقط في هذه المياه ، فإننا لن نتدخل ضد الوهابيين إلا إذا شجعوا القرصنة [1] » .

واسقط بيد السيد سعيد الذي لم يكن يخجل من التصريح بقوله : « اني تاجر قبل أن أكون سلطاناً » . وسلم بضعفه عن الوقوف في وجه هذا التيار الجارف واتفق مع السعوديين في سنة ١٨٣٣ (١٢٤٩ هـ) على الاسس التالية :

١ – يدفع للرياض أتاوة سنوية قدرها خمسة الآف ريال .

٢ – يحتفظ كل منهما بساحله الخاص وفقاً للحدود القائمة فتمتد حدود مسقط إلى جعلان وحدود السعوديين إلى القطيف .

٣ – يتعهد الفريقان بتبادل المعونة لقمع أي فتنة تقع في أراضيهما [2] .

ثم عاد إلى الترك لأخذ السعوديين بغتة ، ولكن كان جزاءه هذه المرة أشد وطأة ، والدرس الذي لقنه أعنف ، ولم ينقذه غير الاتفاق التالي :

١ – تدفع مسقط للرياض أتاوة سنوية قدرها ١١٢ ألف ريال بالاضافة إلى مبالغ متأخرة قدرها ٦٠ ألف ريال .

٢ – يتعهد الامام السعودي بأن يساعد سلطان مسقط في ساعة الشدة .

٣ – تبقى حدود الطرفين كما كانت سابقاً .

٤ – يتبادل الفريقان التزود بالمؤن والامدادات حسب العادة [3] .

وعادت دولة السعوديين إلى الاختفاء لتبعث من جديد بقوة اشد عنفواناً وانفذ

---

١ – المرجع السابق ص ١٣٧

٢ – الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ٥٢

٣ – المرجع السابق ص ٥٣

مضاء ، على ماضي حسام الأمير عبد العزيز آل سعود الذي لم يطل بـه الزمن حتى ازداد نجمه تألقـاً فغدا سلطاناً لنجد ، وجال جولات قصيرة وسريعة مكنت له الملك في الحجاز فكان ملك الحجاز وسلطان نجد الناهض بأعبـاء الجزيرة العربية يجمع شملها من جديد تحت راية التوحيد التي لم ينطفىء لها قبس في الواحة المتوهجة بنور الدعوة ، والتي كان لقبائلها السهم الاوفى في الحفـاظ على حيـاة شبل الصحراء (الأمير عبد العزيز) عندما طلب اكناف البـادية ملاذاً له ، وقد ازعجت الاسرة السعودية عن ملكها .

وأنفذ الملك السعودي في عام ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) سعيد بن فيصل إلى الواحـة لينظمها حبة كريمة في عقد الدولة ، فلم يلق غير التجـاوب الكريم ، والسير على هدى القرآن ، واداء الزكاة ، ونظمت ادارياً بارتباطها بامارة الاحساء عام ١٩٢٧ (١٣٤٦ هـ) ، وسلطان مسقط خانع والانكليز ساكتون .

بريطانية تدعي لنفسها «حقوقاً» في البريمي

وذر الخلاف قرنه أول ما ذر عام ١٩٣٣ (١٣٥٢ هـ) ، وذلك عندمـا أقدمت الحكومة السعودية على اعطاء امتياز بالتنقيب عن البترول لشركة اميركية ، بعدما تلكأت الشركات الانكليزية وترددت ثم تقدمت بشروط أقل من شروط الشركات الأميركية جدوى على المملكة التي يرعى الملك حقوقهـا بكل خفقة من خفقات قلبه ، ولذا بيتت انكلترة الشر للعربية السعودية الدولة الفتية ، وان لم ترد رداً آنياً على الامتياز السعودي الأميركي .

وفي الثامن والعشرين من حزيران عـام ١٩٣٤ (١٣٥٣ هـ) أبلغت انكلترة الدولة السعودية عن طريق سفيرها في جدة ، بأن الحكومة الأميركية تستفسر منها عن مواقع الحدود الشرقية للمملكة العربية السعودية ،وانها أي الحكومةالبريطانية، قد رجعت لاتفاقياتها مع الأمبراطورية العثمانية عـام ١٩١٣ (١٣٣٢ هـ) ، تلك الاتفاقيات التي تحدد الخطوط البيـانية لمسارات حدود سلطنة مسقط والمشيخات المرتبطة مع بريطانية بمعاهدات تخولها حق الدفاع عنها ، ووجدت بالتالي أن الواحة

تشملها تلك الحدود !..

واعترض الملك على هذا الاجراء غير القانوني ، ورفض رفضاً قاطعاً أن يكون للاتراك أي حق بتخطيط حدود لبلاد ليس لهم بهـا موطىء قدم ، والتفت قبائل الواحة حول الملك ، لكن بريطانية ظلت على موقفها من غير أن تأتي بحركة سلبية واحدة .

واتخذ الخلاف شكلاً جديداً ما بين البريطانيين والعربية السعودية عندما أقدم شيخ قطر على منح شركة انكليزية حق التنقيب عن البترول في امارته ، وكان رأي الدولة السعودية أن الحدود ما بين المملكة السعودية والإمارة القطرية لم يتفق عليها بعد ، وكتب الملك بذلك إلى الأمير القطري ، غير أن الجواب جاءه من بريطانية بالاحتجاج على ذلك الاتصال المباشر ما بين حاكمين عربيين !.. ولكن ما عتمت الامبراطورية ان عادت لسياسة اللين حين رأت ان وشائج الاخوة بين المملكة السعودية وقطر هي التي تحدد العلاقات بين البلدين الشقيقين ، وانتهت مشكلة قطر ، وبقيت مشكلة البريمي قائمة ، ولم تجد البعثة السعودية التي زارت لندن برئاسة وزير الخارجية آنذاك الأمير فيصل فتيلاً ، وشتان ما بين صاحب حق ، وطامع لا يقيم للحق وزناً .

واندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، فكان من المحتم على طرفي النزاع طي صفحاته ،لاسيا وان جلالة الملك السعودي قد وقف من المحور موقف العداء. وعندما وضعت الحرب أوزارها وعادت الشركة الاميركية لاستئناف نشاطها التنقيبي رفعت بريطانية صوتها بالاحتجاج على الشركة مدعية بأنهـا تمارس التنقيب في أرض غير سعودية ، بل بأرض تشملها الحماية البريطانية – سلطنة مسقط ومشيخاتها – وردت الدولة السعودية بأنه إذا كان هنالك من طرف حقيقي بالنزاع فهو امامة عمان المستقلة لا سلطنة مسقط ، هذا إن نظر إلى الموضوع من وجهة نظر الجغرافية الطبيعية، وإن نظر اليه من زاوية الجغرافية البشرية فسكان البريمي وقبائلها يدينون بالولاء للدولة السعودية ويؤدون الزكاة حسب قواعد الشرع الحنيف،ولكن الرد البريطاني كان من الصفاقة والاخلال بالآداب العامة بحيث نعت عمال الزكاة باللصوص [1] .

١ – الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٢٠١

بريطانية تلجأ الى القوة

ومع ذلك تذرعت المملكة العربية السعودية بأسباب الصبر ، وجلست في شهر شباط سنة ١٩٥٢ (١٣٧١ هـ) إلى مائدة مستديرة في الدمام مع ممثل بريطاني ، وحضر الجلسة كل من حاكم قطر والشيخ علي بن عبد الله بن قاسم وشيخ أبي ظبي ، ووقف الشيخ القطري الموقف الذي يمليه الوجدان العربي والشعور الأخوي ، بينما كان الثاني أضرى من الانكليز ،وادعى – ومسوغه القانوني قوة الحراب البريطانية – انه وسلطان مسقط زميله في العمالة صاحبا الحق بالواحة .

ورفع مواطنو الواحة أصواتهم بالاحتجاج ، وأخذت الشرطة السعودية أماكنها في البريمي بناء على طلب السكان وإلحاحهم ، ولكن جواب بريطانية على ذلك كان بفتح النار ، واشعالها حرباً لاهبة براً وجواً ، وجرى القلم في القرطاس بهذه البرقية إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧١ بتوقيع جلالة الملك عبد العزيز :

«لا يوجد شيء آلم على نفسي من ان تتأزم الحالة بيننا وبين الحكومة البريطانية لدرجة تهديدنا بالطائرات من حكومة يرأسها صديقنا المستر تشرشل ونائب رئيسها ووزير خارجيتها المستر ايدن ، ونحن في بلادنا ولم تعتد على أحد من البريطانيين أو على بلاد بريطانية ، فالبلاد بلادنا وان قدوم هذه الطائرات إلى البريمي يعتبر عاملاً عدائياً ضدنا ، ويهمنا ان تحل كل المشاكل التي بيننا وبين بريطانيا ، وليس من مصلحة الطرفين ان يذاع وينشر عند العرب وعند المسلمين ان هنالك خلافاً وصل إلى درجة المقاومة بالسلاح بيننا وبين الحكومة البريطانية . وقد منعنا عمل أي شيء ضد الطائرات القادمة ، فإذا كان المستر ايدن يرى الابقاء على الصداقة بيننا وبينهم فلتكف الحكومة البريطانية عن السماح لموظفيها في الخليج بالقيام بهذا العمل العدواني وإلا فسنضطر لإعلان ما حدث وسنعتبر هذا العمل موجهاً ضدنا وضد نجد وضد ممتلكتنا كلها ، كما سنضطر لرفع شكوانا إلى مجلس الأمن والدفاع عن حقوقنا بكل ما نستطيع ، ولا نقدم على هذا إلا مكرهين ولا يزال لنا الأمل

في حضرة المستر ايدن ليتدارك الموقف وننتظر الجواب بفارغ الصبر [1] . »

وجاء رد وزارة الخارجية البريطانية في ١٩ محرم ١٣٧٢ ، عن طريق السفارة في جدة ويتضمن ما يلي :

« يرغب المستر ايدن ان يؤكد لجلالة الملك استمرار صداقة حكومة جلالتها لجلالة الملك وللحكومة العربية السعودية . إلا انه قلق جداً من ان اختلاف الرأي بين الأصدقاء القدماء يكبر بشكل طائش . اما من جهة الحكومة البريطانية فانها كانت في غاية المسالمة ، واما طيران طائرات السلاح الجوي الملكي فقد أوقف.

ويرغب المستر ايدن رغبة صادقة في حل الخلاف بصورة عادلة وودية ، وهو على استعداد لسحب قوات عمان من البريمي في نفس الوقت الذي ينسحب فيه تركي ابن عطيشان من البريمي ، وعلى جلالة الملك ان يعتبر بأن سلطان مسقط يعد نفسه مشتركاً في هذا الموضوع ،وإذا وافق جلالته على الانسحاب المشترك فان باستطاعتنا ان ننصح السلطان بالاعتدال وسأقترح فتح باب المباحثات المغلقة بشأن الحدود بأسرع وقت ، وعلى جلالة الملك ان يعطي الوقت الكافي للاستعداد .

اما اقتراحاتنا الجديدة فقد تأخرت بسبب العمل الذي قام به جلالة الملك في البريمي وسنقدمها بأسرع وقت . وفي نفس الوقت يأمل المستر ايدن ان يقابل جلالة الملك إخلاصه بمثله بأن يضع حداً لهذا الحادث [2] . »

بريطانية ترفض الاستفتاء وتقبل بالتحكيم

واقترح الملك عبد العزيز حل المشكلة على قاعدة الاستفتاء فرفضت بريطانية ذلك رفضاً قاطعاً، دون أن يتحرج رئيس وزرائها من تسطير برقية إلى الملك يذكر له فيها صداقته ، ولكن يرى من الواجب أن يأخذ بيد الصديق الأضعف :

« أذنت لي حكومة جلالتها في المملكة المتحدة بارسال مذكرة إلى حكومة

---

١ ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٤١

٢ ـ المرجع السابق ص ١٤١ ـ ١٤٢

جلالتكم والتي لست أشك إلا أنها ستكون غير سارة لكم . ولتسمح لي جلالتكم أن أضيف هذه الكلمات القليلة بصفتي صديقاً قديماً ورفيقاً في الحرب .

ان غايتي الشخصية وغاية زملائي في حكومة جلالتها ان تنمو الصداقة القائمة بين شعبي بلدينا والتي كانت مصدراً للقوة والمؤاساة في أيام الشدة وتستمر بصورة أمتن. ومن جهتي فاني لا أعتزم السماح بتعكيرها من جراء حوادث آمل الا ان تكون موقتة .

ولكن من واجبي كرئيس وزارة وكصديق أن أبين بأن حكومة جلالتها على علائق ودية مع جيران جلالتكم وانها فعلاً مرتبطة بالتزامات مقدسة مع غالبيتهم وهي تعتزم كل العزم أن تحافظ على هذه العلائق وأن تقوم بهذه الالتزامات فاذا كانت بفعل ذلك ستكدر صديقاً غالياً آخر فان هـــذا لمن دواعي الأسف الشديد ولكنه لن يكون سبباً للتأخر عن الواجب . وماذا تكون قيمة الصداقة البريطانية لو تخلت عن الصديق الأضعف بين أصدقائها في سبيل الصديق الأقوى ؟

اننا سوف نعاضد ما نعتقده بأنه حق وان جلالتكم بدون شك تفعلون الشيء ذاته ولن يفكر الواحد منا سوءاً في الآخر بسبب ذلك .

وإذا لم يتمكن أحدنا من اقناع الآخر فهل بإمكان القوة الديبلوماسية أن تجد الوسائل للتوفيق بين وجهات نظرنا بعدل وشرف .

وفي غضون ذلك فاني أرجوكم يا مولاي أن تقبلوا تمنياتي لدوام صحة وسعادة جلالتكم ولأجل رفاهية ونجاح مملكة جلالتكم [1] » .

صديق جلالتكم وخادمكم
ونستون س . تشرشل

ولكن شفع البريطانيون تلك الكلمات الناعمة على لسان رئيس وزرائهم بأن ألغوا كل الاتفاقيات السابقة إذ غدوا في موقف الأقوى .

ومع ذلك ، عاد الفريقان للغة الحوار ، وارتضيا بمبدأ التحكيم على أن يكون

١ ــ المرجع السابق ص ١٤٥ ــ ١٤٦

الفريق الثالث والمرجح هو اميركا صديقة طرفي النزاع ، لكن انكلترة ما عتمت أن نكصت على عقبيها ونقضت ما أبرمت وطلبت أن يكون التحكيم دولياً ، فعادت السعودية إلى فكرة الاستفتاء بيد ان انكلترة ظلت على موقفها هذا .

وايماناً من السعودية بأن الحق في جانبها ، وان التحكيم الدولي لا بدّ آتٍ لمصلحتها ، ارتضت ما اقترحته انكلترة وسلّمت به ، في الوقت الذي كانت بريطانية ما تفتأ تعزز قواتها في البريمي ، بينا كانت القوات السعودية معزولة ينقصها التموين ، ولا مدد لها سوى التفاف الشعب حولها .

وتمّ في ٣٠ تموز سنة ١٩٥٤ وضع صيغة التحكيم على الأسس التالية :

١ – تكون المحكمة من خمسة أعضاء ؛ يمثل اثنان منهم الطرفين المتخاصمين وهما اللذان يختاران بقية الأعضاء من بين الدول المحايدة ، أو يختارهم رئيس محكمة العدل الدولية إذا لم يتفقا ويكون من بينهم الرئيس .

٢ – موضوع النزاع هو التحكيم بين الخط الذي تقترحه المملكة السعودية سنة ١٩٤٩ ، والخط الذي طالبت به أبو ظبي سنة ١٩٥٢ .

٣ – السيادة في المنطقة التي مركزها واحة البريمي ويمر محيطها عبر نقطة تلاقي خط عرض ٢٤ر٢٥ شمالاً مع خط طول ٥٥ر٣٣ شرقاً .

٤ – النظر في الوقائع التاريخية المثبتة لحق السيادة .

٥ – التنظيم القبلي وطرق حياة القبائل ذات الشأن .

٦ – ممارسة السلطة .

٧ – يقدم كل من الطرفين مذكرة خلال ستة أشهر على الأكثر وقد تلت ذلك مذكرة بين «بلهام» وفيصل بشأن انسحاب القوات السعودية من البريمي والعمانية من الساحل واستبدالها بقوة بوليسية لا تزيد عن خمسة عشر جندياً لكل طرف[1] .

بريطانية ترفض التحكيم وتحتل البريمي

وفيما كان الأمل معقوداً على أن هذا النزاع الدامي سينتهي بقرار عدلي من

---

١ – الاستعمار في الخليج الفارسي ص ٢٠٥ – ٢٠٦

محكمة دولية رضي الفريقان بهـــا ، إذا بانكلترة تضرب بالقانون الدولي عرض الحـائط ، وتزحف بجيشها في ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٥ (١٣٧٥ هـ) على المركز السعودي الذي لا يضم غير خمسة عشر شرطياً وضابطاً ، وتحتل الواحة التي دافع عنهـا أهلها دفـاع المستميت ، مستعملة اشنع عملية غدر ووحشية على الصعيد العسكري ، في الوقت الذي ملأت قنـابل دخانهـا — سياسياً — الأجواء الدولية لتبرر انسحابها من هيئة التحكيم ، متهمة السعودية بانهـا تشتري القبـائل بالرشوة ، وتقدمت السفارة البريطانية بمذكرة إلى وزارة الخارجية السعودية تقول فيها :

« ان الحكومة البريطانية قررت بـاسم سلطان مسقط وشيخ ابو ظبي احتلال منطقة البريمي المتنـازع عليهـــا لأن الحكومة السعودية لم تتقيد بنصوص صك التحكيم [1] » .

ولم تستطع الدولة السعودية الا أن تحتج ، وتقطع علاقاتهـا بلندن ، ونادت جامعة الدول العربية بالويل والثبور على انكلترة ، واهتمت المحافل الدولية ، وأدلى الأمين العام للامم المتحدة برأيه الداعي للرجوع إلى لغة التفاهم والصفاء ، واهتمت الصحافة الدولية ، وعلقت الاذاعات ، ولكن ذلك كله لم يمنع الجريمـــة ، وقد ارتكبت ، وهي ليست أول جريمة بترولية ولا آخرها في العالم العربي .

---

١ — الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٥٩

امبراطورية البترول تجهز على إمامة عمان

الامامة الاباضية في عمان

تحتل المشكلة العمانية في عصرنا الحاضر اهتمام العرب في سائر ديارهم وأمصارهم، منتقلة من صعيد جامعة الدول العربية إلى المحافل الدولية ، بؤازرة الشعب العماني ودعمه في كفاحه المرير المتواصل ، وتخليصه من براثن الاستعمار البريطاني وعميله الدمية سلطان مسقط من جهة ، ومحاولة الاطراف المناوئة للثورة — من جهة ثانية — كبت حرية ذلك الشعب الباسل تحقيقاً للمطامع الاقتصادية والجشع الاحتكاري المتمثل بشركات الذهب الأسود .

وقبل أن نمضي في شرح القضية العمانية ودراستها موضوعياً ، نرى لزاماً علينا أن نلقي بعض الظلال على الاحداث التي سبقت الاحتلال الاستعماري ، ومحـــاولاته لنسف الكيان العماني ، فنرجع القهقرى عبر احقاب التاريخ الاسلامي في الخليج العربي ، إلى أولى الثورات الاسلامية التي حملت شعار الحكم الديموقراطي ، ونعني بذلك ثورات الخوارج الذين حملوا السلاح في وجوه خلفاء الدولة الاسلامية خلال عصورها الراشدي والأموي والعباسي .

ان تلك الثورات وان كانت قد تميزت بطابعها العفوي الساذج باعتبارها ثورات فورية قامت بدون دراسة علمية واقعية ، فانها وجدت تقبلاً في بعض النفوس ، لما نادت به من مبادىء بسيطة محببة للنفوس المجبولة على الفطرة العربية الأولى ، طامحة

كانت أو متحسسة بالظلم ، وهذا سر من أسرار اندلاعها الفينة بعد الفينة ، وفي القطر إثر القطر ، حتى وصلت إلى شمالي أفريقية .

وقد رأت فرقة من فرق الخوارج هي فرقة الاباضية القريبة كل القرب من مبادىء السنة ، في عمان ، وهي المنطقة الجبلية الحصينة ، مرتعاً خصباً ، فاشربت بها تلك النفوس الجبلية المقدامة الشجاعة التي لا تحيا إلا على مبادىء الكبرياء الفطرية والانفة الطبيعية والعنفوان الذي لا تخضد له شوكة حتى لكأن الشاعر لم يعنِ غيرهم عندما قال على سبيل الافتخار :

وانـا لمـن قوم كأن نفوسهم   بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وقد استطاعوا أن يحيوا حياة استقلالية ، في ظل أئمة منتخبين من قبل الشعب ممثلاً بشيوخه ورجال دينه ، فكانوا يجمعون بين السلطتين الدينية والمدنية ، ما خلا فترات كانت تختفي فيها الامـامة لتعود ، مما ينطبق عليها كل الانطباق الوصف الذي نعتها به الاستاذ محمد علي الزرقا إذ قال :

« فاستطاعت الامامة أن تصمد طويلاً جداً جداً أمـــام العواصف الموج التي تعرضت لها ، وهكذا أتيح لهذه المؤسسة الديمقراطية الجذور ، الثورية المفاهيم ، بالنسبة لتلك العصور ، أن تبقى قائمة إلى يومنا هذا ، على خلاف جميع المحاولات الاخرى ، فكانت كالشعلة المعرضة للريح ، تخبو فترة من الزمن ، ثم تتقد من جديد ، ولكنها لا تنطفىء أبداً [1] » .

وكان الاباضية لا يرفعون إلى سدة الامـامة غير من يتوسمون فيه صلاح الامة وفلاحها ، ثم أخذه بالمواثيق المغلظة لحمل تلك الأمانة ، التي على الامـــام واجب الاضطلاع بهـا ، وعلى الرعية مراقبته فيهـا ، حتى إذا حاد أو قصّر لقي واحداً من جزاءين القتل أو العزل .

ولكي يدرك القارىء ثقل الرسالة التي على الامام اداؤها ، ننقل اليه هذا المقطع من العهد الذي قطعه شيوخ المذهب على الامام عزان بن قيس : « ... على شرط

---

١ ـ عمان قديما وحديثا ص ٧٢

الا تعقد راية ولا تنفذ حكماً ولا تقضي أمراً ، الا برأي المسلمين ومشورتهم ، وقد بايعناك على انفاذ أحكام الله ، واقامة حدوده ، وقبض الجبايات ، واقامة الجمعات ، ونصرة المظلوم ، واغاثة الملهوف ، وان لا تأخذك في الله لومة لائم ، وأن تجعل القوي ضعيفاً حتى تأخذ منه حق الله ، والعزيز ذليلاً حتى تنفذ فيه أحكام الله ، وأن تمضي على سبيل الحق او تفني روحك فيه [1] » .

الامام أحمد بن سعيد

وحدث على هذه القاعدة ، إلى جانب عوامل أخر أهمها العامل العشائري ، أن قام رجال الدين من الاباضيين ، بخلع أحد الائمة واسمه يوسف بن سلطان، وبايعوا على شروطهم المعهودة بلعرب بن حمير،غير أن الامام المعزول لم يقرّ هذا الاجراء، ولكنه لم يكن قادراً على مقاومته ، ولذا آثر الالتجاء إلى فارس التي كان يحكمها آنذاك نادر شاه ، فرآها الشاه فرصة لا تفوّت، فهب لنصرة الامام المعزول واضعاً تحت تصرفه حملة فارسية ساندتها شركة الهند الهولندية [2] فنزلت في خورفكان ، وأخذ الدم العماني يسيل على ظبى السيوف العمانية الفارسية ، ورغم أن الامام بلعرب رضي مختاراً بناء على نصيحة الشيوخ التنازل عسى أن تعود الكلمة إلى الاجماع ، فقد ظلت لغة السيف هي الفاصلة ، وكيف يكون ذلك الاجماع والشاه الفارسي أحد أطراف النزاع .

وكان من القبائل التي حملت راية الجهاد ، وتلقت عنيف الهجمات ، قبيلة بني سعيد التي سطرت بدماء أبنائها صفحات ناصعة من الجهاد والذود عن حياض الوطن، تقاتل تحت راية شاب هو احمد بن سعيد البو سعيدي الذي اندفع من غمار السواد لأنه كان راعي المنشأ ، وانطلق من الصفوف الخلفية بقوة العزيمة وبعد الهمة إلى الصف الطليعي من وجوه القوم ، فلم تستطع البطولة إلا أن تمجد رمزها والشجاعة

---

١ - المرجع السابق ص ٧٠

٢ - محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان للدكتور محمود علي الداود ص ٢١

عنوانها ، وارتفع الفتى الراعي إلى سدة الامامة ، فتابع خط سيره محققاً آمـــال شعبه فيه ، ولم يكتف بإجلاء القوات الفارسية فحسب ، وانما راح يهدد فارس في عقر دارها بعد أن دخل في حلف مع قبائل كعب عند نهر قارون وشط العرب ، وفي حلف آخر مع قبائل المعين القاطنة بالقرب من بندر عباس ، وقد نجحت هذه المحاولات نجاحاً كبيراً وأضعفت من حكم الشاه كريم خـــان ، كما أضعفت من محاولات فارس في السيطرة على مناطق الخليج العربي والتوغل في عُمان [١] .

انقسام عمان الى امامة وسلطنة وسبع امارات

إلا أنه بعد وفاة الإمام احمد بن سعيد ، عمت الفتن والثورات البـلاد في عهد ابنه السلطان سعيد احمد ، الذي لم يحصل على الاجماع ، فاضطر للاعتزال ليحكم من بعده ابنه احمد ، فأوثق هذا علاقاته ببريطـانية إذ انتقل من العـــاصمة الداخلية الرستاق إلى المدينة الساحلية مسقط . وكان من عقابيل هذا التحالف انقسام عمان إلى ثلاثة مناطق هي :

١ – امامة عمان وتسيطر على أغلب مناطق الداخل .

٢ – سلطنة مسقط ولا يعدو نفوذها العاصمة مسقط وبعض مدن الساحل .

٣ – الساحل المهادن أو ساحل عمان (ساحل القراصنة سابقاً) ، ويضم سبع مشيخات تمتعت باستقلالها الذاتي ، وهي : رأس الخيمة ، جعـلان ، أبو ظبي ، الشارقة ، دبي ، أم القوين ، الفجيرة .

ومنذ تلك الفترة أخذت شقة الخلاف تتسع ما بين كل من الامامة والسلطنة ، فاستقل كل قطر عن الآخر استقلالاً تاماً ، غير ان الغلبة كانت أبداً للامامة وليس للسلطنة التي لولا قوة البريطانيين لكانت منذ زمن بعيد ، خبراً بعد واقع وحقيقة ، ومع ذلك ، ورغم الدعم البريطاني المتواصل للسلطنة ، فقد اضطر سلاطين مسقط في مختلف العصور التاريخية الحديثة إلى الاعتراف بمركز عمان الخاص ، وقد شمل

---

١ – المرجع السابق ص ٢٢

ذلك عصر سعيد بن سلطان الذي كان يدفع الاتاوة لشيوخ عمان في سبيل اسكاتهم عن حقهم في الإمامة [1] .

وكانت التطورات الأخيرة التي سبق وبسطنا جانباً منها ، تزيد في التقارب ما بين البريطانيين وسلاطين مسقط ، فالسلطان الضعيف يسعى لتدعيم حكمه المؤذن كل لحظة على الانهيار ، وقد أحدق به خطران اثنان ، العمانيون والوهابيون معاً ، والبريطانيون يعللون النفس بقطع دابر التنافس الاستعماري الفرنسي والاستئثار بالخليج وبخاصة مناطقه الساحلية،ولذا لم يعيروا امامة عمان الداخلية اهتماماً يذكر .

مسقط تعود الى عمان ثم يعيدها الانكليز الى السلطان

لكن إن أقر السلطان وأتباعه بإمامة عمان ودفع الاتاوة للائمة ، فهيهات أن يرضى الأباضيون أن يكون في أحد معاقلهم – مسقط – سلطان يولي قيادة نفسه للانكليز ، واجتمعت الكلمة عام ١٨٦٨ (١٢٨٥ هـ) على بيعة عزان بن قيس إماماً منتخباً ، وذلك في أيام السلطان المسقطي سالم بن تويني الذي لم يشعر إلا والسيوف الأباضية تحدق به في عاصمته بالذات ، ولم يعصمه من الموت المحدق ، سوى التجائه إلى إحدى السفن البريطانية احتماء من ظبى بني قومه الذين رأوا فيه عميلاً مكشوفاً ، ودمية انكليزية رخيصة ، وجمع الإمام البطل في يديه القويتين مقاليد الإمامة وأزمة السلطنة : حاكماً دينياً ودنيوياً معاً .

ولم ينفع الدعم البريطاني السلطان سالم فتيلاً،ولذا اتجهت انظار زبانية الاستعمار إلى تركي بن سعيد وكان قابعاً في ظل حمايتهم في الهند ، فتحرك منها عام ١٨٧٠ (١٢٨٧هـ) لينزل في « الظاهرة » وهي أضعف منطقة في الإمامة لأن أهاليها ليسوا على المذهب الأباضي ، وبدعم بريطاني ثان عادت مسقط لعهد السلطنة ، متقهقرة عنها قوات الإمام عزان الذي عزل وتوفي في عام ١٨٧١ (١٢٨٨ هـ) .

لكن على الرغم من بركة بريطانية ودعمها فقد ظل مركز السلطان تركي أوهى

---

١ – المرجع السابق ص ٤٣

من أن يلقى صدمة اباضية ، التي كان لها مدّ جديد عـــام ١٨٧٧ (١٢٩٤ هـ) على مسقط، ولم ينقذه غير التدخل البريطاني المباشر باسطولهم الحارس، ليعاودوا الهجوم ثانية عليه عام١٨٩٥ (١٣١٣هـ)،ولم ينقذ رأسه وقد زحفت عليه العاصمة،غير التجائه إلى الوكالة البريطانية حيث فاوض الثوار على دفع الاتاوة ، ليحكم مسقط وجزءاً من الساحل ، أوهى حكم وأضعفه ، حتى كان موضع عبارات الرحمة من البريطانيين أنفسهم ، فكتب قنصل انكلترة ووكيله السياسي الميجر مايلز يصف حاله بقوله :

« ان مركز صاحب العظمة السيد تركي وسلطته أخذا يضمحلان منذ زمن نظراً لاعتلال صحته ولثوارت العمانيين ، ولذلك فان بامكاننا ان نعتبر المدة الباقية له في الحكم قطعاً فترة مقلقة ضعيفة [١] »

كما يقول فيه لوريمر : « لقد كانت سلطة السلطان في كل الأمـاكن الواقعة بعيداً عن عاصمته اما اسمية أو واهية [٢] » .

اتفاق السيب

وظل خلفاء السلطان تركي دمى يتلهى بها الانكليز ، في الوقت الذي اختفت فيه الإمامة ، مع الملاحظة بأن أهالي عمان بقوا مسيطرين كامل السيطرة على البلاد الداخلية إلى ان اجتمعت الكلمة عام ١٩١٣ (١٣٣٢ هـ) على الشيخ سالم بن راشد الخروجي أول الائمـــة العمانيين في القرن العشرين ، والذي لولا الدعم الانكليزي لاطاح بنظام السلطنة في مسقط ، وفي عـام ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) خلف الشيخ سالم بالامامة الامام محمد بن عبد الله الخليلي ، فنصح الانكليز صنيعتهم السلطان تيمور ابن فيصل بالاتفاق معه ووضع حد للنزاع، فكان أن اجتمع الفريقان ببلدة السيب وانتهوا إلى الاتفاق الذي عرف باسم تلك البلد وقد نص على ما يلي [٣] :

١- Annual Administrative Report of the Gulf, 1874, P. 77 ، انظر ايضا المرجع السابق ص ٤٠.

٢ ــ المرجع السابق ص ٤٠.

٣ ــ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، ص ٨١

١ — يكون كل وارد من عمان من جميع الأجناس ، إلى مسقط ، ومطرح ، وصور ، وسائر بلدان الساحل ، لا يؤخذ منه زيادة عن المائة خمسة .

٢ — يكون لجميع العمانيين الأمن والحرية في جميع بلدان الساحل .

٣ — جميع التحجيزات ، على جميع الداخلين والخارجين من مسقط ومطرح وجميع بلدان الساحل ، ترفع .

٤ — لا تأوي حكومة السلطان مذنباً يهرب من انصاف العمانيين وترجعه إذا طلبوه منها ولا تتدخل في داخليتهم .

٥ — كل المشايخ والقبائل ، يكونون بالأمن والصلح مع حكومة السلطان ، ولا يهاجمون بلاد الساحل ولا يتدخلون في حكومته .

٦ — كل المسافرين إلى عمان لمشاغلهم الجائزة والأمور التجارية يكونون أحراراً ولا تكون تحجيزات على التجارة الداخلية ولهم الأمن .

٧ — كل محدث ومذنب يأوي اليهم يطردونه ولا يأوونه .

٨ — دعاوى التجارة وغيرها على العمانيين تسمع وتفصل على موجب ما هو الانصاف بالحكم الشرعي .

وقد مثل بريطانية في اجتماع التوقيع على هذا الاتفاق الميجر وينجت ، وبارك ذلك الاتفاق الذي أعاد السلام إلى هذه المنطقة ، واطمأن إلى ان مسقط غدت في مأمن من غضبات قوى الإمامة العمانية التي اتخذت من نزوى عاصمة لها .

وتأكد استقلال هذا البلد المناضل بالبينات التالية : [١]

أولاً : استقلال عمان منذ الف ومائتي عام وبسط نفوذها على مسقط وقتاً طويلاً ، ثم خضوع مسقط لبريطانيا وإن احتفظت باستقلالها اسماً ، واحتفاظ عمان باستقلالها وسيادتها على مر العصور .

ثانياً : يتمثل هذا الاستقلال واضحاً في انتخاب العمانيين لإمامهم بمطلق حريتهم وإرادتهم ومقتضى مصلحتهم ، على أسس مغايرة لأسس النظام الوراثي في مسقط .

---

١ — الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوبي الجزيرة ص ٥٩

ثالثاً : اختلاف نظام الحكم في مسقط وعمان ، فبينما هو في الأول ملكي وراثي فردي إذا به في الثانية إمامي إسلامي شوري ، يتولى فيه الحكام والقضاة شؤون الحكم والقضاء باسم الإمام ، ويمارسونها حسب احكام الشريعة الإسلامية .

رابعاً : اختصاص كل من البلدين بعلم متميز .

خامساً : دعم معاني الاستقلال بالنصوص والدلالات التي تضمنتها معـــاهدة « السيب » لسنة ١٩٢٠ .

وقد اعترف المؤرخون الغربيون باستقلال عمان ولم يجد البريطانيون ذاتهم بدآ من التسليم بذلك .

البترول يطيح باستقلال عمان

وظل السلام مخيماً على كل من السلطنة والامامة حتى عام ١٩٣٧ (١٣٥٦ هـ) ، فعقد السلطان لشركة (Petroleum Development (Oman and Dhofar Ltd امتيازاً بالتنقيب عن البترول في اراضي مسقط وعمان معاً ، فرفع الامام احتجاجه على ذلك إلى كل من السلطان والحكومة البريطانية على اعتبـار أن السلطان منح امتيازاً في ارض لا يملكها ، مما يشكل خرقاً فاضحاً لاتفاق السيب ، فرد الوكيل البريطاني مؤكداً للامام « بانه سيتم وضع صيغة لاتفـــاقية جديدة متى اكتشف النفط ، وقد اجرت شركة النفط عدة تنقيبات إلا انها لم توفق في الحصول على كميات تجارية منه ، فاوقفت أعمالها حوالي سنة ١٩٣٩ (١٣٥٨ هـ) ألا انها احتفظت بحقها في العودة إلى مزاولة اعمال التنقيب [١] .

وفي عام ١٩٥٤ (١٣٧٤ هـ) توفي الامام محمد بن عبد الله فانتخب لمنصب الامامة غالب بن علي الذي نهج نهجاً وطنياً وعربياً خالصـــاً ، ووسع علاقاته مع كل من الرياض والقاهرة ، مما لا يرضى عنه البريطانيون باي شكل من الاشكال ، ولذا اوعزت إلى صنيعتها السلطان سعيد بن تيمور — وكانت بريطـانية قد اعدت للامر

---

١ — محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان ص ٤٤

عدته — فانذر الامام في شهر كانون الثاني (يناير)١٩٥٥ (١٣٧٥ هـ) بالاستسلام، ولكن هيهات !..

ولم يتلكأ السلطان ، وبالأحرى بريطانية ، فـــاطبقت الجيوش المرتزقة التي يقودها ضباط بريطانيون على العاصمة نزوى فالتجأ الامـام إلى حصين جباله ليرد على العدوان بآيات البطولة والاقدام ، واضرمها في عام ١٩٥٧ (١٣٧٧ هـ) ثورة حمراء زلزلت الأرض تحت أقدام المستعمرين وصنيعتهم ، وانتقلت القضيـــة من الصعيد المحلي لتأخذ مكان الصدارة في أوساط العروبة وجامعة الدول العربية ، ثم انتقلت إلى كل من هيئة الامم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ، وكانت مثـار اهتمام الصحف العالمية الكبرى،وتعليقات كبار ساسة العالم وحقوقيه وفي طليعتهم هامرشولد الذي استفزت شعوره الأعمال الوحشية التي ارتكبها البريطانيون فصرح في عـام ١٩٥٩ (١٣٧٩ هـ) بما يلي :

« ان قضية عمان لم تعد مشكلة تهم العرب وحدهم بل تهم الانسانية كلها،بسبب أعمال القتل والتدمير التي تحدث هناك [1] .. »

ويمكن القول في الوقت الحاضر بان امبراطورية البترول قد قضت على الامامة التي ستعرف كيف تثبت وجودها ، وهيهات لأبطـال عمان أن يسلموا بالهزيمة .

---

١ — قضية عمان في المجال الدولي تاليف محمد علي الزرقا ، ص ٣٢

عربستان أندلس الخليج

عربستان واسكندرون مشكلتان متشابهتان

لقد تمخضت الأحداث السياسية التي مرت على مسرح الخليج عـــن أكثر من مشكلة قومية كان للتغلغل الاستعماري في الشرقين الادنى والاوسط اليد الطولى في خلقها تبعاً لمصالحه الاقتصادية واغراضه العسكرية ، فأدت النتـائج الموضوعية إلى تجزئة العالم العربي ، وتقسيمه إلى مناطق نفوذ ، جرت المساومات السياسية حولها، فكانت هنـاك عربستان التي ابتلعتهـا الهرة الايرانية ، واسكندرون التي ازدردها الوحش المغولي، واخيراً فلسطين الجرح الذي ما زال ينزف في جنب الوطن العربي بسائر كياناته السياسية .

وعربستان واسكندرون مشكلتان متشابهتان كل التشابه ، متماثلتان غـــاية التماثل ، وما دمنا نعيش اجواء الخليج فالضرورة القومية تفرض علينا أن نفرد لهما هذا البحث .

وقبل أن نمضي في دراستنا التاريخية لعربستان، ومشكلتها السياسية، نرى لزاماً علينا أن نلم بلمحة موجزة عن جغرافيـة تلك البلاد ، لتتكون لدى القارىء فكرة عن مواقع ذلك الاقليم الستراتيجي واهميته الاقتصادية التي تجلت في القرن التـاسع عشر نتيجة التنافس الاستعماري على الخليج .

تقع عربستان في الشمال الشرقي للخليج العربي وتمتد شمالاً حتى جبال روستان،

ويحدها من الشرق مجموعة سلاسل جبال كردستان التي تشكل حدوداً طبيعية فاصلة عن ايران، وتمتد صوب الغرب حتى شرقي شط العرب، أي جنوبي شرقي العراق بلواءيه البصرة والعمارة،وتبلغ مساحتها ما يقارب تسعة وثلاثين الف ميل مربع[1].

وعربستان بلاد خصبة لطبيعة تكوين اراضيها، باعتبارها سهولاً رسوبية طموية شاسعة ، غنية بمواردها المائية ، يمر فيها كل من نهري قارون والكرخة، وعديد من روافد هذين النهرين وروافد شط العرب ، وهي إلى جـــانب ذلك غنيــة بحقول البترول ، وتعتبر « أهم منطقة زراعية في ايران، وكانت بنظر الرأسماليين الاوربيين منطقة خصبة للاستغلال التجاري والصناعي [2] » .

وعرفت عربستان تاريخياً باسم «أهواز العراق» ، وقد مر معنـــا ، في فصل الفتوحات الاسلامية الكبرى، كيف كان هذا القطر العربي موضع نظر أول خليفة للرسول ، وكيف كان منذ الصدمة الاولى اقليماً اسلامياً دلل على أصيل عروبته بأن أسهم ابناؤه البواسل في الفتوحات العربية الكبرى ، ركبوا متون البحر ، وتوغلوا في البر الايراني، حتى ركزت راية العروبة ليس في اقصى نقطة من ايران فحسب، وانما اندفعت إلى تخوم الصين ، وتوغلت في رحاب الهند ، وظل وسيبقى عربيـــاً اسلامياً كما كان،وقد خضع شأن سائر الأقاليم الاسلامية، لأثر انحلال الامبراطورية العربية الاسلامية ، ونشوء الدول العربية المستقلة ، فكان في بعض الأحيان يخضع للدول المتتابعة ، أو يستقل ادارياً بحكم ذاتي كما سبق ووقفنـــا عليه في تسلسله التاريخي .

عربستان المستقلة تقاوم حملات العدوان

وفي العصور المتأخرة ، بينما كانت البلاد الايرانية تتخبط في دوامة الانقسامات وقيام عديد من الدول التي هي أشبه بالشرارات ما تكاد تضيء حتى تنطفيء، متنافرة

---

١ ـ تاريخ الكويت السياسي تاليف حسين خلف الشيخ خزعل جزء ٢ ص ٨٦ .
٢ ـ الخليج والعلاقات الدولية ص (٥٩) .

متناحرة ، كل ولاية دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً عن العاصمة الايرانية ، شهد اقليم عربستان في منتصف القرن الثامن عشر عقب وفاة نادر شاه ، مقدم قبائل عربية استوطنت إلى جانب القبائل العربية الأخرى ، وبسطت نفوذها على قسم كبير من أراضي ايران الجنوبية الغربية ، واتخذت من مدينة الفلاحية مركزاً لها ، وكان على رأس ذلك المد القبلي بنو كعب الذين أجلوا عنه الجيوب الايرانية الفارسية ، وأنشأوا اسطولاً قوياً دعموا به استقلال امارتهم الناشئة .

وظل بنو كعب الأشاوس محافظين على استقلال امارتهم التي تحطمت على متاسك صخرتها سائر الهجمات الايرانية ، وارتدت عنها مقهورة مخذولة ، فعمدت السلطات الإيرانية،وقد كلت أنيابها وتحطمت براثنها، إلى جميع الوسائل لإضعاف روح المقاومة العربية ، حتى انها عمدت إلى هدم السدود وسد مجاري الأنهار [1] ، فلم يُجدها ذلك فتيلاً ، وظلت جيوش بني كعب قوية غلابة، تعرف كيف تروض الجيوش الايرانية على التماس سبل الفرار لتضرب في أعقابها كلما فكر شاه ايراني بخضد شوكة الامارة العربية .

وبدأت أهمية عربستان تظهر دولياً بشكل مرموق حين تم تشييد مدينة المحمرة عام١٨١٢(١٢٢٧هـ)في فترة حكم الشيخ حاج يوسف مرداو من عشيرة بني كساب احدى أفخاذ بني كعب ، فعمدت القبائل العربية إلى تشكيل اتحاد فيما بينها [2] ، وبخاصة الكعبيين والقبائل القديمة الجذور في استيطان عربستان ، وقد جمعتها وحدة الهدف والروابط الحياتية المتشابهة .

ولقد استطاع الكعبيون طول حكمهم اقليم عربستان، الثبات أمام النكبات التي اعترضتهم بجرأة وبسالة ، لا جنة لهم إلا ظبى سيوفهم ، ووقفوا كالطود الثابت أمام ثلاث قوى ائتلفت ضدهم في حملات اشترك بها كل من الايرانيين والعثمانيين والأسطول البريطاني في الخليج العربي في معركة حامية الوطيس وقف بها عرب عمان إلى جانب اخوانهم بني كعب .

---

١ ـ تاريخ الكويت السياسي ج٣ ص ٩٥

٢ ـ عمان قديما وحديثا ص ١٧٨

الشاه يعترف باستقلال الامارة العربية[1]

وفي عهد الحاج جابر شهدت عربستان تطوراً عظيماً ، إذ مصرّ مدينة المحمرة التي ازدهت وازدهرت بشكل أخذ يثير أطماع كل من الايرانيين والعثمانيين على السواء ، فحاولوا بشتى الطرق التطويح باستقلال هذه الامارة الفتية المتطورة. وقد قامت القوات العثمانية عام ١٨٣٧ (١٢٥٣ هـ) بتجريد حملة عسكرية على عربستان فأنزلت بالامارة خسائر فادحة رغم الصمود الباسل الذي تحلت به جيوش الامارة ، مما أثار الذعر في قلوب الايرانيين خوف تطويقهم بالقوات العثمانية من الغرب والجنوب معاً ، فبادرت بالاحتجاج وطالبت – يؤيدها الحاج جابر – بالتعويض عن الخسائر التي ألحقها الجيش التركي بالامارة العربية ، فكانت النتيجة ان اجتمع أطراف النزاع بالاشتراك مع ممثلين عن الحكومتين الروسية والبريطانية، وتمخضت المفاوضات التي استمرت ثلاث سنوات عن عقد معاهدة ارضروم ١٨٤٧ (١٢٦٤هـ) و « خصت فيها المحمرة وعبادان وبعض المناطق الأخرى بالدولة الايرانية ، وألحقت مدينة السليمانية وتوابعها بالدولة العثمانية [1] . »

وبذا تكون الدولتان الكبيرتان قد قسمتا عربستان إلى منطقتي نفوذ، وكانت الدولة العثمانية تدعي ان الامارة تابعة لاقليم البصرة ، رداً على ادعاء ايران بأنها جزء من أراضيها .

وفي تلك الفترة قامت نزاعات داخلية محلية بين القبائل العربية ،وسعى كل شيخ من مشايخها إلى الاستقلال بمنطقته ، مما ساعد الحاج جابر على كسر شوكتهم جميعاً، ومدّ رواق سيطرته من المحمرة على معظم أراضي عربستان ، وفي هذه الأثناء بالذات تحركت بريطانية تبغي السيطرة على هذا الاقليم الحساس استراتيجياً ، مما حدا بالشاه الايراني – وقد تعرضت بلاده وعربستان معاً لاعتداء بريطانية عام ١٨٥٧ (١٢٧٤ هـ) – إلى الاعتراف باستقلال الامارة العربية، وتعهدت كل من فارس والامارة أن تقفا صفاً واحداً ضد كل اعتداء أجنبي .

---

١ – تاريخ الكويت السياسي ج٢ ص ٩٦



المساحة ١٥٩٫٦٠٠ كم
السكان ٢٫٥٠٠٫٠٠٠
العاصمة الاحواز
آبار النفط
اقليم عربستان
الاحواز
الخليج العربي

وبلغت عربستان أوج عظمتها في فترة حكم الشيخ خزعل ابن الحاج جابر الذي ارتقى سدة الحكم عام ١٨٩٧ (١٣١٥ هـ) ، إذ تمكن من بسط سيطرته على كافة اقليم عربستان ، فكانت قوته العسكرية تفوق قوى الدولة الايرانية ... وقد اندفعت بريطانية في خضم سياستها الاستعمارية للتقرب من الشيخ خزعل الذي رأت فيه حليفاً ، كما توسم هو في بريطانية نصيراً له ، وبخاصة عندما طرح على بساط البحث مشروع فتح نهر قارون للملاحة البريطانية ، لأن هذا النهر يمر في قسم كبير من اراضي عربستان ، كما وضعت المخططات الاقتصادية لاستغلال ثروات هذا الأقليم .

وظهرت أهمية هذه الإمارة بشكل خاص في نهاية القرن التاسع عشر من حيث الستراتيجية العسكرية، ورأى العسكريون البريطانيون أن يسيطروا عليها رداً على مطامع روسيا القيصرية ومحاولة مد نفوذها إلى منطقة الخليج العربي ، وبمعنى آخر القضاء على التجارة البريطانية في الخليج والمحيط الهندي ، وكانت تصريحات اللورد كيرزون تؤكد هذه الحقيقة ، وقد أشار في احدى مذكراته التي بعث بهـــا إلى نائب الملك في الهند عام ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) « إلى احتمال قيام روسية بالسيطرة على شمال ايران ، ثم تقدمها إلى الجنوب صوب الخليج العربي فقـــال: ان أي هجوم عسكري روسي من هذا النوع يجب أن يتبعه هجوم بريطاني على عربستان ، وذلك لاغلاق أي طريق يوصل الروس إلى المحيط الهندي والخليج العربي [1] » .

وانطلاقاً من هذا المسار سارع البريطـانيون لتوطيد علاقاتهم بالشيخ خزعل ، بغية جره إلى جانبهم في أي نزاع انكليزي روسي مرتقب يمتد إلى جنوبي ايران .

وكان الشيخ خزعل يقف أبداً على اهبة الاستعداد لمجابهة أية حملة عسكرية قد توسلها طهران ، في محاولة لبسط سيطرتها على اقليم عربستان ، عاملاً جهده لتوطيد

---

١ ـ الخليج العربي والعلاقات الدولية ص ٦٩

استقلاله ، حتى انه رغم اواصر الود القائمة مـا بينه وبين بريطانية عمل على احبـاط مشروع نهر قارون الذي اقرته ايران .

ولما غدت ايران واقعة كلياً تحت السيطرة الاستعمارية: البريطانيون في الجنوب والروس في الشمال ، وأخذت كل دولة تستعد لمد سيطرتهـا على أوسع رقعة ممكنة من أملاك الشاه التي غدت مسرحاً للتنافس العسكري والاقتصادي معاً ، ممـا نجم عنه قيام الثورات الوطنية،والمطالبة بوضع حد للتدخل الاستعماري في شؤون ايران الداخلية ، رأى الشيخ خزعل أن يفصم كافة ارتباطاته بالحكومة الايرانية واعلان استقلال بلاده استقلالاً تامـاً ، ولو دفعه ذلك لمجابهة ايران ومحـاربتها ، ودعامته في ذلك قوته العسكرية وسفنه الحربية ، « وكان على استعداد لأن يدفع بـ ٤٠/٠٠٠ جندي إلى الميدان،وكان هذا الجيش مسلحاً تسليحاً حديثـاً يفوق تسليح الجيش الايراني ، كما يفوقه من ناحية العدد ، وكان الشيخ خزعل يتجـاهل حكومة الشاه تجاهلاً تاماً في السياسة العليا ، ويرجع اليها في الامور الثانوية فقط [٢] » .

ومما يسترعي الانتباه كذلك ان قبـائل البختيارية القوية كان يربطها بالشيخ خزعل امتن أواصر التعاون ، كما امتد نفوذه على غيرها من العشائر الايرانية .

بريطانية تعترف باستقلال عربستان

واستهدفت بريطانية فيما استهدفته تجنب وقوع أي اشتباك مسلح ما بين الشيخ خزعل والدولة الايرانية لما سيترتب على ذلك من نتائج خطيرة قد تسنح معها الفرصة لتدخل العثمانيين من جهة ، وتدخل القبائل العربية في العراق وشبه الجزيرة من جهة ثانية ، باعتبار أن تلك القبائل مرتبطة والشيخ بالتحالف القبلي الذي يؤكد تساند القبائل وتآزرهـا بكل ملمة تصيب اية قبيلة . ثم رأت بريطانية في عـام ١٩٠٢ (١٣٢٠ هـ) أن من الأفضل لهـا الاعتراف ضمنياً باستقلال الامـارة حين ظهرت في أفق السياسة الاقتصادية بوادر مشاريع روسية لمد سكك حديدية في ايران تنتهي

---

١ ــ المرجع السابق ص ٧١

بعربستان ، فضلاً عن مطامع روسية باستغلال بترول الامارة العربية ، وبخاصة بعد موافقة الشاه على مشاريع سادة الكرملين .

واكدت بريطانية عزمها هذا بأن عقدت في عام ١٩٠٥ (١٣٢٣ ﻫ)معاهدة مع الشيخ خزعل ، بعد أن وضعت يدها على آبار البترول في عربستان ، وقد نصت تلك المعاهدة على تقديم المساعدة العسكرية له في حالة وقوع أي اعتداء على امارته كما وعدته بحفظ كيان الامارة .

وفي عام ١٩١٤ (١٣٣٣ ﻫ) اعترفت بريطانية رسمياً باستقلال عربستان ، وقدم الكولونيل كوكس وثيقة الاعتراف للشيخ خزعل ، وهي تؤكد من جديد عزم بريطانية على صون استقلال الامارة ، وتقديم المساعدة العسكرية في حالة قيام ايران بأي خطوة تهدد الكيان العربستاني .

المؤامرة الايرانية البريطانية على عربستان

إلا أن بريطانية أخذت توجس بعد الحرب العالمية الاولى خيفة من النفوذ الشيوعي الذي أخذ يتسلل إلى شمالي ايران ، ورأت أن من مصلحتها أن تنقلب على صديقها الشيخ خزعل لتقف إلى جانب رضا خان ، وزير الدفاع الايراني ، فرئيس الوزراء ، فالشاه بعدئذ ، لأنه يمثل الاتجاه القومي الفارسي الذي وقف في وجه المد الشيوعي ،وقد غدا رجل فارس القوي الذي آلى على نفسه بعث امجاد الأكاسرة .

ووصل إلى عربستان جيش ايراني على رأسه الجنرال فضل الله تحت ستار مفاوضة الشيخ خزعل ، في الوقت الذي قطعت بريطانية على الشيخ سبل المواصلات ما بينه وبين العشائر العربية في العراق ، كما ثبطت قبيلة البختياري عن الأخذ بناصره ، وأنذر المقيم السياسي البريطاني برسيلورين الشيخ خزعل بسحب جميع التعهدات المقطوعة له إن قام بأية حركة ، وهكذا تم حبك المؤامرة من جميع اطرافها ، وحُمل الشيخ العجوز الذي قعدت به السن عن امتشاق الحسام إلى طهران عام ١٩٢٥ (١٣٤٤ ﻫ) حيث لاقى حتفه فيها عام ١٩٣٦ (١٣٥٥ ﻫ) .

وبعد أن تمت تلك المؤامرة الايرانية البريطانية ، اطلقت حكومة ايران على

عربستان اسم خوزستان لتارس في منطقة العروبة أشد ضروب التجهيل والافقار ومحاربة اللغة العربية ومحاولة إذابة العرب عن طريق التزاوج بالايرانياتِ ، وجلب جالية ايرانيـة كبيرة لتجاور العرب في اراضيهم ، بعد نقل عشائر عربية بكاملها إلى شمالي ايران ، في سياسة لا تختلف بشيء عن سياسة التتريك التي مارستها جمعية الاتحـــاد والترقي تجاه العرب في اخريات أيام الامبراطورية العثمانية ، ولم يقف العرب تجاه كل ذلك مكتوفي الأيدي وانما هم ينتفضون ويثورون ، الانتفاضة بعد الانتفاضة ، والثورة أثر الثورة ، وما زال الجمر تحت الرماد .

الجزء الثامن

الخليج العربي في وثبته المعاصرة

- الكويت دولة عربية مثلى
- المملكة العربية السعودية عملاق الخليج
- نهضة البحرين
- قطر في مضمار التطور
- الامارات السبع

الكويت دولة عربية مثلى

كاظمة الامس وكويت اليوم

لا تذكر الكويت في هذه الأيام ، إلا ويلازم هذه الكلمة نعت غدا مرادفاً لها : المعجزة، فيقال بالتركيب الوصفي: الكويت المعجزة، وبالتركيب الإضافي: معجزة الكويت ، سواء أكان ذلك على صعيد السياسة والاجتماع ، والنهضة العلمية أو الوثبة الاقتصادية ، وانسجام هذا المجتمع الصغير الكبير ، بذلك التناغم ما بين الفرد والمجموع ، والرعية والدولة ، والعمل في المحيط المحلي ، والنشاط في المجال العربي ، والسعي في الآفاق الدولية، في ملحمة حضارية تخطت بها الدولة المدرسة، والدولة المَثَل ،ذاتها بذاتها في أكثر من وثبة وأكثر من ميدان ، كأنما هي تسير على رقاب العصور وهامات الدهور ، انطلاقاً من حياة القرون الأولى ، لتتنفس ملء رئتيها —وبأبلغ درس من دروس انتصار الانسان على الطبيعة— آخر منجزات القرن العشرين علماً وتطبيقاً .

لقد رأينا في عرضنا التاريخي ان الامبراطورية العربية بعد ان انفرط عقد نظامها دويلات صغيرة وامارات مستقلة ، وكان الخليفة العباسي الدمية الأسير غير المقيد ، ما بين الحاجب والسلطان من أبناء الأعاجم، كانت منطقة الخليج العربي، وفيها رقعة الأرض التي تقوم عليها كاظمة الأمس فكويت اليوم ، من أقوى الدول المستقلة عن جسم الامبراطورية ، حتى انها كثيراً ما قارعت ذلك الخليفة

العباسي على أرض العراق ، أو متوغلة خيولها غرباً في قلب الجزيرة العربيـــة ، مشكلة تياراً مستقلاً من أعنف التيارات وأعمقها ، سياسيـــاً واجتماعياً ، فكرياً واقتصادياً ...

وحين تناثر الشرق العربي ما بين الامبراطوريتين الكبيرتين: العثمانية والصفوية التي بسطت نفوذها على أرض العـراق ، وخف شريف مكة مسلماً مقاليـد البيت الحرام إلى الامبراطور العثماني سليم الأول ، ظلت منطقة الخليج العربي ، وفيهـا رقعة الأرض التي تقوم عليها كاظمة الأمس فكويت اليوم ، محافظة على سيادتها ، مستقلة بذاتها ، تتمتع بأرفع شكل من أشكال الحكم المعهودة يومـذاك ... وإذا ما غزتها الجيوش الأجنبية من برتغالية أو هولندية ، وإذا ما حدد لها النـــاب الفرنسيون أو الانكليز أو الأتراك، فاغتصب هؤلاء أو أولئك موطىء قدم لهم في تلك الأرض ، كانت القوى الوطنية والجيوش الأهلية ، ما تلبث ان تدحرها ، مخرجة اياها من الأرض التي اغتصبت والحصن الذي بنت، لتعود راية الحرية خفوقاً في العلاء ، وعلم الوطنية خطوراً في السماء ، ولتعود تربة هذا الوطن منبتـاً للرمح المسدد وملعباً للحسام المهند ...

دولة صغيرة حافظت على استقلالها عبر التاريخ

وفي أواسط القرن الثـــامن عشر بعد أن نزحت إلى أرض الكويت من نجد اسرة الصباح ، أخذت تلك الدولة تستقل بشخصيتها وتتميز بطابعها عن سائر بلدان الخليـج ، ناهيك عن باقي أقطار العروبة التي كانت تئن تحت النير العثماني ، وكان حكام تلك الاسرة اسطع مثال للتواؤم والتراحم ما بين الحاكم والمحكوم، والخاصة والعـــامة ، والأمير وسواد الشعب ... وبذلك فقط عرفت تلك الدولة الصغيرة كيف تثبت تجاه الامبراطورية العثمانية، وتقف سداً منيعاً دون مطامحها ومطامعها، منتهية بحدودها ونفوذها عند لواء البصرة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وانما رأت الإمبراطورية العثمانية في ساعة من ساعات ضعفها انها في حاجة ماسة إلى عضد هذه الدولة ومساعدتها ، كما فعل مدحت

باشا والي بغداد حين طلب مؤازرة حاكم الكويت الشيخ عبد الله الثاني ، في حربه مع الاحساء، وكان الشيخ عبد الله خير معوان للوالي العثماني الحر في تلك الحرب، وقد قاد بشخصه الأسطول الكويتي الذي كان عاملاً حاسماً من عوامل النصر ، مما أهاب بالدولة العثمانية أن تقلد الشيخ عبد الله لقب قائمقـــام فخري مكافأة له على مؤازرته وتقديراً لعبقريته الحربية .

على أن هذا لا يعني البتة أن الدولة العثمانية قد كفت عن مطامعها في هذه البقعة من أرض العروبة ، ولكنها حين عجزت عن أخذها بقوة السلاح حاولت أخذها بسلاح الخديعة ، فاستمالت اليها يوسف آل ابرهيم وسلطته على الشيخ محمد بن صباح الثاني لنسف الاستقلال من الداخل ، مما جعل الشيخ مبارك الصباح يضحي بأخويه على مذبح حرية وطنه واستقلاله ..

ولكن هل كفت الدولة العثمانية عن محاولتها ?.. وهل أقلعت عن غيهـا ?.. كلا ، وانما ارادتها هذه المرة فتنة عمياء ، وجندت لها كل مـا تملك من قوى الكيد والتآمر ، مما دفع مبارك الكبير صوناً لكيان وطنه ، إلى الارتباط بمعـــاهدة مع بريطانية التي اعترفت باستقلال الكويت ، دون أن يكون لهذه المعاهدة من أثر يجد سيادة الدولة على اراضيهـا ... بدليل أن حكومة الكويت خلال الحرب العـالمية الاولى رغم عدائها للعثمانيين ، ورغم كونها ملاذ عدد من احرار العرب الهاربين من الجور العثماني ، رفضت أن تشهر سلاحها في وجه الدولة العثمانية ، احتراماً لمقـــام الخلافة ، بل كثيراً ما كانت أرض الكويت المنطلق الذي مدّ الدولة العثمانية بالسلاح في حربها مع بريطانية ، مما أوغر صدور القادة البريطانيين فتهددوا وتوعدوا ، وقد نقل لنا التاريخ ما دار بين الشيخ جابر الثـاني والسير برسي كوكس الحـــاكم العسكري في العراق ، لما اجتمع به في الكويت مع عبد العزيز آل سعود والشيخ خزعل ، ودار الحديث حول وجوب محـاربة الأتراك العثمانيين ، إذ رفض الشيخ جابر المشاركة في هذه الحرب .

وليس أدل على أن معاهدة ١٨٩٩ لم تمس سيادة الكويت ، من أن حكومة الكويت رغم تلك المعاهدة التي ظلت قائمة حتى عـــام ١٩٦٢ ، قد تعاقدت مع

شركات النفط الأميركية واليابانية في بعض المنـــاطق دون الشركات البريطانية ، لأنها رأت في عروض تلك ما هو اجدى على المصلحة العامة وأنفع لثروة الامة ، مع انه كم استرق النفط من امم واستعبد من شعوب !..

استكمال السيادة والاستقلال

وعلى الرغم من هذه المعـــاهدة المعقودة مع بريطانية ، فقد وقفت الحكومة الكويتية من هذه الدولة موقف الاباء والحزم ابان الاعتداء الثلاثي على الشقيقـــة الكبرى مصر ، ورفضت أن تكون الكويت أرض العرب ، مقراً أو ممراً لجيوش الاستعمار ، كما انها اتخذت الموقف نفسه عـــام ١٩٥٨ أثر الثورة العراقية ونزول الجيوش الانكليزية في الاردن والاميركية في لبنان ، مدفوعة إلى ذلك بصادق عروبتها ورجولة قادتها .

والواقع ان حكام الكويت كانوا على مر الزمن يعتبرون أنفسهم مستقلين في شؤونهم ، ويتصرفون ببلادهم تصرف الدول المستقلة ذات السيادة ، وكان من الطبيعي ان الشعب الكويتي الذي تمسك باستقلال وطنه ودافع عنه يوم لم يكن يمثل غير الفقر والقفر ، ان يتمسك به ويدافع عنه وقد بدأ يمثل نهضة نموذجية فريدة من نوعها في العالم ، وهكذا برزت الكويت على المسرح الدولي ، كدولة مستقلة ، قبل ان يُعلن استقلالها في حفل رسمي ، فانضمت إلى عدد كبير من المنظمات الدولية التي لا تتوفر العضوية فيها إلا للدول المستقلة ، وأصبحت اتصالاتها الخارجية اتصالات مباشرة ، وبات من البدهي اتخاذ الخطوات اللازمة لإعلان الاستقلال رسمياً [1] .

وفي التـاسع عشر من شهر حزيران (يونيه) ١٩٦١ تبادلت الكويت مـع الحكومة الانكليزية الرسائل التي ألغت معاهدة ١٨٩٩ واعترفت فيها بريطانيـــة بالكيان المستقل لدولة الكويت . ورحبت الدول العربية بالدولة الشقيقة الفتية ، ولم تنقضِ أسابيع معدودة حتى انضمت الكويت إلى الجامعة العربية دولة كاملة

---

[1] ـ اضواء على تاريخ الكويت تاليف قدري قلعجي ص ٥٨ ـ ٥٩

الاستقلال تامة السيادة . ثم ما لبثت ان انضمت إلى منظمة الأمم المتحدة ، وارتفع علمها إلى جانب أعلام الأمم الحرة المستقلة،علماً حراً بين ألوية الحرية في العالم،رمزاً إلى تكاتف البشرية، والتئامها على المحبة واجماعها على السلام. ووقف وزير خارجيتها الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح يقول في تلك الندوة الانسانية الممثلة لتآخي الشعوب :

« ان الكويت لم تكن تنظر الى الاستقلال ، وبالتالي الى عضوية الامم المتحدة ، كغاية في حد ذ تها ، بل كوسيلة للمساهمة في حياة أفضل لها ولسائر شعوب العالم . . »

الحكم الصالح

وإذا ما بينّا شيئاً من الجانب السياسي المتعلق بالاستقلال ، فهناك الجوانب الاخرى التي لا تقل عنه أهمية من سياسية وادارية واجتماعية واقتصادية وتربوية وصحية مما يرفع هذه الدولة الصغيرة نبراساً ومثالاً ، وشعاراً للحكم الاصلح ، انطلاقاً من مسيرتها الأولى أيام بؤس الشعب وفقر الحكومة ، إلى هذا اليوم الذي تقدم فيه الشقيقة الصغرى الوانــاً لا تحصى من العون والمساعدة إلى اخواتها الكبرى . . .

من الكلمات المشهورة عن مدحت باشا ابي الدستور العثماني انه نعت الكويتيين بقوله « وهم يديرون امورهم حسب الشرع الشريف ، ومنهم حاكمهم وقاضيهم ، فهم شبه جمهورية . . . » وهل من داع إلى التأويل أو التعليل بأنه لم يشأ من تعبير «الشرع الشريف» سوى تلك القاعدة الاسلامية الذهبية « وأمرهم شورى بينهم » قالها ابو الأحرار كناية في عهد أبي الاستبداد والطغيان عبد الحميد الثاني !. .

وحسبنا برهاناً على روح الشورى المتأصلة في نفس الكويتي ، انه على الرغم من أن مبارك الكبير مشهور دون سائر أفراد هذه الأسرة بالاستبداد في الرأي ، لم ير من حجة يردّ بها طلب سفير ألمانية مدّ سكة حديد بغداد الى الكويت إلا اعتذاره بعدم موافقة الرعية على المشروع رغم ما منّاه السفير وأغراه . . .

وإن ننس فلن ننسى تلك النصيحة التي نصح بها الشيخ جابر ابنه مباركاً وهي قوله :

ان لاهل الكويت علينا حقوقاً عظيمة ، ولو كانت تحت يدي ثروة طائلة لقمت بحاجات الفقراء والمحتاجين الى ان يموتوا .

كثُرت كلمة على التاريخ والمجتمع ، لا نرى ترجمتها العملية الا من خلال سيرة فسيرورة حكم تلك الاسرة المباركة ، انتقالاً بها من اواسط القرن التاسع عشر الى اواسط القرن العشرين ، فطفرة من نظام الغوص على اللؤلؤ الى عهد سبر إعماق البحر لاستخراج النفط ، من يوم كان كل ما يستطيعه هذا الانسان الكبير القلب الشيخ جابر اخو مريم هو ان يُعدّ موائد الارز في الطريق للمحتاجين ، الى عهد سمو الامير الشيخ عبد الله السالم الصباح الذي يكاد ما يجترحه يكون ضرباً من المعجزات مستعينين على رسم تلك اللوحة التعبيرية بريشة الكاتبة الانكليزية المستشرقة زهرة ديكسون فريث التي ولدت وترعرعت على الأرض الكويتية ، وكان ما كتبته عن الكويت بمثابة المعالم التي توضع على الطريق اشارة الى الأبعاد والمسافات ، منتقلين نحن بتلك المعالم من المجال الجغرافي الى المدى التاريخي .

لأيام قليلة من عمر تلك الدولة المديد ، ولم يكن البترول قد تفجر بعد في أرض الكويت ، أو لم يكن قد أعطى ثماره بعد ، عقدت الكاتبة المذكورة فصلاً من كتابها الشهير « الكويت كانت منزلي » عنوانه « المطر هو الحياة » قالت فيه : وفي تلك الليلة تشربت الأرض بكميات من المياه التي جادت بها السماء ، لكن الأرض كانت آنذاك أشبه بذلك الانسان الذي يشعر بأنه يكاد يموت ظمأ ، وعندما يجد الماء يكتفي بأن يطفىء غليله برشفات قليلة ، وهكذا لم تتمكن الأرض من امتصاص كميات كبيرة من الماء دفعة واحدة ، ولذا شقت الكميات الفائضة من مياه المطر لنفسها أخاديد أخذت تتدفق فيها مندفعة نحو البحر . أما التلة الواقعة وسط المدينة ، فقد تفرع عنها عدة جداول للمياه أخذت سبيلها في كل شارع من شوارعها حتى غمرتها وجرفت معها الأقذار والأوساخ التي تبقت من آثار الصيف مبعثرة اياها هنا وهناك في الأزقة والمنعطفات الضيقة . وقد بعث هذا في النفس

الشعور بالارتياح والسرور ، كما لو كان اليوم يوم عيـــد ، كذلك أنعكست على وجوه المارة امارات الغبطة والسرور حتى بدت المدينة ذاتها بعد أن نظفتها مياه الأمطار من قذى الصيف وغباره منتعشة خاطرة بحلة من السرور . أما الذي كان يبعث على الدهشة فهو منظر الأولاد وهم يخوضون في ميـاه المطر التي تجمعت هنا وهناك ، ويسيّرون فيها زوارق صغيرة نموذجية صنعوها من الريش والعيدان[1] » .

والدروس التي نستفيدها من تلك اللوحة التي لم يبقَ منها سوى الذكرى المقيدة بهذه السطور ، ان الكويت التي تحدثت عنها المؤلفة المذكورة لم يعد لهـا وجود ، وانما اخلت محلها خلال سنوات قليلة لكويت جديدة لا يجمعها بالأولى سوى قاعدة البنيان التي قامت عليها ... كويت لا تجري الجداول في أزقتها الضيقـة تحمل معها قذى الصيف ونثار الغبار الذي سرعان ما يتحول طيناً ، لأن الدولة التي جعلت أول أهدافها انفاق ما يرد الى الخزينة العامة في خدمة الشعب ورقيه ورفاهيته ، قـــد مسحت سائر الأكواخ الطينية ليحل محلها أفخم الأبنية وأضخم المؤسسات، هـادمة أيضاً ذلك السور الطيني الذي كان يحيط بالعاصمة ، فاتحة اياها على آفاق العالم الرحب أخذاً وعطاء ، علماً وفناً ، ولا خلاف في أن من يتطلع اليوم الى مدينة الكويت لا يحسب نفسه الا أنه سائر في أرقى شوارع المدن الأوروبية ، سواء في ذلك اناقـة البنيان وفخامته ، أم في فسحة الشوارع المزينة بالأزهار والمضاءة بالأنوار ، كما أن تلك الدولة التي روضت البحر فاستخرجت كنوزه من الذهب الأسود من أعمـــق أعماقه واستخلصت من أجاج مياهه ماء عذباً سائغـــاً للشاربين ، قد عرفت كيف تروض الصحراء أيضاً فتمسك بلافح أنفاسها المتنفسة عن سافي الرمـــال ، بمصائد الأحراج المغروسة التي ترطب الجو وتبهج النظر وتريح النفس ، ويكفي أن نعلم أن برنامج الدولة هو غرس مليون شجرة خلال ثلاث سنوات وأغلب الظن أنه قد نفذ جله ان لم يكن كله .

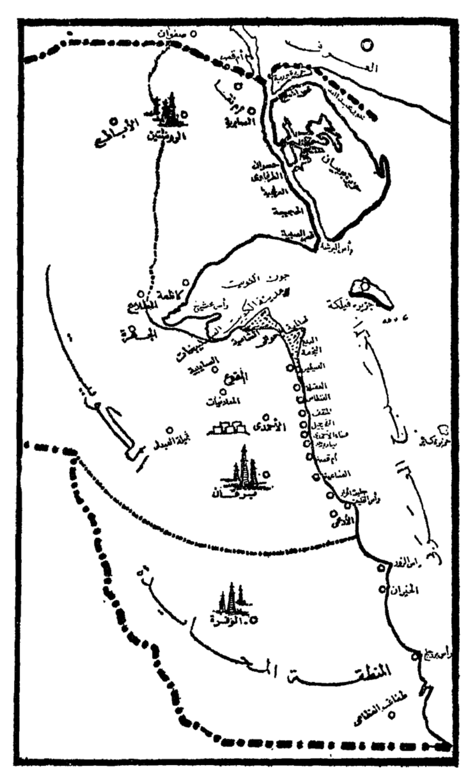
---

١ ــ الكويت كانت منزلي ، الترجمة العربية ، ص ١٧٤

أما اولئك الصبية الذين كانوا يملأون الأزقة الضيقة يزحمونها بصياحهم وضجيجهم يخوضون في مياه الأمطار ، ويسيّرون فيها مراكبهم النموذجية ، فقد امتدت اليهم يد الأم الكبرى ـ الدولة الحكيمة ـ فاحتضنتهم رياض الأطفال التي لم يكن لها من أثر في أرض الكويت قبل وثبتها الجديدة ، وكان فيها حسب إحصاء العام الدراسي ١٩٦٠ -١٩٦١ عشرون روضة تنطوي جوانحها على ٤٥٤٣ طفلاً منهم ٢١٤٧ أنثى.

وفي حين لم يكن فيها عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ غير مدرستين ابتدائيتين اثنتين ، ففيها حسب الاحصاء المار الذكر ١٢٨ مدرسة مجموع من يدرس فيها من الذكور ١١١٨٢ على رأسهم من المعلمين ٤٨٩ أي بنسبة معلم واحد لكل ٢٣ تلميذاً، وتلك أعلى نسبة في العالم ، ومجموع ما فيها من التلميذات ٧٤٠٥ على رأسهن ٣٣٩ معلمة أي بنسبة معلمة واحدة لكل ٢٢ تلميذة . اما الدراسة المتوسطة ففيها ١١ مدرسة للذكور تضم ٦١٣١ طالباً على رأسهم ٤٩١ مدرساً ، فتكون نسبة الطلاب إلى الاساتذة أقل من ١٣ إلى ١ ، وسبع مدارس للاناث فيها ٦٠٣٣ طالبة على رأسهن ٣٩٣ استاذة ، فتكون نسبة الطالبات إلى المعلمات ١٦ إلى ١ ، أما التعليم الثانوي فقد ارتفعت نسبة الطلاب فيه من ٥٨ طالباً عام ١٩٤٩—١٩٥٠ إلى ١٣٩٧ حسب الاحصائية التي اعتمدناها . هذا فضلاً عن المدارس المهنية من صناعية وزراعية والمدارس المسائية ، يضاف اليها جميعاً مدارس ذوي العاهات ومنحطي المدارك ، حتى لا يداخل المراقب ادنى شك في أن المدرسة في الكويت ما زالت تتسع وتتسع حتى شملت الدولة جميعاً .

على أن الأهم من ذلك كله، أن التعليم ليس بالعبء الذي يثقل كاهل الأبوين وانما العكس هو الصحيح ، لأن الدولة لم تكتف بفتح ابواب المدارس للجميع فقط ، وانما عززت مجانية التعليم بمجانية الكتاب واللباس ووجبة يومية لكل طالب أو طالبة والانتقال إلى المدرسة بسيارات الدولة والرجوع بها ، يتوّج كل هذا أن طلاب المدارس الصناعية يتقاضون نصف ارباح اشغالهم ، تحفظه لهم الدولة حتى إذا



صفوان
العراق
الروضتين
الأبرق
الصابرية
جون الكويت
مدينة الكويت
كاظمة
الجهراء
جزيرة فيلكة
الشامية
الصليبيخات
السالمية
الفنطاس
المنقف
الفحيحيل
الأحمدي
برقان
المهلبة
الوفرة
الخيران
الأدعمي
جزيرة كبر
المنطقة المحايدة

ما تخرجوا تقاضوها ، فان سلكوا سبيل الصناعة الحرة ضاعفتها الدولة لهم ، ناهيك عن أن كل مدرسة ملحق بها وحدة صحية تشمل ضروب الطبابة .

الرعاية الصحية والاجتماعية

فاذا كانت تلك عناية الدولة بسلامة نفوس اشبالها وأجسامهم ، فكيف عنايتها بصحة سائر المواطنين .

ان الحكومة الكويتية لم تدخر وسعاً في اشاعة معالم الصحة والعافية ، فأنشأت المستشفيات والمستوصفات المجهزة أرقى تجهيز ، ووزعتها توزيعاً مناسباً كل التناسب على سائر المناطق ، ولم تكتف بأن جعلت الكشف الطبي مجاناً وإنما ألحقت به مجانية الوصفة والعلاج والعناية الصحية في جميع أدوارها ، مما لم يتوفر حتى الآن في أي بلد عربي آخر ، بل تخطى كثيراً مستوى كبريات الدول [1] .

وقد تطورت الخدمات الصحية في دولة الكويت على أساس علمي حديث وبشكل سريع جداً يدعو إلى الاعجاب والفخر [2] .

ومثلما عرفت الدولة كيف تحافظ على المواطن الفرد ، وترعاه تربوياً وصحياً ، فقد عرفت كذلك كيف ترعاه نفسياً واجتماعياً ، بما استنت من قوانين تصون حقوق العمال والموظفين ، وكان في حيز التطبيق : ١ – قانون العمل في القطاع الأهلي ، ٢ – قانون العمل في القطاع الحكومي ، ٣ – قانون الوظائف العامة المدنية . وهكذا تسنى لكل من العامل أو الموظف أن يعمل وهو مطمئن إلى مستقبله ، اطمئنانه إلى مستقبل أولاده ، آمناً شر الطوارىء أو مفاجآت الأيام ، ويكفي ان الموظف الحكومي – على سبيل المثال – فضلاً عن تناوله أعلى راتب يتقاضاه أي موظف في بلد عربي ، فانه يتمتع بعلاوة السكن التي هيهات أن يكون لها نظير في غير دولة الكويت ، وبالاجازات السنوية المدفوعة الأجر ، والتي ترتفع

---

١ الكويت في موكب الحضارة تاليف قدري قلعجي ص ١٠٠

٢ – انظر فصل : تطور الخدمات الصحية في الكويت للدكتور محمد سعيد النجار في كتاب « الكويت باقلام نخبة من الكتاب العرب » ص ١٩٧ – ٢٠٦

إلى الشهرين لمن جاوز سن الخمسين ، ثم الراتب الذي يتقاضاه الموظف وهو في بيته إذا ما أصيب بأي عارض ، وهو كامل الراتب للاشهر الستة الأولى ، ونصفه للستة التي تليها ، فربعه للستة التي تلي ذلك ، وستة أشهر بلا راتب . وهكذا تمهل الدولة موظفها وترعاه سنتين متتاليتين ، إذا عجز بعدها عن العمل أحيل إلى التقاعد وتقاضى ٧٠ في المائة من أصل راتبه إذا خدم سبع سنوات فما فوق . ولا نحسب ان هناك راتباً تقاعدياً تداني نسبته هذه النسبة في أي بلد آخر .

أول دستور في الخليج

ولرب معترض يقول ، ان ذلك كله انما يرجع إلى غنى الدولة وهذا صحيح إلى حد كبير ، ولكن غنى الدولة لم يكن يوماً مقياساً لرفاهية الشعب الذي تحكم ، وانما النظام الذي يحكم به ذلك الشعب هو المقياس الأول . ولو اقتصر الأمر على غنى الدولة لما كان في اميركا وهي أغنى دولة في العالم ، شيء اسمه شارع السردين المعلّب .. وكم من شارع للسردين المعلّب في دول الشرق والغرب ؟ ورحم الله حافظ ابرهيم الذي أطلق ذلك البيت المتحيّر على كل لسان ألماً ومرارة ، تعبيراً عن بث الشكوى ورفع الصوت بالبلوى :

أيشتكي الفقر غـادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهب ؟

القضية إذن قضية نظام ، وتطبيق ذلك النظام ، لا قضية مال وحسب ، وعلى هذا تذهب الدولة الكويتية بتساميها ، وتخطي ذاتها بذاتها ، لمصلحة الشعب وخدمته ورعاية شؤونه ، وتعهد أموره ، بذلك التواضع الذي لا يدانيه أي ارتفاع ، نزولاً أكثر فأكثر نحو سواد الشعب ، حتى بلغ المرحلة التي أخذ يحكم فيها ذاته بذاته ، وذلك عندما خط يراع ذلك الأب الروحي لسائر الكويتيين ، والمساوي ما بين أبنائه دون استثناء أو تمييز ، تلك الكلمة الصالحة التي ستذهب كدوحة خالدة أصلها في تربة الوطن وفرعها في سمائه :

« نحن عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت

رغبة في استكمال اسباب الحكم الديمقراطي لوطننا العزيز ، وايماناً بدور هذا

الوطن في ركب القومية العربية وخدمة السلام العالمي والحضارة والانسانية .

وسعياً نحو مستقبل أفضل ينعم فيه الوطن بمزيد من الرفاهية والمكانة الدولية ، ويفيء على المواطنين مزيداً كذلك من الحرية السياسية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، ويرسي دعائم ما جبلت عليه النفس العربية من اعتزاز بكرامة الفرد ، وحرص على صالح المجموع ، وشورى في الحكم ، مع الحفاظ على استقراره .

وبعد الاطلاع على القانون رقم ١ لسنة ١٩٦٢ الخاص بالنظام الأساسي للحكم في فترة الانتقال .

وبناء على ما قرره المجلس التأسيسي

صدقنا على هذا الدستور واصدرناه » .

وكان للكويت دستورها الذي كرس سيادة الامة حسب نص المادة السادسة منه :

« نظام الحكم في الكويت ديمقراطي ، السيادة فيه للامة مصدر السلطات جميعاً » .

ولهذا السبب بالذات ، سبب ذلك الدستور المطبق قبل أن يكتب والذي ينص في مادته السابعة على :

« العدل والحرية والمساواة دعامات المجتمع ، والتعاون والتراحم صلة وثقى بين المواطنين » .

لهذا السبب بالذات ولكون الدولة ممثلة ابداً لأهداف الشعب ، معبرة عن رغباته ، موضحة عن امنياته ، جاعلة الموارد العامة في خدمته ، كانت الكويت اثبت الدول العربية دعامة ، وارسخها قاعدة ، رغم صغر رقعتها وقلة عدد سكانها ، بعيدة كل البعد عن الهزات والتحولات المفاجئة ، فنظامها المالي هو الأقوى ، ودعامتها التربوية هي الأمثل ،وجيشها جيش الشعب المعزز بكل ما يصون الشعب ، لا تبغي العيش إلا بأمان في دنيا السلام .

على أن كل ما عرضنا حتى الآن لا يعدو الواقع الداخلي لهذا البلد المثـــال ، وهناك الواقع شبه الخارجي ثم الخارجي الذي لا يجوز اغفاله ، أو المرور به مروراً سريعــاً ، ولاسيما في الحقل العربي ، ولا نقول الأجنبي ، في هـذا العصر الذي هو عصر القوميات المتفاعلة والشعوب المتواصلة .

فالكويت كبلد عربي مفتوح لأبنـاء العروبة طراً ، وقد عرف كيف يرعى شؤون العرب في داخله كما عرف أن يرعاها في خارجه ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن سائر الموظفين أو العمال العرب من أية بقعة كانوا يتمتع ابناءهم بنفس الحقوق التي يتمتع بها الابناء الكويتيون ، من حيث الدراسة والطبابة. وبالاعتماد الى احصاء عام ١٩٦٠ – ١٩٦١ نقف على هذه الأرقام المذهلة : لقد كانت المدارس الكويتية في ذلك العام تضم ٢٠٧٢٧ طالباً كويتياً يقابلهم ٩٣٦٤ من سائر ديار العروبة ، و ١٣٢٠٨ طالبة كويتية يقابلهن ٤٢٧٩ طالبة من الأقطار الشقيقة .

وفي الحقل الاقتصادي انشأت الدولة الكويتية « بنك الانماء العربي » برأسمال ضخم لمساعدة الدول العربية الشقيقة . أما مساعدات الكويت لامارات ومشيخات الخليج التي لا تتمتع بموارد نفطية ، فسوف يكون لهـــا اكبر الأثر في نهضة هذه المناطق المتخلفة والأخذ بهـا إلى مضمار الحضارة ، وقد ألفت الكويت لتحقيق هذا الغرض لجنة على مستوى هذه المهمة القومية .

وهل من خلاف في ان الكويت قد وسعت علاقاتها بسائر ديار العروبة بعد ان استكملت سيادتها ، وتبوأت مركزها الطبيعي في عضوية الجامعــة العربية ، عاملة جهدها على تدعيم وترسيخ هذه المنظمة الاقليمية ، وزادت في أواصر القربى إذ انضمت إلى معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي ، محتضنة في الداخل أبناء العروبة داعمة إياهم أينما وجدوا ...

سياسة الكويت الخارجية

وقد حدد وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الاحمد سياسة بلاده الخارجية

في بيان ألقاه أمام مجلس الأمـــة الكويتي ومما جاء فيه ان سياسة الكويت تجاه المجموعة العربية هي :

١ – عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة عربية ، كما اننا لا ندخل في أي صراع يدور بين دولتين عربيتين ، إنما نحاول تصفية العلاقات العربيـــة متى أتيحت الفرصة المناسبة لذلك .

٢ – الإيمان العميق بجامعة الدول العربية والعمل على تقويتها وتدعيم ميثاقها .

٣ – العمل على تحرير اجزاء الوطن العربي وتـــأييد حق كل جزء في نيـل حريته واستقلاله .

٤ – شجب كل تكتل من شأنه إضعاف جامعة الدول العربية .

٥ – تأييد مشاريع الوحدة او الاتحاد التي تحقق مصلحة الأمة العربية .

٦ – التعاون الاقتصادي مع الدول العربية الشقيقة . وقد قمنا بدور فعال في هذا المجال وعقدنا الاتفاقيات مع عدد من الدول الشقيقة لهذا الغرض ، ويهمنا أن نؤكد استمرارنا في مد يد العون إلى امـــارات الخليج العربي وساحل عمان والشقيقتين الجزائر واليمن اللتين تعملان على اعـــادة بناء حياتيهما الاقتصـــادية والثقافية . ونود أن نشير بهذه المناسبة ان اللجنة الدائمة لمساعدات الخليج العربي واليمن تضطلع بمهمة تنظيم هذه المساعدات .

٧ – العمل على تقوية علاقاتنا الديبلوماسية مع جميع الدول العربيـــة ، وقد أصبح لنا الآن تمثيل ديبلوماسي مع معظم الدول العربية الشقيقة .

٨ – الترحيب بكل عمل من شأنه أن يصفي العلاقات بين الدول العربيـــة ويقويها .

وبعد أن بيّن معاليه موقف الكويت حيال المشاكل العربية بالتفصيل ، انتقل إلى تحديد موقف الكويت من المشاكل العالمية فقال :

١ – ان انضمام الكويت إلى هيئة الأمم المتحدة يشعرنا بمزيد من المسؤولية في تأييد ميثاق هذه المنظمة خصوصاً ما يتعلق منه بدعم قضايا التحرر والاستقـــلال لجميع الأمم والعمل مع جميع الدول الأعضـــاء على تأييد حق الشعوب في تقرير

مصيرها والتحكم بمقدراتها .

٢ – اننا نشجب التفرقة العنصرية بجميع أشكالها . وان لنا من اصالتنا العربية وتعاليم الإسلام ما يدعونا إلى نشر رسالة الأخوة والسلام دون تفريق في الجنس واللون والمعتقد . ان المساواة بين الافراد في الحقوق والواجبات وبين الشعوب في الحرية والحياة الكريمة ، هو ما نؤمن به ونسعى إلى تحقيقه متعاونين مع جميع الشعوب والدول في العالم .

٣ – ان دولة الكويت دولة غير منحازة لا تستوحي سياستها من الكتلة الغربية ولا الشرقية ولا تؤمن بسياسة المعسكرات الدولية ولا تنتمي اليها ، ونحن نرى ان انقسام العالم إلى معسكرين متعاديين هو خطر يهدد أمن العالم وسلامه ، ولذلك فسنعمل مع جميع الدول على تخفيف حدة الصراع بين المعسكرين ونؤيد كل مسعى في هذا السبيل ليسود التفاهم والتعاون البناء بين جميع الدول المحبة للخير وسعادة الانسان ، وسنتعاون إلى أقصى حد مع كتلة الحياد الايجابي ومجموعة الدول الاسيوية والافريقية من أجل تحقيق الاهداف المذكورة ولتدعيم المبادىء التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة .

٤ – ان حق تقرير المصير كان ولا يزال الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه منظمة الأمم المتحدة ويكوّن الجانب الرئيسي والأهم من ميثاقها . ونحن نلتزم بهذا المبدأ ونرى ان لكل شعب الحق في تقرير مصيره بنفسه ، واعلان ارادته الحرة واحترام هذه الإرادة من أجل اختيار نوع الحياة التي يريدها ، والنظام الذي يعيش في ظله ، وتحديد ارتباطاته بالدول والشعوب الأخرى ، كما نشجب كل سياسة تستهدف سلب حقوق الانسان في الحرية والكرامة وتجريده من ممتلكاته مهما كانت الدوافع إلى ذلك .

٥ – السلام العالمي والتعاون بين دول العالم وشعوبه المختلفة من أجل تحقيق الحياة المثلى للانسان هو ما يجب أن تستهدفه جهود الدول جميعاً وفي مقدمتها الدول الكبرى التي تمتلك الأسلحة النووية وتمسك بمصير العالم . ونحن كجزء من هذا العالم يتعلق مصيرنا بمدى ما يصير اليه استخدام هذه الأسلحة المدمرة ، نقف بجانب

الدعوة إلى نزع السلاح ومنع التفجيرات النووية واستخدام هذه الطاقة الجبـارة في سبيل تطوير الوسائل السلمية من أجل عالم أفضل وحياة يسودها السلم والرفاهية .

وقد وافق المجلس الكويتي بالإجماع على بيان وزير الخـــارجية وأعلن تأييده لسياسة الحكومة الرشيدة .

السعودية عملاق الجزيرة العربية

فهد الصحراء

في عام ١٨٩٠ (١٣٠٨ هـ) تمكن أمير حائل ابن الرشيد بمساعدةومساندة الدولة العثمانية ، من القضاء على الدولة السعودية الثانية ، فاضطر كل من الأمير عبد الرحمن وابنه عبد العزيز ، وكان مـــا يزال في حداثة السن ، إلى الالتجاء لكنف حاكم الكويت ، بعد أن قضى الغلام فترة عصيبة من عمره عاش فيها جو الصحراء ، سعة افق واغوار عمق .

ولقد صقلت نفس الفتى اليـافع المتـاعب والاهوال ، والاحداث الجسام التي عاناها في بحار الرمال ، فصلب منه العود ، واشتد الساعد ، وأخذ يضطلع بمهـــام الرجولة ، ينهد بنفسه الطموح – وهو في حالة لا يحسد عليها – إلى بعث أمجـــاد الدولة السعودية ، ويدفعه توثب الشباب الثـائر في صدره لدمج مستقبله الذاتي في بوتقة المثل الأعلى الذي اليه يهدف ، والغاية الفضلى التي اليها يسعى .

وكان أول ما عمل له الأمير السعودي وقد صار في شرخ الصبا ، أن يستعيد مدينـــة الرياض ، كخطوة اولى في ذلك الطريق الشاق الطويل ، من ابن الرشيد الذي ترك فيها حامية برئاسة أحد قواده ويدعى عجلان .

واشترك الأمير عبد العزيز في غزوات موفقة شنّها على اعدائه في عقر ديارهم ، ثم قرر أن يثب وثبته الجريئة ليفترع بها الرياض ، وعدته في ذلك ستون فدائيـــاً

لا غير ، لكنه كان يحارب بالايمان لا بالعدد ، وفي همته طاقـــات جيش كاملة ، بزخم خيوله ، والتماع سيوفه ، واهتزاز رماحه .

ونظر الأمير الشيخ لابنه الشاب فأعجب بفتوته وقوته وشجاعته ، غير أنـــه ككل أب – خاف عليه سوء العاقبة ، فحاول أن يثنيه عن عزمه ، بعد أن وقر اذنيه عن سماع أي شيء إلا نداء الحمية وتلبيته ، « وأين تجربة الشيوخ وتبصرهم من حمية الشباب واندفاعهم، وقد خاطب والده قبل مغادرته الكويت تعبيراً عن فورة الطاقات الكامنة في نفس ذلك الشاب العملاق في قامته ، والتي تبغي التحرر بقوله : لن تراني بعد إلا منتصراً ، أو أنك لن تراني أبداً [1] . »

استعادة الرياض

ومضى عبد العزيز ، بجماعته الصغيرة بعددها ، الكثيفة ايماناً بالرسالة التي لهـــا تعمل ، وبقائدهـا الملقب بـ «فهد الصحراء» ، في مسيرة هي أقرب إلى الأساطير ، تمثلاً لآفاق البطولات التي هي التجسيد الواقعي لوثبات المتنبي الخيالية التي ساقها في حروب سيف الدولة .

قاد الجياد إلى الطعان فلم يقد	**إلا إلى العـادات والاوطان**
كلّ ابن سابقة يُغير بحسنه	**في قلب صاحبه على الاحزان**
ان خُليت ربطت بآداب الوغى	**فدعاؤها يغني عن الارسان**
في جحفل ستر العيون غبارُه	**فكأنمـــا يبصرن بالاذان**
يرمي بها البلدَ البعيد مظفرٌ	**كل البعيد له قريب دان**
فكأن أرجلها بتربة منبج	**يطرحن ايديها بحصن الران**

ونزل الأمير عبد العزيز بتلك الحفنة من الرجال على مقربة من جنوبي الرياض ، حيث خلف هناك عشرين نفراً ، ومضى تحت استار الظلام إلى المدينة الغـارقة في نومها ، ليتسلق أسوارها وليهبط في حصن الرياض فيقتل قائد الحـــامية عجلان ،

---

١ – المملكة العربية السعوديـة بين يديك ص ٢٤ .

ويعمل حدّ سيفه بكل من قاوم .

وسارع رجال المدينة ، وقد اختفت حامية ابن الرشيد ، يعبرون عن فرحتهم وتأييدهم للأمير الشاب ، وأوفد عبـــد العزيز رسله إلى الكويت ليطلعوا الأمير الشيخ على الحدث المعجزة ، وليحثوه على العودة ليتسلم زمام الحكم ، في ذلك اليوم الذي انبثق عن فجر الدولة السعودية الثالثة ونهوضها بخلق حديث عن بعث جديد .

ورجع الأمير عبد الرحمن إلى الرياض بعد غياب امتد أحد عشر عاماً ، بعيداً عن ملك آبائه وموطن أجداده ، إلا انه رأى أن يسلم دفة القيادة للرجل الكفء المتمثل في شخص ابنه الأمير عبد العزيز ، وخاطب في هذا الشأن علمـــاء المدينة ووجهاءها بقوله :

« أرى أنكم بحاجة إلى رجل أشد حيوية وأنضر شباباً يحكم بينكم ، وقد عرفتم ولدي عبد العزيز وخبرتموه ، وقدرتم ما يتمتع به من صفات خارقة، لذلك قررت التنازل له عن كل سلطاتي السياسية والعسكرية ، مكتفياً بمهامي الدينية ، مكرساً بقية عمري للصلاة وعبادة الله[1] »

وبعد أن تسلم الأمير عبد العزيز المجسد لشخصية الدولة السعودية الحديثة مقاليد الحكم في الرياض ، وجه همه لمنازلة عدوه ابن الرشيد الذي لم يسلم بالهزيمـــة ، وإنما أعدّ العدة لاستعادة الرياض ، لكن الأمير عبـد العزيز سارع بتشكيل جيش ، كانت نواته اخوانه في مغامراته ومناوراته الفـــدائية ، ولم يستطع أن يحتفظ في الرياض فحسب ، وإنما ألحق بخصمه عدة هزائم .

وحينئذ لجأ ابن الرشيد إلى الخديعة ، وتظاهر بأنه مهاجم الكويت فمحتلها ، ولم يستطع الأمير عبد العزيز إلا أن يهب لنجدة صديقه القديم الشيخ مبـــارك الصباح ، في الوقت الذي سارع ابن الرشيد مغتنماً فرصة تغيب الأسد عن عرينه ، ليضرب الحصار على الرياض .

لكن الخديعة الحربية لم تفتّ بعضد شبل الصحراء ، وانما رد على عدوه بأشد

---

٢ ــ عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ص ٨٤

منها نكالاً ، فترك مهمة الدفاع عن الرياض لوالده الامام عبد الرحمن ، وشد هو على مرابع عدوه من قبائل شمر ، فأنزل بها هزائم منكرة ، وخسائر فادحة ، مما اضطر ابن الرشيد إلى فك الحصار عن الرياض والمسارعة إلى مرابعه ليراها تعيش مأساة الهزيمة .

عبد العزيز يهزم القوات التركية

واستمرت الحروب بين طرفي النزاع سجالاً في اغلبها ، مع تألق دائم لنجم ابن سعود الذي أخذ بالسطوع والاشعاع ، وشملت سيطرته على بطاح نجد .

ولما رأى ابن الرشيد أن الوضع قد انقلب عليه ، وأخذت كفة عدوه تميل إلى الرجحان ، رغم ما تحلى هو به من طاقات سياسية وقدرة عسكرية ، يمم وجهه شطر الدولة العثمانية ، وطلب في عام ١٩٠٤ (١٣٢٢ ﻫ) نصرتها ومساعدتها .

وتوافقت ميول الدولة العثمانية مع اهواء واليها على حائل ، ورأت من الضرورة العمل المشترك للقضاء على القوة السعودية الناشئة قبل أن تقوى أسسها ، وتمتد جذورها بعيداً في الأرض .

ورأى الأمير عبد العزيز نفسه مساقاً لخوض حرب مصيرية بالنسبة لشعبه ولرسالته ، فقام بتعبئة قواته ، وسار للقاء العدو المزدوج : ابن الرشيد وقواته وثمانية كتائب تركية من الجنود المشاة تدعمها بطاريتان من المدافع المتحركة ، فقاد الأمير السعودي بنفسه الهجمات الصاعقة على جماعة ابن الرشيد فاخترق صفوفهم الكرة بعد الكرة ، واستطاع أن يكشف بهزيمتهم وتشتيتهم في كل حدب وصوب جناحي العدو ، لكنه فشل في فتح ثغرة بالكتائب التركية النظامية التي قامت دونه بمربع « كثيف من الرجال والفولاذ ثابت كالطود لا يتزعزع كان بمثابة نقطة التقاء لاعادة تجمع البدو [١] » .

وانقلبت كفة المعركة ضد السعوديين وقد فتكت بهم المدفعية التركية ،

---

١ ـ المرجع السابق ص ٨٩

وبخاصة عندمـــا اصيب الأمير عبد العزيز بشظايا احدى القنابل ، ونقل من ساحة المعركة فاقد الوعي ، ودماؤه تنزف بغزارة ، وكان لنبأ اصابته وقع بالغ الأهمية في نفوس السعوديين الذين كانوا يرون فيه مجسداً لآمال الدولة بأكملها ، فتراخت عزائمهم ، وانسحبوا من المعركة يحملون قائدهم وهو بين الحياة والموت .

وحين استرد الأمير عبد العزيز قواه واستعاد صحته ، سارع بجمع شمل رجاله ، واستنجد بالقبائل العربية فأنجدته بعد تردد ، وتمكن بعد مضي عام من تنظيم جيش كامل العدة موفور العدد ، حتى إذا تمّ له ما أراد سار للقـــاء عدويه اللدودين ، الاتراك وجماعة ابن الرشيد ، والتقى بهم قريباً من قرية « شنانة » شمالي الرياض ، حتى إذا التحم الجمعان رمى الأمير بثقل قواه على المدفعية التركية ، يشد على الاتراك بكل ما فيه من طاقات العزم وقوة الارادة ، ينتزع بهـــا قدَرَه ومصير مملكة بكاملها . وقد استطاع منـذ الجولة الأولى أن يلقي البلبـــلة والذعر في صفوف العثمانيين فمزقهم شر ممزق ، عندئذ ركب انصـــار ابن الرشيد اكناف الصحراء يطلبون في متسع بطاحها النجاة والتعلق بأسباب البقاء . أمـــا الاتراك فقد أتت عليهم القـــوى السعودية ، فلم ينج منهم إلا نفر قليل ، وصـــلوا البصرة نصف أموات أكثر منهم نصف أحياء .

الاستيلاء على الاحساء

وفي عام ١٩٠٥ تمكن الأمير عبد العزيز أن يقضي القضـــاء الأخير على عدوه ابن الرشيد ، وان يعقد معاهدة صلح مع الاتراك ، واتجـــه منذ تلك الفترة إلى توطيد دعائم الحكم ، واركان الإدارة في الدولة السعودية ، عاملاً على اذابة العصبيات القبليـــة ، وصهرها في بوتقة الحركة الوهابيـــة ، غير انه واجه مصـاعب جمة في اقناع القبائل للكف عن حياة الفوضى التي بلغت في بعض الاحيان درجة الثورات اللاهبة ، إلا انه ما زال يعالجها بحزم وجرأة حتى تمكن من اخضاعها لسلطانه .

وفي أواخر عام ١٩١٢ (١٣٣١ هـ) ، بعد أن مكّن الأمير عبد العزيز لنفسه في نجد ، رأى أن يمد رواق دولته إلى الخليج ، فاهتبل فرصة انشغال الامبراطورية

العثمانية بمشاكل البلقان ليستولي بقليل من الجهد والعناء على مدينة الهفوف وقلعتها الكوت التي تتحصن فيها القوى التركية ، وقد أخذت هذه القوى على حين غرة ، فاستسلمت راغمة ، وأقر العثمانيون بالسلطة الفعلية لابن سعود على اقليم الاحساء مقابل الاعتراف بسيادتهم الرمزية على ذلك الاقليم .

الاستيلاء على الحجاز

ووجد سلطان نجد والاحساء منافساً صعب المراس في شخص الشريف حسين أمير مكة الذي كان قد تحالف مع بريطانية لخوض غمار حرب تحرير البلاد العربية من نير العثمانيين وضمن البريطانيون حمايته ، وتطورت الاحداث بين الطرفين آخذة سبيل المشاحنات السياسية حول إحدى المدن « خرمة » وكانت تابعة للشريف حسين سياسياً ، إلا ان سكانها أعلنوا انضمامهم للحركة الوهابية ، فلقي أهلها العسف والعنت من صاحب مكة ، مما أثار حفيظة الوهابيين ، وكانت فرصة ذهبية لابن سعود إذ تخلى البريطانيون عن الشريف حسين في اخريات أيامه في الجزيرة العربية ، بعد ان حققوا اطماعهم في الشرق الادنى ، واقتسموا وفرنسة ديار العروبة مناطق نفوذ لهم ، فأخذ يوسع رقاع حكمه في الحجاز ، ولم يهل عام ١٩٢٤ (١٣٤٣ هـ) حتى تهيأ « شبل الصحراء » لدخول مكة ، وأعد كامل استعداداته لتلك الخطوة الكبرى ، إذ تمكن من عزل الشريف حسين عن ولديه فيصل وعبدالله ، وقسم قواته إلى ثلاثة جيوش ، رابط اثنان منها على حدود العراق وشرقي الاردن ليحولا دون ارسال النجدات لجيش مكة ، وسار بنفسه على رأس الجيش الثالث ، وتمكن من فتح مكة سلماً بعد أن تخلى الشريف حسين عن الملك لابنه علي ، وانسحب من الجزيرة العربية ليسارع ابن سعود لفتح العسير حيث تم توحيد الجزيرة على يديه .

وكان عليّ يأمل أن يجد في البريطانيين نصيراً له على ابن سعود ، لكنهم لم يحركوا ساكناً ، وفي أواخر عام ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) غدا عبد العزيز بن سعود سيد الجزيرة العربية ، وكانت السعودية الدولة العملاق .

وبعد أن استتب الأمر للملك السعودي ، وضع نصب عينيه رسالة النهوض

بالمملكة على قواعد راسخة من الادارة والتنظيم ، وصهر المجتمع القبلي ، وسكب بنيان الامة في قالب جديد منفتح على اجواء العـــالم الحديث على صعيد السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فأخذت علاقات الدولة السعودية مع العـالم الخارجي تنتظم وتتوطد ، في الوقت الذي كان ابن سعود لا يحقق انتصاراً إلا ويطمح لنصر اكبر، ومجال نشاطه ذلك المجتمع الكبير يجتذبه من ظروف القرون الوسطى ليعيش العالم الحديث بكل ما فيه من مبتكرات ومخترعات وعلوم حديثة .

وكانت البلاد إلى أمد قريب تعيش الفوضى وتحيـــا الفتن ، وتتنفس اجواء الاغارات الشعواء ، ومـــا يتبعها ويلازمها من نهب وسلب ، فنظم الملك شؤون الادارة، وأخذ دفة البلاد بيدين جبارتين لا تعرفان غير العزيمة والقوة والضرب على أيدي المعتدين الآثمين ، حتى تمكن أن يقطع دابر الفوضى ويقر النظام .

ويقول موريس جورنو في كتابه « تحقيق حول ابن سعود » :

« إذا كان ابن سعود قد نجح في لـم شعب الجزيرة العربية تحت لوائه ، وإذا كان قد جعل من بلد مضطرب آهل بالعصابات البلد الأكثر أمناً في العالم، فمرد ذلك ليس القوة والسيف فحسب، بل لأنه سكب في أعماق الأمة الناشئة أقوى عوامل التراص والتماسك،أي التقيد الشديد بأحكام القرآن.. فالجرائم التي ترتكب حالياً في العربية السعودية خلال عام كامل أقل مما يرتكب في باريس خلال يوم واحد [1] ».

وتطلع حكام العربية السعودية إلى دولتهم من منظار الحضارة العالمية ، فألفوها متأخرة في مجالات شتى عن كثير من البلدان المتطورة، فسعوا بدورهم إلى النهوض بالبلاد وتطويرها حتى تبلغ الركب العالمي ، إلا ان عقبات كأداء وشتى وقفت حيال الملك وما يبغيه لوطنه وأمته ، فأين له الموارد الضخمة التي تتطلبها الموازنة لمد السكك الحديدية وانشاء المدارس والمستشفيات ، وتأمين الماء والكهرباء ، وتنظيم الجيش على أساليب حديثة ، إلا انه لم ييأس، وسعى حسب مقدرة الدولة وطاقاتها، والتطور البطيء خير من الجمود، فنظم الشؤون الزراعية ، وشرع بإنشاء المطارات،

---

١ ـ المرجع السابق ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

إلا ان المملكة لم تشهد قفزتها الرائعة والكبرى إلا بعد أن تبين لعلماء الجيولوجيا أن شبه الجزيرة العربيـة ، تلك الأراضي الصحراوية الفقيرة ليست إلا منـاجم ثروات هائلة من البترول ، وجاءت تقارير البعثة الاميركية التي قدمت البلاد لهذا الغرض ، مؤيدة تلك الاقوال ، وبدأت تظهر الدولة السعودية الحديثة بمنظار آخر للبلدان المتطورة ، فسارعت الشركات الاجنبية للحصول على امتيازات التنقيب عن البترول،ووقع اختيار الملك عام ١٩٣١ (١٣٥٠هـ)على إحدى الشركات الاميركية وهي شركة صغيرة « غولف أوف كومباني » التي عرفت فيما بعـد بشركة « نفط كاليفورنيا » ثم باسم « آرامكو » كما بسطنا ذلك في حديثنا عن البترول .

وفي ١٣ ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٣٢ (١٣٥١ هـ) عرفت الدولة السعودية باسمها الحالي أي « المملكة العربية السعودية » .

وثبة المملكة العربية السعودية في مضمار التقدم

لقد شرعت الدولة السعودية تأخذ مكانها بين الدول بثقة ، حالما تمّ لها أن تنعم بالاستقرار الداخلي ، وسعت في دروب التصنيـع مماشاة لركب الحضارة الصاعد ، فكان لها ما أرادت إذ تفجرت ينابيـع البترول في أرضها عام ١٩٣٥ (١٣٥٤ هـ) ، وتلت ذلك حركة صناعية في البلاد ، فأنشئت المصافي على الساحل الغربي للخليـج ، ومدت أنابيب البترول ، واستوعبت الاعمال عدداً غير قليل من الأيدي العاملة من أبناء الدولة السعودية .

أما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد ازدادت اهمية الدولة السعودية بازدياد انتاج النفط فيها ، وبالتالي زيادة الواردات بعد سنة ١٩٥٠ حتى بلغت ١٦٠ مليون دولار سنوياً خصصت لتحقيق الأهداف الآتية :

١ ــ استيراد المواد الغذائية والأقمشة التي لا غنى عنهـا (الأرز والسكر ، والشاي والقهوة ، والأقمشة القطنية) .

٣ ــ شراء السيارات الكبيرة والصغيرة .

٣ ــ تحقيق المرحلة الاولى من تحويل المملكة العربية السعودية إلى دولةحديثة .

آ - كهربة الرياض وأهم مدن الحجاز (مكة والمدينة وجدة والطائف) .
ب - انشاء شبكة من الخطوط البرية والحديدية والجوية .
ج - تطوير الثقافة العامة .
د - اتباع سياسة خارجية تفرض اعتبار المملكة العربية السعودية في الأقطار العربية ، وتقاوم النفوذ الأجنبي في تلك الأقطار [١] » .

وشملت البلاد حركة عـــارمة من الحيوية والنشاط في العمران وربط اطراف البلاد بطرق المواصلات ، وشرعت الدولة الحديثة تؤقلم لنفسها الجانب الايجابي من المدنية الحديثة في كافة مرافق الدولة وقطاعاتها ، فعبدت الطرق العريضة ، ووصلت منـاطق شبه الجزيرة بعضها ببعض ، وفي أواخر عـام ١٩٥١ (١٣٧١ هـ) تم انشاء خط حديدي يربط الرياض بالظهران ، كما اصبحت المملكة العربيـــة السعودية في أواخر أيام الملك عبد العزيز ملتقى خطوط المواصلات الجوية العالمية ، فتمكنت من انتشالها من عزلتها السابقة ، وقربّت بينها وبين العالم الحديث ، وأصبحت على احتكاك مباشر بآخر منتجات الفكر العلمي .

وكانت المملكة العربية السعودية من مؤسسي الجامعة العربية عـــام ١٩٤٥ (١٣٦٥ هـ) ، وطفقت تعنى بالمشاكل العربية ، وبخاصة قضية فلسطين التي دافعت عنها بإخلاص ، واحتلت « طليعة اهتمام وزارة الخارجية العربية السعودية ، وفي دورات الجامعة وفي المحافل الدولية ، ودورات هيئة الامم ، ومجلس الأمن الدولي ، وفي كل مناسبة كانت السياسة السعودية تعمل على نصرة قضية فلسطين ، وقضيـــة المليون عربي المشردين من اهاليها [٢] » .

فيصل بن عبد العزيز

وكان فيصل بن عبد العزيز اليد اليمنى لوالده ورفيقه في أسفـــاره وممثله في

---

١ - المرجع السابق ص ٢٦٩
٢ - المملكة العربية السعودية بين يديك ص ٧٧

مفاوضاته، وقد عهد اليه بوزارة الخارجية لأنها النافذة التي تطل منها على العالم ويطل العالم منها على المملكة ، لما يعرف فيه من رجاحة الرأي وسعة الأفق وبعد النظر ، وما يجمع في شخصيته الفذة من مزايا كريمة وأخلاق نبيلة وثقافة عالية . وقد رسم فيصل للمملكة العربية السعودية سياسة عربية واضحة المعالم ، قائمة على مبدأ مسالمة جميع الأمم ، والتعاون معها ضمن نطاق المصالح المشتركة وفي حدود التجاوب مع أماني العرب في قضاياهم المختلفة ، إلى جانب التمسك الصادق بميثاق الجامعة العربية واحترام التزاماته .

وفي التاسع من تشرين الثاني لعام ١٩٥٣ (١٣٧٣ هـ) أصيبت الدولة السعودية بخسارة فادحة لغياب وجه مؤسسها الكبير الملك عبد العزيز،فكان لهذا النبأ صداه الواسع في الأوساط السياسية والديبلوماسية ، فكتبت (باري ماتش) لمعلقها « جان بول بونيه » كلمة يقول فيها :

« لقد خلف ابن سعود ، الذي لقبه الانكليز بنابوليون الجزيرة العربية ، مملكة شاسعة تعدل مساحتها نصف مساحة أوروبا ، وبلداً يعتبر الثالث في العالم في انتاج البترول ، وكان في الوقت نفسه الزعيم المرموق في العالم العربي . نصف قرن من الجولات الخيالية ... ملحمة مدوية لم تخطر أعاجيبها أبداً في بال كتاب قصص الفروسية ... لقد استطاع ابن سعود في خضم القرن العشرين أن يفجر من غمار الرمال أمة جديدة [١] » .

إلا ان الملك الراحل كان مطمئن الفكر إلى ان البلاد منتقلة من بعده إلى أيد أمينة وأعين ساهرة،لا بد وان تنهج النهج الذي اختط، وتؤدي الرسالة التي لها عمل، وكانت البلاد تتطلع دائماً إلى فيصل بن عبد العزيز تلجأ اليه في كل كارثة وتلوذ به في كل محنة ، فكان يسارع إلى انقاذ المملكة ويسير بها إلى شاطىء السلامة ، ثم أيقن أهل الرأي وأصحاب الكلمة ان البلاد لن تستطيع متابعة النهج القويم الذي نهجه الملك الراحل ، وتذليل العقبات التي تعترض سيرها الصاعد ، والصمود في وجه

---

١ ـ عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ص ٣٠٢

الاحداث والملمات ، إلا إذا كان ذلك الربان الحكيم الساهر ، فتولى جلالته الملك في أواخر عام ١٩٦٤ فكان مثال الحاكم الصالح ، وبدأ المواطنون يلهجون بالحديث على أياديه الخيرة والثناء على مشاريعه الاصلاحية التي شملت جميع مرافق الحياة ، واستطاعت الدولة أن تقفز قفزات عملاقة ، في مضمار الرقي والتصنيع ، والحفاظ على مصالح الوطن ، ولا سيا بعد ان اعتمدت مبدأ المناصفة في أرباح البترول ، فبلغت وارداتها منه ١٢٠ مليون جنيه استرليني في السنة وضعتها كلها في خدمة الشعب وجندتها للنهوض العام بالمملكة .

العلم والنهضة الثقافية

لا خلاف في أنه مع تطور الحضارة الحديثة المرتكزة على أسس المجتمعات الصناعية ، تبرز أهمية التعليم كضرورة قصوى لا يمكن التهاون في اكمال رسالته على أكمل وجه ، فالعلم هو أس كل أساس ، فكان من البدهي أن يشغل حيزاً كبيراً في بلد ناشىء كالمملكة العربية السعودية ، ليكون لها دورها اللائق بها في اشرف مجال من مجالات النشاط الانساني .

كان العلم مع نهاية الحرب العالمية الثانية محدوداً في مجالات ضيقة ، إلا أن السلطات شرعت تركز جلّ اهتمامها على العلم والحث على الانكباب على الدراسة ومكافحة الامية.

وتشير الاحصاءات في الدولة السعودية إلى ارتفاع أرقام موازنة المعارف ونفقات التعليم ، وانها قد تضاعفت خلال اثني عشر عاماً بنسبة ٢٥٠٠ بالمئة ، وهي من أعلى النسب في العالم ، فبينما كانت ميزانية التعليم لا تتجاوز الـ ٨٧ مليون ريال عام ١٩٥٧ (١٣٧٧ هـ) ، غدت تزيد على ٣٠٥ مليون ريال في عام ١٩٦٥ (١٣٨٥ هـ) ، والزيادة مضطردة ابداً .

« ونتيجة لنمو الحركة الصناعية في أنحاء المملكة والاتجاه المطرد نحو التصنيع ، ازدادت الحاجة إلى عدد غير قليل من مهرة الصناع والخبراء الفنيين ، ولذلك رسمت وزارة المعارف سياسة عامة للتعليم الصناعي ، وأعدت مناهج التعليم الصناعي

لتتماشى مع البيئة وحاجات البلاد [1] . »

وكان للسياسة البترولية أثر كبير في توجيه الدراسات العالية ليحتل أبناء الشعب السعودي الوظائف في شركات البترول ومكاتبها ، ولذا ركزت الدولة اهتمامها على انشاء المعاهد التجارية وعلم المحاسبات .

ولتسد جزءاً من الفراغ الذي تتطلبه الخبرة العلمية الدقيقة ، ومواجهة ازدياد عدد المتخرجين من المعاهد الثانوية ، فقد عمدت وزارة المعارف إلى ارسال البعثات الطلابية إلى خارج البلاد ، على نفقتها الخاصة « والتعليم مجـــان للجميع » ليتلقوا علومهم الجامعية في الأقطار العربية والأوربية والأميركية ، وقد بلغ عدد طـلاب البعثات في الخارج ١٦٩٣ طالباً عام ١٩٦٤ (١٣٨٤ هـ) .

وتجدر بنا الإشارة إلى الحركة النسائية في المجتمع السعودي ، فقد عمدت الدولة إلى اصدار مرسوم ملكي عام ١٩٦٠ (١٣٨٠ هـ) يقضي بتعليم الفتاة السعودية لتلعب دورها السليم في المجتمع ،واعدادها لتكون المدرسة الأولى للشعب السعودي ، وبذا شرعت المرأة السعودية تخوض ميادين الحياة العلمية العملية في التعليم والتمريض والنشاطات الاجتماعية الأخرى .

الخدمات الصحية

يحتل اهتمام الدولة السعودية في رعاية الشؤون الصحية مكانة مرموقة ، ووضعها في ذات المستوى وميادين التعليم ومجالات التصنيع . وقد وضعت الدولة برامج صحية منها برنامج السنوات الخمس ، وقد تم أخيراً جني ثمـــاره ويتلخص بالنقاط التالية :

تقديم المعالجة الصحية الوقائية منها والعلاجية لكافة أفراد المواطنين مجاناً ، حضراً وبدواً دون استثناء .

٢ ــ انشاء الوحدات الطبية المتنقلة ووحدات المكافحة التي حصرت مهمتهـــا

---

١ ــ مجلة « هذه بلادنا » العدد الثالث ص ٢٤

بالمعالجة الطبية .

٣ – تأسيس مستشفيات ومستوصفات ، ومراكز صحية ثابتة ومتنقلة .

٤ – التعاضد الجماعي في مرافق الدولة لتحقيق المشاريع الصحية إلى جانب التعاون مع المنظمات الدولية .

٥ – الاهتمام برفع المستوى الصحي بين طبقات الشعب ، وذلك بتدريب موظفين صحيين من المواطنين على طرق العلاج والوقاية، بافتتاح مدارس للتمريض، وارسال البعثات إلى الخارج، وادخال المناهج الصحية الأساسية ضمن برامج التعليم .

٦ – توفير الضمانات الصحية لحجاج بيت الله الحرام ، والسهر على راحتهم .

٧ – تأمين الأدوات والتجهيزات الطبية اللازمة وكذلك الموظفين إلى كافة مناطق الدولة السعودية .

وكان من المنشآت الضخمة التي انجزتها المملكة العربية السعودية في الثالث من شهر نيسان عام ١٩٥٧ (١٣٨٥ ه) المحجر الصحي في مدينة جدة ، ويعتبر في طليعة المنجزات الوقائية لحجاج بيت الله الحرام [١] » .

ويتألف هذا المحجر وهو بحد ذاته مدينة صحية كاملة من١٥٠مبنى يحتل مساحة قدرها ٢٨٨،٠٠٠ متراً مربعاً ، وهو مجهز « بأحدث الوسائل الطبية ، وبمختبر جرثومي ، وبالمعدات الطبية ، ومستشفى عام ، وغرفة للعمليات واقسام للأشعة والعلاج والصيدلية ، ويتسع لعزل ٢٤٠٨ اشخاص دفعة واحدة [٢] » .

وعلى الصعيد العالمي تتعاون حكومة المملكة العربية السعودية مع منظمة الصحة العالمية في ميدان مكافحة الامراض السارية في البلاد ، وفرض الرقابة الصحية الدولية على الحجاج ، ولقد تم اقرار « مشروع صحي نموذجي سينشأ في الدمام ، على الضفة الغربية للخليج العربي ، وسيكون الفريد من نوعه في الشرق الأدنى ، وسيتولى الخبراء الدوليون الاشراف على انجاز المشروع ، كما سيدرب مستشارو

---

١ – المملكة العربية السعودية بين يديك ص ١٣٧

٢ – التحدي الكبير تاليف نهاد القادري ص ١٣٧

منظمة الصحة العالمية فريقاً من السعوديين ليحلوا محلهم [١] » .

النهضة الصناعية

إن دولة تقوم نهضتها على اساس استغلال الطاقات الكامنة في اراضيها ، ووضع تلك الطاقات في مصلحة تطوير البلاد ، لا بد أن تتبعها وتلازمها نهضة صناعية ، تبعاً للأوضاع الاقتصادية التي تفرضها اسس المجتمعات الصناعية ، ومع أن الدولة السعودية حديثة العهد في المضمار التطوري هذا ، إلا انها عرفت كيف تكيّف نفسها بفضل حزم الحكومة ، وتفجر طاقات الشعب ، وتبلور كفاءاته العلمية والعملية ، فخطت بذلك خطوات سريعة صعوداً بخطها البياني من المجتمع القبلي البسيط تحركاً في مضمار العلوم والتصنيع الآلي الحديث ، غير انها ما زالت في طورها البدائي ، أي بمراحل التخطيط وتحقيق المشاريع الكبرى التي وضعتها في حيز التنفيذ ، وهي على أبواب جني ثمار نهضتها الصناعية .

وتهتم الدولة السعودية بالتنقيب عن المعادن إلى جانب استثمار الثروات الطبيعية من بترولية أو غازية ، وتشير تحريات المسح الجيولوجي عن وجود الذهب والنحاس ، وكميات كبرى من الملح الصخري التي سيعمد إلى استثمارها [٢] .

كانت الدولة السعودية السباقة بين الدول العربية لإنشاء كلية للبترول تقيداً بتوصيات المؤتمرات البترولية العربية ، وقد عين مقر هذه الكلية في الظهران بناء على المرسوم الملكي الذي أصدره الملك سعود في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٣ (١٣٨٣ هـ) [٣] .

وتهتم الدولة السعودية بموضوع تصنيع البترول ، وذلك بانشاء صناعة بتروكيميائية ، وقد رصد لها مبلغ مليار ريال لتحقيق مراحل استثمارها ، ويعتمد في

---

١ ـ مجلة هذه بلادنا ج٨ ص ٦١

٢ ـ التحدي الكبير ص ٩٦

٣ ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة .

تحقيق هذا المشروع على مصفاة البترول في جدة ، وستستغل من وراء ذلك «صناعة الأسمدة الكيميائية ، وصناعة المنظفات الصناعية،وصناعة البلاستيك بجميع أنواعه، وصناعة الأنسجة الصناعية مثل النايلون والدا كرون ، وصناعة المطاط الصناعي ، وصناعة الأصبغة والمذيبات ، وصناعة بعض الأدوية [1] » . كما رصدت الدولة مبلغ ٥,٥ مليون جنيه استرليني لمشروع انشاء مصنع للحديد الصلب [2] ، وقد قدرت الكمية التي سينتجها هذا المصنع بـ ٤٥ الف طن سنوياً .

كل هذا ليس إلا قليلاً من كثير وغيضاً من فيض ، مما يبشر بنهضة الدولة السعودية الحديثة على اسس العلم والمعرفة ويجعلها عن حق عملاق الجزيرة العربية .

١ ـ مجلة هذه بلادنا ج٨ ص ١١٩

٢ ـ التحدي الكبير ص ٩٧

نهضة البحرين

دولة عربية عريقة

تحدثنا كثيراً عن البحرين في الفصول السابقة ، لصلتها الدائمة بأحداث التاريخ العربي في جميع عصوره . وكان العرب يقسمون الجزيرة العربية بحسب طبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقاليم ، وأحد هذه الأقاليم البحرين الذي كان يشمل منطقة الاحساء كلها، ويسمى العروض لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق . وقد سكنتها منذ القدم قبيلة عبد القيس بن ربيعة ، وبطون من بكر بن وائل وتميم بن مرة ، وكان المنذر بن ساوى بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم أمير هذه المنطقة عند بزوغ الاسلام .

وقد رأينا البحرين في فجر الاسلام تسارع إلى اعتناق الدين الحنيف ، ورأيناها في عهد الردة وقد انقسم أبناؤها إلى فريق مؤيد لمن ادعى النبوة فيها ، وفريق مناصر لحركة المقاومة الاسلامية التي سرعان ما قضت على مثيري الفتنة . وفي أواخر القرن الثالث الهجري احتل أبو سعيد الحسن الجنابي أحد قواد القرامطة مدينة هجر عاصمة البحرين يومذاك ، واتخذ مدينة الاحساء عاصمة لدولة القرامطة . وكان هؤلاء يطمعون في بسط سلطانهم على جزيرة العرب فكانت لهم حروب ومعارك ذكرنا أهمها في الفصل الخاص بهم ، وقد انتهت دولتهم بموت الأعصم سنة ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م .

وفي القرن السادس الهجري احتل البحرين جنكيزخان ملك المغول الذي

امتدت فتوحاته حتى شملتها فيما شملت من البلاد والأقطار [١] وبعد مائة سنة من عهد المغول الأول ظهر هولاكو واستولى على البحرين فيما استولى عليه من البلدان العربيـــة [٢]، ثم تحررت البحرين بعـــد موته من حكم المغول ، ليسيطر عليها البرتغاليون ويحصنوها كما حصنوا بعض موانىء الخليج العربي لتأمين طريق تجارتهم إلى الهند .

البحرين ومطامع ايران

وقد ظل البرتغاليون يسيطرون على البحرين حتى سنـــة ١٦٠٢ (١٠١١ هـ) عندما أجلاهم الفرس عنها ، ولكن ما لبث إمام عمان ان انتزعها من الفرس ، ثم عاد هؤلاء لاحتلالها في عهد نادر شاه ، فتصدت لهم القبائل العربية برئاسة آل خليفة وأخرجتهم منها سنة ١٧٨٣ (١١٩٨ هـ) . وكان آل خليفة يحكمون الزبارة منذ سنة ١٧٦٦ (١١٨٠ هـ) ثم امتد حكمهم إلى البحرين كلها بعد أن أجلوا الفرس عنها ، وما زال مستمراً فيها حتى الآن .

ويقول جون مارلوف ان مطالبة الايرانيين بالبحرين لا تستند إلا على أساس احتلالهم لها خلال تلك الفترة [٣] . ولو كان احتلال احدى الدول لبعض المناطق في فترة من فترات التاريخ ، يمنحها حق السيادة عليها ، لجاز للعرب أن يطالبوا ليس بأجزاء معينة من ايران وحسب بل بايران كلها ، ناهيك عن سواحلها وجزرها التي ما يزال العرب يؤلفون أكثرية السكان فيها .

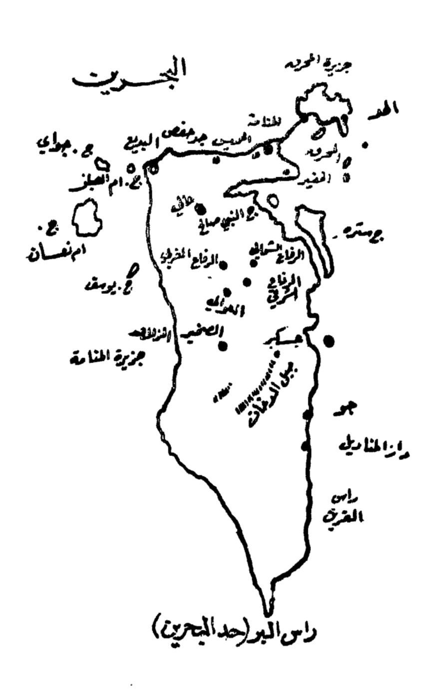
ويقول جان جاك بيريي : « ووفقاً لما تدعيه طهران اعترفت المذكرة المؤخرة في ٢٧ نيسان سنة ١٨٦٩ الصادرة عن وزير خارجيـــة بريطانية آنذاك اللورد

---

١ ــ مجلة العربي العدد الاول ص ٧٣

٢ ــ انظر فصل « البحرين » بقلم فيصل صالح المطوع في كتاب « الكويت المدينة الفاضلة » ص ١١٧

٣ ــ The Persian Gulf in the TwentiethCentury. P, 23


البحرين
جزيرة المحرق
الحد
المنامة
جدحفص
البديع
ج. ام الصبان
ج. ام نعسان
ج. يوسف
عالي
ج. النبي صالح
ج. سترة
الرفاع الشمالي
الرفاع الغربي
الرفاع الشرقي
الصخير
الزلاق
جزيرة المنامة
عسكر
جبل الدخان
جو
راس البر (حد البحرين)

كلارندون اعترافاً صريحاً بحقوق ايران في السيادة على البحرين، الأمر الذي تكذبه لندن بشدة [1] . »

ويشير الدكتور سيد نوفل إلى تلك المذكرة التي تزعم طهران ان بريطانية قد تنازلت فيها عن بلاد لا تملكها ، واعترفت بحقوق وطنية ما كانت لتستمد شرعيتها يوماً من مباركة دولة استعمارية ، فيقول : « أمـــا رسالة اللورد كلارندون وزير الخارجيـــة البريطانية سنة ١٨٦٩ إلى حاج محسن خان الوزير الايراني في لندن، والمتضمنة انه من المحتمل انسحاب القوات البريطانيـــة من الخليج عندما تصبح القوات الايرانية في حال من القوة يمكنها من كفالة السلام في المنطقة ، فقد فسرت الحكومة البريطانية هذا القول بأنه لا ينطوي على أي اعتراف لفارس بالسيادة على البحرين .. على ان الذين يعرفون الاستعمار البريطاني يعرفون تلوّن الأقوال ، وتبدل المواعيد ، ونقض العهود . ومن الخطل ، فضلاً عن ذلك ، أخـــذ أقوال استعمارية أجنبية حجة للعدوان على الحقوق الوطنية [2] ... »

وأمام مطامع فـــارس اضطر شيخ البحرين سنة ١٨٨٠ (١٢٩٨ هـ) إلى عقد معاهدة تحالف مع بريطانية اعترفت فيها باستقلال البحرين وتعهدت بحمايتها من أي عدوان خارجي [3] . ثم تبعت تلك المعاهدة عدة ملاحق واتفاقات .

لؤلؤة في بحر الزمرد

ويشبه جان جاك بيريبي البحرين بلؤلؤة في بحر الزمرد ، فهي واحة غناء على تخوم الصحراء ، وتتألف من ست وعشرين جزيرة بينهـــا ست جزر كبار هي : المنامة وهي الجزيرة الام والمحرّق وسترة والنبي صـالح وجده وام نعسان . وهي تقوم على ركائز مرجانية ، تعكس على مياه الخليج ألواناً وتموجات رائعة . وتتفجر المياه العذبة فيها من أعماق مياه البحر المالحة ، وكثيراً مـا يشرب منها الغواصون

---

١ ـ جزيرة العرب ، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز ، ص ٢٤٨

٢ ـ الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ، ص ١٢٥

٣ ـ The Persian Gulf in the TwentiethCentury. P, 23

في الأعماق حين يبحثون عن اللؤلؤ . ولا تنقطع حركة السفن في ميناء المنامة ، العاصمة البيضاء ، مما جعل هذا المرفأ الحر أعظم مركز للتبادل التجاري في منطقة الخليج [1] .

وقد وصف امين الريحاني البحرين وصفاً ممتعاً فقال : وليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة . وليس أصلح منه للتجارة أو للحرب . فهي تتوسط الخليج في زاوية معينة منه كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف . أو كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علم السلم والتجارة . بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج . فلا عجب إذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الأمم ذات الصولة والعرفان . وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس ، ومحط رحال الطامعين بالسيادة على خليج العرب [2] » .

وتقع جزر البحرين بين خطي عرض ٤٥َ : ٢٥ْ و ٢٥َ : ٢٦ْ وبين خطي طول ٢٥َ : ٥٠ْ و ٤٥َ : ٥٠ْ شرقاً . وتؤكد الأبحاث الجيولوجية انها كانت جزءاً من الساحل الشرقي لجزيرة العرب ثم انفصلت عنه في العصور الجيولوجية المختلفة. وهي تبعد نحو ٢٤ كيلو متراً عن شاطىء البلاد العربية السعودية ومثلها عن ساحل قطر ، بينما تبعد نحو ٢٨٨ كيلو متراً عن أقرب أرض ايرانية . ومساحة هذه الجزر ٥٥٢ كيلو متراً مربعاً ويبلغ عدد سكانها ١٥٠ الف نسمة ، وأعظم عشائرها بنو عتبة (العتوب) والسادة والدواسر وبعض قبائل اخرى تنتمي إلى بني خالد وآل خليفة وهم حكام البلاد [3] .

ثروة البحرين

وكانت البحرين تعيش على صيد اللؤلؤ ،ولها في ذلك طقوس وتقاليد ومغامرات

١- Le Golfe Persique. P, 145-147

٢ ــ ملوك العرب ج ٢ ص ٢٣٧

٣ ــ الجزيرة العربية لمصطفى الدباغ ج ٢ ص ٢١٥ ــ ٢١٧

وأساطير ، ليس أروع منها ولا أمتع . « وكانت الأغاني والطبول تدق عندما تخرج السفن للصيد ، وكان عدد السفن في سنة ١٨٣٣ (١٢٤٩ هـ) يبلغ ١٥٠٠ سفينة ، وعلى ظهر كل سفينة ما يقرب من ٦٠ شخصاً يجمعون ما تزيد قيمته عن ٣٥ مليون روبية . وظل هذا العدد يتضاءل حتى لم يزد عدد السفن التي خرجت للصيد في سنة ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) على ١١ سفينة . ويبدأ موسم الغوص من شهر حزيران (يونيه) حتى تشرين الأول (اكتوبر) ويسمى « الغوص الكبير » . وفي الشتاء يخرج بعضهم لجمع اللؤلؤ فرادى وجماعات وتسمى « الردة » . وتستغرق مدة خروج السفينة وبحارتها في المغاصات ما يقرب من ٦٠ يوماً وليلة لا يرون خلالها الأرض إلا إذا حدث للسفينة عطب أو أصيب غواص باصابة خطرة [١]

ومن موارد ثروة البحرين صيد السمك، وهم يجففون صغيره المعروف بالبحرين بالسردين ويحفظونه في مخازن خاصة، ويبيعونه في الأكياس كما يباع القمح والشعير وكثيراً ما يعطى علفاً للبقر والحمير . ومن صناعات البحرين صناعة بناء السفن الخشبية التي تبنى في المحرّق وتأتي بالخشب من الهند ومعظمها يصنع لقطر وعُمان ، كما يصنعون نسيج الشراع والعباءات والمدّات وهي نوع من الحصر [٢] .

وهنالك التجارة البحرية وتجارة العبور ، وهي « النشاط التقليدي في الأرخبيل الذي يستورد ثم يصدر لجيرانه كميات كبرى من مختلف البضائع التجارية . وقد أقيمت منشآت مرفئية جديدة في المنامة الميناء الرئيسي لعاصمة البحرين ، وذلك لتسهيل حركة المبادلة . وفي أول كانون الثاني سنة ١٩٥٨ أصبح البحرين ميناء حراً هو الأول من نوعه في الخليج . وفي الداخل يزرع الفلاحون الحبوب والعلف والنخيل والخضار. وفي البحرين أربعة آلاف وستمائة وخمسون هكتاراً من الأراضي الزراعية المروية . ومزرعة « بوديّة التجريبية » تجري تجاربها من أجل تحسين الانتاج وادخال مزروعات جديدة [٣] . »

---

١ ــ مجلة العربي ، العدد الثاني ص ٤٤

٢ ــ الجزيرة العربية لمصطفى الدباغ ج ٢ ص ٢٢٤

٣ ــ جزيرة العرب لبيربي تعريب هاجر ءالفز ، ص ٢٤٥

وقد أنشىء في المحرق أكبر مطار في الخليج يربط الشرق بالغرب ويستقبل الطائرات من جميع البلدان ليزودها بما تحتاج اليه من الوقود والخدمات .

وفقد صيد اللؤلؤ أهميته أمام المنافسة اليابانية التي غزت العالم بعد الحرب العالمية الأولى بلؤلؤها الاصطناعي ، فقد « فطن الانسان إلى ان المحار إنما يصنع ما يصنع من اللؤلؤ دفاعاً عن النفس ، فجربوا في أوائل هذا القرن ايذاء المحار بوضع شيء غريب صغير في بطانة الصدف . وكانت النتيجة عجيبة : قام المحار بالدفاع عن نفسه كما خالوا ، ونسج حول هذا الجسم الغريب : لؤلؤة . ومهر اليابانيون في هذه الصناعة ، صناعة تزريع اللؤلؤ . وخرجت تلك اللآلىء المزرّعة مستديرة أجمل استدارة ، وخرجت أول لؤلؤة على هذه الاستدارة الكاملة عام ١٩١٢ ، ومن ذلك العهد دخلت هذه اللآلىء تنافس في الأسواق ، لا يفرق بينها وبين لآلىء الغواصين إلا الصور التي تؤخذ بالأشعة السينية [١] . »

البترول والنهضة الحديثة

وهكذا أفلت شمس الغوص على اللؤلؤ ، تلك المهنة الشاقة والشاعرية في آن واحد ، ليسوق القدر إلى البحرين مورداً ثميناً آخر ، أقلّ مشقة وأكثر عطاء ، فكان اكتشاف البترول فيها واستخراجه ابتداء من سنة ١٩٣٢ (١٣٥١هـ) عامل انقاذ وحافز نهضة واسعة . وقد بلغ المتوسط السنوي للانتاج في الأعوام الأخيرة ١٢ مليون برميل ، بمعدل ٣٢ الف برميل يومياً . وهي كمية قليلة بالنسبة لما تنتجه البلدان العربية المجاورة ، إلا ان مواردها ساعدت على ازدهار البلاد وتأمين الكثير من متطلبات النهضة . على ان في البحرين إلى جانب نتاجها الخاص من البترول أكبر مصفاة لتكرير الزيت ، ويبلغ ما يكرر فيها من بترول المملكة العربية السعودية ٢٠٠ الف برميل يومياً ، وتنتج هذه المصفاة أنواعاً كثيرة من مشتقات النفط لمواجهة مختلف الطلبات من جميع أنحاء العالم . وقد أنشأت شركة نفط

---

١ — مجلة العربي ، العدد الثاني ص ٤٤ — ٤٥

البحرين مصنعاً للبراميل قرب جـزيرة سترة مركز تصدير الزيت ، لإنتاج براميل مختلفة الأنواع لمشتقات الزيت بعد تكريره .

بيد ان البحرين لم تنتظر ظهور البترول حتى تأخذ بأهداب التطور ، فهي أسبق امارات الخليج إلى الحضارة، وقد ساعدتها أرضها الزراعية ومياهها العذبة وملاحتها التجارية واحتكاكها بالفاتحين ، على ان تنشىء منذ عهد بعيد حياة اجتماعية متفتحة مزدهرة .

ولما زارها أمين الريحاني سنة ١٩٢٣ (١٣٤٢ هـ) أثار مستواها الثقافي اهتمامه ، فقال في ذلك : « في البحرين نهضة أدبية اجتماعية مباركة . أجل ان في هذه الجزيرة من الأدباء والشعراء عدداً ليس بقليل ، وذكاء ليس بضئيل . ان فيها نهضة تقارن أخواتها في الكويت وفي العراق ، وتقارن روحاً وطموحاً على الأقل أخواتها في مصر وسورية ، فهذا ناديها الأدبي وفيه من المجلات العربية أكثرها وأحسنها، وهذه غرف القراءة وفيها من الكتب الحديثة والقديمة أنفسها [1] .. »

وقد بلغ عدد مدارس البنين في البحرين سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢ حسب الاحصاء السنوي لمديرية التربية والتعليم هناك ، ٣٨ مدرسة منها ٣٥ مدرسة ابتدائيـة ومدرسة ثانوية واحدة مع مدرسة صناعيـة ومعهد ديني ، وبلغ عدد الطلاب فيها ١٥٥٥٦ طالباً . أما عدد مدارس البنات فهو ٢٠ مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانويـة واحدة وقد بلغ عدد الطالبات فيها ٧٧٦٤ طالبة . والتعليم في هذه المدارس مجاني بما في ذلك الكتب المدرسية والأدوات القرطاسية .

وتعمل الحكومة على تأمين المعالجة الطبية المجانية للمواطنين ، وقد أنشأت لهذا الغرض عدداً من المستشفيات والمستوصفات ، وهي بسبيل انشاء عدد آخر منها ، واستقدام نخبة من الأطباء الاخصائيين للقيام بهذا الواجب على وجه أكمل .

وقد قام المسؤولون إلى جانب ذلك بكثير من الأعمال الانشائية ، كتعبيد الطرق واصلاح الموانىء وتعميم الكهرباء وهم ما يفتأون يدرسون حاجات البلاد

---

١ ـ ملوك العرب ج ٢ ص ٢١١

ويعملون على تأمينها ضمن امكاناتها ووفق خطة تطورية موزونة الخطى .

ويقول الاستاذ جورج شامي إثر رحلة قام بها إلى البحرين : « وطوال يومين قابلت خلالهما الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة وزير المالية ، ثم الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين ، لمست الاستعدادات الطيبة التي تكمن في بُرد هؤلاء المسؤولين الذين يحاولون بالقليل الذي يملكون تحقيق ما يقارب المعجزات بالنسبة لبلادهم ؛ يطمرون البحر ليتوسعوا ، يشقون الطرقات ليشجروا ، يشدون الأحزمة ليحسنوا الأوضاع الاجتماعية ، يفتحون بلادهم للتجارة الحرة ليكسبوا لها موارد قد تعينها في البناء ، يرسلون أبناءهم في بعثات علمية إلى البلاد العربية وإلى أميركا واوربا ليجاروا العلم والتطور [٢] » .

ويتولى الحكم في البحرين اليوم عظمة الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الذي يتمتع بقسط وافر من الثقافة والذكاء ، يعاونه اشقاؤه وكبار رجالات الاسرة الحاكمة وعدد من الاخصائيين والخبراء .

---

١ ـ جريدة الحياة ، العدد ٥٩٧٠ ، في ٢٢ ـ ٩ ـ ٦٥

قطر في مضمار التطور

قطر الملاذ الأمين

عاشت امـارة قطر خلال التاريخ العربي بعيدة عن ميدان الصراع السياسي ، فتحولت إلى ملجـــأ أمين يهاجر اليه ويلوذ به بعض من يطاردهم الحكام في الحجاز والعراق ، فينزحون إلى قطر لبعدها وصعوبة الوصول اليها .

وقد ذكرها ياقوت فقال : « انها قرية في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقيرة وأحسب الثياب القطرية تنسب اليها[1] » كما تنسب اليها عتاق الابل التي يُسابق عليها ، وقد قال فيها جرير :

لدى قطريات إذا مـــا توغلت   بهـا البيد غاولن الحزوم الفيافيا

وممن ينسب إلى قطر ، قطري بن الفجاءة الشاعر البطل الذي مرت بنـا بعض أخباره في حديثنا عن الخوارج .

وأشهر قبائلها المعاضيد والبوكـّوارة والنعيم والسودان والعمامرة والسلطة والبوعينين والمهاندة وآل ابن علي والمنانعة ، وجميع هذه القبـــائل تخضع لقبيلة واحدة هي المعاضيد ورئيسهم محمد بن ثاني الجد الأكبر للاسرة الحاكمة في قطر[2] .

---

١ ـ معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧٣

٢ ـ امارة قطر بين الماضي والحاضر تاليف محمد شريف الشيباني ص ٣٥ ـ ٣٦

ينابيع الذهب الاسود

وكانت قطر تعيش على اللؤلؤ كمعظم امارات السواحل الغربية للخليج . وكان عدد المراكب التي تغادر شواطئها لصيد اللؤلؤ في مغاصاته بالخليج ، لا يقل عن اربعمائة مركب سنوياً . ثم بدأت اليابان في سنة ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) تنافس اللؤلؤ الطبيعي بلؤلؤها الصناعي ، فكان ذلك كارثة اقتصادية كبرى حلت بقطر ، لأن ارضها صحراء رملية حجرية خالية من الانهار ، فلم تعرف الزراعة ولم يكن لها أي مورد آخر .

وظلت هذه الكارثة الاقتصادية تتعاظم حتى اكتشف فيها البترول سنة ١٩٣٩ (١٣٥٨ هـ) ولكنه لم يستخرج منها الا في سنة ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) .

وتفجرت في تلك الصحراء القاحلة ينابيع الذهب الأسود ، وسرعان ما غدت قطر البلد الخامس في انتاج البترول بالشرق الأوسط ، وبلغ انتاجها خلال الاعوام الأخيرة ٨ ملايين طن في السنة يبلغ نصيب حكومة قطر من ريعها ٢٠ مليون جنيه استرليني كل عام .

وقد أدى ظهور البترول إلى ارتفاع مستوى الحياة في جميع وجوهها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ونشطت الحركة التجارية ، وتأسست الشركات الوطنية ، ونهضت أعمال الانشاء والتعمير في كل بقعة وفي كل ميدان .

قطر الحديثة

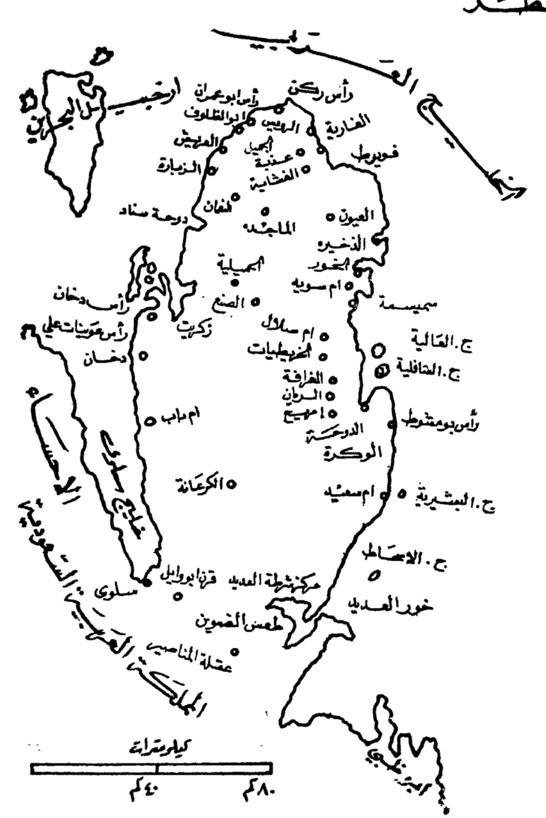
وتبلغ مساحة قطر ٢٠٧٠٠ كيلو متر مربع ، أما عدد سكانها فهو ٨٠ الف نسمة ، بما فيهم العمال والموظفون الذين قدموا للعمل فيها من جميع الأقطار المجاورة . ويحتشد معظم السكان في الدوحة ومناطق البترول .

وتشكل قطر منبسطاً صحراوياً مجدباً ومحرقاً ، يحيط به شاطىء متقطع ، تتخلله الصخور المرجانية ، وليس هناك ما يقطع كآبة الصحراء سوى الطرقات الحديثة التي تربط بين المراكز البترولية وميناء ام سعيد والدوحة العاصمة [1] .

---

١ - جزيرة العرب لبيربي ترجمة هاجر والفز ص ٢٣٩

خريطة قطر


الخليج العربي
ارخبيل البحرين
رأس ركن
رأس ابو عمران
ابو الظلوف
الرويس
الغارية
العريش
الجميل
عذبة
فويرط
الزبارة
الغشامية
دوحة سناد
العيون
الماجدة
الذخيرة
الخور
الجميلية
ام سويه
سميسمة
رأس دخان
الصنع
زكريت
ام صلال
رأس عوينات علي
ج. العالية
الخريطيات
دخان
ج. الشافلية
الغرافة
الريان
رأس بومعشوط
الدوحة
ام باب
الوكرة
الكرعانة
ام سعيد
ج. البشيرية
خليج سلوى
الاحساء
مركز شرطة العديد
قرن ابو وايل
سلوى
خور العديد
عقلة المناصير
المملكة العربية السعودية
كيلومترات
٤٠ كم
٨٠ كم

وهي تقع في منتصف الساحل الغربي للخليج بـــين خطي العرض ٣٠َ : ٤ْ٣ و ٣َ٤ : ٢٦ْ شمالاً وبين خطي الطول ٥َ٤ : ٥ْ٠ و ٤َ٠ : ٥ْ١ شرقـاً ، ومناخها صحراوي حار، يمتاز بفصلين : صيف طويل يمتد من أول نيسان حتى أواخر تشرين الأول تشتد فيه الحرارة وتهب الرياح من الصحراء ، وشتاء قصير دافىء أمطـــاره قليلة أو نادرة وطقسه جميل ومنعش [1] .

وعاصمة قطر هي مدينة الدوحة ، وهي مدينة صغيرة تقوم على ضفاف الخلـيج ، ويبلغ عدد سكانها ٦٤ الف نـسمة ، وفيها مطار حديث لاستقبال الطائرات ، وميناء جميل لاستقبال السفن الصغيرة ، وعلى مقربة منهـــا ميناء ام سعيد الذي يستقبل رصيفه البواخر الكبيرة وناقلات النفط . وأجمل ما في قطر أسواقها التجارية ، وقد انتشرت فيهـا المتاجر الحديثة التي تضم آخر مـا انتجته الحضارة من أسباب الحياة ومتارفها .

يقول جان جاك بيربي : « وكما حدث في الكويت ، هُدمت الدوحـة القديمـة لتبنى من جديد ، ونهضت فيهـــا الأبنية الجميلة محل الأكواخ العتيقة ، وامتدت الشوارع العريضة مكان الأزقة الضيقة التي كانت ترودها الكلاب الشاردة والعنزات السوداء باحثة عن كسرة قد تجدها أو لا تجدها ، وبدأت أفخم السيارات تنطلق برشاقة على الطرقات المعبدة التي تصل بين الدوحة والمراكز البترولية وتشق الصحراء المقفرة من شرق البلاد إلى غربهـا . وعملت الكهرباء ومكيفات الهواء والماء العذب المقطر من مياه البحر ، على تحويل حياة القطريين تحويلاً أساسياً [2] » .

التعليم

والتعليم في قطر من أبرز مظاهر نهضتها ، تخصه الحكومة بعنايتهـا ويقبل عليه الشعب اقبالاً عظيماً . وقد حققت البلاد في هذا المضمار وثبة كبرى ، فبينما كان

ـ الجزيرة العربية لمصطفى الدباغ
٢ـ Le Golfe Persique. P, 161

في قطر عام ١٩٥١ (١٣٧١ هـ) مدرسة واحدة تضم عشرات التلامذة ، أصبح عدد المدارس في سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١ (١٣٨٠ - ١٣٨١ هـ) احدى وخمسين مدرسة منها ٤٠ مدرسة للبنين و ١١ مدرسة للبنات ، وبلغ عدد الطلاب ٣٨٢٢ وعدد الطالبات ٢٠٠٠ ، بالاضافة إلى المدارس الليلية المخصصة لتعليم الأميين وقد شملت معظم أنحاء البلاد .

والمدارس في قطر مزودة بمطاعم تقدم الطعام المجاني للتلامذة ، وبسيارات تنقل الأساتذة والطلاب ، وبعيادات طبية تسهر على صحتهم ، وبمكتبات للمطالعة عدا مكتبة المعارف الرئيسية والمكتبة العامة التي أنشأها سمو الشيخ علي من ماله الخاص .

وتشجع وزارة المعارف باشراف وزيرها الشيخ جاسم بن حمد آل ثاني الحركة الرياضية ، ولا تفتأ تقيم المهرجانات الكبرى ، وقد بدأت منذ عام ١٩٥٨ م ١٣٧٨ هـ بارسال المدرسين إلى امارات الخليج متكفلة برواتبهم ونفقاتهم المختلفة ، كما أنشأت حتى الآن سبع مدارس ليلية في تلك الامارات .

الصحة العامة

وقد ترك الفقر والحرمان في العهد السابق آثاراً سيئة في الصحة العامة ، مما دفع المسؤولين إلى توجيه عناية خاصة لهذه الناحية من حياة المواطنين ،فأسسوا المستشفيات المختلفة ذات الاستعدادات الكاملة ، وجعلوا تطبيب المرضى وتقديم العلاج لهم ، سواء أكانوا قطريين أو ساكنين في قطر أو زواراً عابرين ، مجاناً في جميع أدواره ومراحله .

وبلغت نفقات بناء المستشفى الرئيسي في الدوحة ٣ ملايين ونصف مليون جنيه استرليني ، وفيه ١٩٦ سريراً مع أحدث مبتكرات العلم والتكنيك . أما مستشفى النساء فهو يحتوي ٨٥ سريراً . وهناك مستشفى الدوحة القديم وفيه ١٠٤ أسرة . وثمة مستشفى آخر للأمراض الصدرية والمستعصية ،إلى جانب عدد من المستوصفات.

وتقوم مصلحة الصحة بارسال المرضى إلى مستشفيات أوربة وأميركة على نفقتها عندما تقضي الضرورة بذلك .

معالم النهضة

لقد سارت قطر بخطى واسعة فحققت النهضة المباركة فيها ، خلال بضع عشرة سنة ، من الانتصارات ما كان ينبغي له عشرات الأعوام ، بفضل اصالة شعبها وتوجيه حكامها ، ولا بدع ، فان الشعب القطري قد تحدر من صلب ذلك الشعب العربي الذي افتتح نصف المعمورة فنشر فيها حضارته الانسانية ورسالته السمحاء .

وشملت هذه النهضة كل ناحية من حياة الشعب ومرافق البلاد ، فحل القضاء الحديث محل القانون العشائري ، وأنشئت عدة محاكم عصرية ، وشقت الطرقات ، وأقيمت محطات توليد الكهرباء وتقطير المياه . واهتمت دائرة الزراعة بزراعة الخضراوات فنجحت تجاربها وأثبتت أن صحراء قطر يمكن أن تتحول بفضل العناية والخبرة إلى أرض زراعية .

وقد تنبه المسؤولون إلى احتمال نضوب البترول ، فأخذوا يعملون على انشاء مصنع للاسمنت بعد ان ثبت ان خامات صناعة الاسمنت موجودة في صحراء قطر . وسيتمكن هذا المصنع من تأمين حاجة قطر وحاجة جميع الدول الواقعة على ساحل الخليج ، كما ان مشروع اقامة ميناء جديد في الدوحة سيضفي على موقعها الجغرافي الممتاز أهمية تجارية كبيرة [1] .

وعندما تذكر نهضة قطر لا بد من أن يذكر أمير النهضة وراعيها وموجه خطاها ، سمو الشيخ احمد بن علي آل ثاني نجل الشيخ علي آل ثاني الذي توسم فيه من رجاحة الرأي وبعد النظر والرغبة في الاصلاح ، ما دفعه إلى التنازل له عن الإمارة في ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٠ م (٣ جمادى الأولى ١٣٨٠ ه) فسار بالبلاد بالتعاون مع نائبه وولي عهده الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني رئيس الحكومة الذي عرف بانطلاقه وحيويته ، خطوات جديدة نحو التقدم والازدهار .

---

١ ـ مجلة العربي ، العدد ١٨ ص ٩١

الإمارات السبع

أبو ظبي

هي أكبر امارات ساحل عمان (ساحل الهدنة أو ساحل الامارات المتصالحة) مساحةً . تقع على حدود المملكة العربية السعودية وقطر من جهة الغرب ، وتلتقي في الحدود مع سلطنة مسقط وعمان — حالياً — في واحات البريمي ، وقد تقاسمتا هذه الواحات ، فاحتلت أبو ظبي ستاً منها ، والسلطنة ثلاثاً . والبريمي هو اسم احدى الواحات ولكنه يطلق عليها جميعاً [1] » .

ويبلغ عدد سكان أبو ظبي ثمانية عشر الف نسمة ، وتقدر مساحتها بنحو ٢٥ ألف ميل مربع ، ويتولى الحكم فيها الشيخ سلطان بن شخبوط من آل فلاج يعاونه أخوه الشيخ زائد وعدد من المستشارين الانكليز . وقد بدأ استخراج البترول منها في سنة ١٩٦١ (١٣٨١ هـ) فلمع اسمها وعرف في الأوساط الدولية ، وكانت إلى حين بقعة مغمورة ضائعة على كثبان الرمال .

ويتبع الامارة ١٢٢ جزيرة صغيرة معظمها غير مسكون ، وأهمها جزيرة داس التي تقع في شمالها الغربي في منتصف المسافة التي بينها وبين شبه جزيرة قطر تقريباً [2] وقد اكتشف البترول في هذه الجزيرة التي كانت مقفرة مهجورة ، فاذا بها تنقلب

---

١ — عمان والامارات السبع تاليف عبد القادر زلوم ، ص ٨١

٢ — المرجع السابق ص ٨٢

بين عشية وضحاها إلى بقعة عامرة تضج بالحركة الدائمة .

وامارة أبو ظبي قليلة المياه ، وآبارها مالحة ، لذلك ينقل اليها الماء من الشارقة ودُبَيّ وغيرهما . ويقال ان اسمها قد اطلق عليها لكثرة الظباء والغزلان التي كانت ترعى في رمالها [1] . وعاصمة الامارة هي بلدة « أبو ظبي » وتقوم على جزيرة صغيرة متصلة بالبر بطريق ضيق ويبلغ عدد سكانها سبعة آلاف نسمة.

وبالرغم من الثروة البترولية التي أخذت تتدفق على أبو ظبي فانها تسير نحو التقدم ببطء وحذر شديد . وقد شرعت بعض الدول العربية في ارسال بعثات تعليمية إلى امارات ساحل عمان ، فتألفت بعثة الجمهورية العربية المتحدة من ٦٢ مدرساً ومدرّسة ، وبعثة الكويت من ٤٨ ، وبعثة قطر من ٤٠ ، وبعثة البحرين من ١٠ ، إلا ان امارة أبو ظبي اعتذرت عن قبول هذه البعثات واستقدمت بعض المدرسين من الاردن للاشراف على مدارسها الثلاث .

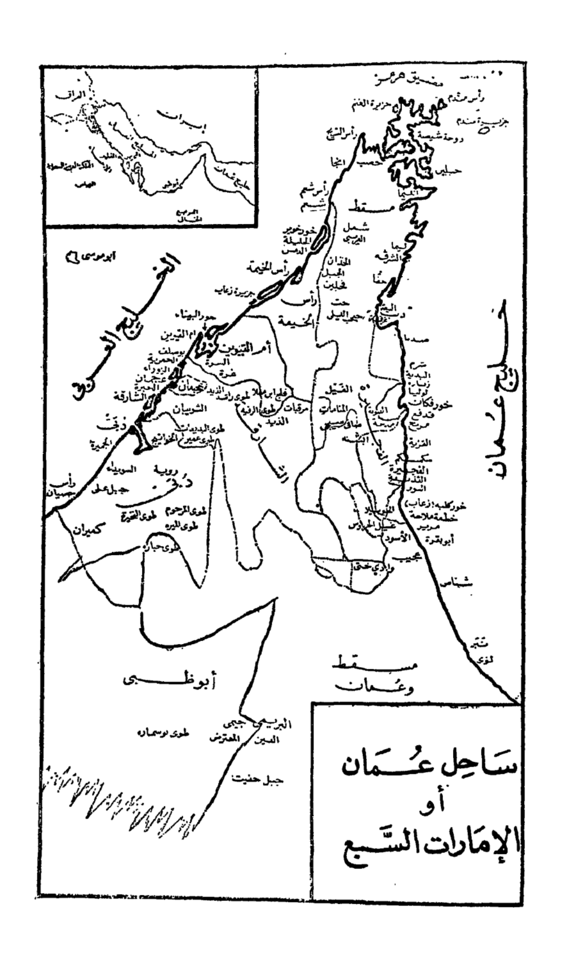
دُبَيّ

إذا كانت أبو ظبي اكبر امارات ساحل عمان فان دُبَيّ اكثرها تطوراً وازدهاراً ، فهي مركز تجاري هام يؤمه التجار من جميع الامارات وواحات البريمي ، وفيها دائرة للكهرباء ، ومصلحة للمياه ، ومطار ينافس مطار الشارقة في أهميته ، ويبلغ عدد نفوسها مائة الف نسمة .

ويقول الاستاذ عبد القادر زلوم « انها عاصمة الساحل على الاطلاق، فهي مركز الاقتصاد ، وادارة البلاد، وهي الوحيدة التي تشكلت فيها بلدية تشرف على الشؤون الصحية والعمرانية ... وتوجد فيها غرفة تجارية ، ومصلحة البريد الوحيدة في الساحل وهي شركة انكليزية تقوم مقام الحكومة بالأعمال البريدية ... ولها فرع آخر في الشارقة ، وفرع في أبو ظبي [2] » ومن دُبَيّ يوزع البريد إلى امارات

١ ـ الجزيرة العربية للدباغ ج ٢ ص ١٦٢ و ١٦٤

٢ ـ عمان والامارات السبع ، ص ٨٣


ساحل عُمان
أو
الإمارات السبع
الخليج العربي
خليج عُمان
أبوظبي
مسقط وعُمان
رأس الخيمة
الشارقة
دبي
عجمان
أم القيوين
مضيق هرمز
أبوموسى
كميران
جبل حفيت
خورفكان
كلباء
شناص
الفجيرة

الساحل بواسطة التجار أو سائقي السيارات .

ويروي الاستاذ احمد قاسم البوريني انه شاهد فيها « أفواجاً من الحجاج الباكستانيين الذين يفدون للحج سيراً على الأقدام ، ولم يصل منهم إلا القليل ، لان الذئاب المفترسة تفتك بمعظمهم ، وكذلك الجوع والعطش والتعب ، وخصوصاً النساء والاطفال [1] » .

ويشتغل أهل دُبَيّ في التجارة وصيد السمك واستخراج اللؤلؤ والملاحة ، وأهم منتوجاتها التمر والسمك والتبغ وبعض الخضار ، وهي تصدر السمك الصغير المجفف والتبغ واللؤلؤ وأصدافه [2] .

وفي دُبَيّ اربع مدارس للبنين ومدرستان للبنات ، ويبلغ عدد الطلاب والطالبات فيها ٢٠٠٠ طالباً . ويبلغ سكان عاصمتها « دبي » خمسين الف نسمة ، وفيها مستشفى يؤمه المرضى من ابناء الامارات الأخرى .

وهي مركز المعتمد البريطاني لساحل عمان ، ولدار الاعتماد هناك فروع تجارية وثقافية واقتصادية ، كما ان فيها الفرع الرئيسي للبنك البريطاني ، ومركز للشرطة بقيادة ضابط انكليزي ومساعد عربي ، « ومحكمة شرعية طرأ على أحكامها كثير من مواد القوانين الوضعية وأساليب المحاكم النظامية [3] »

وقد أنشأت الكويت في دُبَيّ «مكتب دولة الكويت لمساعدة الخليج العربي» الذي رصدت له سنة ١٩٦٢ م ١٣٨٢ هـ مبلغ ٤٣٠ الف دينار كويتي ثم عززته بمبالغ كبيرة أخرى لانفاقها على الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية والزراعية في امارات ساحل عمان . ثم تبعت قطر دولة الكويت في هذه البادرة ، وتبعتها الجمهورية العربية المتحدة . بينما رصدت المملكة العربية السعودية في عام ١٩٦٥ م ١٣٨٥ هـ مبلغ ٢٠ مليون ريال لشق طريق بين دبي ورأس الخيمة ، بالاضافة إلى

---

١ ـ الامارات السبع على الساحل الاخضر ، ص ٥٣

٢ ـ الجزيرة العربية للدباغ ج ٢ ص ١٧١

٣ - عمان والامارات السبع ، ص ٨٦

مساعدات أخرى تقدمها لامارات الخليج في ميداني الصحة والتعليم .

وحاكم دبي هو الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم ، وهو متفتح منطلق دائب العمل والنشاط ، يرعى النهضة في بلاده ، ويساعد على تقدمها السريع ، « بجعل دبي مفتوحة أمام الشركات والبيوت التجارية لاستثمار أموالهم دون أية ضرائب وجعل الضريبة الجمركية ضئيلة جداً [1] »

وقد بدأت شركة كونتيننتال الاميركية التي تعمل باسم « شركة نفط دبي » بالتنقيب عن البترول في دبي منذ أوائل سنة ١٩٦٤ م ١٣٨٤ هـ ولكنه لم يستخرج حتى الآن .

الشارقة

تعتبر الشارقة أم معظم امارات ساحل عمان وأقدمها [2] ، وهي تتألف من قسمين « الأول — الغربي — على الخليج العربي ، وفيه العاصمة « الشارقة » ، وهو القسم الاكبر من الامارة ، وتقع فيه أيضاً واحة لذيد ، والأماكن التي يرجح ظهور البترول فيها ، وتتبعه جزيرة الحمرية ، والقسم الثاني يقع على ساحل عمان ، شمال سهل الباطنة ، ويدعى بالمنطقة الشرقية ، ويتألف من خورفكان وكلبا ، بالاضافة إلى جزء من بلدة دُبّا وهو الحصن ويدير شؤون المنطقة الشرقية وال من قبل الأمير مركزه خورفكان [3] »

ويبلغ عدد سكان الشارقة وملحقاتها ٥٠ ألف نسمة ، ويصفهم الاستاذ احمد قاسم البوريني بقوله : « والقوم هنا كرماء لطاف المعشر يشوب بياضهم حمرة أو سمرة خفيفة ، ذوو نفوس أبية ، لا يميلون إلى الدعابة بينما يميلون إلى الطرب والشعر . وإذا زرت شخصاً في بيته فلا بد من تناول « الفاولة » قبل القهوة ، وهي فواكه

---

١ — جورج شامي، جريدة الحياة ، العدد ٥٩٧٢ ، في ٢٤ — ٩ — ٦٥

٢ — الجزيرة العربية للدباغ ج ٢ ص ١٧٧

٣ — عمان والامارات السبع ، ص ٨٧

وحلويات . وأماكن الاجتماعات العامة ، عدا المساجد ، هي مجالس الشيوخ (مضائف) والموسرين ، ثم المقاهي [1] .

وعاصمة الامارة هي مدينة الشارقة ويبلغ عدد سكانها ١٦ الف نسمة ، وهي مبنية على ساحل الخليج بامتداد ثلاثة أميال ، وقد بنيت على هذا النمط لأن أهلها يتجهون دائماً إلى البحر متناسين اراضيهم الغنية الخصبة ، فقد كانت الشارقة أهم مركز لاستيراد منتوجات الهند وايران ، ولتصدير منتوجات ساحل عمان الصوفية والقطنية والمعدنية . كانت الصناعات العربية مزدهرة فيها ، وكانت السفن الكبيرة والصغيرة تختال في الخور (الخليج الصغير) تنقل إلى سكان المدينة الثراء والازدهار [2] .

أما المدينة التي تليها في الأهمية فهي خورفكان الميناء الطبيعي الجميل الذي يقع على خليج عمان ، وقد كان مسرحاً لحروب قاسية مريرة في عام ١٥٠٧ م ٩١٣ هـ وما بعده، عندما نزل اليه البرتغاليون وأحرقوه، وهدموا مساكنه ، وصلموا آذان سكانه وجدعوا أنوفهم ليخيفوا أهالي بقية المنطقة كما روينا في فصل سابق ، وظلت المعارك متواصلة حتى سنة ١٦٢٤ م ١٠٣٤ هـ عندما تمكن سلطان بن سيف اليعربي من اجلائهم عن البلاد بعد معارك عنيفة كثيرة ، ولم يكتف سلطان بهذا بل ظل يطاردهم حتى انتزع موانئهم في الهند وافريقية نفسها [3] .

وعلى الرغم من ضآلة موارد الشارقة فانها تعد من الامارات المتطورة نسبياً ، وفيها حركة تجارية ناشطة ، وزراعة مزدهرة ، وبقايا صناعة للسفن الخشبية ، ومطار هو الأول من نوعه في ساحل عمان ، كما ان فيها بعض المعادن التي تستثمر بعضها شركة Golden Vally Colors Co . Lit . منذ سبعين عاماً .

وفي الإمارة أربع مدارس للبنين ومدرستان للبنات، وعدد الطلاب والطالبات

---

١ ــ الامارات السبع على الساحل الاخضر ص ٣٩

٢ ــ مجلة العربي ، العدد ٢٠ ، ص ٧٨

٣ ــ المرجع السابق ، ص ٨٨

فيها ١٣٥٠ طالباً ، كما ان فيها مدرسة صناعية ، وتقوم المملكة العربية السعودية وقطر والبحرين ولا سيما الكويت بتأمين نفقات هـذه المدارس وتأمين الكساء والكتب واللوازم المدرسية لطلابها ، شأنها في بقية امارات الخليج .

وقد بدأت شركة ميكوم أويل هـذا الشهر (ايلول ١٩٦٥ م ١٣٨٥ هـ) بالحفر على بعد ٢٧ كيلومتراً من العاصمة للبحث عن البترول في الامارة .

وحاكم الامارة هو الشيخ خالد بن محمد القاسمي سليل قبيلة القواسم التي كانت تسيطر على طول ساحل عمان وعلى شاطىء ايران وعلى أجزاء من شواطىء الهند .

عجمان

هي أصغر الإمارات السبع إذ لا تزيد مساحتها على ١٥٠٠ ميل مربع، وعدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة ، ولكنها تمتاز بجودة مناخها وخصوبة أرضها وعذوبة مياهها ، بيد ان فقدان وسائل المواصلات والطرقات المعبدة ، يجعل من الصعب الاستفادة من تلك الهبات الطبيعية .

وعلى الرغم من صغر مساحة عجمان فهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام متباعدة ، والمياه متوفرة فيها جميعاً ، والزراعة ناجحة إلى أبعد الدرجات حتى ان بعض الخضراوات تنمو بأحجام اكثر من الاحجام العادية بمرات كثيرة ... ولكن عدم وجود طرق ممهدة إلى هذه المناطق يجعل عملية تصدير انتاجها عملية صعبة بل مستحيلة [١] .

ويعتمد السكان في معيشتهم على صيد الاسماك ، والتجارة الضئيلة مع الهند وسوقطرة ، وزراعة النخيل وبعض الخضار والتبغ ... ويؤمها بعض سكان الإمارات المجاورة لقضاء فصل الصيف ، فهي تعتبر مصيف هذا الساحل [٢] .

وحاكم عجمان هو الشيخ راشد النعيم وقد وصفه الاستاذ عبد القادر زلوم

---

١ ـ مجلة العربي ، العدد ٢٤ ، ص ٩٠

٢ ـ الجزيرة العربية للعبادغ ، ج ٢ ص ٩٨٦

بقوله : « صاحب الطلعة المهيبة ، بقوامه الفارع ، ولحيته الكبيرة الجميلة ، وعينيه النافذتين المادئتين ، فـــاذا جلست اليه راعتك تلك الروح الجيـــاشة بالعواطف الاسلامية ، وتحمسه البالغ لتطبيق أحكام الشريعة [1] » .

وقد انشأت الكويت في الامارة مستوصفاً ومدرسة تضم ٣٥٠ طالباً .

أم القوين

ام القيوين ، أو القيوين ، وتسمى أيضاً «ام الغواني» ، امـــارة صغيرة فقيرة ليس فيها من مقومات الحياة حتى المـــاء ، فهي تنقله من الشارقة وعجمان بوساطة السيارات ، وليس لديها من الامكانات ما يساعدها على جلبه من فلج المعلا التابـع لها في أنابيب تحل تلك المشكلة الحياتية فيها .

ويحكم الامـــارة الشيخ أحمد بن راشد المعلا ، وهو يقول : « ان ام القوين معناها ام القوة ، فقد كانت أقوى امارات الساحل .. كانت التمور تأتيهـــا من البصرة ، والأخشاب والأرز من الهند ، لتموين الساحل كله . ثم خيم النسيان العميق عليها رغم أن المينـاء في ام القوين من أعمق الموانىء الطبيعية في الخليج ، ولكنه متوقف عن العمل لعدم وجود رافعة فيه [2] » .

ويبلغ عدد سكان ام القوين ستة الآف نسمة ، وفيها مدرسة واحدة انشأتها الكويت تضم ٣٠٠ طالباً ، وفيها كميات كبيرة من السمك وأراض صالحة للزراعة « ويشتغل السكان في صيد الأسماك والغوص والزراعة وفي البيـع والشراء وقليل منهم يصنع القوارب [3] » . وأهـــالي ام القوين والشارقة وعجمان ورأس الخيمة حنابلة من أتباع الامام المجدد محمد بن عبد الوهاب [4] .

---

١ – عمان والامارات السبع ، ص ٨٩

٢ – مجلة العربي ، العدد ٢٤ ، ص ٨٣

٣ – الجزيرة العربية للدباغ ج ٢ ص ١٨٧

٤ – الامارات السبع على الشاطىء الاخضر ، ص ٦٩

رأس الخيمة

ظلت رأس الخيمة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي عاصمة لجميع ساحل عمان بزعامة القواسم « حيث استقل الشيخ رحمة بن مطر ابان ضعف دولة اليعاربة التي كانت تحكم عمان وساحله ، وأخذت رأس الخيمة مكانة جلفار القديمة في زعامة البحر . ولكن اصرار الانكليز على القضاء على هذه الدولة الفتية ـ التي أقضت مضاجع اساطيل شركة الهند الشرقية في الخليجين والمحيط ـ أدى إلى تدميرها نهائياً ، واحراق اسطولها المرعب ، وأفول نجمها منذ عام ١٨٢٠ (١٢٣٦ هـ) ، واضطر الشيخ سلطان بن صقر الأول إلى جعل عاصمته الشارقة ، وانحسرت دولة القواسم في أجزاء ساحل عمان ، بينما ظهرت الى الوجود بعض المشيخات الحالية ، حيث دخل الانكليز مع حكامها في معاهدات شبيهة بتلك المعاهدات التي أرغموا القواسم على عقدها معهم ، حتى تكاملت سبعاً من الامارات [١] » .

يبلغ عدد نفوس رأس الخيمة ٢٠ الف نسمة يعيشون على الغوص وصيد الأسماك والزراعة وصناعة الفخار ، ويهاجر الكثيرون منهم إلى الامارات والأقطار المجاورة هرباً من الفقر الذي يسود البلاد .

وتكثر الأشجار البرية في أرجاء الامارة فتضفي على المنطقة جمالاً طبيعياً يجذب اليه أهل باقي الامارات في الشتاء والربيع ،فتجدهم منتشرين في شعم وغليلة وخت ، حيث الينابيع المعدنية الحارة التي تساعد على جعل المنطقة سياحية بالنسبة لباقي الامارات المجاورة [٢] .

وفي العاصمة والقرى المجاورة لها ٤ مدارس للبنين و ٣ مدارس للبنات وعدد الطلاب والطالبات ١١٠٠ طالباً ، تقدم لهم دولة الكويت الكثير من المساعدات .

وشيخ الامارة هو صقر بن محمد بن سالم القاسمي أحد أحفاد امراء القواسم .

---

١ ـ عمان والامارات السبع ، ص ٩٤

٢ ـ مجلة العربي ، العدد ٢٤ ، ص ٧٨

الفجيرة

إمارة جبلية تقع على خليج عمان أي على بحز العرب ، وإذا أخذنا بالتقسيمات السياسية الحالية ، فلا يصح اعتبارها من امارات الخليج العربي ، إلا ان كونها في الأصل جزءاً من إمارة عمان التي جزئت على الشكل الذي وصفناه قبلاً ، يجيز لنا أن نسلكها في عداد إمارات الخليج .

ويبلغ عدد سكان الفجيرة ٢٠ الف نسمة ، وهم يعيشون في فقر مدقع ، وأهم ما يقومون به صيد السمك والزراعة والغوص ، ويزرع في مختلف قراها النخيل والمانغو والبطاطا والحبوب والخضار والتبغ والموز والحمضيات التي انتشرت زراعتها في السنين الأخيرة [١] .

عاصمتها الفجيرة ، وتتبعها عدة قرى ، وقد اشتهر أهلها بأنهم من أمهر الرماة ، فهم « مدربون يجيدون استعمال البندقية ويعيشون حول قلعتهم العسكرية الأثرية التي بها آثار انفجار ٢٨٠ قنبلة قذفها عليها أسطول حكومة الهند البريطانية عام ١٨٠٩ (١٢٢٤ هـ) ومع ذلك فهي ما زالت قائمة بأنفة واعتزاز وسط قرية الفجيرة يقيم فيها الشيخ محمد بن حمد الشرقي حاكم البلاد [٢] » .

وفي الفجيرة مدرسة واحدة مؤلفة من صفين أنشأتها دولة الكويت .

ويقول الاستاذ البوريني أن لأبناء الامارات السبع ولعاً بالقنص ، وسباق الإبل ، وسباق الزوارق ، وفيها حيوانات برية كثيرة منها الظباء والوعول والأرانب ، أما الحيوانات المفترسة فأشدها ضراوة الذئب ويوجد بكثرة في الجبال [٣] .

---

١ – الجزيرة العربية للدباغ ، ج ٢ ص ١٩٥

٢ – مجلة العربي ، العدد ٢٤ ، ص ٨٦

٣ – الامارات السبع على الساحل الأخضر ، ص ٦٧ – ٦٨

مصادر ومراجع الكتاب

ابن الاثير	الكامل في التاريخ
احمد امين	فجر الاسلام
احمد امين	ظهر الاسلام
احمد بن زيني دحلان	الفتوحات الاسلامية
احمد زكي صفوت	جمهرة خطب العرب
احمد شبلي (الدكتور)	التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
احمد علبي	ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد
احمد فخري (الدكتور)	دراسات في تاريخ الشرق القديم
احمد قاسم البوريني	الامارات السبع على الساحل الاخضر
احمد الهاشمي	جواهر الادب
الاصطخري	مسالك الممالك
الاصفهاني	الاغاني
الاصفهاني	مقاتل الطالبيين
امين الريحاني	ملوك العرب
امين الريحاني	تاريخ نجد الحديث
امين سعيد	الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة
امين سعيد	تاريخ الدولة السعودية
امين سعيد	اسرار الثورة العربية الكبرى

البغدادي	الفرق بين الفرق
البلخي	البـدء والتاريخ
بندلي جوزي	من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
البلاذري	فتوح البلدان
البلاذري	انساب الاشراف
ثابت اسماعيل الراوي	العراق في العصر الاموي
الجاحظ	البيان والتبيين
الجاحظ	كتاب التبصر بالتجارة
جاسم محمد الخلف (الدكتور)	محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية
جرجي زيدان	العرب قبل الاسلام
جواد علي (الدكتور)	تاريخ العرب قبل الاسلام
ابن الجوزي	المنتظم في تاريخ الملوك والامم
حافظ وهبة	جزيرة العرب في القرن العشرين
حسن ابراهيم حسن (الدكتور)	تاريخ الاسلام السياسي
حسن ابراهيم حسن (الدكتور)	الفاطميون في مصر
حسين خزعل	تاريخ الكويت السياسي
حسين فوزي (الدكتور)	حديث السندباد القديم
الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدا والخبر
ابن خلكان	وفيات الاعيان
الدينوري	الاخبار الطوال
راسم رشدي	كويت وكويتيون
ساطع الحصري	البلاد العربية والدولة العثمانية
سيد نوفل (الدكتور)	الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة
سيف مرزوق الشملان	من تاريخ الكويت
السيوطي	تاريخ الخلفاء

شاهين مكاريوس	تاريخ إيران
الشهرستاني	كتاب الملل والنحل
صادق ابراهيم عرجون	خالد بن الوليد
صلاح العقاد (الدكتور)	الاستعمار في الخليج الفارسي
ابن طباطبا	الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية
الطبري	تاريخ الامم والملوك
طه حسين	الفتنة الكبرى
عارف تامر	القرامطة
عارف تامر	الامامة في الاسلام
عباس العزاوي	تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقته بالاقطار الاسلامية العربية
ابن عبد ربه	العقد الفريد
عبد الرحمن العبيد	الادب في الخليج العربي
عبد العزيز حسين	محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت
عبد العزيز الدوري (الدكتور)	الجذور التاريخية للقومية العربية
عبد القادر زلوم	عمان والامارات السبع
عبد الغني حسن	فاسكو دوجاما
عبد الكريم محمد	الكويت المدينة الفاضلة
عبد المجيد لطفي وعثمان فيظ الله	دراسات عن الكويت والخليج العربي
علي حسن الخربوطلي (الدكتور)	تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي
عمر ابو النصر	الخوارج في الاسلام
عمر فروخ (الدكتور)	تاريخ الجاهلية
فاضل الجمالي (الدكتور)	ذكريات وعبر
الفرع الثقافي العسكري بدمشق	العراق الثائر
فيصل علي فيصل	القضية العمانية

ابن قتيبة — الامامة والسياسة

قدري قلعجي — ابو ذر الغفاري

قدري قلعجي — اضواء على تاريخ الكويت

قدري قلعجي — الكويت في موكب الحضارة

المبــرد — الكامل في الادب

مجلة حماة الوطن — العدد ١٠

مجلة العربي — الاعداد ٦ ،١٨ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣

مجلة هذه بلادنا

محاضرات الموسم الثقافـي بالكويت — مجلد سنة ١٩٥٦ ومجلد سنة ١٩٥٩

محمد احمد جاد المولىوزميلاه — إيام العرب في الجاهلية

محمد سعيد المسلم

محمد شريف الشيباني — امارة قطر بين الماضي والحاضر

محمد صبيح — خالد بن الوليد

محمد العبوسي — البترول في البلاد العربية

محمد عزة دروزة — تاريخ الجنس العربي

محمد علي الزرقا — عمان قديما وحديثا

محمد علي الزرقا — قضية عمان في المجال الدولي

محمد فريد ابو حديد — امتنا العربية

محمد لبيب شقير وصاحب ذهب — لتفاقيات وعقود البترول في البلاد العربية

محمد ياسين الحموي — الملاح العربي احمد بن ماجد

محمود الدرة — تاريخ العرب العسكري

محمود علي الداود (الدكتور) — الخليج العربي والعلاقات الدولية

محمود علي الداود (الدكتور) — محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان

ابن مسكويه — تجارب الامم

المسعودي — مروج الذهب ومعادن الجوهر

مصطفى مراد الدباغ — الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الاسلام
مصطفى نجيب — حماة الاسلام
المقدسي — احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
نهاد الغادري — التحدي الكبير
ياقوت — معجم البلدان
يعقوب الغنيم — كاظمة في الادب والتاريخ
اليعقوبي — تاريخ اليعقوبي
اليعقوبي — كتاب البلدان

مراجع اجنبية مترجمة الى اللغة العربية

ارنولد : توماس — « الدعوة الى الاسلام » ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي
بارتولد : ف. — « تاريخ الحضارة الاسلامية » ترجمة الدكتور حمزة طاهر
بانيكار : ك. م. — « آسيا والسيطرة الغربية » ترجمة عبد العزيز جاويش
بروكلمان : كارل — « تاريخ الشعوب الاسلامية » ترجمة الدكتور نبيه فارس ومنير بعلبكي
بيربي : ج. ج. — « جزيرة العرب » ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز
بيرين : جاكلين — « اكتشاف جزيرة العرب » ترجمة قدري قلعجي
حتي : فيليب — « تاريخ العرب » ترجمة الدكتور ادورد جرجي والدكتور جبرائيل جبور
حوراني : جورج فاضلو — « العرب والملاحة في المحيط الهندي » ترجمة الدكتور يعقوب بكر

ديكسون : زهرة	« الكويت كانت منزلي » ترجمة دار الكاتب العربي
ديكسون : هـ. ر. ب	« **الكويت وجاراتها** » ترجم باشراف جاسم مبارك الجاسم
سيتون : م. ل. وليمز	« بريطانيا والدول العربية » ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى
عطية : ادوار	« العرب » ترجمة محمد قنديل البقلي
غلوب : جون	« الفتوحات العربية الكبرى » ترجمة خيري حماد
فاليارس : آلان	« ابناء السندباد» ترجمة دار الكاتب العربي
فيني : دافيد. هـ.	« بترول الصحراء » ترجمة اسماعيل الناظر
كركوكلي : محمد رسول	« دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء » ترجمة موسى كاظم نورس
لونكريك : ستيفن	« اربعة قرون من تاريخ العراق » ترجمة جعفر الخياط
موريس : جيمس	«سلطان في عمان» ترجمة دار الكاتب العربي
ميشان : بنوا	« عبد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة » ترجمة عبد الفتاح ياسين
نفيس احمد	« جهود المسلمين في الجغرافيا » ترجمة فتحي عثمان
هامرتن : جون	« تاريخ العالم » ترجمة لفيف من المترجمين

مراجع أجنبية

Ameer Ali : Sayed	**A SHORT HISTORY OF THE SARACENS**
Berard : N.	**LA REVOLTE DE L'ASIE**
Berreby : J.J.	**LE GOLFE PERSIQUE**
Charaderme : A.	**LE CHEMIN DE FER DE BAGDAD**
Fontaine : Pierre	**LA GUERRE FROIDE DU PETROLE**

Furon : Raymond	**LE PROCHE-ORIENT**
Juan : René	**LE PETROLE, ROI DU MONDE**
Londres : Albert	**LES PECHEURS DE PERLES**
Lammens : S.J.	**L'ISLAM : CROYANCES ET INSTITUTIONS**
Marlowe : John	**THE PERSIAN GULF IN THE TWENTIETH CENTURY**
Monteil : Vincent	**LES ARABES**
Nicholson : A. Reynold	**LITERARY HISTORY OF THE ARABS**
Niebuhr : Karstr	**TRAVELS THROUGH ARABIA AND OTHER CONTRIES IN THE EST**
Owen : Roderic	**THE GOLDEN BUBBLE, ARABIAN GULF DOCUMENTARY**
Rondot : Pierre	**L'ISLAM ET LES MUSULMANS D'AUJOURD'HUI**
Rondot : Pierre	**DESTIN DU PROCHE-ORIENT**
Thomas : Bertram	**LES ARABES**
Vasseur : L.V.	**PETROLE ET GAZ NATUREL DANS LE MONDE**
Wilson : Arnold	**THE PERSIAN GULF**

الفهرس

صفحة

صفحة

الجزء الرابع : الخليج العربي في العصر الاموي

الجزء الخامس : الخليج العربي في العهد العباسي

الجزء السادس : الخليج العربي في دوامة الاستعمار العالمي

صفحة

في ميادين الثقافة، من المشروعات العظيمة، ما يستلزم من الصبر والجهد ويحتاج من التخطيط والتنظيم، ما لا نعرفه عادة إلا في المشروعات التعميرية الكبرى ـ سد عال أو متحف رحب أو كاتدرائية رائعة ـ وكتاب «الخليج العربي» الذي أصدرته «دار الكاتب العربي» واحد من المشروعات التعميرية الثقافية الضخمة، قام به أديب فرد بجهده وسهره وتنقيبه، وكان حرياً أن تقوم به دولة ترصد له الإمكانات والكفاءات الكثيرة.

ولا بدع فان مؤلف الكتاب الاستاذ قدري قلعجي، من رسل النهضة الادبية الحديثة، وقد مارس سائر الوان النشاط الفكري والحضاري منتجاً ومبدعاً، وكتابه «الخليج العربي» هو الثالث والثلاثون في سلسلة مؤلفاته التي تثقف عليها جيل بأسره.

... وهكذا يثبت قدري قلعجي انه عندما انصرف في السنوات الاخيرة الى الدراسات التاريخية، انما كسبه التاريخ ولم يخسره الأدب، لانه عرض احداث التاريخ عرضاً ممتعاً، وصور شخصياته تصويراً اخاذاً، وجلا غوامضه بشمول النظرة وصحة الرأي وعمق التحليل، وهو في الوقت نفسه لم يتنكر لشخصيته الأدبية الأصيلة، فكان القارىء يشعر على الدوام بتفردها وعمقها واستقلالها في التفكير والاحساس والاداء، وهو في رحلته الى العصور البعيدة والاجواء النائية لم يبتعد عن عصرنا، ولم يصدف عن مشاكلنا، ولم يتخل عن رسالة المحبة والبناء النابعة من فكرة المتحرر وضميره الحي.

ملحم كرم